رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين

أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه

إعداد وتقديم

أ.د. محمد الأمين بلغيث



رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين
الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه

إعداد وتنسيق

أ. د. محمد الأمين بلغيث

البصائر الجديدة

للنشر والتوزيع

الجزائر 1436هـ/2014م

الإيداع القانوني: 5422 ـ 2014

الردمك: 3 ـ 049 ـ 02 ـ 9931 ـ 978

البصائر الجديدة

للنشر والتوزيع

حي الدوزي 3 رقم 411 باب الزوار ـ الجزائر

الهاتف: 204520 21 00213/ 34 03 86 0554

البريد الإلكتروني: darelbassair@yahoo. fr

بسم الله الرحمن الرحيم

"إن ظروف الكتابة في الوسط الذي نعيش فيه لا يعترف بقيمة الكتابة، ولا يقدر المكتوب ولا الكاتب. ولذلك تجدنا نكتب بالأسنان والأظافر والأصابع المقطوعة والكراسي المبتورة، وإننا نسير رغم أنف التيار المعاكس. وليس لنا مكان نختلي فيه إلا المقابر، ولا منضدة نكتب عليها إلا الجماجم، ولا وسيلة نتشبث بها غير القنوط، فمن يظن أننا نكتب ما نكتب على مناضد الرخام، وأرائك الحرير فهو غر أو مغرور. إننا نمارس فن الكتابة كما يمارس (سيزيف) جر صخرته، [أو] كما عاش المتصوفون لحظة تعذيب النفس والبدن في سبيل الخلاص..... ".

من أقوال سعد الله الخالدة
جريدة (الجمهورية) بتاريخ 9 يونيو 1986م.


البصائر الجديدة

مقدمة الكتاب

أجمع كل من عرف شيخ المؤرخين الجزائريين سعد الله طيَّب الله ثراه أنه من طينة الكبار الذين رسموا لأنفسهم مسارًا جمع بين التعمق في جميع مجالات المعرفة الإنسانية وخبراتها المتعددة وتراكماتها عبر العصور، وبين اعتزاز شديد برموز وطنه العربي الإسلامي الكبير.

يعتبر مؤرخ الجزائر سعد الله رائدًا في تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى استقلال الجزائر وهذا ما أدرك قيمته كل من عرف معاناة المؤرخ طيلة أربعة عقود من الزمن التي استغرقتها عملية الجمع والتحرير والتنسيق ثم الطباعة والتوزيع للقسم الأكبر من عمل المؤرخ، ولم تتحقق الأمنية الغالية في أن يرى الهرم الأكبر والموسوعة العلمية مفخرة الأجيال عبر العصور، فقد غادر المؤرخ هذه الدنيا الفانية ولم يشاهد بقية العمل الخاص بتاريخ الجزائر الثقافي في العهد الإسلامي إلى غاية القرن الخامس عشر الميلادي، لكنه يعلم أن الأعمار بيد الله وأن أنفاسه محسوبة بالثانية لهذا كان يسارع الخطى من أجل إتمام مشروع العمر ليكمل بذلك بقية الأهرامات الخالدة التي بناها لوطنه الغالي الجزائر.

لقد أحببنا أخلاق ومسار وشخصية هذا المؤرخ والإنسان الذي سار على درب الصالحين من أمته، مدركًا قيمة الزمن مهما طال، وأهمية التدوين، لأنه هو من نبهنا أن أسلافنا، ـ أو **هذا الشعب "المعوان على الخير"** - يصنعون التاريخ ولا يحسنون كتابته وتدوينه، لهذا كتب سعد الله ما كتب ودوَّن ما استطاع تدوينه، لأنه هو الذي قال ذات مرة:"إن الجزائر رغم ما يقال عنها لا تتنكر لمن

أحبها ولمن عاش وعانى من أجلها، فالوطن يطلب من أبنائه الوفاء والتضحية ولكنه لن يضيع حقهم في المكانة اللائقة بهم في حوليات تاريخه وسجلات رموزه، إن هذه الجزائر الحبيبة عاشت بقيم وثوابت أخلص لها أجدادنا وكافحوا من أجلها وماتوا دونها، ولا يليق بجيلنا اليوم أن يتنكر لهم تحت أي عنوان أو مبرر، لقد رفض أجدادنا مغريات الاستعمار في الحصول على مواطنة مزيفة أو على جنسية مشوهة بجبرهم عن التخلي عن هويتهم [مثل قانون نابليون سنة 1865، ومشروع فيوليت سنة 1936، وقرار لجنة فرنسا الحرة سنة 1944....]، ذلك أن أجدادنا كانوا يعرفون أن وراء قبولهم تخليهم عن ثوابتهم المقدسة، وفي مقدمتها الدين الإسلامي واللغة العربية، نعم إن الإسلام هو الذي أعطى للجزائر اسمها ولونها وهويتها، وهو الذي أمد المجاهدين في جميع الثورات، ولا سيما ثورة نوفمبر بروح التضحية والفداء[1].

جاءت فكرة هذا الكتاب بعد رحيل المؤرخ البار بوطنه وتاريخه، فقد وطنت نفسي على جمع ما كتب أحباب سعد الله في مختلف الجرائد، وأردفت هذه المقالات ببعض الأعمال السابقة لأحباب سعد الله، وقد سبق الدكتور نجيب بن خيرة فنشر جانبًا كبيرًا من هذه المقالات التي نُشرت بمناسبة رحيل المؤرخ النزيه، لهذا وددت أن أقرب وأجمع هذه الأعمال في سفر واحد لعله يساعد في معرفة مختلف الرؤى التي نظرت إلى المؤرخ سعد الله رحمه الله.

---

(1) كلمة الدكتور أبو القاسم سعد الله في الندوة التكريمية، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة قسنطينة يومي 12 و13 جانفي 2004م. إعداد وتقديم وتصنيف عبد الكريم بوصفصاف، قسنطينة، مطبعة بغيجة، 2008م. ص: 27.

سيجد قارئ هذا الكتاب بعض الأعمال التي نُشرت هنا وهناك، فعذري أنني بادرت بالجمع ولكن سبقني إلى نشر بعض مقالات الكتاب الأستاذ "نجيب" فلعلي هنا تحديدًا أجد العذر في لازمة العرب "في الإعادة إفادة".

محمد الأمين بلغيث

الجزائر المحروسة 26 محرم 1436هـ/ 18 نوفمبر 2014م



1
من أجل أحفادنا

بقلم: أبو القاسم سعد الله

لقد اطلعت باهتمام على جهودكم من أجل إعادة الاعتبار للإنسان الجزائري، الذي عانى من إرهاق وعنصرية الاستعمار الفرنسي عبر قرن وربع، وأني كمواطن وكأستاذ في التاريخ أبارك جهودكم وأتمنى لها النجاح.

بهذه المناسبة أود أن أشير إلى أن تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري مليء بالشواهد على معاناة شعبنا من الجرائم التي ارتكبت في حقه. ومن الممكن ذكر بعضها فيما يلي:

1 . **الإبادة الجماعية**[1] : وقد وقعت في العديد من المناسبات نذكر منها [أ] مجزرة غار الظهرة 1845، حيث اختنق أثناءها بالدخان أكثر من ألف شخص في ذلك الغار على يدي الجنرال بيليسيي، عن عمند وسبق إصرار. [ب] مجزرة الزعاطشة 1849، التي احترقت بمن فيها من السكان عن طريق نسف المنازل، على يدي الجنرال [هيربيون]. [ج] إحراق القرى والمداشر بمن فيها من القبائل سنة 1857، سيما في ناحية الأربعاء نات إيراثن، وكذلك تخريب البيض سيدي الشيخ على سكانه خلال ثورة 1864. [د] إبادة جماعات كاملة من سكان سطيف

(1) لا أعرف لماذا لم يذكر شيخ المؤرخين مجزرة البليدة، ومجزر العوفية بضواحي الحراش عام 1832. ؟

وخراطة وقالمة سنة 1945.

2 ـ **النفي الجماعي**: تشهد السجلات على إجبار الجزائريين[رجالاً ونساءً]على مغادرة وطنهم والعيش في جزر نائية مثل سان مارغريت، وكالدونيا الجديدة، وكيان وغيرها.

وقد نفي آخرون، فطلبوا العيش في بلاد عربية وإسلامية مثل الإسكندرية والحجاز وبلاد الشام. وهناك من غيبته المنافي، فلم يسمح له بالرجوع إلى وطنه أبدًا. وهناك أطفال أُخِذوا كرهائن لإجبار آبائهم على الاستسلام مثل أولاد ابن رويلة، وابن علال إلخ... بعد حادثة الزمالة الشهيرة [1843].

3 ـ **مصادرة الأراضي والمنازل والممتلكات**: وذلك بالنسبة لمن دافع عن وطنه أو عائلته أو دينه. وهذه نقطة يمكن التوسع فيها، وعليها شواهد كثيرة، إذ أُعطيت الأراضي والممتلكات المصادرة إلى الأوروبيين المجلوبين بطريق الإغراء للعيش في الجزائر.

4 . **الحكم بالإعدام أو النفى أو بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة والغرامة الثقيلة**: على من دافع عن وطنه أو دينه أو عرضه. ولا سبيل إلى حصر حالات كهذه الآن، لكن يمكن ذكر مصير الشيخ بوزيان وابنه وأبي موسى الدرقاوي في الزعاطشة، ولالة فاطمة في بلاد القبائل، والشريف بوشوشة، وشريف ورقلة، والحاج الصادق في الأوراس.

5 ـ **الاعتداء على حرمات الموتى**: فقد ثبت أن مقابر المسلمين قد جرفتها الآلات وسويت بالأرض وأقيمت عليها طرق ومبان، مثل ما حدث في السنوات الأولى للاحتلال للمقبرة التي كانت في باب الواد. كما وقع نبش القبور

والتجارة بعظام الموتى مع عملاء بمرسيليا لصناعة المساحيق وأنواع من السكر.

6 ـ إن ذاكرة الشعب ما تزال واعية لما حدث أثناء الثورة التحريرية من تعذيب وتقتيل وخطف وحشد وتخريب للمنازل واعتداء على الحرمات. ويكفي الرجوع إلى الوثائق والشهادات الوطنية وإلى ما كتبه بعض الفرنسيين والأجانب لكي يعرف شعبنا حقوقه التي لا يمكن التفريط فيها.

7 ـ إن عسكريين من أمثال كلوزيل وبوجو وبيليسيي ويوسف وسان طارنو وكاروبيي [الذي أحرق نارة]وهيربيون، ثم دي غيدون، وبيجار، وماسو وسلان إلخ.، وكذلك فرقة اللفيف الأجنبي، ومنظمة الجيش السري وغيرهما ـ جدير بالجزائري ـ أن لا يتسامحوا معهم وأن لا ينسوا أفعلهم أبدًا، وأن يلتمسوا مل الطرق للحصول منهم على حقوقهم المعنوية والمادية.

*****

هذا عن الجرائم في حق الأفراد والجماعات، أما الجرائم في حق الدولة فتتمثل في الاعتداء على السيادة والاستيلاء على خزائنها وانتهاب ما فيها من أموال ومجوهرات، وعلى أملاك الجيش، من ثكنات وقلاع وحصون وسفن حربية وتجارية وذخائر وثروات. وهناك جرائم ضد مقدساتنا ومقوماتنا وأخلاقنا مثل:

أ ـ هدم المساجد والمؤسسات الدينية وتحويلها إلى أغراض دينية غير إسلامية أو إلى مصالح عسكرية وتجارية.

ب ـ الاستيلاء على الأوقاف [الأحباس] الإسلامية الكثيرة، التي كانت مصدرًا لنشر العلم وإعانة الفقراء وتوفير التكافل الاجتماعي.

ج ـ فرض التجهيل المقصود التي دامت عشرات السنين.

د ـ المعاملة غير الإنسانية بتسليط [قانون الأهالي] الاستثنائي.

هـ ـ إجبار الشباب على التجنيد في حروب دولية لا تخدم وطنهم في شئ.

و ـ نشر إرهاب "ثقافي" يعتمد على نظرية التفوق العنصري والإساءة إلى كل ما هو عربي من لغة وتراث وتاريخ وجنس، وإشاعة كلمات وتعابير بذيئة لوصف شعبنا مثل [البيكو] و[الراطون] و[الموكيرة].

ز ـ الاعتماد على سياسة"**فرق تسد**"في الهيمنة والتسلط على السكان.

ح ـ نهب الوثائق [الأرشيف] والمخطوطات الوطنية.

إن الشعب الذي يتسامح في حقه شعب بليد، فاقد للحس التاريخي، وحاشا شعبنا أن يكون كذلك. إني على يقين أنه حتى ولو تسامح جيلنا نحن الآن، فسيأتي جيل آخر، يطالب بهذا الحق كما يحاسبنا نحن الذين تسامحنا في حقه، وفي وقت يعد فيه التسامح بلادة وإهدارًا للوعي التاريخي، بل قد يكون خيانة.

فمن أجل الأبرياء الذين اختنقت أصواتهم في السجون والمنافي البعيدة، وهم في أحرِّ الشوق إلى ذويهم ووطنهم، ومن أجل المواطنين الذين استشهدوا دفاعًا عن الشرف والأرض والدين، ومن أجل الجزائريين الذين افتقروا بعد غنى وذلوا بعد عز نتيجة مشاركتهم في تحرير بلادهم خلال العهد الاستعماري، أضم صوتي إلى صوتكم وأضع يدي في يدكم وفي يد كل من يعمل على نشر الوعي بالحقوق المنسية بين المواطنين، حتى لا تحاسبنا الأجيال القادمة على أننا كنا جيلا بليدًا أو غبياً، أو فاقدًا للذاكرة التاريخية. "وما ضاع حق وراءه طالب".

أبو القاسم سعد الله

الجزائر في 13 جوان 1990م.

2
شيخ المؤرخين الجزائريين السيرة والمسيرة
[1930 /2013]

أ. د. أبو القاسم سعد الله من مواليد 1930م بضواحي قمار (وادي سوف)، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين... وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني.

له سجل علمي حافل بالإنجازات: من وظائف، ومؤلفات، وترجمات... وهذه السيرة الذاتية المفصلة، ننشرها بمناسبة تكريمه في معهد المناهج، عربونَ وفاء، ودليل حب وتقدير، لمن وهب عمره لخدمة العلم والمعرفة، حتى غدا قدوة لكل باحث، وعرف بلقب شيخ المؤرخين الجزائريين. **التعليم**،

• جامعة منيسوتا، قسم التاريخ (أمريكا)

• الماجستير AM 1962 الدكتوراه، PHD 1956 جامعة القاهرة (مصر)، كلية دار العلوم.

• إضافة إلى اللغة العربية، يتقن اللغة الفرنسية، والإنجليزية، ودرس الفارسية والألمانية.

التخصص.

• تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر.

• تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر.

• تاريخ النهضة الإسلامية الحديثة

• الدولة العثمانية منذ 1300م.

مواد قام بتدريسها منذ، 1996.

1. انتشار الإسلام إلى الوقت الحاضر.
2. تاريخ الأوقاف والنظم المتصلة بها.
3. تاريخ العالم المعاصر.
4. التاريخ المعاصر للعالم الإسلامي (من القرن 16 ـ 19).
5. تاريخ أوروبا الحديث.
6. تاريخ أوروبا في عصر النهضة.
7. التطور الفكري في المجتمعات الإسلامية الحديثة (لطلبة الدراسات العليا).
8. تطور ملكية الأرض والضرائب في العالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
9. التغلغل الأوروبي في العالم الإسلامي الحديث 1800 ـ 1920م.
10. التنظيمات الأهلية والحركات العامة المؤثرة في المجتمعات الإسلامية.
11. الحج والرحلة في العالم الإسلامي.
12. الحركات الاستقلالية والتحرر الوطني في العالم الإسلامي الحديث.
13. الحركة الإصلاحية في الدول الإسلامية الحديثة. (لطلبة الدراسات العليا).
14. دراسات نقدية للمصادر الأصلية والوثائق الحديثة للعالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
15. الدول الإسلامية الحديثة (القرون 16 ـ 19م)

16. العلاقات الخارجية للعالم الإسلامي إلى القرن 18م.
17. الفرق والمذاهب الإسلامية.
18. المؤسسة العسكرية في التاريخ الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).
19. مدخل إلى التاريخ الإسلامي.
20. ملكية الأرض والاستثمار في العصر الإسلامي (القسم الثاني)، من القرن 13 إلى 20.
21. مناهج البحث الحديث في التاريخ (لطلبة الدراسات العليا).
22. النهضة الإسلامية الحديثة، 1800 ـ 1924م.

الوظائف العلمية والإدارية،

ـ أستاذ التاريخ، جامعة آل البيت الأردن، 1996 ـ 2002م.
ـ أستاذ التاريخ، جامعة الجزائر منذ 1971م.
ـ أستاذ مشارك في التاريخ، جامعة الجزائر 1967 ـ 1971م.
ـ أستاذ مساعد في التاريخ، جامعة ويسكنسن، أوكلير (أمريكا) 1960 ـ 1976م.
ـ وكيل كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1968 ـ 1972م.
ـ رئيس قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الجزائر 1969 ـ 1971م.
ـ أستاذ زائر، جامعة منيسوتا، أمريكا قسم التاريخ، 1994 ـ 1996، 2001م.
ـ جامعة ميشيقان (أمريكا) 1987 ـ 1988م، دورات متوالية سنوية.
ـ جامعة الملك عبد العزيز (السعودية) قسم التاريخ، 1985م.
ـ جامعة دمشق (سورية) 1977م.

ـ جامعة عين شمس (مصر) 1976م.

معهد البحوث والدراسات العربية (مصر) 1970، 1975، 1989م. تقدير وتشريف، منح (وسام المقاوم) على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية، الجزائر 1984م. كرمه رئيس الجمهورية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر 1987م. ضيف الشرف عند توزيع جوائز الدولة التقديرية، السعودية، الرياض، 1984م. الرئيس الشرفي لاتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1989م. منح جائزة الإمام عبد الحميد بن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجودة في لندن 1991م.

منحة فولبرايت (Fulbright) كأستاذ باحث، جامعة منيسوتا، 1993 ـ 1994م.

كُرِّم من طرف نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية، في مدرج جامعة الجزائر، 04 يوليو، 1969م. كرمه أدباء وهران، ربيع 1987م ضيف شرف في احتفال الجنادرية الثقافي (السعودية) سنة 1992م.

أعمال مهداة إلى شيخ المؤرخين:

أولا/ دراسات وشهادات، كتاب تكريم وتقدير مهدى إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، تحرير أ. د. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000م (ساهم في إعداده مجموعة من الأساتذة).

ثانيًّا: الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في

ميزان الباحثين الجامعيين، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة قسنطينة يومي 12 و13 جانفي 2004م. إعداد وتقديم وتصنيف عبد الكريم بوصفصاف، قسنطينة، مطبعة بغيجة، 2008م.

ثالثًا/ أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، إعداد الدكتور نجيب بن خيرة، الجزائر، عالم المعرفة 2014م

رابعًا/ رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد بأقلام أحبابه، إعداد وتنسيق محمد الأمين بلغيث، الجزائر، البصائر الجديدة ديسمبر 2014م.

خامسًا: صدور العدد الخاص بحياة وآثار شيخ المؤرخين الجزائريين من مجلة عصور جديدة مختبر مصادر وتراجم، وهران 2014م.

سادسًا: صدور أربعينية فقيد المدرسة التاريخية الجزائرية التي قامت على تنظيمها وإعدادها للنشر دار الثقافة بالوادي، 2014م.

سابعًا/ نظمت ملتقيات وندوات وأيام دراسية عديدة بالجزائر، سيدي بلعباس، قسنطينة، وغيرها من الحواضر والنوادي والمؤسسات الجامعية. من أجل التذكير بشخصية مؤرخ الأجيال، وشيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله في الخالدين.

المؤتمرات والمحاضرات:

1. تاريخ وحضارة المغرب العربي، تونس 1974م.
2. مصادر تاريخ الجزيرة العربية الرياض 1977م.

3. الحياة الاجتماعية والثقافية للدولة العثمانية تونس 1986م.
4. الذكرى الخمسينية لإنشاء نجم إفريقية الشمالية باريس 1987م.
5. تاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1988م.
6. كتاب المغرب العربي طرابلس 1969
7. اتحاد الكتاب العرب دمشق 1971م
8. اتحاد الكتاب العرب تونس 1973م، 1990م.
9. التراث الفلسطيني القاهرة 1989م.
10. مؤتمرات المستشرقين الأمريكيين في سان فرنسيسكو 1966، ميشيغان 1978م كارولينا الشمالية 1993م، أريزونا 1994م.
11. المؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1990م
12. محاضرة عن إشكالية الكتابة التاريخية بجامعة الجزائر في 02/ 04/ 1990م.
13. مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1989م
14. محاضرة عن جمعية العلماء والسياسة، في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة 24 يناير 1990م.
15. ندوة أسبوع المغرب العربي، تنظيم رابطة الطلاب الإسلاميين بفرنسا باريس 28 أكتوبر 1991م.
16. محاضرة في سيمنار قسم التاريخ، جامعة آل البيت، نساء أوروبيات في مواجهة مجتمع عربي، خريف 1996م.
17. محاضرة في جامعة اليرموك بدعوة من قسم التاريخ عن الاستعمار والاندماج في الجزائر شتاء 1996م.
18. كيف تعلم الفرنسيون اللغة العربية في الجزائر، محاضرة في سيمنار

قسم التاريخ، جامعة آل البيت (الأردن) خريف 1997م.

19. محاضرة عن العنصرية عند افتتاح السنة الدراسية الجامعية بالجزائر بدعوة من رئاسة الجامعة في 05/ 10/ 1986.

20. الملتقى الثاني للثورة الجزائرية باتنة 11 ـ 14 نوفمبر 1990م

21. محاضرة عن الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو، بدعوة من اللجنة الثقافية لاتحاد طلبة المغرب العربي في القاهرة، في نادي طلبة المغرب العربي مارس 1960م.

22. محاضرتان في مسقط (عمان) خلال رمضان 1422هـ/ 2001م، بدعوة من وزارة الأوقاف العمانية.

23. ندوة خير الدين باشا التونسي تونس 1995م.

24. محاضرة في جامعة الجزائر، بمناسبة ذكرى الأمير عبد القادر، 04 مايو 1983م.

25. محاضرة عن الثورة الجزائرية في ذكراها الثالثة، في نادي طلبة المغرب العربي بالقاهرة، نوفمبر 1957م.

26. محاضرة في جامعة الجزائر عن قيمة التاريخ، بدعوة من قسم الفلسفة 29/ 12/ 1987م.

27. ملتقى نجم شمال إفريقيا، بدعوة من المركز الثقافي الجزائري بباريس فبراير 1987م.

28. محاضرة عن نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، جامعة الجزائر ربيع 1987م.

29. محاضرة عن تاريخ العلوم في الجزائر خلال العهد العثماني، المدرسة الوطنية العليا للأساتذة ديسمبر 1986م.

30. المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة الجزائرية الجزائر 1981م.
31. ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، تنظيم جامعة آل البيت والسفارة الجزائرية بعمان مايو 2001م.
32. الملتقى العماني الأول بإشراف جامعة آل البيت والسفارة العمانية في عمان سنة 2000م.
33. ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، تنظيم جامعة آل البيت، سنة 1999.
34. أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته تونس 1974م.
35. الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض 1977م.
36. الملتقى الثقافي الثاني عن أدب السيرة والمذكرات في الأردن جامعة آل البيت مايو 1998م.
37. ندوة عن الثورة في العالم الثالث، جامعة ويسكنسن، أوكلير، أمريكا، 1967.
38. الملتقى العلمي حول الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في اليمن إشراف جامعة آل البيت والسفارة اليمنية في عمان ربيع 2000م.
39. محاضرة عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سمنار معهد لوثر مينيابلوس (أمريكا) 1996م
40. محاضرة عن الجزائر في منتدى جامعة هاملين مينيابولس (أمريكا) 1994م.
41. محاضرة في جامعة الجزائر عن النيقريتود أو الزنوجة 1968م.
42. محاضرة عن معنى التاريخ في جامعة الجزائر 29/ 12/ 1987م
43. محاضرة عن الجزائر والقومية العربية جامعة الجزائر 1966م

النشاط الأكاديمي:

عدة مرات مبعوثا من وزارة التعليم العالي الجزائرية إلى الجامعات العربية في مصر، وسورية والعراق لتوظيف الأساتذة.

ممثل جامعة الجزائر في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية الكويت 1971م

عضو لجنة إصلاح التعليم العالي ـ الجزائر 1972 ـ 1974م

عضو اللجنة الوطنية للتعريب، الجزائر 1970 ـ 1973م.

عضو اللجنة العلمية للكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، إشراف المنظمة العربية، ALECSO منذ 1998م.

محرر المجلد الخامس من الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، ALECSO منذ 1998م.

كتابة مداخل عديدة في موسوعة العلماء العرب والمسلمين، المنظمة العربية ALECSO.

عضو هيئة تحرير مجلة (المنار) المحكمة، جامعة آل البيت، الأردن منذ 1997م.

رئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية الجزائر 1990 ـ 1993م.

رئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ، في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية الجزائر 1990 ـ 1993م.

الإشراف على مجموعة من رسائل الدكتوراه والماجستير والمشاركة في مناقشاتها في الجزائر والأردن وأمريكا والسعودية.

عضو معتمد في الإشراف على الأطروحات من الجامعة الإسلامية العالمية ـ لندن ـ.

عضو مجمع اللغة العربية القاهرة منذ 1989م.

عضو مجمع اللغة العربية دمشق منذ 1990م

رئيس المجلس العلمي لدائرة التاريخ ثم معهد التاريخ بالجزائر سنوات 1972 ـ 1980 ـ 1984 ـ 1986 ـ 1993م.

عضو المجلس الوطني للبحث العلمي، الجزائر 1992م

عضو مجلس البحث العلمي لجامعة آل البيت (الأردن) منذ 1998م

تنشيط ندوة الأساتذة الثقافية بجامعة الجزائر، 1967 ـ 1968م

إدارة ندوة حول التعريب في الجزائر اشترك فيها مجموعة من الأساتذة في المنهل السعودية أغسطس 1990م.

المؤلفات:

التحقيق

1. تاريخ العدواني، تأليف محمد بن عمر العدواني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.
2. حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تأليف الأمير مصطفى بن إبراهيم باشا، ط2، الجزائر، 1982م.

3. رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية، الجزائر 1982م.

4. رسالة الغريب إلى الحبيب، تأليف أحمد بن أبي عصيدة البجائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

5. مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1991م.

6. منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تأليف عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

الترجمة

شعوب وقوميات الجزائر 1985م (Peoples and Nationalisms)

الجزائر وأوربا، تأليف جون ب. وولف John B. Wolf الجزائر، 1986م

الجزائر في العهد العثماني Algiers Under the Turks .

حياة الأمير عبد القادر، تأليف هنري تشرشل CH. H. Churchill ط2، الجزائر تونس 1982م، (The Life of Abdelkhader) التاريخ،

تاريخ الجزائر الثقافي، في 9أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، في أربعة أجزاء، صدر في سنوات مختلفة، آخرها سنة 1993م، 1996م دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الحركة الوطنية الجزائرية، في ثلاثة أجزاء، صدر الأول منها سنة 1969م، وصدرت الأجزاء الأخرى سنة 1992م، 1997م عن دار الغرب الإسلامي، بيروت.

محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط1، مصر، 1970م، ط3، الجزائر، 1982م.

la Montée du Nationalisme Algérien.

وهو ترجمة من الإنكليزية إلى الفرنسية لأطروحة المؤلف (ظهور الحركة الوطنية الجزائرية)، ط2، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1985م.

أعلام ودراسات

1. رائد التجديد الإسلامي، ابن العنابي،، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

2. شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة، عدة طبعات، مصر وتونس وليبيا، آخرها عن الدار العربية للكتاب، 1984م.

3. شيخ الإسلام داعية السلفية، عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

4. الطبيب الرحالة، ابن حمادوش، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.

5. القاضي الأديب، الشاذلي الفلسطيني، ط2، الشركة الوطنية، الجزائر، 1984م.

إبداعات وتأملات

1. أفكار جامحة، الجزائر، 1988م.
2. تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986م.
3. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، عدة طباعات، أولها في دار الآداب، بيروت، 1966م وآخرها الدار التونسية النشر، 1985م.
4. الزمن الأخضر ـ ديوان سعد الله، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1985م.
5. سعفة خضراء (قصص)، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986م.
6. في الجدل الثقافي، دار المعارف، تونس، 1993م.
7. قضايا شائكة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989م.
8. منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982م.
9. هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، 1993م.

البحوث

1. المترجمون الجزائريون وإفريقيا، بحث نشر في الثقافة 113، 1996م.
2. أول بيان فرنسي إلى الجزائريين، في مجلة المعرفة 17 مارس 1960م.
3. العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776 ـ 1830، في مجلة المعرفة 15 سبتمبر أكتوبر 1964م، نوفمبر 1964م.

4. العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي 1776 ـ 1816، في مجلة المجاهد الثقافي 9، 1969م ترجمها السيد كاوش إلى الفرنسية ونشرتها الجمهورية (وهران) 17 يناير 1970م.

5. المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للأوروبيين، في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 64 مايو 1989 ونشرتها الشعب في حلقات أولها، مايو 1989م.

6. صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر، ورقة لندوة خير الدين باشا التونسي تونس خريف 1990م.

7. رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش (القرن 18م)، ورقة للمؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية، الجزائر ديسمبر 1990م نشرت في وقائع المؤتمر . 8. آخر الأعيان أو نهاية الارستقراطية العربية في الجزائر، في مجلة المنارة 2، 1997م. 9. تقريظ للمفتي أحمد بن عمارة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني.

10. الثورة الجزائرية، في مجلة الآداب، الآداب، ديسمبر 1977م.

11. أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة، الثقافة 51، 1979م.

12. إجازة أحمد بن عمارة لمحمد خليل المرادي، الثقافة 45، 1978م.

13. قصيدة سياسية لابن ميمون، في الثقافة 51، 1973م.

14. قصيدة في رثاء المفتي مصطفى الكبابطي، الثقافة 44، 1978م.

15. بين ابن شنب ومحمد كرد علي، الثقافة 53، 1979م.

16. مقامة لأحمد البوني (إعلام الأحبار)، الثقافة 58، 1980م.

17. الشاعر المفتي ابن الشاهد واحتلال الجزائر، الثقافة 61، 1981م.

18. قضية تقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843م، في مجلة عالم الفكر (الكويت)، 16، 1985م.

19. عريضة الأمير خالد إلى الرئيس ويلسون W. Wilson سنة 1919م، في مجلة التاريخ نصف السنة الثاني 1981م.

20. أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سبتمبر 1954م، في مجلة التاريخ نصف السنة الثاني 1980م.

21. العثور على النسخة المسروقة من مخطوط تحفة الزائر، في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق 1984م.

22. مشروع كتاب تاريخ زواوة لأبي يعلى الزواوي، في المجلة التاريخية المغربية 27 ـ 28، 1982م.

23. رحلة في سورية منسوبة إلى الأمير عبد القادر سنة 1880، في مجلة التاريخ النصف الثاني 1983م.

24. مؤلفات أبي حامد المشرفي المعسكري، في مجلة الثقافة (عدد خاص بالأمير عبد القادر) 75، 1983م.

25. دراسة اجتماعية من دفتر محكمة المدية أواخر العهد العثماني 1821، 1839م، في الثقافة، 81، 1984م.

26. الحملة الفرنسية على مصر والشام في رأي المؤرخ أبي راس الناصر، في

المجلة التاريخية المغربية، 21 ـ 22، 1981م.

27. في النشاط العسكري والسياسي والتجاري للجزائر خلال القرن الثامن عشر، في المجلة التاريخية المغربية، 33 ـ 34، 1984م.

28. من أخبار شعبان باشا داي الجزائر، سنة 1695م، من كتاب الشهب المحرقة لمصطفى برناز.

29. وثيقة عن التجانية وبوعمامة والفرنسيين، في مجلة أول نوفمبر، 50، 1981م.

30. وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني، في المجلة التاريخية المغربية، 17 ـ 18، 1980م.

31. كتاب ري الغليل، مخطوط لرحالة ليبي، في مجلة البحوث التاريخية (ليبيا)، 2 1979م.

32. العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينيات، في قائع ندوة نجم شمال إفريقيا، باريس 1987، وأيضا في مجلة الفيصل (السعودية) 28 ذي الحجة، 1408هـ.

33. الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية الفرنسية، 1933 ـ 1940م، في ندوة الذكرى الخمسين لتأسيس دار الحديث، سبتمبر 1987م، في مجلة الثقافة؟

34. صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية، 1951 ـ 1956، ورقة لندوة محمد الخامس، الرباط، نوفمبر 1987م، لم يتم السفر ولكن الورقة أرسلت وقرئت في الندوة، ونشرت في وقائعها.

35. معركة غوط شيكة بوادي سوف، شهر أوت 1955م، في مجلة أول نوفمبر، 84، 1987م.

36. نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، في الشعب، 22 مارس 1987م.

37. بعض الممارسات العلمية في الجزائر في عصر التخلف العلمي (القرن 15 ـ 18)، ورقة للملتقى الدولي لتاريخ الرياضيات عند العرب، تنظيم المدرسة الوطنية العليا للأساتذة، ديسمبر 1986م، في وقائع الملتقى مع ترجمة فرنسية.

38. بين علماء الجزائر وعلماء اسطانبول، ورقة لملتقى حقيقة الوجود العثماني بجامعة قسنطينة (الجزائر) إبريل 1988م.

39. الجديد عن كتاب (كعبة الطائفين) أو الجزائر في القرن 17م، ورقة لملتقى الحضارة الإسلامية تلمسان جوان 1987م.

40. بين ابن خميس وابن هدية من مخطوط العلق النفيس، ورقة للمساهمة بها في ملتقى لابن رشيق، تنظيم اتحاد كتاب تونس والجزائر في القيروان، إبريل 1987م.

41. رسالة من الشيخ العنتري القسنطيني إلى المترجم الفرنسي شارل فيرو Ch. Feraud، في مجلة الدراسات التاريخية، 1، 1986م.

42. من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي، (التاسع عشر) في مجلة الرسالة (حلقات) 1987م.

43. منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، في مجلة الأصالة، 14 ـ 15، 1973م.

44. الأستاذ جوليان Julien ،Ch. A والتاريخ الجزائري، في مجلة المعرفة، 19، 1965م.

45. مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي، أبو راس الناصر، ورقة لندوة الجبرتي، القاهرة 1974 ونشرت في وقائع الندوة، القاهرة، 1976م، وفي مجلة تاريخ وحضارة المغرب، 12، 1974م.

46. وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب (1914 ـ 1924)، في المجلة التاريخية المغربية 1، 1974م.

47. بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني 1518 ـ 1830م، في بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، إسطانبول، 2000 وفي جريدة البصائر أعداد يناير 2002م.

48. أشعار ومقامات ابن حمادوش، في الثقافة 49، 1979م.

49. مساهمة بعض الجزائريين في الحضارة الإسلامية، ورقة لمؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972م، وهي منشورة مع المناقشة في وقائع المؤتمر.

50. أثر الجزائر في الأدب الأمريكي، في مجلة الثقافة، 86، مارس ـ إبريل 1985م.

51. رسالة الثعالبي في الجهاد، نشرت ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، بمناسبة ذكرى وفاة الأستاذ الدكتور أحمد فكري، الإسكندرية، 1976م، نشرت في وقائع الندوة سنة 1983م.

52. عبد الرزاق بن حمادوش ورحلته، ورقة للمؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، تونس في 24 ـ 29 ديسمبر 1974م. نشرت في وقائع أشغال

المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ومنشورات الجامعة التونسية ج2، تونس 1974م. منشور أيضا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 5، أبريل 1975م.

53. الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830م، في مجلة الجيش أكتوبر، نوفمبر 1970م.

54. وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة منيسوتا، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 4، 1988م.

55. الرحلات الجزائرية الحجازية، نشرت بالعربية والإنجليزية في وقائع الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض 1978م.

56. الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية، في الشعب، أول نوفمبر، 1981م، ومجلة أول نوفمبر في نفس الشهر، وترجمتها المجاهد اليومية (النسخة الفرنسية) ونشرتها في حلقات أولها، 10/ 11/ 1981م.

57. مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي (1830 ـ 1954م)، في مجلة الثقافة 79، فبراير 1984م، وفي مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 09، 1978م، القاهرة.

58. مظاهر الحضارة الغربية في مذكرات مالك بن نبي، ضمن كتاب أدب السيرة والمذكرات في الأردن، منشورات جامعة آل البيت 1999م.

59. الشرق والغرب في ثقافة الجزائر الحديثة، في وقائع ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، منشورات جامعة آل البيت، الأردن 2002م.

60. وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين، فصل في كتاب المدخل إلى التاريخ الإسلامي، منشورات جامعة آل البيت الأردن 2001م.

61. صورة مدينة الجزائر في القرن السادس عشر، في وقائع ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، منشورات جامعة آل البيت 2001م.

62. قضايا القدس في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية Revue du monde Musulman، في مجلة البيان، جامعة آل البيت سنة 1998م.

63. أدب الرحلة عند المغاربة، ضمن كتاب تاريخ العرب الحديث، منشورات جامعة آل البيت 1997م.

64. نصوص تاريخية عن الثورة العربية في الحجاز، مترجمة ومحققة من مجلة العالم الإسلامي الفرنسية Revue du Monde Musulman في مجلة الندوة (الأردن) 2000م.

65. فرنسيان في الحجاز في القرن التاسع عشر (ليون روش وجيرفي كورتيلمون)، في مجلة المنهل (السعودية)، أغسطس 1996م، أعادت نشرها البصائر (الجزائر) في عدة حلقات ديسمبر 2001م.

66. ثلاث نساء أوروبيات في مواجهات مجتمع عربي (حالة الجزائر): في مجلة البيان، 4 جامعة آل البيت 1998م.

67. مع الرحالة العياشي في رحلته إلى القدس، في مجلة التاريخ (أبو ظبي) 2000م.

68. التصريحات الفرنسية المؤيدة للصهيونية خلال الحرب العالمية الأولى، في مجلة التاريخ (أبو ظبي) 2000م.

69. الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية، في كتاب أوراق في التاريخ والأدب، المهدىٰ إلىٰ الدكتور نقولا زيادة لندن 1992م.

70. سليمان الباروني أضواء وملاحظات، في مجلة الثقافة، 110 ـ 111، 1995م.

71. الأديب المصلح، محمد المولود الزريبي، 1887 ـ 1925م، أرسل من أمريكا إلىٰ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1994م.

72. مجاهد من نوع آخر، حياة الشيخ عبد القادر الياجوري، الثقافة، نوفمبر ـ فبراير 1995م.

73. مولود قاسم، ظاهرة فذة، في كتاب رمز كفاح أمة دار الأمة الجزائر 1993م.

74. كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة تأليف الألبيري، في مجلة كلية الآداب (الجزائر) 2، 1972م.

75. تأثير دعوة "مجلة المنار" والشيخ رشيد رضا في المغرب العربي، ورقة في ذكرىٰ الشيخ رشيد رضا، عقدت في جامعة آل البيت بالتنسيق مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، صيف 1999م، قرئت في غيابي نشرت في وقائع الندوة.

76. قصيدة عربية منسية عن الثورة الجزائرية (للشاعر الحوماني) في الشعب 23/ 02/ 1986م.

77. الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري حسب مخطوط (كعبة الطائفين) في المجلة التاريخية المغربية، 7 ـ 8 يناير 1978م.

78. التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، مجلة مجمع

اللغة العربية القاهرة ج83، نوفمبر 1998م.

79. تصميم للشعر الجزائري الحديث، في مجلة الآداب، 12، 1957م.

80. الغزل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب، 5، 1958م.

81. شخصية البطل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب 5، 1959م.

82. محاولاتنا في النقد الأدبي، في مجلة الآداب، 9، 1960م.

83. رضا حوحو ونضال الكلمة، في مجلة الآداب 12، 1960م.

84. الجزائر في مؤلف انجليزي قديم، 1731م، في مجلة الأصالة 8، 1972م. ونشر أيضا في كتاب عبد الرحمان الجيلالي (تاريخ المدن الثلاث، الجزائر ومليانة، والمدية) الجزائر 1973م.

85. الاستيطان والاندماج في الجزائر، في مجلة الندوة 2، 1997م.

86. الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته، في مجلة الرسالة (العراق) 5ـ6 1960م.

87. رحلة البجائي إلى الحجاز في القرن 9/ 15، في مجلة العرب (السعودية) أكتوبر ـ نوفمبر 1990م.

المقالات

1. أخبار الحاج ديكارت، في الشعب 8/ 6/ 1989م.
2. الأدب الجزائري الحديث، في المجاهد الثقافي، فصيلة 1968م.
3. أرض الملاحم، في مجلة الآداب، 4، 1954م.
4. أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي، في مجلة الآداب، 1966م.

5. أشباه الرجال، في الشعب، 11 يوليو 1982
6. إشكالية الكتابة التاريخية، في الشعب 31 مارس 1991م.
7. الأفعول في الحميرية والبربرية، في الشعب، 15 يونيو، 1989م.
8. انجلز واحتلال الجزائر، أرسلت سنة 1967م من أمريكا

آخر مشاريع سعد الله المخطوطة

بلغني من مصادر متنوعة أن المؤرخ سعد الله رحمه الله قد ترك في حوزة أحد أصفيائه ما يلي:

أولا/ ما يقارب ثلاث مجلدات [مجلدان كبيران على أكثر تقدير]خاصة بتاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس عشر. [عند ناشر أعمال سعد الله، عالم المعرفة الجزائرية]

ثانيًا: المجلدات المتبقية من مسار قلم[السابع تحت الطبع] وقال المؤلف نفسه إذا التحق صاحب هذه اليوميات بربه فقد تبلغ أثناء طبعها وإعدادها عشر مجلدات، أي أن المخطوط مع السابع أربع مجلدات.

ثالثًا: القسم الأول من مذكرات شيخ المؤرخين رحمه الله.

رابعًا: تحقيق النسخة المسروقة من تحفة الزائر.

أعَدَّ السيرة والمسيرة منسق الكتاب

3

كلمة عرفان وتقدير لفقيد الجزائر الدكتور أبو القاسم سعد الله

الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الجزائر

تبوأ الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله مكانته الخاصة باعتباره مؤرخا أصيلا وكاتبا مبدعا، فله الزاد المعرفي الوفير والأسلوب اللغوي المعبر السليم البليغ، كما أن له منهجه المميز وطريقته الخاصة التي يعبر بها عن أفكاره، فضلا عن تفرده عن كثير من المؤرخين الجزائريين بابتعاده عن الأضواء وتحصنه وراء قناعاته الخاصة ورؤيته الذاتية؛ كتب التاريخ وحلل الوثائق وعبر عن فهمه للماضي وتقييمه لنتائجه انطلاقا من حصيلة قراءاته وأبحاثه، فجمع في تكوينه بين الثقافة الأدبية الرصينة والمعرفة التاريخية الواسعة، فانعكس ذلك على إسهاماته، والتي توزعت بين تأليف وترجمة وتحقيق وتعليق، كما حافظ على أخلاقيات العالم ورسالة المؤرخ، فنأى بنفسه عن جمهور الكتاب المناضلين والمثقفين الموسميين، ولم يحاول أن يعرض ذاته على مسرح الاستعراض الثقافي حيث تسود الشعارات الوطنية الجياشة والعبارات النضالية الدنكيشوتية الرنانة التي تبعد المؤرخ عن مجالس البحث وحلقات الدرس وتدفع به إلى سوق مزايدات عرابي الثقافة ومنشطي المهرجانات.

قد يلاحظ على الأستاذ الدكتور سعد الله زهده وابتعاده عن الأضواء وتواضعه العلمي، وقد يفسر هذا بتربيته الدينية وتجربته الشخصية ونظرته

للحياة، لكن احترامه لنفسه واعتزازه بمهمته العلمية وإيمانه برسالته جعلته لا يتردد في إبداء آرائه وتسجيل مواقفه وتحديد رؤيته لقضايا الساعة وهموم الجزائر والعالم الإسلامي، وأسست لمكانته الفكرية والأدبية وجعلت رأيه مرجحا في المسائل الثقافية والمنطلقات الحضارية للتاريخ الجزائري، إن قارئ تاريخ الجزائر تأخذ أنفاسه ويجد نفسه منبهرا أمام الكم الهائل وراء كم هائل من المعلومات التاريخية وإنتاج غزير من الإسهام التاريخي والتراث الثقافي للأستاذ الدكتور سعد الله، وهذا ما يطرح على القارئ إشكالية الكم والنوع اللذين غالبا ما يكون أحدهما على حساب الآخر، لكن مواظبة الأستاذ الدكتور سعد الله واهتمامه البالغ بكل ما ينتجه ومراجعته الدقيقة لكل ما يكتبه سمح له أن يجمع بين الكم والنوع؛ على أن إشكالية الكم والنوع عند الأستاذ الدكتور سعد الله لا تعود إلى إنتاجه ومضمون مساهمته وإنما تكمن في نوعية جمهوره الواسع من القراء والتقاليد الثقافية السائدة في المجتمع، فهو يتعامل مع وسط يرفض القراءة المعمقة والمتواصلة ويميل إلى الثقافة الشفوية المعتمدة على الكلام الذي يلقى في المحاضرات واللقاءات والندوات والنقاشات، حيث يمكن عرض البضاعة الجاهزة وإصدار الأحكام الذاتية، في مقابل ذلك فإن الأستاذ الدكتور سعد الله كان النموذج المعاكس للمثقف الجزائري الذي يتكلم كثيرا ولا يقرأ إلا قليلا، فقد أسس بجهوده وعطائه العلمي لمكتبة جزائرية لا تتأثر بانتكاسات الماضي وإنما تتطلع لمستقبل يولد فيه جيل سوف تربيه المدرسة الجزائرية وتفرضه الساحة الثقافية، ووضع الأستاذ الدكتور سعد الله لهذا الجيل لبنات يبني عليها وإسهاما يعتمد عليه، وروض الساحة الجزائرية على أن تتقبل الثقافة العربية وتتمثلها.

إن المسيرة الثقافية والمساهمة التاريخية للدكتور سعد الله تفسران بل توضحان إلى

حد كبير أسلوبه في الكتابة وطريقته في التعبير، وتفصحان عن قناعاته وتوجهاته الفكرية وطريقته المنهجية. لقد بدأ الأستاذ الدكتور سعد الله حياته العلمية أديبا متذوقا للأدب لينهيها مؤرخا مسجلا للأحداث ومعلقا عليها وناقدا لها، فحمل في ضميره المشروع الإصلاحي الذي مثلته جمعية العلماء، وتفاعل مع زخم الثورة وطموحاتها، وعاش واقع جزائر الاستقلال بنجاحها وفشلها. إن مسيرة الأستاذ الدكتور سعد الله تتقاطع في كثير من محطاتها مع توجهات المجتمع الجزائري، حيث شكلت مراحل متعاقبة ومتداخلة تحتاج إلى دراسة نقدية آركيولوجية حسب تعبير علماء الاجتماع والإثنوغرافيا، لأن دراسة الظاهر من خلال الباطن أضمن وسيلة للتعرف على المكونات الخفية المشكلة لمنهجيته والمؤثرة في توجهاته والمحددة لشخصيته، سواء في مرحلة تكوينه الأولى أو تحصيله الثانوي أو دراسته الجامعية أو عمله الأكاديمي أو انشغالاته الذاتية، وهذا ما ينتظر أن تهتم به الدراسات النقدية لإسهام ومنهج الأستاذ الدكتور سعد الله لأنه في حد ذاته مدرسة تاريخية وإسهام تراثي فرض نفسه على الساحة الثقافية الجزائرية، فهو مع اختصاصه الأكاديمي يعتبر من الكتاب الموسوعيين الذين أغنوا المكتبة الجزائرية بإسهام غني ومتنوع يتصل بتراث الجزائر وعطائها الفكري وحياتها السياسية والثقافية، جمع بين التحقيق والترجمة والتأليف والتعليق، وهو في مجمله يعبر بصدق عن اهتماماته الشخصية وميوله الثقافية وتوجهاته الفكرية التي تحتاج إلى دراسات نقدية وتحليلية للتعرف على مميزات مضمونها المعرفي وخصائص مواصفاتها المنهجية. وإذا جاز لنا أن نعلق على إسهام الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله من حيث نوعية موضوعاته وأساليب منهجه وخصوصيته توجهاته واهتماماته، فإننا نلمس فيه مواصفات قلما تتكرر في غيره، فهو يحاول الالتزام بالموضوعية والأمانة في تسجيل الحدث أو التعليق عليه،

وإن كان في ذلك ينحو منحا معتدلا ومنهجا إصلاحيا إن لم يكن تربويا، ويأخذ بعين الاعتبار المنطقية والعلمية في تقييم الأحداث وإبداء الملاحظات والتعليق، وقلما يفصح عن موقف محدد أو رأي شخصي حتى لا يؤثر على القارئ وحتى لا يصبح طرفا في القضية التي يعرضها، وهو في ذلك يعتبر الدقة والتحري وتقصي الحدث أهم مستوجبات الباحث ومتطلبات المؤرخ. إن تجنب الأستاذ الدكتور سعد الله تحديد مفهوم خاص به ولو في إطار قناعات الفكر الإصلاحي القائم على توظيف مفهوم الجدلية التاريخية في تفسير قضايا التاريخ وعرض مسائل الثقافة، والجذور الإصلاحية التي كانت منطلقا لتكوينه التاريخي، واحتكاكه بالمدرسة الموضوعية التي تعتمد على عرض المادة التاريخية ونقدها بحكم عمله الجامعي، كلها عوامل جعلت الأستاذ الدكتور سعد الله يلتزم بعرض أحداث التاريخ اعتمادا على المصادر المتوفرة، ويتحدد هذا الغرض حسب متطلبات الساحة الثقافية للمؤرخ وقدراته الذاتية، وهذا ما عبر عنه عند تناوله إشكالية كتابة التاريخ بقوله: "إن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية وطبيعة الوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به" (جريدة الشعب، 14 أبريل 1990). وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الظروف التي تأثر بها الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في حياته الخاصة ومسيرته العلمية دفعته من موقف الحياد والتحفظ عن إبداء الرأي إلى المساهمة في حركية الساحة الثقافية بعلمه ومواقفه، وهذا ما يحسب له بل يمنحه مكانة مميزة قد يغبطه عليها العديد من الكتاب والكثير من المؤرخين الذين جرفتهم إغراءات الشهرة واستوعبتهم البرامج والمخططات الثقافية الرسمية، فبدأت كتابات الأستاذ الدكتور سعد الله تأخذ منحا سياسيا واضحا ونفسا إصلاحيا متميزا، وتحددت أطروحاته لتكسبه مواصفات جعلته يبتعد عن المؤرخين الرسميين والكتاب السياسيين

والمثقفين تحت الطلب، ليعبر عن طابعه الخاص، فهو مؤرخ يسلك المنهج الإصلاحي المعتدل الذي يتبنى ماضي الجزائر ويحاول فهمه من خلال منظور تاريخي قائم على الثوابت الوطنية في مفهومها الحضاري العربي الإسلامي وفي بعدها التحرري ومسارها النضالي، ويؤمن بأن للتاريخ وظيفة لا يمكن التخلي عنها بحجة المنهجية، وهي العمل على اكتساب الوعي بالذات وعدم ترك القضايا الحيوية والمسائل المصيرية بضاعة في سوق المزايدات السياسية والمضاربات الإيديولوجية، فاعتبر أن الجزائري السلبي هو الذي لا يصنع التاريخ بل يصنع به التاريخ. إن جمود الساحة الجزائرية المشدودة إلى فترة الخمسينات وأوائل الستينات بفعل ملحمة الثورة التي جعلت الحاضر وحتى المستقبل تابعا للماضي وأوقفت الجزائر في مرحلة المطالب الوطنية وجعلت الحياة السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية أساس الشرعية وإقرار المكاسب والاعتبارات المترتبة عليها، جعل المشروع الوطني الذي حقق مطامحه مع الاستقلال وبناء الدولة الجزائرية يظل محور الحياة الجزائرية وأهمل مشروع المواطنة القائمة على تبني قضايا المجتمع وليس على ضمان الامتيازات، لأن الترقية الاجتماعية والديمقراطية السياسية تتطلب دولة تحددها قوانين أساسية يكون فيها الولاء وأساس التعامل بعيدا عن الأشخاص القائمين على السلطة لأن الإرادة العامة هي التي تشرع، وقيمة الناس تتحدد بقيمة حقوقهم؛ وكأن الثورة التي حررت الجزائر لم تواصل مسيرتها لتحرير الجزائريين من أنفسهم والمحافظة على كرامتهم.

لقد ارتبط الأستاذ الدكتور سعد الله بالمرحلة الوطنية من تاريخ الجزائر، وكان محقا عندما رأى أن الجزائر لم تستكمل بعد مكوناتها الذاتية، لأن أعداء الثورة ـ حسبما لاحظه ـ كانوا مختفين في ظاهر الأمر وراء رموز وطنية كالعلم والنشيد، وكون فلان وفلانة ساندوا الثورة بينما هم يخربون البلاد من الداخل

بكل ما وأوتوه من وسائل التخريب، بعد أن عجزت الجزائر عن مواصلة تطورها ليرتقي شعبها من مرحلة الرعية المتأثرة بالشعارات الوطنية والخاضعة للوصاية الأبوية إلى منزلة المواطنة المسؤولية التي تكرس المجتمع المدني الحر غير القابل للإذلال والابتزاز والذي يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، وأن أفراده باختلاف ألوانهم وتعدد مشاربهم وتوجهاتهم ينتمون إلى أسرة وطنية واحدة تعيش تحت سقف البيت الجزائري الذي يضمن لهم المواطنة المسؤولية والعيش الكريم. إن الأستاذ الدكتور سعد الله من خلال مواقفه وأفكاره وكتاباته وضع حجر الأساس لوعي وطني أصيل يساهم لا محالة في نشر روح المواطنة الكفيلة بتحرير الإنسان الجزائري من عوامل الخوف من التاريخ والحساسية من الأحداث ليكتسب بناء على معطياته الحضارية وظروفه ومتطلبات مجتمعها مناخا حرا ومحفزات نفسية كفيلة بإيجاد عناصر البناء والإبداع التي ظلت غائبة في مراحل سابقة. لقد فرضت كتابات الأستاذ الدكتور سعد الله نفسها على القارئ واحتلت مكانا مميزا في المكتبة الجزائرية، فنالت تقدير المؤيد واحترام المعارض، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الأستاذ الدكتور سعد الله قد ربح المعركة وكسب الرهان، فأثبت ذاته العلمية وأكد مكانته كمؤرخ في ظروف صعبة وفي ظل محبطات قاسية، فقد انتقده الأصدقاء على اعتداله ووسطيته ونقم عليه مثقفو الاتجاه اليساري لمنحاه الإصلاحي ودفاعه عن قناعاته الحضارية، ولكنه واصل طريقة دون كلل أو ملل رغم ما تطلب منه ذلك من وقت طويل وجهد مضن ليحقق إنجازات قد تعجز عنها مؤسسات حكومية وهيئات رسمية.

4

مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله بقلم: محمد الأمين بلغيث[1]

المقدمة العامة

كتبت دراسة مطولة حول الإمام عبد الحميد بن باديس في العدد الخاص لمجلة الموافقات الغراء التي كان يصدرها المعهد الوطني العالي لأصول الدين، كلية العلوم الإسلامية حاليا، وختمتها بقولي: وخلاصة القول: إن الإمام عبد الحميد بن باديس المسلم الثائر والرجل القرآني شخصية ملتزمة بخطها الفكري، وهو مصلح، صاحب نظرة مستقبلية تنبئ عن إخلاصه لدينه وعروبته، وجزائريته وانتمائه إلى أمة شريفة تعيش في عصره السقوط الحضاري، والغزو الفكري، والاستلاب الطرقي والتخلف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وهو ذلك "الرجل الذي مد الجسور ومتن الحبال التي ربطت بين جيل عصر

---

(1) سلمت هذه الدراسة إلى الصحفي عثماني عبد الحميد، من أجل نشر موقف أو موقفين، ثم نشرت جريدة الشروق معظم المواقف مع تصرف بسيط، كما ألغوا من المقال المنشور على حلقتين بعض المواقف التي ربما رأت الجريدة من خلالها قضايا خاصة جدًا لا تصلح للنشر في هذا الظرف والله أعلم، لكن أنا سأنشر العمل كاملا بهوامشه وتعليقاته ومع خصوصيات الشهادة التي نالت استحسان متصفح الجريدة الإلكترونية، راجع الشروق اليومي أيام 12 و13 يناير / جانفي 2014 الأعداد 4254و 4255. أما عنوان المقال في جريدة الشروق فهو: كما يلي: الباحث محمد الأمين بلغيث يكتب عن شيخ المؤرخين الجزائريين [مواقف إنسانية عشتها مع العلامة" أبو القاسم سعد الله".

الإصلاح والتنوير، وجيل النصر والتمكين ولكن بعد استقلال بلاده الجزائر كعبة المجاهدين قُطعت الحبال ونُسفت الجسور"[1].

فهل نقدر في هذا الزمن الرديء أن ننصف الرجل، ونقرأ دوره العلمي في بناء هذه الأمة، أم علينا أن نسكت، سكوت الجبناء عبيد الدرهم والدينار، الذين ركنوا إلى الأرض، واستسلموا للعبودية، أين نحن من أشواق ابن باديس للحرية، وأين نحن من هذا الرجل الرسالي وقضايا العرب والمسلمين؟

كانت هذه هي الخلاصة، التي ضمنتها فكرة شيخ المؤرخين وكشفه عن المفارقة الكبيرة بين جيل الإمام الشاهد عبد الحميد بن باديس وجيل التمكين، واليوم يغادرنا هذا العملاق الذي هوى الخبير بأبناء فرنسا الاستعمارية والأوفياء من الخدم الذين ساروا في ركاب الاستعمار[2].

ولقد تعدد المتعاونون مع رجال الاحتلال من حيث المهمات التي تكفلوا بانجازها فقد ساروا في ركاب الاحتلال مسيرة طويلة فكان منهم المترجم من الدارجة الجزائرية إلى اللغة الفرنسية، ومنهم من كان يترجم لأسياده زفرات وتنهدات أبناء قومه ومنهم من تكفل بنقل الكتب والمخطوطات العربي إلى اللغة الفرنسية، بل منهم من أرّخ لوطنه بطلب من بعض ضباط المكاتب العربية التي

(1) وردت هذه العبارة في مراسلة خاصة بين شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله من جامعة آل البيت بالأردن إلى الأستاذ: محمد الهادي الحسني رئيس تحرير مجلة الموافقات بتاريخ 19 ديسمبر 1996م يدعو فيها الأستاذ سعد الله إلى ترك الإمام عبد الحميد بن باديس وشأنه لأننا لا نقدر الرجل قدره وهذا طبعا حينما استكتبه ليشارك بمقال أو دراسة في الملف الرئيسي الخاص بالإمام الرسالي عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

مجلة الموافقات العدد الخاص بالإمام عبد الحميد بن باديس، العدد السادس، عام 1998م.

(2) Les loyaux serviteurs de la France coloniale.

كانت تمثل رواد الدراسات الأنثروبولوجية أو رواد علم الاجتماع الاستعماري، ومن هؤلاء الرواد الذين ساروا في ركاب الاستعمار الفرنسي، تكون جيل من النخبة الجزائرية[1].

ومن الأهمية ذكر الدمار الشامل الذي عرفته الجزائر، وهذا من خلال احتلال ونهب المدن الجزائرية التاريخية، كقسنطينة وعنابة، وبجاية، والجزائر العاصمة ووهران وتلمسان ومعسكر، وإلى غاية 1848 أي عند انتهاء المقاومة الرسمية وجهاد الشعب الجزائري في العقدين الماضيين قبل السنة المذكورة فقدت الجزائر ما يزيد عن 10/ 100 أي 300 ألف من سكانها كما ذهب إلى ذلك شيخ المؤرخين الجزائريين[2].

ولعل من حبَّبَ إلينا الجزائر والتدوين في أَدَقِّ خصوصياتنا الشخصية، هو المحتفى به شيخ المؤرخين الدكتور **أبو القاسم سعد الله** رحمه الله.

لقد كان يشجعنا ولا يزال على الكتابة ونحن في مرحلة الطلب، وقد لا أفي حق الرجل فهو بموسوعته الراقية **"تاريخ الجزائر الثقافي"** قد بنى للجزائر هرمًا تفتخر به الأجيال، فقد تمثل لي الدكتور سعد الله في همة الرجال الكبار، وحدس المؤرخ الرسالي كهمم إخواننا المصريين، فكل واحد فيهم يرى نفسه قادرًا على أن

---

(1) محمد الصالح بكوش، الترجمة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي [1830/ 1930]، تصدير محمد الأمين بلغيث، الجزائر، دار التنوير، **2013**م. ص: **5**.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2 ص: 241. راجع تعليق باحث مغربي يأكل الغلة ويسب الملة يأخذ المعلومات من مصادرها الجزائرية ويعلق عليها بما تمليه نفسه الغافلة عن الحق وشتم الجزائريين. راجع محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 ـ 1962مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، تقديم محمد كنبيب، الدار البيضاء، دار أبي رقراق، 2008م. ص: 40 هامش 63.

يكون هرمًا جديدًا يضاف إلى أهرامات مصر الخالدة.

هذه الهمة العالية هل هي التي تدفع شيخ المؤرخين إلى العمل والمشاركة في إعادة عصر التدوين من جديد إلى وطنه الصغير الجزائر خاصة وعالمه العربي والإسلامي عامة. لأنه يدرك حقيقة التاريخ، فنحن نتساءل معه كيف انتصرت علينا قوة "**التقدم**" كما يسميها الدكتور **فارنييه** في عمله "**الجزائر أمام الإمبراطور**" [1].

لعلني لا أبالغ فأرى من خلال تجربتنا التي تزيد عن ربع قرن ونحن نقرأ ما ينتج الأستاذ الكبير سعد الله فأقول إنه المؤرخ الموسوعي، متعدد المشارب والاهتمامات، فقد قرأنا له ما كتب في مجلة الآداب وقد كان شابًّا يافعًا يشارك في التأسيس للقصيدة الحرة، فهو بحسب النقاد من أوائل الشعراء الجزائريين الذين كتبوا القصيدة الجديدة، خارج دائرة القصيدة التقليدية العمودية، كما شاهدنا همته وهو يقوم بتدوين تاريخ الجزائر بداية من 1830 إلى غاية 1945م، بوعي نادر يسابق به الزمن وهذا في عمله الموسوعي "**الحركة الوطنية الجزائرية**" كما ساهم مساهمة بالغة في تسجيل وتدوين تاريخ الجزائر الثقافي بداية من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين (1954م).

ولعل المصاب الجلل، والعملاق الذي هوى ستتذكره الجزائر في حولياتها، لأنه قام بواجبه كأي رجل شريف خدم أمته.

لهذا أقدم هذه المواقف الإنسانية التي عرفتها وأنا أتعامل مع شيخ المؤرخين الجزائريين من بعيد، حتى لا أقول أنني من أصفياء المؤرخ أو المقربين منه، لكن التاريخ شاهد علينا والأيام ابتلاء، والله خير الحاكمين.

هذه شهادتي وهذه مواقفي التي عرفت فيها شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين

ومؤرخ الأجيال خلال ثلاث وثلاثين سنة خلت، لعل القارئ والمحب واللدود معًا جميعًا يقرؤون زفرات قلب جريح فقد سندًا عظيمًا والعظمة لله سبحانه وتعالى، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، ولنا في آثار هذا العملاق الذي هوى المواساة من الموت، والموت حق: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلّٞ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: 78].

الجزائر المحروسة في 03 ربيع الأول 1435هـ/ 05 يناير، جانفي 2014م.

الموقف الأول
تسمع بالمعيدي

بعد نجاحنا في مسابقة الدخول إلى نظام الماجستير في شهر نوفمبر **1980**م انتظرت أنا القادم من قسنطينة مع زملائي لأرى شكل المؤرخ الكبير، وهذا في أول حصة بالخروبة، فلما وصل إلينا قلت لهم هل هذا هو سعد الله، وبصوت خافت، وكنت أنتظر أن أرى عملاقًا في جسده أشبه بالصورة الضخمة التي رسمتها في خيالي قبل وصولي إلى العاصمة، فكان قد سمع ما قلت فكان رده على الفور وبابتسامة الواثق من نفسه: **"تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تره"** فقلت على الفور معاذ الله يا أستاذ.

أذكر للتاريخ أن المسابقة الوطنية التي أشرف عليها خيرة أساتذة التاريخ في

الجزائر، قد أفرزت أحسن مجموعة من الباحثين على المستوى الوطني[هامش]، وكان أغلب الناجحين في المسابقة من جامعة الجزائر، وأذكر أنه لم ينجح طلاب جامعة وهران، وأما جامعة قسنطينة فقد نجح العبد الضعيف[**محمد الأمين بلغيث**] وجئت في الترتيب الثاني بعد **الأستاذ أحمد شريفي**، وأما الثاني من قسنطينة فهو **الأستاذ عبد الحميد خالدي**[1]، الذي نجح بالإنقاذ، ولكنه التحق بجامعة بغداد بالعراق الشقيق بمعية [محمد لحسن زغيدي، ومسعود خرنان، وإبراهيم بحاز]ولم ينتظم معنا، فكان الدكتور سعد الله المتخلق الصارم هو المكلف بغيابات الطلبة، وفي السداسي الأول أقصى ثلاثة من سبعة وعشرين طالبًا على ما أذكر ومنهم **الأستاذ نور الدين ميهوبي** من المدية رغم أنه تغيب بعذر شرعي، لكن سعد الله كان يعلم تحايل الطلبة على القانون وهذا بغيابهم حصتين في كل مادة، وكانت مقبولة عند بعض الأساتذة لكن شيخ المؤرخين قال لنا إن هذه يجب أن ينساها الطلبة فثلاث غيابات في كامل السداسي وفي كل المواد تقصي الطالب نهائيا وعليه أن يفكر في إعادة المسابقة من جديد.

(1) بعد فرز القائمة وانسحاب البعض التحق بنا من قسنطينة الأستاذ المغفور له **عيسى حمودة [توفي في 25 مارس 2004م]**، وقد انسحب من الدراسات العليا لظروف خاصة، وغادر مقاعد الدراسة من أجل آداء واجب الخدمة الوطنية، والتحق بنا أيضًا **الأستاذ عمار مزياني**، الذي انسحب هو الآخر، واختار الأعمال الحرة، ثم المحاماة وهو من الشخصيات المعروفة في باتنة على ما يذكر الناس في الوقت الحالي.

الموقف الثاني[1]
الدفعة الأولى لقسم الماجستير
على المستوى الوطني

بدأنا ندرس عند شيخ المؤرخين مجموعة متكاملة متكونة من حوالي سبعة وعشرين طالبًا كما ذكرت آنفًا، ونحن نمثل أول مجموعة في أول دفعة لنظام الماجستير الذي عوض نظام الدراسات العليا القديم بالجامعات الجزائرية، كان يدرسنا من النسخة المخطوطة بقسميها الأول والثاني من موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي الذي سيظهر في مجلدين على مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1982م، ورأى المدرس الحاذق عدم استجابتنا للمحور الخاص بالتصوف الذي درسه لنا في الحصص الأولى، فكانت الأسماء والعناوين الأولى عن دور الشيخ زروق، و"رسالة في التصفيق"، فقال لنا على الفور اعتقد أن موضوع التصوف لا يروق لكم، هل ترغبون في الاستماع إلى التاريخ في العهد العثماني، فبدأ يحدثنا عن التاريخ والمؤرخين، فرأى تجهُّمًا وقلة راحة بل ربما فهم الأستاذ أنهم أخطأوا التقدير في انتخابنا لنكون مشروع مجموعة من المؤرخين، قال لنا على الفور وبدارجة جزائرية "**الظاهر يا جماعة ما هناش**"[2].

---

(1) بعد عملية الفرز وإتمامنا للسنة التمهيدية للماجستير [1980/ 1981] رأى المشرفون على هذه الدفعة، بعد تقسيمنا وتوجيهنا إلى التخصصات التقليدية المعروفة، رأى بعضهم إدماج طلبة الدراسات العليا، لهذا أدمجوا ضمن دفعتنا في سنتنا الأولى بعد إتمام السنة التمهيدية، إلى دفعتنا الأسماء الآتية وهم: **إبراهيم العيد بيشي [تخصص قديم]**، **رشيد تومي [تخصص وسيط أوروبي]**، **لطيفة بشاري** [تاريخ إسلامي وسيط]، **عائشة غطاس** رحمها الله [تخصص حديث عثماني]. محمد العربي معريش [تخصص حديث ومعاصر].

(2) هذه دارجة جزائرية يقصد بها يبدو يا جماعة أنكم لستم في المستوى المطلوب.

فرغم سلطة شيخ المؤرخين والمكانة التي يجدها في نفوسنا، أعجبتنا ردود الفعل الأولى عن جهلنا، فضحكنا بصوت واحد وابتسم معنا ثم واصل بعد ذلك يدرسنا في أسلوب الحكيم المتبصر بمسؤولية المؤرخ التي يحس بها وهو يدخل علينا كل أسبوع ولمدة أربع ساعات كاملة من الساعة التاسعة صباحًا إلى غاية الواحدة تقريبًا وهو يصول ويجول دون كلل أو ملل مما يدعونا إليه في مادة المنهجية وتاريخ الجزائر في العهد العثماني.

الموقف الثالث
قصة التخلي عن إشراف سعد الله

أما الموقف الذي أتذكره جيدًا فيتعلق باختيار التخصص، فبعد اقتراب السنة التمهيدية من الانتهاء، وفي حدود بداية السداسي الثاني اتجه معظم الطلبة للتسجيل مع الدكتور سعد الله، فرأى أنه ينوء بحمل كل هذه الأبحاث، وكنت من بين الأوائل الذين قبل الأستاذ الإشراف عليهم وتأطيرهم، فكان أول ما سألني: ما اسمك؟، قلت له: **بلغيث محمد الأمين فقال لي من هذا اليوم أنت اسمك محمد الأمين بلغيث،** لأن العرب يبأون بالخصوص وينتهون عند العموم المشترك بين الأفراد في العائلة الواحدة، ثم قال: هل تعرف أبو الغيث القشاش، أو بلغيث القشاش، قلت أنا لا أعرف عالمًا أو علمًا بهذا الاسم، وتركني لحالي، ثم قال ابحث عن **حياة وآثار الجنرال يوسف،** فتوكلت على الله سبحانه وتعالى، وكان رفيقي المتزن والهادئ في البحث، هو **يوسف مناصرية،** الذي يشتغل على كتب بول آزان [Paul Azan][1] الخاصة بتاريخ الجيش الفرنسي زمن الاحتلال،

---

(1) قدم يوسف مناصرية دراسات نوعية بإشراف شيخ المؤرخين الجزائريين وهي كما يلي:

=

فقد كنا لا نترك المكتبة الجامعية إلا أوقات الصلاة والأكل في مطعم الحي الجامعي بشارع عميروش، أو باجي مسعودة، وبعد حوالي شهر من المحاولة وجدت أن معظم أو قل كل ما هو مكتوب عن الجنرال يوسف الذي يسميه سعد الله صراحة يوسف اللقيط مكتوب باللغة الفرنسية[1]، وكنت أولا قد عرفت مستواي الحقيقي في اللغة الفرنسية والأمر الثاني كنت أجد حرجًا كبيرًا في أن ترتبط حياتي بلقيط خائن، وفي أول فرصة طالب سعد الله رحمه الله من بعضنا التوجه إلى تخصصات أخرى نظرًا للعدد الكثير للذين رغبوا في التسجيل معه، فكنت من الأوائل الذين استجابوا لهذا النداء، لأنني في حقيقة الأمر لم أجد نفسي قادرًا على مواصلة العمل بهذه الفرنسية البسيطة التي لا تزيد عن **مستوى الماصوات** [البناؤون عندنا]، لهذا سيرتبط مصيري في التخصص الدقيق

=

أ/ مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب. طبعتان بالجزائر،

ب/ الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية، مطبوع

ج/ الشيخ عبد العزيز الثعالبي، حزب الدستوري التونسي مطبوع بدار الغرب الإسلامي، [ماجستير1986م].

د/ النشاط الصهيوني بالجزائر، دار البصائر [دكتوراه، وقد حضرت مناقشتها، بقسم التاريخ، بوزريعة]، تصدير بقلم شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين أبو القاسم سعد الله، 2009م. الجزائر، دار البصائر، [التصدير بتاريخ 06 يوليو 2006م]

(1) يوسف العلج، اشتهر بيوسف العنابي، ادعى أنه ولد في جزيرة [إيلب]واختطفه وهو طفل جنود البحرية التونسية سنة 1815، نشأ بقصر الباي، والتحق بالجيش الفرنسي وعُيِّن ترجمانًا في جيش إفريقيا ثم عينه كلوزيل خليفةلآغا العرب، ثم قبطانًا في جيش القناصة ثم رقي إلى رتبة رائد في نفس الجيس سنة 1833م وبايا على قسنطينة سنة 1836 أثناء الحصار الأول للمدينة، وفي سنة 1845م ارتقى إلى رتبة جنرال وقائد فيلق سنة 1865م وتوفي سنة 1866م، وسماه محمد باشا في التحفة يوسف المتنصر العنابي، لأنه بعد أن تلقى تربية إسلامية في قصر الباي تنصر، وكان معروفًا بقساوته على الجزائريين، وقد نسبه أحمد باي في مذكراته إلى أصل يهودي.

بالدراسات الأندلسية ومع المؤرخ الكبير عبد الحميد حاجيات حفظه الله.

الموقف الرابع

لقاء الباحث السعودي مازن صلاح مطبقانى

هذا الموقف وقع لنا في حدود نهاية 1982م.

هذا الموقف شريكي فيه الأستاذ الباحث مسعود كواتي المتخصص في تاريخ الأقليات، واليهود بصفة أخص، كنا نمشي في بداية شارع الشهيد محمد العربي بن مهيدي بالجزائر العاصمة، في الاتجاه نحو مكتبة العالم الثالث، ومكتبة النهضة لميموني عبد القادر، ودار الكتاب، فإذا بنا نشاهد الدكتور سعد الله، وهذا طبعًا بعد حوالي شهر من تسجيل أبحاثنا مع الدكتور عبد الحميد حاجيات، فذهبنا إليه مباشرة، فوجدنا معه شخصية مشرقية، فقلنا له نساعدك يا أستاذ فرفض بإصرار فقلنا له معًا يا أستاذنا نساعدك فقط لأنك أولا لست مشرفنا ولن تناقشنا مستقبلا، وهذه طبيعة خاصة في الدكتور سعد الله، فهو لا يكلف طلابه بحمل حقيبته حتى لا يحسسهم أنه يستغلهم كبعض الأساتذة غفر الله لهم، وحينها وصلته الرسالة وفهم المنطلق قال: ساعدا الأستاذ، وتوجهنا رأسًا لحمل معظم أثقال الضيف المشرقي، وجلسنا نتبادل الحديث مع الدكتور سعد الله، وعرفنا بضيفه الكريم فقال هذا باحث سعودي، اسمه **مازن صلاح مطبقاني**[1] وأعجبت الدكتور سعد الله صراحتنا وبقينا معهما لوقت قصير

---

(1) مازن صلاح مطبقاني باحث سعودي مكان عمله الآن بالرياض، وقد تابعنا نشاطه الذي ارتبط أولا بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم بعد ذلك اختار طريقًا آخر وهو التخصص في تاريخ الاستشراق، ومن أعماله المتميزة ما يلي:

1 ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931 ـ 1939 رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز، قسم التاريخ، جدة، العربية السعودية، أكتوبر 1985م.=

للتعارف ببهو نزل ألبير الأول، بالجزائر العاصمة، ثم غادرنا المكان، ومنذ ذلك الحين تتبعنا نشاط هذا الباحث السعودي، الذي كلمته وعزيته في رحيل شيخ المؤرخين صباح اليوم الثاني من شهر يناير للعام الجديد 2014 ووعدنبي بإرسال صور ضوئية لمراسلاته مع شيخ المؤرخين لإتمام المشروع الذي اتفقت فيه مع واحد من أصفياء المغفور له بإذن الله شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين أبو القاسم سعد الله طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه، من أجل نشر رسائله إلى أحبابه[1].

الموقف الخامس

المؤتمر الدولي الأول للحضارة الإسلامية بتلمسان

حدث هذا الموقف في شهر ماي من عام 1987م، حيث نظمت وزارة الثقافة مؤتمرًا دوليا كبيرًا تحت عنوان الحضارة الإسلامية بمدينة تلمسان عاصمة الزيانيين، وكنت قد أتممت رسالتي للماجستير منذ مدة طويلة وانتظرت موعد المناقشة، فجاءت فرصة التقاء أعضاء اللجنة بتلمسان وهم:

=

والكتاب مطبوع أكثر من طبعة ومنها طبعة عالم الأفكار، راجع مقدمة شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله، **رأي في دور جمعية العلماء** [تأملات وأفكار] المجلد16، أفكار جامحة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ص ص: 47/ 54.

2 ـ عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دمشق، دار القلم، 1999م. ط2. اقتنيت هذا الكتاب من دار القلم بلمشق يوم 28 ديسمبر 2002م.

3 ـ صراعٌ الغرب مع الإسلام، تأليف آصف حسين، ترجمه من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، ونشر بدار عالم الأفكار، عام 2013م.

4 ـ ديرليك، عبد الحميد [1307/ 1358هـ/ 1889/ 1940م] مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، ترجمة مازن صلاح مطبقاني، الجزائر، عالم الأفكار، 2014م.

(1) كان الأستاذ مازن في مستوى المسؤولية، فقد أرسل رسائله النادرة وعددها 9 رسائل من بينها رسائل أولية يشرح فيها للباحث طريقة البحث والمصادر الأولية لتاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الأستاذ إبراهيم فخار من جامعة وهران، الأستاذ المشرف عبد الحميد حاجيات، الأستاذ محمد الصالح مرمول من جامعة قسنطينة، والدكتور موسى لقبال من العاصمة، فكنت أسعى من أجل اتفاقهم النهائي على موعد واحد للمناقشة، وأثناء تحركي بسرعة بين الأساتذة اصطدمت بواجهة زجاجية داخلية ليلا بفندق الزيانيين، فجرح الزجاج خاصري الأيسر، وشجَّ رأسي فكان أول من حملني إلى كرسي لإسعافي عند مقصف الفندق هو شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، فطلب من النادل كحولا، فجاءه بزجاجة، وبدأ يضمد جرحي بها في الزجاجة من كحول ثم سأله فجاءة ما هذا قال له" **يا الشيخ هذا ويسكي**"، سلمه الزجاجة، وقال شيخ المؤرخين بنرفزة، هل تعلم أن هذا الإنسان الموجود أمامي لم يذق في حياته خمرًا فتقوم بإسعافه بزجاجة خمر، فاعتذر النادل، وهو يتعجب من هذا السلوك الذي رآه غريبًا، ثم حملني زميلي مسعود كواتي بمساعدة سعد الله إلى سيارة سياحية من أجل الكشف علي وحقني بحقنة مسكنة ومذهبة للخوف كما قالوا[1]، ثم عدت بعد ساعة من زمن من مستشفى تلمسان، وتناولنا طعام العشاء، ثم برمجت وزارة الثقافة والسياحة ليلة موسيقية أندلسية، وصادف وجود فرقة تونسية فولكلورية، فمتع جمهور الأساتذة والمؤرخين **برقصة القُلّة**، وكانت الراقصة فاتنة، فلما بدأت وصلتها رأيت وجوم معظم الأساتذة أما شيخ المؤرخين فقد انسحب من هذا

---

(1) كانت الواجهة الكبيرة من شدة نظافتها لا تظهر للعيان، وكان سمكها كبيرًا، ولا يوجد في وسطها إشارة أنها نافذة زجاجية كما هي عادة الفنادق السياحية الكبرى، وقد علق مدير الفندق بعد ذلك فقال لأحد زملائي [يا صاحبي معظم السكارى اصطدموا بهذا الواجهة ولم تكسر طيلة وجودي هنا، رغم البنية الضعيفة للأستاذ لكن علق فقال [bien sur Algérien tète dur] وهو: ما ترجمته رأس صلبة: كمواطنيه من الجزائريين.

المشهد الخادش للحياء، دون أن يلتفت إليه أحد، ثم خرجت بعده إلى غرفتي من شدة الألم، ولن أنسى هذا الموقف أبدًا وعلى الخصوص ثقته في أن هذا العبد الضعيف كاتب هذه المواقف لم تعرف الخمرة طريقًا إلى فمه، فانزعج شيخ المؤرخين أن يتذوقها جسمه عن طريق الأوردة المجروحة.

الموقف السادس
دور المركز الوطني للدراسات والبحث في النشاط العلمي

عرفت نهاية تسعينيات القرن الماضي نشاطًا معتبرًا مع تأسيس المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، ووزارة المجاهدين وعلى الخصوص في عهد الوزير السابق الأمين العام الحالي لمنظمة المجاهدين السيد **السعيد عبادو**، فكان ملتقى اتحاد المؤرخين بعين صالح مشهودًا وهذا بحضور عينة نوعية من الشخصيات والإطارات والمؤرخين الشباب، وفي هذا الملتقى قدمت مداخلة نوعية ولا أزكي نفسي على الله "والله أعلم بمن اتقى" وكانت المداخلة بعنوان" **نماذج من سياسة فرنسا للتوغل في الجنوب الغربي الجزائري وبلاد السنغال، من خلال فتوى قورارة 22 جوان 1893م** وهذه مداخلة قدمتها في الملتقى الوطني الذي نظمه اتحاد المؤرخين الجزائريين بالتعاون مع المركز ووزارة المجاهدين بمدينة عين صالح ولاية تمنراست بين 21 ـ 23 ديسمبر 1997م. ثم نشرت المداخلة بالعدد الرابع من مجلة المصادر، ولما أخبرني الدكتور يوسف مناصرية بسفره القريب لزيارة الدكتور سعد الله بالأردن، أرسلت معه هدية إلى شيخ المؤرخين تتمثل في مجموعة مجلات وكتب تصورت أنها مقدمة لإعادة مد الجسور مع شيخ المؤرخين بعد طول غربة بالولايات المتحدة الأمريكية، وبعد عودة يوسف مناصرية حمل إلي رسالة ثمينة

هي إجابة عن كل ما بثثته في رسالتي إلى شيخ المؤرخين، فكان مما جاء فيها [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ المحترم محمد الأمين بلغيث أبقاه الله ورعاه، وبعد

فقد سعدت بالرسالة التي حملها إلي **الابن البار يوسف مناصرية**، وسعدت بما جاء فيها من أخبار شخصية وعلمية، وكان سروري عظيمًا عندما اكتشفت أنك تشد طريق البحث والتنقيب في الأرشيفات والوثائق الوطنية والأجنبية، فبلادنا في حاجة ماسة إلى أمثالك من الذين يعملون ويبحثون ويوصلون المعرفة إلى الجيل، بل الأجيال الصاعدة التي تتلاعب بها الزعانف الذين لا ذمة لهم ولا عهد. وقد ذكرتم شيئًا عن الفتوى التي سعى [جول كامبون] إلى إذاعتها عن طريق [كورتلمون جيرفي] كما أذاع بوجو الفتوى التي حصل عليها ـ كما قال ـ من مشايخ بعض الزوايا، وجامع القيروان والأزهر والحرمين الشريفين، وقد تحصلت على نسخة من رحلة [كورتلمون] إلى الحجاز، وكان كتاب **ديبون وكوبولاني** قد نشر خلاصة هذه الفتوى، ولكني لم أطلع عليها [في نصها العربي][2] فإذا كان لا يزعجك فإني سأكون ممنونًا أن تطلعني على نسخة منها.

أظن أن إبراهيم سراج كان شاعرًا أيضًا، وأذكر إذا لم تخني الذاكرة أنه قرظ كتاب [أقوم المسالك] لخير الدين التونسي، وقد أشرت إلى ذلك في دراسة قصيرة عن أثر هذا الكتاب في الجزائر، وهي منشورة في أبحاث وآراء [جـ3، أو

---

(1) راجع كتابي تاريخ الجزائر المعاصر. الطبعة الرابعة والخامسة المجموعة الثامنة من وثائق وصور الكتاب.

(2) بالفعل سلمت للأستاذ الدراسة كاملة بجهاز الحاسوب قبل نشرها في مجلة المصادر التي يصدرها المركز الوطني

جـ4][1] لكني لم أطلع على حياته في الجزائر والشرق، ودوره، لماذا لا تكتب أنت عنه دراسة تعريفية [2]، سيما إذا كانت حياته تهم الجزائر بالخصوص، ولعلك فعلت ذلك في **كتابك تاريخ الجزائر المعاصر**.

لاشك أن الاقتراب من التاريخ المعاصر تجعلك أكثر حيوية من الناحية الفكرية، ذلك أن أفكاره ونظرياته ما تزال غير مستقرة، ولذلك يمكن "**للجميع**"[3] أن يدلوا بدولهم فيه بخلاف الإسلامي [الوسيط] والمغاربي خاصة، ومهما كان الأمر فإن كل التاريخ مفيد وفيه عبرة ولذة وحكمة... إذا كان لي أن أنصحك بشي فهو أن تكتب من وحي ذاتك وبوحي ضميرك ولا تنقد للدعوات والمشاركات "**الإخوانية**"فهي أبعد ما تكون عن البحث العلمي المجرد من الأهواء، وحاشاك من ذلك. مرة أخرى تمنياتي لك بالتوفيق، ولعل الأخ مناصرية سيذكر لك طرفًا من حالي وحالتي، عصمنا الله من الخطأ والزلل، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(1) راجع: الدراسة بعنوان صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر [أبحاث وآراء] المجلد العاشر من الأعمال الكاملة الجزائر دار الغرب الإسلامي، 2005م. الجزء الرابع ص: 163 وما بعدها.

(2) كتبت دراسات عديدة عن إبراهيم سراج وأدين في معرفة هذا الصحفي الثائر إلى أرشيف ما وراء البحر، بآكس، فقد تحصلت على ملفه كاملا في صورته الفرنسية، ونشرت بعض الوثائق في كتابي الجديد فصول في تاريخ الجزائر المعاصر، الذي سيصدر ضمن أعمالي غير الكاملة. كما تحصلت على الصورة الثانية لشخصية إبراهيم سراج من خلال الوثائق العثمانية في دور الأرشيف الليبي التي نشرها الدكتور أحمد صدقي الدجاني رحمه الله.

(3) كم هي رائعة هذه الكلمة التي جعلها شيخ المؤرخين بين شولتين لأن الزعانف عندنا يريدون أن يحتكروا الحقيقة المحضة، ولا يشاركهم أي باحث وكأننا جئنا من جزائر الواق الواق، ولم نستوعب مناهج المؤرخين، رغم أننا فطمنا على حب الجزائر وتاريخها المعاصر عند [المحضن الأمين] على الأمة وتاريخها منذ أن وعينا الكتابة التاريخية.

[أبو القاسم سعد الله][1] 27 ذي الحجة 1420هـ/ 2/ 4/ 2000

غادر الدكتور سعد الله الجزائر بعيد الأحداث المؤلمة التي عرفتها خلال ما اصطلح هو على تسميتها بزمن الفتنة، وبالمناسبة مواقف سعد الله مما وقع للجزائر من 1992 إلى غاية المصالحة الوطنية واضحة كل الوضوح في "**مسار قلم الجزء السادس**" ولا يخفي موقفه مما يقع للبلاد وهو في أمريكا دون خوف أو مواربة، وصراحته ونزاهته وحرصه على الحق جلبت له المتاعب من السلطة السياسية العليا في الجزائر، وهذا موضوع طويل كتب فيه بعض أصفيائه[2].

وبعد ألم الغربة، عاد من جديد إلى محيطه العربي والإسلامي، حيث تعاقد مع جامعة آل البيت لمدة سبع سنوات كاملة حقق فيها المزيد من السمو الأخلاقي والتواضع، والمساهمة العلمية في الأردن، كما استقيناها من رفيقه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني[3]، وبعد عودته إلى الجزائر مباشرة، أقام لنا وليمة وجلسة شاي رائعة حضرها من السادة **العبد الضعيف** [محمد الأمين بلغيث] كاتب هذه الوقفات [4]،

---

(1) بعث شيخ المؤرخين الرسالة من جامعة آل البيت بالأردن.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر، إبراهيم لونيسي، الكتابة السياسية عند أبي القاسم سعد الله [قراءة تحليلية لعينات من آراء ومواقف سعد الله السياسية] الأعمال التاريخية والأدبية، الكتاب التكريمي، جامعة منتوري، إعداد وتصنيف وتقديم، عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص: 173/162.

(3) تعرض شيخ المؤرخين للتفرة التي عاش فيها الغربة الحقيقية والألم، ألم الغربتين البعد عن الوطن، وغربته كوطني جزائر وهو يسمع أبناء الوطن الواحد يتقاتلون ويسفكون دماء بعضهم بعض، ولكن للأمانة شيخ المؤرخين حدد مواقفه من الصراع الدائر في فترة ما يسميها الإعلام الجزائري بالعشرية الدموية أو الحمراء في كتابه **مسار قلم المجلد السادس**.

(4) ذكرني بهذا الموقف وتفاصيله الأستاذ مسعود كواتي، خاصة حينما قال للأستاذ شيخ المؤرخين يا أستاذ حينما أقرأ الكتاب الشكلاطي [بلون الشوكولاطة]لا أتصور أنني سأكون موضوعياً مع الفرنسيين.

والأستاذ مسعود كواتي، الأستاذ المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي والأستاذ مديني بشير وربما الأستاذ سيدي موسى محمد الشريف، والدكتور أحمد حمدي، المدير الثاني للمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م[1]. فكان الجو رائعًا بفرحتنا بعودة شيخ المؤرخين الجزائريين، وهنا يبدأ **الموقف السادس** مع المؤرخ النزيه، فبعد أن أكلنا وشربنا، وتبادلنا الحديث، حدثناه عن التاريخ والمنهج، فأخذ الكلمة وقال إذا كان لي أن أنصحكم هو الكتابة بموضوعية، بعيدًا عن الانتصار للنفس والخطب السياسية العاطفية كجيل الحركة الوطنية، وكنت قد أعددت هدية لأستاذي ردًا على ما طلب مني في رسالته الموجودة أعلاه، فقلت له أنا شخصيا حينما أحس بأنني بدأت أحب الحياة العصرية، والتبرجز [من البورجوازية] أو أنسى فرنسا، أم الشرور كلها[2]، أفتح

(1) تولى رئاسة المركز السيد الفاضل محمد لخضر العلوي [توفي يوم الأربعاء 09 محرم 1435هـ/ الموافق لـ 13 نوفمبر 2013مـ]، ثم الدكتور أحمد حمدي، ثم الأستاذ الصادق بخوش لفترة انتقالية، ثم الدكتور الشاعر عبد الله حمادي، وبعد ذلك استلم الرئاسة والمهمة الدكتور جمال يحياوي، إلى يومنا هذا [جانفي 2014م].

(2) هذه الكلمة أم الشرور كلها قالها سفير بيزنطي عن روما، وأصبحت أرددها في كتبي ومقالاتي في التاريخ الإسلامي الوسيط أو تاريخ الجزائر المعاصر، ومن بين المصطلحات التي أرددها منذ سنوات [مغول القرن التاسع عشر والعشرين] أقصد فرنسا الاستعمارية، أخذتها من مقدمة الكتاب الذي قصده زميلي كواتي حيث يقول سعد الله طيب الله ثراه" لا نعرف أن أحدًا قارن بين غزو التتار لبغداد وغزو الفرنسيين للجزائر، ويبدو أن المؤرخين السابقين لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه المقارنة ما داموا يعرفون مسبقًا أن التتار شعب متوحش وأن الفرنسيين شعب متحضر، وهم متأكدون مسبقًا أيضًا أن الشعب المتوحش لا يقوم إلا بالتخريب وأن الشعب المتحضر لا يقوم إلا بالبناء. فإذا أضيف إلى ذلك أن التتار قوم قد مضت عليهم القرون ولم يعودوا موجودين بذلك الوصف إلا في أحداث التاريخ وأن الفرنسيين قوم ما يزالون يعيشون بين الناس يدافعون عن أنفسهم بكل الوسائل بما في ذلك التهديد والتمويه ـ إذا أضيف ذلك إذن عرفنا لماذا لم يعقد المؤرخون تلك المقارنة حتى الآن بين التتار في بغداد والفرنسيين في الجزائر. وأضيف أنني أردد لازمة في التلفزة والراديو وفي الكتب مقولة أقول فيها: [**أن فرنسا**
=

خزانتي فأبدأ في قراءة **متون الدكتور سعد الله**، خاصة الجزء الرابع من أبحاث وآراء، وأستثني من كتبه القسم الخاص بالدكتوراه باللغة الفرنسية، فإنني حينما **أقرأ الحركة الوطنية أحس بالنار تحرق فؤادي، وبصورة أخص قلت له حينما أقرأ دراستكم المترجمة عن آداب الأقدام السوداء وبطلهم الكاريكاتوري كاقايوس [cagayous]**[1]، [إذ من الواجب على كل جزائري أن يطالع هذا البحث لكي يعرف كيف كانت "الثقافة الشعبية الاستعمارية تعامل آباءنا وأجدادنا، ونعرف من خلال هذا الأدب الساخر وأهم مصادره هي القصص الرخيصة ذات التوزيع الجماهيري الواسع، وهي المسماة روايات زوج سوردي]"، نظرًا للطريقة التي تصورون بها فرنسا الاستعمارية وما فعلت بأسلافنا، ثم قلت له هذا هو ما طلبت مني منذ مدة قليلة في رسالتكم التي جاء بها مناصرية فقلت له: هذه دراسة هادئة كما طلبت منا وقدمت له بحثًا متكاملا مستفيضًا عن الحركة السنوسية وهي عبارة عن دراسة وترجمة لوثيقة أصلية حول مراقبة الطرق الصوفية والحركة السنوسية في الجزائر تحديدًا وأما الثانية، فهي ما طلبت مني في رسالتكم الأخيرة من الأردن

=

هي: **عدو الماضي والحاضر والمستقبل]**، وفي يوم من الأيام كنت قد أتممت إجراءات الدخول إلى قاعة الركوب بمطار هواري بومدين بالجزائر العاصمة، فأوقفني ضابط كبير من سلك الشرطة قال لي: **يا دكتور بلغيث واش دارتلك فرانسا [ماذا فعلت لك فرنسا]، قلت له بهدوء تام وبساطة أنا ما دارتلي فرانسا والو ولكن فرانسا هذه عدو الماضي والحاضر والمستقبل التي رددها معي يَتَّمَتنِي [قتلت والدي] فقط، فقال: سب جُدَّها [أي اشتم جذورها]**، وأخذ بيدي ومررت بكل المصالح إلى أن أدخلني الطائرة المتجهة إلى **فرانكفورت بألمانيا**.

(1) ظلت سلسلة كاقايوس تصدر خلال ثلاثة عقود تقريبًا [1891/ 1920]في إصدارات أسبوعية، انظر بحث إيمانويل سيفان [E. sivani]، **الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر، الجزء الرابع من أبحاث وآراء، الأعمال الكاملة المجلد10، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2. ص ص: 96/47".**

حول النص العربي لفتوى قورارة الشهيرة المؤرخة بتاريخ 22 جوان 1893م[1]. ثم طلب في نهاية الحديث من الدكتور حمدي العنوان الإلكتروني للمركز، فقال له بفرنسية **سين أش، نون** وأخيرًا ختمها **بشعار الجزائر العالمي، نقطة دز [DZ]** فقال له شيخ المؤرخين بدعابة عفوية. [**هاذيك دز معاهم كلنا نعرفوها**]. وغادرنا المجلس الطيب لشيخ المؤرخين وهي ثالث مرة على ما أذكر أدخل بيته بحي [**les asphodèles**] ليزاسفودال ببن عكنون [بالجزائر العاصمة][2].

---

(1) قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: **183**]، يعترف شيخ المؤرخين أنه لم يطلع على نص فتوى جول كامبون في نصها العربي بعد اكتشافي لها في أرشيف ما وراء البحر وفي الوثائق الخصة بالسودان الغربي، ومعظم من يملك كتابي تاريخ الجزائر المطبوع عام 2001م طالع فتوى قورارة، وبعد مضي 14 سنة على اكتشافي لهذه الفتوى يكتب **صديقي الباحث إبراهيم لونيسي** في هامش رقم 2 قوله وهو يشير إلى فتوى كومبون: "**لم يذكر أحد من الباحثين أنه عثر على النص الأصلي لهذه الفتوى، إلا أننا نلاحظ أثر حركة هجرة الجزائريين إلى سوريا والمشرق سنة 1893**، ثم أحال على كوبولاني، وهو مصدر شيخه سعد الله. والحقيقة أن صديقي يملك الكتاب على الأقل في طبعته الأولى.

راجع، إبراهيم لونيسي، **الاستشراق الفرنسي ودراسة المجتمع الجزائري وإعادة تشكيله** [بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي]، الجزائر، دار هومة، 2013م. ص: 177. راجع المجموعة الأولى/ فتوى قورارة: النص العربي الأصلي، وعلقت في الهامش على هذا النص الخطي قلت: أعتقد أنني أول من ينشر النص العربي الذي يحتمل أنه قد جاء به الصحفي جيفري كورتيلمون، صاحب رحلة إلى الحجاز الذي يشير إليه شيخ المؤرخين الدكتور أبو لقاسم سعد الله.، محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصر، دراسات ووثائق، وثائق جديدة وصور نادرة تنشر لأول مرة، بيروت، دار ابن كثير، 2007م. ص: 320.

(2) كان شيخ المؤرخين في قمة السعادة وهو يلتقي أهله وطلابه بعد غربة طويلة ومن بين الأشياء التي أتحفنا بها، فقد أعلمنا بإصداره الجديد وهوكتابه الشهير تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول المعلم بنجمتين ليفرق بينه وبين الجزء الأول المعلم بنجمة واحدة، وكنت أجلس إلى جانبه، فتصفحت فهرس الأعلام فعثرت على اسم تبسة، فتتبعت ما يقول عنها أثناء حركة محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي حاول اقتحامها ليجعل منها عاصمة لثورته، ووجد النصرة من أولاد خليفة والعلاونة، والبرارشة وأولاد سيدي عبيد، وأولاد رشاش، وأخذ =

الموقف السابع

قصة تحلية المؤرخ أبو القاسم سعد الله بشيخ المؤرخين الجزائريين

يعود الفضل إلى تنبيهي إلى أهمية تسجيل هذه المواقف مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعدالله إلى زميلي **الأستاذ محمد رحاي** من جامعة سكيكدة الذي يحضر أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ عبد الكريم بوصفصاف، ومن ضمن محاور أطروحته خصص بابًا كاملا للحديث عن سعد الله المؤرخ، فقال لي يوم التقيته بسكيكدة: [**يوم الجمعة 27 ديسمبر2013م**] لماذا لا تكتب مواقفك الشخصية مع الدكتور سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، لأنني أحتاج إلى معرفة الجانب الإنساني في حياة سعد الله، فقلت له: لمن أراد أن يعرف أدق تفاصيل حياة سعد الله الباحث والشاعر والإنسان والوطني الصادق فعليه أن يقرأ "**موسوعة لسان قلم**" [**اليوميات**] التي تشرف الآن على صدور الجزء السابع منها، ثم التقيت الباحث الخلوق **لحسن بن علجية**[1] في المعرض الوطني

يخطط للاستيلاء على الشريعة، وكان قد رسمها في هذه الطبعة بـ"**شريعة**"دون آل التعريف، فقلت له إن هذه البلدة ترسم بأل التعريف فأصلحها بالقلم أمامي، لكن لم أنتبه إلى بقية الأخطاء الأخرى وهو يترجم أسماء العائلات والقبائل والأعراش التي بقيت على حالها لعل الناشر يتدارك هذا الأمر الذي أشرت إليه ونبهت الدكتور محمد العربي معريش إلى ذلك. راجع، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1860/ 1900/ الأعمال الكاملة، المجلد السادس، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000م. ص: 213.

(1) تعرفت على الأستاذ لحسن بن علجية في حدود 2007م/ 2008 يوم كنا نتساجل مع الباحثين الجزائريين في قناة المستقلة حول الأمير عبد القادر والحركة الإصلاحية الجزائرية، ثم أرسل لي كتابه القيم الموسوم بـ "العلامة عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني، حياته وآثاره المطبوع عام 2013م بدار الهدى للنشر والتوزيع. التقيت مع الأستاذ لحسن بن علجية في يوم الجمعة 20 ديسمبر 2013م، وحضر معنا حفل تكريم الشيخ الأديب الأريب محمد الصالح الصديق. أثناء انعقاد نشاط المعرض الوطني للكتاب بقصر المعارض بالجزائر العاصمة.

للكتاب يوم تكريم الشيخ **محمد الصالح الصديق**، فقال لي: هل تذكر إنك الوحيد الذي استمع إليه وهو يقرن تحلية اسم سعد الله **بشيخ المؤرخين الجزائريين**، ثم سألت أصحابي، مسعود كواتي، بشير مديني، فأكدوا لي هده النسبة، والحقيقة التي لا أنساها أنني كنت أسمع منذ عام 1980 الأستاذ الدكتور موسى لقبال رحمه الله إذا حدثنا عن تونس يقول وجاء في **خلاصة تاريخ تونس لأستاذ الجيل حسن حسني عبد الوهاب**، يرددها بحنية خالصة، رغم تحفظي من شخصية أستاذ الجيل هذا وهو قامة عالية في الدراسات التاريخية في الإذاعة التونسية، وغيرها من المؤسسات[1].

ومنذ ذلك الزمن، وأنا في ذهني مكانة روحية عالية للدور الذي يقوم به

---

(1) بادر رجال الإصلاح في تونس منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى تلافي النقص الموجود بعدم إدراج تاريخ تونس في برامج الجمعية الخلدونية، التي أسسوها سنة 1896م، وتدريسه باللغة العربية، وعهدوا بهذه المهمة إلى أبي النهضة التونسية الحديثة البشير صفر، الذي اضطلع بهذه المهمة من سنة 1897م إلى سنة 1908، فوجدت دروسه في التاريخ والجغرافيا الصدى البعيد، لا في تونس فحسب، بل في أقطار المغرب العربي قاطبة، وبعد وفاته جُمعت دروس التاريخ التي ألقاها في الخلدونية في كتاب مستقل بذاته أصدره ابنه مصطفى صفر سنة 1928م، بعنوان "مفتاح التاريخ"، وقد عوض البشير صفر إثر تعيينه سنة 1908م عاملا بسوسة، زميله محمد بن الخوجة، ثم واصل تلك المهمة فيها بعد حسن حسني عبد الوهاب، والصادق الزمرلي، وعثمان الكعاك سنة 1918 أصدر حسن حسني عبد الوهاب كتابًا بعنوان: "خلاصة تاريخ تونس"، نال الكتاب شهرة كبيرة، فطبع عام 1918، و1930، و1953م، و1968، والطبعة المزيدة والمنقحة، قام بها حمادي الساحلي الذي لاحظ أن الخلاصة ينتهي باعتلاء آخر الملوك الحسينيين، محمد الأمين باي، العرش في 15 ماي 1943م، فحرص الساحلي كما يقول على تلافي هذا النقص حتى لا يبقى التأليف مبتورًا، وذلك بإضافة ملحق من إعداده يتضمن موجزًا للأحداث السياسية التي لم يذكرها المؤلف أو أشار إليها إشارة خفيفة، من تاريخ الاحتلال في سنة 1881م، إلى تاريخ الاستقلال في سنة 1956م، راجع حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، تونس، دار الجنوب، للنشر 2001م. ص: 5 وما بعدها.

المؤرخ النزيه سعد الله فبدأت تحليته بهذه الصفة بداية من 1997م، ولم تجد الكلمة صداها بشكل كبير إلا أثناء رحيله عن هذه الدنيا الفانية، وأول نص مكتوب فيه ارتباط اسم المؤرخ النزيه بتحلية شيخ المؤرخين تعود إلى كتابي "تاريخ الجزائر المعاصر"، الذي طبع عام 2001م بدار البلاغ الجزائرية، ودار ابن كثير البيروتية، ومقدمة الكتاب الأولى مؤرخة في الجزائر، يوم الجمعة 17 رمضان 1421هـ/ الموافق لـ 13 ديسمبر 2000م. ثم أهديت كتابي حول المؤرخ محمد بن عمر العدواني كما يلي" إلى شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله أُهدي هذا الكتاب المتواضع"وطبع الكتاب في مارس 2002م/ 1423هـ، كما ظهر الإهداء في الطبعة الجديدة من كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، ووقع تغيير بسيط في الإهداء وهو: **إلى شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله أُهدي هذا الكتاب عربون تواصل بين جيلكم المؤسس وجيلنا الطموح للسير على الدرب السليم**"، طبع الكتاب طبعة راقية بدار كتاب الغد بجيجل لصاحبها الفاضل **الأستاذ محمود ميراجي**، كما ظهرت التحلية في دراستي في الكتاب التكريمي الذي أصدره مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، ولم أجد من حلاه بهذه التحلية، والله شاهد على ما أقول، وسعد الله أهل لكل خير لأنه من بنى للجزائر هذه الأهرامات الخالدة، تاريخ الجزائر الثقافي، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وعشرات الكتب المحققة والمترجمة إضافة إلى إبداعاته منذ بدأ يكتب القصيدة الحرة بتونس عام 1947م. هذا التحلية مع وصف فرنسا[بمغول القرن التاسع عشر والقرن العشرين] لصيقة بي في أعمالي وحصصي الإذاعية، ولن أتركها حتى ألقى الله سبحانه وتعالى وأنا أقول أن المواطن رقم واحد في هذه البلاد من أيام إنسان تيغنيف، أي من عشرة آلاف

سنة قبل الميلاد إلى إنسان الطاسيلي وجدتهم الخرافية **تينهينان** إلى اليوم، هو المواطن المؤرخ النزيه الذي حبب لنا الجزائر وكره لنا العودة إلى الجاهلية، مهما كان زخرفها هو مؤرخ الأجيال كما قال صديقي المرحوم إبراهيم مياسي وشيخ المؤرخين، وقدوة الباحثين الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وجعل قبره روضة من رياض الجنة امتدادها على امتداد بصره يوم كان شابًّا يافعًا.

الموقف الثامن
في ملتقى مؤرخ سوف مانعة الهارب الشيخ محمد بن عمر العدواني

يعود هذا الموقف إلى عام 1999م، فقد ذهبنا كعادتنا في عطلة الشتاء إلى بلدة الزقم ببلدية حساني عبد الكريم بوادي سوف، وكنت إلى جانب الدكتور إبراهيم لونيسي فحدثني عن رسائله إلى شيخ المؤرخين إلى الأردن، وأنه قد وصلته في هذا الأسبوع رسالة هامة فكان يحدثني بشوق كيف كان ينقل للدكتور وهو في غربته بأمريكا أو الأردن أخبار الجزائر في رسائل خطية، وفعلا أشار الدكتور سعد الله إلى جانب من هذه الرسائل مرة بالإشارة، ومرات أخرى بذكر أصحابها[1] كنا نتذكر شيخ المؤرخين، ثم ذهبنا إلى رمال قمار وجربنا صعود هذا

(1) ذكر سعد الله لونيسي قائلا: وصلتني [الجمعة 25 فبراير 1994]رسالة من أحد طلبتي وهو إبراهيم لونيسي، الذي يدرس في ثانوية ذراع الميزان، أخبرني أنهم يحضرون كتابًا عني في معهد التاريخ وأنهم قد كلفوه بكتابة كلمة عني فاختارني كباحث... وهذه مفاجأة لا أدري إن كانت ستتم. نعم يا شيخ الكرام تمت وطبع الكتاب بعناية وتنسيق الدكتور ناصر الدين سعيدوني، ببيروت، دار الغرب الإسلامي، [دراسات وشهادات مُهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله]2000/ 598 صفحة. كما أخبره لونيسي بوفاة المناضل حسين لحول وعبد الرحمن =

الجبال الكبيرة من الرمال الناعمة فقال لي لونيسي، هنا كان يلعب سعد الله في أيام طفولته وشبابه، ثم قال سأذكر شيئًا للدكتور عن زيارتنا هذه إلى قمار وسأذكر له تحديدًا من كان معي في لعبة الصعود والهبوط في تلال ورمال قمار الناعمة. ثم اقترح علينا الأستاذ مسعود كواتي والأستاذ مديني بشير زيارة قمار، بلدة شيخ المؤرخين وآل سعد الله، الأول لزيارة شقيقته، والثاني ليلقي نظرة على أهله وخاصة خاله أستاذ الفلسفة الذي نعرفه جميعًا من كثرة زيارتنا إلى قمار، وفي أحيان أخرى كنا نزور الأستاذ الفاضل الذي حببه لنا الدكتور سعد الله خِلَّهُ الوفي الشاعر الأديب الموسوعي محمد الطاهر التليلي[1].

لقد كان يقرأ لنا بعض أعماله، كما كان يستشيره في كثير من غرائب المصطلحات وأسماء أعلام وهو يحقق تاريخ الشيخ محمد بن عمر العدواني[2]،

=

العقون وبعض المثقفين الذين تحصدهم الفتنة الحاضرة كما عبر سعد الله، راجع لسان قلم، الجزء السادس، ص: 57/ 58/ 77/ 85/ 145/ 460.

(1) لن أنسى اللقاء العلمي والودي الذي جمعنا نحن الأساتذة(محمد الأمين بلغيث، مسعود كواتي، إبراهيم مياسي [رحمه الله]) بالشاعر خفيف الظل والعالم المتبصر محمد الطاهر التليلي [16 رمضان 1424هـ/ 11نوفمبر 2003م] ببيته يوم 10 أكتوبر 2001م، [رحمه الله] وقد طلب مني(كاتب هذه السطور) قراءة ديوانه الأخير، وكلما تلعثمت في قراءة شعره إلا وأدركني بذاكرته القوية مُصَحِّحًا القواعد والنحو بصورة رائعة، وكلما طلبنا منه نسخ قصيدة أو رسالة كان دومًا يتحجج فيقول بعد موتي، أو أن نسخة أصلية عند بلقاسم(وبلقاسم في حديثه هو شيخ المؤرخين سعد الله رحمه الله). راجع حياته وآثاره/ الدكتور إبراهيم رحماني، الشيخ محمد الطاهر التليلي، جهوده في البحث الفقهي والإفتاء الجزائر وادي سوف، مطبعة سخري، 2011م.

(2) كان الشيخ الطاهر التليلي من أصفياء شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، يرد اسمه كثيرًا في أعماله بل قال لنا لقد نزعت من يديه نزعًا هذا الديوان "الدموع السوداء". وطبعها الدكتور في وقته فعرفنا قيمة هذا الكنز المدفون الذي عاش على الهامش لكنه أصبح مركزًا من خلال ورود اسمه كثيرًا لدى سعد الله المحقق والمؤرخ الموسوعي. كما كان سعد الله يستعين بها أشكل عليه

=

ثم عدنا إلى ديارنا بعد هذا الملتقى الخاص بالشيخ محمد بن عمر العدواني، وبالمناسبة فشيخ المؤرخين لا يحبذ هذه المشاركات الإخوانية[1].

الموقف التاسع

سعد الله الإنسان... وقصة إرسال نسخة من أطروحتي للدكتوراه إلى تلمسان

يعود هذا الموقف إلى شهر ديسمبر 2002م، حينما جئت إلى المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، لأقدم النسخة النهائية من أطروحة الدكتوراه إلى الأستاذ الدكتور **عبد المجيد بوجلة** ليحملها إلى تلمسان ومن هناك إلى أستاذي **الخلوق الفاضل عبد الحميد حاجيات**، ولما اقترب شيخ المؤرخين مني ليسلم علي في مكتب الكاتبات بالمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، سقط المجلد الأول فقال سعد الله رحمه الله، "وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ"[2].

= وهذا بالاتصال بالشيخ عبد المجيد بن حبة، والشيخ المهدي البوعبدلي والشيخ أمقران السحنوني، وكان يؤرخ لاتصاله بهم في كتبه أو في لسان قلم.

(1) للأمانة وللتاريخ ولله سبحانه وتعالى، نعم نصحني شيخ المؤرخين أن هذه الملتقيات لا تنفع، بل هي مضيعة للوقت، ولكن أنا أقول للحقيقة، أن هذه الملتقيات هي التي عرفتني أولا بهذا الوطن الكبير وهو دولة بحجم قارة، وعرفت التنوع السكاني والجغرافي وشخصية هذا الإنسان الذي قهر فرنسا الاستعمارية، كما تعلمت في هذه الملتقيات أن الناس معادن كما يكرر شيخ المؤرخين، إذا خاب ظنه في إنسان يعتبره من أبنائه.

(2) لعل شيخ المؤرخين بقوله ها قد كشفت عن ساقيها، وهي أطروحة كبيرة في مجلدين من857 صفحة خضراء تسر الناظرين فقال وكشفت عن ساقيها، ربما متمثلا وهو الحافظ لكتاب الله سبحانه وتعالى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ =

ثم قام الشيخ المتواضع برفع الجزء الذي سقط أرضًا وطلب ورقًا من الكاتبة، ثم ساعدني في لفه وتسليمه إلى الأستاذ بوجلة، فحمل المجلدين معه إلى تلمسان.

الموقف العاشر
أستاذ فاهم ياسر يسخر مني بعد مناقشة الدكتوراه

ناقشت أطروحة الدكتوراه يوم 15 ماي 2003م، وأكون بذلك ثالث ثلاثة من دفعتنا الذين ناقشوا تباعًا، الأول يوسف مناصرية الذي ناقش في يوم شديد البرودة، وهو الطالب الذي أشهد أمام الله أن شيخ المؤرخين سعد الله كان ينعته بصدق بالابن البار، وكان طالبًا متواضعًا فكوَّنه سعد الله تكوينًا لم أعرف أن أحدًا من الخلق قد قام به حتى مع أخلص أبنائه من صلبه، وأشهد أن الموقف الذي رأيته بأم عيني يوم المناقشة يدل على هذا الود والحب، فقد ذرف سعد الله دموعًا من أجل هذا الطالب الباحث يوم مناقشته للدكتوراه.

أما الباحث الثاني من دفعتنا فهي الدكتورة عائشة غطاس فقيدة البحث العلمي كما نعتها الدكتور سعد الله على صفحات جريدة الشروق اليومي يوم تم اغتيالها ببرودة أعصاب من طرف أحد جيرانها في 10 ماي 2011م. وكنت ثالث ثلاثة يناقش أطروحته للدكتوراه بعد أقل من سنة من أصحابي في المعاصر والحديث.

أتذكر جيدًا هذا الموقف، بعد مناقشتي لأطروحة الدكتوراه طلب مني زميلي مسعود كواتي رئيس قسم التاريخ بجامعة الجزائر، معاونته في تأطير الدراسات العليا، تخصص التاريخ الإسلامي الوسيط، وكنت قد ترقيت إلى رتبة أستاذ

=

صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النحل 44].

محاضر مرسم في دورة اللجنة الوطنية الجامعية في شهر جويلية 2003م. وتكونت لجنة متابعة الإعداد للمسابقة في قسم التاريخ من أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي موسى لقبال، والدكتور سعد الله شيخ المؤرخين والعبد الضعيف صاحب هذه المواقف إضافة إلى الأستاذين صابر الشريف، والأستاذ حارش محمد الهادي ،الدكتور رحماني، وأشهد على نزاهتهم في هذه المسابقة، وفي صبيحة يوم من الأيام ونحن ندون قائمة الطلبة الذين دخلوا المسابقة، دخل أستاذ من الجيل الثاني، يحسب نفسه شيئًا كبيرًا، فصافحنا بعد أن سلم علينا وكنت أكتب والدكتور سعد الله يملي علي الأسماء بهدوء ورزانة، ثم قال **الدكتور الفاهم ياسر**، يا أستاذ سعد الله بلغيث أصبح دكتورًا، قال له سعد الله بانفعال، بلغيث دكتور من زمان، وتركه جانبًا وقال لي أكتب يا أستاذ، فخاب مسعاه ورجع خائبًا من نكتته البائخة.

الموقف الحادي عشر
شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله القارئ الأبدي

وبعد حوالي ثلاثة أشهر ونصف من هذا الموقف لَبَّيْنَا دعوة مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري، بقسنطينة من أجل المشاركة في أعمال الندوة التكريمية التي أقامها المخبر للدكتور سعد الله، تحت عنوان هام "الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين يومي 12 و13 يناير/ جانفي 2004م"، وبالمناسبة وحتى لا تفوت الفرصة فندونها بعد أن كانت تتداولها الألسن شفويا أن طلبة سعد الله الذين حضروا الندوة، الأول طالبه وصفيه **الدكتور إبراهيم لونيسي**، وطالبه الأول من أيام الدفعة الأولى للماجستير رغم أنه لم يشرف على أعماله هو العبد

الضعيف[محمد الأمين بلغيث]، ففي اليوم الثاني أعتقد أنه اليوم الموعود لأقدم مداخلتي الموسومة بـ"**أبو القاسم سعد الله محقق التراث الجزائري، عيِّنَة من التراث الجزائري**"[1] وفي حضرة المحتفى به، نهضت باكرًا كعادتي هيأت نفسي، أديت صلاتي، وكانت الساعة السادسة والنصف صباحًا قلت في نفسي هذا موعد الإفطار قد بدأ في نزل بانوراميك بقسنطينة، فنزلت الهوينى، فوجدت شخصًا واحدًا منعزلا يتناول إفطاره، فإذا به شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله فألقيت عليه تحية الإسلام، واستأذنته في مشاركته هذه الطاولة فرحب بي، وجلسنا مدة طويلة، تحدثنا فيها عن عديد القضايا، ثم نهضنا، ونحن في طريقنا إلى غرفنا بالنزل، قلت له بالمناسبة يا أستاذ نكمل حديثنا في غرفتكم، **قال لي لا يا سي بلغيث أنا ذاهب لأقرأ، فقلت له على سبيل النكتة وبدارجة جزائرية، نعم صحيح أنت تعرف أنني ختمت القراية [إشارة إلى مناقشتي للدكتوراه في شهر ماي 2003م]، أما أنت فلا تزال صغيرًا أقرأ على روحك؟** فتبسم وشدني من يدي وقال تعالى انظر إلى الطبعة المفاجئة التي وصلتني من دار **الغرب** الإسلامي لمجلة البصائر، فجلسنا مدة وتركته يلملم أشياءه في انتظار موعد السيارات التي ستنقلنا إلى قاعة المحاضرات.

الموقف الثاني عشر
سفري إلى وهران وقصة كتاب خارج السرب

أتذكر أيضًا أنه بعد عودتنا من قسنطينة بعد الأيام التكريمية التي أقامها

---

(1) طبع هذا البحث في الكتاب التكريمي، كما نُشر مرة أخرى في كتابي دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي في طبعته الأولى عام 2006م وأهديته إلى الدكتور سعد الله عن طريق الأستاذ المرحوم إبراهيم مياسي، كما طبع المقال ضمن كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية في طبعته الثانية عام 2007م.

مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، كنت أشاهد سعد الله من بعيد، ولكن أغلب الأوقات كنا نسلم عليه في المركز وللشهادة والأمانة ففي السنوات الأخيرة بعد عودته من الأردن، كنا نشاهد سعد الله مواظبا على مكتبه بالمركز الوطني بالأبيار[الجزائر العاصمة]، وهذه خصلة وسلوك حضاري يشكر القائمون عليه، كما خصصوا له كل وسائل الراحة لإنجاز أعماله ومنها على ما أعتقد التاريخ الثقافي للثورة الجزائرية المباركة [1954/ 1962م]، ومشروعه الذي أعلن عنه مرارًا وهو كتابة تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى غاية نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد بلغني أنه أكمل عمله وسلمه إلى يد أمينة، وهو ما أشار إليه صاحب دار المعرفة، يوم الثلاثاء 17 ديسمبر 2013م في تأبينية الشروق الجزائرية.، كما قال أن أعماله الكاملة ستظهر بإذن الله في 63 مجلدًا بعدد سني حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. كما وجد سندًا قويّا من الشاب الخلوق مراد وزناجي الذي قال يوم تأبينه: لم يكن سعد الله عندي أستاذًا فقط، بل عوضني غياب وموت والدي، بل قال كنت أحسب نفسي خادمه، ولهذا فاز هذا الشاب بكل مكنونات شيخ المؤرخين، فحاوره في أدق تفاصيل أعماله وحياته، كان بالإمكان أن يتحول هذا العمل والاجتهاد إلى حوار معرفي شامل، لو حسنت النيات ولكن قضاء الله وقدره، أسبق من كل الأمنيات، وذهب سعد الله إلى ربه يشكو ظلم الخصوم الذين ضيقوا على مؤرخ كبير، وأفسدوا مسار بلد عملاق كالجزائر، قلت عدت بعد هذا الاستطراد، وأثناء استعدادي لمغادرة العاصمة في نهاية شهر جوان 2004م للمشاركة في مناقشة رسالة ماجستير، أو أطروحة دكتوراه بمدينة الباهية، وهران هتف لي شيخ المؤرخين ليلا، وقال لي: **يا سي بلغيث**، بلغني أنك مسافر إلى وهران، وعندي أمانة عند إنسان في وهران،

فقلت له أنا سأقيم في فندق بوسط المدينة، وبعد وصولي بساعة تقريبًا جاءني شخص لم يسبق أن عرفته، وسلمني ظرفًا كبيرًا مكتوب عليه **خارج السرب**، تأليف الدكتور أبو القاسم سعد الله، يبدو أنه نسخة أخيرة[بروفة]للتصحيح النهائي جاءت من الناشر الأستاذ الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي ببيروت(1).

ولما عدت إلى العاصمة سلمت الأمانة إلى صاحبها بالمركز الوطني بالأبيار، فشكرني بأدب جم كعادته.

الموقف الثالث عشر

هدية متواضعة إلى شيخ المؤرخين

أول كتاب أهديته بيدي إلى شيخ المؤرخين هو الطبعة الأولى لكتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، الذي طبعته دار أنتير سينيي، في مارس 2002م، وأعتذرت له عن رداءة الطبعة، وضعه في حقيبته ولم أسمع تعليقًا، ثم جاءت الطبعة البيروتية لكتابي تاريخ الجزائر المعاصر الذي أعتز به كل الاعتزاز(2)، فاخترت نسخة قشيبة، وكتبت الإهداء إلى شيخ

---

(1) طبع آخر السرب على مطابع دار الغرب الإسلامي لصاحبها الأستاذ الحبيب اللمسي، ببيروت عام 2005م.

(2) سألني يومًا "**أبو مالك محمد علي ميستو**" حفظه الله صاحب دار ابن كثير العامرة عن عدد أولادي وكنت آنذاك مع واحد من طلبتي وهو **الأستاذ مهدي صادق**،صاحب مكتبة عبد الحميد بن باديس بالضاحية العاصمية الشهيرة "باب الواد"، ليسلمني الطبعة الثانية من كتابي المطبوع حديثًا ببيروت عام 2007م، قال يا دكتور كم عدد أولادك فقلت له، أما أولادي من صلبي فثلاثة، بنتان وولد، وأما أولادي من بنات أفكاري فعشرة [آنذاك] أَجَلُّهم عندي: "**المدخل إلى السيرة النبوية والخلافة الراشدة** "والثاني "تاريخ الجزائر المعاصر"، فأعجبه الإطراء، ووعدني بطبعة ثالثة مجلدة، يُصَحِّحُ من خلالها الأخطاء الفنية التي وقع فيها صاحب المطبعة =

المؤرخين وكنا في حضرته بالمركز وقلت له وأنا أقترب من أذنه، أهديك هذا الكتاب العزيز علي، ولكن إذا وجدتني سرقت الكثير من غيري ومنكم تحديدًا فلا تقل للناس[قلتها بالدارجة الجزائرية ما تَبَيَّعش]، قال بعد ابتسامة عريضة، **يا سي بلغيث** كلنا نأخذ من هنا وهناك ولكن إياك أن يعرف الناس تجاوزك لحدود السرقة[والفاهم يفهم]، فكانت علامة الرضا بادية عليه وهو يتصفح الكتاب، أو هكذا ظهر الأمر لي هو أن أهدي إلى المؤرخ النزيه أغلى ما وصل إليه اجتهادي. [أظن أن هذا الموقف حدث في حدود 2003م] بعد عودته من الأردن وكان قبل هذا قد سألني هل وصل كتابك تاريخ الجزائر المعاصر من بيروت، لأن البعض من الجزائريين قد تمكنوا من اقتناء الكتاب من سوريا أو لبنان قبل أن يصل إلى الجزائر. وللأمانة معظم كتبي التي طبعتها بداية من 2006م، أرسلت نسخًا منها إلى شيخ المؤرخين عن طريق الدكتور **إبراهيم مياسي** رحمه الله[1]

الموقف الرابع عشر

ملتقى عقبة بن نافع رضى الله عنه

حضرنا الملتقى الوطني الخامس [بسكرة عبر العصور]، أيام 11، 12، 13

=

وهذا حينما أهمل فنيات برمجة المطبعة على نظام طبع الجداول الواردة في الكتاب. فقد قام الناشر بطبع الجداول وألصقها في مكانها بطريقة فنية رائعة.

(1) أرسلت إلى شيخ المؤرخين عن طريق زميلي المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي كتابي تاريخ الجزائر المعاصر في طبعته الأنيقة الثانية وكتابي: "دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي" الذي احتوى على دراسات مطولة حول أعمال سعد الله نفسه، وكتابي نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي، وأظن أنني أرسلت له "فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي"، المطبوع أيضًا عند ناشري الأول الذي طبع كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني، في طبعة متواضعة، كما أرسلت له في وقتها في حدود نهاية 2007م، الطبعة الأنيقة لكتابي "الشيخ محمد بن عمر العدواني" وكتاب "الجزائر في باندونغ"، وهما مطبوعان بجيجل طبعة أنيقة، كما أشرت إلى ذلك سابقًا.

ديسمبر 2006م، بالمركب الإسلامي بسيدي عقبة، وكان الدكتور شيخ المؤرخين من الحضور البارزين، وكانت اللجنة العلمية للملتقى قد أجمعت على تكريم الدكتور موسى لقبال رحمه الله، وكان الحضور من مختلف البلدان العربية من لبنان والمملكة العربية السعودية وتونس وليبيا، والجزائر طبعًا، ويبدو أن مستوى الملتقى لم يرق للأستاذ سعد الله، وهو ما عبر عنه صراحة في كلمته، وللأمانة أنا من أشرف على الجلسة الختامية للملتقى، وحدث أن وقع تغيير في التكريمات فبدلاً من تكريم الدكتور لقبال، استقبلوا شيخ المؤرخين بما يليق به بحفاوة ظاهرة أثارت حفيظة مؤرخ الجيل الأستاذ الدكتور موسى لقبال[1]، فكان شيخ المؤرخين يجهل أسباب توتر الدكتور موسى لقبال، وطلب مني أعضاء الجمعية الخلدونية أن أتوسط لدى شيخ المؤرخين ليقول كلمة بالمناسبة، مناسبة التكريم، وبمناسبة اختتام الملتقى، الخاص بعقبة بن نافع رضي الله عنه.

قبل شيخ المؤرخين الأمر مكرهًا لحساسية الموضوع، وكلمته كلها واضحة في أنه لم يرض عن المداخلات التي قدمت في هذه الجلسة تمامًا، لكن للأمانة حضر شيخ المؤرخين الجلسة المسائية التي تداول على منصتها مجموعة من الباحثين ورأينا تململا من الدكتور سعد الله، [وقد ذكر لي أحدهم تبرم شيخ المؤرخين من جل المداخلات إلا مداخلتي أنا العبد الضعيف ومداخلة الدكتور مراد اليعقوبي التونسي، وقال كلامًا لا أعرف أن المؤرخ الخلوق يصدر منه]، والحقيقة للتاريخ

---

(1) كانت الترتيبات تقتضي تكريم الأستاذ المؤرخ موسى لقبال، وهو ما أخبرني به في وقته كل من الدكتور رأس المال عبد العزيز مدير الثقافة الإسلامية، بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، سابقًا، والأستاذ مسعود كواتي، من جامعة غرداية، وهما معًا من اللجنة العلمية إضافة إلى الأستاذة المذكورين في كتاب الملتقى، وكان حضور شيخ المؤرخين قد أثار فرحة عارمة عند المنظمين والمشرفين فكان الشخصية الأولى في الملتقى دون منازع.

أن شيخ المؤرخين يتعالى عن هذه المصطلحات، وقد أوردت هذا الموقف من شخصية كبيرة لا أملك إلا أن أصدقها ولكن ليس بهذه اللغة[1].

والحقيقة فعلا أن الأستاذ مراد اليعقوبي التونسي باحث متمكن من تخصصه، وباللغتين الفرنسية والعربية، تمكن من شد الحضور، بأسلوبه الراقي وبلغته العربية الجميلة، رغم أنه تخرج في جامعة السوربون، وناقش دكتوراه الدولة حول التاريخ الحربي لعصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أما العبد الضعيف فقد قدم مقاربة مقبولة حول شخصية **كسيلة بن لزم** الذي قاتل عقبة وقتل أصحابه في المعركة الشهيرة التي أدت إلى استشهاد من كان مع عقبة من الصحابة والتابعين ومن بينهم حليفه أبي المهاجر دينار.

الموقف الخامس عشر

قناة المستقلة اللندنية تصنع الخصومة بين الأقران

هذا موقف تطول حيثياته، وتداخلت أسبابه، لهذا سأحكي وأتكلم عن الموقف ولن أنتصر لنفسي، أذكر أنه مع مطلع العام الجديد خلال سنتي 2007م و2008م، اتصل بي الدكتور الهاشمي الحامدي، وقد زكاني بعض الصالحين

(1) الدليل الذي يبرئ شيخ المؤرخين من سفاسف الأقوال قوله: ما تزال اليوميات مستمرة، [لسان قلم] ومادة الجزء السادس بصدد الإعداد، وقد كتبتها أثناء محنة الجزائر، ولا أدري بأي تاريخ ستنتهي اليوميات كاملة وعندما تكتمل وينقضي أجل صاحبها فقد تصل إلى عشرة مجلدات، وأخيرًا أكرر ما قلته في المقدمات السابقة وهو أنني أطلب العفو ممن جاء ذكرهم في اليوميات بتعبير ظرفي وحكم قد يكون متسرعًا، وليس استنتاجًا صادرًا بعد دراسة وروية، ومن طبعي أنني لا أسيء إلى أحد حتى للذي أساء إلي، نعوذ بالله من نزعات الانتقام ومن نزغات الشيطان، قال شيخ المؤرخين هذا الكلام الجميل في مقدمة الكتاب المؤرخة في 06 مارس 2010م. طبع المجلد السادس في حياة المؤلف، والجزء السابع هو قيد الإعداد وقد أكد لنا صاحب دار المعرفة هذا الأمر.

عنده، للمشاركة في ندوة تبثها **قناة المستقلة اللندنية**، بمناسبة ما تعرض له النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد ظهور الرسوم الكاريكاتورية بأوروبا والسويد والنرويج خصوصًا، فكانت الحلقة الأولى حول هذا الموضوع"**لماذا نحبه**"، شارك فيها على المباشر وعن طريق الهاتف العبد الضعيف[محمد الأمين بلغيث]، والأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم. ومن المملكة العربية السعودية مدير **دار المنهاج**، وكانت الحلقة مقدمة أولى لاتصالات متعددة مع قنوات عديدة كقناة الجزيرة الوثائقية[1]، والحوار، وبعد مدة اتصلت بي سيدة إعلامية، تعيش في لندن، تخرجت من قسم الفلسفة بقسنطينة تدعى **دليلة راشي**، تقول أنها درست التاريخ على يد الدكتور **عبد الكريم بوصفصاف**، لتقول أنهم سطروا برنامجًا طويلا حول شخصية وآثار وجهاد الأمير عبد القادر، فقالت لي هل بإمكانك أن تقدم لنا الخطوط العريضة للبرنامج، وبالمناسبة، ذكرت لها أننا يجب أن نتفق أولا على أمور ثلاثة:

الأول: أنا من يعد الخطوط العريضة لحلقات الأمير عبد القادر.

الثاني: يجب أن تلتزم القناة بدفع حقوقنا المادية والحفاظ على حقوقنا الأدبية.

الثالث: أنا من أقترح المتحاورين، وإن بدى لكم الاستعانة بشخص غير

---

(1) سجلت ببيتي ما يقارب الأربع ساعات لحساب قناة الجزيرة الوثائقية، مع فريقها بباريس والمتعاون معها نور الدين بزيو، هكذا قدم نفسه، واتفقت مع الفريق على أجري المادي، فوعدني الصحفي الجزائري المقيم بباريس بهذا بعد المونتاج والتسجيل وقد بثت مجموعة من الحلقات في برنامج أرشيفهم وتاريخنا، وقد حاولت الاتصال بهم مرارًا ويبدو أن حقي سقط بالتقادم، ولا تزال هذه الحلقات تُبَثّ إلى اليوم.، وهو ما أثار حساسية **الذين يتقولون ولا يعملون، ويزعجهم أن يعمل الآخرون**، كما قال زميلي مسعود كواتي في كتابه تاريخ الجزائر المعاصر، وقائع ورؤى، المطبوع بدار هومة للنشر، عام 2011م.

الذي أقترحه على القناة، فعليكم أولا أن تخبروني بالأمر.

وفعلا التزمت القناة بكل هذه الشروط ما عدى حقوقنا المادية[1].

كانت الحلقات الأولى حول الأمير عبد القادر نوعًا ما بسيطة دارت بيني وبين الدكتور عبد اللطيف بالطيب[2]، ثم اقترحت على القناة اسم المؤرخ إبراهيم مياسي، فشاركنا في معظم حلقات الأمير، وفي نهاية الحلقات انضم إلينا الأستاذ والإعلامي

---

(1) أنا أدين إلى هذا القناة بانتشار اسمي بين المشاهدين على الأقل في البلدان التي وجدت فيها معارف واتصالات وتدخلات، ومنها مصر، تونس ليبيا، المغرب الأقصى المملكلة العربية السعودية، فرنسا، بلجيكا. والجزائر خاصة.

وقد قدمنا للقناة ما يزيد عن سبع وسبعين ساعة بث هي كما يلي: [أ]37 حلقة خاصة بتاريخ الأمير عبد القادر [تدخل في حلقاتها كل من العبد الضعيف [محمد الأمين بلغيث]، والدكتور عبد اللطيف بالطيب من أستوديو القناة بلندن، الدكتور المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي، الأستاذ **مديني بشير**، وتدخل الأستاذ [خلدون مكي الحسني] ممثل أسرة الأمير عبد القادر وفرعها العلمي بدمشق، فك الله أسره، وتدخل في 12 حلقة، وتدخل معنا واحد من ممثلي الطريقة التجانية وهو محمد الحبيب التجاني وللأمانة كان خلدون مكي إذا بدأ محمد الحبيب التيجاني يتكلم يقطع الهاتف.]؟. [ب]27 حلقة خاصة بالحركة الإصلاحية وإمامها العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وتدخل في حلقاتها عبر الهاتف الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، والأستاذ محمد الهادي الحسني، والدكتور عبد الرزاق قسوم، والعبد الضعيف [محمد الأمين بلغيث] و [ج]13 حلقة حول الرئيس الراحل هواري بومدين، وكانت بيني وبين الدكتور إبراهيم لونيسي، وأما الحلقة الأولى فقد سجلتها وأنا بدمشق الفيحاء، وكانت معي في الحلقة وعلى المباشر السيدة حرم الرئيس. وكان المحاور مدير القناة الدكتور الهاشمي الحامدي، أما بقية الحلقات فقد أدارها الإعلامي الجزائري القدير [محمد مصدق]، ثم بعد ذلك الإعلامي **[شيخي توفيق]**.

(2) الدكتور عبد اللطيف بالطيب أصيل خنقة سيدي ناجي، ولاية بسكرة، باحث متخصص في الرياضيات وعلى درجة عالية من الوعي صاحب ثقافة موسوعية، شاركنا معظم حلقات الأمير والحركة الإصلاحية من أستوديو قناة المستقلة بلندن وكان بيني وبينه انسجام كبير ورؤى مشتركة، والتقينا بعد ذلك بالجزائر العاصمة وبمدينة بسكرة، وهو أستاذ باحث في اسكتلندا، ثم انتقل العام الماضي إلى مدينة **جيبل** بالمملكة العربية السعودية. [2012م]

المتميز بشير مديني، الذي كان وفيًّا لخط شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله ولم يتركني لوحدي ونحن نواجه التزييف والتزوير ولي الحقائق وبخس الناس أشياءهم، فكانت معركة كبيرة تُدار بين جيل شاب من المؤرخين الذين يقرؤون للخبير بمناهج الغرب، والعارف بخبايا أصحاب الذاكرة المقطوعة، وبين الذين لا يعلمون، ويزعجهم الذين يسجلون ويكتبون ويجتهدون، لأننا فهمنا من مناهج التاريخ عند سعد الله أن تاريخ حضارة ما يمثل الوحدة والاستمرارية عندها، وليس هناك قديم ووسيط وحديث في التاريخ إلا عند المتعلمين[1].

فكان الموقف الأول مع سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، يتمثل في اتصال حرم الدكتور الهاشمي الحامدي التي طلبت مني هاتف المؤرخ الشخصي فكلمته من أجل الفصل في خلاف في المنهج والجوانب المعرفية بيني وبين خلدون مكي الحسني من دمشق، فقالت لي السيدة أن الدكتور المؤرخ وافق على المساهمة، وفي صبيحة يوم الحلقة، رن هاتفي المحمول وأنا أتناول قهوة الصباح، قال السلام عليكم أستاذ بلغيث، قلت: خيرًا إن شاء الله، قال بدعابة مشهورة عن شيخ المؤرخين: أنت تعرف يا أستاذ أنني من كبار السن ولا سلطان للنوم علينا، وليس كما هو حال الشباب اليوم، ثم قال لي: لخص لي ماذا تعرف عن أحمد باي، ثم ماذا قلت أو كتبت أنا شخصيا؟ فلخصت له عن ظهر قلب ما ذكر بالتفاصيل المملة عن أحمد باي، قال إذن أنت من يمثلني لدى **قناة المستقلة**، في هذا الموضوع وتحدث بهذا الكلام على لساني، إذا أحببت.

(1) راجع، أبو القاسم سعد الله، الخوف من التاريخ [أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الأعمال الكاملة للدكتور أبو القاسم سعد الله، رقم. 10، المجلد الثاني [3 ـ 4 ـ 5]، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2ص: 13.

فشكرته، ثم قبل أن يتمم المكالمة، قال لي بالمناسبة لقد أرسلت إلى أخي علي وطلبت منه أن يبين لي قناة المستقلة في هذا **البرابول**[الهوائيات المقعرة] وقد فعل وأنا أسمعكم، فكانت هذه الكلمات جواز مرور لي ولأحبابي الذين يتحاورون مع الناس خاصة إذا كان البث مفتوحًا وعلى المباشر.

وفي المساء أخبرتني السيدة أن **الدكتور سعد الله** اعتذر عن التدخل نظرًا لظروفه الصحية، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن شيخ المؤرخين يتجنب وسائل الإعلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبعد نهاية حلقات الأمير عبد القادر شرعنا في حلقات أخرى ومع أصحاب الكعب العالي من جيل الرواد ومحبي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وفي خضم هذا النجاح الإعلامي، ونظرًا لحساسية الأقران اجتمع البعض من الذين أزعجتهم حلقات قناة المستقلة اللندنية التي لم تتصل بهم، واتصلت بمؤرخ غير متخصص كما يقولون[1]، وكما يشيعونها عند مريديهم الذين لا يحسنون الأدب مع غيرهم.

التقى جمع من هؤلاء تحت وصاية إتحاد المؤرخين الجزائريين[2]، وكان شيخ

---

(1) أُثيرت هذه القضية في ملتقى النوازل والتاريخ المنعقد بجامعة المسيلة، في 18 و19 نوفمبر 2013م [في جلسة خاصة] وكان المتحدث قد أشار إلي شخصيا، مذكرًا بأني أقتحمت مجال الراهن والتاريخ الحديث رغم تخصصي في التاريخ الإسلامي الوسيط وهذا في جلسة حميمية مع المؤرخ المغربي المتميز إبراهيم القادري بوتشيش، فقال له: التاريخ حلقات متواصلة، فمن لا يحسن تتبع هذه الحلقات، فعليه أن يترك الأمر لأهله، وهو نفس الكلام الذي كتبه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله قبل هذا الموعد بثلاثة عشر سنة، كما هو ظاهر في رسالته إلى كاتب هذه المواقف.

(2) حضرت ندوة المؤسسين لاتحاد المؤرخين، في زرالدة سنة **1994**م، فقد دعتني لجنة التنظيم =

المؤرخين لا يعلم ما يبرمج له أو **ما دبر بليل** من بعض "**الفراريج**" التي صاحت باكرًا وقبل الأوان كما قال أسلافنا عن ثورة الشيخ محمد المقراني رحمه الله، فروج صاح باكرًا من مجانة وبرج بوعريريج[1].

تكلم أحدهم وقال "**إن تاريخ الجزائر يُسَطَّحُ عبر القنوات الأجنبيةِ**"، وفهم شيخ المؤرخين الرسالة وقال لهم من العيب أن تذكروا **محمد الأمين بلغيث**، وهو غائب، وبلغيث كتب ما لم تكتبوا أنتم".

لا علينا الرواية واضحة وتدخل في حسد الأقران أو الحسَدَة كما يسميهم الإمام أبو بكر محمد بن العربي المعافري صاحب أحكام القرآن، وقانون التأويل، وتمت العملية وكنت في غفلة من أمري لأن السَّهم جاء من واحد اعتقدت فيه الخير، وبتواطؤ أو سكوت أحد رفاقي الأعزاء الذي شاركته في أفراحه وأطراحه، وبعد حوالي أسبوعين من الحادثة المشهودة بالمركز الوطني بالأبيار، ورغم اعتذارات الأمين العام لشيخ المؤرخين إلا أن سعد الله غضب لهذا الفعل غير

=

للمشاركة في الانتخابات فجئت رأسًا من باريس وتمكنا من انتخاب اللجنة المديرة، فكان الأمين العام يوسف مناصرية، والمكلف بالثقافة والنشر والمجلات مسعود كواتي، ولكن شهر العسل لم يدم طويلاً، فأنهى من أراد لهم الأمين العام أن يساعدوه في إدارة الاتحاد الود الذي كان بين جيلنا من المؤرخين الطموحين على درب الكبار، وسلم ناصيته إلى مريديه أو من اعتقد أنهم عنصر تجميع فصدق فينا جميعًا قول الحكيم الشاعر:

علمته الرماية كل حين... فلما اشتد ساعده رماني

(1) هذا مثل قاله أسلافنا في وقته للتنبيه إلى قاعدة مشهورة: " من استعجل الأمر قبل أوانه عوقب بحرمانه". كما أنها تستنكر التسرع في اتخاذ المواقف العاطفية قبل الاستعداد لها وأخذ الاحتياط الواجب، ولا يعني هذا الموقف تردد الناس عن فعل الخير أو المبادرة به، لكن من جانب آخر فقد خذلت العائلات الأرستقراطية الثوار كما أبرزها المؤرخ يحيى بوعزيز في كتابيه، ثورة الشيخ الحداد ومحمد المقراني وموقف العائلات الأرستقراطية.

الحضاري، ولكن أهم ما في هذا الموقف فإنني لما التقيت بشيخ المؤرخين بعد أسبوعين على مرور الحادثة قال لي: دون مقدمات **"ألم يقولوا لك أنني دافعت عنك"**.

هذا موقف يغطي على كل مواقفي التي عشتها وسردتها بأمانة أمام التاريخ، ومنذ ذلك الحين، زاد تعلقي بمتون شيخ المؤرخين وبحثت عن العظمة في شخصية هذا العملاق الذي هوى ذات يوم من أيام الله تعالى تاركًا فراغًا مهولا بين أصفيائه وأحبابه ورجال المدرسة التاريخية الجزائرية.

الموقف السادس عشر
اللقاء الخالد
وصراحة شيخ المؤرخين الجزائريين

كنت على موعد يوم السبت 8 ديسمبر 2012م، مع الأستاذ بشير مديني،، لما التقينا صعدنا إلى قسم التاريخ، ودخلنا مصلحة البحث العلمي فوجدنا شيخ المؤرخين مع طالبة من طلابه يقرأ ويصحح مذكرتها، لما دخلنا ترك ما كان يقرأ ورحب بنا ثم سألناه عن صحته فقال الحمد لله، وكان يبدو عليه الجهد والتعب وثقل السنوات، ثم مازحته أنا فقلت يا أستاذ أتممنا الجزء السادس من مسار قلم، ولم نجد أسماءنا، فقال مباشرة واقترب مني" هل تعرف يا سي بلغيث أن واحدًا من أبناء إخوتي قرأ أحد كتبي وحضر فهارسه، فلما طُبِع الكتاب لم يجد اسمه مع الذين ذكرتهم في المقدمة أعرض عني غاضبًا إلى اليوم...... وأخذنا صورة تذكارية مع شيخ المؤرخين سوف تكون ملحقة في ألبوم الصور والمستندات بإذن الله[1] .

---

(1) سوف يظهر هذا المقال بإذن الله ضمن كتابي قضايا ومواقف في الأدب والتاريخ الحادي عشر ضمن أعمالي غير الكاملة.

الموقف السابع عشر
شيخ المؤرخين يودع الدنيا الفانية بالمستشفى العسكري
بعين النعجة 11 صفر الخير1435هـ/ 14 ديسمبر 2013م

لا أنسى هذا الموقف، وأعلم قارئ هذه المواقف أنني لم ألتق بشيخ المؤرخين منذ يوم السبت 8 ديسمبر 2012م إلا عبر الهاتف، وكنت مع الدكتور محمد العربي معريش أول من رأى جثمانه الطاهر بعد أقرب المقربين له من أسرته، فقد دخلنا عليه بغرفة الانعاش، فنزعنا عنه الغطاء وقبله معريش أولا، ثم قبلته ثانيا ودعونا له المولى سبحانه وتعالى أن يتقبله في الصالحين، ثم أخذوه من جناح الانعاش إلى مصلحة حفظ الجثث وبقي هنالك إلى غاية إتمام الإجراءات الإدارية التي قام بها ابنه الوحيد أحمد في بلدية القبة، ثم سبقتنا سيارة الإسعاف إلى بيته دار الأردن، وهناك ألقى عليه أحبابه والمعزون النظرة الأخيرة وترحموا على روحه، وكان هذا آخر موقف مع شيخ المؤرخين رحمه الله.

لكن قبل موته وفي المرة الأولى لما بلغني دخوله إلى المستشفى أتممت أشغالي يوم الأحد 24 نوفمبر2013م[1]، ورافقني **الدكتور محمد عبد الحليم بيشي** من كلية العلوم الإسلامية، إلى المستشفى ووجدنا صعوبة بالغة في الدخول إليه فقد منعونا وقالوا لنا ماذا يربطكم بالسيد سعد الله، ثم وصلنا أخيرًا إلى غاية السرير الذي غادره باكرًا،

---

(1) أتذكر أن هذا اليوم كنت على موعد مع الدكتور محمد عبد الحليم بيشي للذهاب إلى المطار هواري بومدين بالجزائر العاصمة لاستقبال الدكتور عبد الكريم الماجري القادم من الشقيقة تونس للمشاركة في ملتقى بجامعة مستغانم، وهو صاحب الكتاب القيم، هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجوانية إلى تونس، 1831/ 1937م، المطبوع بتونس عام 2010م والذي تعرفت عليه في ملتقى الذكرى الخمسين لجلاء القوات الفرنسية على ميناء بنزرت. بمركز الأرشيف الوطني التابع للوزارة الأولى التونسية.

وكنت كل يوم أهاتفه، وهاتفه لا يرد، وقبل وفاته وبعد يومين سجلت حصة بالإذاعة الثقافية مع مرافقي مراد مسعودان، وتأخرنا إلى غاية التاسعة ليلا، فطلب مني مساعدته للوصول إلى حي الرستمية [حي شوفالييه سابقًا]، وحينما وصلت إلى **شارع العقيد بوقرة**، كلمني شيخ المؤرخين في الهاتف، وفهم مرافقي مراد[1] أن صاحب المكالمة من كنا نتحدث عن مساره العلمي دون أن نذكر أو نعلم أنه كان بالمستشفى العسكري بعين النعجة وهذا للأمانة، والشريط موجود عندي، وترحمنا عليه حيًّا وميتًا وقلت لمرافقي أن الرحمة تجوز في الميت كما تجوز في الأحياء، **وقلت له يا أستاذ توحشناك**[2]، وأرغب في زيارتكم، فقال لي حتى أقول لك **يا سي بلغيث**، كلمني بالهاتف قبل الزيارة[3]، وبعد ذلك كلمت **محمد العربي معريش** فقال لي فعلا الدكتور في بيته ولكن يجد حرجًا أثناء زيارته فليس هناك في بيته من يقوم باستقبال ضيوفه، إلى أن هاتفني معريش صباحًا في حدود الثامنة والنصف من يوم السبت 14 ديسمبر 2013م، فقال لي عَظَّمَ الله أجركم في شيخنا الدكتور سعد الله، فأخذت سيارتي رأسًا من بيتي إلى المستشفى العسكري بعين النعجة ولم أجد صعوبة هذه المرة في الولوج إلى المستشفى، وانتظرت طويلا، أو هكذا بدى لي مجيء الدكتور محمد العربي معريش، ثم

---

(1) بينما كنا نتبادل الحديث قال لي مرافقي مراد مسعودان لماذا لا نخصص حلقة من هذه الحلقات الإذاعية وهذا بإجراء حوار طويل مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله. لكن مراد لا يعلم أن شيخ المؤرخين يتحرج كثيرًا من وسائل الإعلام، وكان هذا كما نبهني مرافقي يوم 27 نوفمبر 2013م، أي أربعة أيام قبل سفري إلى بيروت للمشاركة في احتفالية كبيرة أقامتها قناة الميادين بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لاندلاع الثورة الجزائرية المباركة.

(2) توحشناك يا أستاذ لهجة جزائرية دارجة على ألسنة الجزائريين بمعنى اشتقنا لكم كثيرًا.

(3) لم أتمكن من زيارته لكنني قلت لأخي مديني بشير، قبل سفري إلى بيروت الأستاذ بألف خير وسوف يمد الله في عمره حتى يستكمل مشروعه الثقافي، والله شاهد على ما أقول.

دخلنا بهو جناح الانعاش، فوجدنا **أم أحمد**، وأحد من أبناء أخيه وواحدًا فقط من إخوته، وسألناهم عن مكان دفنه فطلبوا منا الانتظار، ثم أخبرونا بعد ذلك أنه سينقل إلى **قمار** ليدفن هناك بوصية منه، وطلب أن يترك بسلام دون أن تتدخل أي مؤسسة في دفنه.

للتاريخ فقد كان لنا **الدكتور** إبراهيم **حمادة** نعم المساعد، فقد عرفته قبل أن يكون طبيبًا ماهرًا وصاحب خلق كريم، فهو على درجة عالمية في معارفه التاريخية، وقال لي ونحن ننتظر خروج سيارة الإسعاف وحملها نعش الفقيد العزيز إلى أهله بدار الأردن بضاحية دالي إبراهيم بالجزائر العاصمة، قال لي كنت هذه المدة الأخيرة أشرف على صحة شيخ المؤرخين سعد الله وأستمع لك وأنت تتكلم بعاطفة جياشة عن رائد المدرسة التاريخية الأكاديمية في القناة الثقافية الجزائرية وفي برنامج "**التاريخ يسجل**". فشكرته على إنسانيته وعلاقته الطيبة بأحمد نجل الدكتور سعد الله في هذه الفترة العصيبة.

سلام عليك يا شيخ المؤرخين في الخالدين وطيب الله ثراك فقد كنت نعم الرائد لأمته في حرصك على تنوير الذاكرة الجزائرية، وتنبيه الأهل وسادة البلد إلى ما يُدار من وراء البحر من أجل تسفيه وطمس أعمال الصالحين من العلماء والمجاهدين العاملين من أبناء هذا الشعب المعوان على الخير.

الجزائر في 07 يناير 2014م

5
تجربتي في تلقي التاريخ

بقلم محمد الأمين بلغيث

جامعة الجزائر1

أتذكر أن جيلي قد عرف تجربتين هامتين في تلقي ونشر المعرفة التاريخية:

كانت التجربة الأولى مع المدرسة الإصلاحية ممثلة في جيل الرواد، الذين نافحوا عن الشخصية الجزائرية التي تقوم على الثوابت التي رسختها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من خلال اللاَّزمة الشهيرة.

شعب الجزائر مسلم | وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله | أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له | رام المحال من الطلب

ويمكن أن نحدد جيل المدرسة الإصلاحية الإحيائية ممثلة في أعمال الأستاذ الشيخ محمد مبارك الميلي [1897/ 1945م]، حيث كان صدور كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" في وقته عبارة عن مِعلم مضيء في تاريخ الشعب الجزائري الذي قال عنه الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله لو سميته "حياة الجزائر"، لكان بذلك خليقًا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد، صورة تامة سوية، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر،

تحفظ اسمك تاجًا لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين[1].

ثم ظهر في أفق الجزائر أحمد توفيق المدني[فاتح نوفمبر1899/ 18 أكتوبر 1983م][2] الشاب الظريف والباحث الأنيق الذي جمع بين الأرومتين العربية والتركية[3]، كما جمع بين القطرين الشقيقين الجزائر وتونس، حينما أبعدته السلطات الاستعمارية من موطن أسلافه الذين استقر بهم المقام في الجارة تونس بعد اغتيال القطر الجزائري من طرف فرنسا رمز مغول القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد، تابعنا كتبه وبصورة أخص مذكرات حياة كفاح في قسمها التونسي والجزائري، لأن تاريخ القطرين مشترك، فصحافته تونسية وجزائرية وحركة عمالته كذلك وأحزابه السياسية ونضاله الوطني هو عمل مشترك بين نخبتي البلدين خاصة بعد اندماج الهجرة الجزائرية في تونس في الشأن الثقافي والسياسي والنقابي مثلهم مثل الأشقاء في تونس، وهو ما تشهد به الدراسات المتينة في التاريخ والأدب والصحافة، وقد كان لنشر مذكرات توفيق المدني، مع كتبه الأخرى تأليفًا وتحقيقًا، ومنها كتابه الرائد في موضوعه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا [1492م/ 1792م]"، وكتابه مذكرات "أحمد الشريف

(1) محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الأول، الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، ص/ 9/ 10.

(2) مسعود كواتي، لمحة عن التراث التاريخي لأحمد توفيق المدني [تاريخ الجزائر المعاصر، وقائع ورؤى،] تصدير محمد الأمين بلغيث، الجزائر، دار هومة، 2011م. ص ص: 209 ـ 217.

(3) على غرار عبد الحليم بن سماية، فإن أصول أحمد توفيق المدني تنحدر في المكان والزمان من عائلات عريقة مشهورة جزائرية تونسية وحتى عثمانية وأندلسية وبالأحرى غرناطية أي آخر مملكة في شبه الجزيرة الأيبيرية التي حافظت على استقلالها حتى سقوط غرناطة سنة 1492م. راجع جيلالي صاري، بروز النخبة المثقفة الجزائرية [**1850/1950**]ترجمة عمر المعراجي،، الجزائر، منشورات [anep]، 2007م. ص/ 277.

الزهار نقيب أشراف الجزائر"، ودراسته القيمة عن "محمد بن عثمان باشا داي الجزائر [1180هـ/ 1766م/ 1206هـ/ 1792]" الذي كان ذا موهبة سياسية لا تنكر، مما جعله يحظى بإعجاب المؤرخين الجزائريين، والذي حاول أن يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، أي أن يجعل من مدينة الجزائر عاصمة دولة موحدة، وأن يتحول من رئيس الديوان الساهر على مصالح الجنود الأتراك وأرباب البحر والتجار، إلى ملك على مجموع الجزائر [1].

رغم الإستراتيجية السياسية والدبلوماسية التي سلكها السلطان محمد بن عبد الله الطامح لتحقيق الزعامة على الغرب الإسلامي، واحتلال مكانة شرفية رفيعة في العالم الإسلامي، فقد كان له الفضل الكبير في تبادل أسبانيا والجزائر أسرى الحروب الطويلة بينهما، كما أخبر محمد بن عبد الله في شهر ماي عام 1187هـ/1773م، الداي محمد بن عثمان باشا باستعدادات الأسطول النصراني الأسباني لغزو الجزائر، عندئذ أخذ الداي يستعد لمقاومة وردع العدوان على الجزائر برًّا وبحرًا [2].

كان أحمد توفيق المدني المولع بالتاريخ، شخصية نافذة نبيه الفكر يتفهم رجالات زمنه فقد شهد في أعماله بإخلاص الشيخ المولود بن الموهوب [1866/1939م] للوطن والإسلام، فقد نقل المدني قوله"بيني وبين الفرنسيين

(1) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب [3]، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1999م. ص. 73

(2) رامون لولاريدو دياث، المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي، سلسلة ضفاف رقم/17، المغرب الأقصى منشورات الزمن، 2013م. ص/ 44 وما بعده. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المجلد الخامس سلسلة آثار الأستاذ أحمد توفيق المدني، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، الجزائر، 2010م. ص: 474 وما بعدها.

حاجزًا لا أتخطاه سعيا إليهم، وحاولوا تخطيه سعيا إلي فما نجحوا، أقوم بواجبي نحو أمة الإسلام، ولا أبخل بشيء مما أتاني الله من علم على جماعة المسلمين"[1].

كُنَّا نستقبل كتب ومقالات ومحاضرات الأستاذ أحمد توفيق المدني بكل الحفاوة رغم اعتراضانا على كثير مما ورد في أعماله، خاصة ما تعلق منها بالخصوص بالثورة الجزائرية المباركة، وهو ما فصلناه في كتابنا تاريخ الجزائر المعاصر.

كما كانت لأعمال الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نفس المكانة والتوقير والاستفادة عند جيلي وهو آخر الكبار من رجال ومؤرخي المرحلة الإحيائية[2]، ويمكن أن نضيف إلى هذه الأسماء الكبيرة أعمال المؤرخ المناضل محمد الشريف ساحلي والمفكر الكبير مالك بن نبي الذي يعتبر عندنا نسيجًا وحده في أفكاره وتسجيله لتاريخ شعبه من خلال مذكرات شاهد القرن[3].

---

(1) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني، 1925/1954، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م. ط. 21. ص: 20. أحمد صاري، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، تقديم الدكتور أبو القاسم سعد الله، الجزائر، غرداية، المطبعة العربية، 2004م. ص: 21.

(2) هؤلاء الثلاثة [مبارك الميلي، أحمد توفيق المدني، عبد الرحمن الجيلالي] يمثلون وجهة النظر الجزائرية ما بين [1929/ 1962م]التي كانت تهدف إلى تحريك الهمم وبث الشعور الوطني في نفوس الناشئة، انظر: ناصر الدين سعيدوني، الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، مجلة الثقافة، السنة الثامنة، العدد 45، جمادى الثانية، رجب 1398هـ/ يونيو، يوليو 1978م. ص: 43. مسعود كواتي، لمحة عن التراث التاريخي لأحمد توفيق المدني، ص: 211.

(3) لمعرفة مكانة مالك بن نبي في بناء فلسفة حضارية أو اتجاه حضاري في تاريخ الحركة الوطنية راجع مذكرة الدكتور محمد العربي معريش، الاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية بين الحربين [1914/ 1939م]، إشراف الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، الجزائر، قسم التاريخ 1982م. راجع مسار مالك بن نبي، محمد سعيد مولاي، محطات في حياة مالك بن نبي، [مالك بن نبي واستشراف المستقبل]، بحوث الملتقى الدولي، من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد]مجلدان، المجلد الأول، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة =

يقول شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله كان مالك بن نبي مفكرًا نبيهًا حاول أن يعطي محتوى فلسفيا للحركة الوطنية. كان ذكيا ناقدًا، عميق الإيمان بالإسلام السلفي، ونعني به المرحوم مالك بن نبي. لقد كان كما يقال ـ دولة وحده، وغير منتم كما يقول أحد الكتاب المعاصرين. ولسنا الآن نحاول أن نقيم أو نعرض لفلسفة ابن نبي في نهضة الجزائر والإسلام، فقد عرضها في كتابه: شروط النهضة[1]، الظاهرة القرآنية وغيرهما، وقد أصبحت أفكاره كما يقول شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله اليوم تمثل وجهة خاصة بين شباب العالم الإسلامي. وكل ما أردناه هنا هو أنه الوحيد تقريبًا الذي حاول أن يعطي بعدًا فلسفيا لمسار الحركة الوطنية[2].

ومالك بن نبي من الأوائل الكبار الذين تنبهوا إلى الانقسام الخطير الذي حدث بسبب توجهات مؤتمر الصومام، فقد كانت المعارضة للصومام قوية ولم تستطع لجنة التنسيق التغلب عليها لو لا انحياز بورقيبة إلى جانب طرف دون غيره والذي قام بإعدام عبد الحي[السعيد] وثمانية عشر من أتباعه[3]، وهنا السؤال يطرح نفسه: على أي أساس يتناسى أنصار الصومام هؤلاء الأبطال

=

الإسلامية2011م. ص: 59 ـ 82.

(1) مالك بن نبي، مُشكلات الحضارة، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، تقديم محمد همام، القاهرة، الإسكندرية، بيروت، دار الكتاب المصري، مكتبة الإسكندرية، دار الكتاب اللبناني، 2012م. ص ص: 13/ 90.

(2) أبو القاسم سعد الله، الأعمال الكاملة، تأملات وأفكار [1]، أفكار جامحة،، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ص: 45.

(3) وهي نفس اللجنة التي أعدمت لزهر شريط وفتنت داخل أوراس النمامشة حتى كادت تفجر الثورة من الداخل كما أبرزناها في كتابنا تاريخ الجزائر المعاصر.

الذين قتلوا ظلمًا وزورًا؟[1].

شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله والذاكرة المشتركة للجزائريين

أما جيل الرواد من مؤسسي معالم المدرسة التاريخية الجزائرية وورثة لواء جيل الإصلاح والنهضة فرائدهم دون منازع شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي، أخذ بأيدينا للتعمق في مأساة شعبنا، وتاريخ أمتنا في لغة صريحة عنوانها المفضل "**تجوع الحرة**"[2]، فقد تعلمنا على يديه الصرامة في العمل والمنهج السليم في قراءة الأخبار، ومنه نسجل فجر التجربة الثانية الناضجة والأكاديمية التي كانت المصدر الثاني للمعرفة التاريخية عند جيلي على

---

(1) من المحتمل أن انحياز المجاهد الأكبر يكون قد تم بإيعاز من الأوساط الفرنسية التي أشار إليها المؤرخ التونسي الطاهر عبد الله [في كتابه الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة] التي كانت تريد إنهاء حرب التحرير بشرط تنازل [المحاور المقبول] عن المطالبة بالاستقلال التام، وكانت الحكومة الفرنسية تريد الاقتداء بالتفاوض سنة 1954 بين مينداس فرانس وبورقيبة الذي اكتفى بالاستقلال الذاتي بغية تفضيله على صالح بن يوسف وقادة جيش التحرير التونسي. ولمالك بن نبي فضل كبير عندما تنبه بنظرته الثاقبة وقدرته على التحليل إلى أن لهجة وكيفية تحرير وثيقة الصومام كان غرضها فتح مفاوضات مع [محاور مقبول]ذي التوجه العلماني، والقريب فكريا من الثقافة الفرانكفونية، وغير متحمس للوحدة العربية وحتى الوحدة المغاربية. وكل الوثائق السرية التي لم تُنشر جاءت مؤكدة لرأي مالك بن نبي، والحاقدون على مالك بن نبي الذين عرفنهام بشكل جيد في الأوساط العلمانية، والفرانكفونية منذ الأيام الأولى للاستقلال ولا يدرك هذه إلا من أصابه عمى الأبصار والبصيرة. راجع مالك بن نبي وثورة 54، حوار مع الباحث المؤرخ صادق سلام، بحوث الملتقى الدولي، مالك بن نبي واستشراف المستقبل، المجلد الثاني، ص. 280 ـ281. الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، سوسة، تونس، 1990م. ط2. ص ص: 170/ 171.

(2) جاء في الأثر تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها" أي بإجارة ثدييها بالإيجار، لسان العرب، المجلد التاسع، حرف الألف، ص: 9. ويضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس مكاسب الأموال.

الأقل، وهو جيل وسط بين جيل الإصلاح وجيل الرواد من المؤرخين الأكاديميين الذين تشرفنا بتلقي الدروس والمناهج والمعارف على أيديهم منذ السنة الجامعية 1980/ 1981م.

وأول ما تعلمنا على يد شيخ المؤرخين لازمته الشهيرة حيث يقول:

"إن الجزائر رغم ما يقال عنها لا تتنكر لمن أحبها ولمن عاش وعانى من أجلها، فالوطن يطلب من أبنائه الوفاء والتضحية ولكنه لن يضيع حقهم في المكانة اللائقة بهم في حوليات تاريخه وسجلات رموزه، إن هذه الجزائر الحبيبة عاشت بقيم وثوابت أخلص لها أجدادنا وكافحوا من أجلها وماتوا دونها، ولا يليق بجيلنا اليوم أن يتنكر لهم تحت أي عنوان أو مبرر، لقد رفض أجدادنا مغريات الاستعمار في الحصول على مواطنة مزيفة أو على جنسية مشوهة بجبرهم عن التخلي عن هويتهم[مثل قانون نابليون سنة 1865، ومشروع فيوليت سنة 1936، وقرار لجنة فرنسا الحرة سنة 1944....]، ذلك أن أجدادنا كانوا يعرفون أن وراء قبولهم تخليهم عن ثوابتهم المقدسة، وفي مقدمتها الدين الإسلامي واللغة العربية، نعم أن الإسلام هو الذي أعطى للجزائر اسمها ولونها وهويتها، وهو الذي أمد المجاهدين في جميع الثورات، ولا سيما ثورة نوفمبر بروح التضحية والفداء"[1].

كتبت دراسة مطولة حول الإمام عبد الحميد بن باديس في العدد الخاص لمجلة الموافقات الغراء التي كان يصدرها المعهد الوطني العالي لأصول الدين،

(1) كلمة الدكتور أبو القاسم سعد الله في الندوة التكريمية، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة قسنطينة يومي 12 و13 جانفي 2004م. إعداد وتقديم وتصنيف عبد الكريم بوصفصاف، قسنطينة، مطبعة بغيجة، 2008م. ص/ 27.

كلية العلوم الإسلامية حاليا، وختمتها بقولي: **وخلاصة القول**: إن الإمام عبد الحميد بن باديس المسلم الثائر والرجل القرآني شخصية ملتزمة بخطها الفكري، وهو مصلح، صاحب نظرة مستقبلية تنبئ عن إخلاصه لدينه وعروبته، وجزائريته وانتمائه إلى أمة شريفة تعيش في عصره السقوط الحضاري، والغزو الفكري، والاستلاب الطرقي والتخلف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وهو ذلك "**الرجل الذي مد الجسور ومتن الحبال التي ربطت بين جيل عصر الإصلاح والتنوير، وجيل النصر والتمكين ولكن بعد استقلال بلاده الجزائر كعبة المجاهدين قُطعت الحبال ونُسفت الجسور**"[1].

فهل نقدر في هذا الزمن الرديء أن ننصف الرجل، ونقرأ دوره العلمي في بناء هذه الأمة، أم علينا أن نسكت، سكوت الجبناء عبيد الدرهم والدينار، الذين ركنوا إلى الأرض، واستسلموا للعبودية، أين نحن من أشواق ابن باديس للحرية، وأين نحن من هذا الرجل الرسالي وقضايا العرب والمسلمين؟

كانت هذه هي الخلاصة، التي ضمنتها فكرة شيخ المؤرخين وكشفه عن المفارقة الكبيرة بين جيل الإمام الشاهد عبد الحميد بن باديس وجيل التمكين، واليوم يغادرنا هذا العملاق الذي هوىٰ الخبير بأبناء فرنسا الاستعمارية والأوفياء من الخدم الذين ساروا في ركاب الاستعمار[2].

---

(1) وردت هذه العبارة في مراسلة خاصة بين شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله من جامعة آل البيت بالأردن إلى الأستاذ: محمد الهادي الحسني رئيس تحرير مجلة الموافقات بتاريخ 19 ديسمبر 1996م يدعو فيها الأستاذ سعد الله إلى ترك الإمام عبد الحميد بن باديس وشأنه لأننا لا نقدر الرجل قدره وهذا طبعا حينما استكتبه ليشارك بمقال أو دراسة في الملف الرئيسي الخاص بالإمام الرسالي عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

(2) Les loyaux serviteurs de la France colonial.

ولقد تعدد المتعاونون مع رجال الاحتلال من حيث المهات التي تكفلوا بانجازها فقد ساروا في ركاب الاحتلال مسيرة طويلة فكان منهم المترجم من الدارجة الجزائرية إلى اللغة الفرنسية، ومنهم من كان يترجم لأسياده زفرات وتنهدات أبناء قومه ومنهم من تكفل بنقل الكتب والمخطوطات العربية إلى اللغة الفرنسية، بل منهم من أرّخ لوطنه بطلب من بعض ضباط المكاتب العربية التي كانت تمثل رواد الدراسات الأنثروبولوجية أو رواد علم الاجتماع الاستعماري، ومن هؤلاء الرواد الذين ساروا في ركاب الاستعمار الفرنسي، تكون جيل من النخبة الجزائرية(1).

ومن الأهمية ذكر الدمار الشامل الذي عرفته الجزائر، وهذا من خلال احتلال ونهب المدن الجزائرية التاريخية، كقسنطينة وعنابة، وبجاية، والجزائر العاصمة ووهران وتلمسان ومعسكر، وإلى غاية 1848 أي عند انتهاء المقاومة الرسمية وجهاد الشعب الجزائري في العقدين الماضيين قبل السنة المذكورة فقدت الجزائر ما يزيد عن 10/ 100 أي 300 ألف من سكانها كما ذهب إلى ذلك شيخ المؤرخين الجزائريين(2).

ولعل من حبَّبَ إلينا الجزائر والتدوين في أَدَقِّ خصوصياتنا الشخصية،

---

(1) محمد الصالح بكوش، الترجمة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي [1830/ 1930]، تصدير محمد الأمين بلغيث، الجزائر، دار التنوير، 2013م. ص: 5.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2 ص: 241. راجع تعليق باحث مغربي يأكل الغلة ويسب الملة يأخذ المعلومات من مصادرها الجزائرية ويعلق عليها بما تمليه نفسه الغافلة عن الحق وشتم الجزائريين. راجع محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 ـ 1962مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، تقديم محمد كنبيب، الدار البيضاء، دار أبي رقراق، 2008م. ص: 40 هامش 63.

هو المحتفى به شيخ المؤرخين الدكتور **أبو القاسم سعد الله** رحمه الله.

لقد كان يشجعنا ولا يزال على الكتابة ونحن في مرحلة الطلب، وقد لا أفي حق الرجل فهو بموسوعته الراقية **"تاريخ الجزائر الثقافي"** قد بنى للجزائر هرمًا تفتخر به الأجيال، فقد تمثل لي شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبي القاسم سعد الله في همة الرجال الكبار، وحدس المؤرخ الرسالي كهمم إخواننا المصريين، فكل واحد فيهم يرى نفسه قادرًا على أن يكون هرمًا جديدًا يضاف إلى أهرامات مصر الخالدة.

هذه الهمة العالية هل هي التي تدفع شيخ المؤرخين إلى العمل والمشاركة في إعادة عصر التدوين من جديد إلى وطنه الصغير الجزائر خاصة وعالمه العربي والإسلامي عامة. لأنه يدرك حقيقة التاريخ، فنحن نتساءل معه كيف انتصرت علينا قوة **"التقدم"** كما يسميها الدكتور **فارنييه** في عمله **"الجزائر أمام الإمبراطور"** [1].

لعلني لا أبالغ فأرى من خلال تجربتنا التي تزيد عن ثلاثة وثلاثين سنة ونحن نقرأ ما ينتج الأستاذ الكبير سعد الله فأقول إنه المؤرخ الموسوعي، متعدد المشارب والاهتمامات، فقد قرأنا له ما كتب في مجلة الآداب وقد كان شابًّا يافعًا يشارك في التأسيس للقصيدة الحرة، فهو بحسب النقاد من أوائل الشعراء الجزائريين الذين كتبوا القصيدة الجديدة، خارج دائرة القصيدة التقليدية العمودية، كما شاهدنا همته وهو يقوم بتدوين تاريخ الجزائر بداية من 1830 إلى غاية 1945م، بوعي نادر يسابق به الزمن وهذا في عمله الموسوعي **"الحركة الوطنية الجزائرية"** كما ساهم مساهمة بالغة في تسجيل وتدوين تاريخ الجزائر الثقافي بداية من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين (1954م). ولعل المصاب

الجلل، والعملاق الذي هوى ستتذكره الجزائر في حولياتها، لأنه قام بواجبه كأي رجل شريف خدم أمته.

هل حقق شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله مشروعه؟

هل كانت أمنية أبي القاسم سعد الله أن يكون مؤرخ الجزائر الكبير، وهل استطاع أن يرد على المستشرق الفرنسي الشهير هنري بيريز [Henri Peres](1) الذي قال إذا كانت تونس لها مؤرخها الكبير ابن أبي الضياف الذي كتب تاريخ تونس الشامل، والمغرب له مؤرخه المتميز السَّلاوي الناصري، فإن الجزائر لم تعرف مؤرخًا بحجم هؤلاء الكبار.

أعتقد أن شيخ المؤرخين الذي كان يسابق الزمن من أجل إتمام مشروعه، فقد حقق أمنيته وهو أن يكون للجزائر مؤرخها الكبير الذي كتب تاريخها الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية ثورة التحرير المباركة.

أما بقية الأهرامات الأخرى التي تركها شيخ المؤرخين فهي بحق الأرضية العريضة التي يمكن أن تنطلق منها الأبحاث والأعمال الجادة لتسجيل وتدوين تاريخ الجزائر كما كان يتمنى أن يكتبه شيخ المؤرخين رحمه الله.

---

(1) مستشرق فرنسي تخصص في تاريخ الأدب العربي من أعماله الأندلس كما سجلها الرحالة المسلمون وله من الأعمال الشيء الكثير قد قدم لنا في عدد عام1937 من حوليات معهد الدراسات الشرقية قائمة بجميع الروايات والمجموعات القصصية التي اقتبست أو ترجمت من الفرنسية الي العربية ثم قائمة ثالثة تشمل ما كتب حول الأدب الحديث من كتب عربية أو كتب ومقالات باللغات الأوروبية حتى ذلك العام(1937).

6
تجربتي مع الدكتور سعد الله

بقلم د. محمد العربي معريش
عين النعجة في 4 جانفي 2014

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، الحقيقة أن هذه أول مداخلة لي منذ وفاة الدكتور أبو القاسم سعد الله، رحمه الله، فقد وجهت لي عدة دعوات للتدخل في وسائل إعلام مختلفة مكتوبة ومسموعة ومرئية، والمشاركة في تأبينيات بما فيها الأربعينية في بوسعادة وقمار، وكان الإلحاح كبيرا ذلك لأنني رافقت الدكتور أزيد من ثلاثة عقود من الزمن، لكنني رفضت تلبية هذه الدعوات جميعها، ورأيت أن لا أتدخل إلا في مكاني الطبيعي والمعتاد كما ارتضاه لي الدكتور ألا وهو الجامعة، وها أنا بين إخوتي وزملائي وزميلاتي، فأهلا وسهلا بالجميع.

***

معروفة هي حياة الدكتور أبو القاسم سعد الله، فهي مخطوطة في كتابه "مسار قلم" المطبوع بأجزائه الستة المنشورة والمسجلة بتفصيل نادر، وهي تمسح حياته من عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين 1956 إلى نهاية ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين 1997، ولا يزال المخطوط منها يتسع لحوالي ثلاثة أجزاء من ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين 1997 إلى غاية وفاته، وهناك كتاب مراد وزناجي:

"حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ"، بالإضافة إلى كتيب صدر عن معهد المناهج بعنوان: "أ. د. أبو القاسم سعد الله، شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين، السيرة الذاتية والعلمية"، هذا ناهيك عن مقال بقلم الدكتور نفسه في كتابه أفكار جامحة بعنوان: "نبذة عن حياتي" كان قد طلبها منه الدكتور صالح خرفي عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين 1982. والجزء الأول من مذكراته التي كانت جاهزة وسلم لي نسخة منها عام ألفين وثمانية 2008، عندما بدأ يشتد عليه المرض، قائلا: أترك نسخة منها عندك ومن يدري ؟؟"، وكان ينوي إكمال هذه المذكرات التي هي غير "مسار قلم" ولكن المنية وافته، وكان يرى الأولى تكملة تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى عام ألف وخمسمائة 1500 الذي أفلح في الانتهاء منه فعلا، وعكف على وضع اللمسات الأخيرة عليه قبيل وفاته.

أما آثاره فقد جمعها جلها بنفسه ضمن كتبه التي تبلغ حوالي 37 سبعة وثلاثين عنوانا وقد تصل إلى 40 أربعين عنوانا عندما يكتمل طبع ما تبقى منها مما يقدر حتى الساعة بحوالي 58 ثمانية وخمسين مجلدا وقد تمتد إلى 60 ستين مجلدا. وهي تشتمل على تحقيقات وترجمات وكتب تاريخ وأعلام ودراسات وإبداعات وتأملات وبحوث ومقالات ومقابلات ومراجعات وتصدير كتب وترجمات إلى العربية، وقد جُمع له جل ما كتب في أعماله الكاملة.

ثم هناك مواقفه في الحياة العلمية والأكاديمية وانطباعاته وملاحظاته وتوجيهاته، يمكن معرفتها عن طريق الاحتكاكات، فهناك من احتك به في المحاضرات والتطبيقات والحلقات العلمية، وفي الإشراف على الرسائل

والأطروحات العلمية والمناقشات، وكذلك الندوات والملتقيات والمراسلات، في الداخل وفي الخارج.

وإني واحد من الذين احتكوا به حوالي 33 ثلاثٍ وثلاثين سنة (بداية السنة الجامعية ألف وتسعمائة وثمانين 1980 / 1981 ألف وتسعمائة وواحد وثمانين إلى يوم 12 الثاني عشر ديسمبر عام ألفين وثلاثة عشر 2013)، فقد عرفته مشرفا عليّ في عدة أعمال علمية، كما عرفته من خلال التطبيق له في مادة تاريخ الجزائر المعاصر مدة حوالي 8 ثماني سنوات، عرفته ضيفا علي في محاضراتي أو تطبيقاتي، وعرفته في المناقشات وأنا عضو فيها، وعرفته مراسلا (راسلته وراسلني)، وساهمت في فهرسة العديد من كتبه، كما شاركت في تنظيم مكتبته الخاصة، وعرفته في بيته وعايشته معايشة اجتماعية في الصحة والمرض.

***

ولعل الذي يهمني على الخصوص في هذه المداخلة هو الحديث عن قضايا البحث والكتابة والتدريس.

معروف عن الدكتور سعد الله، رحمه الله، الكتابة والاستماع أكثر من الحديث. سمعته أكثر من مرة في محاضرات الليسانس يقول للطلبة: "لو قدمت لكم هذا مكتوبا لفهمتموني أكثر". فالبحث والقراءات والكتابة لا تتوقف، حتى أن العطلة الصيفية عنده لا تختلف كثيرا عما اعتاد القيام به من بحث أثناء السنة الجامعية.

كان زاهدا في كثير من أمور الحياة لأجل البحث العلمي، فقد نصحنا في أول حصة ماجستير قائلا: "الانتماء إلى الماجستير يقتضي الحضور الإجباري

والأكيد ومن لا يستطيع ذلك فاليغادر واليكتف بشهادة الليسانس، فإن لها أيضا قيمتها. ثم قال: "أنتم اليوم كمقبلين على البحث العلمي أشبه ما تكونون بالفتاة الجميلة المكتملة الشروط والمزايا التي بلغت سن الزواج ـ أي بلغة اليوم مكتملة الخيارات (toutes options) ـ كل الشباب يتمنى الظفر بها زوجة، فإن هي قبلت بأحد ما، كرهها الغير وزهدوا فيها، وإن هي تبتلت ورفضت الزواج بأي كان، بقيت كل الناس تحبها وتتمناها. بمعنى أن هناك كثير من المناصب في المؤسسات الإعلامية والإدارية والسياسية وغيرها تتصيد طلبة الدراسات العليا لتستكتبهم، فمن سقط في شباكها فقد لُفظ واستُهلك وذهب عنه جمال حرية البحث العلمي".

هكذا ظل الدكتور سعد الله حرا ومحافظا على استقلاليته في الكتابة، غير منتم لأية جهة ولا محسوب على أي كان، وكثير من الذين لا يفهمون استراتيجيته وتصوره للأمور حيرهم أمره، واعتقدوا بعد وفاته أن السلطة تجاهلته وأهملته ولم تعطه حقه، والصحيح أن الدكتور هو الذي ظل زاهدا في السلطة وسياستها، مترفعا عن المشاريع الثقافية التي للسلطة يد فيها، بل أكثر من ذلك فقد أوصى بضرورة الوفاء له فيما يتعلق به حتى بعد وفاته، فهو زاهد في السلطة فوق الأرض وتحت الأرض.

خذ مثلا جريدة الشروق التي كان الدكتور سعد الله يتواصل مع قرائه من خلالها، ولم يكن يكتب فيها طمعا في المادة، ولم يطلب مقابلا، وقد سعيت له مرة لدى مسؤوليها للحصول على حقوقه، فقد كان في أغلب الأوقات يكلفني بنقل المقالة إلى الجريدة، لقرب سكناي منها، وقد طلب مني رئيس تحريرها ذات مرة

أن أبلغ الدكتور رغبة الجريدة في تكريمه، فنقلت له ذلك وما على الرسول إلا البلاغ، فلما أخبرته تبسم وسكت. وكرر مسؤول الشروق نفس العرض فنقلته له مرة ثانية، فكان أن أجابني هذه المرة قائلا: "لن أقبل أن تكرمني مؤسسة تكرم كل الناس، الصالح منهم والطالح".

كان الدكتور يُمَرِّنُنَا على الكتابة فيحثنا على القراءات الأسبوعية وتقديم تقارير، يصححها ويعيدها إلينا للاستفادة من الأخطاء، واستمر على هذا النهج مع طلبة الماجستير، إلا أنه في السنين الأخيرة أقلع عن إعادة القراءات إلى أصحابها حتى لا يمرروها إلى غيرهم من طلبة السنوات اللاحقة بعدما بدأت بعض العادات والأخلاق غير العلمية تنتشر في أوساط الطلبة. سألته يوما عن تقاليد الأساتذة الأمريكيين في هذا المجال فقال لا يعيدون القراءات إلى أصحابها، وهكذا صار في السنين الأخيرة يكلفني أحيانا بأخذ هذه القراءات وإتلافها، فكنت تارة أقوم بحرقها بعيدا، وتارة أخرى أسلمها إلى معمل صناعة الورق (الكرطون) بالحراش.

ونحن نتحدث عما تعلمنا منه في مجال البحث والكتابة، فقد كان ينصحنا بكتابة ملاحظاتنا وانطباعاتنا وما يفرزه جهاز نقدنا. وكتابة اليوميات كما هو معلوم سلوك حضاري. والكتابة هي التي نقلت الإنسان من مرحلة كبرى في التاريخ إلى مرحلة أهم منها بكثير، أعني الانتقال من ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية. وإذا كان التاريخ هو ربط الوقائع بأزمانها، فإن الكتابة والتدوين التاريخي عند الباحث والمؤرخ من باب أولى، ويبدأ هذا السلوك الحضاري عند الدكتور سعد الله بكتابة اليوميات. ولكن النصيحة سهلة كما يقال لكن صعب

قبولها، وأعني بالقبول هنا التطبيق لا مجرد الإقرار باللسان، إلا أن الدكتور وإن علمنا الكثير وأثّر فينا تأثيرا بالغا بالنصح والتوجيه والقدوة، فإن المحيط خذله خذلانا كبيرا، محيط الانحطاط والتخلف المحيط الجامد، لأجل ذلك فإن من حسن حظه أنه تعلم الفاعالية من الغير قولا ولكن الذي ساعده على الخصوص هو الحياة في بيئات فعالة، وكما يقال الإنسان ابن بيئته، وبناء على هذا فقد كتب الكثير كما هو معلوم، وأكثر ما كتب في الخارج، وهو الذي قال: "الكتابة في الجزائر معجزة".

كان ينصحنا بقراءة أمهات كتب الأدب كي نحسن أسلوبنا، ومنها على سبيل المثال لا الحصر البيان والتبيين للجاحظ والكشاف للزمخشري، والكامل للمبرد وغيرهم.

عرفته كما ذكرت سابقا، مشرفا علي في عدة أعمال علمية منها: مذكرة السنة التمهيدية، ثم مذكرة السنة الأولى ماجستير، فرسالة الماجستير، فأطروحة دكتوراه الدولة. كان حازما متشددا فارضا شروطه العلمية والأكاديمية في الإشراف من البداية. وهنا أذكر بالمناسبة أنه أملى علي جملة من الشروط سنة ألف وتسعمائة وإحدى وثمانين 1981، تبدو اليوم تعجيزية، هي بمثابة خيارات بلغة اليوم، وكان جوابي أن قلت له: "لأجل هذا اخترتك مشرفا".

تعلمت منه في أول سنة إشراف علي منهجية الكتابة وتقنية البحث التاريخي، كنا ثلاثة على ما أذكر في الحصة الأولى (السنة التمهيدية وهي غير السنة التمهيدية للماجستير)، ثم صرت وحدي في أغلب الحصص، ومع ذلك كان يقدم الحصة تقديما عاديا.

كان للدكتور سعد الله مشروع تكوين جيل من الباحثين والمؤرخين الأكاديميين الأحرار في التاريخ الحديث والمعاصر تحت إشرافه، يبحثون في تخصصات وطنية وإقليمية ودولية، ولو لا هذا المشروع مثلا لما وجدت نفسي باحثا في تاريخ المغرب الأقصى، فقد قدمت له ثلاثة مواضيع، لكل منها مشروع بحث يتكون من تصور وخطة وبيبليوغرافيا مبدئية، فلما راجعته بعد أسبوع اقترح علي موضوعا آخر يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى، وكلفني بإعداد مشروع لذلك، ففعلت. ولم تمض أشهر قليلة بل أسابيع حتى اكتشفت أنه وجه زميلا إلى تاريخ تونس، وآخر نحو الجزائر، وثالثا نحو ليبيا، ورابعا نحو إفريقيا، وخامسا نحو اليابان... إلخ. غير أن الدكتور توقف عن المشروع، نظرا لتطورات الأحداث الوطنية ولغياب الفعالية التي ذكرناها من قبل، فصار يعول أكثر على نفسه وهو ما نجح فيه في اعتقادي، إلى حد بعيد.

كان لنا بمثابة الناصح الأمين، يحثنا على العمل، وقد أخطأ يوما في حصة من الحصص وهو ينصحنا بحماسة ونبرة انفعالية وكأنه يتقزز مما كان يحدث في الواقع: "من كان وفيا للبحث العلمي، فإني على استعداد أن أذهب معه إلى الجحيم"، هكذا كما يقال لكل جواد كبوة، لم ينتبه يومها إلى الخطأ. مرت السنوات وطلب مني ذات يوم شهادة في حقه لفائدة طالبتين كانتا تنجزان مذكرة تخرج حول حياته ومؤلفاته، فكتبت مقالا في أربع صفحات ضمنته هذه العبارة كشهادة وأمانة، فلما قرأها قلت ما رأيك، قال أنا موافق على كل شيء إلا عبارة واحدة، ففهمت مقصوده، وكان ذلك بالنسبة لي تداركا للكبوة.

لقد كان الحزم والعزم ديدنه في الإشراف، دقيق فيه، يفضل تتبع موضوع

الرسالة أو الأطروحة مبحثا مبحثا، لا سيما في مجال المنهجية وتقنيات البحث واللغة، يحترم الأفكار أثناء الإشراف مهما كانت ما دامت موثقة.

كان أثناء إنجازنا للرسالة حريص على الوقت يتمنى أن لا نكتب شيئا إلا في البحث. كما كان حريصا على الزيارات العلمية للتزود بالمصادر والمراجع، خاصة إذا كان الموضوع غير جزائري.

كان يسعى جاهدا كي نمضي قدما في مجال البحث، مركزا على المادة التوثيقية والاطلاع على مراكز البحث، لأجل ذلك سعى لي شخصيا عندما سجلت رسالة الماجستير كي أسافر إلى المغرب مرتين في وقت كانت العلاقات متوترة بين البلدين، وأذكر أن العون الجمركي تعجب في مطار الدار البيضاء بالمغرب عندما اكتشف بأن جوازي جزائري فقال كيف جئت ؟ ولماذا ؟ قلت من أجل البحث العلمي، فتش الكتب التي أرسلها معي الدكتور لأصدقائه كهدايا بعناية فائقة، ولما لم يعثر على شيء قال أهلا وسهلا بك، أنت الآن في بلدك. والشاهد أن الدكتور لا يؤمن برسائل علمية عن مواضيع غير جزائرية لا يزور فيها الباحث البلد المعني بالبحث.

وهكذا فقد كان حريصا على طلبة الدراسات العليا كل الحرص، يتمنى لهم تقدما مستمرا، فإذا حان موعد تجديد التسجيل في كل سنة يحرص على أن لا يجدد للطالب التسجيل إلا بتقديم تقرير مفصل عن تقدمه أو شيئا محررا من رسالته، فإن تعذر ذلك أمضى للطالب مع ملاحظة أنه لا يتقدم في عمله. وفيما يتعلق بي شخصيا، أبطأت في رسالة الدكتوراه حتى أُقدم شيئا يُشرفه ويشرفني، ولكنه كان يمتعض من طول المدة، ولم أكن أقدر ذلك الامتعاض إلى اليوم الذي

فاجأتني فيه زوجته وأنا أهم بمرافقته إلى المستشفى بأنه لن يُشفى من مرضه إن لم تناقش رسالتك، فاندهشت !

ثم لما صارت لدينا رسائل علمية بإشرافه، حثنا على نشرها في أسرع وقت، بغرض التشجيع على المزيد من الكتابة من ناحية، ومن ناحية ثانية قبل أن تخرج دراسات في نفس الموضوع أو في موضوع قريب، ومعروفة علميا قضية السبق في النشر، وأما الغرض الآخر فهو لأنه على ثقة بأن الرسائل التي يشرف عليها ويأذن بطبعها وصلاحيتها للمناقشة هي رسائل صالحة للطبع. وهنا لابد أن أقول بأن الفضل يعود إليه في السعي لنا من أجل نشر رسالة الماجستير عام 1989 ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين ثم رسالة الدكتوراه عام ألفين وتسعة 2009 وفي أشهر دار نشر هي دار الغرب الإسلامي ببيروت وهي التي تسوق كتبها إلى مختلف بقاع العالم، وللدلالة على ذلك فقد عثر الدكتور نفسه على كتابي (أي رسالة الماجستير)، في مكتبة الكونغرس، بعد سنوات قليلة من نشرها، وأخبرني بذلك في رسالة من رسائله من أمريكا.

أمَا وقد انهينا رسالة الماجستير في ديسمبر ألف وتسعمائة وستة وثمانين 1986، فقد كان يدفعنا إلى نقد الحياة الثقافية، من ذلك نقد بعض ما ينشر في الصحافة، وأثمر هذا التوجيه كتابة عدة مقالات اطلع عليها وصححها قبل نشرها.

كان يحثنا على المساهمة في تقديم الكتب ونقدها، وقد أثمر ذلك تقديم عدة كتب في جرائد كالشعب والمساء والخبر وغيرها.

كما كان يوجهنا إلى التعريف بالأطروحات الجامعية، وعليه قدمت عدة رسائل وأطروحات في مجلة الجيش في ركن بعنوان: "رسائل جامعية في الثورة

الجزائرية (86 بين عامي ألف وتسعمائة وستة وثمانين، وسبعة وثمانين ـ 1987).

وكذلك نشر في بعض المجلات كمجلة الثقافة مثلا، بعضا مما كتبنا من المذكرات العلمية.

كان يدربنا على إلقاء العروض في حلقات الماجستير من خلال تكليفنا بمواضيع تلقى على مسامع الطلبة بحضوره ثم تناقش، وهذا أثناء إنجاز رسالة الماجستير وبعده، أما بعد مناقشة أطروحة الدكتوراه، فقد صار يستعين بي أحيانا فأنوب عنه في إلقاء حصص على طلبة الماجستير عندما يسافر للمشاركة في ملتقى دولي أو انعقاد مجمع علمي، بما أنه كان عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. كما فهرست جملة من كتبه، وشاركت في عدة ملتقيات.

***

عرفته من خلال التطبيق له في مادة تاريخ الجزائر المعاصر مدة حوالي 8 ثماني سنوات، كما أسلفت. وكذلك عرفته محاضرا للمادة، وكان التنسيق بيننا مستمرا، حتى أنني كنت أحضر محاضراته مع طلبة الليسانس دون أي حرج طوال السنة ـ على الطريقة الأمريكية على ما ذكر لي ـ فأعرف ما يقدم لهم في المحاضرة، وما لا يقدم، وكان أحيانا أثناء المحاضرة، يأمرني بتعميق نقطة ما في الحصص التطبيقية. كان يجرب الحديث أحيانا بغير الفصحى حرصا على إيصال الفائدة للطلبة.

وفي مجال التدريس، يختلف منهج الإلقاء عنده بين الليسانس والماجستير. ففي الليسانس يقدم المادة في محطات، وقد تختلف ضمن المقياس الواحد من حيث التعدد والتنوع والزيادة والنقصان من دفعة إلى أخرى، معتبرا اختلاف المعلومات وتنوعها تكاملا ضمن الجيل الواحد. ويركز في مرحلة الليسانس على

التطرق والتناول الأفقي للمعلومات، أي على الثقافة العامة. وهو لا يحب التدريس فيما كتب، ولكن فيما هو بصدد البحث فيه.

وأما في الماجستير فيقوم التدريس عنده على المنهج العمودي، بأن تُتَناول مواضيع، على أن يتم التركيز فيها على التعمق، أي التخصيص بتعميقها وتدقيقها، وفي إطار حلقات البحث، إما اعتمادا على النفس أو بتكليف طلبة بأبحاث تلقى على مسامع زملائهم ثم تناقش.

لم يكن طلبة الليسانس يدركون قيمته وقتئذ، وليس الأمر غريبا، فلا نبي في قومه، وأجهل الناس بعلم العالم أهله. أذكر في يوم من الأيام، أن أثار الطلبة في مدرج الجنيدي خليفة (ببوزريعة) تشويشا تطور إلى مشادات كلامية في حضوره قبل بداية الحصة، فجلس ووضع رأسه بين يديه، ثم نهض وخرج من الحصة، فخرجت وراءه، وكان ممتعضا جدا مما حدث إلى درجة أنه اقترح علي التكفل بهذه المحاضرة لأنه لا يرغب في رؤية هؤلاء الطلبة مرة أخرى.

كان حريصا على حصصه، لا يتغيب إلا نادرا وللضرورة القصوى، وهنا أذكر مرة قبل أن أصير مطبقا له، حضر لتقديم حصة وكان يشكوا من حلقه، مصابا ببحة، التقيت به صباحا، قال هل أنت مشغول؟ قلت الآن لا، قال تعالى معي إلى الحصة، فلما دخلنا أمر أحد الطلبة بإحضار كرسي ثان ووضعه إلى جانبه وأجلسني، وكانت بيده وُرَيقة صغيرة مسجل عليها رؤوس أقلام، بدأ يملي علي بصوت خافت وأنا أُسَمّع للطلبة، كانت عملية محرجة لي كثيرا ولكن للضرورة أحكام.

كان حريصا على تكوين طلبة الليسانس تكوينا جيدا. لا يقبل لهم من المعيدين المتعاونين معه على التدريس إلا من يثق بهم، وأذكر في حياتي العلمية

وعلاقاتي معه أنه تحفظ على عدة أشخاص. ولما لاحظ بأن التكوين بدأ يتدهور، ومن مظاهره انتقال طلبة من السنة الأولى والثانية بحد أدنى من التكوين، رأى من الواجب أن تنزل بعض الكفاءات إلى السنوات الأولى مما اقتضى إعادة النظر في البرنامج وإيجاد مواد في التاريخ المعاصر ضمن السنوات الأولى، كان ذلك لضرورة تمتين التكوين، وبناء قاعدة صلبة.

لم يكن يتسامح في المستوى والتنقيط، لأجل ذلك وجدنا من الطلبة من كرر مادته عدة مرات، ومنهم من تحصل على جميع الوحدات في السنوات الأربعة وبقيت له مادة الدكتور سعد الله، وأعرف من الطلبة من أنهى شهادة الليسانس إلا مادة تاريخ الجزائر، وانقطع عن استكمالها، فلما سمع بذهاب الدكتور إلى الخارج عاد وامتحن في المادة ونجح فيها، وأذكر أن أحد الطلبة الذي درسته مطبقا للدكتور في مادة الجزائر، توجه إليَّ بالكلام مُعتدا بنفسه قائلا ها قد تحصلت على مادة الجزائر التي حرمني منها الدكتور سعد الله.

وقد حدثنا مرة عن تقييم الأساتذة في الجامعة وغياب مبدأ التفتيش على طريقة التعليم الثانوي، مؤكدا أن الأساتذة في بعض الجامعات الأمريكية، تتعاقد معهم الجامعة ويجدد العقد في نهاية أو مطلع كل سنة جامعية، على ضوء رأي الطلبة في جدية الأستاذ وكفاءته العلمية. هذه التقاليد توحي طبعا بكفاءة الطلبة وروح المسؤولية والضمير، وإني شخصيا أرى بأن الطلبة عندما يكونون في مستوى من النضج والوعي يعتبرون فعلا مفتشي الأساتذة في الجامعة، وهو أمر صار اليوم بعيد المنال لأن الطالب لم يعد يهمه المستوى بقدر ما تهمه الشهادة، لأجل ذلك، كما قلته مرات للزملاء، لو قدر للطلبة أن يعطوا رأيهم في

الأساتذة بالرفض والقبول لساهموا في طرد جل الأساتذة الأَكْفاءْ. أرجو أن يكون هذا الموقف من باب التشاؤم، لأننا لازلنا نسمع كلاما في أوساط الطلبة يعبر عن النضج ولو كان ربما استثناءات.

استضفت الدكتور سعد الله حوالي خمس أو ست 5 إلى 6 مرات، في حصص المحاضرات ومرة في التطبيقات كنت أفتتح الاستضافة بتقديم نبذة عن حياته، واستحضر دائما طُرفة في البداية، هي إجابة أحد الطلبة في تحليل نص امتحان بأن الدكتور سعد الله كاتب لبناني، ثم اَستعرضُ بعضَ مؤلفاته وأحيل الكلمة إليه تاركا له الحرية في أن يتحدث في أي موضوع في تاريخ الجزائر. كان يتحدث من نصف ساعة إلى 45 خمس وأربعين دقيقة ثم يفتح باب النقاش للطلبة، وهنا يحضرني سؤال طرحه عليه طالب من السنة الثانية نظام قديم في مدرج مالك بن نبي، قائلا: "بصفتكم مؤرخا في تاريخ الجزائر ولكم خبرة وإلمام بتطور البلاد هل من أمل في إصلاح الوضع في الجزائر ؟"، وكان جواب الدكتور كالآتي: "أنت تعرف أن المرأة الحامل عند بداية تكون الجنين في بطنها تمر بمرحلة ما يُسمى بالوَحم، ليكن في علمك أن مجرد الوحم غير متوفر في الجزائر في الظروف الراهنة على الأقل"، كان ذلك سنة ألفين وثمانية 2008.

كان يستعين بي في صب النقاط في الليسانس كما في الماجستير، دون أن يستعين بي في التصحيح ولا مرة واحدة.

كان الدكتور سعد الله حريصا دائما على تأدية واجبه في انسجام تام مع الطلبة والزملاء، وإذا كان قد نجح في كسب احترام، بل قلوب كثير من زملائه وطلبته، فإن هذا لم يكن تخطيطا في اعتقادنا، ولا هدفا في حد ذاته، ولكنه بتوفيق

من الله وتحصيل حاصل لعدة اعتبارات، تأتي في مقدمتها كفاءته العلمية، بفضل غزارة علمه وانتاجه وخبرته العلمية، ودماثة أخلاقه وتواضعه ولباقته. وليس هذا غريبا، فالشيء من معدنه لا يستغرب، فهو شخص يجمع بين ذاكرة قوية وذكاء حاد وعلوم متعددة جمعها من بيئات متنوعة اجتماعيا وثقافيا، مع طول ممارسة وتدريس في جامعات كثيرة، والمساهمة في الملتقيات الفكرية والانتماء إلى المجامع العلمية العالمية... إلخ.

كان شديد التحفظ من وسائل الإعلام التي تجري وراء الأساتذة في المناسبات لأغراض سياسية أو دعائية أو انتخابية أو غيرها... سواء منها المكتوبة أم المرئية أم المسموعة. وكثيرا ما كان يرفض اللقاء معها في الجامعة.

كذلك الحوارات في الجرائد والمجلات، لا يحبها، وإذا كان ولا بد منها، فإنه يفضل عندئذ الأسئلة المكتوبة ويجيب عنها كتابة.

كان حريصا على أن لا يحضر الملتقيات الجهوية شديد التحفظ منها، ويفضل عوضا عنها الملتقيات الوطنية، وحتى الملتقيات الدولية إذا اشتم منها رائحة أنها تخدم سياسة أو شخصية سياسية ما. وهنا أذكر أنه تنازل لي شخصيا عن الملتقى الدولي المنعقد ببغداد في الأسبوع الأول من جانفي عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين 1987، والذي تناول موضوع: "منهجية إعادة كتابة التاريخ العربي". فإن حضر ملتقيات واكتشف أنها ذات أغراض غير علمية، كتب عنها وكشف نواياها. وهو لا يفضل أيضا الأكل في الملتقيات، سيما إذا كانت في العاصمة، فهو يحاول أن يقوم بزيارة خاطفة للبيت بغرض الأكل. فيما يحضر البعض هذه الملتقيات طمعا فيما يقدم فيها من أكلات شهية لذلك فأنت

تسمعهم عندما يعودون منها يتحدثون عن أكلها وإقامتها أكثر مما يتحدثون عما دار فيها من أفكار.

أكتفي بهذه المحطات الجد متواضعة التي لا تعكس في الحقيقة إلا جانبا بسيطا من احتكاكي بالدكتور. وأتمنى أن تسنح لي فرصة أخرى لبسطها والتوسع فيها أكثر تعميما للفائدة. مع دُعائيّ الخالص بالرحمة والمغفرة للدكتور أبي القاسم سعد الله. إنا لله وإنا إليه راجعون. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

7

ذكريات.. مع مؤرخ الأجيال *أبو القاسم سعد الله*[1]

أ. د. إبراهيم مياسي/جامعة الجزائر

تقديم

لا شك أنه من الصعب التحدث عن شخصية بارزة مثل شخصية الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله المتعددة الجوانب، فهو من المؤرخين الجزائريين الذين اكتسبت أعمالهم رصيدا طيبا في تاريخ الجزائر، وهو أيضا شخصية أدبية ثقافية فكرية نشيطة على الساحة القطرية والعربية، إذ إنه من الأقلام التي ظهرت في فترة مبكرة في الخمسينيات على صفحات مجلة الآداب البيروتية من أجل الدفاع، يومئذ عن الجزائر وقضيتها العادلة، ومازال يدافع عنها إلى اليوم.

ينتمي الأستاذ سعد الله إلى مدرسة المؤرخين الجزائريين الذين ينطلقون من الانتماءات الوطنية والعربية الإسلامية للشعب الجزائري ويرفضون المفاهيم التي درج عليها معظم الكتاب الفرنسيين أو بعض المتشبهين بهم من الجزائريين في

---

(1) نشر المؤرخ إبراهيم مياسي هذه الدراسة المطولة في جريدة البصائر، كما نشرها على الشبكة العنكبوتية، ثم ضمنها كتابه، **قبسات من تاريخ الجزائر**، دار هومة، 2010/ ، ص ص: 239/ 260. و"**ذكريات... مع مؤرخ الأجيال *أبو القاسم سعد الله***" البصائر، الإثنين 2 ـ 9 ربيع الثاني/ 7 ـ 14 أفريل 2008، الأعداد 386 ـ 389 ـ 390 ـ 391. كما نشرها المرحوم ضمن كتاب الندوة التكريمية العلمية لمخبر الدراسات التاريخية والفلسفية جامعة منتوري، ص ص: 209/ 232،

نظرتهم إلى الجزائر شعبا وثقافتا وتاريخا؛ولهذا أسهم مساهمة فعالة في إرساء قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية من خلال تدريسه، وإشرافه على العديد من الرسائل الجامعية، وكذلك بكتاباته وأبحاثه وآراءه حول مختلف القضايا الوطنية، مما جعله يترك ملامح وبصمات واضحة على هذه المدرسة، وبذلك لقب بـ"مؤرخ الأجيال". كما هو الآن عضو فعال في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

نشأته:

يقول الأستاذ سعد الله عن نفسه: "ولدت في البدوع بجوار مدينة قمار الغربية بوادي سوف، ولا يذكر أهله سوى أنه ولد في صيف شديد الحرارة، عام ترميم الجامع الكبير ومدرسته بقمار، أي عام 1930 أو 1931م، وكان أهله من أوائل الفلاحين الذين ابتدعوا البدوع، فعمروها بغراسة النخيل لعذوبة مائها." ومما سمعناه عنه أيضا أن أبوه قد غرسه كغرس النخيل، فكان غرسا طيبا، ولد مع ميلاد ثمار النخيل المتمثل في التمر اللذيذ، غير أنهم يذكرون عند ميلاده كانوا لا يفترشون سوى الرمال ولا تظلهم غير سقائف من جريد النخيل.

دخل الطفل جامع البدوع عندما بلغ سن الخامسة، فأخذ ينهل من معين الدستور السماوي العذب بحفظ القرآن الكريم والمتون، ولاشك أنه سمع بزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس والوفد المرافق له من العلماء إلى وادي سوف، وإلى مدينة قمار بالذات في الذهاب والإياب في شتاء 1937م، وما خلفته هذه الزيارة الميمونة من أثر طيب في نفوس الناس عامة ونفوس النشء خاصة، وما بثته من تعطش للعلم والحرية والوطنية، في ذلك الوقت الحالك.

وحينما اشتد ساعد الفتى فرح به أبوه ليساعده، حيث كان في حاجة ماسة

للوقوف بجانبه في أشغال الفلاحة والزراعة، غير أن الأقدار قد وجهته توجيها آخر، وأن طموح الولد كانت أكبر من ذلك، وهي مواصلة تعليمه، لهذا ضحى الأب بابنه وسخي به للعلم وتركه يسافر إلى تونس ليتابع دراسته بجامع الزيتونة المعمور عام 1947م.

لقد تحمل "أبو القاسم" أعباء دراساته وهو في مقتبل العمر، وأعباء الإيواء والغذاء، فكان إذا تغذى في النهار لا يتعشى في الليل، والعكس صحيح، غير أنه وأقرانه يتغذون من العلم، فالعلم قد ألهاهم عن كل زخرف الحياة، فكانوا يشعرون ويؤمنون بأن لهم رسالة عظمى على كاهلهم تنتظرهم وهي الدفاع عن مقومات وطنهم والحفاظ عليه من المسخ والفسخ، ولهذا قد تهون كل الصعاب أمام تحقيق هذا الهدف النبيل.

ومما يقال عن أبي القاسم سعد الله أنه كان حريصا على النجاح والتفوق على أقرانه، رغم أنه كان دائما في دراسته يريد إلا أن يركب الصعب.

وكانت مدينة تونس العريقة أول حاضرة حل بها فأدخلته عالم العواصم قواسم، بما فيهم من تناقضات، غير أن تونس علمته أصول الدين الإسلامي الحنيف، وروافد الأدب العربي الراقي، فاغترف من مناهل المعرفة واكترع من حياض العلم الصافي، حتى تحصل على شهادتي **الأهلية والتحصيل** أي ما يعادل اليوم تقريبا شهادتي التعليم المتوسط والثانوي أو (الباكلوريا).

رجع الأستاذ سعد الله إلى أرض الوطن، فعينته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في وظيفة معلم بالمدرسة العربية بالحراش في السنة الدراسية 1954/ 1955م، فاستأنس بزميله وابن منطقته الشيخ الأزهاري (حفظه الله)، غير

أن فاجعته كانت كبيرة عندما اكتشف غربته في وطنه الذي اغتصبه الأجنبي وهذا باحتكاكه المباشر بالاستعمار الفرنسي حيث لامسه بوعي ثاقب، فجثم ذلك الكابوس على صدره، غير أن الأقدار ـ مرة أخرى ـ قد فتحت له باب آخر للعلم والمعرفة، فوجهته هذه المرة جمعية العلماء بمنحة دراسية إلى مصر، فالتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وتخرج منها سنة 1959م بشهادة اللسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية، وبعد عام حصل منها على سنة أولى ماجستير في النقد الأدبي، ولهذا بدأ يحضر في أطروحة الماجستير، حول "محمد العيد آل خليفة، رائد التجديد في الأدب الجزائري الحديث"، غير أنه لم يناقشها إلى اليوم، إلا أنه نشرها في كتاب هو الآن بين أيدينا.

إذن عاش سعد الله في القاهرة "أم الدنيا" مدة طويلة أثرت فيه لأنها كانت مركز إشعاع فكري وسياسي في ذلك العهد، جعلته يؤمن بالتاريخ الواحد والمصير المشترك للأمة العربية، كما عرفته بشرائح الأدب فاختلط بها وناقش ونشر واكتشف ذاته بين الذوات الأخرى، فنشر له في القاهرة سنة 1957م أول العنقود تحت عنوان " النصر للجزائر " مع مقدمة لأحمد توفيق المدني، رئيس مكتب القاهرة لوفد جبهة التحرير، عند "دار الفكر" ذات ميول يسارية، باعتبار موضوع الثورة الجزائرية يهمها، فشجعت الشاب الجزائري الثائر مع الثوار بفكره وقلمه.

ومن نشاط الأستاذ سعد الله في القاهرة أنه كان عضوا نشيطا في فرع القاهرة للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، الذي كانت تشرف عليه جبهة التحرير الوطني، وقد مثل هذا الاتحاد في عدة مؤتمرات، منها المؤتمر التأسيسي

الاتحاد العام للطلبة العرب واتحاد طلاب فلسطين بالقاهرة سنة 1958م. وكل هذا النشاط مدون في كتابه **"مسار قلم"** الذي صدر مؤخرا، عن دار الغرب الإسلامي، بيروت، وهو عبارة عن يوميات طالب جزائري في القاهرة.

وفي سنة 1960م اشتد لهيب الثورة الجزائرية المباركة، وفجأة استدعته جبهة التحرير الوطني إلى تونس، وكان يعني هذا الاستدعاء في ذلك الوقت عند الطلبة هو أحد الأمرين: إما التجنيد في صفوف جيش التحرير الوطني، والدخول إلى المعارك على أرض الوطن، وإما الإعدام لخروجه عن الخط الثوري؛غير أن المفاجأة كانت سارة، وهي الأمر بالسفر في بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فالتحق بجامعة "منيسوته "التي حصل منها على الدكتوراه في التاريخ الأوروبي الحديث والعلوم السياسية سنة 1965م.

ومن نشاطه في أوساط الحياة الطلابية بأمريكا، تنظيم الأسابيع الإشهارية للثورة الجزائرية، ومما يلاحظه الأستاذ سعد الله في أوساط الطلبة الجزائريين التشرذم والتمزق في الأفكار نظرا لاختلاف مدارسهم وثقافتهم ومشاربهم، بخلاف الطلبة الآخرين، بحيث في إحدى الاحتفالات بالثورة الجزائرية، نظم طلاب الدول الشقيقة والصديقة أناشيد للاحتفاء بهذه المناسبة، وحينما جاء دور الطلبة الجزائريين لم يجدوا أنشودة واحدة تجمعهم وتوحدهم نظرا لمدارسهم الأولى المختلفة، فكانوا في موقف حرج، مندهشين أمام الملأ، فأنقذهم أحد الطلبة الأذكياء (وهو محمد أبركان من مدينة الطاهير)، فصاح فيهم ينشد " زاد النبي وأفرحنا به، صلى الله عليه، يا عاشقين رسول الله، صلى الله عليه" فاتبعوه، وكانوا ينشدون والدموع تنهمر من أعينهم من شدة التأثر، بما فعله فيهم المستعمر

البغيض. لقد اكتشف د. سعد الله في أمريكا الحقيقية، والوجه الآخر للصورة الإنسانية والحياة والحضارة، وما حققه الإنسان الأمريكي من تقدم ورقي.

مارس د. أبو القاسم سعد الله التدريس بأمريكا لمدة سنتين بجامعة "ويسكنسن باوكلير" ثم التحق بجامعة الجزائر في خريف 1967م وبقي بها إلى أن أخرج إلى التقاعد في منتصف التسعينيات من القرن الماضي.

أسعفني الحظ أني درست على الأستاذ سعد الله في مرحلة الليسانس في جامعة الجزائر مع ثلة من الأساتذة الأفاضل منهم الدكتور مولاي بالحميسي ود. موسى لقبال ود. عبد الحميد حاجيات ود. المرحوم عطاء الله دهينة ود. نصر الدين سعيدوني ود. جمال قنان وغيرهم، كما درست عليه أيضا في مرحلة الماجستير، ثم جمعتني به الزمالة لسنوات عديدة بقسم التاريخ ـ جامعة الجزائر.

ذكريات الدراسة مع الأستاذ سعد الله:

درسنا على الأستاذ سعد الله في مرحلة الليسانس ومرحلة الماجستير، حوالي ستة وحدات ثلاثة في كل مرحلة. فوحدات الليسانس هي أوروبا المعاصرة، والجزائر العثمانية، والحركة الوطنية الجزائرية.

لقد اندهشنا بمقرر وحدة أوروبا المعاصرة في ذلك السداسي، بحيث تمتعنا بتلك الدروس والتي استهوتنا مضامينها، والتي تتمثل في المدارس الفكرية الأوروبية في التاريخ المعاصر من المدرسة الرومانتقية الخيالية العاطفية إلى المدرسة الدادية والمدرسة السوريالية (أي فوق الواقعية)، وغيرها من المدارس الفكرية التي تبنتها الطبقة الشبابية المتمردة عن الواقع والمجتمع، وهي تشبه إلى حد ما تصرفات بعض شباب أوروبا الرافض لواقعه في ذلك الوقت في الستينات وبداية السبعينات والمعروفة بـ" الهيبي".

أما وحدة الجزائر العثمانية فقد أتعبتنا كثيرا، ولم نفهم مقصود الأستاذ سعد الله، بحيث عمّ عند بعض الطلبة الاستياء والقلق والتذمر، لأن الأستاذ قد صعد في طريقته التعليمية والتربوية في إلقاء الدروس، والتي يجب على الطالب فيها أن يرى الأستاذ ويسمع ويفهم وبكتب الدرس في نفس الوقت، وأن يتابع بنفسه خارج الحصص بقية مقررات الوحدة بمطالعته بعض المصادر والمراجع وما كتب من مقالات حول الموضوعات المدروسة، وإلا فإنه قد ضاع وانقطع عن مواصلة الدرس؛ فكان يحدثنا تارة على الحكام العثمانيين في الجزائر، ويصفهم

بأقبح الأوصاف لجهلهم وعدم الاهتمام بالتعليم وإنشاء المؤسسات الثقافية والعلمية، وكان همهم الوحيد ينصب إلا على المسائل الاقتصادية والحربية فقط، وتارة أخرى يحدثنا عن علماء الجزائر وإنتاجهم الفكري الغزير والمهم.

لقد استولى على مقاليد الحكم في الجزائر في ذلك الوقت جهلة وطغاة وغرباء عن حاجات وأحاسيس المجتمعات الإسلامية التي يحكمونها، وعشش أثناءه الفكر الخرافي حتى كاد المجتمع كله يصبح زاوية صوفية تشيع فيها الحضرة والرقص العصبي والإيمان بالغيبيات والروحانيات.

وفي هذا الجو ظهر شيخ الإسلام عبد الكريم بن الفكون، واسمه الكامل عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون ولد في قسنطينة سنة 988 هـ/ 1580م، فحمل لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهد في سبيل الرجوع إلى الدين الصحيح، ونادى بالعلم والعمل وفهم الحياة فهما عقليا، وكشف أحوال المتاجرين باسم التصوف.

ألف مجموعة من الكتب والكتيبات التي يسميها تقاييد أو رسائل، وموضوعاته متنوعة فيها الاجتماعي مثل **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، و**محدد السنان في نحور إخوان الدخان**، وفيها اللغوي والنحوي مثل فتح اللطيف وشرح شواهد أبي يعلى، ومنها الأدبي مثل ديوانه وقصائده الأخرى ونحو ذلك.

ونذكر من العلماء أيضا، **عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري** ورحلته المسماة: **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، والتي قدمها وحققها وعلق عليها الدكتور أبو القاسم سعد الله، في كتاب صدر في الجزائر عن المكتبة الوطنية

وبالاشتراك مع المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة 1983م 366 صفحة. وصدر له أيضا كتاب آخر تحت عنوان: **الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وأثاره،** عن ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.

والظاهر أن أول من اكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان ليكليرك الذي ترجم له كتابه " كشف الرموز" إلى الفرنسية (في باريس، 1874. والكتاب غير كامل، وقد طبع "كشف الرموز" ناقصا بالعربية أيضا في عدة طبعات على يد ردوسي قدور، أولها بالجزائر سنة 1903م. وقد أشرف على هذه الطبعة السيد عبد الرزاق الأشرف. وامتازت مؤلفات ابن حمادوش بالطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي الذي شاع لدى علماء عصره ونذكر منها:

تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع).

تأليف في علم الفلك.

تأليف في الإسطرلاب والربع المقنطر.

تأليف في القوس لرصد الشمس.

تأليف عن الرخامة الظلية بالحساب.

تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية).

تأليف في صورة الكرة الأرضية.

الجواهر المكنون (في الطب).

بغية الأديب من علم التكعيب واسمه أيضا فتح المجيب في علم التكعيب.

تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج.

تأليف في الطاعون.

تأليف في علم البونبة.

وقد كان لمصطلح "البونبة" الذي كان ينطقه الأستاذ بشكل دقيق ومضخم، وفيقول لنا أحيانا ضاحكا ومتندرا: "يعطيكم بونبة"، وقد ترك كل ذلك في أنفسنا وقعا طيبًا، كنا نتندر به ونردده طيلة السنة، ومازال عالقًا في أذهاننا إلى اليوم.

أما العالم الآخر فهو المؤرخ الجزائري أبو راس الناصري، وأسمه الكامل: محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصري الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الناصري، وقد ولد في بيئة فقيرة وظل الفقر يطارده حتى قضى نحبه بعد عمر طويل. فقد ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري. ثم توجه به والده إلى سهل متيجة، وهناك فقد والدته وهو صغير. فعاد والده إلى حوز مجاجة واشتغل هناك بقراءة القرآن وتعليم الصبيان وتزوج عدة نساء حتى وافاه الأجل فدفن بمكان يعرف بأم الدروع. وبذلك فقد أبو راس والده وهو صغير. وقد كفله أخوه عبد القادر الذي توجه به إلى المغرب حيث حفظ أبو راس القرآن الكريم ويروي عن نفسه أنه كان وهو في حدود العاشرة حافي القدمين عاري الجسم إلا من أسمال بالية. ولكن أبا راس لم يلبث أن عاد إلى معسكر فالتقى هناك بالشيخ **عبد القادر المشرفي** الذي كانت شهرته العلمية واسعة، فتتلمذ عليه، وعندما شعر بشيء من الاستقلال العلمي خرج إلى جوار معسكر عند أخيه وتزوج واشتغل

بالتدريس وتولى القضاء. وما لبث أن رجع إلى معسكر حيث مكث فيها ستا وثلاثين سنة وهو يمارس التدريس.

وبالإضافة إلى الشيخ عبد القادر المشرفي درس أبو راس في الجزائر على مشايخ كثيرين، كما التقى وتذاكر مع عدد آخر منهم، ومن هؤلاء محمد الصادق آفغول "شيخ الإسلام الحافظ الزاهد"، وأحمد بن نافلة، ومحمد بن جعدون، قاضي مدينة الجزائر، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني، والمفتي أحمد بن عمار، وعبد القادر بن السنوسي بن دحو الملقب بالحافظ، والقاضي محمد بن مالك، والحاج علي ابن الأمين مفتي مدينة الجزائر، والمفتي محمد بن الحفاف، والحاج محمد بن الشاهد "عالم الجزائر وقطب رحاها.. فقيها علامة حافظا بارعا نظارا مفتيا مدرسا محققا.." ومحمد بن الفقون، والحاج علي الونيسي الشهير بالحفظ والفقه والتدريس، ومشى مع أحمد العباسي الذي كان " واسع العلم فصيح القلم.. أرق الناس طبعا"، ولقي بتونس محمد بن المحجوب، وصالح الكواش وإبراهيم الرياحي، وأحمد بيرم، ومن علماء مصر خاصة، يذكر الشيخ مرتضى الزبيدي، وعبد الله الشرقاوي، ومحمد الأمير، وقد ذكر عددا آخر من علماء المشرق والمغرب منهم: عبد الرحمان التادلي، وعثمان الحنبلي، وعبد الملك القلعي، وعصمان الشامي.

لقد كان أبو راس الناصري، معاصرا للجبرتي، فكلاهما عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر الميلادي. وقد مات أبو راس الناصري سنة 1823م عن عمر يناهز التسعين سنة، بينما مات الجبرتي سنة 1825م وقد تجاوز السبعين سنة. ومن جهة أخرى سمى الجبرتي كتابه

"عجائب الآثار في التراجم والأخبار" وأطلق أبو راس الناصري على كتابه اسم "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار". وكتب الجبرتي كتابا آخر هو "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس" بينما كتب معاصره أبو راس كتابا بعنوان "أقوال التأسيس عما وقع وسيقع مع الفرنسيس". وكلا المؤرخين تتلمذ على الشيخ مرتضى الزبيدي وأرخ لوفاته، والتقى ودرس أبو ناصر في مصر على عدد من العلماء كانوا موضوع عناية الجبرتي. ومع ذلك فإننا لا نجد اسم أبي راس في كتاب الجبرتي، ولا اسم هذا في كتاب أبي راس. فهل التقى المؤرخان شخصيا وتعارفا؟ هذا ما لا يمكن الجزم فيه.

عاش أبو راس فترة قلقة شبيهة بالفترة التي عاشها معاصره الجبرتي. فقد حضر فتح وهران الثاني واستعادة هذه المدينة من الاحتلال الإسباني. وكان لهذا الحادث أثر كبير في نفسه فألف فيه كتابه "عجائب الأسفار"، ولم تلبث الجزائر أن شهدت ثورة الطريقة الدرقاوية على الحكم العثماني، وكانت هذه الحادثة سببا في أزمة اقتصادية حلت بالبلاد ولا سيما المنطقة التي كان فيها أبو راس. وقد خص هذه الثورة بتأليف هو"درء الشقاوة في حروب درقاوة". وتجول في المغرب وتونس، وكان كلاهما غير مستقر سياسيا، فتأثر بذلك. وقد خص المغرب بعدة تأليف أيضا. وحج مرتين، وشهد في المشرق حدثين بارزين، الأول أنه دخل مصر قبل الحملة الفرنسية في الحجة الأولى ودخلها بعد هذه الحملة في الحجة الثانية، والتقى بعلمائها ورأى آثار الحملة، ولعله قد تأثر بها، ولعل كتابه "أقوال التأسيس" مستوحى من هذه التجارب. أما الحادث الثاني فهو الحركة الوهابية التي روي عنها أشياء في رحلاته وتناظر مع بعض مؤيديها وعرض بهم.

والشخصية السياسية التي أخذت بلب أبي راس الناصري هو محمد الكبير، باي مدينة معسكر ثم مدينة وهران بعد فتحها. فقد أنعم هذا الباي عليه، وخصه أبو راس من جهته بالشعر والدعاء والتأليف. وكان ضياع الأندلس جرحا في قلب أبي راس إلى أن استعاد الجزائريون وهران من الإسبان فاعتبر أبو راس ذلك فتحا مبينا، وتمنى أن تستمر موجة الفتح حتى استعادة الأندلس.

ورغم شكوى أبي راس من تدهور العلم في عصره، فإن كتاب هذه الفترة يذكرون شواهد كثيرة على تقدم المعارف وعناية السلف بها، ولاسيما الباي محمد الكبير. فقد شكا أبو راس من ضعف الحياة العلمية على عهده بقوله: " إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده، وقلبت دياره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، وقد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن اندراس العلم والفضائل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل..".

ولأبي راس كتب كثيرة في التاريخ وغيره بعضها موجود وبعضها مفقود، فقد كتب في التفسير والأسانيد والمذاهب والتوحيد والتصوف والنحو والبيان والمنطق واللغة والأدب، وله قصائد في أغراض شتى أهمها التاريخ والمدح. وهذه قائمة ببعض أعماله التاريخية:

زهرة الشماريخ في علم التاريخ.

در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.

الوسائل إلى معرفة القبائل.

الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية.. وهو أصلا قصيدة تاريخية.

ما رواه الواعون في أخبار الطاعون.

حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي.

فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.

ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.

الزمردة الوردية في ملوك السعدية.

مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب.

الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعا من أنواع العلوم.

الغرض (أو الخبر) المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب ـ وهو الشرح الثاني للحلل السندسية ـ.

روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان، وهو الشرح الأول للحلل السندسية.

العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.

وغيرها من الكتب، البعض منه مطول والبعض الأخر مقصر.

ثم كان **الشيخ ابن العنابي** ضيف حلقات الدرس، وهو المفتي الجزائري، رائد التجديد الإسلامي، واسمه الكامل هو محمد بن محمود بن حسين الجزائري وشهرته العنابي أو ابن العنابي. وكان على مذهب الحنفية. وأسرته قديمة في تاريخ

الجزائر. عاش ابن العنابي عمرا حافلا بالإنتاج العلمي والاضطراب السياسي. فقد ولد 1189هـ/ 1775م. وتوفي في الإسكندرية سنة 1267هـ/ 1851م.

يعتبر ابن العنابي من أوائل علماء المسلمين الذين طرحوا قضية التجديد في النظم الإسلامية أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وهو لذلك من أوائلهم أيضا الذين طرقوا باب الاجتهاد الذي ظل مقفلا عدة قرون نتيجة التأخر العقلي الذي كان عليه العالم الإسلامي. كما عالج أيضا قضايا العصر في كتابه وفي فتاويه التي كان يصدرها طبقا لمصالح المسلمين، وفي إجازاته التي كان يمنحها لطلابه والعلماء الذين يطلبونها منه.

وقد عالج ابن العنابي قضية جمود عقلية علماء المسلمين أمام تقدم العقل الأوروبي، وتخلف الجيش الإسلامي أمام زحف الجيوش الأوروبية. ومن آثاره كتابه **"السعي المحمود في نظام الجنود"**، والفتاوى، وأجوبته على آداب مجلس قراءة القرآن، وغيرها من التأليف.

وكان ابن العنابي حاضرا وقت سقوط مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين، وكان من مستشاري الداي حسين، وحينما انهزم الجيش الجزائر بقيادة إبراهيم باشا (صهر الداي)، كلف الداي حسين ابن العنابي بقيادة الجيش، فرد عليه قائلا: ".. أنا رجل قلم ولست رجل سيف.. فقد انتهى كل شيء، وحسم الأمر. ". في الأخير طلبت منه السلطات العسكرية الفرنسية أن يتعاون معها فرفض، وخرج من البلاد إلى المشرق العربي حتى وفاته (رحمه الله).

كما درسنا في هذه الوحدة علماء آخرين منهم ابن سحنون الراشدي، وكتابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، وغيرهم لا يسع المقام لذكرهم جميعا.

تلكم هي بعض ملامح برنامج الوحدة، وقد دخلنا إلى الامتحان بذهنية مشوشة، وأفكار غير مركزة، ومعلومات مبعثرة، لأننا لم نفهم ما هو المقصود ولا المطلوب منا حتى نذاكره، وقد جاء السؤال كالتالي: قيل: " تميزت الثقافة العربية في الجزائر العثمانية بالضحالة " ـ ناقش هذا القول؟. وفي لحظة هذا السؤال فهت كل ما كان يقصده الأستاذ من نطف المعلومات التي قدمها لنا، وما هي غاية السؤال، فكان الجواب ببساطة أن مقولة غير صحيحة، لأن الثقافة العربية في الجزائر العثمانية (1518 ـ 1830) قد عرفت ازدهارا كبيرا لم تشهده البلاد من قبل، حيث ما تعرفنا عليه من العلماء ومن إنتاجهم الفكري الغزير إلا دليل قاطع على تطور الحياة الفكرية والثقافية التي ساهم فيها الشعب الجزائري من تلقاء نفسه وبفعل التكافل الاجتماعي من خلال الأوقاف الذي يصرف على العلم والتعليم دون أن يعتمد على الدوائر الرسمية في البلاد.

وما درسناه في هذه الوحدة من نماذج، ما هو إلا غيض من فيض، لأن ما نجهله عن العلماء والأدباء والفقهاء وعن مخطوطاتهم التي مازلت جاثمة إلى حد الآن في الرفوف، هو الكثير الكثير، وخلاصة القول هو تكذيب الدوائر الاستعمارية التي روجت، وما زالت تروج إلى اليوم، في أوساط الأجيال الصاعدة أن الجزائر قد بلغت في القرون الماضية أسفل درجات الجهالة والهمجية إذا لم يكن بالبلد أي تعليم منظم ولا حياة فكرية، فلا عالم بينهم ولا كاتب أديب ولا شاعر. فالأمة الجزائرية مؤلفة كلها من أميين يجهلون القراءة والكتابة، وقالوا أن اللغة العربية قد ماتت منذ زمن بعيد ودفنت مع اللغات الميتة الأخرى، وهذا من أجل تبرير عدوانها ودعم مطامعها الاستبدادية موهمة الرأي العام أن من واجب الأمم الراقية أن تنقذ سكان الجزائر من آفة جهل شامل

وتأخر فاحش عن ركب الأمم المتمدنة وذلك باسم الحق والإنسانية.

ذلك هو الجواب، بخلاف بعض الطلبة الذين انساقوا وراء الأفكار الرائجة أن الاحتلال الفرنسي قد حررنا من الأتراك ومن الجهل، ويعمل على نشر الثقافة والعلم الحديث لذلك تحصلوا على علامات مسقطة، بينما تحصل في هذا الامتحان علامة عالية كل من فهم أهداف الدرس.

أما الوحدة الثالثة فهي الحركة الوطنية الجزائرية، التي تخصص فيها الأستاذ، ولذلك فكان يحاضر لنا من ذاكرته مباشرة دون أن يفتح محفظته الكبيرة وتبقى جاثمة على المكتب، ذلك أن ما بقي عالق في ذهني إلى حد الآن، هي حركة الأمير خالد، بحيث تأثرت وأعجبت بهذه الشخصية، مما جعلني أبحث عن جوانبها المختلفة، وأكتب عنها المقالات، منها مقالة في جريدة **اليوم**، في 10 و11 أفريل سنة 2000م، العدد 363 ـ 364. تحت عنوان **"أبو الحركة الوطنية الحقيقي"**، وقد أثرت في نفسي خلاصة الأستاذ في آخر المحاضرة عن الأمير خالد، حيث قال: " فبعد حياة عامرة بالنشاط والحيوية وبعد خيبة الأمل في سنة 1926، أسدل الستار عن الحياة السياسية للأمير ولم يرفع إلا بحدث وفاته سنة 1936م".

أما في مرحلة ما بعد التدرج، فقد اندمجنا في نظام الماجستير الجديد بعدما كنا في النظام القديم وهو تحضير شهادة الدكتوراه الحلقة الثالثة، بعد الحصول على دبلوم الدراسات المعمقة، فالتقينا إذن بالدكتور سعد الله في ثلاثة وحدات هي: تاريخ الجزائر، وحدة المنهجية، وحدة الشرق الأقصى (الهند).

ففي وحدة تاريخ الجزائر، درسنا الأستاذ الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية، وهذا الموضوع هو في الحقيقة محاضرة ألقاها الدكتور أبو

القاسم سعد الله أثناء انعقاد المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة، الذي انعقد في أكتوبر، 1981م، بقصر الأمم بالجزائر العاصمة، وقد نشرتها الصحف والدوريات، منها: جريدة "الشعب"، بتاريخ أول نوفمبر 1981، ومنها مجلة (أول نوفمبر) عدد1928، وقد ترجمتها جريدة (المجاهد) اليومية في حلقات، أولها بتاريخ 10 نوفمبر1981. وأخيرا نشرت ضمن كتاب الأستاذ سعد الله، **أفكار جامحة**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

إن موضوع الاتجاهات الفكرية والثقافية يكاد يكون غير مطروق. ذلك أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت بالدرجة الأولى حركة سياسية تقوم على مقاومة المستعمر بالسلاح أولا، خصوصا خلال القرن التاسع عشر، ثم لجأت إلى العمل السياسي المنظم في شكل أحزاب وهيئات.

ومن الجدير بالذكر أن المستعمر قد أحل مؤسساته الثقافية محل المؤسسات الوطنية، فبالإضافة إلى المدرسة الفرنسية المحضة، هناك الكنيسة وإمكانياتها، واللغة الفرنسية وأجهزتها، ووسائل الأعلام، ولا سيما الصحافة ثم الإذاعة. وقد أدخل المستعمر أيضا المسرح والسينما والنوادي ونحوها.

أما التعليم الإيديولوجي الوطني فإنه يتمثل بشكل واضح في إنشاء المدارس الحرة التي شرع فيها أولا بعض الأفراد المحسنين مثل مدرسة الشبيبة ومدرسة الفلاح، ثم تبنتها الهيئات الوطنية مثل جمعية العلماء منذ إنشائها وحزب الشعب في عهده الأخير. وكانت هذه المدارس الحرة تقوم على كواهل معلمين تأثروا على العموم بالإصلاح الإسلامي، أو متأثرة بتيار الفكر القومي الذي أخذ في الظهور بالمشرق. وهكذا لم تحن سنة 1930م حتى كانت هناك إيديولوجية

ثقافة جديدة في الجزائر، إيديولوجية يدعمها الإصلاح والوطنية من جهة والتأثر بالحركة العربية الإسلامية من جهة أخرى، وكان ذلك فاتحة عهد جديد من التعويض الثقافي الذي افتقده الجزائريون طيلة قرن. فقد استرد الجزائريون الثقة بأنفسهم، واكتشفوا كنوز ماضيهم، وارتبطوا بإخوانهم في المشرق والمغرب بناء على أن المعركة الثقافية واحدة. ولاشك أن الأمير خالد، وتأسيس نادي الترقي بالعاصمة، والتقاء قادة حزب الشعب بشكيب أرسلان، كان له أثر على تشكيل الإيديولوجية الثقافية الجديدة للجزائر.

إن تتبع الاتجاهات التي ظهرت في الجزائر، مع التركيز على فترة العشرة سنوات السابقة للثورة، وتصنف كالآتي:

1) ـ اتجاهات دينية. 2) ـ اتجاهات سياسية. 3) ـ اتجاهات ثقافية.

الاتجاهات الدينية:

يعتبر الإسلام العقيدة الأولى في الجزائر منذ أربعة عشر قرنا. وهو المفهوم الروحي الذي استحوذ على مشاعر الفرد الجزائري فحدد شخصيته ونمط عيشه وسلوكه. ويمكن تصنيف الاتجاه الديني إلى أ) ـ اتجاه تقليدي. ب) ـ اتجاه معتدل. ج) ـ اتجاه إصلاحي. مع شرح كل اتجاه.

الاتجاهات السياسية:

يعتبر الأمير خالد بحق فاتحة عهد في الاتجاهات السياسية الوطنية، فجرأته السياسية وقلمه وهندامه وثقافته وبرنامجه، كلها جديدة على الحركة الوطنية. وكان نفيه من طرف المستعمرين قد جعل منه شهيد الوطنية. وسرعان ما أصبح رمزا

للثوريين والمعتدلين على السواء، بل أن الشيوعيين قد تعاطفوا معه بعض الوقت. ومنذ العشرينات سارت الاتجاهات السياسية على النحو التالي: 1) ـ الاتجاه الثوري. 2) ـ الاتجاه المعتدل. 3) ـ الاتجاه العالمي. 4) ـ الاتجاه العربي الإسلامي.

الاتجاهات الثقافية:

كان مضمون الإنتاج الجزائري ـ بتعابيره المختلفة ـ وطنيا في أغلبه. وإنتاج مضاد للاستعمار في الجملة. ويمتاز بالنضالية والواقعية. وقلما التجأ إلى المثالية الحالمة.

وهكذا لم تأت ثورة نوفمبر طفرة واحدة، بل جاءت تتويجا لكل التيارات التي ذكرت. إنها حصيلة تجارب النجاح والفشل لكل الشعب الجزائري.

ورغم ما بذلناه من مجهودات لدراسة هذه الوحدة، وما دار بيننا من نقاش ساخن أثناء الدروس، فإننا لم نوفق في الإجابة حسب نقطة الأستاذ الضعيفة، فكان السؤال يدور حول ما إذا كان للحركة الوطنية الجزائرية إيديولوجية معينة، وكنت أعتقد ـ وما زلت ـ أنني كتبت أحسن مقالة طيلة حياتي الدراسية، وقد شرحت فيها بالدليل إيديولوجية الحركة الوطنية، وللأسف فقد تحصلت على أسوء نقطة تعرضت لها طيلة مسيرتي التعليمية، لأن الأستاذ يعتقد أن الحركة الوطنية تفتقر من الإيديولوجية تماما.

أما الوحدة الثانية فهي: ـ منهجية التاريخ ـ وكانت الحصص مناصفة بين الأستاذ سعد الله والأستاذ مولاي بالحميسي، وتعرفنا على تجارب كل واحد منهما حول جمع الأصول ونقدها لإثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها وإنشاء الصيغة التاريخية وغير ذلك، واستفدنا كثيرا منهما، جازاهم الله عنا كل خير.

وأخيرا وحدة الشرق الأقصى ودرسنا فيها الحركة الوطنية بالهند مطلع القرن العشرين، ثم تأسيس حزب المؤتمر، كما درسنا معظم التيارات الفكرية والسياسية بالهند، وكلفنا الأستاذ بتقديم تقارير ودراسات وبحوث حول مذكرات وكتب الزعماء وحول الأحداث الكبرى، وحول مسيرة غاندي السلمية، وغيرها من الموضوعات فكانت دراسة مفيدة وشيقة رغم المجهودات التي كنا نقوم بها.

تلك هي إذن الوحدات التي درسناه على الأستاذ أبي القاسم سعد الله، ما زال صداها وتأثيرها قائم في وجداننا إلى حد هذه الساعة، لأن الأستاذ كان يتميز بغزارة العلم وبالنشاط والحيوية الدائبة، وأظن أنه كان في غزّ عطائه، وفي ذروة أستاذيته.

ذكريات الزمالة مع الأستاذ سعد الله:

ما فتئ الأستاذ سعد الله يردد لنا، خلال الدراسة، وخاصة في مرحلة بعد التدرج، أنه لا يقبل صداقة أو زمالة أحد منا، لا يركب معه في السيارة ولا يجالسه في النادي أو أي مكان عمومي آخر، ويجب أن تكون المعاملة بيننا بحساب، إلى أن فتح الله علينا وأصبحنا زملاء ـ بكل تواضع ـ وأصبحت العلاقة بيننا تتسم بالاحترام والتقدير وبالود ـ من الطالب لأستاذه.

إن فترة الزمالة، فترة طويلة لأكثر من عشرين سنة خلت تعرفت فيها على جوانب عديدة عن الأستاذ وعن قرب، ولا يمكن ذكرها جميعا وسأكتفي بحادثتين فقط، الأولى كان الأستاذ سعد الله يدرس تاريخ الجزائر للسنة الرابعة بمدرج مالك بن نبي، ملحقة بوزريعة ـ جامعة الجزائر ـ وكان الطلبة في

إضراب، وليس للأستاذ علم بذلك، فدخل المدرج كالعادة ليدرس، وكان عدد كبير من الطلبة تريد أن تدرس، ولا تريد تفويت الفرصة، غير أن أحد الطلبة من منظمي الإضراب منع الأستاذ من التدريس، بل وتهجم عليه بكل عنف ووحشية، ولما سمعت هيئة التدريس بذلك غضبت غضبا شديدا مع الإدارة، وقررت معاقبة الطالب عن طريق مجلس التأديب، غير أن الأستاذ سعد الله عارض بشدة هذا الإجراء، وقال: " كيف لي أن أعاقب أحدًا من طلبتي أخطأ في حقي وأنا بصفتي أستاذ، فلا يمكن ذلك أبدا ؟ فإني أغفر له ذنبه مهما كان. "، وكان ذلك قمة التسامح، وذروة الأخلاق النبيلة، وقدوة للأساتذة الآخرين.

أما الموقف الثاني فهو في إحدى المرات، كنت أتجاذب أطراف الأحاديث مع الأستاذ أمام مدرج ـ أ ـ بملحقة بوزريعة، بعدما فرغ من تدريس السنة الرابعة، وكنت سأدخل من بعده، فإذا بشخص مجهول ـ ويظهر عليه الاحترام ـ تقدم منا وسلم، وسأل الأستاذ سعد الله قائلا: " هذه سيارتك يا أستاذ ؟" ـ وهي سيارة قديمة نوع ما ـ فأجابه الأستاذ بنعم، فقال له الرجل، أنت يا أستاذ تستحق من الدولة أن تأتيك بطائرة خاصة تنقلك من هنا إلى منزلك، فأجابه الأستاذ لا أحتاج إلى ذلك، وإنما أحتاج إلى سكن لائق، فتعجبت من هذا الجواب المتواضع؟. وقد أنعم الله عليه الآن ومؤخرا فقط بسكن لائق، متعه الله به أمين.

وفي سياق الحديث عن السيارة، نال الأستاذ سعد الله جائزة قيمة وبالعملة الصعبة منحت له على مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية، وحينما سمعت بالخبر تبادر إلى ذهني أنه سيشتري بها سيارة فخمة جديدة، غير أنه قد تبرع بها وعلمت عن طريق الصحافة، أنه منحها في حفل تقديم الجائزة

الذي أقيم في مدرج جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، فكتب يقول:

ـ بسم الله الرحمان الرحيم ـ

مدح الله سبحانه في القرآن الكريم القلم والكتاب، ورفع من شأن التعلم والعلم والعلماء درجات... وكان ابن باديس قد بدأ مسيرة النهضة بالكتاب والعلم، ولئن لم يسعفه الحظ بتأسيس مكتبة عمومية موردا لطلابه ومواطنيه...وفي ضوء ذلك، ومادامت هذه الجامعة الإسلامية تحمل اسم بطل المقاومة الوطنية (الأمير عبد القادر) وتقع في مدينة رائد النهضة الوطنية (ابن باديس)، ومادامت الجائزة قد منحت إلي على مساهمتي في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية، ومادام والدي ـ رحمه الله ـ قد فرغني للعلم في وقت كان أشد ما يكون حاجة إلى خدماتي أمور المعاش وقد تحمل من أجل ذلك فوق طاقته.

فإنه يسرني أن أعلن بأنني قد تبرعت بالجائزة الممنوحة إلي إلى مكتبة جامعة الأمير عبد القادر لتشتري بها الكتب الضرورية لتنميتها وجعلها موردا علميا يتناسب مع عظمة مشروع الجامعة ورسالتها ويرقى إلى عظمة الأمير عبد القادر وابن باديس، وأرجو أن يطلق اسم (الإنتفاضة الفلسطينية) على الجناح المخصص للكتب المشتراء من نقود الجائزة. **وفق الله الجميع. أبوالقاسم سعد الله.**

قسنطينة في 14 شوال1411هـ/ 29أبريل1991م.

وهكذا كان سعد الله من الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

تتبعنا إنتاج سعد الله في سنوات المخاض العسير ـ أواخر الثمانينيات وبداية

التسعينيات منها: **عذرا يا عراق.**

عذرا يا عراق. إذا تركناك تواجه الدمار الشامل، ولم نسق إليك النّجائب والركائب، لتدفع عنك غائلة الأعداء، كما يقتضي واجب العروبة والإسلام، وكما تتطلبه روابط الأخوة وأواصر التاريخ.

وقد جمع معظم تلك المقالات بين دفتي كتاب سماه "هموم حضارية" عن دار الأمة، 1993.

ومن المقالات الهامة أيضا نذكر منها: قراءة في كتاب (**المحاكم الإسلامية والسلطة الاستعمارية في الجزائر**) للبروفيسور " آلان كريستلو " نشره الدكتور أبو القاسم سعد الله في الملحق الثقافي لجريدة"الشعب"، الخميس 25 ذو القعدة 1409 هـ/ 29 جوان 1989م، العدد 7981. استهله بـ " لو اقتصر احتكار الفرنسيين لتاريخ الجزائر على الفترة الاستعمارية لكان لاحتكارهم مبرر، مؤقتا على الأقل، ولكن إذا أصبح احتكارهم عاما لكل تاريخ الجزائر، من قديمه إلى معاصره، فذلك أمر يثير الدهشة وينذر بالخطر. فقد أصبح اسم (قزال) علما على تاريخ الجزائر القديم (بل المغرب العربي كله)، وأصبح (غوتييه) علما على تاريخها الوسيط، واسم (غرامون) علما على تاريخها العثماني، واسم (أجرون) علما على تاريخها المعاصر، بل أن اسم (جوليان) أصبح ملتصقا بتاريخ الجزائر في جميع العصور لأنه كتب عن الجزائر (وشمال إفريقيا) في مختلف العصور. ولكن هل هذا الاحتكار (أو الاحتواء بالمعنى السياسي) ظاهرة طبيعة ؟ ألا يبرهن على استمرار المدرسة الاستعمارية في السيطرة على الدراسات التاريخية عندنا ؟ وما معنى الاستقلال السياسي إذا كان تاريخنا ما يزال "مستعمر"؟ لقد نادى بعض

الجزائريين منذ فترة بضرورة تصفية التاريخ من الاستعمار، ولكن ذلك النداء بقي حتى الآن بدون رد فعل إيجابي...... وليس غريبا إذن أن يلجأ المؤرخون غير الفرنسيين إلى الاعتماد على المراجع الفرنسية عن الجزائر لأنهم يجدون الساحة فارغة من المراجع الجزائرية. تذكرت هذا عندما قرأت كتاب البروفيسور " ألان كريستلو " عن تاريخ الجزائر الاجتماعي والديني خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين......".

وأظن أن الساحة بدأت تمتلئ بإنتاج الدكتور سعد الله وتلامذته وخلانه وزملائه من الأساتذة من مختلف الجامعات الجزائرية، وبفضل المحاولات لتأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية، التي تسعى لكتابة تاريخ الجزائر كتابة موضوعية علمية لإبراز الحقائق التاريخية المنزه عن كل تزييف أو تحريف

المقالة الهامة الأخرى التي نشرها في جريدة "الشعب" ليوم الثلاثاء29 جمادي الأول 1408هـ الموافق لـ: 19/ 01/ 1988م العدد7538. تحت عنوان **"الخوف من التاريخ"**، وهي عبارة عن محاضرة نشرت الجريدة نصها الكامل، نورد منها المقتطفات التالية: "في هذه الليلة المباركة التي تحملنا إلى أعتاب أول نوفمبر الخالد، اسمحوا لي أن أقول لكم بأني جئتكم خائفا من التاريخ، مفكرا في حكمه القاسي الذي لا يرحم وَجِلا من المصير الذي ينتظرني معه إذا لم أقم بواجبي نحوه، فهل أنتم مثلي خائفون من التاريخ؟ يا لسعادتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين؟.....

في كل ركن من أركان الماضي أسمع صوتا يتوعدني أنت مثقف ولكنك لم تقم بواجب المثقفين، وأنت مؤرخ وقد قصرت في أداء رسالة التاريخ، ثم يزداد

ذلك الصوت غلظة وتهديدا وهو يعلن: ومن أجل إخلالك بواجب المثقف وتقصيرك نحو رسالة التاريخ: حكمت عليك بالإعدام البطيء.. إلا أن تكفر عن ذنبك ما دام في أجلك فسحة؟. فيا لسعادتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين من الإعدام البطيء.. ؟.

رحماك أيها الصوت المتوعد المخيف ؟ إني سأحاول، سأحاول مادام في الأجل فسحة ؟.......

إن الإحساس بالتاريخ فطرة يفطر عليها الله بعض الشعوب والأفراد، وبذلك لا يرتكبون أي شيء قد يدينهم ذات يوم ولو بعد قرن، ولكن البعض يتبلد فيه ذلك الإحساس فلا يعود يحس إلا مصلحته الآنية، يعميه الحقد أو الرغبة، ويموت فيه الضمير، فيعيش الحاضر فقط وينسى الماضي والمستقبل....

أولئك قوم "نسوا الله فأنساهم أنفسهم" أولئك قوم مات فيهم الحس التاريخي، فلم يفكروا في وطن ولا دين ولا نسل.......

إننا ننسى كثيرا، ومن شقاء المؤرخ أن ذاكرته حية دائما... أنها مأساة المؤرخ أن يرث تركة خطايا الأجداد الذين فقدوا ذاكرتهم أو مزقوا أوراقهم ورموا بها في النار في لحظة غضب أو أهملوا تدوين حياتهم فلم يعرف عنها الأحفاد سوى صورة رسم أعدائهم ؟

والغريب أننا عندما نأتي لنفكر عن خطايا الأجداد يتصدى لنا الناس طالبين منا أن ندفن الماضي لأنه لا يشرفهم، أو يريدون منا أن لا نقول إلا مدحا في جانب وذما في جانب آخر، أو يخطئوننا دون علم بمناهج التاريخ والبحث، أو حتى يهددوننا بالويل والثبور، كأن وقائع البلاد ملك شخصي لهم، وكأن

مؤسسات الوطن وقف شرعي عليهم ومحرم على غيرهم.

أريتم أن الرسالة المؤرخ في بلادنا أكثر تعقيدا مما يظن الظانون ؟

ومن المقالات التي لها أثر نذكر بعضها: ـ عن فوضى اللغات ـ صيف في سوف ـ مع الشعب الليبي ـ "الحاج ديكارت " الجزائري.. والعباءة الدولية؟؟ وغيرها كثيرة ورائعة.

البيئة التي أثرت في كتابات الأستاذ سعد الله:

لقد كانت البيئة التي خرج منها بيئة عربية إسلامية محافظة جدا. وهي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة. وفيها كل ما في البداوة من خير وشر. ولكنها من الناحية الطبيعية جافة إلى درجة القسوة، واسعة كالمحيط، ومع ذلك تجد الإنسان أمامها مستسلما إلى درجة القدرية، يحس بضعفه حتى لا يكاد يفقد ذاته. ولا يكاد يجد مهربا من رتابة رمال الصحراء ولفح شمسها إلا في ظل نخلة وارفة، أو خرير ساقية، أو صوت حيوان أليف، أو نظرة في النجوم السابحة. يضاف إلى ذلك الشباب الجامح والغريزة الطافحة.

كتب الأستاذ سعد الله إحدى المرات، في جريدة (الجمهورية) بتاريخ 9يونيو1986م، يقول: "إن ظروف الكتابة في الوسط الذي نعيش فيه لا يعترف بقيمة الكتابة، ولا يقدر المكتوب ولا الكاتب. ولذلك تجدنا نكتب بالأسنان والأظافر والأصابع المقطوعة والكراسي المبتورة، وإننا نسير رغم أنف التيار المعاكس. وليس لنا مكان نختلي فيه إلا المقابر، ولا منضدة نكتب عليها إلا الجماجم، ولا وسيلة تتشبث بها غير القنوط، فمن يظن أننا نكتب ما نكتب على مناضد الرخام، وأرائك الحرير فهو غر أو مغرور. إننا نمارس فن الكتابة كما يمارس (سيزيف) جر صخرته، كما عاش المتصوفون لحظة تعذيب النفس والبدن في سبيل الخلاص.....".

تلكم هي الإطلالة الوجيزة عن أستاذنا سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، ومهما كتبنا فإننا لا يمكن أن نوفيه حقه، لأنه شخصية مرموقة ومتعددة الجوانب، ومهما قدمت له من انتقادات، فيكفيه فخرا ما قدمه للجزائر

الحبيبة من إنتاج فكري وتاريخي رائعين، ذلك أن موسعته الهائلة: تاريخ الجزائر الثقافي ـ تسعة مجلدات ـ تشفع له كل زلته إن وجدت، أطال الله عمر أستاذنا، وحفظه الله ورعاه، وأبقاه ذخرا للبلاد والعباد.

الشراقة . 09 إبريل 2007م

8
أبو القاسم سعد الله مؤرخا [1]

الأستاذ محمد رحاي/ جامعة سكيكدة

المقدمة

بدأ أبو القاسم سعد الله مشواره العلمي والثقافي أديبا وشاعرا لينتهي به المطاف مؤرخا ومفكرا، يحمل هموم أمته العربية والإسلامية، ويتوق إلى وحدتها وقوتها، وقد سخر جهوده العلمية في التدريس والكتابة التاريخية للتصدي للمدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر، وقد عمل على إبراز معالم الثقافة العربية والإسلامية في الجزائر التي اجتهد المستعمر الفرنسي في محاولة طمسها، فكانت موسوعته الثقافية "تاريخ الجزائر الثقافي" من أهم أعماله، كما اهتم بقضايا الكتابة التاريخية، والتراث والتأخر التاريخي العربي.

التعريف بأبي القاسم سعد الله:

ولد سعد الله أبو القاسم سنة 1930 في "قمار" بالصحراء الجزائرية في أسرة فقيرة كانت تعيش على فلاحة التبغ والنخيل[2]. ونشأ بمسقط رأسه أين أتم

(1) بقلم محمد رحاي من جامعة سكيكدة، وقد استأذنته في نشر نخبة من المقالات الصغيرة في حق شيخ المؤرخين فرحب بالفكرة، والمقال سيطبع في مجلة بيروتية.

(2) أبو القاسم سعد الله **منطلقات فكرية** الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس الطبعة الثانية 1982 ص 44.

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتلقى المبادئ الأولية في العلوم الشرعية واللغوية، كما تعلم القراءة والكتابة وحفظ المتون والتحق بجامع الزيتونة للاستزادة من العلوم الشرعية واللغة العربية عام 1947، وهي المرحلة التي عم فيها الظلم الاستعماري وتزوير الانتخابات وقمع المظاهرين والاحتجاجات، كما ظهرت حركة الانتصار من أجل الديمقراطية بزعامة "مصالي الحاج".

قضى سعد الله بتونس سبع سنوات ـ حصل خلالها على التأهيل (1951) والتحصيل (1954)، وتحمل خلال هذه الدراسة أعباء ومتاعب، حيث كان يعمل ويدرس. وقد تأثر سعد الله بالأحداث التي كانت تجري في تونس آنذاك، ويعترف أنه تأثر بثلاثة اتجاهات أثناء دراسته بتونس وهي:

التربية الدينية والأخلاقية:

التربية الوطنية التي اكتسبها عن طريق مشاركته في نشاط جمعية الكلية منذ 1948.

التربية الأدبية وذلك بفضل مطالعته لإنتاج المشرق العربي كما يعترف سعد الله أنه في ذلك الوقت كانت تعوزه التربية السياسية[1] وأثناء إقامته بتونس قام سعد الله بنشر مقالات وقصائد وقصص في جرائد ومجلات حيث نشر في "النهضة" و"الأسبوع" التونسيين، كما كتب في جريدة البصائر الجزائرية و"الآداب" اللبنانية التي يكن لها حبا وتقديرا كبيرين، كما أسهم سنة 1952 في تأسيس "رابطة القلم الجديد"مع أعضاء تونسيين من بينهم" الشاذلي زوكار"و" منور صمادح".

(1) أبو القاسم سعد الله، **منطلقات فكرية**، ص 45.

عاد سعد الله إلى الجزائر يوم 7 نوفمبر 1954[1] وصادف اندلاع الثورة الجزائرية بأيام، فقام بالتدريس بمدرسة "الثبات" التي كانت عندئذ تحت إدارة الشهيد الشاعر"الربيع بوشامة".

وفي ربيع عام 1955 انتقل سعد الله إلى مدرسة "التهذيب"بالعين الباردة بضواحي العاصمة الجزائرية ويذكر سعد الله أنه أحس بالغربة وهو في بلده جراء الاحتلال الفرنسي وممارساته "لقد شعرت لأول مرة بالاحتلال يجثم على صدري ويخنقني"[2]. وسافر سعد الله بمساعدة جمعية العلماء الجزائريين إلى القاهرة فسافر إلى تونس ثم إلى ليبيا جوا ومنها إلى القاهرة وذلك في أكتوبر 1955. وبمصر تمكن من التسجيل بكلية العلوم بجامعة القاهرة في أكتوبر 1955م، وبالقاهرة تبلورت لدى سعد الله عاطفته الوطنية السياسية وكذلك القومية العربية، وفي ربيع عام 1961 سجل بجامعة "منيسوتا" بأمريكا بقسم التاريخ تحت إشراف الدكتور **"هارولدسي دويتش"**[•] قضى سعد الله بهذه الجامعة خمس سنوات تُوجت بحصوله على شهادة الماجستير [*MA*] في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962، ثم على شهادة الدكتوراه [PHD] في نفس التخصص سنة 1965م[4].

---

(1) **المصدر نفسه** ص 46.

(2) **المصدر السابق** ـ ص: 46.

(•) **هارولد سي دويتش** هو أستاذ بجامعة مينسوتا، وكان رئيس القسم وأستاذ للتاريخ الأوروبي الحديث.

(4) تخصص المؤرخ سعد الله هو: التاريخ الأوروبي الحديث، والمعاصر، الدولة لعثمانية منذ 1500م، التاريخ المعاصر للشرق الأوسط والمغرب العربي. راجع دراسات وشهادات مُهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، تنسيق أ. د. ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000م. السيرة الذاتية.

أولا: الكتابة التاريخية:

بدأ سعد الله تجربة الكتابة في مجال الأدب والشعر فأنتج ديوانه الشعري بعنوان "الزمن الأخضر" سنة 1985، وكتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" سنة1985، ومجموعة شعرية: "النصر للجزائر" سنة 1986، وغيرها من المؤلفات الأدبية[1]، فأثمرت مجهوداته العلمية ومطالعاته المتنوعة نزوعه إلى علم التاريخ وحقله الواسع فيقول[2] : "أما التاريخ عندي فهو مجلى نظري ومحط رحالي بعد أن جلت في الأدب والشعر واللغة وعلم النفس وغيرها من الفنون والعلوم"، فدارس التاريخ يدرك الكثير من تجارب الآخرين، كما يتعرف على الكثير من الحقائق، فتتوسع مداركه ويكتسب ثقة في أحكامه ومواقفه كما يكسبه مسطرة يقيس بها الأشياء، وميزانا يزن به الأمور ويذكر سعد الله تأثير هذا العلم عليه فيقول[3]: " فجعلت منه مرجعي في الحكم على الناس وتصرفاتهم، من أدنى السلم الاجتماعي إلى أعلاه، ولا يفلت مني الباشا لأنه الباشا، ولا المنبوذ لأنه منبوذ، كما لا يفلت مني الغني لأنه غني، ولا السلطان لأنه سلطان، كلهم عندي في مسطرة التاريخ وميزانه سواء"، ونزوع سعد الله للتاريخ كانت بدافع

(1) المعروف أن أول ديوان صدر للدكتور سعد الله حسب لسان قلم هو ديوان النصر للجزائر بدار الفكر وبتقديم محمود أمين العالم عام 1957م، وأما الزمن الأخضر... وطبع أول مرة عام 1958م بمقدمة مؤثرة خالدة يعتذر فيها لوالده رحمه الله الذي لم يراه منذ عام 1955م، لأن سعد الله يقول متعذرًا لوالده أن قلبه معلق أيضًا بأناس لا يملكون من يذرف عليهم دموع الأسى، "**أصفح عني يا أبي فإن قلبي لم يخلق لك وحدك**"، الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، الأعمال الكاملة للدكتور أبو القاسم سعد الله، رقم 20 إبداعات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2. ص: 6.

(2) أبو القاسم سعد الله حوارات دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2005 ص203.

(3) **المصدر نفسه** نفس الصفحة.

الميل إلى العقلنة والثورة الجزائرية[1]، فالأدب يتصل اتصالا وثيقا بالعاطفة التي ترتبط عادة بمرحلة الشباب، لكن عندما يتحقق النضج فإن الميل إلى الهدوء والعقلنة والتفكير يكون غالبا على من ينتهج أسلوب العلم والحكمة، ويذكر سعد الله أن ميله إلى العقلنة كان منذ شبابه[2]، وبأنه كان يفضل الهدوء والتأمل والتريث وعدم التسرع في الأحكام، فالتاريخ عنده من العلوم التي تتجاوز العاطفة و" **تتحدى العقل فتجعله يشك في كل ما قيل ويقال، وفي كل ما فعل الإنسان ويفعل**" [3]. والتاريخ هو من العلوم العقلية والمنطقية، **فمنهجه الشك قبل اليقين، والتثبت والتريث قبل إصدار الأحكام، والموضوعية العلمية قبل الذاتية وهوى النفس، وهو أخلاق وعلم وضمير**[4]. وهذا المنهج يعتمد على الوثائق والأدلة والقرائن.

وكانت الثورة الجزائرية أيضا دافعا له على دراسة التاريخ والبحث فيه، والتعرف على إنجازات الأجداد[5]، ومقارنة ما فعله هؤلاء السلف وما توصل إليه الآخرون في الحروب والعلوم والحضارة، وتظهر قيمة التاريخ عند سعد الله كونه يشمل تجارب الأمم، والحضارات المتنوعة، فدارس التاريخ سيخلص لا محالة إلى عبر ودروس مختلفة، فهناك رسالة يؤديها المؤرخ نحو أمته وهذه الرسالة ليست في المدح والثناء أو خطبة في التوجيه وإنما هي رسالة هادئة تدعم كينونة

(1) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** دار الغرب الإسلامي ص17.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص154.

(3) المصدر نفسه ص203.

(4) المصدر نفسه ص 154.

(5) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** المصدر السابق ص17.

الأمة وصيرورتها، وتداوي جراحها وتبرز العناصر الإيجابية في مسيرته لتتخذها نموذجا ومثالا.

ويرى سعد الله أن العرب لم يحسنوا التعامل مع التاريخ ولا يستفيدون منه ويتأسف كثيرا كونهم لا يعتبرون من التاريخ ويهملون تجاربه وأحداثه، وذلك على الرغم من أننا ندرس التاريخ وندرسه، فنحن لا نتعلم منه وبالتالي لا ننتجه، وإنما نحن نستهلك التاريخ بالخوض فيه بغير مناهجه، فالكل يخوض في التاريخ، المؤرخ والسياسي والصحفي وحتى الفلاح، فأصبح التاريخ ملكا للجميع وفقد قيمته عندنا فأصبح: **" مبتذلا أو هو بضاعة شعبية أو خرقة مرقعة يتبادل لبسها الجميع إنها ظاهرة غريبة حقا"**[1]، وتبرز هذه الظاهرة في غياب المؤرخين المختصين، وقد أرجع سعد الله أسباب ذلك إلى غياب دولة مركزية في الجزائر منذ القدم أو أسرة مالكة، أو سلطة حاكمة **"تكون هي محور الفكر التاريخي والخط المستمر في مسيرة الزمن الوطني، تاركة . للمؤرخين . وليس غيرهم تقييم هذه المسيرة وإعطاءها التفسير الملائم في كل جيل"**[2].

يرى سعد الله أنه لا يمكن اعتبار وجود **"تاريخ"** ما لم يكن هناك مؤرخون متخصصون، يكتبونه وفق المناهج العلمية الحديثة بعيدًا عن الهوى والتعصب، فالمؤرخ عند سعد الله هو الذي درس المناهج التاريخية الحديثة، ويفرق بين هذه المناهج ومناهج العلوم الأخرى، كما أن هذا المؤرخ **"يحسن استعمال الوثائق ويعرف منها المتفقة والمتعارضة والمزيفة، ولا يصدر حكمه في أي مسألة أو حادثة**

---

(1) أبو القاسم سعد الله حوارات المصدر نفسه ص155.

(2) المصدر نفسه ص155 ـ 156.

إلا بعد أن يعمل الرأي فيها على كامل وجوهه"[1] . فالمؤرخ يقوم بدور فعال ومهم في الحفاظ على ذاكرة الأمة وتراثها، لأن الأمة العظيمة لن تلد إلا مؤرخين عظماء، يذودون عن حمى هذا التاريخ ويدفعون عنه زيف وأباطيل المتربصين به، **"فالأمة العظيمة هي التي تلد المؤرخ العظيم وأن الأمة القزمة هي التي تلد المؤرخ القزم"**[2] ، ويرى سعد الله أن الظروف قد تساعد على خلق المؤرخ، كالثقافة العالية، وتوفر مناخ الحرية، ووجود المحفزات، وبطولات الشعب كلها **"تساعد على خلق المؤرخ الذي يكون صوت الجيل"**[3] .

ويذهب سعد الله إلى أن مؤرخي احتلال الجزائر أصناف، فهناك المؤرخون "الغلاة" الذين يفسرون تاريخ الاحتلال على أنه نعمة على الجزائر وأن أهلها كانوا مخطئين حين لم يستسلموا للجيش الفرنسي"، ويصنف مدرسة **"جورج إيفير"**، و**"إيميل فيليكس غوتييه"** ضمن هذا الاتجاه، وهناك المؤرخون "المعتدلون" الذين رأوا أن هناك أخطاء قد وقعت، بل وجرائم قد ارتكبت، وأن المقاومة حق للمضطهدين، ويصنف مدرسة **"جوليان"**و**"آجرون"** في هذا الإتجاه، ويتساءل سعد الله عن **غياب رأي ثالث يقول بتجريم الاحتلال، وبأنه معتد يجب على فاعله دفع الثمن**[4]، ويرى أن تسمية هذه الاتجاهات بالمدارس، وتسمية أصحابها بالمفسرين والمنظرين إنما هو من قبيل تلطيف العبارات، وحتى داخل الدول العربية فإنه يوجد أصناف من المؤرخين المنتمين لمختلف المدارس، فهناك

---

(1) المصدر نفسه ص158.

(2) أبو القاسم سعد الله **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء4** دار الرائد الجزائر 2009 ص9.

(3) المصدر نفسه ص8.

(4) أبو القاسم سعد الله **حوارات** مصدر سابق ص190.

المتطرفون وهم وطنيون يغالون في نعوت الاستعمار ورموزه، وغالبا هم الذين شاركوا في الثورة، وهناك المعتدلون، وهم التابعون الذين تتلمذوا على أساتذة فرنسيين بعد الاستقلال وارتبطوا بالحياة الأكاديمية، فالتاريخ ينظر إليه من زوايا مختلفة وبرؤى متعددة، لذلك **فإن الحقيقة التاريخية ليست واحدة في كل جيل وفي كل عصر**[1].

لقد تكلم سعد الله عن دور المؤرخ الذي يكمن في كتابة التاريخ وفق المناهج الحديثة، كما تكلم عن الكتابة التاريخية ومنهجها وشروطها، على الرغم من أن جل دراساته التاريخية تتجه لدراسة التراث الوطني الجزائري على الخصوص، فهو يدعو إلى كتابة تاريخ الجزائر لأن تاريخ أمة ما لا يكتبه إلا الوطنيون، وهو بذلك لا ينقص من شأن كتابات الآخرين ولكن الوطني يكتب عن حب وقناعة وحرص على أن لا يشوه تاريخ أمته، مع شروط الالتزام بالموضوعية الكاملة والنقد البناء، والأدلة والقرائن والابتعاد ما أمكن عن الذاتية، وهو بذلك يشيد ببعض الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة التي تعتمد المنهج العلمي في البحث [2]

ويعتبر سعد الله نموذج المؤرخ الجزائري، الذي كرس حياته لكتابة تاريخ الجزائر الحديث والوقوف بالمرصاد لمحاولات التزييف الاستعماري، إلا أن كتاباته التاريخية يعوزها الفكر الفلسفي الذي يضعها في قالبها التنظيري، ولعل عزوف سعد الله عن التنظير فيما كتب، خصوصا في معلمته الثقافية "تاريخ

---

(1) المصدر نفسه ص191.

(2) أبو القاسم سعد الله **تاريخ الجزائر الثقافي** الجزء السابع دار البصائر الجزائر طبعة سادسة 2009 ص309.

الجزائر الثقافي" يعود إلى "تلبية حاجة القارئ العربي وخاصة الجزائري للتعرف أولا على الثقافة الجزائرية في فترات تحولها الحاسمة بفعل تأثير حركة التصوف مع مستهل القرن الثامن الهجري وبعامل الضعف الإداري في القرن الثالث عشر... فأحجم عن تقييد نفسه بمفاهيم محددة وعن إخضاع المادة التاريخية التي عالجها لتوجهات المدارس الفكرية" [1]، كما أن سعد الله لم يتأخر عن الدعوة إلى مدرسة تاريخية وطنية الغرض منها إعادة كتابة التاريخ الوطني بعيدًا عن الرؤية الاستعمارية التي عملت لفترة طويلة على أن تكون الأوطان العربية سجينة الأفكار الثقافية الاستعمارية، كما أسهم سعد الله بدراساته التاريخية والفكرية في إبراز الفكر الثقافي الجزائري وأصالته من خلال موسوعته الثقافية، كما برز توجهه العروبي الإسلامي من خلال دعواته إلى الوحدة العربية وعدم الوقوع في شراك المخططات الاستعمارية القديمة والحديثة، والتشبث بالهوية والعمل على إصلاح الأوضاع الثقافية والاقتصادية من أجل تدارك التأخر التاريخي.

وبخصوص كتابة تاريخ الثورة الجزائرية وتاريخ الحركة الوطنية عموما فإن سعد الله يعتقد أنه ظهرت كتابات عديدة تناولت هذه المسائل إلا أنه يتأسف لأن معظم هذه الكتابات لم يكتبها جزائريون بل كتبت من طرف فرنسيين ويعتقد أن الكثير منهم تعوزهم الموضوعية في الكتابة، **"فالتاريخ الحقيقي في نظرنا هو الذي يكتبه أبناء البلد عن أنفسهم لأنه جزء منهم ولهم، أما وجهات النظر الأجنبية فتظل عملا مساعدا فقط"** [2]، ومن هنا كانت ضرورة تجديد الكتابة

(1) ناصر الدين سعيدوني **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله دار** الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2000 ص582.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص38.

التاريخية من طرف أبناء الجزائر، وليس القصد من ذلك الكتابة بذاتية وعاطفة وإنما يدعو سعد الله إلى التزام المنهج العلمي، وفي نفس الوقت التصدي لمغالطات وتشويهات المدرسة الكولونيالية.

وعلى الرغم من انتقاد سعد الله للوضع الثقافي في الجزائر إلا أنه يتفاءل خيرا من خلال وجود مؤرخين وأساتذة، الذين سيشكلون ملامح المدرسة التاريخية الوطنية، ويتمثل الإنتاج الأولي لهؤلاء المؤرخين في أطروحات الدكتوراه والماجستير التي تلتزم بمنهجية البحث العلمي، هذه المدرسة تخالف أطروحات المدرسة الإستعمارية التي مثلها مؤرخون عسكريون في البداية أمثال: **لويس رين**، و"**سيروكا**"، و"**روبان**"، و"**تريموليه**"، و"**فيرو**"، ومثلها كذلك مدنيون في وقت لاحق أمثال: "جورج إيفير"، و"أوغسطين برنار"، و"إميل فيليكس غوتييه"، و"غبريال إسكير" [1].

ويقترح سعد الله أن تعاد كتابة التاريخ انطلاقا من هيئات متخصصة، أو من أفواج عمل بمساندة مراكز البحث أو الجامعات، ومثل هذا العمل سيمكن المؤرخ من القضاء على كثير من عراقيل البحث ويساعده على التفرغ لمشروعه، كما يمكنه من الوثائق اللازمة، ويكفيه مؤونة تكاليف الطبع وغيرها.

ويعتبر سعد الله عملية الكتابة التاريخية عملية حية ومتجددة، فكل جيل له تفسيره للتاريخ بالوسائل التي تلقاها في المدرسة والبيئة والمعارف المعاصرة، وعملية تجديد التاريخ لا تعني قلب الحقائق والمفاهيم ولكنها تعني **" تصحيح ما غاب خطأه عن الأجيال السابقة وتكميل ما ند جزؤه أو أجزاؤه عن نظر القدماء،**

---

(1) المصدر نفسه ص156.

وقد تكون بعض حقائق التاريخ مزيفة أصلا فتكشف عملية التجديد أو إعادة الكتابة عن ذلك الزيف في الفترة الاستعمارية" [1]، وهذه المهمة ملقاة على عاتق المؤرخين المتخصصين، كما أن إعادة كتابة التاريخ ليس مجرد القدرة على الكتابة أو الحصول على المؤهل العلمي وإنما هي **"الالتزام بشرف المهنة والشعور بالمسؤولية نحو الجيل والأمة والتاريخ، ومن ثمة فليس كل مؤرخ مؤهلا للقيام بهذا الدور"** [2].

أما فيما يخص منهجية كتابة تاريخ الثورة فإن سعد الله يرى أن ذلك ممكن وفق ثلاث طرق: الطريقة الأولى هي الطريقة الرسمية وهي أن تتبنى الدولة نفسها كتابة هذا التاريخ والإشراف عليه وتوجيهه وتوفير الوثائق له ونشره بعد كتابته، ومثل هذا المنهج يمكن الشروع فيه حالا. أما الطريقة الثانية فهي الطريقة الشعبية وذلك بمشاركة الفئات الشعبية المختلفة في عملية الكتابة، من كتاب وصحفيين وأدباء وسياسيون، وهواة التاريخ، فسعد الله يعتبر أن التاريخ ملك للجميع وليس ملكا للمؤرخين وحدهم، فالكل يسهم بطريقته، أما الطريقة الثالثة فهي الطريقة العلمية وهي من مهام المؤرخين المتخصصين [3] المتواجدين في أقسام التاريخ بالجامعات الجزائرية، وتشترط مثل هذه الكتابة توفر المصادر والوثائق ويعتقد سعد الله أن مثل هذه الكتابة لم يحن وقتها بعد.

وكتابة تاريخ الثورة الجزائرية يجب أن تشتمل على جوانب مختلفة، فتشمل التاريخ السياسي والدبلوماسي والاقتصادي، والعسكري، كما أن هذا المشروع

---

(1) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص179.

(2) لمصدر نفسه نفس الصفحة.

(3) أبو القاسم سعد الله **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الأول** دار الرائد الجزائر طبعة خاصة 2009 ص45.

يحتاج إلى مادة وتضحية كبيرة، وهي قبل كل شيء مسؤولية وأخلاق وليس كما يصورها **"بعض الكسلاء والمثبطين وذوي الأغراض الخاصة الذين يتصورون كتابة تاريخ الثورة على أنها عبارة عن بيان سياسي يحكم على هذا بالوطنية وعلى ذلك بالخيانة"** [1]، ويعتقد سعد الله بضرورة توفر شروط النجاح لمثل هذا المشروع، فمن بين هذه الشروط ضرورة توفر مناخ الحرية، كحرية التعبير والتفكير على أن يكون ذلك وفق ضوابط، مع وجود ضمير وطني حي، فليس للكاتب أن يسمح لنفسه بالطعن والقذف والإساءة أو أن يضخم الأمور أكثر مما تستحق، فيمجد ويشيد ويمدح، وإنما على الكاتب أن يلتزم بالموضوعية والأمانة العلمية، فالحرية في الكتابة: **" تعني أحكاما متوازنة وموثقة بإشراف الضمير الوطني الحي والأخلاق والخوف من عقاب الله، وهذا الحكم ينسحب على كل أنواع الكتابة والتعبير"** [2].

يذكر سعد الله صعوبات في الكتابة التاريخية من ذلك النقص الكبير في تدعيم الكتابة وتسهيل مهام الباحثين، فهناك نقص في الوسائل من كتب ومجلات، وكذلك غياب المحفزات والنشر، كما أن الباحث والمؤرخ لا يجد المناخ المناسب والمساعد في ظل عدم الاستقرار، فسعد الله يعتبر السكن المريح الذي يتوفر على شروط الراحة والهدوء وسيلة عمل ومن الضروريات لإنتاج الباحث وتقديمه الإضافة اللازمة في مجال تخصصه، وقد لقي سعد الله صعوبات جمة في كتاباته إلى درجة أنه وصف الكتابة في الجزائر بالمعجزة، وبأنه كان ينحت الكتابة من حجر صلد ويكتب في ظروف قاسية جدًّا [3].

---

(1) أبو القاسم سعد الله حوارات المصدر السابق ص31.

(2) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(3) أبو القاسم سعد الله حوارات المصدر السابق ص159.

وعن دور السلطة السياسية في الكتابة التاريخية يرى سعد الله أن دورها مهم، فكما أنه لا يحق لها أن تمنع الكتابة التاريخية في أي موضوع فهي من جهة أخرى المسؤولة على توفير الشروط اللازمة من الجو العام، والحماية وتوفير الوسائل ونحوها، إلا أنه لا بد من التفريق بين الكتابة والنشر، فإن الكتابة لا تعني النشر، فإذا كان نشر كتاب قد يثير مشاكل في الحاضر وتصدعات سياسية أو اضطرابات اجتماعية فمن حق السلطة أن: " **تمنع نشره لأننا شعب ما زالت لنا تقاليدنا ومعاييرنا الراسخة في الشرف والأخلاق والقبيلة والأسرة، وهناك من الأعمال ما يضر أيضا بالعلاقات مع الدول الأخرى، ونحن نعلم أن لكل دولة أسرارها ولكل مواطن الحق في السرية أو الخصوصية، وهذه الأمور تبث فيها في الحقيقة القوانين، وعلى السلطة السهر على تطبيق القانون في هذا المجال**" [1].

فحفاظا على الاستقرار والأمن العام وعلى الشرف فإن بعض الكتاب يضعون يومياتهم ومذكراتهم في البنوك ونحوها، ويوصون بعدم فتحها إلا بعد وفاتهم بسنين، وقد تتجاوز الخمسين سنة، ويستدل سعد الله على ذلك بمقتل الرئيس الأمريكي "**كينيدي**" والغموض الذي يكتنفه، والأمر نفسه فيما يخص إغتيالات قيادات في الثورة التحريرية كمقتل "**بن بوالعيد**" و"**عبان رمضان**" و"**الحواس**" و"**العموري**" و"**شعباني**" وغيرهم، ويؤكد سعد الله أنه ليس ثمة فائدة يجنيها الشعب الجزائري من معرفتها في الوقت الحالي [2].

كما تحدث سعد الله عن **الخوف من التاريخ** الذي يعتبر من معوقات الكتابة التاريخية، والخوف من التاريخ قد يمس كل من صانع التاريخ والمؤرخ على السواء،

(1) المصدر نفسه ص159.

(2) المصدر نفسه ص159.

ذلك أن صانع التاريخ: "**يخشى التاريخ إذا كانت صناعته للتاريخ غير وطنية أو غير أخلاقية أو حتى غير إنسانية... قد يكون زعيما سياسيا أو قائدا عسكريا، أو مفكرا أو رجل دين أو حتى إنسانا عاديا**" [1]، والخوف من حكم التاريخ ومن الفضيحة وذهاب المصالح قد يدفع أمثال هؤلاء إلى كبت التاريخ ومحاولة إخفائه بكل الوسائل، سواء بالتأجيل أو بالتخفيف أو بالإرهاب إذا لزم الأمر [2].

ويصف سعدا الله المؤرخ بالقاضي، فإنه يصبح في وضع خطر، وسيكون "**ممزقا بين قناعته وبين الواقع**" [3]، فإذا كانت قناعته معززة بالوثائق والشهود ونحو ذلك من الأدلة فستحثه على أن يصدع بالحق، كما أن الواقع الذي يخضع للتوازنات والعلاقات العائلية والحزبية والدينية قد يجبره على كبت الحقيقة وطمسها.

ثانيا: مسألة التراث

وبشأن مسألة التراث فإن سعد الله يعبر عنه بمفهوم واسع " **هو نحن في الماضي، هو أسلافنا وأفكارنا وأنسابنا وعقائدنا وإنتاجنا**" [4] والتراث نوعان في نظره، فهناك التراث الشامخ الذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهامها الحضاري وهناك التراث الذي يعني الأساطير والخرافات وأشكالا متعددة من مظاهر التخلف العقلي" [5]، وقد كان للعرب والمسلمين دور بارز من خلال تراثهم الشامخ في الإسهام في الحضارة الإنسانية ولا ينكر دورهم هذا إلا جاحد وناكر

---

(1) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** دار الغرب الإسلامي بيروت 1988 ص113.

(2) المصدر نفسه ص114.

(3) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(4) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص186.

(5) المصدر نفسه ص32.

للحقائق التاريخية، " **فرغم أن العرب هم الذين حافظوا وأبدعوا في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة ومزيدة إلى العالم الحديث، إلا أن هناك مدرسة ظهرت بعد تغلب أوروبا طبعا تدعي أن العرب كانوا وسطاء فقط لا مبدعين**" [1] ويعتقد أن كل الشعوب تعيش على التراث، إلا أن الفرق بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتأخرة، أن الأولى تعتز بتراثها لكنها "**تتجاوزه إلى صنع المستقبل الذي سيصبح طبقا للسنن الطبيعية تراثا في حد ذاته**" [2]، فحداثة الغرب كانت نتيجة سيرورة تاريخية من الأحداث والتحولات، "**فهي استمرار وتواصل مع تاريخه المحلي**" [3] أما الشعوب المتأخرة فهي التي " **تتشبث بالتراث لذاته**" [4]، بل تتشبث بالمفهوم التقليدي للتراث الذي أطلق عليه الجابري "**المفهوم التراثي للتراث**" [5].

ومن هنا يتضح موقف سعد الله بضرورة الاهتمام بالتراث الذي يصفه بالشامخ والذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهاماتها الحضارية، خصوصا في مرحلتنا التاريخية هذه فإننا " **نحتاج إلى التراث الإيجابي لتحديد هويتنا ونحتاج أيضا إلى الانطلاق نحو المستقبل لصنع تراث جديد تعتز به الأجيال القادمة**" [6]، فالتراث الإيجابي سيكون ثمرة النظر في التراث ومعرفة الثابت منه والمتغير فما كان ثابتا فهو الصالح الذي لا يتجاوزه الزمن، أما المتغير فهو ما كان صالحا

---

(1) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس ص242.

(2) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(3) سعيد بشار **النخبة والأيديولوجيا والحداثة** دار الهدى للطباعة والنشر الطبعة الأولى 2005 ص 74.

(4) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** المصدر السابق نفس الصفحة.

(5) محمد عابد الجابري **التراث والحداثة دراسات ومناقشات** مركز دراسات الوحدة العربية طبعة ثانية 1999 ص26.

(6) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** المصدر السابق 242.

للأجداد في زمانهم بطبيعة عصرهم، ولا يصلح لكل الأزمان لأن لكل عصر معطياته ومستجداته لا بد من الأخذ بها بنحو يتماشى مع ما هو ثابت، ومن ثمة تكون الاستفادة من هذا التراث متوقفة على النظر والاجتهاد في معرفة الثوابت والمتغيرات و"**إن الكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحا للأخذ منه أو الاقتداء به أو الاعتبار بما فيه من أخطاء أو انحرافات، وهذا هو معنى الاستفادة من التراث في البناء الحضاري المستمر**" [1] ويعتقد سعد الله أن الإهتمام بالتراث المبالغ فيه على حساب الاهتمام بالواقع والمستقبل من شأنه أن يعرقل الإرادة العربية والإبداع"**وبدل أن يكون التراث دافعا لنا على التطلع والاستشراف والإبداع، أصبحنا نقتات تراثا ونفكر بتفكير الماضي، إن الإسراف في طرح قضية التراث تؤدي لا محالة إلى عرقلة الإرادة العربية والإبداع**" [2] وبذلك يتفق رأي سعد الله مع من ينادون بإحياء التراث وليس القطيعة معه بالكامل، كما نادى بذلك مفكرون عرب معاصرون [3] وإنما تكون الانطلاقة نحو المعاصرة من التراث نفسه والعمل على صنع تراث آخر يتفق مع العصر وتعتز به الأجيال القادمة، وفي نفس الوقت يعبر عن أصالة الأمة وحضارتها.

وعملية إحياء التراث وبعثه يجب أن تكون محل تخطيط ودراسة، ولا توكل إلى مؤسسات تجارية أو دعائية تسعى وراء الربح المادي، أو الحصول على الشهادات على حساب البحث العلمي والإبداع الفكري، ومثل هذه المؤسسات كثيرة في

---

(1) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق. نفس الصفحة.

(2) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** المصدر السابق ص92.

(3) انظر عبد الله العروي **مفهوم العقل مقالة في المفارقات** المركز الثقافي العربي الطبعة الرابعة 2007 ص11.

البلاد العربية كما أن هناك" **جيش عرمرم من المحققين والمتاجرين بالتراث**" (1).

ويذكر سعد الله أن تراثنا التاريخي العربي الإسلامي يتميز بالوفرة والكثافة وقد شغل التاريخ العام أو العالمي والتاريخ المحلي أو الإقليمي، وبأن مؤرخينا وجغرافيينا قد اكتشفوا آفاقا وعوالم لم يكن الآخرون ليعرفوها إلا في أزمنة متأخرة و**لم يتوصلوا إلى معرفتها إلا وفق المعلومات التي وفرها لهم أجدادنا** (2)، والتراث الإيجابي لأجدادنا لا يستهان به فقد كان إنتاجهم الفكري مبنيا على **"نظرات نقدية صائبة وفهم للبحث مستفرد، اعتمد على الأساس على قواعد تمحيص الحديث الشريف التي ابتدعوها"** (3)، كما أن العرب قد أبدعوا في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة ومزيدة واستفاد منه العالم الحديث (4)

ومن بين الثغرات التي طبعت التراث العربي الإسلامي، طغيان التاريخ السياسي على باقي جوانب الحياة التي كان الأجداد يحيونها، لكن هذه الظاهرة يشترك فيها مؤرخونا مع مؤرخي العالم **" فكتبوا عن الدول والملوك والسلاطين والأمراء وأرخوا للفتن والحروب والمذاهب السياسية، وأهملوا كما فعل غيرهم أيضا حياة الناس وأنماط تفكيرهم وجمعياتهم ونزاعاتهم الدينية ونوازعهم إلى الحياة الأفضل"** (5).

ثالثا: مسألة التأخر التاريخي العربي

نوه سعد الله بالماضي المشرق للأمة العربية، وإسهامها في الحضارة الإنسانية،

---

(1) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** المصدر السابق ص93.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق، ص163.

(3) المصدر السابق. نفس الصفحة.

(4) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** دار المعارف للطباعة والنشر سوسة ـ تونس ص242.

(5) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص163.

وبأن العرب يحق لهم أن يعتزوا بهذا الماضي المجيد، وأن ترتفع معنوياتهم من أجل الانطلاق نحو المستقبل بثقة واعتزاز كبيرين، لكن العيب كل العيب أن يستغرق هؤلاء الوقت كله في تمجيد الماضي، وأن يسكنوا فيه وينسوا بالتالي واقعهم ومستقبلهم، فأصبحت السلبية تطبع الحياة العربية المعاصرة [1].

وقد مرت الأمة العربية "بأزمات حادة أدخلتها عالم المتخلفين عن مسايرة ركب الحضارة البشرية، وقد زاد في تأزم وضع هذه الأمة طول أمد هذا الركود والتخلف حتى **" أثر في رؤيتها للأشياء وكاد يفقدها الثقة في النفس وهو أخطر ما تصاب به أمة من الأمم"** [2].

وعندما بدأت الأمة تستفيق وجدت نفسها أمام الثالوث المقيت الإستعمار والفقر والجهل، فالأمة العربية كانت مثالا في التعلم والثقافة والإبداع ثم أصبح الجهل يطبع وجودها، فأصبحت تؤمن بالخرافة والشعوذة والقوى الخارقة وتبحث عن الإنقاذ من قوى غامضة [3]، وقد زاد الاستعمار في تخلف الأمة وطول أمده بسياسته التجهيلية والتفقيرية ثم بنى مفاهيم على هذا الجهل تسيء للأمة وحقيقتها وتاريخها وبأن "**العرب كلهم متخلفون وإنهم مخربون ونهابون وأهل بادية لم يعرفوا الحضارة ولا عيش المدن ولم يسهموا في الإنتاج الحضاري**" [4].

وكان على الأمة أن تتدارك تأخرها التاريخي ومظاهر هذا التأخر من فقر

---

(1) أبو القاسم سعد الله **منطلقات فكرية** الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس الطبعة الثانية 1982 ص19.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المصدر السابق ص201.

(3) المصدر نفسه ص202.

(4) المصدر نفسه نفس الصفحة.

وجهل وقيود استعمارية، ويذكر سعد الله أنه وجدت عدة نظريات كانت تهدف لقيادة الأمة نحو الخلاص، من بينها، النظرية الثورية ـ السياسية التي دعت إلى استعمال الوسائل المباشرة من أجل التحرر، ومنها كذلك نظرية الاستعداد الذاتي وذلك بالاعتماد على نشر الوعي وتحقيق الإصلاح الاجتماعي وهذا قبل الحديث عن التحرر الذي يتحقق تلقائيا لدى الأمة المتعلمة، ومن النظريات كذلك نظرية المجاراة والمنافسة والتكافل بين العرب والمسلمين بهدف التحرر من الثالوث المذكور.

فسعد الله يصف الوضع العربي بالمريض، وبأن هذا المرض قد استشرى واستفحل وبلغ منتهاه، وأنه يتطلب آخر الدواء الذي هو الكي، فلا حاجة للمسكنات والمنومات، فلا بد من عهد جديد عهد الرجوع إلى النفس ومراجعتها وحملها على التغيير، وغسل خطايا الماضي والحاضر المترسبة في ذاتنا [1] على اعتبار أن التغيير الحقيقي يبدأ من النفس، " فالتأخر التاريخي هو أولا وأخيرًا تأخر في الذهنية" [2] فيجب أن تتجدد الذهنيات وتتطهر العقول، ويرى سعد الله أن مهمة التغيير تقع على عاتق المثقف العربي، وعليه أن يسلك طريقا سلميا بعيدا عن العنف، وأن يكون هذا المثقف حرًّا، يقول كلمته بحرية واقتناع دون مجاملة أو دجل [3].

ويرى سعد الله أن حلم المثقفين العرب في الوحدة العربية قد أجهض بوعد

---

(1) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** المصدر السابق ص6.

(2) سعيد بنسعيد **الإيديولوجيا والحداثة قراءات في الفكر العربي المعاصر** المركز الثقافي العربي بيروت ـ لبنان، الدار ـ البيضاء المغرب طبعة أولى 1987 ص42.

(3) أبو القاسم سعد الله **أفكار جامحة**(م. و. ك. الجزائر 1988) ص6.

بلفور وقيام إسرائيل [1]، ذلك أن فلسطين وإلى جانبها مصر يشكل كل منهما رمزا للأمة العربية، وبأنه لا يمكن إنجاز مشروع حضاري مستقبلي لهذه الأمة إلا عن طريقهما، ويعتبر سعد الله أن القضية الفلسطينية هي من أهم القضايا العربية الراهنة وأنه من حق الفلسطينيين مقاومة المحتل الصهيوني، ويشبه سعد الله الواقع الفلسطيني بالواقع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي أيام المارشال "بوجو" في العمليات الاستيطانية ومصادرة الأراضي، والعقاب الجماعي ونسف البيوت والطرد من الوطن، ووصف المقاومين بالإرهاب والتعصب، ويرى سعد الله أنه من الواجب اليوم تسليط الأضواء على تحديد المفاهيم والمصطلحات حتى لا تكون محل تلاعب كمفهوم الإرهاب والتحرير الوطني والدفاع عن الحق، والإعتداء.

ويعتقد سعد الله أن من أهم ما يجب أن يتسلح به الفلسطينيون ضد المحتل الغاصب ومناصريه هي خيار الوحدة الوطنية الفلسطينية، والإبتعاد ما أمكن عن النعرات والخلافات الفكرية والمذهبية والترفع عن أهواء النفس وحب الزعامة، وعلى الفلسطينيين أن يتعلموا درسا خالدًا من الثورة الجزائرية وهو أن لا بطل إلا الشعب، ولا زعيم إلا السلاح، ولا وسيلة إلا القوة والوحدة، كما يجب عليهم التوكل على الله والاعتماد على أنفسهم وأن لا يطمعوا في نصرة الزعماء العرب لأن واقعنا العربي مر، ووطننا العربي مليء بالزعامات ولكنها جميعا مزيفة لأنها لا تخيف عدوا ولا تسند صديقا [2].

---

(1) أبو القاسم سعد الله **حوارات** مصدر سابق ص169.

(2) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** مصدر سابق 265.

الخاتمة

يمكن القول أن أبا القاسم سعد الله من المؤرخين العرب المعاصرين الذين حملوا هموم الأمة العربية وتألموا لتفرق شعوبها، وهو من خلال كتاباته يبرز ارتباط الجزائر بالعروبة والإسلام، ومجمل أفكار أبي القاسم سعد الله تصب في ضرورة التشبث بالثقافة العربية والإسلامية، والتصدي لمحاولات المسخ الثقافي الاستعماري، وأن يعتز العرب والمسلمون بتاريخهم وتراثهم الحضاري شريطة أن لا يسكنوا الماضي فيبقوا على تخلفهم، بل عليهم مواكبة العصر، وأن يكون ذلك في إطار وحدة عربية ومغاربية لأن ما يجمع هذه الأمة أكثر مما يفرقها، وتقع مهمة هذا التحول على عاتق المثقف العربي.

9
الأبعاد الثقافية في فكر أبي القاسم سعد الله

أ/محمد رحاي
جامعة ـ 20 أوت 1955 سكيكدة.

يتناول أبو القاسم سعد الله [1] الثقافة الوطنية الجزائرية والعربية من باب تحريرها من الرواسب الاستعمارية، ومن ثمة العودة إلى قيم الثقافة الوطنية والعربية الإسلامية، ويدخل ذلك في مشروع سعد الله الذي يعمل على بعث مدرسة تاريخية وطنية، تكون ندا للمدرسة الاستعمارية، وتفضح مؤامراتها لمسخ شخصية الأمة، فالاهتمام بمسألة الثقافة هو الاهتمام بمسألة بناء المجتمع وحضارته، لأن مفهوم الحضارة هي مجموعة القيم الثقافية [2]، فقد تصدى سعد الله للشبهات والمخططات الثقافية والفكرية التي أثارها الاستعمار، ولا يزال يثيرها، بهدف عزل الجزائر عن الأمة العربية والإسلامية، وإلحاقها بفرنسا ثقافيا

(1) أبو القاسم سعد الله من مواليد1930 بقمار بولاية الوادي، مؤرخ ومفكر وأديب جزائري، أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر، له العديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية من أهم كتبه موسوعته الموسومة ب"تاريخ الجزائر الثقافي" من 10 مجلدات. انظر بوضرساية بوعزة ـ **المدرسة التاريخية الجزائرية** دار الحكمة الجزائر 2007 ص 103.

(2) مالك بن نبي **مشكلة الثقافة** ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر المعاصر بيروت لبنان 2000م ص101.

لمصلحة هذه الأخيرة، وبحكم التراكمات التاريخية فإن سعد الله يعتبر أن مشاكل الثقافة الوطنية كثيرة، فهناك مشاكل ناتجة عن وضع الجزائر التاريخي والجغرافي، وعلاقتها الحضارية بالوطن العربي والعالم الإسلامي، لذلك فإن علاقة الثقافة الوطنية المعاصرة بالتاريخ الوطني علاقة تكامل، ولا يمكن أن يفهم أحدهما بدون الآخر [1]، كما أن هناك المشاكل الثقافية التي تولدت عن أكثر من قرن من الاحتلال الفرنسي، وعن محاولة إدماج الجزائر في حضارة غريبة عن أهلها، ومسخ تفكيرها الوطني، فكانت هناك ردود أفعال وطنية سياسية وثقافية لكل هذه المحاولات، خصوصا منها مواقف جمعية العلماء المسلمين، وآخرها ثورة نوفمبر، ورفض الشعب الجزائري هذا المسخ الحضاري، فكما تصدى سعد الله للمشروع الثقافي الكولونيالي في الجزائر المستعمرة، تصدى لرواسب هذا المشروع بعد الاستقلال، لذلك عالج مسألة التراث الثقافي وطبيعة التعامل معه، وكذا البعد التاريخي للثقافة الجزائرية، والإصلاح الثقافي المتمثلة في المنظومة التربوية بعد الإستقلال، كما تطرق إلى مسألة الثقافة العربية في زمن العولمة.

1- التراث الثقافي:

وبشأن مسألة التراث الثقافي فإن سعد الله يعتبره نوعين، فهناك التراث الشامخ الذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهامها الحضاري وهناك التراث الذي يعني الأساطير والخرافات وأشكالا متعددة من مظاهر التخلف العقلي" [2]، وقد كان للعرب والمسلمين دور بارز من خلال تراثهم الشامخ في الإسهام في الحضارة

(1) أبو القاسم سعد الله **منطلقات فكرية** الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس ط2 1982 ص 143.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2005 ص32.

الإنسانية ولا ينكر دورهم هذا إلا جاحد وناكر للحقائق التاريخية، " فرغم أن العرب هم الذين حافظوا وأبدعوا في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة ومزيدة إلى العالم الحديث، إلا أن هناك مدرسة ظهرت بعد تغلب أوروبا طبعا تدعي أن العرب كانوا وسطاء فقط لا مبدعين"[1] ويعتقد أن كل الشعوب تعيش على التراث، إلا أن الفرق بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتأخرة، أن الأولى تعتز بتراثها لكنها "تتجاوزه إلى صنع المستقبل الذي سيصبح طبقا للسنن الطبيعية تراثا في حد ذاته"[2]، فحداثة الغرب كانت نتيجة سيرورة تاريخية من الأحداث والتحولات، "فهي استمرار وتواصل مع تاريخه المحلي"[3] أما الشعوب المتأخرة فهي التي "تتشبث بالتراث لذاته"[4]، بل تتشبث بالمفهوم التقليدي للتراث الذي أطلق عليه الجابري "المفهوم التراثي للتراث"[5].

ومن هنا يتضح موقف سعد الله بضرورة الاهتمام بالتراث الذي يصفه بالشامخ والذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهاماتها الحضارية، خصوصا في مرحلتنا التاريخية هذه فإننا "نحتاج إلى التراث الإيجابي لتحديد هويتنا، ونحتاج أيضا إلى الانطلاق نحو المستقبل لصنع تراث جديد تعتز به الأجيال

---

(1) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي**، تونس دار المعارف للطباعة والنشر سوسة، ص242.

(2) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(3) سعيد شبارو **النخبة والأيديولوجيا والحداثة** الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر الطبعة الأولى 2005 ص74.

(4) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** المرجع السابق نفس الصفحة

(5) محمد عابد الجابري **التراث والحداثة دراسات ومناقشات** بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية طبعة ثانية 1999 ص26.

القادمة"[1] ، فالتراث الإيجابي سيكون ثمرة النظر في التراث ومعرفة الثابت منه والمتغير، فما كان ثابتا فهو الصالح الذي لا يتجاوزه الزمن، أما المتغير فهو ما كان صالحا للأجداد في زمانهم بطبيعة عصرهم، ولا يصلح لكل الأزمان لأن لكل عصر معطياته ومستجداته، لا بد من الأخذ بها بنحو يتماشى مع ما هو ثابت، ومن ثمة تكون الاستفادة من هذا التراث متوقفة على النظر والاجتهاد في معرفة الثوابت والمتغيرات، و"إن الكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحا للأخذ منه أو الاقتداء به أو الاعتبار بما فيه من أخطاء أو انحرافات، وهذا هو معنى الاستفادة من التراث في البناء الحضاري المستمر"[2] . ويعتقد سعد الله أن الاهتمام بالتراث المبالغ فيه على حساب الاهتمام بالواقع والمستقبل من شأنه أن يعرقل الإرادة العربية والإبداع "وبدل أن يكون التراث دافعا لنا على التطلع الاستشراف والإبداع، أصبحنا نقتات تراثا ونفكر بتفكير الماضي، إن الإسراف في طرح قضية التراث تؤدي لا محالة إلى عرقلة الإرادة العربية والإبداع"[3] بذلك يتفق رأي سعد الله مع من ينادون بإحياء التراث وليس القطيعة معه بالكامل، كما نادى بذلك مفكرون عرب معاصرون[4] وإنما تكون الانطلاقة نحو المعاصرة من التراث نفسه والعمل على صنع تراث آخر يتفق مع العصر وتعتز به الأجيال القادمة، وفي نفس الوقت يعبر عن أصالة الأمة وحضارتها.

---

(1) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** المرجع السابق. 242

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المرجع السابق. نفس الصفحة

(3) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ** دار الغرب الإسلامي بيروت د. ت ص92.

(4) انظر عبد الله العروي **مفهوم العقل مقالة في المفارقات** المركز الثقافي العربي الطبعة الرابعة 2007 ص11.

وعملية إحياء التراث وبعثه يجب أن تكون محل تخطيط ودراسة، ولا توكل إلى مؤسسات تجارية أو دعائية تسعى وراء الربح المادي، أو الحصول على الشهادات على حساب البحث العلمي والإبداع الفكري، ومثل هذه المؤسسات كثيرة في البلاد العربية كما أن هناك" جيش عرمرم من المحققين والمتاجرين بالتراث"[1].

ويذكر سعد الله أن تراثنا التاريخي العربي الإسلامي يتميز بالوفرة والكثافة وقد شغل التاريخ العام أو العالمي والتاريخ المحلي أو الإقليمي، وبأن مؤرخينا وجغرافيينا قد اكتشفوا آفاقا وعوالم لم يكن الآخرون ليعرفوها إلا في أزمنة متأخرة ولم يتوصلوا إلى معرفتها إلا وفق المعلومات التي وفرها لهم أجدادنا [2]، والتراث الإيجابي لأجدادنا لا يستهان به فقد كان إنتاجهم الفكري مبنيا على "نظرات نقدية صائبة وفهم للبحث مستفرد، اعتمد على الأساس على قواعد تمحيص الحديث الشريف التي ابتدعوها، كما أن العرب قد أبدعوا في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة ومزيدة واستفاد منه العالم الحديث[3].

ومن بين الثغرات التي طبعت التراث العربي الإسلامي، طغيان التاريخ السياسي على باقي جوانب الحياة التي كان الأجداد يحيونها، لكن هذه الظاهرة يشترك فيها مؤرخونا مع مؤرخي العالم " فكتبوا عن الدول والملوك والسلاطين والأمراء وأرخوا للفتن والحروب والمذاهب السياسية، وأهملوا كما فعل غيرهم أيضا حياة الناس وأنماط تفكيرهم وجمعياتهم ونزاعاتهم الدينية ونوازعهم إلى

(1) أبو القاسم سعد الله **قضايا شائكة** المرجع السابق ص93.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المرجع السابق ص163.

(3) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي** دار المعارف للطباعة والنشر سوسة ـ تونس ص242.

الحياة الأفضل" [1].

وقد أسهم سعد الله في تحقيق العديد من الأعمال الثقافية، نذكرها على الجملة وهي:

ـ تاريخ العدواني، تأليف محمد بن عمر العدواني، دار البصائر للطباعة والنشر الطبعة طبعة خاصة عام 2007. ويعود تاريخها إلى سنة 1951 [2]

ـ حكاية العشاق في الحب والإشتياق، تأليف الأمير مصطفى بن براهيم باشا، ط2. الجزائر، 1982م.

ـ رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية، الجزائر 1982م. وسعد الله قد أقدم على تحقيق هذه الرحلة لاعتبارات منها [3]:

ـ أنها جزء من تراث الجزائر العربي الإسلامي كتب في عصر طالما رمي بالجمود والتخلف

ـ أنها حافلة بالمعلومات عن عصره من الناحية السياسية والثقافية والاجتماعية وعن معاصريه.

ـ أنها مصدر هام لحياة المؤلف نفسه.

---

(1) أبو القاسم سعد الله **حوارات** المرجع السابق ص163.

(2) محمد بن عمر العدواني: **تاريخ العدواني**، تحقيق وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله ص10.

(3) عبد الرزاق بن حمادوش رحلة ابن حمادوش الجزائري: **<< لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال>** الطباعة الشعبية للجيش ـ الجزائر ـ 2007 تقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله نفس المصدر، ص24.

ـ تشتمل على وثائق مهمة عن تلك الحقبة الزمنية لتاريخ الجزائر الاجتماعي والأدبي والديني.

ـ ندرة فن الرحلة الجزائر فهي نادرة في نوعها.

ـ رسالة الغريب الى الحبيب، تأليف بن أبي عصيدة البجائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

ـ مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي. بيروت، ط2، 1991م.

ـ منشور الهدايا في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تأليف عبد الكريم الفكون دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

2- التاريخ الثقافي للجزائر:

ومن أهم المسائل التي تطرق إليها سعد الله في الجانب الثقافي مسألة البعد التاريخي للثقافة الجزائرية، فجاءت موسوعته الثقافية الموسومة بـ "تاريخ الجزائر الثقافي" التي ضمت عشرة أجزاء كاملة، وكانت الفترة محل الدراسة تمتد من 1500 م إلى 1962، وكان هدف هذا البحث هو "إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور" [1]، كما يعتبر هذا البحث ردا على المدرسة الاستعمارية الفرنسية التي بثت طيلة فترة الإحتلال "بأنه لم يكن لأهلها ـ (الجزائر) ـ ماض سياسي ولا ثقافي" [2]، كما يؤكد سعد

(1) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج**1**، ص13.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

الله أن رسالة هذا الجهد الثقافي تتمثل في سد ثغرة كبيرة في التاريخ الثقافي للجزائر، كوننا نحن الجزائريون "لا نملك إلى الآن تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف عن قيمها ويضبط علاقتنا بها، وقد كانت هذه الثقافة عربية إسلامية اشترك فيها الجزائريون من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وهي ثقافة، مهما قيل إنها متقدمة أو منحطة هي نحن في ماضينا، وهي التي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا. فالجزائري اليوم يجب أن يعتز بهذه الثقافة والإنتساب إليها، لأن الشعوب التي ليست لها ثقافة ليس لها وجود" [1] وكان حرص سعد الله على انجاز هذا العمل أيضا نتيجة إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر، ويعتبر ذلك تقصيرا من الأشقاء العرب، وحتى في مرحلة الحركة الوطنية الجزائرية فإن الخوض في مثل هذا البحث كان يلاقي ندرة في المصادر، وقلة في الباحثين المتخصصين، إضافة إلى الظروف السياسية والثقافية التي كانت تمر بها الجزائر، والتي لا تسمح بعمل دقيق متخصص، فحركة ابن باديس نفسها كانت لها أولوياتها في الاهتمام بالناشئة وتربيتها على حب التراب العربي الإسلامي والحركة الوطنية، وعند قيام الثورة كانت أولوية السياسة على الثقافة، ولعل عزوف سعد الله عن التنظير فيما كتب، خصوصا في معلمته الثقافية "تاريخ الجزائرالثقافي" يعود إلى "تلبية حاجة القارئ العربي وخاصة الجزائري للتعرف أولا على الثقافة الجزائرية في فترات تحولها الحاسمة، بفعل تأثير حركة التصوف مع مستهل القرن الثامن الهجري، وبعامل الضعف الإداري في القرن الثالث عشر... فأحجم عن تقييد نفسه بمفاهيم محددة وعن إخضاع المادة

---

(1) المصدر نفسه ص25.

التاريخية التي عالجها لتوجهات المدارس الفكرية"[1].

تابع سعد الله مسيرة التطور الثقافي في الجزائر خلال الثورة التحررية (1954 ـ 1962) والتزم بمنهج يبتعد فيه عن الدراسة الفلسفية والتنظيرية، وقد اقتضى منه هذا المنهج أن يجمع الإنتاج الثقافي بهذه المرحلة الغث منه والسمين، حتى لا يتلاشى، ويشمل ما جمعه من إنتاج ميادين الصحة والقضاء والإعلام، وكذا الجانب النظري في النصوص والأعمال الفكرية، فتناول أفكار مالك بن نبي ومصطفى الأشرف وفرانز فانون، بالإضافة إلى مسائل الثقافة المعروفة من تعليم ومسرح ورسم وموسيقى[2]، كما تناول جمعية العلماء ودورها الثقافي، والثقافة في نصوص الثورة، وأشار إلى الجدل الكبير الذي دار وما يزال يدور حول برنامج الثورة، هل هو إقامة دولة اشتراكية أو إسلامية أوليبرالية، لكن ما هو ثابت في النص أن الهدف هو تحقيق الاستقلال وإقامة دولة ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية، ويرى سعد الله أن النص يحمل الغموض لأن << دولة ديمقراطية اجتماعية يعني تقليد النظم التي تدور في فلك المعسكر الاشتراكي وبعض الجمهوريات الشيوعية، ثم يتساءل سعد الله ماذا بقي للمبادئ الإسلامية ؟ وما معناها ؟ وما المقصود من عبارة إطار ؟ وخلص إلى أنها صيغت بطريقة غامضة، وكل طرف يحاول تفسير البيان حسب هواه، وبخصوص مؤتمر الصومام فإن سعد الله يرى أن برنامجه [3] لم يخرج بخطة

(1) ناصر الدين سعيدوني **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله** دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2000 ص582.

(2) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي** المصدر نفسه، الجزء 9، ص8.

(3) بخصوص برنامج مؤتمر الصومام انظر زغيدي لحسن **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 ، 1962** المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989 ص115

ثقافية للمستقبل، رغم انتقاده لمعاملة الاحتلال لمقومات الثقافة الوطنية، كما أنه لم يعلن عن برنامج ما بعد الاستقلال[1].

و تناول سعد الله مسألة الثقافة في بيان الحكومة المؤقتة الأول، على أساس أن هذا البيان لم يتعرض إلى مشكلة الثقافة في الجزائر بطريقة مباشرة[2]، ولم يجعل منها قضية في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، كما يبدي سعد الله استغرابه من تعيين فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة، واعتبره دليلا على عدم الاهتمام بالثقافة والهوية، فالرجل رغم أنه سياسي ماهر إلا أنه صاحب ثقافة فرنسية وشديد الحماس لها[3]، وقد اعترض على تعيين فرحات عباس مجموعة من المجاهدين [4] كما انتقد ما جاء في نصوص اتفاقيات ايفيان، كون هذه النصوص لم تكتب باللغة العربية، ولم تترجم إليها قبل التوقيع عليها، واعتبر الوفد الجزائري المفاوض في هذا الشأن وكأنه يمثل بلادا فرنكوفونية مثل كندا أو بلجيكا[5]، وبخصوص الثقافة في برنامج طرابلس فإن سعد الله يرى أن هذا البرنامج تحدث على التوجه الثقافي للجزائر المستقلة بمرجعية أروبية لا عربية إسلامية، كما ركز هذا البرنامج على الميزات الثلاث للثقافة الجزائرية الجديدة وهي الوطنية والعلمية والثورية، والاشتراكية العلمية هي الماركسية[6].

---

(1) أبو القاسم سعد الله **تاريخ الجزائر الثقافي**، **ج1** المصدر السابق، ج 9، ص89.

(2) سعد دحلب **المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر** منشورات دحلب د. ت ص29.

(3) أبو القاسم سعد الله: المصدر نفسه، ج 9، ص90.

(4) علي كافي **مذكرات علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري** دار القصبة 1999 ص62.

(5) أبو القاسم سعد الله: المصدر نفسه، ج 9، ص101.

(6) المصدر نفسه، ص115.

وعلى الرغم من أن سعد الله كان منخرطا في النضال الوطني الجزائري إلا أنه كان مقاوما ثقافيا يقف عند ثغرة مهمة، جند لها الاستعمار قوافل من المثقفين الكولونياليين بهدف شل روح المقاومة، وإنتاج شعب هجين، لأن ما تفعله السياسة والثقافة قد تعجز عليه القوة والسلاح. ويرى سعد الله أن الظروف التاريخية في العالم الثالث مكنت الفئة المثقفة التي نشأت في ظل الاستعمار منذ تولي السلطة، والتي يطلق عليها بالنخبة، ويرى سعد الله أن هذا المصطلح "ورثناه من عهد الاستعمار إذ يحمل في طياته مدلول التفوق على بقية الشعب من جهة، وعقدة الولاء للنظام الاستعماري الذي كونهم من جهة أخرى" [1]، كما يرى أن هذه النخبة نوعان: مدنية وعسكرية، وبأن النخبة المدنية هي التي سيطرت على بعض بلدان العالم الثالث. ويفسر سعد الله صراع الفئات المثقفة على حكم الجمهور والاستيلاء على السلطة بارتباط النخبة بالنظام الاستعماري القديم، ومن ثمة تناقض الفئات المثقفة الأخرى التي لا تتفق معها من حيث التكوين والمشرب والولاء، وأيا من المتنافسين على السلطة إذا تمكن منها فإنه يثبت بها سواء عن قناعة بأن ذلك هو الأفضل للبلاد، وإما بدعم من مستعمر الأمس لتنفيذ مخططاته.

وفي ظل الهيمنة الغربية في هذا العصر، والخروج الظاهري للدول الغربية من بلدان العالم الثالث، فإن استعمارا غير مباشر مسلط على هذه البلدان الضعيفة، والتي أريد لها أن تكون ضعيفة، فإن ما يميز السلطة في العالم الثالث أنها " تظل غالبا تابعة أو عميلة ولا تستطيع أن تتحرر من روح الأبوة

(1) أبو القاسم سعد الله **حوارات** ص 120.

الاستعمارية إن لم نقل الوصاية المقنعة"[1]، ويفسر سعد الله " هجرة العقول " من الجيل، أنه وجد طريقا مسدودا أمام تحقيق طموحاته وآماله، لذلك فهؤلاء المثقفون المهاجرون عند سعد الله نوعان: نوع له طموح سياسي وهو يتبادل الخوف مع السلطة، فهو يخافها وهي تخافه، و"لا يحس بالولاء الوطني ولا بالأمن النفسي، فيفضل الهجرة إن وجد إليها سبيلا"[2]، أما النوع الثاني من المثقفين فهم من ليس لهم طموح سياسي، وإنما لهم طموح الخلق والإبداع والابتكار، ولا يجدون الوسائل لذلك، ولا التشجيع ولا الراحة ولا الاستقرار، فيعرضون خدماتهم على مجتمعات أخرى، ويرى سعد الله أن الجزائر لا تشذ عن تجربة العالم الثالث، فإن السلطة النافذة في الحكم تمثل نخبة مدنية وعسكرية، كانت في أول عهدها تتبنى النهج الثوري والتغيير الجذري، ثم ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى سلطة محافظة، متمسكة بالحكم لذاته، الأمر الذي أدى إلى هجرة بعض المثقفين، وبقاء البعض الآخر في ظروف صعبة.

وموقف سعد الله من هجرة المثقفين هو موقف المعارض، فيرى أن " الهجرة تمثل حلا أنانيا، أما البقاء والصمود فيمثل موقفا وطنيا، وعلى المثقف ألا يتباكى كثيرا، وأن يشعر بثقل رسالته نحو شعبه وبلده، وليسأل نفسه ماذا قدم هو لبلاده، لا ما قدمت بلاده إليه"[3]، وللتخلص من ظاهرة الهجرة يرى سعد الله ضرورة التخلص من أسبابها، كانعدام المناخ السياسي، وتفشي ظاهرة الاستبداد، وكذلك انعدام وسائل العمل والإنتاج، أي ظروف العمل الجاد، ثم

(1) المصدر نفسه ص 121.

(2) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(3) المصدر نفسه ص 122

هناك الإقصاء، وهو عدم الاعتراف بالمجهود الشخصي وتفضيل الجهود الأجنبية على الجهود الوطنية [1].

3- المنظومة التربوية:

ويعتبر سعد الله أن مراجعة المنظومة التربوية تستصحبها دائما حساسية من ضجيج وشد وجذب [2]، وقد روجعت عدة مرات، وعادة ما ينتهي الأمر بتبني حالة توفيقية، فكانت هناك إصلاحات تخص الجامعة، ثم في المدرسة الأساسية ويعتقد سعد الله أن ثمة أناس يتحركون ضد قطار المدرسة الأساسية أن يصل إلى الجامعة، فبدل تمهيد السكة للقطار لكي يعبر إلى الجامعات أيضا وضعت له علامات حمراء حتى يتوقف وينتظر الإذن، وحتى المناداة بمراجعة المنظومة التربوية في ذاتها يعتبرها سعد الله تنازلا لصالح الذين يمارسون الضغط والواقفون عند الخط الأحمر.

وقد نجم عن ذلك حملات ضد النظام التعليمي في الجزائر منها ضعف المستوى، وضحالة المردودية، والخوف من التعريب في الجامعة، فكان تهويل المسألة، وشارك في الحملة بعض الصحافيين الفرنسيين الذين " كتبوا بأننا إذا ستمرينا في نظامنا التعليمي الحالي فلن نكون منسجمين مع طموحاتنا في الوحدة مع تونس والمغرب، لأن نظامهما غير نظامنا وأن شهادتنا الثانوية لن تقبل من دول السوق الأوربية المشتركة"، ويذكر سعد الله أن هؤلاء الصحافيين لم يكفوا عن

(1) أبو القاسم سعد الله قضايا شائكة ص 99.

(2) المصدر نفسه، ص 182.

حملاتهم[1]، وهاجمت هذا القرار ومن كان وراءه من تيار المعربين والمحافظين.

ويذكر سعد الله بأن ملف المنظومة التربوية قد عولج في مناسبات عدة، كان آخرها الندوة الوطنية التي عقدت بنادي الصنوبر، والتي كانت نتائجها عموما تقف إلى جانب إصلاحها مع المحافظة على مكاسبها، ومن ذلك مبدأ ديمقراطية التعليم والتعريب، واستمرار ذلك في المستوى الجامعي، خصوصا الفروع العلمية، ويتساءل سعد الله عن الموقع الذي تختاره اللجنة المكلفة بدراسة هذا الملف من جديد، التي لها بين يديها رصيد غني من التجارب السابقة والاقتراحات المختلفة، على الرغم من أن المرحلة صعبة، والضغوط متواصلة سواء بالمساومات أو التهديدات، إلا أن الأوفياء من الجزائريين تأبى نفوسهم التنازل عن مبادئهم المقدسة "ولكننا ندرك أيضا أن الجزائريين الأوفياء لثورة نوفمبر لا يتنازلون عن مبادئهم المقدسة ولو وضعت الشمس بيمينهم والقمر بيسارهم"[2].

ويذكر سعد الله أن بعض المغرضين يعزون ضعف المستوى عندنا إلى اللغة العربية لغة التعليم، ولكن إذا كان ثمة ضعف في المستوى فمرده إلى أسباب أخرى لا علاقة لها باللغة، فضعف المستوى قد نجده عند الأمم المتقدمة لكنها تتدارك الأمر، فتراجع منظومتها عن طريق الدراسات العميقة والمراجعة الدقيقة، فقد حدث ذلك لأمريكا وفرنسا نفسها، ولم يرجع أحد أسباب ذلك إلى اللغة[3].

ويرجع سعد الله بعض أسباب ضعف المستوى إلى المعلم الذي يشكو من

(1) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي**، ص 182.

* كان سعد الله يشير إلى مجلة لوبوان le point الفرنسية 12 سبتمبر 1988.

(2) أبو القاسم سعد الله **في الجدل الثقافي**، المرجع السابق ص 183.

(3) المصدر نفسه ص 184.

ضعف التكوين، وضعف الأجور، وضعف الضمير أحيانا، وهناك ما يرجع إلى نقص في الوسائل التربوية والمساعدة والأجهزة التعليمية، وأيضا هناك كثافة التلاميذ في الأقسام، وكثافة حجم الساعات، وعدم التنويع في المواد العلمية والترفيهية، فسعد الله يعيب مثلا على التعليم أن لا يتدرب التلاميذ على فن التمثيل والموسيقى والخطابة، كما يعيب على الأستاذ أن يقوم بعملية الإملاء مباشرة دون استعانة بخرائط ورسومات، واستعمال السبورة، كما أن التغييرات قد تضر بسير الظروف، وعدم إكمال البرامج، وطبيعي جدا أن يكون المستوى ضعيفا في ظل هذه النقائص.

فقضية المستوى عند سعد الله يجب ألا تدرس بعيدا عن قضية اللغة، وأنه يقف إلى جانب المنادين بتحسين المستوى، وتدارك النقائص، وضرورة توفير الوسائل، والاهتمام بالمعلمين فيخضعون للتكوين المستمر، وتحسن وضعيتهم المادية ليؤدوا رسالتهم بضمير مهني، كما يدعو سعد الله إلى وضع نظام حوافز للمعلمين وللمديرين وللتلاميذ، من جوائز وترقيات ونحوها، وأيضا إلى جانب التحفيزات يوضع نظام صارم ضد الغائبين أوالعاجزين، وكذا على المستوى الجامعي فإن سعد الله يطالب اللجنة المتبنية للإصلاح أن تبحث عن حلول جذرية، وبكل موضوعية حيال الرداءة، سواء بالنسبة للأستاذ أو الطالب الفاشل.

ويرى سعد الله أن تكون للجزائر تجربة رائدة في مجال المدرسة الأساسية وفي ديمقراطية التعليم، وفي التخلص من نفوذ المدرسة الأجنبية، وديمقراطية التعليم عنده تعني "إعطاء الفرصة لجميع أبناء الوطن في التمتع بنور العلم، والخروج من ظلمة الجهل والدخول إلى سوق التنافس، والسباق والغربلة،

لمعرفة المتفوقين والمتوسطين والفاشلين، ولا تعني ديمقراطية التعليم فتح المجال أمام أبناء الأغنياء وأبناء كبار الضباط والمسؤولين، وحرمان أبناء الفلاحين والعمال والفقراء" [1]، فالمساواة وتكافؤ الفرص في حقوق التعليم بين الفقراء والأغنياء قد سمح بظهور متفوقين من فئة المحرومين، فالمجتمع والدولة يجب أن تستفيد من طاقات أبنائها جميعا، والبقاء للأصلح.

ولتطبيق مبدأ ديمقراطية التعليم يرى سعد الله أنه يجب توفير الإمكانات اللازمة، فالمسألة تتطلب جهودا كبيرة، وأموالا طائلة من الدولة، ومؤسسات ومعلمين أكفاء وعمليات فرز ومراقبة، ولا تنفع الشعارات والإحصاءات المزيفة، وبخصوص تجربة جيراننا تونس والمغرب في مجال التعليم، فسعد الله يرد على أولئك الذين يرون ضرورة تبني تجربتهم، فهم لم يتبنوا مبدأ ديمقراطية التعليم، ولم تنص عليه مدارسهم وجامعاتهم كما قامت عندنا، خصوصا وأن هؤلاء المتأثرين يلحون على وجود ظاهرة المدارس الخاصة.

وحتى تؤدي المنظومة التربوية المرتقبة أهدافها الإصلاحية يجب أن لا تتسيس، بحيث لا تصبح كرة بين أرجل الأحزاب السياسية" [2]، وأصحاب الأولوية في مراجعة هذه المنظومة هم رجالها القائمون عليها إذا كانت في حاجة إلى إصلاح، ولهم أن يستفيدوا من كل الطاقات الوطنية في ذلك حتى من برامج بعض الأحزاب التي لها تصورات جدية في ميدان التعليم، على أن الشرط الأساسي أن لا يتسيس رجال التعليم والخبراء في إصلاحاتهم للمنظومة

---

(1) أبو القاسم سعد الله في **الجدل الثقافي** ص 186.

(2) أبو القاسم سعد الله **حوارات** ص 105.

التربوية، لأن سياسة الأحزاب متغيرة بينما يجب أن تكون المنظومة التربوية مستمرة وشاملة وتخدم الجميع.

4- الثقافة والعولمة:

كما تكلم سعد الله عن الثقافة العربية ومسألة العولمة، ويعتقد أن مفهوم الثقافة العربية مفهوم واسع، وتشمل اللغة والأدب والمسرح والموسيقى والفنون والرسم، ومجموع القيم والأخلاق والنظم التعليمية والسلوكية، ويعتقد سعد الله أن الثقافة العربية تواجه تحديا كبيرا، وعليها أن تستعد لمواجهة العصر القادم، أو أن تختفي عن الأنظار لتترك مكانها لثقافات أخرى، فإن البقاء للأقوى والفضل للمبدع وليس للمجتر، وتأثر الثقافة العربية بمسألة العولمة سيؤدي حتما إلى تأثر هوية الأمة وكينونتها [1]، ويعتقد سعد الله بأن مصطلح العولمة قد دخل أدبياتنا منذ حوالي عشرين سنة، ولم يدخل كمصطلح ثقافي، وإنما دخل كمصطلح إعلامي وسياسي واستراتيجي واقتصادي، ويعني تحكم قطب واحد أو دولة واحدة في مصير العالم بكل ما في هذا العالم من أمم وحضارات وتواريخ ولغات وأديان، والعالم بحكم الثورة التكنولوجية قد أصبح قرية واحدة، اختفت منها الدول والكيانات، وتحولت إلى أجزاء من كل، لا يتمتع فيه الجزء إلا بقدر ضئيل من الحرية، وعلى هذه الأجزاء أن توائم بين مصالحها ومصالح الدولة القطبية الواحدة، التي تملك اليد الطولى في كل شيء بما في ذلك الثقافة، وأي مخالفة من قبل أي جزء من الأجزاء فإن العواقب مفتوحة بما في ذلك الحرب والدمار.

---

(1) أبو القاسم سعد الله **مجادلة الآخر** ص241.

وهناك من يعرف العولمة الثقافية على أنها السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصال [1] ويعرف سعد الله العولمة الثقافية بأنها " صبغ الثقافات السائدة اليوم بلون الثقافة الأمريكية وصهرها بالتدرج لتخرج منها ثقافة موحدة أو مشابهة هي ثقافة العصر الأمريكي المتميز بالعلم والتكنولوجيا وسيطرة اللغة الأنجليزية وآدابها وفلسفتها، وبذلك تتحول ثقافات العالم إلى عنصر داعم للسلام العالمي الذي تختفي في ظلاله القوميات والمعالم الحضارية الخاصة" [2]، وفي هذا السياق يخلص سعد الله إلى أن هذه العولمة تهدف إلى وحدة العالم سياسيا وثقافيا، يتوج بنظام دولي واحد يكون تحت رعاية الأمم المتحدة التي تسيرها الولايات المتحدة، والتي يكون لها برلمان واحد بدل الجمعية العامة، ولها لغة واحدة مشتركة هي اللغة الأمريكية، ويكون لها مرجعية واحدة هي الدستور الأمريكي، وثقافة واحدة تتمثل في الآداب والعلوم والفنون والتكنولوجيا التي هي نتاج القلب والعقل الإمريكيين[3].

فالإنسان الأمريكي يقدس العمل والإنتاج، وليس غيورا على تراثه الثقافي، وكل شيء عنده قابل للتغير والتغيير، وكل شيء يمكن النظر فيه إذا كان سيتحول إلى صفقة رابحة، فكل شيء قابل للتطور ومسايرة العصر، فاللغة عنده ليست مقدسة فهي متطورة وقابلة للتطويع والتطوير، وعليها أن تتسع

---

(1) عبد الإله بلقزيز **العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية** دار الحوار للنشر والتوزيع 2002 ص69.

(2) أبو القاسم سعد الله **مجادلة الآخر** المصدر نفسه ص242.

(3) المصدر نفسه نفس الصفحة.

للمصطلحات الجديدة سواء ما تولد منها من ابتكارات جديدة أو ما كان نتيجة اتصال بثقافات أخرى، وكذلك الموسيقى عليها أن تواكب عصر السرعة وأن تبتعد عن البؤس والحزن والكسل، ومظاهر التخلف والأمر نفسه في المسرح والشعر والرواية، فلا بد من شحد الطاقة البشرية من أجل الإنتاج، والثقافة الأمريكية تريد أن تحدث الصدمة، صدمة الحداثة والعولمة، فتصدم الآخرين في عقائدهم وأخلاقهم وتراثهم، وأن تخرجهم من الأوهام والأساطير إلى الواقع والمستقبل، والصدمة كفيلة بتحقيق النهضة والتقدم والحرية والديمقراطية [1].

ويعتقد سعد الله بأن هذا المفهوم للعولمة ليس جديدا علينا، فدارس التاريخ يدرك أن العولمة بمعنى سيطرة القوي على الضعيف تمثل جدلية لا تنقطع وبأن المنطقة العربية قد عاشت ظاهرة العولمة في هيمنة القرطاجيين والرومان والفرس والروم في الأزمنة البعيدة، كما عاشتها في هيمنة بريطانيا وفرنسا في الأزمنة الحديثة، ونفس الظاهرة عاشتها في هيمنة أمريكا وروسيا منذ 1945، إلا أن أهم ما يميز عولمة هذا العصر هي هيمنة القطب الواحد المتمثلة في الهيمنة الأمريكية، ويعتقد سعد الله أن الانفراد بالقطبية لن يطول أمدها لأنها تخالف سنة الحياة، وبتعدد الأقطاب يحصل منهج التدافع الذي عبر عليه القرآن الكريم في قوله تعالى[2]: ".. ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا.. الآية"، وذلك ليتحقق التوازن والاستقرار في الكون، وسعد الله يقول بمنهج التدافع ولا يقول بمنهج التصادم

---

(1) المصدر نفسه ص244.

(2) سورة الحج الآية 38.

بين الحضارات، كما يذهب إلى ذلك بعض المنظرين الغربيين [1] أمثال "أرنولد طوينبي"[2] وآزوولد شبنغلر"[3] و"فوكوياما"[4].

خاتمة:

من خلال عرضنا للمسألة الثقافية عند سعد الله، تتبين لنا الأبعاد الثقافية والفكرية عند الرجل، فقد حمل هموم الثقافة، وعاش في خدمتها أديبا وشاعرا، ومؤرخا، ومحققا للتراث الجزائري، فهو لا يتعلق بالتراث لذاته، وإنما يتعلق بالتراث الإيجابي، الذي يصفه بالشامخ، ويحافظ على أصالة الأمة وعروبتها وإسلامها، والذي يسمح بالإنطلاق نحو مستقبل واعد، وليس بالتغني بالماضي والسكون فيه، كما نجح سعد الله في عرض تاريخ الثقافة الجزائرية ويؤكد من خلال ذلك الاستمرارية الثقافية، وفشل المخططات الاستعمارية في القضاء عليه، كما يدعو المثقف الجزائري إلى تبني منظومة تربوية تلبي آفاق الثقافة العربية الإسلامية، رغم التحديات التي تواجهها، خصوصا وأن رياح العولمة الثقافية قد وضعت الثقافة العربية أمام تحديات كبرى، فوجب على أهلها القيام بالممانعة بالعودة إلى ربوع هذه الثقافة وإحيائها مع الحرص بالتمسك بأسباب التقدم الحضاري.

---

(1) المصدر نفسه نفس الصفحة.

(2) أرنولد طوينبي(1889 ـ 1975) مؤرخ وفيلسوف انجليزي من أعماله "دراسة للتاريخ" الذي ضم 21 حضارة، عمل أستاذ الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، كما عمل مدير لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية.

(3) آزوولد شبنغلر(1880 ـ 1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني، أشتهر بكتابه "أفول الغرب".

(4) فوكوياما وإسمه الكامل هو يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما، كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية، أشتهر بكتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير".

*. المصادر والمراجع:

1 ـ أبو القاسم سعد الله منطلقات فكرية الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس ط2 1982.

2 ـ أبو القاسم سعد الله حوارات دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2005.

3 ـ أبو القاسم سعد الله في الجدل الثقافي دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس د. ت.

4 ـ أبو القاسم سعد الله قضايا شائكة أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ دار الغرب الإسلامي بيروت د. ت.

5 ـ بوضرساية بوعزة ـ المدرسة التاريخية الجزائرية دار الحكمة الجزائر 2007.

6 ـ زغيدي محمد لحسن مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 ـ 1962 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989.

7 ـ سعد دحلب المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر منشورات دحلب د. ت.

8 ـ سعيد شبارو النخبة والأيديولوجيا والحداثة دار الهدى للطباعة والنشر الطبعة الأولى 2005.

9 ـ عبد الإله بلقزيز العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية دار الحوار للنشر والتوزيع 2002.

10 ـ عبد الله العروي مفهوم العقل مقالة في المفارقات المركز الثقافي العربي الطبعة الرابعة 2007.

11 ـ عبد الرزاق بن حمادوش رحلة ابن حمادوش الجزائري: << لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال> الطباعة الشعبية للجيش ـ الجزائر ـ 2007 تقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله.

12 ـ علي كافي مذكرات علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري دار القصبة 1999.

13 ـ محمد عابد الجابري التراث والحداثة دراسات ومناقشات مركز دراسات الوحدة العربية طبعة ثانية 1999.

14 ـ محمد بن عمر العدواني: تاريخ العدواني، دار البصائر للطباعة والنشر 2007، تحقيق وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله.

15 ـ مالك بن نبي مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر المعاصر بيروت لبنان 2000م.

16 ـ ناصر الدين سعيدوني دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2000.

10
أبو القاسم سعد الله عُلُوٌّ فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ

لحسن بن علجية.

إنْ قيلَ ماتَ فلم يمتْ مَنْ ذِكْرُهُ   حيٌّ على مَرِّ الليالِي باقِي

***

جمع الله سبحانه وتعالى في شيخنا أبي القاسم سعد الله ما تفرق في غيره من المحاسن الفاخرة والمناقب المتكاثرة، عُرِف رحمه الله بالاستقامة الخُلقية والصرامة العلمية والزهد في حطام الفانية، لم يعرف الكلل ولا الملل وما ضعف وما استكان، وكان من الصابرين.

تحمَّل مسؤولية وأمانة التأريخ الكامل والشامل لبلده الجزائر، بالرغم من عدم توفر كثير من الشروط التي ذكرها لمن يقوم بهذه المهمة الشاقة والصعبة، فلم تتوفر له المحفزات ـ المادية والمعنوية ـ ولم يتوفر له المناخ الحر، بل انعدم في كثير من المراحل التاريخية. كان سعد الله نتاج شعب يصنع التاريخ ولا يكتبه، والأدهى والأمر من ذلك انه شعب لا يعترف لأي بطل في تاريخه، حتى انه تميز بظاهرة غريبة انفرد بها عن بقية الشعوب وهي ظاهرة تحطيم الأبطال والرموز الذين صاروا غَرَضًا، كما لا حظ ذلك الشيخ سعد الله، فأمسى تاريخنا مهملا.

ولما توفر لسعد الله شرطان أساسيان وهما: بطولات وانجازات شعبه، وثقافته العالية أيقن رحمه الله أن كتابة تاريخ شعبه أصبحت فرض عين يجب

أداؤه على الفور لا التراخي، وأنَّ توقيتَ هذا الفرض ضروري لا اختيار ولا فسحة فيه.

كانت المهمة صعبة وشاقة وعظيمة ـ ولكن العظيم تصغر في عينه العظائم ـ تتطلب تضحيات كبيرة فمسارات وجوانب تاريخ الجزائر لا تحصى ولا تحصر ولا تستقصى، كتب رحمه عن فترة الاحتلال والمقاومات الشعبية والحركة الوطنية، والثورة الجزائرية، وفصل تاريخنا الثقافي الشامل من الفتح الإسلامي إلى القرن العشرين، في موسوعته العظيمة النادرة المفيدة الماتعة، واهتمَّ بتحقيق أعمال جزائرية رائعة.

كان ميزانه العلمي صارما دقيقا، لا يَزِنُ بضاعة إلا إذا تميزت بالجِدِّية في المنهج، والجديد في الموضوع.

لم يبخس أحدًا حقه ولم يجامل أو يتحامل على أحد، وكان يرى أن التاريخ لا يرحم الموتى الذين تنكروا وخانوا وطنهم وأمتهم، سواء كانوا زعماء أو أعيان أو مشايخ...... الخ. وإذا كان من وَرَّخَ لمؤمن فكأنما أحياه، فما بالك بمن وَرَّخَ لأمة وأحيا تاريخها !!!

لم يكن ولاء الشيخ سعد الله إلا لدينه ولغته ووطنه، لم يقصد بما خَطَّ قلمه خدمة ملك أو أمير، ولم يرفع إنتاجه لسدة رئيس أو أعتاب وزير، ولم يرتمي ببضاعته إلا على أبواب فضل الله العلي القدير، رفض المناصب السامية، والجنسية الأمريكية، ونذر نفسه لخدمة العلم فاعتكف في محرابه، صائما عن زخرف الدنيا، قائما على كتابة تاريخ شعبه. كان رحمه الله مؤرخا حُرًا نزيها مُنزويا عن الشُّهرة، ناقما على صنف من المؤرخين وصفهم بأنهم يرضعون أثداء النظام

ويمتصون أصابع الحكام، وما أكثرهم في العالم العربي.

لم يعجب البعض من قومنا منهج سعد الله العلمي المرتكز على دينه ولغته ووطنه، فهو نتاج مدرسة النجاح بقمار وشيخها **محمد الطاهر التليلي** ونتاج الحلقات العلمية بجامع الزيتونة ودار العلوم بالقاهرة، أرادوا منه أن يكون نتاج المدرسة الغربية ولم يكن ولاؤه لها بالرغم من دراسته بأمريكا، التي قصدها محصنا بصلابة دينه وعشقه للغته وحبه لوطنه، وربما كان ذنبه أنه لم يتخرج من جامعة فرنسية، وحتى لو تخرج منها لكان كما كان، وبمناسبة ذكر فرنسا، ما أروع مقاله:

(أتيناك طائعين يا باريس) جريدة الجديد: 15 / 12 / 2013م [1]

لم أتشرف بالتتلمذ على أستاذ الجيل ومفخرة الجزائر، وتشرفت بمراسلات عديدة معه، أغلبها إجابات عن أسئلتي [2]، وربما يأبى الجواب عن بعضها، فلا أراجِعُهُ هيبةً منه، كان يصف اعتكافه للبحث والتأليف ببيت الطاعة، وكنت كلما عثرت على وثيقة مهمة أو كتاب نادر يهمه أو إصدار هنا أو هناك عن تاريخ الجزائر أرسله له، كان رحمه الله يطلب مني معرفة ثمن الكتاب أو الكتب التي أرسلها له ليسدد ثمنها ويقول لي: لعلك تكلف نفسك ما لا تطيق، وأجيبه أن هذا دأبي مع زملائي من طلبة العلم ومشايخي، وأن إكرام أهل العلم مما أوصانا به سلفنا الصالح. ومما قاله لي رحمه الله: " أن الرحلة أصبحت من طبعي، فلا

---

(1) جريدة محلية لصاحبها الأستاذ بريك.

(2) وهي حوالي 100 سؤال في التاريخ والتراث، وهي مقيدة ـ أسئلة وأجوبة ـ جاهزة للطبع بحول الله وقوته.

إنتاج بدون تغيير البيئة ولا تغييرَ بدون رحيل ومشاهدةٍ وإضافة علم على علم".

كان رحمه الله يقول: (إن أوقاتي معدودة بالدقائق !!!).

كان يقول: (أخافُ أن تنطفئ الشمعة قبل أن أكملَ المشروع !)، ونقول لك يا شيخنا: نَمْ قريرَ العين، لقد اكتمل المشروع ولم تنطفئ الشمعة بل زادت نورًا على نور.

كان رحمه الله يرسل لي الجديد من إصداراته ويمدني بما أبحث عنه من وثائق أو كتب. قَرَّظَ لي كتابًا، ولما طلبت منه تقريظ كتاب آخر، قال لي رحمه الله: لا أقرظ لمؤلفٍ سوى كتابا واحدًا. ولما أهديت له كتابي: العلامة عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني حياته وآثاره، ومذكرات الأستاذ أبي القاسم الجبالي ـ شهر جويلية 2013 ـ، شكرني وقال لي عن محتوى الكتابين: (يبدو من قائمة المحتويات أنهما سيكونان مفيدين لي في نهاية عمري.) !!!.

كان وفيا لأساتذته ومشايخه حققَ ونشرَ بعض تراثِ شيخه محمد الطاهر التليلي، وكان حاضرًا في اليوم الدراسي بباتنة الذي خُصص للشيخ عُمر دَرْدُور، وكان الشيخ سعد الله قد تعرَّف عليه بالقاهرة، وأثنى عليه في كلمته، وقال عنه إنه ـ أي الشيخ عمر دردور ـ (كان من جيل آخر، جيل تطمئن إليه النفس وتثق في كلامه صدقه)، وكان وفيا للشيخ المهدي البوعبدلي فنشر الرسائل المتبادلة بينهما........ الخ.

كان رحمه الله سليم الصدر عزيز النَّفس كاملَ الأدب، عفيف اللسان والقلم، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه، بعيدًا عن التَّكلف في أقواله وأفعاله،

مُنْزَوِيًا عن الشُّهرة، عُرِفَ برجاحة العقل والفهم الثاقب والرأي الصائب، والمروءة والتواضع الجَمِّ، شهد له الناس بحسن السيرة وصفاء السريرة، كَثَّرَ اللهُ في المسلمين أمثاله.

رحلَ سعد الله تاركًا وراءه مئات الطلبة، وآلاف القراء والباحثين، يعتمدون في رسائلهم وبحوثهم ومؤلفاتهم على مؤلفاته التي لا غنى عنها، فهي كالمُدَونة عند المالكية.

اكتشف الناس يوم جنازته جانبا خفيا من جوانب عظمته، ولله دَرُّ أبي الحسنِ الأنباري القائل:

عُلُوٌّ فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ   لَحق أنتَ إحدَى المُعجِرات

وَدَّعَنَا أبا القاسم سعد الله بعد أنْ أظلّنا بأعماله العِلمية النافعة الخالدة، اللهمَّ أظله بظلك يوم لا ظِلَّ إلا ظِلك، وادخله جنَّتك من غير مناقشة حساب ولا سابقة عذاب يا أرحم الراحمين آمين.

11
سعد اللّه عاش وفيا للغة العربية يغادرنا

03 . 01 . 2014 د. عثمان سعدي

توفي يوم الرابع عشر ديسمبر ـ كانون الأول 2013 المفكر الكبير شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي أغنى المكتبة الجزائرية والعربية بمجلدات أهمها: "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" 5ج، "تاريخ الجزائر الثقافي" 9ج، "الحركة الوطنية الجزائرية" 4ج.

كان المرحوم ابن الريف الجزائري، يرعى النخيل ويجني التمور ويقلب الأرض ويفلح أرض أسرته المتواضعة، وتعلم العربية في كتّاب تحفيظ القرآن، ثم صعد إلى جامع الزيتونة فحصل على التحصيل، وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة فحصل من جامعة القاهرة على الإجازة والماجستير في اللغة العربية، ثم انتقل لأمريكا فحصل على الدكتوراه.

كان وفيا للغة العربية، يعرف الفرنسية والإنجليزية والفارسية لكنه لا يكتب إلا باللغة العربية. من مؤسسي الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية سنة 1989، ومن المشرفين على مجلتها "الكلمة". ومن كتاباته دراسة قيّمة عنوانها "اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية" التي نشرها في مجلة "الكلمة" عدد 3/ 11/ 1992، والتي ثبّتت في كتاب "الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية 15 سنة من النضال في خدمة اللغة العربية" الصادر سنة 2005 صفحة 279، وإلى

القراء خلاصة الدراسة المذكورة:

* المرحلة الأولى 1830 ـ 1919: وجد الفرنسيون العربية منتشرة وكانت العثمانية قليلة التداول حتى بين الأتراك، وكانت التركية تكتب بالحرف العربي. اضطر الفرنسيون إلى فرض تعلم اللغة العربية على الضباط والمسؤولين بالجزائر، وأول من فرض ذلك المارشال بوجو، من منطلق لكي تحكم الشعب الجزائري وتتحكم فيه لا بد أن تكون عارفا بلغته.

واجهت الهجمةَ الفرنسية الدراساتُ الحرة بالزوايا التي كانت تعلّم اللغة العربية والتي لعبت دورا هاما في الحفاظ على لغة القرآن الكريم. كما واجه هذه الهجمة الدارسون في الأقطار العربية مثل صالح بن مهنّة الذي تخرج من الجامع الأزهر بالقاهرة، ومحمد الديسي وعاشور الخنقي وعمر راسم، وغيرهم الذين ظهروا قبل 1919. وكان المواطنون يطالبون باستمرار بعرائضهم السلطات الفرنسية باحترام اللغة العربية وتعليمها.

* المرحلة الثانية منذ 1920: تتمثل في أن وسائل الإعلام الرسمية للأحزاب والجمعيات الوطنية كانت تصدر إما بالعربية فقط وإما باللغتين، تقوم بهذا حتى تلك الجمعيات التي تسمى "الاندماجيين". وعندما تأسس "نجم الشمال الإفريقي" في فرنسا اهتم فرعه في الجزائر باللغة العربية، وطالب سنة 1927 بإنشاء المدارس باللغة العربية. وحلّت السلطات الاستعمارية "النجم" سنة 1929 غداة الاحتفال المئوي بالاحتلال، لكنه أعاد تنظيم نفسه وهو منحلّ سنة 1933 وقد جاء في برنامجه (بعد أن خرج منه التونسيون والمراكشيون) ما يلي: "المادة الثامنة: تعليم اللغة العربية تعليما إجباريا. وفي مادة أخرى جاء: اللغة

الرسمية للبلاد هي اللغة العربية".

وتأسس حزب الشعب الجزائري على أنقاض "النجم" سنة 1937 وأثناء مؤتمره العام الذي عقد سنة 1938 طالب حزب الشعب بما يلي حول اللغة العربية:

1 ـ إصدار مرسوم بجعل اللغة العربية إجبارية في جميع مستويات التعليم، على غرار الوضع في تونس ومراكش والمشرق العربي.

2 ـ الحرية المطلقة للتعليم الحر (والمقصود بالحرّ التعليم باللغة العربية الذي كانت تمارسه جمعية العلماء، والذي كان يتعرّض لاضطهادات إدارية قاسية مثل قراري ميشيل 1933 ورينييه 1935). وتأسست حركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1946 والتي هي استمرار لحزب الشعب حيث سارت على منهاجه في حماية اللغة العربية والدعوة لها. أما جمعية العلماء فقد تأسست على الحفاظ على اللغة العربية، فقد قدّمت مطالب للمؤتمر الإسلامي سنة 1936 والتي تبناها المؤتمرون جميعا (وفيهم النخبة والشيوعيون والنواب) وهي:

1 ـ إلغاء كل ما اتخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية، وإلغاء اعتبارها لغة أجنبية.

2 ـ الحرية التامة في تعلم اللغة العربية.

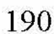
أما (بيان الشعب الجزائري) الذي أصدرته سائر الأحزاب والجمعيات سنة 1943 أثناء الحرب العالمية الثانية بحضور جيوش الحلفاء وعلى رأسهم الجيش الأمريكي، فقد جاء فيه "الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية"، وقد قُدم البيان المذكور إلى ممثلي الحلفاء: الأمريكيين

والإنجليز والفرنسيين.

لقد غادر أبو القاسم سعد اللهّ دنيانا حزينا على عدم وفاء دولة الاستقلال لمطلب الشعب الجزائري في جهاده من أجل هوية وطنية كاملة التي تعني سيادة اللغة العربية، رحل حزينا لأن الذي يسيطر على الدولة بعد نصف قرن من الاستقلال هي اللغة الفرنسية، وأن لغة البلاد والعباد مهمشة.

رحم اللهّ أبا القاسم سعد اللهّ الذي عاش وفيا لمقومات الشعب خادما لتاريخه وهويته.

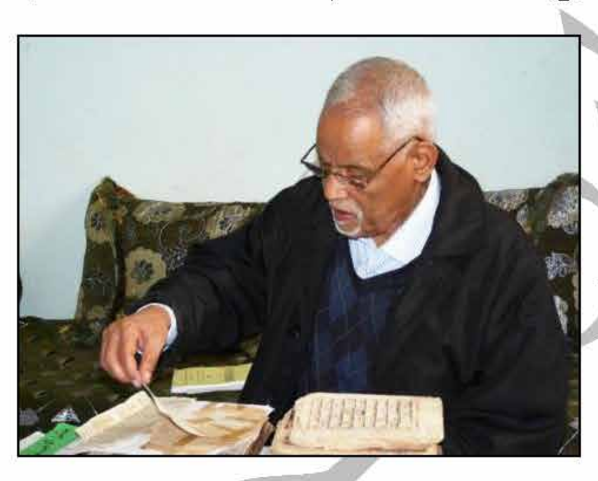
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية



12
كيف يكون الوفاء لروح أبي القاسم سعدالله

بقلم: الأستاذ الدكتور رابح لونيسي

شاء القدر أن يرحل عنا شيخ المؤرخين أبوالقاسم سعدالله، ويوارئ التراب في نفس يوم دفن مانديلا، فإذا جمع مانديلا العالم حوله لأخلاقه ومواقفه، فإن سعدالله يجمع حوله كل المثقفين ـ خاصة الجزائريين ـ لعلميته وأخلاقه العالية جدا، وسبق أن كتبنا عن ذلك من قبل عندما تأسفنا لعدم خوضه في تاريخ الثورة بسبب خشيته من تغلب الذاتية عليه بفعل مشاركته فيها فيقول "أعتقد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسؤوليتهم"، وعلقنا على ذلك بالقول "كم كنا نتمنى أن يكتب فيها، لأنه من المؤرخين القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة العلمية والأخلاق وأننا نعلم أن أخلاقه العالية جدا وصدقه ستجعل من كتابته في هذا التاريخ أكثر قربا إلى والموضوعية وأننا نعلم إن كانت فيه بعض الذاتية فإن ذلك دون تعمد منه ".



فكما يستلهم العالم من روح مانديلا في بناء دولة ديمقراطية خالية من التمييز

والعنصرية، فعلى مؤرخينا وطلبة سعدا لله ـ وأنا أحدهم ـ الاستلهام من سلوكياته.

فليس من الوفاء لسعدا لله ترديد مقولاته وأطروحاته دون نقد وإعادة نظر، لأنه مناقض لمنهجه، حيث كان يترك لطالبه حرية الطرح، فعندما أشرف علي في رسالة حول الفكر القومي العربي، لم يمنعني من نقد هذا الفكر الذي رأيت فيه خطرا على وحدة أقطارنا ـ خاصة المغاربية منها ـ بعد غوصي العميق في مختلف توجهاته، لكنه أشترط علي فقط القدرة على الدفاع عن أطروحاتي بالرغم من أنه كان متعاطفا مع هذه الأفكار التي تراجع عنها فيما بعد.

يكمن الوفاء لروح سعدا لله في احترام حريات طلبتنا في الطرح والاكتفاء فقط بتوجيههم علميا ومنهجيا، وأيضا باستلهام أخلاقه العالية، خاصة تواضعه، حيث فضل البقاء مع طلبته في مدرجات الجامعة على تولي المناصب، وعاني كثيرا برفضه الوزارة في حكومة غزالي، والذي فهم أنه موقف سياسي، فقد ترفع على المناصب مهما كان علوها، فماذا نقول في المتصارعين اليوم على مناصب إدارية في الجامعة !

لا يمكن لنا الوفاء لسعد الله إلا بمواصلة طريقه في بعث تاريخنا، خاصة المهمل والمسكوت عنه كما فعل هو عندما حرص على البحث في ما خفي من تاريخ الجزائر بتفضيله تغطية فترة (1900 ـ 1930) كموضوع لأطروحة دكتوراه دولة في الولايات المتحدة، والتي لم يقترب منها أحد، ويقول أنها "تكاد تكون مجهولة" أنذاك طبعا، وكان بمقدوره إختيار موضوعا سهلا يكفيه عناء البحث كما يفعل البعض اليوم.

وكان يشعر بمهمة ملقاة على عاتقه وهي تغطية تاريخ الجزائر كله بكل جوانبه، ويظهر ذلك من خلال مجلداته العشر حول "تاريخ الجزائر الثقافي" في

العهدين العثماني والاستعماري، التي تحولت دليلا في هذا المجال أمام الباحثين الذي لم يبق لهم إلا التعمق في مواضيعه بالتوسع والنقد والتحليل، ويعود تركيزه على الجانب الثقافي إلى شعوره بأن هناك فراغا في هذا المجال وإقتناعه بأهمية الثقافة في عملية بناء الأمم. يكمن وفاءنا لسعدالله في مواصلة العمل في مختلف ورشات البحث التي فتحها، فسيكون راضيا بطلبته إذا واصلوا عمله الضخم "تاريخ الجزائر الثقافي" الذي أعترف ضمنيا بأنه في الحقيقة كتب شذرات فقط منه، وفتح مدخلا للغوص فيه، ويجب الإعتراف أنها ليست كل تاريخ هذه الثقافة، لأنه ركز فقط على جانبها المكتوب، خاصة بالعربية، ويعود ذلك إلى ضخامة المشروع وضيق الوقت وفقدانه لحقيبته التي كانت تحوي العديد من المخطوطات والوثائق في مطار هيثرو بلندن، والتي تألم لها أشد الألم، وكم كان يتمنى إعادة النظر في الكثير مما ورد في جزئه العاشر الذي تم تحت ضغوط شتى.

ويعد سعدالله من أشد العارفين أن ثقافة الأمة الجزائرية أشمل من ذلك بكثير، فهي ليست فقط المكتوبة منها، بل هناك الثقافة الشفوية والشعبية التي تمثل بحق روح الأمم الحقيقية حسب الألماني هردر، فهل أولينا أهمية أكثر لهذا الجزء الهام من ثقافتنا، وهناك أيضا ثقافة معبر عنها باللاتينية في القديم وبالفرنسية اليوم، لكن بروح جزائرية، ومنهم آبولي وفرنتون والديب ومعمري وياسين وآخرين، أفلم يقل مولود فرعون"أكتب بالفرنسية لأقول للإستعمار أني جزائري"؟.

وهناك أيضا ثقافة أمازيغية بمختلف لهجاتها يجب علينا جمعها وترويجها، ولا يخفى علينا أن سعدالله كان قوميا عربيا في الستينيات قبل أن يتراجع عنها في التسعينيات، فأصبح ينظر بعين موضوعية إلى بعض القضايا المطروحة في بلادنا،

فتخلى عن تلك التهمة الجاهزة التي روجها البعض من القوميين العرب، والقائلة أن فرنسا وراء محاولة إحياء هذه الثقافة، والتي هي جزء لا يتجزأ من ثقافتنا، فقد سعى بدوره في التسعينيات إلى بعث هذا التراث مثل إحيائه كتاب "الحوض" لمحمد بن علي بن إبراهيم السوسي التلمساني في الفقه، والمكتوب بالأمازيغية بحروف عربية، وأعترف أن الأمازيغية لغة، وليست لهجة، كما كان يشاع من قبل، وكتب بها أجدادنا بعد اعتناقهم الإسلام بحروف عربية، ولا تختلف في ذلك عن لغات الشعوب الإسلامية الأخرى غير العربية، ودعا إلى الاهتمام بالتراث المكتوب بالأمازيغية، وبحث في العلاقة بين الأمازيغية والحميرية التي هي أصل العربية، فهاجسه في ذلك كله القضاء على التفرقة التي زرعتها كل من فرنسا والبعض من القوميين العرب، فقد أرقته في التسعينات مسألة الحفاظ على وحدة الأمة الجزائرية برأب الصدع بين مختلف مكوناتها الثقافية دون أي إقصاء لأي منها.

لا يمكن لنا الوفاء لسعدا لله إذا لم نلتزم بنصحه طلبته بكثرة الكتابة، فهو يحب كثيرا "القلم السيال"، فليس الوفاء لسعدا لله بترديد أفكاره وأطروحاته، بل بالأخذ بأخلاقه وتواضعه وأساليب عمله والتزامه الأكاديمي والجد والانضباط والصرامة في العمل والقبول بالرأي الآخر حتى ولو جاء من طلبتنا، ورفضه حضورا لملتقيات الفلكلورية التي تتخذ من العلم والتاريخ غطاء للزردات وتبذير المال العام، ثم هنيئا قرير العين يا شيخنا، فإن هناك الكثير من طلبتك سيواصلون روح رسالتك العلمية، فالعلماء خالدون على عكس اللاهثون وراء المناصب والمغانم.

الأستاذ الدكتور رابح لونيسي

نشر في الموقع بتاريخ: الجمعة 17 صفر 1435هـ الموافق لـ: 2013 ـ 12 ـ 20

13
نداء إلى طلبة أبي القاسم سعد اللّه.. من أجل الوفاء لروحه

03 . 01 . 2014 د. رابح لونيسي جامعة وهران

شاء القدر أن يرحل عنا شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد اللهّ، ويوارى التراب في نفس يوم دفن مانديلا، فإذا جمع مانديلا العالم حوله لأخلاقه ومواقفه، فإن سعد اللهّ يجمع حوله كل المثقفين ـ خاصة الجزائريين ـ لعلميته وأخلاقه العالية جدا، وسبق أن كتبنا عن ذلك من قبل عندما تأسّفنا لعدم خوضه في تاريخ الثورة، بسبب خشيته من تغلب الذاتية عليه بفعل مشاركته فيها، فيقول: "أعتقد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسؤوليتهم"، وعلّقنا على ذلك بالقول: "كم كنا نتمنى أن يكتب فيها، لأنه من المؤرخين القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة العلمية والأخلاق، وأننا نعلم أن أخلاقه العالية جدا وصدقه ستجعل من كتابته في هذا التاريخ أكثر قربا إلى الموضوعية، وأننا نعلم إن كانت فيه بعض الذاتية فإن ذلك دون تعمد منه".

فكما يستلهم العالم من روح مانديلا في بناء دولة ديمقراطية خالية من التمييز والعنصرية، فعلى مؤرخينا وطلبة سعد اللهّ ـ وأنا أحدهم ـ الاستلهام من سلوكاته.

فليس من الوفاء لسعد اللهّ ترديد مقولاته وطروحاته دون نقد وإعادة نظر، لأنه مناقض لمنهجه، حيث كان يترك لطالبه حرية الطرح، فعندما أشرف عليّ في رسالة حول الفكر القومي العربي لم يمنعني من نقد هذا الفكر الذي رأيت فيه

خطرا على وحدة أقطارنا ـ خاصة في مغربنا الكبير ـ بعد غوصي العميق في مختلف توجهاته، لكنه اشترط عليّ فقط القدرة على الدفاع عن طروحاتي، بالرغم من أنه كان متعاطفا مع هذه الأفكار التي تراجع عنها فيما بعد.

يكمن الوفاء لروح سعد اللهّ في احترام حريات طلبتنا في الطرح والاكتفاء فقط بتوجيههم علميا ومنهجيا، وأيضا باستلهام أخلاقه العالية، خاصة تواضعه، حيث فضّل البقاء مع طلبته في مدرجات الجامعة على تولي المناصب، وعانى كثيرا برفضه الوزارة في حكومة غزالي، والذي فُهم أنه موقف سياسي، فقد ترفّع عن المناصب مهما كان علوها، فماذا نقول في المتصارعين اليوم على مناصب إدارية في الجامعة!

لا يمكن لنا الوفاء لسعد اللهّ إلا بمواصلة طريقه في بعث تاريخنا، خاصة المهمل والمسكوت عنه، كما فعل هو عندما حرص على البحث في ما خفي من تاريخ الجزائر بتفضيله تغطية فترة) 1900 ـ 1930 (كموضوع لأطروحة دكتوراه دولة في الولايات المتحدة، والتي لم يقترب منها أحد، ويقول إنها "تكاد تكون مجهولة" آنذاك طبعا، وكان بمقدوره اختيار موضوع سهل يكفيه عناء البحث كما يفعل البعض اليوم.

وكان يشعر بمهمة ملقاة على عاتقه وهي تغطية تاريخ الجزائر كله بكل جوانبه، ويظهر ذلك من خلال مجلداته العشرة حول "تاريخ الجزائر الثقافي" في العهدين العثماني والاستعماري، التي تحوّلت دليلا في هذا المجال أمام الباحثين الذي لم يبق لهم إلا التعمق في مواضيعه بالتوسع والنقد والتحليل، ويعود تركيزه على الجانب الثقافي إلى شعوره بأن هناك فراغا في هذا المجال واقتناعه بأهمية الثقافة في عملية بناء الأمم.

يكمن وفاؤنا لسعد اللهّ في مواصلة العمل في مختلف ورشات البحث التي فتحها، فسيكون راضيا بطلبته إذا واصلوا عمله الضخم "تاريخ الجزائر الثقافي"، الذي أعترف ضمنيا بأنه في الحقيقة كتب شذرات فقط منه، وفتح مدخلا للغوص فيه، ويجب الاعتراف أنها ليست كل تاريخ هذه الثقافة، لأنه ركز فقط على جانبها المكتوب، خاصة بالعربية، ويعود ذلك إلى ضخامة المشروع وضيق الوقت وفقدانه لحقيبته التي كانت تحوي العديد من المخطوطات والوثائق في مطار هيثرو بلندن، والتي تألم لها أشد الألم، وكم كان يتمنى إعادة النظر في الكثير مما ورد في جزئه العاشر الذي تم تحت ضغوط شتى.

ويعد سعد اللهّ من أشد العارفين أن ثقافة الأمة الجزائرية أشمل من ذلك بكثير، فهي ليست فقط المكتوبة منها، بل هناك الثقافة الشفوية والشعبية التي تمثّل بحق روح الأمم الحقيقية حسب الألماني هردر، فهل أولينا أهمية أكثر لهذا الجزء الهام من ثقافتنا، وهناك أيضا ثقافة معبّر عنها باللاتينية في القديم وبالفرنسية اليوم، لكن بروح جزائرية، ومنهم آبوليوس وفرنتون وديب ومعمري وياسين وآخرين، أفلم يقل مولود فرعون "أكتب بالفرنسية لأقول للاستعمار إنني جزائري"؟

وهناك أيضا ثقافة أمازيغية بمختلف لهجاتها يجب علينا جمعها وترويجها، ولا يخفى علينا أن سعد اللهّ كان قوميا عربيا في الستينيات قبل أن يتراجع عنها في التسعينيات، فأصبح ينظر بعين موضوعية إلى بعض القضايا المطروحة في بلادنا، فتخلى عن تلك التهمة الجاهزة التي روّجها البعض من القوميين العرب، والقائلة إن فرنسا وراء محاولة إحياء هذه الثقافة، والتي هي جزء لا يتجزأ من

ثقافتنا، فقد سعى بدوره في التسعينيات إلى بعث هذا التراث مثل إحيائه كتاب "الحوض" لمحمد بن علي بن إبراهيم السوسي التلمساني في الفقه، والمكتوب بالأمازيغية بحروف عربية، واعترف أن الأمازيغية لغة وليست لهجة، كما كان يشاع من قبل، وكتب بها أجدادنا بعد اعتناقهم الإسلام بحروف عربية، ولا تختلف في ذلك عن لغات الشعوب الإسلامية الأخرى غير العربية، ودعا إلى الاهتمام بالتراث المكتوب بالأمازيغية، وبحث في العلاقة بين الأمازيغية والحميرية التي هي أصل العربية، فهاجسه في ذلك كله القضاء على التفرقة التي زرعتها كل من فرنسا وبعض القوميين العرب، فقد أرّقته في التسعينيات مسألة الحفاظ على وحدة الأمة الجزائرية برأب الصدع بين مختلف مكوناتها الثقافية دون أي إقصاء لأي منها.

لا يمكن لنا الوفاء لسعد اللهّ إذا لم نلتزم بنصح طلبته بكثرة الكتابة، فهو يحب كثيرا "القلم السيال"، فليس الوفاء لسعد اللهّ بترديد أفكاره وأطروحاته، بل بالأخذ بأخلاقه وتواضعه وأساليب عمله والتزامه الأكاديمي والجد والانضباط والصرامة في العمل والقبول بالرأي الآخر حتى ولو جاء من طلبتنا، ورفضه حضور الملتقيات الفلكلورية التي تتخذ من العلم والتاريخ غطاء للزردات وتبذير المال العام.. نم هنيئا قرير العين يا شيخنا، فإن هناك الكثير من طلبتك سيواصلون روح رسالتك العلمية، فالعلماء خالدون على عكس اللاهثون وراء المناصب والمغانم.

14
وداعا سعد الله

الأستاذ الدكتور إبراهيم الونيسي

لقد رحل عنا إلى الأبد أستاذ الأجيال، وشيخ المؤرخين الجزائريين، لقد رحل عنا صاحب الأخلاق الرفيعة العالية والسامية، لقد رحل عنا ذاك الذي كان قمة في التواضع والبساطة، لقد رحل عنا ذاك الذي كان يتحفنا بكتاباته الرائعة الغنية الدسمة والهادفة.

لقد رحل صاحب الانجاز العظيم، والذي سيخلده أبد الدهر، صاحب المعلمة الخالدة "تاريخ الجزائر الثقافي" بأجزائها العشرة التي تجاوزت عدد صفحاتها أربعة ألاف صفحة، مسجلا فيها أروع صفحات التاريخ الثقافي الجزائري على امتداد خمسة قرون، وهو الانجاز الذي لخصه في رسالة بعثها لي من الولايات المتحدة الأمريكية عندما هنأته بصدور الكتاب "... وقد أصبح الآن تراثا وطنيا واني سعيد أنني أنجزته رغم الصعوبات المعروفة والمتصورة، والتي لا يمكن أن تخطر على قلب بشر". والتي تحدث عنها بإسهاب في الجزء السادس من (مسار قلم) والتي وصلت إلى حد المصاعب المالية وما يترتب عنها من مشاكل كثيرة، ورغم كل ذلك رفض كل الإغراءات التي عرضت عليه وعلى رأسها الجنسية الأمريكية، لأن سعد الله كان مغرما بحب الجزائر، ولأن قلبه كان ينبض بتاريخ هذه الأمة، وتحدى كل المصاعب والمشاكل من أجل أن يقدم أغلى هدية لوطن كان ينزف دما خلال تسعينيات القرن العشرين.

لقد رحل سعد الله وفي نفسه شيء من تاريخ الجزائر الثقافي. لقد رحل دون أن يكرم تكريم دولة، ولكن كل من عرف سعد الله عن قرب يدرك جيدا أنه لم يكن ينتظر تكريما من أي كان، لأن التكريم الحقيقي الذي حضي به سعد الله طيلة حياته الغنية الزاخرة بالمؤلفات الكثيرة، هو الحب الشديد الذي يكنه له طلبته الذين تخرجوا على يديه، والآلاف من محبيه، وهؤلاء هم الذين سيحفظون هذا الاسم، وسيحفظونه للأجيال القادمة من خلال الاهتمام بفكره والحفاظ على مبادئه السامية التي ظل يناضل من أجلها طيلة حياته، وهذا الحب هو أكبر وسام كان معلقا على صدر سعد الله حيا، وسيبقى هذا الوسام مرتبطا باسم سعد الله ميتا. ولقد ذكر لي هو بنفسه ما يشبه هذا الكلام في رسالة له مؤرخة في 4 أكتوبر 1999 "... وأكرر لك بأني لم أكتب الكتاب ولا غيره مما ألفت لكي أمدح أو أجاز، إن همي هو منح الجزائر تاريخا يشرف أجيالها الماضية والقادمة، وأنت تعرف أنني كنت أكرر دائما بان الجزائر قد عرفت ثورات كثيرة ومؤلفات قليلة وحماها أبطال وثوار، ولكنها لم تلد إلا القليل من النوابغ والعباقرة في الآداب والفنون والعلوم، وإننا الآن نريد عقولا مفكرة لا أيدي تبطش وتتعسف"

لقد رحل عنا الأستاذ سعد الله إلى الأبد ولكن كتاباته الكثيرة ستبقى شاهدة على رجل وهب نفسه لخدمة الثقافة والفكر في الجزائر وإعادة بعث تاريخ هذا الوطن الذي أحبه بشكل جنوني وكان كل جزء من جسمه يتغنى حبا به وكان همه الأول والأخير تسجيل صفحات تاريخه ونفض الغبار عن صفحاته التي لا تزال مجهولة، وحبه الجنوني للبحث العلمي والكتابة جعلته يبتعد عن مناصب المسؤولية مهما كان نوعها وعلوها فكانت السلطة تسعى إليه منذ سبعينيات القرن العشرين ولكن سعد الله كان عنها راغب لأنه وهب نفسه

للعلم والثقافة والفكر وهو ما ذكره لي في رسالة بعث بها لي من الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 15 أكتوبر 1994 حيث كتب يقول: " رغم أنني في هذه النقطة البعيدة قد عرض عليا عمل رسمي من أهل الحل والعقد في الجزائر، لكن اعتذرت بمشروعي العلمي الثقافي وأرجو أن يتفهموا ذلك وأنه أنفع للبلاد والأجيال اللاحق من أي منصب سياسي أو دبلوماسي".

لقد رحل عنا جسدا ذاك الرجل الذي نهض بمهام التعليم في بلاده لأكثر من ثلث قرن ووهب نفسه لخدمة العلم والتأليف منذ أن كان شابا يافعا والذي تكونت على يديه أجيال من الأساتذة والباحثين والذي تفاعل مع قضايا الجزائر بكل قوة دون أن يهمل قضايا وطنه الكبير العالم العربي الإسلامي.

لقد رحل عنا جسدا ذلك المؤرخ والمفكر الذي اهتم كثيرا بتاريخ وطنه الجزائر وبمختلف القضايا المطروحة على ساحتها السياسية والثقافية والاجتماعية بعيدا كل البعد عن منطلق الشوفينية والإقليمية لأنه لم يكن يفرق بين القضايا المحلية الخاصة بالجزائر والعالم العربي الإسلامي فعندما يبحث في قضية معينة فانه يضع نصب عينيه دراسة الجزء من أجل الكل.

لقد رحل عنا ذاك العملاق الذي تألم كثيرا للأوضاع التي آلت إليها الجزائر في العقد الأخير من القرن العشرين وهو الأمر الذي أثر في أسلوب كتابته التي باتت تتميز بنوع من القسوة وكذا بالنقد اللاذع للأوضاع، والكثير من الأمور والقضايا التي عاشتها الجزائر بصفة خاصة والعالم العربي بصفة عامة وقد سألته بنفسي عن هذا التغيير عند صدور الجزء الأول من كتابه "الحركة الوطنية الجزائرية" والسر الكامن وراءه في إحدى الجلسات العلمية التي كانت تجمعني

به من حين لأخر خلال إعدادي لأطروحة الماجستير والتي كانت تحت إشرافه خلال شهر جوان 1991 إذ قلت له إن الطريقة التي كتبت بها هذا الجزء تختلف تماما عن طريقتك في كتابة الأجزاء الأخرى وإنك ظهرت جد قاس في أسلوبك في هذا الجزء؟ فتبسم وقال: " لست الأول الذي يسجل هذه الملاحظة بشان أسلوبي الذي ظهرت به في كتابة هذا الكتاب بل سبقك إلى هذه الملاحظة الأستاذ أبو العيد دودو" ولم يكمل. وأنا كنت أريد أن يقدم لي أسباب هذا التغير في أسلوبه من أسلوب المهادنة والمسالمة إلى أسلوب النقد القاسي والمواجهة، ولقد حاولت معه مرة أخرى أن أفتك منه إجابة مقنعة لهذا التغير الذي حدث ولكن بدون جدوى وبعدها غادر الجزائر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في صيف 1993، وم أنس القضية وقررت أن أعيد طرح الموضوع عليه في إحدى الرسائل عندما سألني، عن رأيي في مقالته بشان مولود قاسم: "... هل قرأت كلمتي عن المرحوم مولود قاسم التي صدرت في الكتاب الذي نشره عنه ابن نعمان؟ إن لم تقرأها بعد أرجو أن تقرأها وأن تذكر لي رأيك فيها، وهي على كل حال عصارة فكري المكدود في صديق مشهود رحمه الله" فقمت بالرد عليه بتاريخ 25 مارس 1994 حيث حدثته عن رأيي في مقالته بشان مولود قاسم كما ذكرت له أيضا رأيي في التصدير الذي كتبه لكتاب (في قلب المعركة) حيث كتبت قائلا: "... أستاذي العزيز إن الشيء الملاحظ بشكل عام على أسلوبكم في السنوات الأخيرة هو الحدة والعنف الشديد ولقد لاحظت هذا بشكل خاص في كتابكم هموم حضارية.. " وفي 22 ماي 1994 جاءني الرد وافتككت منه الجواب الذي انتظرته منذ 1991 حيث كتب يقول: "... إن الحدة التي تحدثت عنها ربما ترجع إلى القلق الذي أعيشه منذ سنوات وقد تبعثرت الآمال التي عشت لها منذ

الخمسينات فنحن نرى الجزائر ممزقة بعد وحدة وضعيفة بعد قوة، والخطر يتهددها في مستقبلها أكثر من حاضرها، ومن القلق أن مفهوم التاريخ العربي الحديث قد ضاع من منطقتنا فلم نعد ندري ماذا ندرس أو كيف ندرس، فمنذ 1967 والهزائم المادية المعنوية تتوالى على بلداننا وأخرها الهجمة على العراق وإجهاض النضال الفلسطيني أما العالم الإسلامي فهو كرة بين أرجل الآخرين ضربوا بها الشيوعية تارة والرأسمالية تارة وها هي الآن تستعمل لتكسير ذاتها فكيف لا تظهر الحدة على قلمي وانأ اكتب بدمي لا بالحبر ؟ "

وداعا أستاذي العزيز سعد الله، لقد رحلت عنا جسدًا ولكن ستبقى وستضل بيننا فكرًا ومبادئ وأخلاقا... الوداع... الوداع....

تلميذكم الوفي المخلص/ لونيسي إبراهيم
سيدي بلعباس يوم السبت 14 ديسمبر 2013

الملحق الخاص بوداع سعد الله للدكتور إبراهيم لونيسي

بسم الله الرحمان الرحيم

الأخ الأستاذ إبراهيم لونيسي، السلام عليك ورحمة الله، وبعد،

أكتب إليك مستفسرا عن أحوالك الصحية بعد أن انقطعت عني إخبارك ورسائلك.

أرجو أن تكون بخير، فقد كانت رسائلك نافذة أطل من خلالها على واقع البلاد وانقطاعها سبب لي انزعاجا وتوترا، وقد سألت عنك من أعرف فلم يأتني الجواب الشافي.

إنني فسرت انقطاعك بضياع الرسائل، أو بالاشتغال بالتدريس، أو بأحوال العائلة، ولكن الزمن يتقدم، بما يكفي لوصول الرسائل والتوقف عن التدريس وزوال الحرج عن العائلة، ولم يصل ما يفيد غير ذلك.

إذا سألت عني فالأحوال بخير، وإني لا انقطع عن التدريس والتأليف والنشاط العلمي، رغم المعوقات الكثيرة، والله أرجو أن يرزقني الصحة والعافية.

في انتظار أخبارك أتمنى لك التوفيق ومواصلة الإنتاج، هذا وقد قرأت بعض ما كتبت عن الجماعة إياهم فكان قلمك ماضيا ورأيك حاسما، كان الله معك في السر والعلانية، فقد حق الكفاح ووجب الكشف عن المتخاذلين والمارقين وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. والسلام الدائم والرحمة السابغة.

أبو القاسم سعد الله/ جامعة آل البيت

الأردن 16/ 06/ 2000

15
قصة شيخ المؤرخين الجزائريين أبي القاسم سعد الله مع فرنسا الاستعمارية والموالين لها

بلقم: ابراهيم لونيسي

إنها قصة طويلة وعريضة، وكيف لا تكون كذلك وجل كتاباته تتحدث عن فرنسا الاستعمارية وما ارتكبته من جرائم في حق الإنسان الجزائري جسديا وثقافيا وفكريا ومعنويا، بعد اغتصابها لهذا الوطن ذات يوم من أيام سنة 1830 ؟. وكيف لا تكون هذه القصة على ذلك الشكل من الطول والعرض وهي التي حرمته من التعلم في الجزائر فغادرها وهو طفل صغير إلى تونس ولم يكن عمره يتجاوز السابعة عشر ومكث فيها حوالي سبع سنوات، وهي الصفحة الأولى من صفحات قصة سعد الله مع فرنسا الاستعمارية، وهي صفحة يشترك فيها معه كل الجزائريين تقريبا وهو الحرمان من التعليم في وطنهم إلا القليل جدا منهم حيث فرضت الغربة على البعض الذي كان يريد التعلم، فكان نصيبه أن يتغرب عن أهله ووطنه الغربة الأولى إلى تونس، لتتبعها غربة ثانية أطول من الأولى عندما قرر أن يذهب إلى مصر لمواصلة تعليمه الجامعي وكان ذلك سنة 1956 وكم كان خائفا أن يعود إلى الجزائر دون أن يتحقق حلمه بسبب الفاقة والحاجة إلى الأموال وبالتالي العودة إلى " أحضان الاستعمار التي خرجت منها بشق الانفس " [1]. وخلال هذه الغربة المفروضة عليه من الاستعمار الفرنسي الذي

(1) أبو القاسم سعد الله: يوميات مسار قلم(دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 2005) ج 1، ص 22.

حرمه من التعليم في وطنه المغتصب فقد والده الذي لم يره منذ سبتمبر 1955، ولم يسمع بنبأ الوفاة إلا بعد مرور حوالي ثلاثة أسابيع، حيث كان تاريخ الوفاة في 16 نوفمبر 1957 وهو لم يسمع به إلا بعد وصول رسالة إليه فيها نعي الوالد وذلك يوم 6 ديسمبر 1957 " وقد تأثرت جدا وبكيت مدة" [1].

لقد تمكن الأستاذ سعد الله من تحدي كل الصعاب والمشاق إلى غاية 1960 حيث يبدأ غربة ثالثة إلى بلاد بعيدة جدا عن وطنه الجزائر ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية بعد حصوله على منحة من الحكومة المؤقتة الجمهورية الجزائرية ودامت هذه الغربة حوالي سبع سنوات.

فكيف لا تكون هذه القصة طويلة وعريضة، ولغة هذا البلد الاستعماري ظلت تطارده حتى في وطنه الجزائر الذي استعاد سيادته الوطنية ذات يوم من أيام صيف 1962 إذ يقول في يومياته (مسار قلم، الجزء السادس، الصفحة 94): " وصلني بالأمس ـ أي 22 سبتمبر 1994 ـ استدعاء من المكلف بالموظفين بجامعة الجزائر لكي أقوم بإجراءات التقاعد والاستدعاء يعود إلى شهر يوليو، وقد حول من معهد التاريخ في هذا الشهر، وهو مكتوب باللغة الفرنسية، وهكذا تكون جامعة الجزائر قد كافأتني على خدماتي مدة ربع قرن باستدعاء باللغة الفرنسية، كما كان تعييني بها أول مرة في 1967 بالفرنسية أيضا، ومعنى ذلك أننا لم ننجح في مهمتنا ".

إن قصة سعد الله مع فرنسا هي قصة متواصلة الحلقات، فرغم اعترافها بالسيادة الجزائرية على حدودها الجغرافية في 5 جويلية 1962، فإنها لم تتخل عن

---

(1) المصدر نفسه: ج 2، ص 163 ـ 265.

فكرها الاستعماري، وظلت تعامل الجزائر وكأنها ما تزال تابعة لها، وأنها جزء من فرنسا كما ينص عليه دستور 1948، او كما يقول أبو القاسم سعد الله إن هذا الدستور ينص على " أن الجزائر ثلاث مقاطعات فرنسية، ولا يعني ذلك الدمج القانوني فقط ولكن يعني أيضا الدمج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي " [1].

تواصلت هذه القصة إلى غاية أواخر أيامه عندما رفض الذهاب إلى فرنسا للعلاج عندما عرض عليه الآمر وفضل أن يعالج في مستشفى جزائري، وهو مستشفى عين النعجة العسكري " كان رافضا بشدة للعلاج في فرنسا " [2]. ولقد أكد لي صديقه العزيز وابن عمه عبد الرحيم سعد الله ذلك عندما التقيت به في وادي سوف خلال الأربعينية التي نظمت له هناك يوم السبت 25 جانفي 2014، ولقد حدثني في هذا الأمر في مطار قمار عندما كنا نستعد لمغادرته ظهيرة يوم الأحد 26 جانفي 2014 وكنت خلالها واقفا في بهو المطار رفقة الصديق بشير مديني أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة البليدة.

إن قصة الدكتور أبو القاسم سعد الله مع فرنسا الاستعمارية والموالين لها من الجزائريين تتلخص أساسا في تسخير قلمه وجل أبحاثه للكشف عن بشاعة أعمال وجرائم فرنسا الاستعمارية في الجزائر، هذه الفظائع والجرائم التي سنت لها فرنسا قانونا لتمجيدها في فبراير 2005 وتصويرها على أنها "فضائل الاحتلال الفرنسي " على حد تعبير الأستاذ أبو القاسم سعد الله، الذي يقول أن فرنسا بفعل هذا القانون تكون قد بدأت بالهجوم، وبالتالي لم يبقى أمام الآخرين إلا

(1) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 2005) ج 1، ص 320.

(2) انظر جريدة (الشروق اليومي) العدد الصادر يوم: 15 ديسمبر 2013، ص 25.

الدفاع أو الفناء، متسائلا " لماذا لم نبدأ بالهجوم، ولدينا كل الحق وكل المنطق في فتح هذا الباب ؟ ولماذا سكتنا على الاحتلال سكوتا مخجلا منذ اتفاقيات ايفيان ؟..... سكوت أهل المقابر على السجل الفظيع للاحتلال وكأن صفحته قد طويت، هو الذي جعل الفرنسيين اليوم يتطاولون علينا وعلى أمثالنا ويتباهون بأنهم كانوا في بلادنا يقومون بأداء رسالة حضارية لوجه الله والإنسانية. فنحن الذين بسكوتنا أعطيناهم سلاح الهجوم علينا بكل عنجهية. " [1].

ويواصل الأستاذ سعد الله في توضيح المسؤولية الجزائرية في دفع الفرنسيين إلى إصدار هذا القانون بقوله: "... وحتى عندما اعترف المجرم بجريمته وألف كتبا مفصلة عما ارتكبه ضدهم قرءوا ذلك على أنه قصص للتسلية أو أخبار عابرة لا تحرك ساكنا ولا توقظ سادرا. فهم الى الآن لم يطالبوا الدولة التي احتلتهم بالحديد والنار وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم وأرضهم لا بالتعويض ولا بالاعتذار..... لماذا ؟.... ربما لأن حركى الأمس الذين استحقوا اليوم من فرنسا الشكر والتمجيد هم عملاء اليوم الذين يعيشون بيننا في أمن وأمان، وينشرون بيننا ثقافة التسامح والغفران وأصول الصداقة والمصالحة مع من باع فينا واشترى وألغى ثقافتنا وشوه ديننا، وأي تمجيد أرقى من هذا التمجيد للاحتلال ؟ فإذا كان النواب الفرنسيون يشيدون بفضائل احتلالهم لبلادنا فعملاؤهم في الجزائر يشيدون بتلك الفضائل في رمز الثقافة الفرنسية ورفع راية (عفا الله عما سلف)"[2].

---

(1) أبو القاسم سعد الله: مجادلة الآخر(دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 2006) ص 68 ـ 69.

(2) المصدر نفسه ص 70 ـ 71.

وعدد لنا الأستاذ سعد الله العديد من الأسباب التي شجعت المشرع الفرنسي لتشريع هذا القانون: "... لا يتوقعون منا ردود فعل تهدد مصالحهم، ومنها لغتهم المسحورين نحن بها... لأنهم يعرفون أن طابورهم سيدافع عنهم سرا وعلانية.... لأنه سبق للفرنسيين أن شرعوا لنا قوانين ضد هويتنا وديننا ومع ذلك وجدوا منا رهطا ساند تلك القوانين وبررها وحرص على تطبيقها. وكنا نسمي هؤلاء الرهط بالعملاء والجهلة، ولم نكن نعتقد أنه بعد ثورة نوفمبر، سنجدهم بيننا يتصدرون المجالس ويتقدمون الصفوف السياسية والثقافية والإعلامية، ويديرون دفة الأمور الاقتصادية.... "[1].

إن الفظائع والجرائم الفرنسية المرتكبة في الجزائر على امتداد قرن وثلث القرن، والتي جاء قانون فبراير 2005 لتبييضها لا تظاهيها في الشبه سوى أعمال التتار الذين غزو بغداد في زمن مضى " لقد قالوا أنها عملية عسكرية تأديبية انتقامية، تؤدي دورها ثم تعود من حيث أتت، سحابة ثم تنقشع. ولكن الحملة استغرقت قرنا وربعا وكانت تبدو لأصحابها بلا نهاية، والسحابة تحولت إلى ظلمات بعضها فوق بعض وكلما حاولت الشمس أن تخترقها ازدادت عتوا وسوادا، يالله، هل هناك حد للحقد والتعصب والجشع وحب التسلط ؟ ومع ذلك لم يبقى التتار إلا بضعة أيام، أما الفرنسيون فقد بقوا أكثر من قرن "[2].

ووضح في أحد حواراته فكرة ربطه بين غزو التتار لبغداد وغزو الفرنسيين للجزائر التي وردت في مقدمة الجزء الأول من موسوعته (الحركة الوطنية

---

(1) المصدر نفسه: ص 71.

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، ص 15.

الجزائرية) " أن التتار لم يتلبثوا في بغداد إلا كما تلبث العاصفة، لقد مروا من هناك فخلفوا ما يخلفه الإعصار من دمار، ثم نبتت الحياة بعدهم وزهت بغداد من جديد، أما إعصار الاحتلال الفرنسي فقد استمر قرنا وربعا، وهو إعصار يمثل في حياتنا مرحلة من الهول والدمار الشامل للإنسان والأرض والحضارة، وفي بطء حركة الاستعمار حدثت تحريفات وأخاديد لا تزول بسهولة، وفي سرعة حركته آلام وجراح طالما أتت منها الأيتام والثكالى وقلوب المبعدين عن الأهل والولد والوطن، أولائك الذين قضوا حياتهم في (غوانتنامو) الفرنسية دون أن يسمع أَحَدٌ صراخهم أو يحس أَحَدٌ بأشواق قلوبهم إلى الحرية، إن هناك أوجها للمقارنة بين مرور التتار بالعراق ومرور الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ولكننا نخشى أن يظهر من أبناء جلدتنا من يدافع عن الاستعمار الفرنسي لبلادهم بدعوى أن التتار قوم آسيويون متوحشون أما الفرنسيون فقوم أوروبيون متحضرون "[1].

وأنا متأكد بشكل كبير أن الأستاذ سعد الله يعرف حق المعرفة أن هناك الكثير من الجزائريين الذين رفعوا لواء الدفاع عن فرنسا الاستعمارية من أبناء الجزائر بعد استرجاعها لسيادتها الوطنية ولقد اكتوى منهم الأستاذ كثيرا عبر مختلف العقود التي عاشتها الجزائر بعد استرجاعها للسيادة الوطنية في 5 جويلية 1962، وهذه المعرفة المؤكدة هي التي دفعت به إلى أن يكتب رائعته " أتيناك طائعين" والتي يتحدث فيها عن خنوع جل حكام العرب الواقعة دولهم على حوض البحر الأبيض المتوسط الذين هرولوا للمشاركة في اجتماع (الاتحاد من

---

(1) انظر الحوار كاملا في كتابه: حاطب أوراق (عالم المعرفة، الجزائر 2010) ص ـ ص 279 ـ 302.

أجل المتوسط) الذي انعقد بالعاصمة الفرنسية باريس بقيادة الرئيس الفرنسي ساركوزي خلال شهر الثورة الفرنسية، شهر جويلية سنة 2007، والرئيس الجزائري كان من المهرولين، وهذا المشروع في حقيقته هي محاولة فرنسية لإحياء مشروع الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت والذي كان قد سعى لتجسيده بقوة الحديد والنار في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وخطط لأن تكون مصر والجزائر القاعدتين الأساسيتين لتنفيذه إلا أن تحالف الدول الأوربية ضده، والإطاحة به في معركة واترلو قضت على حلم نابليون ليأتي ساركوزي بعد قرنين من الزمن ليبث الروح من جديد في هذا المشروع.

بدأ الأستاذ سعد الله مقالته بالقول: "أخيرا أتيناك طائعين يا باريس يقودنا شيخ القبيلة وبعيرها، ومعه الخيمة وعمودها، فلا تغضبي عنا ولا تتوجسي منا، فنحن لا نستغني عنك طرفة عين، أتيناك عاشقين نمرغ جباهنا على ترابك العاطر ونستنشق هواءك الساحر، لا تغضبي عنا، فأنت عندنا بلسم الجراح ودواء القلوب القريحة، وأنت مدينة النور، وماحية الديجور، ومانحة الحرية والمساواة ؟" [1].

إن الأستاذ سعد الله في هذه الرائعة، التي قدم لها بالقول أنها نوع من الكتابات الرمزية فيجب ألا تحمل على ظاهرها عند قراءتها، كأنه يتحدث على لسان الكثيرين من (أهل الجزائر) الذين يستنكرون في دواخلهم عملية طرد فرنسا الاستعمارية من الجزائر ويتحدث أيضا على لسان أحفاد المآت من الأعيان والقياد والبشآغاوات الذين خدموا فرنسا بكل إخلاص طيلة وجودها على هذه الأرض الطيبة الطاهرة، هؤلاء الأعيان والقياد والخدام المطيعين الذين تحدث عنهم الأستاذ سعد الله في

(1) أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف (عالم المعرفة، الجزائر 2010.) ص 18.

الكثير من كتاباته ودراساته " لقد انقضى الجيل الذي رفع السلاح في وجهك ولم يرع لك حرمة ولا ذمة، ولم يخف من جبروتك وعزتك، غاب الآن الشهداء والمجاهدون الأصلاء، وسكنوا قبور النسيان، ولو كانوا أحياء لأذقناهم وبال أمرهم ولعاقبناهم العقاب الأليم، ألا نفعل ذلك اليوم مع أبنائهم وأحفادهم ومن تفرعوا منه؟ ألم يكن فينا أعيان وقياد وباشغوات خدموك بكل إخلاص ومازالت مآثرهم مسجلة في دفاترك ووثائق مخابراتك ؟ أليس قائد الأمس قادر على أن يلد قائدا مثله أو أفضل منه ؟ إن من أمثالنا: (ولا تلد الحية إلا الحية) أو تحسبين أننا قوم ننكر الجميل، ونكفر بالنعمة ؟" [1].

لقد خص الأستاذ أبو القاسم سعد الله هؤلاء الآباء الذين خدموا فرنسا بكل إخلاص منذ دخولها التراب الجزائري سنة 1830 بالعديد من الوقفات في الكثير من كتبه، حيث سعى من وراء ذلك إلى الكشف عن الوجه الآخر للإنسان الجزائري، ذلك الإنسان الخاضع الخانع للمستعمر الفرنسي والذي قدم له العديد من الخدمات الجليلة، مثل أولئك الذين رافقوا ليون روش في رحلته إلى الحجاز سنة 1841 من أجل الحصول على موافقة علماء مكة المكرمة على فتوى شرعية احتاجتها فرنسا لوقف الجهاد في الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر ويقول الأستاذ سعد الله بشان هذه الفتوى " أننا لا نملك النص الأصلي للفتوى الفرنسية التي قيل أن الذي صاغها هو الشيخ محمد الصغير التجاني وبعض مقدمي الزوايا الموالية لفرنسا " [2]. أما الذين رافقوا ليون روش في هذه الرحلة

---

(1) المصدر نفسه، ص 18.

(2) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر(دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 2005) ج 5، ص 36.

فهما الميلود بن سالم الاغواطي ويحيى البوزيدي، وكانا من اقتراح الشيخ محمد الصغير التجاني[1].

وتحدث أيضا الأستاذ سعد الله عن مرافق جيرفي كورتيلمون في رحلته إلى مكة سنة 1894 وهو الحاج أكلي الذي وصفه كورتيلمون بأنه كان صديقا وفيا لفرنسا، ومهمة صاحب هذه الرحلة هو أخذ موافقة علماء مكة على فتوى حضرتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر جوهر مضمونها لا يختلف عن جوهر مضمون الفتوى التي ذهب من اجلها ليون روش سنة 1841، فهي فتوى تهدف إلى تثبيط حركة الهجرة من الجزائر ومنع الثورات ومقاومة تأثير الجامعة الإسلامية، واعتبار الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي دار سلام وليست دار حرب[2].

وكشف لنا الأستاذ سعد الله بأسلوبه الشيق عن أسماء بعض الجزائريين الذين رافقوا بعثات فرنسية علمية استكشافية إلى دواخل القارة الإفريقية، بهدف جمع المعلومات المختلفة عن هذه المناطق خدمة للتوغل الفرنسي الاستعماري فيها، ومن بين هؤلاء أحمد بن مشقان، وهو من نواحي تيزي وزو، والذي كان مترجما عسكريا احتياطيا في الجيش الفرنسي حيث جند في إحدى البعثات الفرنسية إلى إفريقيا، وأثناء سير البعثة حاول إقناع التجار العرب في منطقة (البورنو) بأن من مصلحتهم توقيع معاهدة مع الفرنسيين لكي يحفظوا حقوقهم التجارية والمبادلات في الصحراء، ولكي يحصلوا على الأسلحة، وبشكل عام فإن ابن مشقان قدم على غرار الكثير من زملاءه خدمات كثيرة جدا

(1) أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي(دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 2005) ص 325.

(2) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص ص 41 ـ 46.

للإدارة الفرنسية من اجل ترسيخ أقدامها في بعض المناطق الإفريقية وبالتالي كان من حقه أن يطمح في الحصول على الترقية وتعيين رسمي بعد أن قضي ثماني سنوات في الخدمة اعترف الجميع بأهميتها لفرنسا، ولكن ظنه قد خاب " لان الفرنسيين كما رأينا مع غيره كانوا يأكلون الثمرة ويلفظون النواة "[1].

ونذكر أيضا ابن حمودة الشرشالي الذي عين في بدايات القرن العشرين معلما في مدرسة سان لويس بداكار (السينيغال) والتي كانت موجهة لتخريج القضاة المسلمين والمترجمين والمعلمين، ويذكر الأستاذ سعد الله أن الشرشالي هذا كتب من داكار يشيد بانجازات فرنسا في الجزائر ويعتبر ثقافته ثمرة من ثمارها، واعتبر قانون 1865 الذي جعل الجزائريين رعايا فرنسيين، حجر الزاوية في التقدم، وكانت كلمته التي اسماها (خطبة) عبارة عن شعر غزل ومدح ووله بفرنسا[2].

وتحدث الأستاذ سعد الله أيضا كثيرا عن قدور بن غبريط الذي كان أحد أقطاب الإدارة الفرنسية في المغرب الأقصى في بدايات القرن العشرين قبل أن يتولى مسؤولية جامع باريس كإمام، وقد شارك ابن غبريط في مهمات دقيقة للفرنسيين، منها تولي عضوية البعثة الفرنسية إلى الشريف حسين في مكة المكرمة سنة 1916، وبشكل عام فإن الأستاذ سعد الله يقول عن ابن غبريط هذا أنه لعب "دورا هاما ومشبوها في السياسة الاستعمارية الفرنسية "[3].

قام الأستاذ سعد الله بدراسة وتحليل الأساليب والأشكال التي وضفتها

---

(1) المصدر نفسه، ص 62ـ64.

(2) المصدر نفسه، ص 74.

(3) انظر عنه كتاب: علي خطي المسلمين (عالم المعرفة، الجزائر 2009) ص ـ ص 66ـ 135.

الإدارة الاستعمارية في تعاملها مع بعض هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم تحت تصرفها كخدام مطيعين، وهم الذين كانت تسميهم الإدارة الفرنسية بالارستقراطية العربية أو القيادات العربية، إذ أنهم بعد أن قدموا للإدارة الاستعمارية العديد من الخدمات طيلة الفترة مابين 1830 ـ 1860 شرعت في تدميرهم والقضاء عليهم حتى أصبح عددهم قليلا جدا في نهايات القرن التاسع عشر، وذلك في دراسته الرائعة (آخر الأعيان ونهاية الأرستقراطية العربية) [1].

تناول في هذه الدراسة الكيفية التي تمت فيها عملية الاختفاء والأساليب التي اتبعتها الإدارة الفرنسية في التعامل مع بقايا الارستقراطية العربية، ويذكر أن الحاكم العام جول كامبون (1891 ـ 1897) فكر في إقامة حفلة بمدينة الجزائر ودعا إليها خمسة وعشرين من أعيان الجزائريين الذين يتكون دخلهم من ستة ألاف فرنك فلم يجد سوى ستة أفراد منهم، وبعد استغرابه من اختفاء الأجواد ذهب جول كامبون ليخطب أمام مجلس الشيوخ الفرنسي ويعلن أمامهم يوم 18 جوان 1894 إنه لم يبق في الجزائر من الوسطاء الكبار بين فرنسا و(الأهالي) سوى الهباء المنثور، ويؤكد مستشارو الحاكم العام أن الحكم المدني والتوسع فيه (1871 ـ 1891) قد قضى على نفوذ القيادات العربية، وبذلك انتهى الجيل الذي تعاون مع جنرالات الاحتلال في القضاء على المقاومة الوطنية. انتهى أيضا عهد الأبهة والقنطازية والفروسية الذي ميز حكم الأجواد والمخازنية في العهد الفرنسي الأول، ولم يبق منه سوى ذكريات وأساطير وأشباح تظهر في المناسبات في شكل برنس أو عمامة (قنور) أو سيف قديم.

---

(1) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق ص ـ ص 92 ـ 114.

ويقول الأستاذ سعد الله " أن الفرنسيين قضوا منهم الوطر وحكموا بهم البلاد في مرحلة معينة ثم حان وقت التخلص منهم وحتى من أبنائهم وأحفادهم " [1]. ويذكر أيضا أن أحد هؤلاء الارستقراطيين وهو أحمد ولد القاضي الذي كان أغا على منطقة فرندة، وأحد أحفاد مصطفى بن إسماعيل الذي قاتل الأمير عبد القادر حتى بترت ذراعه اليمنى دفاعا عن فرنسا، ثم قطعت رأسه في إحدى معاركه ضد الأمير، قد سجن سنة 1881 بمقتضى قانون الأهالي ـ الأندجينا ـ الذي يحرم على الجزائريين الاجتماع دون رخصة، وبعد خروجه من السجن كتب كتابا ينوه فيه بدور الدوائر والزمالة في خدمة الفرنسيين ويذكر أبناءهم ـ وهو منهم ـ الذين أصبحوا مهملين وربما تكون فكرة الكتاب قد وردت عليه وهو في السجن يعض الأنامل من الغيظ والندم.

وبعد استغراب جول كامبون (أو تشفيه) من اختفاء الإطارات الجزائرية العليا في التسعينيات حاول ترقيع الوضع فأوصى باستعادة الأرستقراطية العربية بتكريم القدماء منهم، وجعلهم ديكورا يجملون به حفلاتهم ويضيفون عليها طابعا فلكلوريا غريبا، وبالتالي فان جول كامبون سعى من خلال سياسته الجديدة تجاه هؤلاء الجزائريين خدام فرنسا المطيعين إلى تكريم بقاياهم بجعلهم ديكورا لتجميل الجلسات وحفلات الاستقبال وغيرها. وكذلك الاهتمام بابناهم وأحفادهم وذلك بفرنستهم من خلال إلحاقهم بالمدارس الفرنسية وذلك من خلال دعوته أعضاء مجلس الشيوخ إلى الاهتمام بهذه القضية بقوله لهم: " انه بعد أن فقد الجزائريون وسائطهم وأصبحوا تحت السيطرة الفرنسية المباشرة (سيطرة الغرباء) فانه أصبح

(1) المصدر نفسه، ص 97.

من المحتم على فرنسا أن تخرج من الجزائريين نخبة ملهمة ومشبعة بالأفكار والمشاعر الفرنسية لكي يكون الواسطة الجديدة ". ويقول الأستاذ سعد الله أن جول كامبون شرع فعلا في تكوين هذه النخبة ـ الواسطة في برنامج التعليم الذي طرحه، وهذا معناه انتقال فرنسا إلى مرحلة جديدة من مراحل تطويع الجزائريين وجعلهم خداما مطيعين لفرنسا، مرحلة مبنية على القلم والورقة والفكر بعد أن أصبح السيف والبندقية غير مجد[1].

ولقد تحدث الأستاذ سعد الله في الكثير من كتاباته عن هذه النخبة والدور الذي لعبته في دعم السياسة الفرنسية في محاربتها للغة العربية وفرنسة المجتمع الجزائري، ولقد استمر هذا الوضع على هذه الحالة إلى أن جاءت الثورة التحريرية التي حملة مشروعا ضخما له أبعاد مختلفة ومن ابرز هذه الأبعاد أن تجعل الشعب الجزائري يتصالح مع ذاته ويعمل على استرجاع هويته التي شوهت بشكل خطير، فشجعت عملية التعريب " فكان حدوثها في حد ذاته ضربة قوية للفرنسة وللنخبة الاندماجية، ولقد رسخت الثورة مبدأ الهوية الإسلامية العربية، وشجعت على استعمال اللغة العربية في معاملات الثوار مع المواطنين، وكان القضاء بالعربية والأناشيد بالعربية، فكان الجزائريون يتغنون جماعيا لأول مرة بالأناشيد الوطنية التي تتحدث عن الجزائر العربية المسلمة... وكان الشباب في أعماق الجزائر يتغنون ببعض هذه الأغاني والأناشيد... لقد كانت الثورة حدثا انقلابيا في التاريخ الثقافي للجزائر... الجانب اللغوي

(1) المصدر السابق، ص 111.

والفكري منها... "[1].

ولكن سرعان ما أجهض هذا الانقلاب عشية استرجاع السيادة الوطنية لأن ظروفًا أخرى غير مواتية تغلبت "منها اتفاقيات إيفيان التي نصت على التعاون الثقافي مع الدولة التي كانت بالأمس مستعمرة... ومنها القيادة سقطت في أيد غير الأيدي التي كونتها الحركة الإصلاحية، بل إن القيادة الجديدة رفعت شعار إيديولوجية غريبة عن البلاد باسم (الثورية والتقدمية والعلمية)... وأن رفع الأمية يمكن أن يتم بأي لغة، وليس بالضرورة بالعربية فقط، وأن تعلم اللغة الفرنسية لا يتناقض مع الوطنية فكانت النتيجة بقاء الإدارة فرنسية اللغة، وكذلك الإعلام، والمحيط العام.... "[2].

لقد سمح هذا النهج لبعض أبناء وأحفاد الذي خدموا فرنسا بكل إخلاص طيلة قرن وربع قرن أن يشاركوا في حمل مشعل (الجزائر المستقلة) بعد 1962، وبالتالي فما كان لفرنسا أن تخاف على مستقبل مصالحها في الجزائر، فكتب الأستاذ سعد الله يقول مخاطبا فرنسا " ولماذا تخافين على مستقبلنا المشترك: فألسنتنا لا تسبح إلا بلغتك، وإذ أننا لا نستلذ إلا بموسيقاك الجميلة وأسماء جنودك الذين دوخوا المتمردين عليك ما تزال تزين شوارعنا وساحاتنا وعماراتنا، وكتبك ومجلاتك ولوحات فنانيك ما تزال هي مراجعنا الأساسية، إننا مدينون لك بالوجود والتاريخ والمستقبل، أليست كلمة (ألجي) أحلى من

(1) المصدر نفسه، ص 166.

(2) المصدر نفسه، ص 166 ـ 167.

كلمة الجزائر ؟ أليست (ألجيري) أكثر موسيقية من كلمة القطر الجزائري ؟"[1].

ولقد أشار إلى هؤلاء الأبناء والأحفاد الذين اكتوى منهم كثيرا خلال السنوات الأولى لدخوله الجزائر والشروع في التدريس بجامعة الجزائر في أكتوبر 1967، في يومياته مسار قلم حيث كتب يقول: " إن الطبقة الصغيرة التي كونها الاستعمار هي التي تحكم الآن في البلاد، وهي فاقدة تماما الإحساس بالقومية والعروبة والإسلام... " [2]. وعندما أراد الأستاذ سعد الله الرجوع إلى الجزائر من الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1966، اصطدم بالواقع المر الذي كان يعيش فيه التعليم الجامعي في الجزائر خلال تلك السنوات، إذ كان ما يزال تابعا في كل شيء للنظام الفرنسي حتى في قضية معادلة الشهادات، فإلى جانب عدم وجود ليسانس تاريخ بالعربية في الجامعة، وهذا معناه عدم وجود مكان للأستاذ سعد الله للتدريس في هذه الجامعة خلال السنة الجامعية 1966 ـ 1967، هناك مشكلة معادلة الشهادة التي كان يحملها لتتناسب مع شهادة الدكتوراه (الفرنسية) وليس (الجزائرية) كتب تحت تاريخ (الإثنين 13جوان 1966): "وصلت أمس إلى الجزائر تمكنت اليوم من مقابلة مدير التعليم العالي وعميد كلية الآداب ـ وهو عبد الرحمن الحاج صالح ـ للبحث عن إمكانية العمل في السنة المقبلة بالجامعة، ومن المعلومات التي تحصلت عليها هو أنه لا يوجد بالجامعة ليسانس تاريخ بالعربية، وعلى هذا فليس هناك مكان لي بالجامعة في هذا العام ولكن ربما يكون في العام المقبل حيث يفكرون في إحداث هذه الشهادة بالعربية... التأثير الفرنسي

(1) أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف، ص 19.

(2) أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج 3، ص 261.

واضح جدا والجامعة ما تزال بأيد فرنسية آو مفرنسة " [1].

ويذكر أيضا في الجزء الثالث من يومياته مسار قلم بتاريخ 12 مارس 1967 انه تلقى منذ أربعة أيام رسالة من عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر عبد الرحمان الحاج صالح "يخبرني فيها بمعادلة دكتوراه دكتوراه أمريكا بدكتوراه الدور الثالث الجزائرية، ودعاني إلى العودة وتولي عملا في قسم التاريخ بالجامعة". وبالفعل لبى الدعوة ودخل إلى الجزائر في 7 أكتوبر 1967 ليلتحق بالجامعة مدرسا إلا انه واجه العديد من المشاكل والمصاعب ليتعرف على وضعيته في هذه الجامعة، حيث كتب بتاريخ 5 نوفمبر 1967 " قضيت الأيام الماضية في اتصالات مع المسئولين عن الجامعة لتحديد درجتي وتعديل شهادتي وبدء عملي، فاتصلت بالعميد، ومدير التعليم العالي، وأمين وزارة التربية ثم الوزير نفسه، كل ذلك لم يوصلني إلى النتيجة النهائية وهي معادلة شهادتي، هناك تيار جارف يعمل لصالح الفرنسة في هذه البلاد، وهناك أيضا وقوف صلب في وجه التعريب، وما دمت أنا أمثل الاتجاه العربي المعادي لفرنسا وشهادتي من غير فرنسا فقد وقفوا جميعا عقبة في طريق التعديل (المعادلة) " [2].

وأشار إلى مدى الارتباط الموجود بين الجزائر وفرنسا، وهو ارتباط يصل إلى درجة الانصهار في بعض الأحيان، فيذكر مثلا أن الإضرابات التي عرفتها فرنسا " قد أثرت حتى في إنتاجنا الثقافي وعلى مواصلاتنا فالبريد الخارجي قد توقف وكذلك النقود والجرائد ونحوها " [3]، والغريب أن هذا الارتباط ظل

(1) المصدر نفسه، ص 45.

(2) المصدر نفسه، ص 86 ـ 87.

(3) المصدر نفسه، ص 112.

متواصلا طيلة العقود الموالية إذ وجدناه يشير إلى هذا الارتباط المزمن في العديد من صفحات الجزء السادس من مسار قلم الذي غطى فترة التسعينيات من القرن العشرين، حيث كان يتحدث عن الرسائل والطرود البريدية التي كان لزاما عليها أن تمر على فرنسا إجباريا وبذلك كانت تتأخر كثيرا في الوصول إلى أصحابها، كما انه كان كثيرا ما يحمل جزءا هاما من الأزمة التي كانت تعرفها الجزائر خلال تلك الفترة لفرنسا، والموالين لها من الجزائريين فيقول مثلا في الصفحة 266 " لا تسمع عن الجزائر سوى الانفجارات والذبح وعدد الموتى بالعشرات، لا شك في أن وراء هذه المأساة فرنسا والمتفرنسون "، ويقول أيضا في الصفحة 267 " فرنسا تحمي النظام القائم إعلاميا واقتصاديا، وربما بالمساعدة العسكرية والغرب مختبئ وراء فرنسا... "، كما نجده يحمل في الصفحة 377 مسؤولية اغتيال المغني القبائلي معطوب الوناس للأيادي الفرنسية أو المتفرنسة "هي المسئولة على قتله وهو ضحية فقط، ويبدو انه كان لعبة في أيدي خفية، ولعل هناك لعبات أخرى، معاذ البربر أن يكونوا ضد التعريب والعربية ". وبسبب حنقه الشديد على فرنسا والموالون لها من الجزائريين وأفعالهم المشينة في الجزائر وجدناه في الصفحة 180 من الجزء السادس من مسار قلم يدعو صراحة إلى ضرورة قطع العلاقات مع فرنسا لان الجزائر " لن تبرأ حتى تقطع الصلات مع فرنسا على الأقل عشر سنوات، إن عليها أن تبدأ من جديد ".

لقد كانت للأستاذ سعد الله صولات وجولات كثيرة مع الموالين لفرنسا من الجزائريين على امتداد نصف قرن الذي عاشته الجزائر تحت ظل السادة الوطنية حيث لم يكن يتوانى عن الكتابة عنهم وكشف ألاعيبهم ومواجهتهم في الكثير من المواقف، وربما ابرز هذه المواقف على الإطلاق ذلك الذي وقفه سنة 1988 عندما

أثيرت قضية ثانوية ديكارت بالجزائر العاصمة، كان هو المثقف الجزائري الوحيد، على حد معلوماتي، الذي خاض في هذه القضية بنشره لمقالة في غاية الأهمية بعنوان "الحاج (ديكارت) الجزائري "وقد نشرها في جريدة الشعب بتاريخ 25 ماي1988، ولقد علق على هذه المقالة بعد مرور حوالي سنة من نشرها وذلك في مقدمة كتابة (في الجدل الثقافي) الذي أعاد نشر المقالة فيه بقوله: " أما مقالة (الحاج ديكارت) فقد أحدثت ضجة في الأوساط الثقافية والسياسية لأنها تعرضت الى وضع شاذ كان غير معلن على الناس، وهو وجود عدد من الأطفال الجزائريين في المدارس الفرنسية بالجزائر على الرغم من أن ذلك خاص بأبناء السفراء وأمثالهم، كما أن المقالة نشرت في زمن التوتر بين الحزب والحكومة وهو التوتر الذي سبق عاصفة أكتوبر.... ورغم أنني كتبتها كما أكتب كل مقالاتي بدافع ذاتي ومن مطلق المصلحة العامة، فإن بعضهم قد أولوها على أنها انتصار لفريق دون فريق في ذلك التوتر، وكان من الطبيعي أن تكشف تلك المقالة على مخططات كانت في الخفاء تهدف إلى التخلي عن التعليم العام إلى الخاص وإلى إعطاء الفرنكوفونية في بلادنا حصة الأسد في التعليم المرتقب ".

والكل يعرف ما حدث للأستاذ سعد الله بعد نشره لهذه المقالة بحوالي ثلاثة أشهر فقط وتحديدا يوم 27 أوت 1988 في مطار (هيثرو) بلندن حيث سرقت منه حقيبته التي كانت تحتوي بداخلها بعض كنوزه الثمينة، وأبرزها يومياته التي تغطي الفترة مابين 16 جويلية 1986 و27 أوت 1988، وهي الحادثة التي خلدها بمقالته (نكبة ثقافية) حيث بكى فيها محفظته الضائعة بحرقة وألم شديدين، بكاه بحبر أسود ".... ففي غفلة من الزمن ضاعت مني محفظتي اليدوية التي يعرفها كل من يعرفني منذ عشرين سنة، محفظتي المتآكلة الأطراف التي أصبحت

تنافسني في تقدم العمر وفي التآكل أيضا، فقد أصبحت محفظتي قديمة كما أصبحت قديما، وباتت شيخه كما بت شيخا.... وطارت مني بعد أُلفة دامت ربع قرن، ومع ذلك حزنت على فقدها حزني على كل شيء عزيز وثمين، بل إني كدت اصعف لفقدها لأنها هربت بآمالي جميعا، فحطمت قلبي ورمت بمشاريعي الثقافية في الريح... "[1].

رجح الأستاذ سعد الله أن يكون السارق في هذه العملية هي المخابرات الفرنسية أو الإسرائيلية[2]، ولكن رغم النكبة التي حصلت له وجدناه يعود إلى الحديث عن مدرسة ديكارت بعد مرور حوالي سنة من ضياع حقيبته في مقالة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي بعنوان (أخبار الحاج ديكارت) والتي نشرها في جريدة الشعب يوم 8 جوان 1989، فما هي قصة هذه المدرسة وماذا حدث لها، وماذا كتب الأستاذ سعد الله عنها ؟

كانت ثانوية ديكارت تحت إشراف المركز الثقافي الفرنسي في الجزائر تُطَبَّقُ فيها نفس البرامج التعليمية المطبقة في فرنسا وهي موجهة أساسا لأبناء البعثة الدبلوماسية الفرنسية، والجالية الفرنسية الموجودة في الجزائر، إلا أن هذه المدرسة مع مرور الزمن تحولت إلى قبلة لأبناء بعض المسئولين الجزائريين وكذا بعض أصحاب النفوذ، وأمام استفحال الآمر داخل هذه الثانوية برزت بعض الأصوات المنادية بضرورة منع أبناء الجزائريين من الالتحاق بهذه المدرسة، حيث قامت اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني في إحدى اجتماعاتها

(1) أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي(دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 2005) ص 29.
(2) أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج 5، ص 94.

سنة 1979 بإصدار لائحة تدعو إلى ضرورة وضع حد لوجود الجزائريين في المدارس الفرنسية بالجزائر، إلا أن فريقا من أصحاب النفوذ حاولوا كما يقول الأمين العام لوزارة التربية الوطنية آنذاك بوعبد الله غلام الله، الذي أصبح سنة 1997 وزيرا للشؤون الدينية، أن يمنعوا هذا القرار بكل الطرق ونجحوا فعلا في تجميده حيث طوي الملف مؤقتا [1].

وبعد مرور حوالي تسع سنوات من صدور هذه اللائحة التي تعرضت للتجميد أعاد الرئيس الشاذلي بن جديد فتح الملف من جديد مع وزيرة التربية زهور ونيسي التي تقول أنه أعطى أوامره بضرورة غلق هذه المدرسة، وقد كتبت في مذكراتها توضح هذه القضية "عملت وأنا أطبق الأمر الرئاسي بفتح هذا الملف مع الهيئات المعنية، ومنها الأمانة العامة لرئاسة الجمهورية، والأمانة العامة لوزارة الشؤون الخارجية... حتى تكون القرارات والإجراءات المتخذة في النهاية لا تمس بحال من الأحوال أي طرف من الأطراف، لا طرف البعثة الدبلوماسية الفرنسية وحقوقها المتفق عليها في اتفاقيات إيفيان، ولا الطرف الجزائري وسيادته ومشاعر شعبه، ولا البرنامج التربوي الجزائري، ولا حتى أبناء بعض المسئولين والخواص المستفيدين من مزايا هذه الهيئة الخاصة، رغم تنكرهم لمؤسساتهم التربوية الوطنية " [2].

وتذكر زهور ونيسي في مذكراتها عدة اعتبارات تقول أنها هي التي دفعت

---

(1) محمد تاملت: الجزائر من فوق البركان(بدون دار نشر، الجزائر 1999) ص 8ـ 9.

(2) زهور ونيسي: عبر الزهور والأشواك(دار القصبة للنشر والتوزيع ا، الجزائر 2012) ص 415.

القيادة الجزائرية لفتح هذا الملف ونلخصها في النقاط التالية[1]:

1. تجاوز ثانوية ديكارت لصلاحياتها، وحصلت على العديد من الامتيازات من بعض المسئولين الذين كان أبناؤهم يدرسون فيها
2. تجاوز هذه الثانوية لبعض بنود الاتفاقيات الموضوعة بينها وبين المنظومة التربوية الجزائرية.
3. ووقوعها في مكان هام جدا يتوسط رئاسة الجمهورية وتحاذي وزارة الخارجية.
4. كل تلاميذ المدرسة يقومون في الصباح بتقديم التحية للعلم الفرنسي بما فيهم أبناء الجزائريين الذين كانوا يصلون في الصباح إلى المدرسة على متن سيارات آبائهم الرسمية.

وهذه المدرسة لم يتم غلقها نهائيا بل حولت إلى بن عكنون وتحديدا إلى معهد تكوين المعلمين وأطلق عليها اسم الثانوية الفرنسية الدولية الكسندر دوما. وكانت تقع قريبا من العمارة التي كان يسكن فيها الأستاذ سعد الله في ليزاسفودال قبل أن يرحل إلى دالي إبراهيم في حدود سنة 2007، وذات مرة رافقته من المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بالأبيار إلى مقر سكنه مشيا على الأقدام وكان ذلك في حدود شهر نوفمبر من سنة 2003، وعندما وصلنا بالقرب من المدرسة قلت له هذه هي التي كانت في الأصل ثانوية ديكارت في المرادية فحولت إلى هنا فتبسم وقال لي " إنها من عجائب الجزائر " ولم يضف شيئا.

(1) المصدر نفسه، ص 416.

ولقد أثار هذا القرار الذي اتخذ من أعلى مستويات القيادة الجزائرية ضجة عنيفة، وارتفعت الأصوات المنددة به، وتعالت العديد من الأصوات المطالبة بضرورة الإبقاء على أوضاع، وحالة الثانوية كما كانت، ولقد قامت جماعة من أولياء تلاميذ هذه المؤسسة بمراسلة السلطات الفرنسية يشكون فيها ما لحق أبناءهم من جراء هذا القرار ويطالبونها بالتدخل لوقف هذه الإجراءات، وهو ما أشار إليه الأستاذ سعد الله في المقالة الثانية التي عنونها (أخبار الحاج ديكارت)، المنشورة في جريدة (الشعب) يوم 8 جوان 1989: " ومع ذلك دعنا نتتبع بعض أخبار الحاج ديكارت منذ حوالي عام. فكم من الجزائريين قرأوا أو سمعوا عن البرقية التي أرسلها أولياء تلاميذ ديكارت في ربيع سنة 1988 إلى وزير الخارجية الفرنسية طالبين منه استقبال وفد عنهم لعرض (الحالة المستعجلة والخطيرة) التي كانوا فيها ؟ وبالطبع مرت البرقية (وهي ليست الأولى) [1] فوق أجواء السيادة دون رخصة، معتبرة الجزائر ما تزال (بروفانس) من الوطن الأم. وكانت البرقية تمثل أولياء المؤسسات التعليمية الآتية: ثانوية ديكارت (العاصمة)، ثانوية باستور (وهران)، ثانوية بيير وماري كوري (عنابة)، وكوليج فيكتور هيغو (قسنطينة)"[2].

ويذكر الأستاذ سعد الله أنه حدث وأن التقى مع بن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي قامت بالتوقيع على اتفاقيات إيفيان وقال له: " أرأيت ما تفعل بنا اتفاقيات إيفيان من الناحية الثقافية ؟ (وانا أشير

ـ البرقية الأولى أرسلت يوم 18 أفريل 1988، والثانية أرسلت يوم 16 مايو 1988، وهو تاريخ الدعوة الى تجمع لتأييد الوفد.

(2) أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، ص 126.

بذلك إلى الحملة التي تشنها فرنسا ضدنا فيما يتعلق بمدارس البعثة الفرنسية وقرار الجزائر بمنع الجزائريين من تسجيل أولادهم في هذه المدارس)، فقال ابن خدة وهو يدافع عن موقفه من اتفاقيات إيفيان: إن المسألة ترجع إلينا نحن، فنحن أصحاب السيادة وبإمكاننا أن ندرس بأي لغة نشاء، فلو ألغينا الفرنسية وعوضناها بالإنجليزية لكان ذلك من حقنا، وكل ما كانت فرنسا ستفعله هو الاحتجاج والسخط ثم ينتهي الأمر، إن المسالة مسألة سيادة وإرادة منا، فقلت صحيح، ولكن هناك التزامات على كل حال، فقال وموقفنا من البترول وغيره ؟ هل انتظرنا المفاوضات مع فرنسا ؟ فقلت: صحيح لقد كان قرارًا جزائريا "[1].

وفي هذه الأجواء المضطربة كتب الأستاذ سعد الله مقالته (الحاج ديكارت الجزائري)، وكشف فيها النوايا الحقيقية والأبعاد المختلفة لعملية التغيرات التي أحدثت على مدرسة ديكارت، وعلى رأسها تغيير اسمها من مدرسة ديكارت إلى المدرسة الدولية، وهو التغيير الوحيد الذي مس هذه المدرسة، لأن الجوهر والمضمون بقي على حاله " إن المعروف أن ديكارت عالم مسيحي فرنسي، لم يضع قدمه في الجزائر، ولم يؤدي فريضة الحج ومع ذلك يحاول بعض (الإندماجيين) منا أن يلبسوه عمامة الحاج الصفراء ليقنعونا بأنه (حج وزمزم) وأنه تجزأر واستعرب وتمازغ وأصبح من (المواطنين) الذين لا خوف منهم، بل إن بركته ستفتح لهم عهدا جديدا ليس فقط بين الجزائر وفرنسا، بل بين الجزائر وافريقيا والاخرين، ولذلك لم يطلقوا على المدرسة الجديدة اسم مدرسة (ديكارت) الجزائري ولكن اسم المدرسة (الدولية) ذرا للرماد في العيون، ونشرا

(1) أبو القاسم سعد الله: مسار قلم، ج5، ص 97.

للضباب في الجو حتى لا يرى الناس أن الحاج موسى هو موسى الحاج، وأن صفة (الدولية) هذه لا تكون إلا مع الديكارتية وأن الديكارتية لا تعني مطلقا أن تكون مدرستنا الدولية المقبلة مركزا لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية بين الأفارقة والآخرين، ولكن مركزا لنشر اللغة والحضارة الفرنسية بوسائل جزائرية، وإمكانات عربية إسلامية "[1].

إن ما قاله الأستاذ سعد الله في عموم هذه المقالة يكشف لنا حقيقة تلك الضجة التي أثيرت آنذاك، إنها لم تكن سوى ذرا للرماد في العيون، وأنها محاولة من أصحاب النفوذ لتغطية الشمس بالغربال، أو أنهم لم يفهموا الأبعاد الحقيقية لهذا التغيير فأحدثوا تلك الضجة دون وعي منهم. وما ختم به الأستاذ سعد الله مقالته هذه يؤكد لنا ذلك، وهي كلمات تحمل معاني كثيرة وأبعاد خطيرة، وأظن أنها ما تزال تحمل كل ذلك إلى يوم الناس هذا " لقد بذل الفرنسيون جهودهم منذ كلوزيل وبوجو إلى جونار وفيوليت أن يُكَوِّنوا (نخبة) متفرنسة من الجزائريين تكون واسطة بينهم وبين (الأهالي) داعية للاندماج والتسامح الديني، والتفاهم الحضاري والحوار العلماني والعقلاني والانبطاح السياسي والاقتصادي، ولكنهم لم ينجحوا إلا جزئيا في مشاريعهم، لأن الوعي الوطني وحرارة الإسلام والعروبة كانت تتغلب في كل مرة على محاولاتهم ومخططاتهم، ونحن نرى أن وجود أبناء الجزائريين في مدرسة ديكارت الحالية ما هو إلا استمرار لمخططات كلوزيل وبوجو الخ، فكيف نضع اليوم الحبل حول عنقنا ونؤسس مدرسة بأيدينا وأموالنا لتواصل نفس مخططات الغزو الفكري التي

---

(1) أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، ص 117 ـ 118.

شرع فيها أعداؤنا ضدنا منذ قرن ونصف قرن ؟" [1].

وبعد مرور حوالي سنة على هذه المقالة كتب مقالة أخرى عن الموضوع نفسه بعنوان (أخبار الحاج ديكارت) وقد اشرنا إليها سابقا، والهدف منه هو تتبع بعض أخبار الحاج ديكارت بعد مرور حوالي عام على مقالته الأولى. وأبرز ماكتبه في هذه المقالة قوله: " والحق أننا لا نكتب عن ديكارت بغضا له، أو حبا فيه، وإنما باعتباره رمزا لسيادة سادت ثم بادت، وباعتباره صنما يعبده من لا اله له منا، ويتقرب اليه بعض اللابسين ثوب المسئولية من أهلنا، خوفا منه أو طمعا في بركاته ونواله، بل بعض الذين يعملون بطرق مختلفة على تأبيد حياته بيننا، فكأنه محكوم علينا أن نستضيفه دائما وأن يعيش بيننا الى الأبد"[2].

إن قصة الأستاذ سعد الله مع الذين خضعوا وخنعوا لفرنسا خلال نصف القرن الذي عاشته الجزائر في (ظل الاستقلال) طويلة وعريضة فلو أطلقت العنان لقلمي ليكتب المزيد فانه لن يتوقف إلا بعد تسويد صفحات وصفحات من هذه القصة، ولكن سوف أتوقف هنا وتحديدا عند تلك الدعوة التي وجهها لي أصحاب القرار والحل في الدولة الجزائرية خلال السنوات الأولى من استرجاع السيادة الوطنية، وتحديدا سنة 1967 بضرورة اتخاذ قرارات حاسمة في الميدان الثقافي مثل تلك التي أسرعوا في اتخاذها في الميدان الاقتصادي، وذلك بدعوته إلى تأميم الثقافة الوطنية، لأنه بذلك سيتم تحرير الجماهير والمثقفين من مركب النقص الذي خلقه فيهم الاستعمار الفرنسي، ويبعث فيهم الاعتزاز بتراثهم وتقاليدهم

(1) المصدر نفسه، ص 124.

(2) المصدر السابق، ص 134.

التي حاولت فرنسا الاستعمارية تشويهها والحط من قيمتها[1]. إلا أن شيئا من ذلك لم يتحقق، وهو ما دفعه إلى التعليق على الوضع بألم شديد ومرارة كبيرة سنة 1985 بأن الجزائر التي حاربت الاستعمار الفرنسي بأكبر ثورة تحريرية عرفتها الشعوب المستعمرة، وذلك يعني التضحيات الجسام في الأرواح والعناد الاجتماعي والاقتصادي، ولكنها وجدت نفسها مكبلة بأخطبوط الثقافة الفرنسية لغة ونمط عيش.... الخ، ومعنى ذلك أن الجزائر التي ضربت أروع مثل في قلع جذور الغزو الفكري والاقتصادي والسياسي بالقوة عجزت عن مواصلة نفس الثورة ضد الغزو الثقافي الذي ظهر دعاته بيننا يقولون أن الثقافة الفرنسية قدر من الأقدار لا يمكن التخلص منها شئنا آم أبينا[2].

أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية(دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 2005) ص ص 156 ـ 162.

(2) أبو القاسم سعد الله: قضايا شائكة(دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 2005) ص 97 ـ 98.

16
استهلال من منسق الكتاب

تلقيت هذه الرسالة من صاحبها المفجوع مصطفى داودي وكنت أعتقد أن النص للدكتور **مصطفى وديع جامعة** الزيتونة بتونس الشقيقة -في فقدان الوطن لمؤرخ الأجيال، أو شيخ المؤرخين كما أحليه شخصيًّا من أكثر من عقد من الزمان أو كما يسميه المؤرخ النبيه **إبراهيم مياسي رحمه الله: "مؤرخ الأجيال"** واليوم صديقنا مصطفى داودي يسميه "شيخ الكرام" كما نعته معهد المنهاج بـ"قدوة الباحثين"لقد أرسلت الرسالة كما بعثها صاحبها إلى جريدة الشروق التي وعدت بنشر مواقف أحباب المؤرخ فقيد الجزائر وأمة الإسلام، فكتب:

الأستاذ الأصيل المحترم محمد الأمين بلغيث حيّاك الله بالخير و البركة وبعد لم أجد [إلا] من أكتب في مثل هذا اليوم الحزين على الجزائر والأمة الإسلامية إلا شخصكم الكريم لأني أعلمكم من الرجال في هذه الحياة الذين يعلمون معنى فقد الرجال فلكم كامل العزاء في **فقد المعلم والأب والروح التي نستلهم منها معنى العلم و البحث فيه ومعنى التاريخ والغوص فيه إنه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله** وقد كتبت فيه ما يلي:

رحمك الله يا سعد الله... يا شيخ الكرام
بقلم مصطفى داودي/جامعة زيان عاشور الجلفة

رحمك الله يا شيخ الكرام، وعطّر ثراك وبلّل ضريحك بماء الكوثر. لقد فقدتك الأسرة الأكاديمية وخسرتك الجامعة والبحث العلمي، وفجعت في فقدك الجزائر التي حينما صرخت ونادت يوما يا بنيّ من لي في هذه الظلمة من الاحتلال الفرنسي قهرا وظلما وجورا وإبادة وحرقا وهتكا للأعراض... فقلت أنا دون انتظار لمبادرة الآخرين فصدق فيك قول **طرفة بن العبد**

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أقعد ولم أتبلد

فجعت فيك الأمة العربية والإسلامية لأنك من أهل الهمم الذين لم يضعفهم الحال وتسكنهم مشدات الوهن وزخارف الحياة، فكان قلمك بعّاثا لنور لب الجمال في هذه الأمة وأننا ما خُلِقنا إلاّ أسياد في هذه الحياة يحبون الخير للناس جميعا، كما كان قلمك سيف في وجه جحّاد؟ الخير والفضل والتاريخ فكنت نعم الكاتب للجزائر وللإسلام.

رحمك الله **ياشيخ الكرام** يا من فقدك أبناؤك من أهل التاريخ وأنا منهم لقد كنت نعم الباحث خيارا ومنهجا وناقدا ومقلبا للروايات.

كنت نعم الباحث في الصبر وتحمل المصاعب من أجل الوصول إلى الهدف دون كلل أو ملل ولم تزدك العوائق إلاّ إصرارا على التغلب والاجتهاد في إحداث وسائل الوصول إلى الهدف، كنت نعم الباحث الذي لم يوهنه البعد عن امتلاك وسائل الوصول مثلما أوهن الكثير ولم توهنه قلة العيش وضعف الحال في الانطلاق

للوصول إلى أعلى الدرجات، إنها همم الرجال الذين صدق فيهم قول الشاعر:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال إلاّ على جسر من التعب

إنها همم الرجال الذين أدركوا بأنه ليس كل الموت مغيب بل هناك موت ينبعث منه الخلود في هذه الحياة. وإن ذلك لن يحققه المال وإن زاد ولا المنصب وإن علا، ولا استعباد الناس وإن جلا وجلا وإنها بابه واحد هو العلم، لأن العلماء أصحاب البصيرة هم أكثر قربا لفهم الحياة وما يراد وهم أحق الناس بالفخر:

ما الفخر إلاّ لأهل العلم أنهمُ على الهدى لمن استهدى أدلاّء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدًا الناس موتى وأهل العلم أحياء

فمن سيعوّضك في طلب العلم وإتقان العمل والحرص على مستوى الطلبة حتّى لا يتدنّى بهم المتدنّون ويعبث بهم العابثون.

كنت مؤرخا في أعلى طراز في الأخلاق والانضباط والاجتهاد والتفوّق، وكنت ابن "**قمار**" الأصيلة وحفيد الكرام البررة، كنت ابن الجزائر البار الذي لم يكبّله ظلم الاحتلال عن الوصول ولا أوهامه لاستجلاء منابع الحق التي هي الأحق.

كنت نعم السفير في الشرق أم في الغرب لهذه الأرض الطيبة تجدّ في اكتساب العلم وتجتهد في معرفة الأصول وتكدّ في إبلاغ تاريخ الجزائر الحر وفوق كل ذلك تبرز عبقرية هذا الوطن في رجاله وأخلاقه وعلمه وسيادته.

من لنا بعدك **يا شيخ الكرام** بمثلك فقدنا عظمة الأساتذة ـ ونسأل الله أن يعوضنا ـ الذين يؤثرون على أنفسهم ويسهرون على تخريج طلبة أقوياء مؤهّلين

لشقّ طريق البحث العلمي في حين راجت بضائع الانتهازيين والوصوليين.

من لهؤلاء الطلبة الأيتام، وقد غبت عنهم وخلا منك الميدان، ولعلمهم سيجدون **زعانف ومبتذلين**، ولكنهم لن يجدوا مثلك في تقديم النصح وتقويم العوج والانقطاع للبحث والكتابة والمنافسة على التفوّق البريء.

لقد غادرت ساحتنا يا **شيخ الكرام** بعد أن عرفناك طالبا نموذجا في طلب العلم ضحيت بالنفس والنفيس من أجل العلم لا من أجل الشهادة. وأستاذا عبقريا يلتزم قبل أن يطلب من غيره الالتزام. غادرتنا في أوجّ الشتاء والأرض عطشى والناس لهفى والعصافير يُمنة ويسرى تبحث عن **الكريم الأصيل** وقد شحّت الأرض وعجزت النساء في مثل هذا الزمان أن تنجب من أمثالك الكل في طلب من الله أن يرزقنا الخير. فنسأل الله أن يرزقنا عوضا عنك وأن يحرك همم الكتاب وأصحاب الأقلام أن ينحوا نهجك وأن يعلموا أن الموت موعود فلا تكتبنّ بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه، فَلَكَ أن تُسرّ يا سعد الله واهنأ لأنك ما كتبت إلاّ ما سَيَسُرُّك الله به يوم القيامة.

رحمك الله يا سعد الله، لقد فقدنا فيك الشجرة التي تغطينا كباحثين فانكشفنا، وفقدنا فيك البحث التاريخي الأصيل فاهتززنا، وفقدنا فيك العالم صاحب القيم والمبدأ فهل على أثرك سنبني ؟ وفقدنا فيك العطاء والإبداع فهل بميزاتك سنغنى؟

لا بحيلتنا إلاّ أننا نسأل الله أنه مثلما علّى من مقامك في الدنيا أن يزيدك علوا في الآخرة كما نسأله أن يثبت فينا كلمة وفاء لك على إتباع النهج ودمعة أسى وفقد لأب ومعلم لكل أبناء الجزائر والإسلام.

17

كلمات عن الدكتور أبي القاسم سعد الله رحمه الله

مازن مطبقاني[الرياض/المملكة العربية السعودية]

كنت طالب دراسات عليا في جامعة الملك عبد العزيز بجدة عام 1403هـ/ 1983 فاقترح أستاذي **الدكتور لؤي يونس البحري (عراقي)** درّس في جامعات الجزائر عليّ موضوعاً لرسالة الماجستير لأنه لم يدرس من قبل وهو: **"دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية"**. فأسرعت إلى المكتبة فبحثت عن كتب عن الجزائر فوجدتها ضعيفة أو هزيلة لا يتجاوز عدد الكتب عن الجزائر أصابع اليد الواحدة ولكن كان من بين الموجود (الحركة الوطنية الجزائرية: الجزء الثالث) للدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله فكان هو المرجع الأساس الذي ساعدني في إعداد خطة البحث التي لم تستغرق وقتاً طويلاً حتى قُبلت في القسم.

كانت الخطوة الأولى السفر إلى مصر للبحث عن مراجع للبحث فلم تكن الرحلة موفقة كثيراً فكان لا بد من السفر إلى الجزائر وقد أرشدني المشرف أن عليّ زيارة الدكتور أبو القاسم سعد الله والاستماع لتوجيهاته. ووصلت إلى الجزائر اليوم الخامس من شوال 1403هـ[1] وشاء الله أن يُعقد بعد أيام ملتقى الفكر السابع عشر في قسنطينة فيسّر الله لي حضور الملتقى ومقابلة عدد من رجالات الجمعية. ولكن كانت هذه اللقاءات قليلة الجدوى لأنني لم أكن قد كونت فكرة

(1) هذا يؤكد الموقف الخاص بالباحث المشرقي كما نعته رفقة زميلي مسعود كواتي.

كافية لأستطيع توجيه الأسئلة الصحيحة والمفيدة.

عدت إلى الجزائر فكان اللقاء بالدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله فرسم لي خطة رائعة لكل ما يجب علي فعله والمصادر التي أبحث عنها والأشخاص الذين ينبغي مقابلتهم. ولكن الخطة تلك كانت خطوطاً عريضة تسمح للباحث أن يتحرك بحرية فمثلاً قال تحت عنوان "الاستجوابات" وذكر أهم العلماء من الجيل الأول والجيل الثاني كما كان رجلاً منصفاً حقاً فلم يدع المخالفين أو المختلفين مع الجمعية فذكر منهم محمد قنانش وفرحات عباس وذكر أيضاً مقابلة الطرق الصوفية.

قطعت شوطاً طويلاً في إعداد الرسالة حتى إذا أوشكت على الانتهاء وقد زرت المكتبة الوطنية في الجزائرية والأرشيف الوطني في قسنطينة وزرت فرنسا وبخاصة الأرشيف الوطني لما وراء البحار طلب إليّ المشرف أن أعرض مسودة الرسالة كاملة على الدكتور سعد الله. وأخذت منه توجيهاته الأخيرة وعدت فكان لا بد من المناقشين ووقع الاختيار على الدكتور سعد الله رحمه الله ليكون مناقشاً خارجياً ولصعوبة الاتصالات حينذاك سعيت لإتمام إجراءات الاستضافة في الجامعة وحملت الدعوة وتوجهت إلى الجزائر في الخامس والعشرين من شهر رمضان في زيارة لم تدم أكثر من ثلاثة أيام. سلّمت الرسالة والدعوة.

وكانت المناقشة [فكانت مناقشته] حول الموضوع لا يفعل كما يفعل كثير من المناقشين همهم الأول إظهار علمهم واستعراض عضلاتهم على الطالب وإرهابه وتخويفه بل كان علمياً موضوعياً حتى إذا سكت أما سيل الأسئلة من المناقش الآخر قال رحمه الله: عرفتك باحثاً جيداً ولكن مالك لا تدافع عن

رسالتك، فقلت له وهل ترك لي الأستاذ فرصة وهنا تجرأت قليلاً في الدفاع.

استمرت الصلة بيني وبين الدكتور سعد الله حتى إنه بعد أعوام قليلة اتصل بي ليخبرني بملتقى يوم العلم في قسنطينة وشجعني على الكتابة للمجلس الشعبي البلدي لأعرض عليهم دعوتي للحضور والمشاركة وقد كان حيث حضرت أكثر من مرة.

وكلما نزلت الجزائر حرصت على لقائه رحمه الله والأنس بصحبته والتعلم منه وفي أثناء البحث كان يرى كأنه مشرف علي وكان لديه إحساس أنه سيكون المناقش فلم أتشرف بزيارته في بيته حتى إنه عندما اختير مناقشاً تحرج قليلاً فقد قال أسهمت في الإشراف فكيف أكون مناقشاً ولكنه أدى دور المناقش ببراعة وأكاديمية عالية وبهدوء بديع رحمه الله رحمة واسعة.

وبعد المناقشة تواصلت المراسلات واللقاءات ودعاني إلى بيته الكريم واستمتعت بصحبته مع صديق هو **الأستاذ عبد القادر ربّاني**.

ومن أجمل اللقاءات أنه حين زارنا في المدينة وكان اللقاء بينه وبين أبي رحمهما الله امتد الحديث لأحداث المنطقة المعاصرة ولمس لدى والدي وعياً كبيراً وفهماً عميقا حتى إنه لامني فيما بعد أنني لم أدون ما لدى والدي من معلومات وتحليلات وآراء[1].

---

(1) راجع الرسالة رقم: واحد.

18

الدكتور سعد الله... مؤسس المدرسة التاريخية الجزائرية

أحمد بن السائح

الشروق يوم 29 ديسمبر 2013

الدكتور سعد الله... مؤسس المدرسة التاريخية الجزائرية

أحمد بن السايح

في غمرة إنتاجه الأدبي الوفير، كتب العلامة أبو القاسم سعد الله أطروحته للماجيستير سنة 1960 عن الشاعر محمد العيد آل خليفة وكانت بعنوان: « محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث »؛ وكان للمقادير مشيئتها ودورها، فلم يناقش رسالته وتوجَّهَ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد حصوله على منحة للدراسة من جبهة التحرير الوطني

وفي قسم التاريخ بجامعة « منيسوتا ـ MINNESOTA » تحصل على الماجيستير سنة 1962، ومنها نال الدكتوراه سنة 1965، وعاد إلى جامعة الجزائر سنة 1967؛ وبدأ مساره الأكاديمي بين زملائه وطلبته، وتبوَّأ عدة مناصب ومسؤوليات في الجامعة الجزائرية، وكان أستاذا زائرا في العديد من الجامعات العربية والأجنبية، وساهم في إصلاح التعليم العالي بتجربته وخبرته، وترأس لجانا علمية مختلفة كما كان عضوا في بعضها، كما أسندت له مهام علمية أخرى مثل فيها الجزائر أحسن تمثيل. وعن جهوده الأكاديمية التي تُذكرُ على الدهر فَتَشْكَرُ فقد خصه « معهد المناهج » بنشرية حول: « السيرة الذاتية والعلمية »

تحت عنوان « أ. د. أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين، وقدوة الباحثين » بمناسبة تكريمه واستحقاقه لـ: « وسام العالم الجزائري » الممنوح له من طرف المعهد المذكور ـ ربيع الثاني 1428 / ماي 2007 ـ؛ فتحية خالصة لِـ: « معهد المناهج »على لفتته الخالدة، وتقديره لأعمال فقيدنا وتكريمه في حياته

وأنتج في مجال تخصصه طائفة من التواليف الموسوعية ككتابه الضخم « تاريخ الجزائر الثقافي » الذي جاء في عشرة مجلدات، واشتمل على أكثر من 5071 صفحة، وموسوعته الأخرى « أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر » المؤلفة من خمسة مجلدات واشتملت على 1675 صفحة، وأطروحته للدكتوراه « الحركة الوطنية الجزائرية » بمجلداتها الأربعة، وتجاوز تعداد صفحاتها 1880 صفحة؛ فضلا عن كتبه الأخرى التي زادت على الأربعين وتوزَّعتها التراجم والدراسات المختلفة والتحقيق والإبداع الأدبي بمختلف ضروبه؛ وستبقى كتبه ودراساته شاهدة على موسوعيته وأصالة أبحاثه وغزارة علمه؛ فهو الرجل الذي جمع أطراف العلم، واعتكف في محراب التاريخ، ورابط دهرًا طويلا في خنادق الأدب، وكان بحق المفكر والمؤرخ والرحالة الطَّوَّاف الذي جاب الأمصار والبقاع النائية من أجل استكمال معلومة أوتسجيل تهميش يظنها البعض من البساطة بمكان، وهما عند فقيدنا من صميم العلم الذي لا يستقيم إلا بهما وبأشباههما ونظائرهما، وهو الأديب الشاعر الناثر والروائي المبدع الذي جرب كل ألوان السرد، فكان يراعه مطواعا يستجيب ويتدفق كالسيل المنهمر، وهو الذي جال أصقاعا كثيرة للاطلاع على شتى فنون المعرفة والوقوف على منشأ ونهاية الحضارات، فكان المتقن المتحكم في فن الأداء العلمي بمهارة المتخصص

الذي خُلِقَ للإنتاج الفكري وخُلِقَ هذا الأخير له، وكأنهما صنوان لا يفترقان.

وعلى الرغم من ذلك الجهد وما فيه من مثابرة وانضباط، فقد كان الطالب أبو القاسم سعد الله يتطلع من وراء كل تلك المتاعب والمشاق إلى التحصن بثقافة معرفية شاملة تكون بمثابة الذخيرة العلمية المسلحة بلسان العلم والدليل، التي تحتاجها جزائر ما بعد الاستقلال، تحسبا وتحديا للفراغات والتركة الخراب التي سيتركها.

المستدمر بعد رحيله؛ وكان فقيدنا ـ يومذاك ـ على علم ووعي تامين بمخططات العدو ومكره وأحابيله الإدارية والعسكرية التي كانت تستهدف تقرير المصير وتتربص باسترجاع سيادتنا الوطنية. وقد تحقق الكثير من حدس سعد الله، بتصاعد عنف منظمة الجيش السري +O. A. S= التي عملت على تلغيم التفاوض، وضرب استقلال الجزائر بشكل جنوني بوساطة تنفيذ جرائم جهنمية فيها الإبادة والمحو الكامل لكل ما له صلة بالشعب الجزائري الذي أصبح هدفا مستباحا لجرائمها التي لا تستثني شيئا ولا ترحم أحدا؛ وقد اشتمل مخطط المنظمة الإرهابية على زرع الخراب وإشاعة الرعب والذعر في النفوس، وتدمير المؤسسات واغتيال الأشخاص، ومناوءة كل ما هو جزائري، فكان اغتيال الكاتب مولود فرعون في: 15/ 03/ 1962، وتفجير الميناء في قلب العاصمة في: 02/ 05/ 1962، وحرق مكتبة جامعة الجزائر في: 07/ 06/ 1962، من بعض أعمالها الراسخة في الذاكرة الجزائرية.

وكان تحدي سعد الله في محله، فالجزائر ـ في السنوات الأولى لاستقلالها ـ كانت في أشد الحاجة إلى أبنائها وإطاراتها العلمية والثقافية في كل مجال. وكان فقيدنا عليه

رحمة الله من أبرز تلك النخب المخلصة التي عادت إلى الجزائر للمساهمة في بنائها؛ وقد عاد بعزيمة صادقة لتحرير الجزائر ثقافيا وتطهيرها من أدران المستدمر وآثار بقايا االمسخ والانسلاخ، التي دمرت الأمة الجزائرية، وفَرْنَسَتْ واقعها على مدى أكثر من قرن واثنتين وثلاثين سنة. وبعودة سعد الله إلى الجامعة الجزائرية، بدأت هذه الأخيرة تعرف نقلة نوعية في التدريس، وبدأ اليراع في أيدي الطلبة يتحرك من اليمين إلى الشمال؛ وعلى مستوى المضمون كان للشاب المتألق الدكتور أبو القاسم سعد الله الفضل كل الفضل في تحرير الدرس التاريخي من قبضة المدرسة التاريخية الفرنسية، وتفسيرها المغرض للتاريخ من وجهة نظرها الكولونيالية المتجنية، وتعصبها الشوفيني المقيت. وكان سعد الله ـ صاحب الحركة الوطنية الجزائرية ـ بمنهاجه الصادق ونظرته المتطلعة التي تقوم على استراتيجية علمية وطنية، يعمل على تأسيس مدرسة واقعية للتاريخ الجزائري، مدرسة موضوعية متحررة من هيمنة الإملاءات التي يحاول تكريسها والإبقاء عليها سدنة الإستدمار وقَوَّادِيهِ بوساطة المنهج العلمي !!! ـ وما هو بعلمي ـ أو التدليس الكولونيالي من الذين تداولوا على دراسة وتدريس التاريخ الجزائري من منطلقات متشبعة إلى حَدِّ التخمة بالروح الإستدمارية القائمة على الإستكبار والزيف والإستعلاء.

والواقع أن المتَبَنِّينَ للمنهج الطاغي للمدرسة التاريخية الفرنسية، راحوا يرقصون رقصة الطير الذبيح بعد أن ضاعت منهم الجزائر إلى الأبد، وحَلَّ محلها في المجال الأكاديمي ـ وفي الجانب التاريخي تحديدا ـ سعد الله الذي عاد بمشروعه الرافض لرجع صدى الناعقين بجدوى الطرح الكولونيالي للتاريخ الجزائري في القديم أو الحديث أو حتى المعاصر لأسباب واعتبارات مختلفة تعود إلى لوثة ومثالب الإستدمار في حَدِّ ذاته وما صاحبه من اغتصاب ومظالم. ونستطيع أن نقرر

الآن أن الدكتور سعد الله هو رائد المدرسة التاريخية الجزائرية، وواضع بذورها في تربة الواقع الأكاديمي الجزائري، وصاحب مشروعها العلمي بدون منازع، وهو الذي رعى طوال مشواره العلمي الحافل بالأعمال الجليلة والتواليف الرصينة التي تنافح عن الأرض وتذود عن العرض، وتتصدى للدجل العلمي الزائف باسم أكذوبة البحث العلمي !!! للإبقاء على الصنم المتهالك للمدرسة التاريخية الفرنسية التي تهاوت على أيدي البروفيسور أبو القاسم سعد الله الذي ظل إلى آخر رمق من حياته مرابطا في خندق التاريخ، وظل رمزا من رموز المجابهة الثقافية التي ليس لها من غاية سوى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل الزاحف باسم العلم !!! وإسكات مكبرات الصوت التي يروج لها أحباء الجزائر فرنسية » وخلفاء المعلم « لافيجري » بيننا، وهم كثر ولا يزالون على ضلالهم القديم »

ويكفي الدكتور سعد الله أنه تحول إلى مدرسة قائمة بذاتها ورمز علمي قضّى أكثر من خمس وستين سنة فارسًا لا يُشقُّ له غبار في ميدان العلم، وسلخ يفاعته وزهرة شبابه وكهولته وشيخوخته بين القرطاس والقلم، وأحب الكتابة ومتابعة البحث إلى درجة الهوس والافتتان، فجاءت النتائج كما أراد لها أن تكون، وأصبحت الكتابة عنده جِرَشَّةً تلازمه ويلازمها، يكتب في كل مكان.. يصطحب معه كنانيشه أينما حل وارتحل.. يُدَوِّنُ.. يلاحظ.. يتساءل عن فكرة.. يبحث عن مخطوط.. يحاور من أجل الظفر بغائبة أو اكتشاف حقيقة علمية تنير دروب البحث وتبدد الضباب الكثيف الذي يحجب ذخائر التراث وحقائق التاريخ.. يثير النقاشات حول مواضيع تحتاج إلى التعاون والتركيز للوقوف على أجوبة تتعلق بقضايا ثقافية حساسة غير مجمع عليها.

وقد آتت المدرسة التاريخية الجزائرية أكلها على أيدي أبي القاسم سعد الله وأينعت ثمارها في كل جامعات الوطن، ولا خوف على مصيرها ومشروعها؛ فأصلها ثابت وفرعها في السماء، وسيبقى سعد الله الرمز.. سعد الله النضال.. سعد الله الموقف.. سعد الله الإنسان الذي لا ينفد صبره.. سعد الله اليراع المتميز الذي لا ينضب حبره، ويكفيه أن يكون من طلبته وحوارييه هذه الأسماء اللامعة والهامات المتألقة في سماء الجامعة الجزائرية التي تسلمت أمانة المشعل من أيدي المعلم الرائد الذي ذهب إلى دار البقاء مطمئنا، ونذكر منهم الأستاذ الدكتور العالم المحقق نصر الدين سعيدوني، والبروفيسور الكبير محمد العربي الزبيري والبروفيسور المرحوم يحي بوعزيز، والبروفيسور يوسف مناصرية، والأستاذ الدكتور محمد العربي معريش، والأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث، والأستاذ الدكتور أحمد مريوش.

والذي يريد أن يتعرف على سعد الله أكثر عليه أن يقرأ آثاره، ويتعمق في فهم نتاجه الذي يعد ظاهرة في عالم الكتابة الموسوعية التي لا ساحل لها؛ وبقراءة سعد الله واكتشاف عالمه الفكري الدسم نستطيع التعرف على اهتمامات هذا المفكر العملاق الذي لم نعرف بعد من يجاريه من معاصريه في غزارة الإنتاج العلمي، والتفرغ للبحث الأكاديمي تفرغًا كليا؛ واللافت للإنتباه أن أبا القاسم نذر نفسه للبحث المُضَنّى الذي كان على حساب صحته، وأوغل في هذا الإتجاه حتى طالته طائفة من الأسقام، تضافرت كلها على النيل منه، وأحاطت به من كل جانب، وجعلت منه فريسة للأدواء المستعصية، وما كان منه ـ عليه رحمة الله ـ إلا أن تصدى لها بمواصلة الكتابة وبالتصميم على إنجاز ما يمكن إنجازه؛ وكان صبورًا وقويًا ببأسه وعناده، وواجه محنة العلل التي جاءته تترى بإضافة مشاريع جديدة إلى مشاريعه السابقة، وتشبث بالبحث ودفع ضريبة التعب

والمرض في سبيل حفظ تاريخنا الثقافي من الإنمحاء والتلاشي والضياع، وأبلى البلاء الحسن بصموده المتواصل وثباته الذي يشهد عليه المنصفون. واستمسك في نهاية المطاف بالقلم بين ثلاثية السبابة والوسطى والإبهام، مثله مثل المقاتل الشهم الجريح في ميدان الوغى، يقاتل وجراحه تنزف؛ ذلك هو سعد الله الذي يأبى أن يسقط القلم من يمناه، ويصر على استمرارية المواجهة بين القلم والقرطاس، وتسجيل آخر الفصول من معركة الحبر مع بياض الورق الذي سيظل بياضا بعد مجالدة سعد الله الذي انطفأت بذهابه ورحيله إلى دار البقاء شمعة من شموع الوطنية والعلم والتاريخ السابقة، وتشبث بالبحث ودفع ضريبة التعب والمرض في سبيل حفظ تاريخنا الثقافي من الانمحاء والتلاشي والضياع، وأبلى البلاء الحسن بصموده المتواصل وثباته الذي يشهد عليه المنصفون. واستمسك في نهاية المطاف بالقلم بين ثلاثية السبابة والوسطى والإبهام، مثله مثل المقاتل الشهم الجريح في ميدان الوغى، يقاتل وجراحه تنزف؛ ذلك هو سعد الله الذي يأبى أن يسقط القلم من يمناه، ويصر على استمرارية المواجهة بين القلم والقرطاس، وتسجيل آخر الفصول من معركة الحبر مع بياض الورق الذي سيظل بياضا بعد مجالدة سعد الله الذي انطفأت بذهابه ورحيله إلى دار البقاء شمعة من شموع الوطنية والعلم والتاريخ.

إن موت الدكتور سعد الله فقد كبير للعلم والمعرفة ولكنه ترك ثروة كبيرة جداً ليت الشباب يعكفون على دراستها والإفادة مما فيها من علم بل ليتهم يفيدون من سيرته العظيمة ودأبه ونشاطه الذي لا يعرف الكلل ولا الملل.

19
ذكرياتي مع شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله
من أشواق المودة إلى لواعج الفراق

الدكتور علي غنابزية ـ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ـ جامعة الوادي.

إن حياة الإنسان صفحة فسيحة الأرجاء، لا يحدها حاجز مادي، ولا يقف في طريقها سد معنوي، فهي شبيهة بالشاطئ بدون ساحل، ينتهي إليه الراحل في سفره، والغريب في سيره، وتزداد اتساعا إذا كان صاحبها من أهل العلم، وَعَلَمُ من رواد القلم، ومفكر من منظري الأمة، وقد ملأت كتاباته ـ ودراسات عمره الفاني ـ الآفاق، فشرقت وغربت في رحاب العالم الإسلامي، وشع نورها في الغرب الأوربي في شماله وجنوبه، وتلقاها الناس من مختلف الملل والنحل بالقبول، ونوهوا بفائدتها، ووقفوا لها طربا وإجلالا، وحيوا صاحبها تحية التقدير والاحترام، ذاك هو المجاهد في شتى الميادين ـ وفي السنوات الشديدة ـ الشاعر والأديب، والمؤرخ الأريب، والكاتب اللبيب، الذي أرسى في كتابة تاريخ الجزائر، معالم هادية للباحثين، شيخ المؤرخين بدون منازع، الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله وجعل الجنة مثواه، وحق له أن يدعى شيخ المؤرخين، فهو قبل ذلك وبعده، قد جمع العلم من مختلف أطرافه، فهو شيخ في العلوم الشرعية، وعارف بدقائقها، لأنه خريج جامع الزيتونة المعمور، وهو شيخ الأدباء منذ شروعه في كتابة الشعر والقصة، ونال التكوين الأساسي بدار العلوم بمصر،

واكتسب اللغات الأجنبية في مراحل سعيه لطلب العلوم، وارتقى إلى مشيخة التاريخ الجزائري عندما اخذ هذا العلم من مضانه في أرقى الجامعات الأمريكية، واحتك بفطاحل العلماء، فأتقن المنهج، وتحفز للعمل، عندما رأى مثابرة الأخر في ذلك العالم الذي نطلق علية المتقدم.

والكتابة عن هذه القمة السامقة، والشخصية السامية، تعترضها صعوبات جمة، ولكن أشواق المودة بيني وبينه، ولواعج الفراق، تشدني إليه أكثر، وهي تدفعني لتسطير هذه الكلمات، وفاء للذكرى، وحفظا للتاريخ، واستخلاصا لبعض العبر والمعاني التي يجد فيها القارئ بعض مبتغاه.

ـ بداية العلاقة بين المريد والشيخ:

تعرفت عن الدكتور أبو القاسم سعد الله لما كنت في مرحلة الطلب في جامعة قسنطينة في مستهل الثمانينيات، فكان يومها يكتب في مجلة سرتا، ومن أهم المقالات التي قرأتها له في العدد الثالث في شهر رجب 1400هـ/ ماي 1980م، بعنوان" زيارة لخنقة سيدي ناجي " وحملت توقيعا عرفني أكثر ببلدته التي ـ من فرط حبه واعتزازه بالانتماء إليها ـ وقع المقال بعبارة أبو القاسم سعد الله القماري، فازداد تعلقي به أكثر لما علمت انه أصيل وادي سوف، فالإنسان بطبعه يحب قومه، وتربطه بهم علاقة خاصة، يعلم سرها المولى الكريم، الذي جعل القلوب جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وازداد تعلقي به والغوص في كتاباته في تاريخ الجزائر التي كانت مادة هامة لمحتوى بحوثنا ودراساتنا في الجامعة، ولما تخرجت، باشرت التدريس في الثانوية، فكانت الحركة الوطنية الجزائرية عمدة المصادر التي أستقي منها موضوعات التاريخ الوطني الأصيل،

وحينئذ شدني بأسلوبه، ومعالجته القيمة للمسائل التاريخية، وزرع في ذاتيتي رغبة جامحة في البحث والدراسة العلمية، وتطورت تلك العاطفة العميقة إلى سعي من أجل ربط علاقة مباشرة مع شخصه الكريم؛ وعندما ولجت عالم الكتابة التاريخية ـ في بداية التسعينيات ـ في الصحف والمجلات، وإعداد دراسات أولية، وتقديم محاضرات ولاسيما في تاريخ وادي سوف، احتجت إلى التوجيه والتسديد، أرسلت له رسالة بتاريخ 27/ 11/ 1993، ومما قلت في مقدمتها: (تحية إسلامية طيبة ملؤها المودة والتقدير والاحترام أبثها إليك من أعماق فؤادي الذي احبك عن بعد، وتعلق بشخصك منذ سنين، عندما تتلمذت على كتاباتك القيمة في أروقة الجامعة، وفي قاعات التدريس بالثانوية، كانت تلك الكتب مراجع حية ونبراسا منيرا، ودليلا هاديا ـ فجزاك الله كل خير على ما بذلته في مسيرتك العلمية من خلال دراساتك المتعددة وخاصة الحركة الوطنية ومراحلها، والتاريخ الثقافي للجزائر الذي نسأل المولى عز وجل أن يوفقك لإكمال بقية فصوله وأجزائه). ولم تكن ظروف البلاد هادئة يومئذ، وذكرت له ذلك بالعبارات التالية: (أستاذي الكريم: اكتب إليك هذه الرسالة في هذا الظرف العصيب الذي تمر به البلاد، ولكن رغم ذلك أجدني مضطرا إلى مراسلتك التي تأخرت كثيرا، إذ كنت آمل أن تكون لي الشجاعة قبل هذه الفترة بكثير، لكن ما شاء الله كان، لذلك استسمحك إذا شغلت جزء من وقتك الغالي ولكني في أمس الحاجة إلى نصائحك ومساعدتك وتوجيهاتك). وأبديت له الرغبة في مقابلته القريبة، وأمنيتي الملحة في ذلك: (... ولكن أسال الله تعالى أن يوفقني إلى مقابلتك في فرصة سانحة). فمتى سنحت هذه الفرصة؟ ! وطلبت في الرسالة توجيهات حول تاريخ وادي سوف بالخصوص. ولم تطل مدة الرد،

فتلقيت ردا في الظرف الذي أرسلته مع رسالتي، وكتبت فيه العنوان ووضعت به الطابع البريدي، حتى أسهل له الأمر، وفعلا تلقيت الرسالة يوم 8 جانفي 1994، ولكنها بخط أخيه أبو بكر خالد سعد الله، وفيها اعتذار بالعبارات التالية: (السيد علي غنابزية المحترم أحيطكم علما أن أخي أبي القاسم سعد الله غائب عن الجزائر لمدة سنة دراسية وذلك منذ سبتمبر الماضي والسلام). ويومها ازددت اعتزازا وتأثرا به لأنه ورغم غيبته، ترك حبل الوصال ممدودا مع كل من يتصل به، وفوض من يرد نيابة عنه، ومن هنا تعرف الدقة والنظام، والمستوى الخلقي الذي تحلى به الدكتور سعد الله رحمه الله.

توجيهاته العلمية القيمة:

ومرت ست سنوات قضاها أستاذا بين جامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة (1994 ـ 1996، وجامعة آل البيت بالأردن (1996 ـ 2002)، ولكن خلالها تجدد السعي مني، لأنني سجلت موضوع الماجستير في جامعة الجزائر حول (مجتمع وادي سوف في القرن 19) واحتاج إلى توجيهاته القيمة، ونظراته الثاقبة، فكانت رسالتي الثانية إليه يوم 28 ديسمبر1999، وقد زودني بعنوانه مشكورا الأستاذ سعد العمامرة، وذكَّرته بالرسالة السابقة، وألْححت عليه في الطلب، ومما قلته: (سيدي الكريم: إني اعلق آمالا كبيرة على شخصكم أن تقدموا لي يد المساعدة الممكنة... ارجوا سيدي الكريم أنني لم أثقل عليكم، وانأ اعلم أن وقتكم ثمين وربما لا يتسع لطلبي، ولكني أكتفي واقنع ولو بالقليل من توجيهاتكم الثمينة). وختمت الرسالة بالدعاء والتمنيات بالخير المتجدد، ولاسيما أن الرسالة في العشر الأواخر من رمضان: (سيدي الكريم: في الأخير أتمنى من كل قلبي، أن

يكون القرن الجديد وكذا العام الجديد كله خير وصلاح، وأرجو من الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم الصيام والقيام في هذا الشهر الكريم "رمضان" وتقبل الله منا ومنكم وعيدكم سعيد وكل عام وانتم بخير وصحة وعافية لخدمة الفكر والثقافة والتاريخ " اللهم آمين" والحمد لله رب العالمين). وكنت اعتقد أن وقته لا يتسع لي كما سبق عرض ذلك في رسائلي، ولكنه اتسع أكثر مما كنت أظن، وسعد برسالتي، لأنها ذكرته ـ في ديار الغربة ـ بالجزائر التي منحها كل كيانه، وعايش أحداثها وآلامها، ولم يتغرب عنها إلا للضرورة، وراسلني في وقت قياسي، بتاريخ 22 شوال 1420هـ/ 29 جانفي 2000، وأتركه يعبر عن ذلك: (الأخ الفاضل علي غنابزية المحترم السلام عليكم ورحمة الله، وبعد: وصلني خطابك، والحمد لله، وسعدت بمشروعك وأتمنى لك النجاح فيه، فعلا لقد قضيت وقتا في رحلة دراسية، منذ 1993، وها هي تمتد إلى سنة 2000 ؟ ويبدو أن الدراسة ليس لها وقت ولا مكان، ولكن رغم وجودي خارج الجزائر فانا أعيش بداخلها بكل جوارحي وأدعو الله أن يعجل بالأوبة بعد طول الغربة). وأعطاني توجيهات حول موضوع دراستي، وفرح به، وسجل لي عنوانه عبر البريد الالكتروني، ومما وجهني به قوله: (مشروعك جيد وصعب في آن واحد. انه صعب ستجد صعوبة في المراجع والمصادر... ولكنه جيد لأنك ستبحث موضوعا لا يجيده إلا أهل المنطقة ولا يحس بنبضه إلا من عايش تاريخ وادي سوف بكل أبعاده الاقتصادية والاجتماعية...). وفعلا كان المشروع كما اعتقد في رسالته، ففتح الله به بابا للباحثين، وخدم تاريخ وادي سوف كثيرا وذاك كان بتوفيق من الله وتوجيهات الأساتذة.

طلب اللقاء في قمار:

ومرت نحو ستة أشهر على تلك الرسالة التاريخية ـ بالنسبة لي ـ والتي بادلته بها سعادة، غمرت النفس، وسكبت في ذاتي روحا جديدة، دفعتني للعمل والمثابرة رغم انشغالي بالعمل والنشاط الدعوي الاجتماعي، ووجدت في عطلة الصيف فرصة لجمع المادة، وكانت مدينة قمار ـ موطن سعد الله ـ مقصدي، فزرتها يوم الأربعاء 16 أوت 2000، واتصلت ببعض المكتبات، وشيخ الزاوية الهبرية الأستاذ عبد الباقي مفتاح الذي زودني مشكورا ببعض المخطوطات والوثائق الهامة، ولما عزمت على الرجوع لمدينة الوادي في منتصف النهار، سمعت أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله في قمار ويقيم في حي الشطاية في بيت صهره ـ زوج أخته ـ عبد العزيز دمدوم، فزرته، فوجدته خارج البيت، فتحصلت على هاتفه، وكلمته وربطت معه موعدا في اليوم الموالي، ولكنه في تلك الليلة اعتذر وعدل في الموعد، الذي أجل ليوم الأحد صباحا على الساعة السابعة في قمار، وكنت في الموعد، ولكن المفاجأة كانت تنتظرني، فاكتشفت أن الأستاذ قد سافر مساء السبت، فحرت يومها، وتساءلت هل أن امرأ طارئا قد حدث، وساورتني بعض الهواجس، ولكن السيد صهره كلم بيتي على الساعة الثامنة ـ في الوقت الذي كنت في مسافة الطريق ـ ويومها ما زال الهاتف النقال لم ينتشر بعد، وبلغهم اعتذار الأستاذ وتأسفه لعدم تلبية اللقاء. ويومها تبخرت أحلامي في اللقاء به عن قرب، بدل الرسائل المتبادلة.

ـ اللقاء التاريخي:

وأتممت رسالة الماجستير بسلام ووفقت فيها كثيرا، والتحقت بالمركز

الجامعي بالوادي أستاذا في أواخر سنة 2002، ورجع الأستاذ سعد الله من الأردن، وباشر عمله في جامعة الجزائر، واستقر في بيته ببن عكنون، وشاءت إرادة الله أن يتم اللقاء داخله، عندما كنت عازما على السفر في بعثة علمية إلى دمشق الفيحاء، وقبل السفر، نظم الصديق والمرافق في الرحلة الأستاذ عادل محلو هذا اللقاء الحميمي، وهو أول لقاء مع الأستاذ الكريم، بعد أكثر من عشر سنوات من الانتظار مع الشوق والرغبة الملحة، وفي يوم الخميس 23 مارس 2005 كان الجو ممطرا فامتطينا حافلة في حدود الساعة التاسعة والنصف من ساحة الشهداء، واتجهنا لبيت الدكتور سعد الله، وفق موعد مسبق، لنسلمه مشروع كتاب الندوة الفكرية الرابعة عبد القادر الياجوري التي نظمت بقمار في ديسمبر 2004، التي خصصت محاضراتها في هذا الموسم لحياة الشيخ محمد الطاهر التليلي وآثاره، وتم اللقاء في حدود الساعة الواحدة والنصف زوالا، ففرح بقدومنا، واحضر لنا الشاي والمكسرات، وتحدثنا طويلا في مواضيع شتى، ومنها أهمية الخط العربي، وحول المطابع في الجزائر، وخاصة مطبعة رودوسي مراد، وعرجنا إلى النشاط الثقافي في وادي سوف، وأسماء الندوات الفكرية، والتفريق بين ندوة العمودي الفكرية التابعة للجمعية الوطنية، ودار الثقافة محمد الأمين العمودي التي هي مؤسسة ثقافية، والمكتبة المسماة على اسمه، مكتبة الدكتور أبو القاسم سعد الله، ولعها أول مبادرة في هذا المجال، وكانت التسمية في وقت مبكر، في سنة 1988، ونرفع التحية لمديرها الذي سماها الأستاذ الإعلامي باديس قدادرة (وهذا جعل سعد الله يحبس كتبه لهذه المكتبة وفاء لمن عرفوا قدره). وفي الأخير حددنا معه تاريخ المحاضرة المزمع تقديمها في شهر أفريل بالمركز الجامعي بالوادي، وبمعهد الآداب واللغات، وكذلك اللقاء مع

الإطارات من هيئة التدريس، وخرجنا من عنده، وقد وعدنا بكتابة التصدير لكتاب التليلي، وودعنا وهو يعلم إننا سوف نتوجه إلى دمشق، ووجه لنا نصائح في نفس المجال.

وقد وفى شيخ المؤرخين بوعده وكتب التصدير، وأثنى بالشكر والتقدير علينا أصحاب هذا العمل، ومما قاله: (والحق أن هذه البحوث تمثل جهدا كبيرا في مجالها، فهي بحوث موثقة، ويظهر عليها الطابع العلمي خلافا لما عهدناه في مثل هذه الأعمال التي تنبثق عن الندوات التي تتسم أعمالها غالبا بالارتجال والذاتية والابتعاد عن الروح العلمية. وإذا كانت هذه هي أول القطرات التي نزلت بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة الشيخ التليلي فماذا نتوقع عندما تصبح القطرات غيثا منهمرا؟ لذلك لا يسعني إلا تهنئة أصحاب هذه البحوث على ما بذلوه فيها معتقدا أن القراء سيجدون فيها مقاربة جديدة لفهم آثار الشيخ).

ـ الدكتور سعد الله يحاضر في المركز الجامعي بالوادي:

وكان الدكتور سعد الله في موعده مع معهد الآداب واللغات، بالمركز الجامعي بالوادي، وألقى محاضرته يوم 27 افريل 2005، وحضرها الطلبة والأساتذة وبعض الضيوف، ويومها اختارني، وآثرني زملائي الأساتذة من هيئة التدريس بالمعهد، وفي مقدمتهم مدير المعهد الأستاذ عبد الرحمن تركي لأقوم بتقديم الأستاذ، وكان لي شرف إدارة الجلسة وتوزيع الكلمات، واعتبر ذلك كرم منهم، أن أحظى بهذا المقام في حضرة قمة علمية عالمية، وكان عنوان المحاضرة: (السلطة ومراكز العلم في الجزائر) وملخصها ينم عن انشغال يؤرق المؤرخ الواعي بهموم أمته، وتطلعاتها نحو السمو الفكري، والنضج العلمي، وهو

يتأسف عن وجود مراكز علمية هامة في بلدان الجيران يهرع إليها الجزائريون، وفقدان الجزائر لمثلها، مما قاله في هذا المضمار: (وللأسف نقول هنا إنه بينما أسس جيراننا في فاس مركز إشعاع لهم تمثل في جامع القرويين، وبينما أسس جيراننا في تونس مركز إشعاع لهم تمثل في جامع الزيتونة، بقيت الجزائر عالة على هذين المركزين، كما بقيت عالة على الأزهر بمصر وعلى الحرمين الشريفين بالحجاز، ولم تؤسس لنفسها مركزا علميا يحفظ للثقافة العربية الإسلامية وجودها ويدفع بها إلى المزيد من العمق والإبداع). كما أن تلك المراكز كانت في الجزائر (... مبتورة فلم تكتمل لا رعاية ولا نضجا، ولم تشهد تأسيسا تاريخيا يظل على مدى الأجيال يغذي الهوية ويحفظ ثوابت الأمة. لقد كانت في أغلبها "مشاريع" لعلوم الدين أو للأبهة والخلود). ويرى أن نفس الأخطاء بقيت مستمرة بعد الاستقلال، ولم يعط للجامعات حقها من الرعاية، وهي المعول عليها في دفع الأمة إلى الأمام، ولم يتحرج وهو يحاضر في رحاب الجامعة أن يضع النقاط على الحروف، ويدق ناقوس الإصلاح: (وفي نظري إننا نكرر اليوم أخطاء الماضي، انظروا إلى هذا السيل الجارف من الجامعات التي تظهر عبر الوطن، إنها تفتح بدون بنايات جامعية حقيقية، وبدون أساتذة مؤهلين، وبدون مكتبات وبدون مخابر ولا حاسبات. إنها مراكز علم بدون وصاية صارمة تسهر على رعايتها حتى تبلغ سن الرشد). وأراد أن يحمل هم الجامعة روادها، وكل فاعل في داخلها، أن يشعر بمسؤوليته نحوها: (فإلى متى سنستمر في السير على هذا المنوال؟ وإلى متى ستظل الجزائر بدون مراكز علمية فاعلة تتمثل فيها تجارب الأجداد وطموحات الأحفاد؟ ذلك شأن يحيرني، وأرجو وان يحيركم أيضا.) وبعد المحاضرة جرى نقاش حيوي، تفاعل معه الطلبة، وانشرحت له صدورهم، وأعجبوا بذلك

النسق الفكري، والانسجام الأدبي، وتسلسل الأحداث التاريخية وأهميتها، وربطها بالبعد القيمي الذي يوجه إلى الفائدة المرجوة في دنيا الحاضر. وفي المقابل كان صدر المحاضر رحبا، ورد عن التساؤلات بكل أبوية ورعاية. ومن فرط إعجاب الطلبة، طلبوا منه نسخة من المحاضرة، فاعتذر لهم بكل أدب، وأشعرهم بقيمة الملكية الفكرية، وفتح قوسا للتنبيه إلى بعض المحاضرين الذين يجترون ما عندهم، وقال: (يكون عند احدهم بعض الأوراق يلوك ما فيها حتى تصفر من عوادي الزمن). أما عمله فهو عزيز القدر، عظيم القيمة، ومع ذلك وعدهم بطباعتها في احد كتبه قريبا، وفعلا ضمنها في عناصر كتابه الموسوم (مجادلة الآخر).

وتواصل النشاط في اليوم الموالي في قاعة الأساتذة بالمركز، إذ اجتمع بهيئة التدريس، وطرحت مسائل علمية عديدة، وقضايا فكرية شائكة، وإشكاليات الرسائل والأطروحات المعدة للبحث، وآفاقه في الجزائر، ونبه إلى الدراسات العالمية، وبعض الاختصاصات النادرة في التاريخ، مثل تاريخ الشرق الأقصى وإفريقيا وأمريكا الجنوبية وغيرها من المواضيع الهامة التي تحتاجها الجامعة الجزائرية.

رسالة شكر:

وبعد مغادرته لنا، بادرت من نفسي بكتابة رسالة شكر، وعرضتها على المدير، الذي رحب بالفكرة، وتم إرسالها بتاريخ 07/ 05/ 2005، واهم ما ورد فيها: (تتقدم هيئة التدريس بالمعهد باسمي عبارات التقدير والاحترام إلى شخصكم الكريم، على ما قدمتموه لنا في زيارتكم العلمية التي تركت في نفوسنا أثرا طيبا، وفتحت لنا آفاقا رحبة في البحث العلمي، وجعلتنا نستفيد من تجربة

رائدة في الدراسات العلمية المستقبلية في الأدب والتاريخ. ونأمل لهذا التواصل أن يستمر منا بالدعوة لكم، ومنكم بتلبية رغبتنا حسب ما تسمح به ظروفكم وانشغالاتكم. وأخيرا نتمنى لكم مزيدا من البذل والعطاء، ونرجو من الله أن يديم عليكم الصحة والهناء، ودمتم ذخرا للعلم والوطن).

الدكتور سعد الله والجامعة الجزائرية:

والجدير بالذكر أن الدكتور سعد الله عموما يريد للجامعة أن تكون أوسع من المحلية، وان تتفاعل دوما مع العالم الواسع، ولكنه في المقابل أثنى على سكان وادي سوف، وهم أهله، وهو اعرف بهم، والخبير بخصالهم، ومما قاله مثنيا عليهم، غند زيارته للبلدة في جويلية 2008: (ومن حسن الحظ، أن أهل وادي سوف ما يزالون على طبيعتهم في العمل الدءوب والطموح وحب العلم والمغامرة وهم إذا أرادوا فعلوا، وإذا فعلوا أتقنوا، ولتحقيق طموحهم لا تقف في وجوههم الحواجز والمثبطات، فلا جبال الرمال ولا المسافات البعيدة ولا العواصف الهوجاء ولا الأخطار المجهولة تثبطهم عن عزمهم، كما انك تجد الواحد منهم قد أعطاه الله بسطة في الرزق ومع ذلك يبدو في تواضع الفقير الصوفي).

واستمرت العلاقة العلمية بيننا، بإطلاعه على بعض الكتابات والمخطوطات، والالتقاء به في قمار عند زيارته، والاقتباس من توجيهاته القيمة، وإخباره عن المستجدات الثقافية والاجتماعية، وكان يحثنا على المسارعة بإنهاء بحوثنا في الدكتوراه، كما كانت أروقة معهد التاريخ ببوزريعة موطن اللقاء، وكلما جمعنا المكان على غير موعد، يفرح بلقائي، ويسألني عن أحوالي ومشاريعي، وحتى في غيابي كان يبلغني السلام من طرف الزملاء عند زيارتهم للعاصمة،

وهكذا هو الدكتور سعد الله كان لنا أبا روحيا، وفقدنا فيه هرما شامخا، وترك فراغا لا يسده إلا من بذل مثل بذله، وضحى أضعاف تضحيته وهو شهيد.

ـ لوعة الفراق:

بلغني أن الأستاذ الكريم في المستشفى، وتمنينا الاتصال به، ولكن حالت دون ذلك ظروف عديدة، ولما كان يوم السبت صباحا هاتفني الأستاذ بشير مديني، وأخبرني بوفاته، فنزل الخبر كالصاعقة، فقد هُدَّ الصرح الذي كان شامخا في نفوسنا، والأنس الذي يحيط بفكرنا، والأب الذي يرعى عقولنا كلما جفت الموارد، ففي تراثه الفكري نجد ضالتنا. وانتظرنا يوم الأحد، الذي تقاطر فيه الأحباب والأصحاب، وعامة الناس، على مدينة قمار، لتوديع الشيخ الفقيد، والعالم المجيد، وكان الموقف جليلا، والمشهد متواضعا، ولكنه سما بصاحبه الذي دبت فيه الحياة بعد موته، وعرفه القاصي والداني، من الذين قدموا لوداعه زرافات ووحدانا، كلهم محبة، يعبرون عن عمق مشاعرهم القلبية، وفي سوق التمور قبلة المقبرة، صَلَّتْ على روحه الطاهرة تلك الجماهير، وازداد سعد الله رفعة وتميزا، ويومها كانت الآيات القرآنية تجول في خاطري، وتتداعى بالعبر والتذكير، وفهمت معناها جيدا، فكان المشهد مفسرا لقول الله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾. وهكذا عاش متواضعا وأبى بعد موته إلا أن يبقى متواضعا، وهذا زاده رفعة وسموا في أعين الخلق، وصدق المصطفى صلى الله عليه وسلم لما قال: « وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ».

جنازة تذكر كل من كان له قلب:

لقد رأى شيخ المؤرخين أن يبقى بعيدًا عن الأضواء التي طالما سلطت عليه في حياته، فكان يرى فيها طمسا لبصره وبصيرته إن استجاب لبهرجها، فتصدى لها، ورأى أن يبقى هذا الضوء ساطعا في أعماله وأخلاقه، ومواقفه وكتاباته، وخيره الذي يعم في كل مكان. فقد زهد في مناصب القوم، فكان بإمكانه أن يكون كبيرا بالوزارة، ولكنه فضل محراب الكتابة الذي يخلد صاحبه، ولا تفنى آثاره، لان المناصب والأموال تزول مع صاحبها وتستحيل هباء منثورا. فشتان بين وزارة تزول وعلم يدوم. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. لقد فهمت في الجنازة هذه المعاني لما رأيت الجماهير الوافدة من كل حدب وصوب، من قمار، والوادي وقراها الممتدة، ومن الولايات المجاورة والبعيدة، محبة ووفاء لروحه الزكية، وحينها تذكرت مقولة الإمام أحمد عندما قال عن أصحاب الأهواء من الجهلة: (بيننا وبينهم الجنائز).

لقد تعاقب على مقام التأبين الذي تم على شفير قبره، الدكتور عبد الرزاق قسوم، والدكتور عادل محلو عن أهل قمار وأعيانهم وغيرهم. وبعد رجوعنا، قضينا الأسبوع في نشاط يخلد حياته، وأول نشاط هو تنظيم وقفة تأبينية في قسم العلوم الإنسانية بجامعة الوادي يوم الثلاثاء 17/ 12/ 2013، وكلفني الزملاء بإدارة الكلمات التي تبارى فيها السادة الأفاضل، رئيس القسم الأستاذ معاذ عمراني، والدكتور محمد السعيد عقيب، والدكتور شافو رضوان عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، والدكتور عمر روينة، وممثل عن الطلبة محمد عوادي، وكلهم عبر عن أحاسيسه، وربطوا حبل الوفاء والعرفان. أما المحطة الثانية وهي استضافة من

الإعلامي الملتزم الأستاذ الزميل الطاهر عمارة لدغم في برنامجه نحو القمة الذي شارك فيه الدكتور علي غنابزية ممثلا للجامعة وللحديث عن التاريخ في حياة الفقيد، والأستاذ الشاعر أبو بكر مراد للغوص في شعره، والأديب بشير خلف الذي يمثل الصديق وابن بلدته قمار، ودار الحوار في بعث روح جديدة من خلال سيرته ومدى ارتباطها بالواقع والذكريات، أما المحطة الموالية فكانت خطبة الجمعة التي خصصتها للتذكير بموت العظماء، وآثار الفضلاء؛ واقتفى الأثر بعض الخطباء في مساجد أخرى وكلهم ينوه بسيرته الطيبة.

أما البعد البارز ـ في الجنازة ـ أن الدكتور سعد كان أب الجميع، وعوض أن يعزى فيه أهله فقط، فكان الناس يعزي بعضهم بعضا ولاسيما رجال التاريخ، الذين قصدهم الناس وعزوهم بحرارة، وهاتفنا الأحباب وتقبلنا العزاء بصدور مطمئنة، وكنا نختال طربا، لان الشيخ وضع له القبول في الأرض ـ نحسبه كذلك والله حسيبه ـ ولا نزكي على الله أحدا.

وما يمكن استخلاصه في آخر هذه الانطباعات السريعة، أن المرحوم سعد الله:

ـ أحسن حَبْكَ حياته، فضبطها بالدقة في المواعيد، والنظام في العمل، والتقدير الجيد لكل علاقة أو عمل، أو نشاط.

ـ يتحلى بتقديره واحترامه لغيره ـ في حدود قدرته واتساع إمكاناته ـ مع الاعتذار بأدب، والرد بالتي هي أحسن عند العجز عن تلبية الطلبات الكثيرة.

ـ صار مُلكًا للأمة، والأب الروحي للمفكرين، والمرجع لكل باحث عن الحقيقة، وبعد موته ولد فكره، وبدأ الالتفات لشخصه من أجل الاقتباس، والدرس لمؤلفاته وآثاره.

وان سيرته التي عرضت بعض ـ ما عشت في ظلالها ـ من هذه الذكريات التي تبقى عبرة لمن فتح الذهن للتفكر، والعقل للتنبه، أن الشيخ دبت فيه الحياة لما مات، ومد الله في عمره لما لقيه بصدق وإخلاص، وصدق شوقي لما قال:

فارفع لنفسك بعد موتـك ذكرهـا   فالـــذكر للإنســـان عمـــر ثـــاني

وادي سوف: 2013/12/23 الدكتور علي غنابزية ـ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ـ جامعة الوادي.

20

كلمة حق في أستاذ نافع

الدكتور قمعون عاشوري

جامعة الوادي

إن أستاذنا المرحوم أبا القاسم سعد الله هو ـ بلا منازع ـ أستاذ الأساتذة. فهو رجل موسوعي: في الأدب، والشعر، والتاريخ، والثقافة في جميع مناحيها وفنونها. والشيء الذي يبرر موقفي، ويفند كل ما يخالف ذلك، هو الرجوع إلى مؤلفاته، ولاسيما: هموم حضارية، وقضايا شائكة، وأفكار جامحة، ومنطلقات فكرية. والثقافة إذا لم تعد بالنفع على الإنسان، فهي سخافة. ولهذا كان الأستاذ، أثناء إلقاء المحاضرات، يفسر لنا الأحداث التاريخية ويحللها وكأنه عاشها، بدل أن يلقننا المعلومات الجافة.

والحقيقة التي صادفتها، والتي لا مراء فيها، أني لما طالعت كتاب "منطلقات فكرية" تغير مسار حياتي رأسا على عقب، وتأثرت بالمعاناة التي عاشها شيخنا لما كان طالبا بالزيتونة، وهو ما دفعني إلى مواصلة دراستي إلى منتهاها.

كما بودي أن أجزم بأن موسوعة "تاريخ الجزائر الثقافي" و"الحركة الوطنية" و"أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" بمختلف أجزائها، كل هذا ينم عن تأسيس "المدرسة التاريخية الجزائرية" التي استحى الدكتور أن يعلنها صراحة. ولحد الآن، لم نر أستاذا قد تبوأ هامته السامقة. إنه لم يجد الزمان بمثله في الحقل

التاريخي، و" ليتنافس المتنافسون".

لقد عرفت الأستاذ عام 1975، حينما كنت طالبا بالجامعة، وكنت شغوفا برؤيته، والتقرب منه. وتمكنت من ذلك خلال الفترة المخصصة لاستقبال الطلبة، وحينذاك تحادثت معه حول مخطوطي: الصروف في تاريخ سوف، وتاريخ العدواني، فوجدته مطلعا عليهما بشكل مستفيض. وعرضت عليه في نفس الوقت تنظيم زيارة لعلامة زمانه، الشيخ أحمد العبيدي (1888 ـ 1977م) الذي كان يقطن ضاحية الحراش، فوافق بصدر رحب، ورتبت له المقابلة، بيد أن وفادته إلى الولايات المتحدة لمدة سنتين حالت دونها. ومن ذلك الحين، وجدت مكانة في نفسه، وقام باقتراحي ـ في غيابي ـ أستاذا بجامعة الجزائر عام 1984، حين حصولي على شهادة الدراسات المعمقة، وعندما التقينا بجامعة الخروبة، وكان يتأهب لإلقاء محاضرة على الطلاب، بادرني متسائلا: لماذا لا تدرس معنا؟ فأجبته: بأنني لا أستطيع لعدم توفر المأمن، واعتذرت له، شاكرا صنيعه. فقال لي: (أي خدمة كما يقول المصري).

كنا نلتقي يوميا بالمكتبة الوطنية صيفا، ونخرج في الغالب سويا. وفي إحدى المرات من عام 1981، كان للإخوان الليبيين معرض الكتاب ببهو المكتبة، ومن فرط الحياء، دفعني لأسأل المشرف على المعرض إن كانت الكتب للبيع.

كما صادف أني كنت برفقته كالعادة لما غادرنا المكتبة الوطنية، وعندما مررنا على قصر الحكومة، التقينا بالأستاذ محمد الطاهر فضلاء، الذي لامه بفظاظة لما كتبه في جريدة الشعب عن المراسلة التي تمت بين ابن باديس والطاهر العبيدي، ولم ينبس الدكتور ببنت شفة.

وراسله أحد الإخوان لما كان بالولايات المتحدة، واحتوت المراسلة على ألفاظ نابية، وجارحة، وقد أطلعني صاحبها على فحواها، وعندما استفسرت عن رد الأستاذ، قال لي: أن جوابه هو (أن البحث عملية مستمرة)، فقلت له: لا يصح هذا الموقف مع أستاذ مثل الدكتور سعد الله.

كما التقيت به في مكتب بريد الوادي عام 1982، وكان ينتظر دوره للاتصال بإحدى الوزارات، فقال لي: إن الكتابة آفة، لا يجني منها صاحبها إلا المشقة والتعب.

وقد حاول جاهدا أن يقنعني بتحقيق مخطوط العدواني كرسالة علمية، وقال لي: أن لديه ثلاث نسخ سيزودني بها، وعرض الفكرة على مدير المكتبة الوطنية الدكتور محمود بو عياد، فأخبره بأن لديه نسخة رابعة سوف يجلبها من تلمسان ويفيدني بها، وكنت في موقف حرج، لأنني أوشكت على الانتهاء من إنجاز رسالتي، وحينما يئس مني، قام هو بتحقيقه.

كان موضوع أطروحتي " الدور الصليبي لهيئة الداوية في بلاد الشام (1118 ـ 1291م) " والموضوع في التاريخ الأوربي الوسيط، وعندما استشرت الأستاذ، أحالني على أسقف مدينة الجزائر، الأستاذ هنري تيسيي Henri Teissier الذي كان الأستاذ يشرف عليه في موضوع "علاقة الأمير عبد القادر بمسيحيي الجزائر". ومن ذلك الوقت صارت لدي حظوة عند الأسقف الذي قدم لي مساعدات يعجز عن تقديمها أقرب المقربين. وعندما فاتحت الأستاذ بأن السيد هنري تربطه علاقة جيدة مع الدكتور عبد المجيد مزيان، وقال لي بأن مزيان رجل متسامح، أجابني الأستاذ: بقوله: أنا غير متسامح، ففهمت الغرض من المصطلح.

قلت لأحد الدكاترة: أنا معجب بك لأنك تحاضر بدون ورقة، فأجابني

بأنه شارك في مؤتمر دولي بدمشق، وكان ذلك بحضور الدكتور سعد الله، ولما أنهى مداخلته، واقترب من الأستاذ، قال له: كنت أعتقد بأنك من "الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق"، وقدم له تشكراته، ومنحه مبلغا من المال بالعملة الصعبة.

ولما شاركت في مؤتمر بالأردن عام 2013 بموضوع حول (دور سليمان الباروني في مواجهة الاستعمار الإيطالي) كان الأستاذ بدوره مشاركا، وخجلت من أن أكون ندا لأستاذي، غير أن ظرفا حال دون حضوري، وألقي البحث بالنيابة عني.

كان الأستاذ جبلا شاهقا، وهامة عظمى، وعملاقا كبيرًا، ومثالا يقتدى به. ورغم ذلك، كان رجلا متواضعا، غير أنه قوي الشكيمة، لا يرد الإساءة بالإساءة. يحترم زملاءه وطلابه، ويتصف بصفات نادرة، جعلته متميزا عن غيره، وقلما نعثر عليها لدى أقرانه. يعمل في صمت، وبهدوء، ولا يحمل الحقد لأحد. علاقته بجميع زملائه علاقة تقدير وتوادد.

رحم الله الأستاذ فيما قدم، ورحمه الله فيما أنجز وعمل، ولا ريب أنه من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

21
ثلاث ساعات مع المرحوم سعد الله

الأستاذ محمد نوار/قمار [وادي سوف]

الدكتور أبو القاسم سعد الله (1930 ـ 2013)، شخصية ثقافية عامةن ومرموقةن ولها مكانة في الساحة العلمية والثقافية في الجزائرن والوطن العربين وباقي العالمن بعد أبرز رواد المدرسة العلمية الحديثة لكتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

فهو يتميّز بذهن ذكين غني بشتى المعلوماتن وقدرة على التركيز والتلخيصن وعلى التركيب والتحليل واستنطاق الوثائق التاريخية إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد، لقد كان غربالا بعيدا عن المنهاج الكلاسيكي.. لم يأجل جهدا في حركة التعريب والجزارة للمقررات التاريخية.. تميّز بعمق الفكر، واتساع الثقافة وسلامة المنهج، وهو ما نفتقده اليوم عند ذوي الإنتاج الغزير من الكتاب ـ الذين يكتبون أكثر مما يقرأون ـ عاش مؤرخان ومات مؤرخان ورحل العملاق في صمت واختار أن يرقد متوسدا رمل الصحراء وهو ابنها الأصيل الذي يعشقها إلى النخاع..

رجل، النشاط ديدنه، والحيوية سنته.. يقضي في البحث والكتابة ساعات متوالية، يشعر إبانها بالسرور والرغبة في الاستمرار وخاصة عندما يجد ضالته، كان يدرس قضايا التاريخ بترو وتمحيص وترجيح وتطفيفن ويبت بتا سريعا

بنفس قانعة.. لم يستعجل.. لم يكتب من أجل الكتابة فقطن لم يقل للناس هاكم التاريخ، أو هاكم الثقافة من منابعها ومصادرها، بل قال هاكم عصارة الأبحاث التي قمت بها عبر السنين، دون انقطاع.. وأنا على استعداد لسماع النقد والملاحظات والانطباعات.. ولكنه كان رجلا

كان رجلا عرف بالجدية.. والصدق.. والموضوعية.. والشجاعة العلمية.. وبالإقدام، وبالإقدام دوّخ.. وحيّر.. وأزعج أعداء الحرف العربي، والثقافة الجزائرية.. وعشاق "فافا".

والإقدام في مفهوم المرحوم سعد الله، ينبغي أن يتبع التفكير العاقل، والدراسة العاقلة والتخطيط العاقل، والتحديد العاقل، والخطوة الأخيرة البت العاقل.. ولا بأس أن يكون الإقدام قراءة جديدة أو مراجعة أو تصحيحا جديدا.. أو إحجاما مؤقتا..

* لخص رحمه الله.. وقال عن عالم الإبداع الأدبي: هو عالم غريب وعجيب لا وإذا من دخله فارسا وخرج منه متوجا أو فالسا..

وإذا أردت أن تكتب بتفوق لا بد أن تقرأ بتذوق فلن تكون كاتبا بارعا حتى تصير قارنا في الوجه السجن..

* التقيت به ثلاث مرات في حياتي، الأولى عندما كنت داخلا مقهى الإنترنت، والثانية في مسجد الحي (مسجد بلال بن رباح بقمار) في الطابق العلوي، يوم الجمعة، في نهاية صلاة الجمعة، والثالثة جلسة حميمة نظم تراتيبها ابن عم الدكتور عبد الرحيم سعد الله، ودامت ثلاث ساعات كاملة.. بطبيعة الحال بعد أن أهديت له آخر إنتاج لي (صدر سنة 2007).

وله عني صورة متواضعة جسدها في كتابه"حاطب أوراق" صفحة 321ن محمد نوار، وهو من مثقفي الجبل الحاضر..

فتشعب الحديث الشيق بيننا ـ بعد أن قدم لي بنفسه كأسا من الشاي الأخضر ـ وفضلت أن أركز على الجانب الإنساني منه، وبعض الخصوصيات التي لا يعرفها الكثير، كحبه الشديد للتمر وخاصة "دقلة نور" والمنقر في الخريف، وعدم التفريط في اللباس السوفي (العراقية، والقدوارة، والعفان، والقشابية) وخضر قمار التي تحتوي على (البرطلاق، والفلفل الحار، والفقوص، والقناوية، والنعناع، والسلق، والمعدنوس، والثوم) والأكلات التقليدية السوفية المتنوعة.. والجولة الاستطلاعية للسوق الأسبوعي يوم الجمعة، والتحدث مع الأصدقاء.. والناس.. والفلاحين.. وقضاء وقت طويل في "البدوعط مع العائلة الكبيرة التي تملك مزارع للنخيل والفلاحة.. وغنية بإنتاجها الفلاحي.. والجلوس على الرمل بارتخاء واسترخاء.. وراحة تامة.. فكان لا يخجل من فقره ويردد دائما: أنا من عائلة فقيرة جدا، وكان والدي يعطينا خمس تمرات في اليوم.. وقد عملت معه في الفلاحة.. ولم أتوقف عن السقي "بالخطارة" (آلية لاستخراج الماء من الآبار) إلا عندما انقطع بي الحبل وسقطت في بئر وانكسرت يدي..

* آه يا سي نوار.. لقد تغيرت أشياء كثيرة في منظومتي الغذائية.. وأصبحت ميالا أكثر للخضر الطبيعية غير المصنعة.. والبعيدة عن المصبرات.. وأحافظ على جسمي من التغذية المضطربة والمتناقضة وغير المتوازنة.. وعديمة الفائدة الغذائية.. والتي لا ينصح بها الأطباء..

عندما انتشرت المجتمعات الصناعية جاءت توقعات تقول إن الإنسان

سوف يصبح أقصر عمرا، فالتلوث والقلق وإيقاع الحياة السريعة كل ذلك يؤثر في صحة الإنسان ويسبب الوفاة المبكرة..

ومهما كان الأمر فالإنسان وجد ليحيا، فلتكن إذن حياته فرحا لا ترحا والفرح هو الصحة: صحة البدن، وصحة العقل، وصحة النفس..

*** كيف حال صديقك بشير خلف.. مع رابطة الفكر والإبداع؟**

فقلت الحمد لله.. ما زال قائد هذا القطار بمفرده.. وعهدته ستنتهي في 2015 وهناك سيصبح العمر متقدما.. وللشيخوخة أحكامها.. وسيضطر ترك المشعل للشباب..

* أراك يا دكتور تكتب بشجاعة.. وكأن لا خطوط حمراء لديك.. ؟؟

لدي خطوط حمراء عديدة.. ولست مجبرا على فضحها.. وإنما احتفظ بها لنفسي.. وأعرف حدودي جيدا.. فلا أتجاوزها أبدا.. فخبرتي الحياتية والعلمية تكون معوانا لي على تنظيم عقلي، وتدبير أموري وتسيير شؤوني وأعمالي.. وأحول حياتي إلى معنى.. التأثير في الغير رأس مال كبير، فهو مكسب للمرء، هو يجلب له الكثير من الخير.. ويوحي بالثقة.. ويوحي بالثقة.. إنه رأس المال الحقيقي.

* ماهي الأشياء التي تلفت انتباهك في التربية الانجليزية؟

أنهم يعلمون أبناءهم السيطرة على النفس، فيتغلبون على عادات رديئة كثيرة ويصبحوا ميالين إلى الهدوء والبرود وحسن الاستماع.. والتكلم بدون استعمال اليدين.. فالانجليزي يؤمن بإخفاء العواطف.. ويعتبرها صفة مستحبة تحتاج إلى مران وتجارب وتعليم.. فالاحتفاظ بالهدوء يكسبهم وقارا واتزانا،

ويضيفوا إلى قيمتهم.. والتحدث ببطء يمكنهم من اختيار الألفاظ، ويمكن غيرهم من فهم كلامهم.

* ماهي قصة التعلق بالدراسة في الزيتونة.. وعدم التفكير في العودة.. إلا بعد الحصول على الشهادة؟

كنت مهتما ومنشغلا طوال الوقت بالدراسة والمراجعة.. والمطالعة.. لكي أنجح ولا أعود إلى العمل الشاق والقاسي في الفلاحة.. التي يمارسها الفلاحون في قمار بصفة عامة.. فالزيتونة كانت أرحم من قمار.. بما فيها من شقاء وقساوة وظلم استعمار وأعوانه.. وفقر واحتياج لا حدود له..

* أين نحن من ثقافة التنظيم في حياتنا.. ومجتمعنا الجزائري؟

لا يشكل العمل المستمر والكثير إجهادا، إنما عدم تنظيم العمل والفوضى هما اللذان يتعبان ويقسمان، أما النوم المريح الهادئ فهو العلاج الناجع للتعب، لأنه يجدد الطاقة ويعيد التوازن..

تأمل في المصاعب والعقبات.. فكر في ما من شأنه أن يهدر وقتك، أنف من بالك التأثيرات السلبية، وكن مستقلا بلا أثره، حرا بلا تعنت فسيجارة وقهوة والتحجج بالتعب وكثرة الأشغال.. هما أدوات الفوضى وعدم التنظيم فلا بد من السيطرة على هذا التخلف.. الضارب أطنابه في مجتمعنا.

* أين يجد الدكتور راحته في الكتابة بالقلم على الورق.. أم في استعمال الكومبيوتر؟

العصر تغيّر.. وتعقد.. والذي لا يتعامل مع جهاز الكومبيوتر يعتبر أميا..

نحن لأوقات العمل، فهي تملكنا، غير أننا نملك أوقات الفراغ، ونحن نتصرف فيها كما يحلو لنا.. وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن وقت الفراغ هو ميزان قوتنا وقدرتنا على التحرك، بل هو ميزان معرفتنا بقيمة الوقت وأهميته.. فالوقت ثروة، ومالك الوقت يمتلك أعظم ثروة، وهو حر مستقل، وهو سيد لا مسود

قلنا فيه خلاصة للتجارب، وخلاصة للمعارف، وخلاصة للفكر.. والقدرة على الإستغراق في العمل استغراقا ينسينا ما يجري حولنا وأمامنا.

هل يمكن تعريف الإنسان السوفي؟

السوفي كان محاصرا بين التجهيل والتفقير والقمع وظلم الحكام وقسوة الطبيعة وجور الزمان..

السوفي نشيط ومتحرك وصاحب إرادة، يحب العمل وإن لم يجده يخلقه، صبور، ويعتمد كثيرا على نفسه، ويتكل على الله في كل الأحوال.. وأجدادها "السوفة" رجال أفذاذ قارعوا الصعاب وجالدوا الأهوال وصارعوا الطبيعة وأتموا ما بدأوه، بفضل الجهاد والنضال والمثابرة والصبر على الفشل، وعلى النكبات والمحن.. وإن ضاقت بهم الدنيا اختاروا الرحيل.. والهجرة.. ولا يعودوا إلا بعد تكوين أنفسهم والنجاح في مقر إقامتهم الجديد.

ماهو مفهوم الأخلاق عندك يا دكتور؟

لا المجد ولا الشهرة هي الأمنية القصوى.. ولا الثروة.. ولا السيادة.. ولا المناصب العالية.. وإنما الأمنية الجوهرية الأولى هي الأخلاق.. وحب الناس.. وأن يكون الإنسان بسيطا في أعماله.. صادقا في أقواله.. مستقيما في مبادئه

وآرائه.. ويفيد وطنه.. ولا ينتظر شيئا منه..

*سمعنا أنك جربت التعليم الابتدائي.. أين وكيف.. ؟

اتصلت بجمعية العلماء المسلمين يوم 19 نوفمبر 1954.. وقبلت طلبي.. فتم تعييني في أول الأمر بمدرسة الثبات بالحراش بالجزائر العاصمة.. أين كنت أسكن في حمام مع زميل آخر اسمه الأزهاري بته.. ثم وقع إغرائي بالتنقل للتدريس بمدرسة التهذيب بحي العين الباردة في أعالي "مناخ فرنسا".

* باختصار ماذا قدم الدكتور أبو القاسم سعد الله للثقافة الجزائرية؟

1 ـ عملت على أن أحمي الذاكرة الجزائرية من النسيان، وألزمت نفسي بأكبر قدر من الموضوعية والجدية في البحث.. ولا أصطنع بالمرة وقائع لتأييد وجهة نظري.. والحمد لله رب العالمين.

2 ـ ركزت جهدي على المساهمة في بناء الوعي التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري.

3 ـ بذلت كل ما في وسعي على النهوض بصناعة النهضة الحضارية والمحافظة على استمراريتها في الوقت نفسه..

رحمك الله وأسكنك فسيح جنانه..

22
من أقوال الدكتور أبي القاسم سعد الله

محمد نوار

إن المؤرخ ليس دائما هو الذي يؤرخ لعصره، ذلك أن عصور التاريخ كثيرة ومتباعدة ولكن رموز السلطة الواحدة.

ولذلك فإن المؤرخ يجد نفسه ناقدا لسلطة عصره ضمنيا أو مؤيدا لها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مؤرخ محافظ وآخر ليبرالي وهناك مؤرخ مقرب إلى رجال السلطة أو هو منهم، وهناك المؤرخ المستقل البعيد عن أهل القرار.

وبالجملة فالمؤرخ إنسان قبل كل شيء يتأثر بما حوله من بيئة وأسرة وسلطة وإعلام وتقاليد.

من أقوال الدكتور أبي القاسم سعد الله:

التاريخ يجب أن يكتب من مسافة زمنية معقولة، أي: بعد انقراض الجيل الذي صنع أحداثه.

وكلما ابتعدت المسافة كلما توفر التفسير الموضوعي ومعالجة الأحداث ببرودة علمية.

أما إذا اقتربت المسافة فإن حرارة العاطفة هي التي ستطغى وتعطي للأحداث تفسيرا غير موضوعي يكون عادة خاضعا لنزوات الأشخاص الذين

صنعوا الأحداث فهم جميعا يعتقدون أنهم هم صانعو الحدث وأن الآخرين غائبون عنه أو ثانويون فيه.

من أقوال الدكتور أبي القاسم سعد الله:

زوجتي المصون (أم أحمد) واسعة الثقافة وقد قدمت إلي مساعدة عظيمة في مسيرتي منها إيمانها برسالتي الثقافية الوطنية، وهي التي واستني حين ضاعت محفظتي الثمينة وكدت أصاب باليأس والإحباط، وهي التي شدت من أزري كلما اعترضتني عراقيل وتحملت معي الغربة وشظف العيش والحرمان.

من أقوال الدكتور أبي القاسم سعد الله:

بعضهم قد صنفوني من مؤرخي السلطة على أساس أنني أكتب عن قضية الشعب الجزائري، فهؤلاء يطلبون مني أن ألعن السلطة لكي أكون مؤرخا حقيقيا.

وبعضهم صنفني مؤرخا ضد السلطة لأنني لا أمتدحها ولا أشيد بمواقف رجالها، بل أنتقدها ضمنيا تارة وصراحة تارة أخرى، والواقع أنني مؤرخ (مخضرم) عشت في عهد الاستعمار الفرنسي وهو عهد عائشة الشعب الجزائري كله، ويعرف أنه عهد تميز بالتجهيل والتفقير والقمع.

وكنا نطمح أثناء الثورة أن مصيرنا سيتميز بالحرية والعلم والثروة فإذا نحن بعيدين عن ذلك تماما.

فماذا يفعل المؤرخ الموضوعي؟ أعرف أن هناك من ظل يمدح الاستعمار ويعتبر وجوده مكسبا وثقافته غنيمة والعلاقات معه دليلا على التسامح والانفتاح والعالمية العلمية، وهؤلاء يحتسبون ولاءهم للسلطة الجزائرية بمدى

تقربها أو ابتعادها عن القطب وهو دولة الاستعمار السابق.

وأعرف أيضا أن هناك رافضين لكل ما تقوم به السلطة في اتجاه العولمة والمعاصرة والواقع أنني لا أقيس نفسي لا بهؤلاء ولا بأولئك، ولكنني أترك نفسي لحكم الآخرين لا في زمننا فقط ولكن فيما يأتي من الزمان.

فالمؤرخ يجب أن يكتب عن مسيرة وليس عن سلطة، عن قضية شعب وليس عن نزوة حاكم، وكما يبحث الإنسان عن الخلود في النصب التذكارية والأضرحة المحصنة والمساجد الفاخرة والأوقاف القائمة، كذلك يبحث المؤرخ عن الخلود في مواقفه الثابتة وآرائه الصادقة.

والخلاصة أن مؤرخي السلطة سرعان ما ينطفئون بانطفاء السلطة التي تمدهم بالطاقة الضوئية، أما المؤرخ الموضوعي فيستمد طاقته الضوئية من نور الحكمة والبصيرة.

23
حوار مع جريدة (الحقائق) فيفري 2007

لقب سعد الله.. بعدة أوصاف في عناوين بارزة مضيئة

هو واحد من أبرز مفكري ومؤرخي (جيل الستينيات في الجزائر)، دخل إلى عالم التاريخ من باب الأدب في البداية، لكنه ما لبث أن تصرف بمعظم جهوده إلى البحث في التاريخ الجزائري والعربي والعالمي، وإلى الاشتغال والانشغال بالتاريخ وإن ظل الأدب في خلفية كل ما يكتب.. وأصبح وجها فكريا مألوفا ومقدر عند المثقفين العرب المستنيرين منذ الستينات.

كان من رواد الاهتمام والعناية بالجوانب المهملة والمهمشة.. والعناية بالتاريخ والثقافة الجزائرية والعربية..

* مؤرخ الجزائر بلا منازع ومعلي رايتها بين الأمم، فهو في الحقيقة فوق أي لقب وفوق أي تكريم..

* أبو القاسم سعد الله مفخرة الجزائر في هذا العصر..

* أبو القاسم سعد الله.. عالم رفض الأضواء..

* كان يقول عن نفسه: أيامي معدودات ومشاريعي كبيرة..

* يتقن سعد الله سبع لغات........

* صائد جواهر التاريخ الوطني في أرجاء المعمورة..

* يمضي الرجال ويبقى النهج والأثر..

* سعد الله.. صوفي في محراب التاريخ..

* سعد الله.. مؤسس المدرسة التاريخية الجزائرية..

* لا سلطان لهذا الرجل غير سلطان العلم والمعرفة..

* سعد الله.. كان ناقدا وصحفيا وأديبا متمكنا..

* عاهد نفسه ألاّ يأخذ غير الجنسية الجزائرية..

* كان من أنصار كتابة الأمازيغية بالحرف العربي..

* أول من اكتشف أول رواية عربية وصحح مغالطة هيكل..

* كان لا يخجل من فقره ويردد دائما: أنا من عائلة فقيرة..

* سعد الله رفض الجنسية الأمريكية.

* سعد الله متعفف.. لا يحب السلطة ولا السلطان..

* الحكومة المؤقتة أرسلته للدراسة في أمريكا..

* سعد الله الفحل كان فارس من التاريخ ورجل البيان..

* سعد الله كان من القلائل الذين لم يكن عنده عنصرية حزبية بل كان ثوريا..

* سعد الله كان صريحا جدا وكان يقول: أنا من عائلة ريفية فقيرة جدا، وكان والدي يعطينا خمس تمرات في اليوم..

* كان يشكو عدم اعتراف الجامعة الجزائرية بشهادة الدكتوراه التي تحصل عليها من الجامعة الأمريكية (منيسوتا).

* حمى ذاكرة الجزائر من النسيان ورفض العلاج في فرنسا..

* موسوعة فكرية متفتحة على المنهجية والواقعية..

* الرجل الذي تبكيه الكتب..

* لقب ب"الناقد الصغير" وساهم في ميلاد أول قصيدة حرة بالجزائر..

* عاش بسيطا وأوصى بدفنه دون بروتوكولات..

* ملأ الدكتور أبو القاسم سعد الله الدنيا وشغل الناس منذ عودته إلى الجزائر سنة 1965م.

* قراءة في درّة كتب المرحوم سعد الله.

* رحيل شيخ المؤرخين وعالم العلماء أبو القاسم سعد الله..

* أبو القاسم سعد الله لم يمت لأن أعماله خالدة..

* سعد الله في مقام منديلا عندنا..

* سعد الله.. أغضب النظام في العشرية الحمراء"و"احتضنته أمريكا.

* أثمن وقفة وزير المجاهدين الذي كرمه وطبع كل كتبه..

* أبى سعد الله إلاّ أن يكون سيد نفسه إلى أن لقي ربه..

* رفض عروض العلاج في الخارج وأصر على البقاء في الجزائر..

* رفض نصيحة الأطباء بالتوقف عن الكتابة..

* سعد الله جهبذ نطاس لا يعرف فضله إلا من اطلع على مؤلفاته..

* أبو القاسم سعد الله يوصي بحبس مكتبته لدار الثقافة بالوادي..

* ظل مستنكرا لاتهام الأمير عبد القادر بالخيانة ووفيا لرموز الجزائر..

* سعد الله أوصى ألا تقام له جنازة رسمية ولا يدفن في العالية..

رحمه الله

المصادر: الجرائد والمجلات الوطنية، والصحافة العربية.

محمد نوار

24
مبدع من "البدوع"

بقلم محمد نوار

* **البدوع**: المنطقة التي ولد فيها المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله، وتقع غربي مطار "قمار".

* الإبداع لغة: هو استحداث الشيء على غير مثال سابق فهو بديع، والفعل أبدع، أي أتى بالبديع.

* أديب وشاعر ومؤرخ وكاتب، يجهل تاريخ ميلاده، تعوّد السير حافيا على رمال قريته، فلم يعرف الحذاء إلا عند بداية سفرياته، ولم يعرف قبل خروجه من "قمار" سقط رأسه سوى الحياة البائسة، ولم تكن حياته في غيرها بأحسن منها، فقد نام في الحمامات، وسكن فوق سطوحها، وضحى من أجل العلم والمعرفة والحقيقة التاريخية، ولم تنته الصعاب، والعقبات في رحلاته، فقد كان أشبه بالبيئة التي ولد وترعرع فيها، وأول الصعوبات واجهته في جامع الزيتونة بتونس الشقيقة سنة 1947م، ونترك إهداءه يتكلم في كتابه"هموم حضارية" التي استهلها بـ: إلى روح الحاج محمد مامّة الياجوري الذي كان لي بتونس عوض الأب في أول غربة، والذي لولا رعايته لي ماديا طيلة ست سنوات (1948 ـ 1954م)، لما استطعت مواصلة دراستي في جامع الزيتونة المعمور، إن الله وحده هو القادر على تعويضه على إحسانه، وإنسانيته، وحبه

للعلم، رغم أميته، وعيشه عيش الكفاف على ما تجود به أيدي أهل الخير، باعتباره قوّاما على شؤون "جامع القصر" بحي باب منارة، رحمه الله".

المتأمل في شخصيته ومسيرته يدرك بأنه متواضع إلى حد الزهد، يعرف حدوده جيّدا، واقعي إلى أبعد ما يمكن تصوّره عقلا وخيالا، له حب كبير ودفين لمسقط رأسه "البدوع" المنطقة التي ولد وتربى وترعرع فيها هذا المبدع تقع "البدوع" غربي مطار قمار تمرس في الفلاحة التقليدية الصحراوية، وله ذكريات كثيرة منها السّار ومنها المؤلم والمتعب.

ويقول هو عن نفسه في جريدة الشروق اليومي، العدد: 2363 جويلية 2008م، إذا كنت تزور "وادي سوف" لأول مرة على متن الطائرة ستنزل في قمار التي فيها مطار الوادي، فإذا توقفت محركات الطائرة، ونزلت إلى اليابسة، واتجهت نحو قاعة الحقائب حاول أن تلقي نظرة على بعد أقل من كلم، هل تدري ماذا سترى؟ إنك سترى "البدوع" (مسقط رأسي) التي لا يفصلها عن المطار سوى مدرجان والسياج الذي يمنع من عبور المدرج.

عاش للحقيقة، بكره الجدل البيزنطي الفارغ، يعمل في صمت وهدوء، بعيدا عن الأضواء، بعيدا عن الأعين، يرافع عن هويتنا الحضارية واللغوية والدينية بالأدلة من التاريخ، ومن الميراث الحضاري، فأخرج ما كان مغمورا أو أريد له الضمور والنسيان.. يعتبر من الأوائل الذي كتب الشعر الحرّ من الجزائريين، مؤرخ وقارئ للتاريخ، فلم يكن مثقفا عاديا، يبحث عن نفسه ولنفسه، ولكنه مثقف بأدوات العصر، يعالج قضايا مصيرية لأمته من أجل هدف واحد، هو حمايتها من الذوبان، والدخول في فوضى الأفكار، والشتات

التاريخي.. يوافق بفهم، ويخالف بإنصاف، ويرد بأدب، ويجيب بحكمة وإتيكيت، ويدعو برفق.

فهو صاحب هم ثقافي يؤمن بالبحث العلمي وقوة الفعل، وما يتحقق على أرض الواقع.. شاهد حي على العصر، وما خلقه الصراع بين ما هو من التراث، وما هو من مخلفات عصر الانحطاط.. يعلم أدق تفاصيل تاريخ الجزائر.. يتقن لغة بلده، ولغات أقوام أخرى كالفرنسية والانجليزية والفارسية والألمانية..

مؤرخ قدم للجزائريين تاريخهم الذي تعودوا على استيراده من عدوهم بصورة أنقى وأحلى مما قدم تخيل قهار له وهم.. اختار غيره الطموح إلى المناصب الإدارية الرسيمة السامية.. وفضل هو التفرغ للدراسة والتدريس والبحث والإنتاج الثقافي الحافظ للهوية.. مثلما عرف عن المناصب ورفض أن يكون متسلقا أو وصوليا، أو انتهازيا، عرف عن بريق وأضواء الشرق والغرب، فقد كان بإمكانه أن يختار بلدا عربيا أو غربيا ليكون له موطنا ومسكنا وفضاء أرحب لإنتاجه وفكره لكنه فضل العيش في الجزائر بين أهله وطلابه مدرسا، أو مناقشا، أو موجها..

والخلاصة: فالمرحوم.. الدكتور أبو القاسم سعد الله، مدرسة في التاريخ.. وقامة من قامات هذا العصر، فهو يمثل نقلة لها وزنها، وقد ترك انطباعات حيّة في تفكير ونهج ممن تتلمذوا عليه ثورة في المنهج التاريخي في الجزائر والعالم العربي وباقي العالم.. رحمه الله.. وأسكنه الجنة وفردوسها..

محمد نوار

25

سعد الله حمل معه اللوح إلى أمريكا لتحفيظ ولده القرآن الكريم

الدكتورة فوزية محمد بريون [طرابلس/ليبيا][1]

هذه كلمة رثاء في أستاذنا الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي منحه رفاقه الجزائريون العارفون بفضله، لقب "**شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين**"..، رثاء تخونه اللغة وتمكر به التراكيب فيتحول إلى مديح!.. إذ يجد العقل نفسه مبحرا في عوالم تراثه العلمي والأدبي والثقافي التي تفرغ مفردة الموت من معناها السديمي، فتتلاشى أمام آثاره المجسدة لعصارة فكره، وتفتقات ذهنه، ومثابراته الدءوبة على عدم إغماد قلمه، حتى في أحلك الظروف.. ليس من أجل إعمال الفكر وإحكام النظر ونشر المعرفة فحسب، وإنما لتجسيد موقف أخلاقي يفيض بالالتزام وينضح بالمسؤولية، متنزها عن ذلك الانفصام النكد الذي أصاب كثيرا من مثقفي جيله.

---

(1) فوزية محمد بريون هي شاعرة وأديبة وناقدة ليبية الجنسية، لها اسهامات متميزة في مجال الشعر الفصيح والأدب العربي والنقد، لها عدة كتابات في عدد من الصحف اليومية مثل جريدة الرياض وجريدة الجزيرة وغيرها بالإضافة إلى كتبها وأشعارها المطبوعة. بعد حصولها على ليسانس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من كلية التربية في الجامعة الليبية بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ذهبت لمصر وحصلت على ماجستير في الأدب الحديث من جامعة القاهرة عن بحث بعنوان " القصة القصيرة في ليبيا"، ثم حصلت على الدكتوراه في الأدب والفكر الحديث من جامعة مشغان عن بحث بعنوان " **مالك بن نبي حياته ونظريته في الحضارة**". [كان لتربية الدكتورة فوزية وحياتها الأسرية عظيم الأثر على حياتها وتوجهها فقد كان والدها الشيخ محمد بريون حافظاً لكتاب الله ومربياً ومعلما كاتباً وشاعراً وملماً بعلوم العربية وقد تولى أيضاً رئاسة تحرير مجلة "صوت المربي" في منتصف الخمسينيات مما كان له أعظم الأثر على ابنته.

الدكتور أبو القاسم سعد الله ليس أستاذ التاريخ المبرز، بجامعة الجزائر العريقة فحسب، وليس مجاهد ثورة التحرير التي ألهمته القوافي والأقاصيص فأبلى فيها بسيف الكلمة، وأهداها إبداعا باقيا، بوّأه في تاريخ أدبها مكانا.. فقط، وهو ليس الكاتب المهموم بحال أمته الذي له في كل قضية رأي وفي كل أزمة رؤية، وكفى.

كما أنه ليس الفيلسوف الذي خبر سنن التاريخ وملابسات الوقائع والأحداث، فأحاط بها وتتبع جذورها ومساراتها واستنبط نتائجها وآثارها، وإنما هو أكثر من ذلك وأعظم وأبعد..، إنه عالم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني متجددة. عالم لم تفارقه موهبة التعلم، لأنه آمن بأن العلم ليس له ضفاف، وأن سيد الخلق قد أوصانا بالسعي في طلبه من المهد إلى اللحد.. وعالم لم تفارقه موهبة التعليم، لأنه آمن أن الإنفاق من العلم المحصل لا يزيده إلا نماء وعمقا.. وأن مرافقة طلاب العلم والباحثين عنه وفيه، ومعايشة تكوينهم الذهني وترقيهم المعرفي لذة لا تضاهيها لذة، ورسالة لا تفوقها سوى رسالات الأنبياء.. ولذلك فقد تجسدت في الراحل أخلاق العلماء، تلك البؤرة الجامعة للبحث عن الحقيقة في صدق ونزاهة وتجرد وضمير حي. ولذلك كان معصوما عن الميل بمنزلته العلمية نحو تحصيل المال أو الجاه أو المنصب، فلقد كان طلبه العلم من أجل العلم.. بل أقول إنه قد طلبه من أجل الله.. حيث لا يؤدي العلم الحقيقي إلا إلى المعرفة به والخشية منه؛ منتظما في مقام مقولة الغزالي: "طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله". ولذلك فليس غريبا أن يرفض الراحل منصب وزير الثقافة، وهو منصب رفيع في أمة يتكاثر فيها المثقفون والمبدعون، وتتسامق فيها العربية بعد قرن وثلث من سياسات الفرنسة، التي أرّخ لها الراحل في مؤلفاته، وفصّل

في جوانبها السياسية والثقافية والسوسيولوجية.. ترفع عن هذا المنصب، أو اعتذر عليه كما قال، لأنه كان يفضّل أوزار العلم والثقافة ولذتها عن أوزار السياسة والإدارة، التي يلهث وراءها الكثيرون.

بدأ د. سعد الله حياته مبكرا بطلب العلم في قريته بالجنوب الجزائري، حيث حفظ القرآن، ثم رحل إلى الزيتونة ليواصل فيها تعليمه لمدة سبع سنوات، قبل أن يبعث من "جمعية العلماء المسلمين" للدراسة في "كلية دار العلوم" بالقاهرة، وكانت آنذاك ساحة لتأييد الثورة الجزائرية، واستقبال رجالاتها ومناضليها وشبابها. وكان الراحل قد نشر كتاباته الأولى في صحيفة جمعية العلماء "البصائر"، التي دعم رسالتها وتبنى منهجها. وفي بداية الستينيات حصل على درجة الماجستير من جامعة القاهرة، ثم سافر إلى أمريكا ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعة منيسوتا عن أطروحته المتميزة "الحركة الوطنية الجزائرية" التي ترجمت إلى العربية في جزأين، ثم توسع فيها حتى صارت أربعة.

كانت تلك أولى الخطوات في جهوده الرامية لاستعادة المرجعية التاريخية، وافتكاكها من قبضة الغربيين والمستشرقين، وتفنيد تفسيراتهم المغرضة. فلقد تيقن بأن الجزائريين أولى وأحق من غيرهم بكتابة تاريخهم وتفسيره وتحليله. وهو ما قاده بعد ذلك إلى الالتفات إلى تاريخ وطنه الثقافي، الذي هو الثروة الوطنية، والمصدر الإستراتيجي المغذي للوعي والهوية، فانكب على جمعه ووصل أطرافه الموزعة بين دور العلم والعبادة والزوايا والخزانات داخل بلاده الشاسعة، ومكتبات العالم ومتاحفه ومراكزه العلمية، محققا في المخطوطات والوثائق والرسائل، باحثا في مآثر قومه وعظماء أمته حتى وفقه الله إلى إصدار

كتابه المرجع "تاريخ الجزائر الثقافي" في تسعة مجلدات زاخرة، أعطت لوطنه وجودا لافتا بين الأمم. كما أصدر سفره الثمين "الحركة الوطنية الجزائرية" في أربعة أجزاء، ومؤلفه القيم "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" في خمسة أجزاء.. هذا إضافة إلى عدد من التحقيقات والترجمات وأدب الرحلات والكتابات الهادفة الرصينة.

تلقى الراحل عدة أوسمة وجوائز تقديرية منها "وسام المقاوم" عن دوره في الثورة الجزائرية، عام 1984، و"وسام العالم الجزائري" عام **2007**، كما فاز عام 1991 بـ"جائزة ابن باديس" عن مؤلفاته القيمة في الثقافة العربية والإسلامية؛ وكانت الجائزة مبلغا مجزيا من المال بالعملة الصعبة، ومعلوم أنه كان في حاجة ماسة إليه، لكنه وفي حفلة تكريمه وتسلّمه الجائزة أعلن عن تبرعه بها لمكتبة جامعة الأمير عبد القادر، وأوصى بأن يطلق على القسم الذي تصفّ فيه الكتب المشتراة من قيمة الجائزة اسم "الانتفاضة الفلسطينية"، فجسد بسلوكه هذا قيمة هي غاية في الرقي، يتحقق فيها قوله سبحانه "ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة". وهي منزلة عليا لا يقدم عليها إلا أكابر القوم الذين يثقون بما عند الله.

والحقيقة أن الراحل لم يصل إلى تلك المنزلة إلا بعد مكابدة ومجاهدة، ومرابطة يقظة في رباط العلم، وبُعد عن الأضواء وترفع عن السفاسف.. ذلك أنه كان رجلا أمة.. مفكرا موسوعيا.. باحثا ومؤرخا ومثقفا رفيع الطراز؛ قضى في خزائن كنوز المعرفة سواد شبابه وبياض شيخوخته، ولم يفارق القلم يمناه حتى عندما طلب منه الأطباء التوقف عن الكتابة في مرضه الأخير.. فلقد كان ذلك هو فسيلته التي أراد أن يسقي بمدادها تربة الفكر قبل أن يلاقي ربه.

قابلت د. سعد الله أول مرة في أغسطس 1969 عندما حضر إلى طرابلس عضو وفد بلاده إلى "مؤتمر أدباء وكتاب المغرب العربي"، وكنت قد اخترت حينها من قبل الأستاذ علي مصطفى المصراتي، عضواً في الوفد الليبي مع الشاعرة هيام الدردنجي وثلة من الكتاب الليبيين، وكنت قد تخرجت لتوي من "كلية المعلمين العليا"، ولم يكن رصيدي سوى بعض الكتابات الصحفية والمحاولات الشعرية، أما د. سعد الله فكان شاعرا وقاصا وأستاذا جامعيا.

ومرّ زمن قبل أن نلتقي مرة أخرى في الثمانينيات في أمريكا، عندما قابله زوجي في إحدى مرافق **"جامعة متشجن"** فتعرف عليه ودعاه مع زوجته وابنه الوحيد أحمد إلى بيتنا، فتوثقت الصلة بيننا منذئذ على المستويين الشخصي والعلمي؛ وكنت آنذاك في صدد تجميع المادة العلمية لموضوع أطروحة الدكتوراه عن مالك بن نبي، فوجدت منه كل دعم وتشجيع، إذ زودني بكثير من المصادر والمراجع التي كان يصعب عليّ الوصول إليها لولاه. كما قام لاحقا بقراءة بعض الفصول وإبداء ملاحظاته القيمة حولها، مسجلا إعجابه بالفصل الأول من الأطروحة، الذي بينت فيه ما لحق الجزائر جراء الاستعمار الفرنسي من تحطيم لبنيتها التعليمية والاجتماعية. ولقد كان للدكتور سعد الله الفضل في ربطي ببعض القامات الجزائرية من أمثال الدكتور عبد الرزاق قسوم، والدكتور محمد ناصر، الذي أهداني مجلدي الشيخ طفيش عن سليمان الباروني، والدكتور [محمد] العربي معريش، الذي قام بالبحث عن **حمودة الساعي صديق بن نبي** فسجّل لي ذكرياته عن مالك. وبعد أكثر من عقدين، عندما أذن الله بطبع الترجمة العربية تكرم د. سعد الله بكتابة تصدير للكتاب "**مالك بن نبي: عصره، حياته ونظريته في الحضارة**".

لقد ظل د. سعد الله يتردد على مكتبة جامعة متشجن كلما سنحت له الفرصة، وكلما مكنته ظروفه المادية من توفير ثمن ثلاث تذاكر له ولأسرته، فكنا نسعد به وبأسرته، حيث نقضي الساعات في مناقشة موضوعات الساعة ومنها حتما الأوضاع في الجزائر وليبيا، أيام نكبتها الأخيرة. وكان الراحل يبدأ يومه بالذهاب إلى مكتبة الجامعة فيعتكف كالراهب المتبتل في ردهاتها وبين رفوفها وقاعاتها، باحثا عن تاريخ بلده وجذور أمته، ولا يفارقها حتى تقفل أبوابها في أماسي الصيف الطويلة، فيعود إلى بيته ليراجع "لوح" القرآن الذي جاء به من الجزائر ليكتب فيه أحمد سورة بعينها أو آيات يكون والده قد حددها له، فيسمعه ما حفظ، قبل أن يستعد لغيرها في اليوم التالي. وكانت حفصة، أم أحمد، الزوجة الصبور، والقارئة النهمة، المطلعة على جهود زوجها والمثمنة له ولها، خير داعم له ولكل المشاريع الكبيرة التي صرف فيها جلّ وقته وعصارة عمره.

ماذا عساني أن أكتب عن هذه القامة السامقة، وأنا التي عاصرتها وجالستها وقرأت لها وتراسلت معها فإذا بي عاجزة عن الإلمام ولو بجزء يسير من علمها ومعارفها وهمتها التي قدّت من الصخر مآثر، وفتحت للأفكار معابر.. وتمسكت بالأصالة والانتماء فكانت كالطود في محيط الرياح العاصفة؟ حسبي الآن هذا الاقتراب الوجل من عالمه المهيب، وهذا الاحتفاء الحزين بانتقاله إلى رحاب الرحيم الودود الشكور، ليحبوه ويكرمه.

إن لي معه مراسلات وفي أدراجي ببلاد الاغتراب عددًا من الخطابات بخطه المنمنم، تضم أفكاره واقتراحاته، وومضات من وجدانه المرهف في ظروف مختلفة من تاريخ الأمة، لعلني أتفرغ لها يوما لأضيف لتاريخ هذا الرجل

العظيم، الذي أصبح الآن صفحة نورانية من تاريخ الجزائر الثقافي الذي كان أول من ارتاد متاهاته ونظم سجلاته.

رحم الله شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين، وعوض الله الجزائر والعرب والمسلمين فيه خيرا، ووفق أبناءه وتلاميذه للإقتداء به والسير على طريقه.. وعزاء محبيه أنه وإن انتقل بجسده، فهو باق بآثاره ومؤلفاته وأسفاره، وبما جسده من خلق وتواضع ونزاهة وترفع عن زخرف الحياة الفانية.

جمعنا الله به في جنان الفردوس مع الشهداء والعلماء والأولياء.. وحسن أولئك رفيقا.

26

هيرودوت الجزائر يرحل وتبقى موسوعاته التاريخية والثقافية تنتظر الباحثين

بقلم عبد الكريم عوفي (*) جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كتب كثير من الزملاء العلماء وطلاب العلم عن العلامة الراحل، أستاذ الأجيال وشيخ المؤرخين الجزائريين (أبو القاسم سعد الله) **"هيرودوت الجزائر"**. كتبوا عن مآثره وقدموا شهاداتهم. والحقيقة إنه مهما كتبنا وتحدثنا عنه فإننا لن نعطي الرجل حقه، لأن ما كتبه عن الحركة الوطنية والثقافة الجزائرية وأعلامهما بمختلف أطيافها كثير وكثير جدا. وعزاؤنا الوحيد أن نتضرع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجزيه عنا وعن العلم خيرا كثيرا، وأن يسكنه فسيح جنانه، وأن ينزله منزلة عباده الصالحين.

سأل الكاتب الصحفي مراد وزناجي المرحوم عن عدد من الأعلام الجغرافية التي احتضنت مسيرته الفكرية فأجابه: "قمار مطلع الفجر، ووادي سوف واحتي الوارفة، والزيتونة مهد العلم والأدب، ودار العلوم بيت سدنة اللغة العربية والدراسات الإسلامية الرصينة، وبن عكنون جنتي بعد عذاب الغربة... ومنيسوتا نقطة التقاء حضارتين عندي (حضارتنا وحضارتهم)، وآل البيت تجربة الجمع بين تراث الشرق ومنهج الغرب... ". بهذه المفاتيح اللسانية لخص الدكتور أبو القاسم سعد الله سيرته العلمية العطرة. إنه صاحب أكبر

موسوعة ثقافية جزائرية "**تاريخ الجزائر الثقافي**"، وأحد الأعلام الذين شكلوا على مر السنين الثقافة الوطنية المتميزة، كابن الفكون، وابن قنفذ، وأبي رأس المعسكري، وابن باديس، وأطفيش، وابن أبي شنب، والإبراهيمي، ومالك بن نبي، ومفدي زكرياء، ومحمد العيد، وغيرهم كثير، ممن تُعطر سيرتهم كتب التراجم والفهارس والطبقات.

لا يخفى على المثقف النزيه والطالب النجيب أن أبا القاسم سعد الله قامة سامقة من قامات العلم، فهو العالم الموسوعي؛ المؤرخ، والمحقق، والرحالة، والأديب، والصحفي، والمترجم، والمصلح الاجتماعي، والمربي، لقد أثرى المكتبة الوطنية والعربية، بل العالمية بعشرات من الكتب، ولا سيما المطولة منها، وألف عقولا عبر مسيرته التعليمية في الجامعة الجزائرية وفي عدد من الجامعات خارج الجزائر، إذْ كوَّن أجيالا من الباحثين كان لهم الأثر الطيب على الحركة العلمية والفكرية.

تعود صلتي بالرجل إلى أيام الطلب العلمي في الجامعة عندما قرأت بعض كتبه (محمد العيد آل خليفة، والشاذلي القسنطيني، وابن العنابي وابن حمادوش ومنشور الهداية وابن الفكون، وبعض كتبه التاريخية). وقد قويت هذه الصلة عندما حضرت له بعض الندوات والملتقيات الفكرية، ولما بدأت في العناية بالتراث الجزائري المخطوط عام 1982م، تأكدت أن خير من يشد عضدي في هذا الحقل المعرفي هو الشيخ أبو القاسم سعد الله، لأنه أكثر من غيره معرفة بكنوز التراث المخطوط في الجزائر وفي خارجها. فكان تاريخ الجزائر الثقافي مرآة عاكسة لما أنشُده، وكانت البداية مع جزئيه الأول والثاني قبل أن تلحق الأجزاء الأخرى تباعا ـ وكنت على معرفة منه بمراحل إنجازها ـ، بل أفدت منه الكثير

قبل أن يخرجها مطبوعة، إذ كنت أفزع إليه كلما أشكل علي أمر. بيني وبينه مراسلات عديدة بشأن المخطوطات في الجزائر. لقد كان الرجل متواضعا سخيا في المعلومات العلمية والتوجيهات والنصائح، رغم بعده ومعاناته وكبر سنه.

لقد خدم الدكتور أبو القاسم سعد الله المجتمع الجزائري خدمة تاريخية وثقافية وأدبية ولغوية وتربوية وسياسية واجتماعية ونقدية، خدمة لا نجدها عند غيره من أعلام الفكر الجزائري؛ قديما وحديثا، فآثاره الخالدة التي تزيد على ثلاثين مجلدا، غير المقالات والأبحاث المتناثرة في المجلات والجرائد الوطنية والعربية والأجنبية شاهدة على سيرته العلمية العطرة وعلى المكانة المرموقة التي ارتقى إليها.

ترك الدكتور سعد الله بصمة قوية بأعماله المتميزة، فهو عالم لا يُشق له غبار في منهج كتابة التاريخ وخدمة التراث والتعامل معه. إنه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مُرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم. ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الرجل صاحب مدرسة متميزة كوّن رعيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، كالتاريخ والآداب والرحلات والاجتماعيات وغيرها.

ولتميز كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي"، الذي صدر في تسعة أجزاء عن دار الغرب الإسلامي، عام 1998م، ثم أعيد نشره في الدار نفسها بعد أن أضاف إليه جزءا عاشرا، وكان يحبذ تسميته بـ (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، لأن ما تضمنه من مواد واسعة ونادرة يتطلب هذه التسمية، لكن الكتاب عُرف في طبعتيه الأولى والثانية (جزآن) بالاسم المذكور فأبقى عليه كما هو. قلت: ولتميزه

أحببت أن أخصه بالذكر هنا وفاء لجهوده النادرة.

فالكتاب اعتنى فيه بالآثار الفكرية والمادية التي أنتجها العلماء الجزائريون في شتى فنون المعرفة الإنسانية، كالفقه، والأصول، والتوحيد، والفرائض، والنوازل، والقرآن وقراءاته، والتفسير، والحديث النبوي الشريف، والإجازات، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، واللغة، والنحو، والصرف، والمعاجم، والأدب، والشعر، والقصة، والمسرح، والأمثال، والتاريخ، والتراجم، والسير، والأنساب، والأثبات، والرحلات، والطب، والسحر والخرافة، والتنجيم، والفلك، والزراعة، والاجتماع، والسياسة، والفلسفة، والقضاء، والرياضيات، والجغرافيا، والكيمياء، والفنون الأخرى، كالموسيقى، والرسم، والنحت، والمنمنمات، وغير ذلك مما يتعلق بالآثار المادية، والمؤسسات، والمكتبات، والمساجد، والزوايا، والقصور.

أكد الدكتور أبو القاسم سعد الله أن ما جاء في الموسوعة من معارف ومواد لم يأت بسهولة، إذ رجع فيه إلى مئات من المصادر والمراجع، والوثائق، والمخطوطات، والآثار، والوسائل المادية؛ في مكتبات، ومتاحف، وخزانات، وزوايا، وأقبية، ومراكز بحث في شتى أنحاء الجزائر، وفي خارجها؛ في كبريات الجامعات، والمراكز البحثية، والمتاحف، شرقا وغربا، وما أفاده من الأرشيف الفرنسي كان غزيرا، إذا إن الكثير من أوجه النشاط الثقافي والفكري في العهدين العثماني والفرنسي مُستمد من كتابات الفرنسيين. وقد أشار الأستاذ أيضا في أكثر من موضع إلى أن المتعامل مع المصادر والوثائق ينبغي أن يكون حذرا، وألا يقبل كل ما يُقال، بل على الباحث أن يعمل فكره ويرجح ما هو أقرب إلى الحقيقة.

إن المادة التي جمعها شيخنا في هذه الموسوعة من خلال رحلاته مع المصادر والمراجع التي وقف عليها في الجامعات ومراكز البحث على اختلاف اهتماماتها، تقدم خدمة جليلة لخَدَمة التراث الجزائري المخطوط والمطبوع؛ الذي أنتجه علماؤنا عبر العصور المختلفة، ولم ير بعضه النور بعد. هذه المادة الخام بحاجة إلى دراسة وتحليل واستقراء ونقد، لاستخراج الدرر منها، ووضعها في متناول أبناء المجتمع للاستفادة منها، كل في مجاله، ولا أجانب الصواب إذا قلت: إن خير ما يربط البحث العلمي في جامعاتنا ومراكزنا البحثية بالتنمية الوطنية هو أن نولي وجهة نظرنا نحو هذا الكنز الذي وضعه بين أيدينا الدكتور الشيخ، وهو عربون وفاء للرجل.

ومن الإنصاف والعدل أن نؤكد حقيقة مرة عاشها **"هيرودوتس"** الجزائر في مسيرته العلمية تعاورتها أطراف متعددة، لقد نُكب الرجل في إحدى سفرياته فضاعت محفظته وفقد أوراقه وجذاذاته ومصادره ومراجعه ومصوراته، وكل ما يتعلق بيومياته مما دونه عن رحلاته ومشاهداته وانطباعاته في السنوات (1984/ 1988م)، ولكن إخلاصه النية في إتمام مشروعه العلمي الكبير جعله يقلع مرة أخرى مستعينا بالله ليستدرك ما ضاع منه. فهذا عامل اخترق حلقة من حلقات بحثه أثر فيه كثيرا، لكن العامل الأخطر هو تنكر أبناء وطنه لجهوده ((1 (أعني بعض من كان بيدهم سلطة القرار من مسؤولين؛ صغارا أم كبارا). فقد حدثني في مراسلات كثيرة عن هذا الجانب، وأستأذن القراء في اقتطاف بعض الفقرات من رسالة بعثها إلي بعد أن قرأ العرض الذي قدمته حول (تاريخ الجزائر الثقافي) (2). قال: "الأخ الدكتور عبد الكريم عوفي، تحية طيبة، وبعد اطلعت على ما دبجه قلمك الرصين لعرض كتاب تاريخ الجزائر الثقافي. لقد

سرني تقديمك له لأنك من أبرز المدركين لرسالته الفاهمين لمراميه. وللحقيقة أقول إنني أستغرب من نفسي عندما أتأمل ما ضمنته من مصادر ومعارف وآراء.. كيف استطعت أن أكتب وحدي عملا مثله في وقت كنت فيه في حاجة ماسة إلى توفير الحد الأدنى للعيش مع عائلتي في بلاد الغربة، ولكن يومياتي ستفصل كيف كنت أصارع من أجل لقمة العيش بينما أكتب التاريخ الثقافي فصلا فصلا تحت وطأة الألم والمعاناة والقلق والخوف من المستقبل.

أحب أن أشير إلى أن الكتاب أصبح في عشرة مجلدات، فقد وفقني الله إلى البلوغ به سنة **1962**. وأصبح المجلد الأخير من طبعته الأولى هو التاسع بينما أصبح ما كان تاسعا (الفهارس) هو العاشر. وقد طبعت المجلدات العشرة عدة طبعات عند الناشر "عالم المعرفة"

ومع ذلك فما يزال في التاريخ الثقافي كثير من الثغرات. وقد جمعت معلومات عديدة لكتابة استدراك له. وفي زيارات سريعة هذا العام إلى تندوف وأدرار والأغواط وغرداية اكتشفت كنوزا أخرى من تراثنا الثقافي، ولكن أنّى لمثلي أن يلم بكل ما اكتشفت بينما لم تعد صحتي تسمح لي بالوقوف الطويل ولا المشي البعيد ولا التركيز العميق ولا السفر الشاق.

ومن جهة أخرى تقدمت منذ خمس سنوات إلى مختلف الوزارات والمراكز المعنية بالبحث... أطلب منحة تفرغ مدة ستة أشهر في بلاد أجنبية لكي أرجع بالبحث في التاريخ الثقافي: من الفتح الإسلامي إلى فاتح العهد العثماني، فلم تستجب أية جهة، أليس هذا مما يسبب الإحباط واليأس؟

مرة أخرى أشكرك على المقالة الواعية العارضة لمحتوى الكتاب، واعدا

القراء بمواصلة البحث ما دمت حيا. وفي نفس الوقت يسرني أن أخبرك أنه قد صدرت يومياتي (مسار قلم)، وهي تبلغ حتى الآن خمسة مجلدات، كما صدر لي كتب جديدة هي: حصاد الخريف، حاطب أوراق، على خطى المسلمين. والله المستعان... دالي براهيم **11** أكتوبر **2010م**".

لله أدرك يا شيخ الشيوخ**!** كيف احتملت ما لقيت من عاديات الزمن؟ وكيف صبرت على المتنكرين لجهودك؟

قلت في ردي على الشيخ على الرسالة السابقة: "... السر يا شيخنا هو أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنك أخلصت النية فأمدك بالقوة ويسّر لك التوفيق، ولم يُيسِّره لغيرك ممن حاله أيسر، وينفقون أوقاتهم وأموالهم في الملاهي ووو... الحمد لله على نعمه.

أعلَم كثيرًا عن المعاناة التي رافقتك في رحلة البحث العلمي في الداخل والخارج، هي ضريبة العالم يحترق ليستضيء الآخرون، أَبْشِر أستاذي فإن جزاءك عند الله كبير. النفوس الوفية كغيمة ماطرة، الكل يسعد بقدومها ويستبشر برؤيتها، وهكذا أنت يا شيخنا، أبا القاسم. جعلك الله سعيد الدارين، قرير العينين لا تشكوهما ولا حزنا ولا دينا3) .")

لا أظن أن أحدا من حملة العلم ومن العارفين بحركة التاريخ عبر الأزمنة المختلفة يخالفني إذا قلت: إن أبا القاسم سعد الله هو هيرودتس الجزائر، بل هو أعظم منه، لُقِّب هيروديتس الإغريقي بأبي التاريخ، لكونه أول من وضع الحجر الأساس في كتابة التاريخ بعد رحلاته الشهيرة إلى ليبيا ومصر وأكرانيا وصقلية، وسجل وقائع الحرب الفارسية اليونانية، وشخص عادات وتقاليد وتاريخ

شعوب البحر المتوسط في كتابه (تاريخ هيرودتس)، ولم يراع فيما كتبه الدقة العلمية والموضوعية ـ كما يؤكد مؤرخو الغرب. واستحق أبو القاسم سعد الله أن يلقَّب بـ (شيخ المؤرخين). لقد كان في رحلاته الميدانية الطويلة؛ شرقا وغربا، وفي رحلاته الفكرية أكثر إحاطة وشمولية، ودقة في الطرح العلمي والموضوعية، ولنا تلقيبه بـ: (هيرودتس الجزائر) بفخر واعتزاز لما تميزت به كتاباته التاريخية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية من منهجية محكمة وبعد فكري في التناول والموضوعية.

رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جنانه، ووفق طلابه ومحبيه في استكمال مشروعه العلمي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش:

(1) معروف عند العام والخاص أن أبا القاسم سعد الله أعرض عن المناصب والمسؤوليات، لأنه يدرك أنها تتعارض والتعاطي مع العلم.

(2) ينظر المقال في مجلة دراسات أدبية، العدد: الخامس، عام 2010م، التي تصدر عن مركز البصيرة في الجزائر العاصمة.

(3) مكة المكرمة في يوم الجمعة 3/ 1/ 1432هـ.

27
ذكريات عن أستاذي
العطوف أبو القاسم سعد الله

أ. د. مولود عويمر

أعترف منذ البداية أنني لست من الطلبة الذين عاشوا كثيرا مع الدكتور سعد الله فلم أدرس عليه إلا عاما واحدا في السنة الرابعة ليسانس. بينما درس عليه الكثير من أساتذتي وزملائي وأصدقائي في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، ودرّسوا معه في معهد التاريخ. فلا شك أن شهاداتهم عن شيخ المؤرخين الجزائريين ستكون أغنى وأوسع من شهادتي. غير أنني أطمع أن أكون مثل أبي هريرة (ض) الذي لم يعش طويلا مع الرسول (ص) مقارنة بالصحابة الآخرين إلا أنه كان أكثرهم رواية للحديث النبوي الشريف. دروس الأستاذ سعد الله لقد درست على الدكتور أبي القاسم سعد الله وحدة تاريخ الجزائر المعاصر خلال العام الدراسي 1990 1991. وكانت محاضراته دررا نفيسة في التاريخ والتوجيه التربوي وتحظى باهتمام بالغ من الطلبة الذين يملؤون المدرج. وكنت حريصا كالعديد من زملائي على التقرب منه للاستزادة من علمه وإرشاداته النافعة بعد نهاية المحاضرة. فكان دائما يتعامل معنا كالأب العطوف ولا يتردد في الإجابة عن تساؤلاتنا العلمية. وشجعتنا بساطته في التعامل مع الآخر على أن نستشيره ـ نحن ثلة من الطلبة ـ حول رغبتنا في تأسيس نادي المؤرخ في معهدنا لتنظيم الندوات وإصدار مجلة تاريخية. فقدمنا له ـ أنا وصديقي محمد دراوي ـ ورقة

العمل التي أعددناها للنظر فيها. أعجبه المشروع ولم يضف إليه إلا ملاحظة واحدة، وهي ضرورة إشراك الحد الأقصى من الطلبة في هذا العمل الفكري لتحقيق نجاحه. غير أن الظروف السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك في الجزائر بشكل عام وفي داخل الجامعة بشكل خاص كانت عوائق مانعة لتجسيد هذا الإنجاز الثقافي الطموح. وكان من تقاليد الأستاذ سعد الله أنه يستضيف في كل عام خلال الحصة الأخيرة شخصية تاريخية لتتحدث عن تجربتها النضالية من جهة، وبناء جسر التواصل بين جيل الثورة وجيل الاستقلال. وكان من حسن حظنا استضافة السيد بشير بومعزة الذي صال وجال بأسلوب طريف وجذاب في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية. وختم مداخلته بالدعوة إلى ضرورة تشبيب مؤسسات الدولة والاستفادة من الكفاءات الشابة القادرة على أن تبث فيها روح الفعالية والجدية والإتقان. وبعد مرور عشر سنوات على هذا الكلام، عين السيد بومعزة على رأس مجلس الأمة! إن لله في خلقه شؤونا! مازلت أتذكر يوم الامتحان النهائي (بداية شهر جوان 1991)، فقد طرح علينا الأستاذ سعد الله سؤالا عميقا وهو: "هب أنك الشيخ عبد الحميد بن باديس؟" وشرعت في الإجابة في ورقة المسودة، وبعد فترة قصيرة وقف أمامي وقال لي: لا تكتب بالقلم الأحمر فإنه مضر للعين! كان هذا آخر درس سمعته من أستاذي سعد الله وأنا طالب بجامعة الجزائر التي غادرتها في تلك الأيام بعد حصولي على شهادة الليسانس. ولم أره بعد ذلك اليوم إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة، ذلك لأنني سافرت إلى فرنسا لمواصلة دراساتي العليا بينما هو سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم إلى الأردن للتدريس في جامعاتها وانجاز أبحاثه العلمية. كان الدكتور سعد الله معروفا بالصرامة والجدية. كما كان مثالا راقيا في التواضع

والعطف على الطلبة المتميزين والرعاية للمجتهدين. لقد أسر إليّ مرة وأنا في منزله أنه تأسف كثيرا لما علم أن الطالب النجيب الذي كان يرعاه رعاية خاصة خلال العام الدراسي اختار أستاذا آخر ليشرف على مذكرته لنيل شهادة الماجستير! فكان يخشى عليه أن لا يجد التوجيه المناسب لتفجير طاقاته والاستفادة من قدراته فتنكسر تلك الهمة وتتعطل تلك الطاقة. في الفترة الأخيرة، عبر لي مرارا عن شعوره بشيء من الحسرة والضيق عندما لاحظ تراجع القيم الأخلاقية وانحطاط النظرة إلى العالم الجاد والباحث المجتهد بعد أن كان محلا للتقدير والاحترام. لقد أساء بعض الطلبة فهم تواضعه فتصرفوا معه تصرفا غير لائق وهم لا يشعرون. هذا ما فعله طالب مر علينا ونحن واقفين نتحدث في رواق قسم التاريخ، فسلم علينا بالحضن. فاستنكر الدكتور سعد الله هذا السلوك واعتبره من قلة الأدب، ثم شرح للطالب بصوته الهادئ آداب التعامل بين الطالب والأستاذ. كما أسرّ لي يوما عن صدمته لما ناشده أحد الأساتذة الإسراع في كتابة التقرير حول ملفه الخاص بالتأهيل الجامعي حتى يلتحق بركب الأساتذة المحاضرين. وتأسف الدكتور سعد الله عن وجود مثل هذه الممارسات التي لا تحترم التقاليد والأعراف العلمية المعروفة.

إهداء الكتب ومن المهم أن أشير هنا إلى أني مدمن منذ منتصف الثمانينات على مطالعة كتب الدكتور سعد الله، وقرأت جل كتبه ودراساته وبحوثه، واستفدت منها كثيرا في محاضراتي وأبحاثي. وأتذكر أنني سألته مرة عن مسألة وردت في مقاله الصادر في مجلة المنهل السعودية عن الأستاذ أحمد رضا حوحو. فاستغرب ثم قال لي إنه لم ينشر مقالا في هذا الموضوع. ولما أقنعته برأيي ناشدني أن أسلم له نسخة منه. فكانت فرحته كبيرة لما قدمتها له، وقد أضاف هذا النص

فيما بعد إلى كتابه "مجادلة الآخر". ومن مكارم أخلاق الدكتور سعد الله حرصه على إهداء كتبه إلى من يتوسم فيه الجدية وحب المعرفة. فمرة حمل إليّ ساعي البريد ظرفا ثقيلا في أحد أيام نوفمبر 2003 وأنا جالس في بيتي بباريس، ولما فتحته وجدت فيه كتابا مجلدا عنوانه: " بحوث في التاريخ العربي الإسلامي" أرسله إليّ مؤلفه الدكتور أبو القاسم سعد الله من الجزائر مع التوقيع عليه. فسعدت كثيرا بهذه الهدية وشرعت مباشرة في مطالعته بنهم كبير. وردا للجميل، أرسلت إليه بدوري مجموعة من المجلات التاريخية والفكرية مرفقة برسالة تتضمن علامات الشكر، وأيضا معلومات عن بعض النشاطات الثقافية التي رصدتها في باريس حول القضايا العربية وتطور البحث التاريخي. وبقينا نتواصل عن طريق البريد الالكتروني خلال عدة سنوات. ولا يمكن أن أنسى أيضا مكالمته لي مرة على الساعة الحادية عشر ليلا، فقال: أنا أعرف أنك لا تنام مبكرا ولهذا اتصلت بك في هذا الوقت المتأخر لأخبرك أنني تركت لك نسخة من كتابي " على خطى المسلمين" في مكتبي بالمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية بالأبيار. وفي صباح الغد أسرعت إلى المركز لأخذ الكتاب. وأعجبني مضمونه، وسعدت بتوقيع الأستاذ المؤلف: " إلى الأستاذ الدكتور مولود عويمر، باحثا ومجددا. مع التمنيات والتقدير" (18 مارس 2010). كانت هذه الكلمات من أعظم الشهادات التقديرية التي نلتها في حياتي ومساري العلمي. كذلك حرصت على أن يكتب تصديرا لكتابي الثاني: " أعلام وقضايا"، فكتب النص في فترة وجيزة وسلمه لي. ولما صدر هذا الكتاب أهديت له نسخة ففرح بإخراجه الجميل. وقال لي بعد فترة قصيرة أنه استمتع بقراءة فصل " التاريخ بين أوراق الصحف". كما كان يتابع نشاطاتي الثقافية، ويهنئني على إصداراتي

الجديدة. ويكفي إثباتا على ذلك هذه الرسالة التي بعثها لي حينما علم بصدور كتابي الأخير ليبارك لي هذا العمل الفكري، فقال: "سعيد أن أرى آخر إنتاج لك وهو "مقاربات في الاستشراق والاستغراب". ولعلنا نلتقي قريبا لأهنئك بصدوره وأشد على يديك، وأنت أهل لكل تبريك وفضل. " (11 ماي 2013). وكان يرسل إلي بعض مقالاته من أجل نشرها في جريدة البصائر، وهي تتعلق بتقريظ ديوان الدموع السوداء للشيخ محمد الطاهر التليلي 22 أكتوبر2012)، وتقريظ لكتاب "الثابت والمحذوف في القرآن الكريم" لنفس المؤلف (14 جانفي 2013). وصدرت فعلا المقالات في وقتها المناسب. التعاون المثمر مع الدكتور سعد الله لا تختزل العلاقة بيننا في تلك الأمثلة، بل هناك مساحات شاسعة سمحت بالتعاون المثمر بيننا والذي تجلى في صور متعددة. لقد التقيت مع الدكتور سعد الله بعد غياب طويل تجاوز عشرة أعوام، وكان ذلك في 19 أكتوبر 2003 في فندق الأوراسي بالجزائر بمناسبة انعقاد مؤتمر دولي حول المفكر الجزائري مالك بن نبي. وقد سعدتُ برئاسته للجلسة العلمية التي بُرمجت فيها محاضرتي حول: "فكرة الغرب عند مالك بن نبي وعلي شريعتي". وحرصتُ في بداية مداخلتي على أن أعبّر علانية عن علامات الشكر والعرفان والتقدير للدكتور سعد الله. وبعد نهاية محاضرتي التي وصفها بأنها عميقة، تبادلنا العناوين وتواعدنا على التواصل في المستقبل. وشاءت الأقدار أن ألتحق بجامعة الجزائر للتدريس بقسم التاريخ عاما بعد هذا اللقاء، فرحب بي الدكتور سعد الله، واعتبر وجودي دعما كبيرا لهذا القسم. وشرفني بمناقشة طلبته كما شرفني بمناقشة طلبتي. وكم كنت أشعر بالحرج عندما ألتمس منه المشاركة في لجنة مناقشة طلبتي لعلمي بكثرة انشغالاته وتراجع صحته، بل كان يرحب بدعوتي

ويعد القيام بذلك العمل واجبا علميا وتربويا. ودعوته مرة لإلقاء محاضرة في الجامعة حول تجربته مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كطالب ومدرس وصحافي في جريدة البصائر وباحث في تراث هذه الجمعية الإصلاحية؛ فاعتذر وشرح لي قراره القاضي بالعزوف عن النشاطات الثقافية للتفرغ للبحث العلمي. وفاجأني الأستاذ سعد الله عندما بادرني بهذا السؤال: هل مازلت متمسكا بمشروع المحاضرة؟ فقلت نعم. فقال فلتكن إذن بعد أسبوع. وفعلا قدم محاضرته يوم 3 ماي 2010 في المدرج الكبير بجامعة بوزريعة وحضرها رئيسها آنذاك الدكتور عبد القادر هني الذي قدم ورقة حول أدب الدكتور سعد الله. وكانت هذه المحاضرة هي آخر نشاط لأستاذي في جامعة الجزائر. وكلما التقينا بادرني بتعليقه على مقالي الأسبوعي في جريدة البصائر. وأتذكر أنه لما قرأ مقالي " عائد من المغرب" استحضر ما كتبه في نهاية السبعينات في جريدة الشعب عن رحلته إلى المغرب، فقال لي إني أشكرك لأنك دفعتني إلى العودة إلى قراءة رحلتي المغربية. وشاءت الأقدار أن أنزل صدفة في الفندق الذي نزل فيه. طبعا، لم أزر كل الأماكن التي زارها لأنني قليلا ما أهتم بالمخطوطات. وقد أصاب حين قال لي مرة: الفرق بيننا هو أنني حينما أهرب من التاريخ أتجه إلى الأدب بينما تتجه أنت إلى الفلسفة. ولهذا السبب يهتم التلميذ كثيرا بالإصدارات الجديدة بينما يعشق الأستاذ الكتب القديمة. وكنت أراسله لاستفسر عن بعض المعلومات التي أجهلها فكان يرد علي بسرعة. وأذكر على سبيل المثال أنني سألته مرة عن تراث الشيخ عبد القادر المجاوي، فأجابني بهذه الرسالة: "أشكركم على حسن الظن بي وسؤالي عن مؤلفات الشيخ المجاوي. الواقع أنني لا أملك منها إلا واحدا أو اثنين، وأظنه في علم الفلك. وهو ضائع في أوراقي لأنه من

الحجم الصغير. ومعظم مؤلفاته كذلك. فإذا كنت تؤمن بالحظ وكان لك الصبر الجميل فلعله يعثر علي ولا أقول أعثر عليه. مع شكري على السؤال والتحية." (08/ 11/ 11). مكالمات ومراسلات كانت لي مراسلات ومكالمات عديدة مع الدكتور أبي القاسم سعد الله، وهي لا تخلو من الطرافة والدعابة كما ستوضح ذلك لاحقا بعض الرسائل. ولم تنقطع المراسلة بيننا إلا في الأيام الأخيرة التي أصيب فيها بالمرض. وقد بعث إلي آخر رسالته يعتذر فيها عن تأخره في الإجابة عن مراسلتي بسبب مرضه. لقد كنت أحرص دائما على معايدته مباشرة بعد أداء صلاة العيد. وإذا غفلت وتأخرت بادر بمهاتفتي ليقدم لي التهنئة ويوصيني بإبلاغ التحية للعائلة. وتعبر الرسالة الآتية عن هذا التوجه العاطفي: "كيف حالك ونحن في فاتح مناسك الحج وعيد الأضحى المبارك؟ هل اشتريت كبشك وحددت سكينك؟ إنني أبارك لك العيد المبارك وأتمنى أن تقضيه وسط جو عائلي حميم. كل عام وأنتم بخير، والسلام." (15/ 11/ 10) كذلك لا يغفل عن أية مناسبة ليشجعني على الكتابة والبحث العلمي. وهكذا سعد كثيرا لما سمع بترقية تلميذه إلى رتبة أستاذ التعليم العالي في نهاية شهر ديسمبر 2010، أو كما قال هو نفسه: "سررت بترقيتك إلى رتبة أستاذ التعليم العالي، فألف مبروك، وأنت أهل لكل ترقية علمية." (3 جانفي 2011). وأرسل إليّ في بداية العام الجديد رسالة التهاني مبينا فيها أيضا موقفه من الاحتفال بالسنة الميلادية، فقال: "أهنئك بالعام الجديد وإن كنت من المتمسكين بالعام الهجري فقط، إلى أن يحتفل معنا به أهل السنة الميلادية. وليس هذا عن تعصب ولكن من باب المعاملة بالمثل." (3 جانفي 2011). هاتفت الدكتور سعد الله في الشهر الماضي لأسأل عن أخباره وأطمئن على صحته، وشاء الله أن أقول في سياق كلامي أن فلان هو

خال فلان كما أن الشيخ الحفناوي هالي هو خال الدكتور سعد الله، فتأثر بهذه المقارنة العفوية، وشكرني على هذا الربط العائلي. فكان آخر ما سمعته من كلامه العذب والنفيس هو الحديث عن هذا العالم المصلح والمفكر المغمور. اتصلت بالدكتور سعد الله يوم الأربعاء 11 ديسمبر لأخبره بزيارتي له إلا أن الهاتف لا يرد. وبعد ثلاثة أيام، سقط عليّ خبر وفاته كالصاعقة؛ فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه. وأسأله أيضا أن يعفو عن تقصيري في حق أستاذي العطوف. *أستاذ بجامعة الجزائر 2

28

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا سَعْدَ الله..

محمد بوعزارة

كنت في ندوة بقصر الثقافة مفدي زكريا لتكريم علمين من أعلام الجزائر عندما همس في أذني الصديق محمد زبدة مدير القناة الأولى للإذاعة بأن الدكتور أبو القاسم سعد الله قد انتقل إلى رحمة الله.

لم أتمالك نفسي فرحت أذرف الدموع لفقد عَلَم كبير من أعْلام الجزائر وهرم شامخ من أهرامات التاريخ في العالم العربي والإسلامي.

عادت بي الذاكرة إلى السنوات الأولى من السبعينيات، كانت مادة التاريخ واحدة من المواد الأساسية التي كنا ندرسها في المدرسة العليا للصحافة التي كان مقرها يقع غير بعيد من سينما الجزائرية، وكان على رأس تلك المؤسسة مجاهد ورجل فاضل وصاحب حس إعلامي متميز هو الدكتور زهير إحدادن أطال عمره.

كان الرجل وبحكم علاقاته الوطيدة مع مختلف المسؤولين ومن بينهم صديقه الحميم المرحوم محمد الصديق بن يحيى وزير التعليم العالي والبحث العلمي آنذاك حيث كان مستشاره كذلك يجلب لنا أفضل الأساتذة من الغرب والشرق على السواء.

كانت مدرستنا رغم تواضع مقرها تظم خيرة الأساتذة في الاعلام بجميع

تخصصاته من فنيات التحرير إلى اقتصاديات الاعلام إلى علم الاقتصاد والإخراج السينمائي إلى التاريخ واللغات الفرنسية والإنجليزية.

ومن بين من أذكر من أساتذة التاريخ عالم التاريخ المصري الكبير البحراوي وشيخ المؤرخين الجزائريين سعد الله.

كانت دروس الدكتور سعد الله في هذه المادة متعة بذاتها، رجل هادئ بطبعه مليء بثقافته وغزارة علمه يشدك إليه شدًّا حتى إنك عندما تقترب الدقائق الأخيرة من درسه الممتع تتمنى لو أنه أضاف لك المزيد من الدقائق.

لا أذكر يوما أن الرجل تأخر أو غاب عن الدرس، بل إننا كنا كثيرًا ما نجده وقد سبقنا إلى القاعة بدقائق.

تسبقنا تحياته قبل أن نبادر بها نحن الطلبة، لم يكن الرجل من ذلك الصنف الذي يقدم مادته لمجرد التقديم، كنا نحس روحه وفكره وجهده هو الذي يقدم تلك المادة مشبعا بتواضع العلماء الكبار.

و كان عدد مرتادي المساجد في منتصف الثمانينيات قليلا مقارنة مع السنوات اللاحقة، وفي مسجد دالي ابراهيم القديم بالذات كنت ألتقي بالمرحوم الدكتور سعد الله كل جمعة تقريبا، وأذكر أن المرحوم سألني ذات يوم عن الإمام الذي كان يؤمنا في ذلك المسجد مبديا إعجابه بدروسه وخطبه، وقد قلت له حينها إنه واحد من إطارات وزارة البيئة والمياه التي كان على رأسها في ذلك الوقت الصديق محمد رويغي وإنني طلبت من الشيخ محمد كتو أن يدرج اسمه ضمن الأحاديث الدينية التي كان يبثها التلفزيون، وهو ما تم فعلا بعد أن حضر المرحوم كتو أحد دروس وخطب ذلك الإمام الشاب، ومن ذلك الوقت صار

التلفزيون الوطني يبث من حين لآخر بعض أحاديث الأستاذ مسعد زيان مثلما فعلت الإذاعة ذلك لاحقا.

في العاشر من ماي 2006 نشرتُ مقالا بمجلة "المحقق" الأسبوعية التي كان يصدرها الصديق هابت حناشي تحت عنوان: "يا سعدك بسعد الله"، وهي المقالة التي نشرتها لاحقا في كتابي: **"الرجل الذي رفض الوزارة"** الصادر في 2008.

وصادف بعد نشر ذلك المقال أنني كنت أهم بالدخول إلى إحدى القاعات بفندق الأوراسي حيث كانت تجري هناك أشغال ندوة فكرية، وقبل دخول تلك القاعة لاحظتُ أن الدكتور سعد الله كان خارجا من تلك القاعة بالذات، وعندما لاحظني راح يحييني ويتجه نحوي بشوشا مبتسما باحتشام كعادته ثم راح يحتضنني احتضان الأب الرءوف بابنه، كنت حينها قد نسيت ذلك المقال تماما، لكن الدكتور سعد الله رحمه الله راح يربت على كتفي ويشكرني على المقال.

وهذا ملخص ذلك المقال.

في منتصف السبعينيات كنا مجموعة من الزملاء الحاصلين على شهادة الليسانس في الإعلام والصحافة ومن القسمين العربي والفرنسي قد تشكلنا في فوج واحد ندرس ما كان يُصطلح عليه بالمنهجية، وهي فترة عام تُؤهلنا للتحضير لشهادة الدراسات المعمقة قبل التحضير لدكتوراه الدرجة الثالثة.

كان معنا في ذلك القسم الصحفي المعروف المرحوم خير الدين عمير والمرحوم محمد حمدي المدير العام الأسبق لوكالة الأنباء الجزائرية والمرحوم صالح خوري والصديق الجيلالي المعتز بالله وأسماء أخرى نسيتها الذاكرة للأسف.

وكان من بين أساتذتنا أستاذ عراقي معروف حينها، وطلب منا ذلك الأستاذ إعداد بحث وراح يدلنا على بعض المراجع ومن بينها مراجع للدكتور أبو القاسم سعد الله عن الحركة الوطنية، ولما ذَكَر الأستاذ العراقي اسم الدكتور سعد الله راح ذلك الزميل رحمه الله يتساءل أمامنا وأمام الأستاذ بالذات عمن يكون سعد الله هذا ؟!!

وأذكر أن معظم الطلبة قد اغتاظوا لهذا الجهل لعَلَم كبير من أعلام التاريخ في الجزائر، وأذكر أنني كنت من بين من قالوا له: إن من لا يعرف الدكتور سعد الله ليس جديرا به أن ينتسب للجامعة الجزائرية وحتى للجزائر!.

رغم أن لقاءاتي بالدكتور سعد الله هذا الهرم الشامخ كانت قليلة ومتباعدة إلا أنني ظللت اتصل به من حين لآخر عبر الهاتف.

في سبتمبر الماضي اتصلت به هاتفيا أسال عن أحواله كالعادة، ثم أخبرته أنني انتهيت من إعداد كتاب جديد لي وأنني أرغب أن يكتب لي تقديما له.

لم يتمنع كعادته وهو العالم المتواضع في كل صفاته وطلب مني أن أرسل له عنوان موقعي الاليكتروني.

وهكذا فبعد يومين أرسل لي المرحوم سعد الله رسالة مؤثرة عبر موقعي يؤكد لي فيها اعتزازه بما أكتبه ولكنه اعتذر لي بأن عملية قراءة مشروع كتابي وكتابة تقديم له قد تستغرق منه وقتا قد يحول بينه وبين استكمال بحث مهم كان يعكف عليه وأنه يخاف أن لا يكمل بحثه ذلك خاصة والمرض يداهمه وينهك جسمه.

كان رحمه الله قمة في العلم وفي التواضع والأخلاق.

واليوم وقد ودعنا شيخ المؤرخين إلى غير رجعة فإنه جدير بنا أن نقول هذه العبارات المتواضعة بحق هذا الكبير الذي أدعو المسؤولين خصوصا في وزارة التعليم العالي أن يطلقوا اسمه على إحدى الجامعات المهمة في الوطن.

أستاذي الكبير سعد الله لقد كُنْتَ تضن على نفسك الراحة والسكينة فتحرمها من متاع الدنيا ومن مباهج الحياة، وكانت نفسك الأبية التواقة للعلم والمعرفة لا تشتهي غير مصاحبة الكتاب وعشق المخطوط والتنقيب في آثار ومأثورات الأماجد الأولين، كُنتَ تغوص في النص متأملا تارة ومترجما أو معلقا، وتارة محللا لفكرة أو ناقدا لمحتوى تراه بفكر العالم الممحص المدقق أنه جانب الصواب ونأى عن جوهر الحقيقة، كنت يا فارس التاريخ تسافر عبر الدنيا شرقا وغربا شمالا وجنوبا تقطع المسافات الطوال برًّا بين الصحاري والجبال والقرى والمداشر، وبحرا تقطع عواصم الدنيا، وجوا عبر المحيطات والبحار جريا من أجل وثيقة مسروقة مهربة منهوبة ومدققا في أوراق ووثائق متناثرة وتنقيبا عن حقيقة تاريخية مغيبة وكشفا عن مسألة كان مستعمر الأمس يريد طمسها أو التستر عليها لأنها تفضح ماضيهم الحالك السواد وأحقادهم الدفينة.

كنت تفعل ذلك وكل ذلك لتدون التاريخ للأجيال ولتجعلهم يعرفون من هُم وكيف يجب أن يكونوا في المستقبل المنظور والبعيد، فأنت يا سيد التاريخ تعرف أن التاريخ ليس الماضي وحده ولكنه الحاضر والمستقبل كذلك.

كم من مرة تلصصوا عليك وعلى وثائقك الثمينة حتى ذهب بهم الأمر في بعض المطارات الغربية التي يوجد بكل ركن فيها عين ترقب وكاميرا تسجل كل حركة وسكون إلى حد سرقة ما تحويه محفظتك المثقلة بتلك الوثائق متوهمين

بذلك أنهم سيثنون عزيمتك ويحولون بينك وبين مواصلة رسالتك في كتابة التاريخ للأجيال وإماطة اللثام وكشف المستور عن تاريخ الأمة والتستر عن جرائمهم ضد الشعب والإنسان.

ولكن كم خاب مسعاهم وباؤوا بفشل خاسرين، فإن سرقوا منك تلك الوثائق أو حاولوا حجب الحقيقة، فقد نسوا أنك الفارس الذي لا يلين والصياد الذي لا يخطئ الهدف، وأنك لا تبحث عن منصب أو مجد شخصي، بل لا تريد سوى نفض الغبار عن أمجاد الأمة وتنبيه الغافلين بأن التاريخ هو الذاكرة الحية الموقظة للشعب الفاعلة في الأمة فعل البطارية في الآلة.

يا فارس التاريخ هل نحصي كتبك وقد تجاوزتْ فيما أعرف 53 مجلدًا في تاريخ الجزائر وحركتها الوطنية وتاريخها الثقافي وشخصياتها على امتداد الأزمان؟

أم نحصي بحوثك وما أكثرها وأثمنها ؟

أم نحصي ترجماتك وقد كنتَ ضليعا في الإنجليزية التي نلتَ في أكبر جامعات العلم والمعرفة فيها أعلى الشهادات أو في لغات أخرى أتقنتها من أجل البحث والاستزادة العلمية والمعرفية ؟.

أيها العالم الجليل هل نحصي إضافة إلى كل هذا عدد طلبتك ومحبيك وهم كثيرون يدعون لك على الدوام أن ينعم المولى جلت قدرته عليك برحمته الواسعة ويسكنك فسيح جنانه إزاء ما قدمته للوطن.

فأنت لم تطلب وزارة أو سفارة أو ولاية، وأنت لم تطلب منصبا مثلما يفعل الآخرون زحفا على البطون، ولكنك كنت ترفض كل هذه المناصب جميعها من

أجل أن تكتب وتعلم الأجيال وتعطيهم درسا في النبل الأخلاق وتدون تاريخ الأمة وتظهر لها تاريخها الناصع وماضيها المجيد وتكشف للأجيال أننا لا نحيا بالمنصب ولا نخلد بالمنصب.

ولذلك فأمثالك من العظماء يخلدون بجلائل الأعمال وقد كُنتَ بكل جدارة واحدا من هؤلاء.

شكرا لك وجزاك الله كل خير وأنعم عليك بجنة الرضوان والخلد على ما قدمت للوطن في الجهاد، وشكرا على كل ما كتبت، وشكرا لك على ما كونت من رجالات ونساء، وشكرا لك على ما زرعت من قيم وأخلاق ونبل هي من معدنك الثمين يا ابن البدوع، يا ابن قمار، يا ابن سوف، يا ابن الجزائر البار.

و عليك سلام الله يا سعد الله..

نشر بصوت الأحرار بتاريخ 22 / 12/ 2013.

29

شهادة من الجيل الأخير من الطّلبة في حقّ الدّكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله

بقلم: صاري أمينة



لأوّل مرّة منذ أن دخلتُ الجامعة أشعر باليأس والإحباط... لأوّل مرّة منذ ثمان سنوات مرّت على تحصيلي العلمي أشعر أنّ المسؤوليّة المناطة بجيلنا كبيرة

وعظيمة، وأنّ الـحِمْلَ ثقيل... ثقيل ثقل الجبال، رغم أنّي بذلت قصار جهدي لحدّ الآن في سبيل البحث العلمي وبكل أمانة، فقد أدركت بعد رحيل أستاذنا الفاضل الدّكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله تعالى، أنّ جيلنا نحن من سيكون سعد الله آخر، أنّنا نحن من سيحمل راية العلم ويكافح من أجله بنفس المنهج، ونفس الإصرار، ونفس الأمانة العلميّة... أنّنا نحن من سيحمل تلك الأخلاق العلميّة السّامية... أنّنا نحن من سيكافح من أجل إعلاء كلمة الدّين الإسلامي والعروبة والوطن. فهل نستطيع أن نكون بمثل ربع تلك القامة العلميّة الّتي فقدناها؟

رحل عنّا ذلك الرّجل الّذي عرفناه اسما وقلما، قبل أن نعرفه شخصا، ذلك العالم الجليل الّذي علّم من علّمنا من أساتذتنا الأفاضل، وزرع فيهم القيم والأخلاق السّامية، الّتي زرعوها هم بدورهم فينا... فقد كان الفضل في معرفتي للدّكتور سعد الله رحمه الله في السّنة الأولى ليسانس، للأستاذ محمّد العربي معريش في تطبيق وحدة تاريخ الجزائر، ولطالما كان لسانه ينهج بذكر هذا الاسم الكبير، فعَلَّمَنَا منهج البحث العلمي على طريقة أستاذه، ولم يكتف الأستاذ معريش بالحديث لنا عن أستاذه وتوجيهنا إلى الاطّلاع على كتبه، بل برمج لنا لقاء معه. لكنّ ولسوء حظّي فقد حضر الدّكتور سعد الله حصّة الفوج الآخر، وعندما جاء دور فوجنا غادر لأنّ وقته لم يسمح له بالبقاء أكثر، فلم أره في ذلك اليوم إلا وهو يغادر، وتبعته بنظراتي إلى أن خرج من الرّواق. تلك كانت أوّل مرّة أراه فيها.

و في السّنة الموالية حظيت بمشاهدته مرّة أخرى، إذ احتاجت أختي ـ وكانت وقتها تحضّر مذكرة ماجستير في الأدب العربي عن شخصيّة علميّة وأدبيّة جزائرية

في العهد العثماني - إلى استشارته رحمه الله، فجاءت والتقت به وتحاورت معه، كنتُ أنا مثل المتفرّجة على حوارهما، مع شعوري بالـخجل كوني أقف أمام عالم جليل مثل الدّكتور سعد الله. وإذا كنتُ في مرحلة الليسانس لم أحض بفرصة للحديث المباشر معه، وما ذلك إلاّ بسبب خجلي وحيائي من عالم مثله، أو لأنّي لم أكن أملك الجرأة التي اكتسبتها في مرحلة الماجستير (فيما بعد)، إلاّ أنّ ذكره لم يغب، فأغلب الأساتذة كانوا يوجّهوننا إلى استعمال كتبه في بحوثنا ويتحدّثون لنا عنه، مثل الأستاذ مصطفى نويصر، والأستاذ عمّار بن خروف، والأستاذة عائشة غطّاس رحمها الله.

وبعد تخرّجي، شاركت في مسابقة الماجستير وكنتُ من النّاجحين والحمد لله، وهنا بدأت مرحلة جديدة في حياتي، مرحلة مكّنتني من الاحتكاك المباشر بالدّكتور سعد الله، فعرفته عن قرب، وكنت إحدى طالباته، وكان وقتها يدّرس وحدة "العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب في الفترة الحديثة"، ولم أكن أنا أنتمي لنفس التّخصّص الّذي يدرّس فيه، لكنّ نفسي كانت تتوق للدّراسة عنده، فقصدته ذات مرّة وكان يدرّس يوم الأربعاء من الثّامنة والنّصف صباحا إلى العاشرة، انتظرت إلى أن جاء وقبل أن يدخل الحصّة تحدّثت معه، طلبتُ منه أن يسمح لي بحضور حصّته طوال تلك السّنة - السّنة الدّراسيّة 2009/ 2010م - وكم كانت فرحتي كبيرة عندما كانت إجابته "نعم". ومن ذلك اليوم أصبحت أحرص على الحضور كل أربعاء من كلّ أسبوع، وخصّصتُ للوحدة كرّاسا أنيقا لأكتب فيه كلّما يقوله الدّكتور سعد الله في حصّته.

لم يشعرني الدّكتور سعد الله أبدا أنّي لا أنتمي إلى تلك المجموعة، بل كنتُ في نظره فردا من أفرادها، وها أنا ذي الآن أردّ بعضا من جميله عليّ إذ أنقل كلمة

صدق في حقّه رحمه الله، وبكلّ إخلاص، ولا أبغي في ذلك إلاّ وجه الله تعالى، فأنا لا أهدف إلى الشّهرة والتّسلّق من خلال اسمه فهذه الشّهادة سيسألني الله عزّ وجلّ عنها يوم القيامة، إن لم أتحرّى فيها نقل الحقائق وبكلّ عفويّة.

منهج الدّكتور سعد الله في إلقاء درسه:

يعتمد منهج الدّكتور سعد الله في الأساس على التّحاور، وأن يجعل كلّ طّالب شاء أم أبى فعّالا في كلّ حصّة، وهو يقوم على طرح الإشكاليّة وإعطاء آرائه ومعلوماته حولها، مع السّماح للطّلبة بالمشاركة، فيحاورهم ويناقشهم، ويحاول إقناعهم بآرائه، ويقتنع بآرائهم إن كانت صائبة، فقد كان يسود الدّرس جو من المناقشة العلميّة الرّاقية بينه وبين الطّلبة، وهو في كلّ هذا يحاول أن يخرج ما في فكرهم من عصارة علميّة، وهو في منهجه هذا يختلف عن منهج بعض الأساتذة القائم إمّا على الشرح دون السّماح بإدلاء الآراء، أو القائم على الإملاء، مع العلم أنّ هذا الأخير يقتل الفكر ويحجّره، فتجد الطّالب يوم الامتحان يرجع للأستاذ بضاعته كما هي وعندما يتخرّج تتلاشى تلك البضاعة ولا يبقى منها إلاّ السّراب.

كان الدّكتور سعد الله في كلّ حصّة تقريبا يحضر معه مجموعة من المصادر والمراجع الّتي تدخل في صميم موضوع الحصّة، فيمرّرها علينا ويحدّثنا عنها وعن قيمتها العلميّة، ولا يخطر ببال أحد أنّ تلك الكتب كانت من إنتاجه لا والله، فما كان منها من هذه المراجع التي كان يحضرها معه يمثّل فقط خمسة بالمائة، إذ لم يكن من النّوع الّذي يتباهى بما قام به من أعمال، رغم أنّ مؤلّفاته كانت بالنّسبة لنا أشهر من نار على علم.

ومن جهة أخرى كان يحبّ أن يجعل من الطّالب يبحث ويبحث ويبحث،

فكان يطلب من الطّلبة القيام ببحث أساسي للوحدة، كما يكلّفهم في كلّ حصّة بالقيام بأبحاث صغيرة، كالبحث عن هذه الشّخصيّة أو تلك، والبحث في هذا المصدر أو ذاك، وفي آخر السّنة بلغ عدد هذه البحوث الصّغيرة لكلّ طالب أكثر من عشرين، وكان يسأل باستمرار عن تقدّمهم في البحوث، وعن المصادر والمراجع الّتي تحصّلوا عليها، ويوجّههم إلى أخرى قد تفيدهم، وبين الفينة والأخرى كان يتيح الفرصة لأحد الطّلبة لعرض بحثه، ويرغّب زملائه في مشاركته بأفكارهم وآرائهم، ومناقشته مناقشة علميّة، بالإضافة إلى إثرائه هو رحمه الله لموضوع الطّالب بمعلوماته القيّمة والكثيرة.

لطالما حدّثنا عن أبي راس النّاصري، والورثيلاني، والتامقروطي، والـمُحِبـِّي، وابن القاضي، والـمقَّري. هذا الأخير الّذي كان معجبا كثيرا به، وكان له منهجه ورأيه الخاص في نطق اسمه، فالكثير من الباحثين يقولون: "الـمَقَرِي"، أو "الـمَقَرِّي" إمّا بفتح الميم والقاف، وكسر الراء دون تشديدها، أو بكسر الرّاء وتشديدها، لكنّ الدّكتور سعد الله كان يقول لنا "الـمَقَّرِي" بفتح الميم، وفتح القاف وتشديدها، ويقول لنا أنّ اسمه نسبة إلى بلدة مَقَّرَه.

حدّثنا مرّة عن مظاهر التّأثير العثماني في المجتمع الجزائري، وطلب منّا أن نقدّم له نماذج عن ذلك التّأثُّر، فراح كلّ طالب يدلي دلوه. فأعطيناه أمثلة مثل: في الألبسة، وفي العمارة، وفي الفنون، وغيرها من الأمثلة، وإذا بهاتفه يرنّ ـ وكان ذلك نادرا في الحصّة ـ فبدأ يبتسم وقال لنا: "ما هذا؟" وكان يقصد رنّة الهاتف، وهي رنّة تركيّة هادئة، وبهذا أوحى لنا أنّ من هذه المظاهر، التّأثير في الموسيقى. كما أشار في نفس الموضوع إلى مسألة ألقاب بعض العائلات الجزائريّة، وخاصّة

من العاصمة التي لا تزال لحدّ الآن تفتخر بنسبها الممتدّ إلى الأتراك، وإذا به يوجّه الكلام لي، ويقول مثل عائلتك أنتِ، من دون أن أخبره أنا أنّ أصولي تركيّة، إذ أنّه رحمه الله كان خبيرا بمثل هذه الألقاب.

منهجه في التّعامل مع طلبته:

كان رحمه الله متواضعا بكلّ معنى الكلمة، يتعامل مع الطّلبة كأنّهم أبنائه، يستمع لانشغالاتهم، ويهتمّ بآرائهم، يساعدهم ويوجّههم كلّما طلبوا ذلك، وهو في تعامله هذا لا يفرّق بين الطّالب الّذي سبق وأن درّسه، أو الطّالب الّذي لم يره من قبل، بل يعاملهم على السّواء، وكنت أنا في السّنة النّظريّة من الماجستير، بل ومن السّنة النّهائية في الليسانس أحلم أن أقوم بتحقيق مخطوط في مذكرة الماجستير، فسعيت في خلال تلك السّنة النظرية إلى الاستفسار من الأساتذة عن منهج التحقيق وأن يقترحوا عليّ نماذج من المخطوطات لأقوم بتحقيقها، ولطالما استشرته في هذا الموضوع، فكان يثني على رغبتي هذه ويشجّعني رحمه الله، حتّى أنّه في إحدى الحصص كنّا نتحدّث عن موضوع ما، ثمّ طلب منّا أمثلة، فبادرت أنا إلى الحديث عن المخطوطات، ضحك رحمه الله كيف أنّي لا يخرج حديثي عن مجال التّحقيق والمخطوطات، وكيف أنّي كنت مهووسة بهذا المجال، والحمد لله فقد وفّقني الله لتحقيق قسم من مخطوط "الجامع الكبير" للشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، وناقشت مذكرتي في شهر فيفري 2013م، وكنت في خلال بحثي هذا لـمّا استشرته، أفادني رحمه بمعلومات قيّمة، سواء عن الثّعالبي، أو عن أماكن تواجد مخطوطات أو مصادر قد تفيدني، وكانت فرحتي كبيرة عندما أريته مذّكرتي وأبدى إعجابه بما قمتُ به من عمل، وهذه شهادة أعتزّ بـها.

كان أساتذة القسم ـ الّذين كان أغلبهم من طلبة الدّكتور سعد الله ـ عندما يرونه يتزاحمون من أجل إلقاء التّحيّة عليه، والاستفادة من علمه، وهم في ذلك الموقف كنتُ أرى فيهم مثل الأبناء البررة الّذين اجتمعوا على والدهم الحنون لكي ينالوا بركته ورضاه، وهو رحمه الله كان يعطي كلّ ذي حقّ حقّه ولا يبخل بأي معلومة مهما كانت صغيرة.

لكن الشيء الّذي يحزّ في نفسي أنّني فقدت في كلّ مرّة عالما كبيرا وأنا في أمسّ الحاجة إلى استشارته، وحدث معي هذا مرّتين، ففي مرحلة الماجستير أردت استشارة الشيخ عبد الرّحمن الجيلالي في موضوعي، لكنّ الموت سبقني إليه، والآن وأنا مقبلة على مرحلة الدّكتوراه رغبت في استشارة الدّكتور سعد الله، فقيل لي أنّه مريض، فاستغنيت عن الاستشارة، بل أجلتها في سبيل راحته وسلامته، وإذا بخبر وفاته يصعقني كما صعق الجميع.

و بالرّغم من مرور أكثر من خمسة عشر يوما على رحيله عن هذه الدّنيا الفانية، إلاّ أنّني لا أزال غير مستوعبة لرحيله، أهو حقيقة أم أنّه كابوس مزعج أستيقظ منه فأجده حيّا يرزق، لازلت أبكيه كلّما رأيت صورة له، أو قرأت عنه مقالة في الجريدة، اعتدت في كلّ سنة أن أرى اسمه في جدول توقيت الـماجستير في قسم التاريخ بجامعة الجزائر2، لكن هذه السّنة تألّمت كثيرا وأحسست بفراغ كبير لـمّا لم أجد اسمه (حينها كان مريضا)، كانت كلّ دعواتي له بالشّفاء، لكنّ "**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**" (الأعراف، الآية 34).

حديثه عن سيرته وإنجازاته:

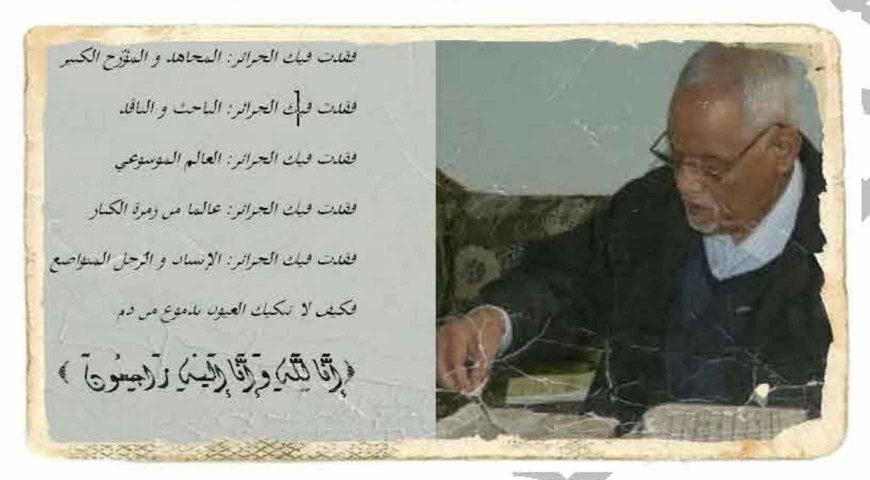
لم يكن الدّكتور سعد الله رحمه الله، من النّوع الّذي يجعل الحصّة مجالا

لعرض سيرته الذّاتيّة، أو تمجيد انجازاته بل كان جلّ اهتمامه هو أن يكون درسه مليئا بالمعلومات القيّمة، وإنّ عدد المرّات الّتي حدّثنا فيها عن نفسه تعدّ على الأصابع، وهي في الغالب الأعم تأتي عفويّة عند حديثه عن موضوع ما تطلّب منه أن يقدّم لنا نموذجا عن حياته. وبالرّغم من ذلك فقد دوّنت في كرّاسي وبكلّ دقّة بعض المعلومات التي أفادنا بها عن مسيرته العلميّة، وبعض المواقف في حياته وبالفعل فقد كنّا محضوضين كونه رحمه الله حدّثنا بنفسه عنها.

أخبرنا كيف كانت رحلته للدّراسة في أمريكا، وكيف أنّه سافر بجواز سفر تونسي، كونهم كانوا في ذلك الوقت لا يعترفون بجواز السفر الجزائري، وكيف أنّه كان من المفروض أن يدرس اللّغة لمدّة سنة كاملة، قبل أن يتوجّه للدّراسة في إطار التّخصّص الّذي اختاره، ثمّ كيف استعجل في طلبه للدّراسة في الجامعة قبل إنهائه دراسة اللّغة، حدّثنا أيضا عن بعض مؤلفاته مثل كتابه "مسيرة قلم" الّذي دوّن فيه سيرته الذّاتية ومواقفه فيه، وحدّثنا عن موقفه من الانخراط في السياسة أو تولّي المسؤوليّات، وكيف أنّه كان يفرّ منها لدرجة أنّه في إحدى المرّات اختبأ أربعة أو خمسة أيّام في إحدى الولايات، عندما طلب منه تولّي منصب ما.

كما برز لنا تواضعه الكبير من خلال إعرابه عن امتعاضه لكون إحدى الجامعات الوطنيّة قامت بتكريمه، إذ قال لنا ما مفاده أنّه لا يعتبر تقديم برنوس له تكريما، بل تكريمه الحقيقي هو بإقامة ندوات علميّة وفكريّة، فقد كان رحمه الله يحبّ أن نكون بّنائين وفعّالين في المجتمع، لا أن نكتفي بالشّعارات البرّاقة.

مكانة الدّكتور سعد الله العلميّة:



لم يكن الدّكتور سعد الله رحمه الله رجلا عاديّا، بل كان كما قيل عنه شيخ المؤرّخين، ومؤسّس المدرسة التّاريخيّة، أديبا وناقدا، كان عالما موسوعيّا... بل عالما من زمرة الكبار، كما جمع مع علمه سمتا حسنا، ونبلا كبيرا، أخلاقا عالية، وإنسانيّة راقية... وإذا أردنا أن نشبّهه بغيره من العلماء فإنّنا نجده قد جمع بين شخصيات عديدة فهو ابن خلدون هذا الزّمان من ناحية كونه كان مجدّدا في زمن الرّكود الفكري، لكنّ الفرق بينه وبين عبد الرّحمن بن خلدون، أنّ السّياسة أغرت هذا الأخير فجرى وراءها حتّى كادت توصله إلى الهلاك، فيما راح أخوه يحيى ضحيّة من ضحاياها، أمّا الدّكتور سعد الله فقد هرب منها بكلّ ما أوتي من قوّة في الوقت الّذي كانت هي تفتح له أبوابها.

إنّ الدّكتور سعد الله شبيه بالعالم الجليل أبـي عبد الله محمد الشّريف التلمساني، في كونه كان محبّا لوطنه رغم الحظوة التي نالها عند السّلطان المريني أبي عنان الذي جلبه معه من تلمسان إلى فاس، ولأنّه آثر العودة إلى بلده على

البقاء بفاس، كما يكمن الشبه بينهما في كون كلاهما كان عالـما موسوعيّا تجده في مختلف العلوم والمعارف، وكلاهما كان شغله الشّاغل هو التّدريس وتكوين الطّلبة فخرج على يدي الشريف التلمساني عبد الرّحمن وأخوه يحيى بن خلدون، وابن قنفذ القسنطيني، والإمام الشّاطبي وابن عتاب.

و تخرّج على يدي الدّكتور سعد الله جملة من الأساتذة الّذين حملوا نفس أهدافه وقيمه، لكنّ الفرق بينهما أنّ الشريف التلمساني انشغل بالتّدريس وتكوين الطّلبة عن التّأليف فلم يخلّف إلاّ القليل، أمّا الدّكتور الدكتور سعد الله، فقد كان منشغلا بالتّدريس والتّأليف معا. وقد قال السلطان أبو عنان المريني في الشريف التلمساني مقوله كأنّي به يقولها عن الدّكتور سعد الله، إذ قال: "لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره".

إنّ شهرة الدّكتور سعد الله بين طلاّب العلم شبيهة بشهرة العالمين الجليلين أبي عبد الله محمّد ابن مرزوق الخطيب (الجدّ)، وأبي عبد الله محمد ابن مرزوق الحفيد، الّذين وصلت شهرتهما العلميّة حدّا جعل الطّلبة تقصدونهما من كلّ حدب وصوب، وجعلتهم يتغنّون بخصالهما الحميدة ويصفونهما بأرقى الصّفات، كما أنّهما كانا غزيري التّأليف مثله رحمه الله.

أمّا عن ابتعاده عن السّياسة وعن المناصب، فإنّي أرى فيه العلاّمة أبا زيد عبد الرّحمن الثّعالبي، الّذي لم تغره السلطة في حياته، زاهدا فيها إلى حدّ بعيد، منشغلا بالتّدريس والتّأليف وتنوير عقول النّاس، بل ونجده من خلال الرّسالة التي اكتشفها الدّكتور سعد الله وقام بنشرها يحرّض على الجهاد والوقوف ضدّ الأعداء، وقد قال عنه الدّكتور سعد الله رحمه الله: "... إنّ الثعالبي قبل هذه

الرسالة كان في نظرنا رجلا سلبيا متفرجا على الأحداث التي كانت تجري في عصره، أما بعد هذه الرسالة فقد أصبح في نظرنا رجلا إيجابيا داعية خير وجهاد، عمليا في أفكاره وتصرّفاته... ". ومثلما انتشرت واشتهرت كتب الثّعالبي في حياته كما قال أحد تلامذته: "... وأنّ في شيخنا هذا وتواليفه لسرّا بديعا وأمرا رفيعا، ولقد ظهرت تواليفه في حياته وسارت بها الرّكبان في الآفاق مع وجوده... وربّما يكون في أثناء بعض تصانيفه والنّاس يختطفونه من يده ويتبعونه بالنّسخ، حتّى ربّما أدركه النّسخ قبل أن يستكمل الكرّاس فينتظرونه... "، فقد انتشرت كتب الدّكتور أبو القاسم سعد الله في حياته على اختلاف مواضيعها وأسمائها.

إنّ الدّكتور سعد الله شبيه بالعالم التّلمساني الشّهير الّذي لطالما أبدى إعجابه به وبإنتاجه العلمي، أبي العبّاس أحمد بن محمّد الـمَقَّري... شبيه به في حلّه وترحاله في مختلف الأماكن لتلقّي العلم، وهو من حدّثنا مرّة عن فوائد السّفر إذ قال: "سافر فإنّ في الأسفار خمس فوائد، تفرّج همّ، واكتساب معيشة، وعلم، وآداب، وصحبة ماجد". ومثلما أبدع الـمقَّري في موسوعته "نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب"، أبدع الدّكتور سعد الله في موسوعته "تاريخ الجزائر الثّقافي"، وفي غيرها.

و في مجال اهتمامه بالتّراث الجزائري وبحماية المخطوطات من الضّياع والقيام بتحقيقها لتكون في متناول طلبة العلم، فإنّي أرى فيه محمّد ابن أبي شنب هذا العصر، فلكليهما مساهمات جبّارة في نفض الغبار عن عدد من المخطوطات القيّمة وتقديمها للباحثين.

أفنى الدّكتور سعد الله حياته في الدّفاع عن مبادئه... وفي خدمة وطنه، كما

كتب هو بقلمه في النّسخة الّتي اشترتها عائلتي من كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" وطلبتُ منه أن يشرّفني ويكتب لي فيها بقلمه، فكتب ما نصّه: " يشرّفني أن أهدي هذا الكتاب إلى عائلة صاري المحترمة، وهو ثمرة من ثمرات جهدي العلمي في خدمة الوطن، فتح الله على الجميع سعد الله 3 فبراير 2010".
بهذه الخصال الحميدة عرف الجميع الدّكتور أبو القاسم سعد الله، وأحبّوه حتّى النّخاع مثلما أحبّ هو وطنه، وسخّر قلمه لأجله، متمسّكا بمبادئه... رأوا فيه الأستاذ والعالم الجليل، والإنسان المتواضع... ومن يتواضع للعلم يرفعه الله تعالى درجات... وأختم بقول الله تعالى:

" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"

(المجادلة، الآية 11). رحم الله الدّكتور سعد الله وأسكنه فسيح جنّاته

اللّهمّ اجعل كل الطّلبة الّذين درّسهم الدّكتور سعد الله في ميزان حسناته

اللّهمّ اجعل كلّ ما قام به من تآليف وما قدّمه من علم صدقة جارية ينتفع بها يا ربّ العالمين

اللّهمّ اجمعنا به في جنّتك كما جمعتنا به في هذه الدّنيا

بقلم: أمينة صاري/ من جامعة الجزائر ـ 2 ـ

30

كلمة تكريم الدكتور أبو القاسم سعد الله

. الأخضر رحموني

إن تكريم العلماء والمبدعين والمفكرين وهم أحياء هو وسيلة من وسائل الاعتراف بخدمات هؤلاء وأياديهم البيضاء على المجتمع للنهوض به وتطويره لإزالة عقدة المثل الشعبي (العرجون)، وهو تتويج هام لمسيرتهم الطويلة في النضال بالكلمة، وغاية يدركها المبدع بعد سنوات من العمل الدؤوب حتى يشعر بأن جهده الذي قدمه للمجتمع لم يذهب سدى، وسيبقى خالدا على مر الأيام، وبأن المجتمع يجله ويكرمه على عطاءاته المتنوعة ويحترم فيه الكفاءة والمقدرة.

من هذه القناعة الراسخة، واعترافا بالجميل يسعد الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة أن تكرم اليوم علما من أعلام الفكر ورائدا من رواد الكلمة، ذلكم هو الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي عرفته المحافل العلمية والجامعات الجزائرية والعربية والغربية أستاذا محاضرا، مدافعا عن تاريخ أمته الثقافي، ومناضلا عن الكلمة الطيبة، أصيلا في فكره، عميقا في فهمه للقضايا التي يؤمن بها، لم نره يوما يركب الموجات التي ركبها غيره بحثا عن الشهرة والمناصب العليا، وإنما بقي كما نشأ وكما غرست فيه الصحراء صفاء الذهن وحب العزلة والصراحة والبساطة، محبا للتراث، متمثلا تلك المواقف الخالدة التي وقفها العظماء من الرجال. وإذا كنا نقر بأنه من

الصعب أن يختزل المرء حياة رجل وأعماله في بضعة دقائق، خاصة إذا كان بحجم الدكتور أبي القاسم سعد الله لأنه عند تناول النشاط الأدبي والفكري والتاريخي للدكتور سعد الله نجد تعدد الاهتمامات، وتشعب السبل، إنه الأديب الذي بدأ مشواره الأدبي بالشعر حيث كتب أولى محاولاته الشعرية في ظل النخيل ببلدته (البدوع) القريبة من مدينة قمار بالوادي صيف سنة 1948، وفي دواوينه الشعرية: النصر للجزائر ـ الزمن الأخضر ـ ثائر وحب ـ نجده يتغنى بالثورة والحرية، ويشدو بعرائس الأحلام، وبالجمال والشباب بلغة مشبعة بالحس الرومانسي المتأثر برومانسية الشابي وجبران المجنحة في الخيال وأطياف المنى، وكان مثلهما متمردا ومتحررا من المفاهيم السائدة في مختلف أوجه الحياة، خاصة بعد وصول نفحات الثقافة الجديدة التي حملتها مجلة الآداب البيروتية وأمثالها، كما تمرد على الشكل العمودي للقصيدة العربية، ومعظم الباحثين للأدب الجزائري يتفقون على أن أول من كتب الشعر الحر في الجزائر هو الشاعر أبو القاسم سعد الله الذي نشر قصيدته (طريقي) بالبصائر العدد 311 الصادر في25مارس 1955:

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

إذ أنا اخترت طريقي

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف الأرياح وحشي النضال
صاحب الشكوى وعربيد الخيال.

و هو الناقد الحصيف الذي انبرئ في تدبيج الدراسات النقدية للتعريف بالأدب الجزائري الحديث، والدفاع عن أعلام بلاده، وحقق وأخرج للناس أول رواية عربية جزائرية بعنوان (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) لمحمد بن إبراهيم التي كتبت سنة 1849 أي قبل خمسين عاما من صدور رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل الذي يؤرخ النقاد العرب في الغالب على أنها أول رواية عربية حديثة، وهو الباحث الذي قدم الشاعر محمد العيد آل خليفة وقصائده إلى القارئ العربي في كتابه (محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث) الصادر عن دار المعارف بمصر سنة 1961 في وقت لم يعرف محمد العيد إلا من خلال جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

كما كرس قلمه وحياته للبحث والتنقيب عن كنوز تراثنا الثقافي والأدبي الذي لم يحظ بالعناية الكافية من أجل تكسير العزلة الثقافية التي يعاني منها، ونفض كل عوامل الإحباط التي يراها من حوله، إذ يحز في قلبه ويؤلمه أن يجد أعمال كبار الكتاب والشعراء عندنا ما تزال مخطوطة تنتظر من ينشرها ويقوم بتحقيقها كمؤلفات: ابن أبي حجيلة، ابن خميس العفيف التلمساني، محمد بن يوسف السنوسي، أحمد المقري، عبد الرحمان الأخضري وغيرهم من الأعلام، علما أن مؤلفاتهم معروفة وتدرس في المشرق العربي أكثر مما هي معروفة في الجزائر، لهذا قام بإصدار كتاب (الطبيب الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري) سنة 1982، كما نشر رحلة ابن حمادوش نفسه المسماة لسان المقال،

وحقق كتاب (منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية) لعبد الكريم الفكون وعرف بابن العنابي رائد التجديد الإسلامي في الجزائر.

وهو المناضل الثوري الذي عاش الثورة الجزائرية من أعماقه وفي أعماله وكتاباته، فقد كان عضوا في فرع القاهرة للإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي كانت تشرف عليه جبهة التحرير الوطني، ومثل هذا الاتحاد في عدة مؤتمرات منها: المؤتمر التأسيسي للإتحاد العام للطلبة العرب واتحاد طلاب فلسطين بالقاهرة سنة 1958و المؤتمر الدولي للطلاب بأمريكا. وهو يرى أن على الثورة أن تتوالد وأن تتجدد وأن تفرز عناصر الاستمرارية لأن الثورة التي تعجز عن التوالد والإخصاب تهرم وتموت بدون عقب كما ينقطع نسل الإنسان العظيم.

وهو المفكر الغيور على عروبته وقوميته فيندد بدعاوى الاستعمار، مؤيدا كل نضال شريف من أجل التحرر والاستقلال. وولاء أبو القاسم سعد الله لأمته العربية معلوم ويتجلى في معظم كتاباته وإن خص الجزائر بالرعاية والاهتمام. وقد شاء تقديم أبرز أعلام الفكر والثقافة عندنا إنصافا للحقيقة والتاريخ وإعادة الاعتبار لمراكز الإشعاع الفكري والسياسي في بلادنا.

وهو المؤرخ الذي يقف وقفة المتأمل طويلا قبل إصدار حكمه لأن الكثير من التصرفات الانحرافية لا تجد لها مبررا سوى عدم الإحساس بالتاريخ في وقته أو الخوف من التاريخ ذلك أن الأحداث كما يقول (تنتهي والرجال يموتون أما الأفكار فهي حية أبدا) لهذا أصدر كتابه (الحركة الوطنية الجزائرية) وكتاب (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، وترجم كتاب تشرشل عن حياة الأمير عبد القادر، وحقق (كتاب العدواني) ونشر محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث.

إن الحديث عن الدكتور أبي القاسم سعد الله حديث ممتع ومتشعب الجوانب لأنه شيخ المؤرخين الجزائريين كما لقبه بعض الدارسين، وهو المؤرخ العملاق وإن كان يؤمن بأن المؤرخ العملاق لا يكون إلا في أمة عملاقة.. وجزائرنا الحبيبة اليوم ـ والحمد لله ـ عملاقة بشبابها الطموح في بناء مستقبل زاهر، عملاقة بتراثها المتنوع الثري، عملاقة بجذورها الضاربة في الأعماق، عملاقة بتاريخ ثورتها التي زلزلت أركان الاستعمار، وكيف لا يكون عملاقا وهو الذي أهدى الجزائر موسوعة ثقافية ضخمة حملت عنوان (تاريخ الجزائر الثقافي) التي صدرت عن دار الغرب الإسلامي ببيروت في تسعة مجلدات، وقد استغرق في إعدادها أكثر من سبع سنوات بعد كارثة ضياع حقيبته سنة 1988بمطار لندن، والتي كان يحتفظ داخلها بفصول مكتوبة وبطاقات ومسودات وأوراق هذا المشروع الثقافي المتميز، لكن قوة الإرادة والإيمان والتحدي والإصرار كانت تدفعه إلى مواصلة مشروعه، وهكذا وبعد سنين الصدمة والانتظار على أمل العثور واسترجاع كنزه الثمين، وبعد فترة الاكتئاب رجع إلى مشروعه من البداية سنة 1992 واستأنف نشاطه الفكري لجمع مادة البحث من جديد، وفي سنة 1993 حين تحصل على منحة من الجامعة الجزائرية سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك أنجز تسويد الكتاب خلال ثلاث سنوات متتالية مع تضحيات مادية ومعنوية معتبرة.

ولا أجد أبلغ من أبيات شعرية جادت بها قريحة الشاعر أحمد الطيب معاش في وصف هذا العمل النافع يقول:

هي موسوعة الثقافة والعلم وتاريخ أمة وبلاد

كــل ســفر مجلــد يتبــاهى   مثــل نخــل بفرعهــا الميــاد
كتبتــه الســنون لمــا توالــت   مثل دهـر عـلى الكمـي المفـادي
سيفه صيغ مـن معـادن سـوف   ويــراع مــروض في الــوادي
فهنيئــا لـــه قـــلادة فخـــر   ووســـاما مرصـــعا بالضـــاد

لقد نال حقا الدكتور أبو القاسم سعد الله مراده، ويكفيه فخرا من هذا التكريم إقامة هذا الملتقى حول شخصية وأعمال العلامة الشيخ عبد الرحمان الأخضري الذي سينشط فعالياته نخبة من أساتذة الجامعات الجزائرية، يعتزون دائما بأنهم نتاج عمله، كانوا يوما طلبة استفادوا من علمه وخبرته الطويلة، وهذا أكبر وسام يرصع به صدر دكتورنا لأن أعماله الخالدة تجسدت واقعيا في هؤلاء الأفذاذ.

. الأخضر رحموني . . مهندس معماري/ وعضو هيأة تحرير المجلة الخلدونية ـ

* ألقيت في افتتاح الملتقى الوطني الرابع ـ بسكرة عبر التاريخ ـ العلامة عبد الرحمن الأخضري المنظم من طرف الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية لولاية بسكرة أيام 21 ـ 22 ـ 23 ـ ديسمبر 2004.

31
عالم سعد الله الشعري
الأستاذ الدكتور أحمد حمدي/ الجزائر[1]

كتسي الحديث عن شخصية الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله صعوبة بالغة، بالنظر إلى مواهبه المتعددة في مجالات الفكر والأدب، وتبحره العميق في مختلف العلوم الاجتماعية والتربوية، وصرامة منهجه في البحث العلمي، فهو من المؤرخين الجزائريين الذين اكتسبت أعمالهم رصيدًا كبيرًا من الجدية والمصداقية وأضحت مرجعًا لا غنى عنه لأي باحث في تاريخ الحركات الوطنية الجزائرية وتاريخ الجزائر الثقافي وقد اكتسب بذلك لقب شيخ المؤرخين بكل جدارة واستحقاق، وهو كذلك شخصية بارزة في عالم الأدب والثقافة والفكر ذات إشعاع باهر يعم ليس الساحة الجزائرية فحسب بل وكذلك الساحة العربية والعالمية، إذ إنه من الأقلام الجزائرية النادرة التي ظهرت في فترة مبكرة من الخمسينيات على صفحات الجرائد والمجلات ودور النشر العربية والعالمية للتعريف بشخصية الجزائر وقضيتها العادلة.

---

(1) ألقى الدكتور هذه الورقة يوم 18 يناير جانفي 2014 بمقر حزب جبهة التحرير الوطني في أربعينية شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.
تدخل في هذا اليوم كل من الأستاذ الدكتور محمد العربي الزبيري، والدكتور إبراهيم لونيسي، والأديب الظريف محمد الصالح حرز الله، وكاتب هذا الهامش محمد الأمين بلغيث، وترأس الجلسة الأستاذ محمد بوعزارة.

لكل ذلك أشرت بأن الحديث عن عالم سعد الله تصعب الإحاطة والإلمام به، ولذلك ارتأيت في هذه الورقة الموجزة أن أتطرق إلى عالم واحد من عوالم سعد الله المتعددة، إلا وهو: "عالم سعد الله الشعري"

ويتطلب ذلك، حسب منهج سعد الله العلمي، أن نقوم بتحديد مفاهيمه ورؤاه للشعر، ثم محاولة إبراز ذلك من خلال نصوصه وقصائده المنشورة في ديوانه الأول الموسوم بعنوان (النصر للجزائر) الصادر عن دار الفكر بالقاهرة سنة 1957 وهو أول ديوان مستقل ينشر لشاعر جزائري في التاريخ، وقد كتب مقدمته الشيخ احمد توفيق المدني.

ويجدر بنا أن نذكر أنه بعد عشر سنوات من ذلك أي سنة 1967 قد صدر لسعد الله عن دار الآداب ببيروت ديوان ثان بعنوان (ثائر وحب) وهو تنقيح ونشر لما لم يصدر في ديوانه الأول (النصر للجزائر) ثم ديوانه الثالث (الزمن الأخضر... ديوان سعد الله) الصادر سنة 1985 عن المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، وهو يشبه الأعمال الشعرية الكاملة.

ولا بد من الاشارة إلى أن سعد الله قد بادر الى تحديد مفاهيمه وتوضيح رؤاه للشعر في ثنايا وطيات بحوثه ودراساته التي تتناول الأدب الجزائري مثل بحثه القيم حول (محمد العيد آل خليفة... شاعر الجزائر) وكذلك كتابه (دراسات في الادب الجزائري الحديث) لكننا في هذه الورقة سنركز على مقدمة الطبعة الثانية لديوانه الاول، وقد كتبها سعد الله سنة 1983، وهو في كامل نضجه الفكري وقمة عطائه المعرفي، وكذلك سنعتمد على مقدمة خاتمة أعماله الشعرية أي مجموعة (الزمن الأخضر.. ديوان سعد الله) الصادر عن المؤسسة الوطنية

للكتاب سنة 1985 بالجزائر.

وسعد الله ككل العلماء والباحثين الجادين تجده حريصا على تحديد وتعريف مصطلحاته قبل أن يخوض في غمار البحث وتحليل المعطيات والتفاصيل، وهو عندما يتصدى لشرح مفهومه للشعر يفرق بين الشعر الخطابي العابر مثل الكلام اليومي الذي يؤدي وظيفته الاتصالية التي تنتهي في حينه، ثم تتبخر مع الزمن، والشعر الحي الخالد الذي لا يزول بأداء وظيفته الآنية بل تسري تلك الوظيفة الاتصالية في أعماق الزمن وتخاطب الأجيال اللاَّحِقَة بنفس الروح والحيوية والتحريض يقول سعد الله في مقدمة الطبعة الثانية من ديوانه (النصر للجزائر) الصادر عن مجلة (أمال) في أوائل سنة 1984:

"أن هناك شعرا لا يعتريه القدم والذبول بل يظل محتفظا برونقه وجدته مهما طال عليه الزمن، ونعني به الشعر الصادق الإحساس المعبر عن انفعال إنساني عميق بأدوات قادرة على توصيل ذلك الإحساس وهذا الانفعال إلى الآخرين" ' ويضيف سعد الله موضحا:

"ليست هذه الأدوات إلا ما اصطلح عليه الناس باللغة والموسيقى الشعرية والصورة والخيال.)

ويشير سعد الله الى انه اذا توفرت تلك العناصر الأربعة أي اللغة الشعرية والإيقاع الموسيقي والصورة الشعرية المبهرة والخيال البارع، فينجم عنها شعر حي خالد ومتجدد على الدوام، ولا يهم عندئذ إن قيل في عهد هوميروس أو امرئ القيس أو اليوم.

ذلك هو مفهوم سعد الله للشعر الحي الخالد.

وعن وظيفة الشعر ودوره، يؤكد سعد الله في واحدة من بواكيره الشعرية (هزار الشعر.. ديوان الزمن الأخضر. كتبها في مارس 1953):

كم من شعوب أضاء الشعر منهجها إلى الحقيقة فانجابت دياجيها
الشعر قنبلة موارة لهبا إذا تفجرت الأوزان تلقيها
الشعر معجزة الإلهام طافحة من النبوغ الالهي في سواقيها
الشعر باقة ريحان تصففها أيدي الملائكة والأحلام تهديها

وفي قصيدة (طريقي.. ديوان الزمن الأخضر) وهي أشهر قصائد سعد الله الحرة يشير إلى روح الشعر وخلوده:

سوف تدري راهبات وادي عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين
خمر حب وانطلاق ويقين
ومسحت أعين الفجر الوضية
وشدوت لنسور الوطنية
إن هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقا...
فقد اخترت طريقي
يا رفيقي.

وعن دور الشاعر في معركة التحرر ينظم أبياتا شعرية موسومة بعنوان: "

شاعر حر... ديوان النصر للجزائر"

النـــار رمـــز جهـــاده	والنـــور لـــون وجـــوده
والحـــب مـــلء فـــؤاده	واللحـــن مـــلء قصـــيده
يصـــوغ للنـــاس شـــعرا	مـــن دمـــه ودموعـــه
ويكســب الشــوك عطــرا	لوطنـــه وجموعـــه

ان المتأمل في الأبيات السالفة سيلاحظ ان سعد الله كأنما يتحدث عن نفسه، فقصائده فعلا هي نار وحمم تدك حصون الأعداء وكيان المستعمرين الطغاة، وهي نور ومعرفة تنير الدرب حتى لا ينزلق المرء في المتاهات وأتون العنف الأعمى فالعنف هنا أفرزته ظروف المستعمر الغاشم وليس نزعة لصيقة بالإنسان الجزائري، وهي كذلك مكرسة لقضايا وطنه وبطولات شعبه، وكتابة الشعر هي معاناة ومكابدة حقيقية فحبرها من الدم والدموع، وخطابها موجه للناس العاديين البسطاء وليس للنخب او ذوي الأبراج العاجية.

يقول الاستاذ المؤرخ احمد توفيق المدني باعتباره رئيس مكتب القاهرة لوفد جبهة التحرير الوطني والأمين العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في المقدمة التي كتبها لديوان (النصر للجزائر) سنة 1957:

(من تأمل قصائد ومقطوعات شاعرنا الناشئ الثائر رآها تعبر عن جميع تلك الأحاسيس وتختلج بكل هاتيك المشاعر، وتتناول بيد الفنان الملهم مختلف عواطف الشعب وزفرلته والامه، وعذابه وآماله، فتصوغها، دون تكلف، شعرا ساميا، ان لم يرض كل جزائري عن ألفاظه وموازينه وقوافيه فأنا أؤكد انه يعبر اصدق تعبير عما تجيش به نفس كل جزائرية وكل جزائري، وجميعهم جنود هذه

الثورة الجامحة وأعوانها).

ولا بد من الإشارة هنا الى ان مرد ذلك التحفظ الذي أبداه الشيخ احمد توفيق المدني بقوله (ان لم يرض كل جزائري عن ألفاظه وموازينه وقوافيه) إنما يعود الى المعركة الفكرية التي كانت في أوجها آذاك بين أنصار الشعر الكلاسيكي التقليدي وانصار الشعر الحر الذي ساهم الدكتور سعد الله في وضع أسسه ابتداء من سنة 1947 هذا الشعر الذي ثار على الألفاظ الرنانة والبحور الستة عشر المغلقة والقوافي الجامدة، وانخرط في مناخ التحرر والتحرير والمطالبة بالحرية السائدة آنذاك، ولا ننسى ان المدني باعتباره أمينا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المحافظة كان من الذين يرون في ذلك مروقا عن المألوف الشعري الذي استمر لقرون عديدة يحدد النظرة الى الشعر،

لكن مع ذلك وبعد إصرار سعد الله على مواصلة التجربة، فقد تمكن من نشر قصيدة (طريقي) في العدد 311 من صحيفة (البصائر) لسان حال الجمعية الصادر بتاريخ 25 مارس 1955 نظرا لعمقها وصدقها الذي أشار اليه المدني في ملاحظته السابقة، واعتبر نشرها بطاقة ميلاد الشعر الحر في الجزائر إذ لم ينشر قبلها أي تجربة شعرية حرة، لأي شاعر آخر سواء في صحف جمعية العلماء او غيرها، ومن الجدير ذكره هنا ان هذه القصيدة لم تنشر في ديوان (النصر للجزائر) لأسباب ذكرها سعد الله انها تتعلق بدار النشر ذات التوجه اليساري والتي حذفت كذلك قصائد اخرى دون استشارة الشاعر، بل وطال التصرف حتى عنوان الديوان ذاته.

وينبغي أن نشير هنا إلى ذلك النقاش الذي ساد حول من يكون رائد الشعر

الحر في الجزائر، اذ اشتد النقاش وطال الجدل في تفاصيل هذا الموضوع إبان السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، غير أن سعد الله قطع قول كل خطيب حين تناول في مقدمة (الزمن الأخضر.. ديوان سعد الله) وأورد ما نشره بمجلة الآداب البيروتية سنة 1957 وأعاد نشره بكتابه (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) فقال:

(كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947باحثا فيه عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، ولكني لم اجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة، ومع ذلك فقد بدأت اول مرة انظم الشعر بالطريقة التقليدية، اي كنت اعبد ذات الصنم واصلي في ذات المحراب، ولكني كنت شغوفا بالموسيقى الداخلية في القصيدة، واستخدم الصورة في البناء.. غير ان اتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق ـ ولا سيما لبنان ـ واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر)

وضمن تداعيات البحث عن التجديد الشعري جرب سعد الله قصيدة النثر (الى أين) سنة 1954 ثم أحجم عن هذا النوع من التجريب حيث يكتب (الزمن الأخضر):

(التجديد وحده لا يكفي. فالخروج عن مألوف الوزن والقافية، وحتى الموضوعات والتصورات، والتمرد عن القواعد النحوية والصرفية قد تجعل من الشاعر مهرجا ولكن لا تجعل منه شاعرا خالدا.)

وفي خضم هذا التجريب استقر رأي سعد الله على القصيدة الحرة والتي

كانت أولاها قصيدة (غيوم) سنة 1954 لكن قصيدة (طريقي) هي اول قصيدة حرة تنشر في الجزائر،

ويشرح سعد الله مسالة ريادة الشعر الحر في الجزائر بالتفصيل، في مقدمة ديوانه (النصر للجزائر) في طبعته الثانية وبحيادية الباحث، حيث أشار الى أن القضية تتسم بالنسبية الى ابعد الحدود، وأوضح:

(تجادل بعض النقاد عندنا فيمن هو الأول من شعرائنا الذي أدخل هذا النوع من الشعر إلى الجزائر. فذهب بعضهم إلى أن رمضان حمود أول من جرب الشعر المنثور، وقال اخر أن عبد الكريم العقون أول من حاول الشعر المقطع، ورأى فريق آخر إنني أول من حرر الشعر من قيود الوزن والقافية. ولكني أحب أن أطمئن الجميع بأن هذه قضية نسبية. وما دامت كذلك، فإن الأولية فيها ليست مطلقة. فقد يكون هناك من الشعراء من سبقني إلى الطريقة الحرة، ولكنه لم يتح له أن ينشر تجربته، وقد توجد ظروف تسمح لهذا الشعر بالإظهار ولآخر بالاقبار).

ونلاحظ هنا أن سعد الله يفرق تماماً بين ثلاثة أنواع من الشعر، وهي الشعر المنثور والشعر المقطع والشعر الحر.

ويسترسل في شرح وجهة نظره هذه فيؤكد أنه قد كتب عدة قصائد أولها (غيوم) المذكورة آنفا، قبل قصيدة (طريقي) لكن لم تجد طريقها للنشر في جريدة (البصائر) المحافظة، وربما حاول اخرون كذلك وفشلوا، لكن سعد الله الصبور قد استمر في المحاولة الى أن نجح في ذلك، ويضيف:

(إن تجربة الشعر الحر "وغيرها من التجارب" لا تقاس أوليتها بنموذج واحد أو نحوه، ولكن بتعدد النماذج واقتناع الشاعر نفسه بها ومحاولته الإجادة

فيها. ذلك ان التجربة قبل كل شيء" اختيار" والاختيار يقتضي الالتزام الذي يعني بدوره الإيمان بالتجربة ومحاولة إتقانها والمساهمة في إثرائها)

وقصيدة (طريقي.. ديوان الزمن الأخضر) جاءت مفعمة بروح النضال والتحرر، معبرة عن نزعة الاختيار والتحدي، يقول فيها سعد الله

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

فقد اخترت طريقي!

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاخب الأنات عربيد الخيال

كل ما فيه جراحات تسيل

وظلام وشكاوي ووحول

تتراءىٰ كطيوف

من حتوف

في طريقي

يا رفيقي...

وأحب ان اختم هذه الورقة بهذه الكلمات الرائعة التي تعبر عن شخصية سعد الله أحسن تعبير (مقدمة النصر للجزائر):

(استمر الطائر في تحليقه بحثا عن الحرية وبعيدا عن كل الشباك ومغريات الصيادين، لان نشر الكلمة هو هدفه الأسمى والتعريف بالأدب الوطني هو ضالته الكبرى والمتعة الأدبية هي غايته القصوى)

32

بسم الله الرحمن الرحيم

سعد الله الأديب/ بقلم الدكتور: عمران

بداية أتوجه بالشكر الجزيل للقائمين على المجلس الأعلى للغة العربية على تنظيمهم لهذه الأربعينية التي نقف من خلالها وقفة إجلال وتقدير للعلامة الدكتور أبو القاسم سعد الله، فنترحم عليه ونحيي آثاره، وطالما أنّ مداخلتي ستقتصر على المجال الأدبي أستعرض فيها بعض المنجزات الأدبية للدكتور سعد الله فإنني سأفتتحها بأبيات شعرية له، يقول فيها:

كم من شعوب أضاء الشّعرُ منهجَها ... إلى الحقيقة فاتجابت ياجيها
الشِّعرُ قنبلة موَارةٌ لهبًا ... إذا تفجّرت الأوزانُ تُلقيها
الشِّعر معجزة الإلهام طافحة ... من النبوغ الإلهي في سواقيها
الشعر باقيحانِ تصفّفها ... أيدي الملائكِ والأحلامّ تهديها

إنها أبيات شعرية جادت بها قريحة الأديب، والمؤرخ، والمفكر، الشاعر أبو القاسم سعد الله رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، قالها ذات ربيع من سنة 1953، وهي مقتطفة من قصيدة له عنوانها (هزار الشعر)، نشرها في جريدة البصائر في نفس السنة، قالها وهو في ريعان الشباب، قالها قبل أن يصبح مؤرخا أو ناقدا، ولما تسنى له جمع أشعاره في ديوان سماه" الزمن الأخضر" وكان ذلك سنة 1984 عقب عليها في مقدمة الديوان قائلا:

"إني لا أكاد أصدق الآن أنني أنا قائل هذه الأبيات" إنه حكم صادر عن شاعر يقرأ ذاته، فيُعجَب بأشعاره ويُطرب لها.

لقد عرّف الدكتور أبو القاسم سعد الله في هذه الأبيات الشّعر، فمصدر الشعر عنده هو الإلهام، وهو من الناحية الجمالية من حيث ماهيته كالقنبلة التي تنفجر فتتطاير منها الشظايا النارية التي تحدث جمالا في ما يحيط بها، والشعر من حيث الوظيفة هو الذي يضيء دروب الشعوب.

نستشف من هذه الأبيات رومانسية رقيقة، وعذوبة في التعبير، وخيالا شاسعا، وهي خير دليل على شاعرية شيخ المؤرخين، هذه الشاعرية التي ارتبطت بعنفوان الشباب، وعنفوان الشباب ارتبط بعنفوان الثورة، فكان له أن عنوان ديوانه"الزمن الأخضر"، أي زمن الشباب وزمن الثورة، فارتبط الدال بالمدلول في مفهوم"العنفوان".

لقد توقف أبو القاسم سعد الله عن قرض الشعر بعد ذلك، ولفترة طويلة، ولما سئل عن هذه القطعية، قال: " الإنسان لا يستطيع الإجابة على السؤال وُلِدَ؟ أو لماذا يموت؟ ونحو ذلك من الأسئلة القدرية، وكما أنني لا أدري كيف بدأت أقول الشعر فإنني لا أدري كيف انتهيت منه".

أبو القاسم سعد الله لم يكن شاعرا فحسب، بل كان أديبا ملمّا بجميع الفنون الأدبية، فكما قرض الشعر تفنن في كتابة القصة، والقصة القصيرة كما يجمع النقاد من أصعب الفنون الأدبية، وقد نشر مجموعته القصصية تحت عنوان: " سعفة خضراء"، وكان أديبنا كان مولعا أو مصرا على اللون الأخضر.

كما كانت له دراسات في النقد دونها في كتابه الشهير"دراسات في الأدب

الجزائري الحديث" والذي يُعدّ مرجعا للباحثين المشتغلين في حقل الأدب الجزائري.

كما اشتغل على التحقيق، ومن بين المخطوطات التي حققها "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" وهي رواية يقول بعض النقاد أنها أول رواية ظهرت في الساحة الأدبية العربية.

أبو القاسم سعد الله عشق الأدب شعرا ونثرا، نقدا وإيداعا، وكان لا يكتب إلا عن تجربة عاشها، ولا يخضع إلا لما يراه حقّا، ولا يفتري، وهو يعرّف الكاتب الحقّ قائلا:

"إنّ الكاتب الحق يجب أن يقول كلمته الحرة المقتنع بها سواء أرضت الآخرين أو أسخطتهم، أما الكاتب الذي يجامل بكلماته ويجاري التيار ويماشي الظروف فهو كاتب دجال لأنه لا يصدر عن عقيدة واقتناع، فهو إذن كاتب انتهازي أو مأجور أو جبان".

تمسُّكه بهذا الرأي في مجال الكتابة والنقد هو الذي جعل أديبا كبيرا في مستوى أبو العيد دودو يلحّ عليه أن لا يغادر ميدان الأدب، ولكن سعد الله يجيب صديقه قائلا: "طالما قلت لدودو أنني قد انسحبت من نادي الأدب، ودخلت أسرة التاريخ ولكنه كان يرفض ذلك أو لا يصدّقه، إنني متأكد أنّ القصة من أخص فنون الأدب وأصعبها على التقييم والنقد الموضوعي، وهي تحتاج إلى ناقد متخصص ومتجرد"، ويعقب على ذلك الأستاذ الدكتور وليد بوعديلة قائلا: " بالتأكيد أنّ دودو كان عارفا بقيمة سعد الله النقدية والذوقية، كما أنه عارف بأنّ سعد الله لا يجامل في أحكامه، وينطلق من رؤية حكيمة مؤسّسة على معرفة أدبية وجمالية، لذلك قد يكون طلب مرارا منه عدم

الانصراف عن النقد الأدبي وقد تكون هناك مراسلات بينهما في هذا الشأن".

وأنا هنا في هذا المقام أدعم هذه المقولة حيث سبق لي وأن كنت طالبا في قسم الماجستير عند الأستاذ دود، ولم تكن تمر حصة واحدة دون أن يذكر أبو القاسم سعد الله بمزحة أو نكتة أو فكرة، بل كثيرا ما كان يأتينا برسالة بعثها إليه أو ردّ إليه منه، وكانت تلك الرسائل المتبادلة بينهما قمة في الأدب والنقد، نسأل الله أن يقوّض لها باحثا يميط عنها اللثام ليطلع عليها المهتمون ويصنفونها، فهي أشبه بتلك الرسائل الأدبية الراقية التي تبادلها أدباء المشرق فيما بينهم إن لم نقل تفوقها من حيث القيمة النقدية.

لقد كانت للأديب أبو القاسم سعد الله أحكام نقدية وفكرية تتعلق بالأدب والفكر صمّنها كتابه الشهير تجارب في الأدب والرحلة"، فهو كتاب كما يوحي به عنوانه في الرحلة، قدّم فيه صاحبه رحلاته ورحلات غيره من الشخصيات، كما أورد فيه بعض الحوارات التي أجريت معه، ولكن ما يمّز الكتاب أنّ أغلب مقالاته تحمل ملامح التفكير النقدي الأدبي المتميّز الذي كان يتميّز به الدكتور أبو القاسم سعد الله، فنجده في إحداها يدعو إلى تفاعل النص الأدبي مع السياق السياسي الاجتماعي الذي يتحرّك فيه، يقول:

"إن الحاجة منحة إلى تحديد وتقييم مناهجنا الأدبية على ضوء تطورنا السياسي والاقتصادي بعد الاستقلال لكي نعرف الفرق بين ماضينا وحاضرنا الأدبي ومدى استجابة إنتاجنا الشعري والنثري إلى التزامات العصر".

هذه الرؤية كما يقول الدكتور بوعديلة تحيل على مقارنة سوسيولوجية تحتفي بتفاعل النص مع البعد الاجتماعي كما تبين أهميّة النقد في تطور الأدب.

وفي مقالة أخرى من نفس الكتاب يتطرق إلى قضية شائكة تضاربت حولها الرؤى واختلف المواقف ألا وهي قضية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وقد أبدى موقفه بكل صراحة وشجاعة دون مجاملة أو موارية، حيث عرّف الأدب الجزائري في مقالة بعنوان: " الأدب الجزائري الحديث" قائلا:

"إننا إذا استثنينا الأدب الشعبي، يمكننا تعريف الأدب الجزائري بأنه الإنتاج النثري والشعري الفني، الذي كتبه الجزائريون بلغتهم القومية، وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ أديب انتسب إلى الجزائر دون أن يتوفر له هذا الشرط يُعتبر أدبا شاذا غريبا، أو مولودا غير طبيعي، يمثل مأساة صاحبه وليس حضارة أمته".

إنّ الحكم القاسي الذي أطلقه أبو القاسم سعد الله على الأدب الجزائري المكتوب بغير اللغة العربية وكان يقصد الأدب المكتوب باللغة الفرنسية وإن كان يتماشى مع الكثير من الآراء وقد يتقاطع مع رأي كاتب كبير يكتب باللغة الفرنسية وهو "مالك حداد" لما عبّر عن مأساته قائلا: " اللغة الفرنسية هي منفاي"، رغم كل هذا فإنه تناول إشكالية خطيرة متعددة الجوانب وهو إن عبّر عن رأيه بما يمليه عليه حسّه الوطني والقومي فإنّ هذا الرأي قابل للنقاش.

كما تطرّق في نفس الكتاب إلى التيارات الأدبية في الجزائر ويحصرها في التيار التقليدي والتيار المتطور، ونجده يشير إلى غياب التمردات أو الانتفاضات الخلاقة كما يحدث في الأداب العالمية، فنجده يدعو إلى التمرد على القواعد الجاهزة والسائدة تمردا خلاقا، وهذا التمرد هو الذي جعله يحاول يخطى الحواجز للرفع من مكانة الشعر الجزائري كي يواكب نظيره في المشرق العربي ويضاهيه، وهكذا نجده يلبي دعوة الشاعر والناقد "رمضان حمود" حين دعا إلى النهوض بالشعر الجزائري

لنجعله في مستوى الآداب العالمية، فكان من أوائل الشعراء الذين خاضوا تجربة الشعر الحر لكسر الحواجز والتمرد على القوالب الجاهزة، وهذا ما نلمسه في قصيدة له كتبها سنة 1955 بعنوان"طريقي"، يقول فيها:

يا رفيقي
لا تلمني عن مروقي
فقد اخترت طريقي
وطريقي كالحياة
شائك الأهداف مجهول السمات
عاصف التيار وحشي النضال
صاخب الأنات عربيد الخيال
كل ما فيه جراحات تسيل
وظلام وشكاوى ووحول
تتراءى كطيوف
من حتوف
في طريقي
يا رفيقي

انطلاقا مما سبق يمكننا أن نقول بأنّ الدكتور أبو القاسم سعد الله أخرج الشعر الجزائري من نمطيه إلى حقل الخلق والابتكار، وعانق رياح الحداثة الشعرية بامتياز، لأنّ لغته الشعرية كانت تعبيرية في بنائها، انزياحية في تركيبها، تخييليه في أسلوبها ووسائل إبلاغها.

لقد كان سعد الله أديبا ملما بجميع فنون الأدب، ونحن في هذه العجالة لا يمكن على الإطلاق أن نلمّ بجميع إبداعاته الفنية وآرائه النقدية، يكفينا أن نقول إنه كان أديبا حقا.

ولا يسعنا إلا أن نستسمحه إن كنا اختزلنا أعماله الأدبية في هذه الدقائق ولكنها سنة الحياة، وما بقي إلا أن نطلب له الرحمة والمغفرة.

وشكرا

الدكتور: عمران/ تأبينية شيخ المؤرخين بمتحف المجاهد

من طرف المجلس الأعلى للغة العربية

يوم 2014/01/28م

33

شيخ المؤرخين، "الناقد الصغير"
الذي كتب أول قصيدة حرة في الجزائر

بقلم: صالح سعودي

إذا كان فقيد الجزائر أبو القاسم سعد الله يعرف باسم شيخ المؤرخين بالنظر إلى العمل الكثير الذي قام به للحفاظ على الموروث التاريخي والثقافي للجزائر تاركا مؤلفات نفيسة موازاة مع تدريسه الدؤوب في الجامعة فيلقّب أيضا بالناقد الصغير، له نزعة نحو الأدب والصحافة، كما ترك بصمات في مسار الشعر، حيث يعتبر رائد الشعر الحر في الجزائر، ويكفيه فخرا انه صاحب ميلاد أول قصيدة من هذا النوع منتصف الخمسينيات تحت عنوان **"طريقي"**.

انتقل إلى رحمة الله صبيحة السبت المنصرم الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين مخلفا فراغًا كبيرًا وسط الأسرة العلمية والثقافية الجزائرية، رحل المفكر والكاتب والشاعر الأديب الملهم والمحقق البارع، رحل شيخنا ومفكرنا في صمت كما يرحل الكبار، وإذا كان فقيد الجزائر يعرف باسم شيخ المؤرخين بالنظر إلى العمل الكثير الذي قام به للحفاظ على الموروث التاريخي والثقافي للجزائر تاركا مؤلفات نفيسة موازاة مع تدريسه الدؤوب في الجامعة فيلقّب أيضا بالناقد الصغير، له نزعة نحو الأدب والصحافة، كما ترك بصمات في مسار الشعر، حيث يعتبر رائد الشعر الحر في الجزائر، ويكفيه فخرًا أنه صاحب ميلاد أول قصيدة من هذا النوع منتصف الخمسينيات تحت عنوان "طريقي".

تأثر بالاتجاه الرومانسي

وأعجب بالمتنبي، إيليا أبو ماضي، الشابي والرافعي

اتجه أبو القاسم سعد الله إلى الاتجاه الرومانسي في شعره، وكان ذلك نتيجة لظروف البيئة التي شب فيها سواء في وادي سوف أو في تونس، حيث رمال الصحراء الذهبية والنخيل وخرير السواقي وأصوات الحيوانات وصفاء الطبيعية ونقائها، كلها كانت عوامل ساعدت سعد الله على تنمية ثقافته الأدبية، وسلوكه المنحى الرومانسي، بالإضافة إلى حبه الشديد للخلوة والانزواء، يطالع الكتب والمجلات لساعات طويلة، فكان يجلس فوق العشب وحفيف الأشجار.

انكب على شعر المتنبي فحفظ أغلب قصائده، كما كان لإيليا أبو ماضي أثرا في ثقافة سعد الله بإعجابه بقصيدة "الطلاسم" وما تحمله من تمرد وشك وتردد حول مصير الإنسان، يتناسب مع مرحلة الشباب الجزائري المغلوب والثورة ورفضها للظلم، كما قرأ للشابي وجبران خليل جبران كل كتبه وولع بالشعر المهجري وبشعر مدرسة أبولو، كما نال مصطفى صادق الرافعي حظا وافرا من ولع سعد الله بمطالعة مؤلفاته كرسائل الأحزان وأوراق الورد والسحاب الأحمر...

مؤلفات ثرية في الأدب كما في التاريخ

ورغم أن الفقيد الراحل سعد الله ركز جهوده في العشريات الأخيرة على إثراء المكتبة الجزائرية بمؤلفات تصب في خانة التاريخ الجزائري إلا أنه لم يهمل الكتابة في الجانب الأدبي والشعري، حيث صدرت له دواوين وكتب في هذا الجانب نذكر منها: النصر للجزائر (شعر 1986)، ثائر وحب، شعر 1977، الزمن الأخضر ديوان 1985، سعفة خضراء قصص 1986، دراسات في الأدب الجزائري

الحديث 1985، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث 1984، حكاية العشاق، في الحب والاشتياق رواية تحقيق 1983، القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني 1985، تجارب في الأدب والرحلة 1984، أشعار جزائرية تحقيق 1988، وقد فضل تنويع إبداعاته في الجانب الأدبي بين التوثيق وتكريس أدب الرحلات إضافة إلى إثراء الكشف عن رؤيته الشعرية بقصائد تميل إلى الذاتية والرومانسية، وأخرى تصف الثورة وتجسد نضال الشعب في حب وطنه، وقصائد تتميز بالغربة والحنين إلى الوطن قصائد تمثل تجارب الحب وغيرها.

سعد الله رائد القصيدة الحرة في الجزائر بامتياز

يعد أبو القاسم سعد الله رائد القصيدة الحرة في الجزائر بامتياز شأنه شأن السياب ونازك الملائكة في المشرق العربي، بدأت تجربته الشعرية في نظم الشعر الحر من خلال متابعته لمعركة القديم والجديد في مصر على صفحات الرسالة والثقافة وغيرهما، وتمرد أصحابه وتحررهم من المفاهيم السائدة في مختلف أوجه الحياة، إنّه جزء من ثورة أو شكل من أشكال الثورة إلى جانب إعجابه بهؤلاء الشعراء أعجب بالشعراء المجددين مثل نزار قباني وبدر شاكر السياب.

في منتصف الخمسينيات طالعت شعرنا ظاهرة جديدة مع جيل جديد من الشعراء الشباب وهي الشعر الحر، حيث يؤكد معظم الدارسين على أن "البداية الحقيقية الجادة لظهور هذا الاتجاه إنما بدأ مع ظهور أول نص من الشعر الحر في الصحافة الوطنية، وهو قصيدة طريقي لأبي القاسم سعد الله المنشورة في جريدة البصائر بتاريخ 23 مارس 1955" وبالتحديد في عددها (313) وأبو القاسم سعد

الله ذكر بأنه كتب هذه القصيدة في "الأبيار يوم 15 مارس1955 وأن البصائر نشرتها في عددها 313" مطلعها[1] :

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

فقد اخترت طريقي!

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاخت الأنات عربيد الخيال

كل ما فيه جراحات تسيل

وظلام وشكاوي ووحول

تتراءىٰ كطيوف

من حتوف

---

(1) المقطع فيه كسور في الوزن كما قال الدكتور حمدي وقد أصلح شأنها الشاعر في حياته وأنا لا أملك الديوان وأما المقطع الأصلي فهو كما يلي: يا رفيقي/ لا تلمني عن مروقي/ إذ أنا اخترت طريقي/ وطريقي كالحياة/ شائك الأهداف مجهول السمات/ عاصف الأرياح وحشي النضال/ صاخب الشكوىٰ عربيد الخيال/ ما به غيره جراحات تسيل/ وظلام وأنين ووحول/ تترآىٰ كطيوف/من حتوف/ في طريقي/ يا رفيقي/ البصائر، السنة السابعة من السلسلة الثانية، العدد 311 يوم الجمعة 20 رجب 1374هـ/ 25 مارس 19155م. ص: 5 [ص: 329 ضمن التجليد الجديد لدار الغرب الإسلامي]

في طريقي

يا رفيقي...

ويؤكد الصالح خرفي رحمه الله وعديد المتتبعين على أسبقية أبا القاسم سعد الله على تجربة الشعر الحر في الجزائر وأن من كتب هذا اللون زمن الثورة إنما جاء بعده، وسعد الله أول المقدمين على تجربة الشعر الحر، وفتحت تجربة سعد الله الطريق أمام شعراء آخرين لاقتحام هذه المغامرة، وتفاوتت التجارب الفنية بين شاعر وآخر، ونذكر من هؤلاء الشعراء أحمد الغوالمي، عبد الرحمان زناقي، عبد السلام حبيب، ومحمد الأخضر السائحي...

منزلة الكتابة عند الدكتور أبو القاسم سعد الله

في حديث لشيخ المؤرخين الجزائريين عن منزلة الكتابة في نفسه فيقول: **"قلمي لا يهدأ له بال، ولا يستقر له حال... فالكتابة عندي هي دوائي وهي دائي، هي غذائي وهي هوائي، فإذا كتبتُ رضيتُ عن نفسي وإذا لم أكتب سخطتُ عنها ومرَّ اليوم كأنَّه سُرق من عمري"**. ويخاطب أبناء جيله من الأحياء الذين استكانوا للراحة أو المرض وطلّقوا القلم قائلا: **"اكتبوا حتى بأهدابكم وأظافركم إذا لم تُطعكم أقلامكم، ثم اذهبوا إلى ربِّكم وأنتم راضون أنكم قُمتم بمهمتكم الفكرية والإنسانية، ولكم مني كل التمنيات"**.

وفي هذا السياق وصف الدكتور مسعود فلوسي المؤرخ والمفكر والأديب الجزائري المتميز الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، بالرجل الفذ الذي استطاع أن ينجز ما تعجز عن إنجازه المؤسسات الكبيرة، إن مؤلفاته الرائدة في تاريخ الجزائر الثقافي وفي التاريخ العام للجزائر وفي التعريف بعلماء الجزائر

القدامى والمعاصرين ستظل معالم بارزة لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها أو الاستغناء عنها، إن سعد الله باختصار حسب الدكتور **مسعود فلوسي** ظاهرة نادرة، وليس من السهل أن يظهر مثيل له في الأمد القريب، وإن مثل سعد الله فيما أنجزه من أعمال كمثل الأمير عبد القادر وابن باديس والإبراهيمي وغيرهم من الأفذاذ في تفرد كل واحد منهم بمنجزات لم يلحقه فيها أحد.

نشر في الموقع بتاريخ: الثلاثاء 14 صفر 1435هـ الموافق لـ: 2013 ـ 12 ـ 17

http://www. aswat . elchamal. com/ ar/ ?p =98 &a = 37870

34
بيت الأردن

بقلم الأستاذ محمد الهادي الحسني

قد يستغرب كثير أو قليل من الناس ويعجبون من عنوان هذه الكلمة وسيتساءلون عن نبأها، ولكن كما يقول إمام البلغاء وحكيم الحكماء الإمام الإبراهيمي "من عاش في الجزائر رجبا رأى عجائب لا عجبا" الآثار 3/ 111.

هذا البيت لا يوجد في عمان ولا في معان ولا يوجد في الزرقاء ولا في البلقاء، ولا يوجد في الأزرق ولا في المفرق، ولا يوجد في العقبة ولا في وادي عربة.. ولكنه ـ وإن أضيف إلى الأردن ـ يوجد في حي دالي ابراهيم عاصمة دولة الجزائر التي هي أكبر دولة من حيث المساحة في إفريقيا، بعد المؤامرة الصليبية التي قسمت السودان.. وكما أن هذا البيت ليس أردنيا من حيث مكانه فهو ليس أردنيا من حيث مالكه. فهو ليس تابعا لشخص أردني ولا مؤسسة تابعة للدولة الأردنية التي وصفها ـ لصغرها ـ أحد الكتاب: بـ" دوار الأردن"...

إن صاحب هذا البيت الجزائري أصالة. أبا عن أجداد. لا تجنسا.. وقد حدثني ذات يوم بأنه ذات يوم بأنه على نفسه لا يتخلى عن الجنسية الجزائرية ليتجنس بجنسية أية دولة، مهما يكون مكانها جغرافيا، ومكانتها في التاريخ والحضارة، ولا يخض زوجا غير جزائرية مهما يكون جمالها، فما لها ونسبها.. ويشهد عرفوه ـ ومنهم كاتب هذه السطور أنه برّ بوعده، ووفى بما عقد عليه إيمانه ووكادها.. فعاش جزائري عفيفا، ومات جزائريا شريفا، ولم يتعلق قلبه

بأي مكانة غير جزائري، ولا ترىٰ عيناه إلا غير جزائري.

إن هذا الشخص، صاحب هذا البيت هو كأحد من أبسط الناس من حيث النسب والنشب، فقد ولد في أسرة بسيطة، أرض بسيطة، والسماء غطاءها ولكنه بعد كدح كبير، وكفاح مرير في هذه الدنيا غادرها وهو ذو حسب، يملئ اسمه الآذان ويلفت إليه الأذهان... إن الأستاذ الكبير أبو القاسم سعد الله.. الذي أتاه اليقين يوم السبت 11 صفر 1435هـ (14 ديسمبر 2013م).

إن السبب الذي جعل أستاذنا سعد الله ـ وهو الذي علمنا الوطنية الحقّة ـ يطلق اسم" الأردن" علىٰ بيته، هو ما عناه من متاعب مادية ومعنوية علىٰ أيدي الناس كما شغلهم الشاغل وهو العمل علىٰ ما سماه سعد الله "تجريد الجزائر من الرجال"، ليخلو لأولئك الناس وجه الجزائر فيمسخ سحنته ويحرف حرف في الراء والضاد في هويته ثم يتفرغ لملء بوطنهم من غلاتها، ويلعنون ملتها، ويعيدوها بعدما حررها الرجل دليلا لفرنسا، رجع سعد الله إلىٰ أهله ووطنه، في عام 1967م من الولايات المتحدة الأمريكية حاملا ثمرة كده ونصبه ـ شهادة دكتوراه دولة ـ وظنّ أنه سيجد من الترحيب وما يشحنه ليعود مع ما ضاع من الجزائري ـ بسبب فرنسا المجرمة ـ من العلوم والمعرفة، ولكنه صدم بتكحم التفاهمي والسفاهة من كثير من دواليب الإدارة"الجزائرية". فكان في وطنه فالتفت الشعب بوان الذي وصفه الشاعر الفحل المتنبي بأنه "غريب الوجه واليد واللسان" كان نصيب سعد الله من الجزائر ـ بعد سعي، وطرق الأبواب ـ شقة من ثلاث غرف لم تتسع لكتابه وملفاته، وما اضطره إلىٰ الاستغناء عن الضروريات من الأثاث، ولم يكن ذلك المرتب الذي يتقضاه يكاد يغطي نفقاته

ثمن المراجع والآداب والكتابات. وأما معدته فكانت معها ملتزمات بالنسبة للرسول ﷺ ـ ثلث، وثلث، وثلث. وكان كما كتب لي لذات يوم قائلا: " **أنا ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**".

تقاعد سعد الله، أو قعد فكأنهم أرادوا يقتلوهم ماديا ومعنويا، فاضطروا أن يتعاقدوا مع جمعية آل البيت في الأردن الشقيق، الفقير في المال الغني في الرجال، فعرفت تلك الجامعة مكانة سعد الله وقيمته، فبواته ماهو أهلا له فأفاد الكثير واستفاد يسيرا. ومن ذلك السير اليسير المبارك فيه بني "بيت الأردن"، ودعاء صادق إلى الله الغني الكريم أن يكرم عبده أبا القاسم سعد الله. وينزله في أعلى العليين، تعويضا عما فعله بعض الأرذلين، وأفرغ على زوجه، أم ولده، جميل الصبر وأتاه جزيل الأجر.

وإلى الله نشتكي من الزمن. +++ فاسد جاءنا بكل عجاب

جريدة الشروق اليومي/ الإثنين 23 ديسمبر 2013 الموافق لـ 23 صفر الخير 1435هـ

35
رحلة ميمونة إلى مدينة قمار الطيبة
(وصف لجنازة المرحوم أبو القاسم سعد الله)

بقلم/ الأستاذ عبد الله عثامنية

ما كنت أدري، ولا كنت أتوقع، أن المقادير كانت تخبئ لي أن أشهد رحيل كثير من أصدقائي، قبلي، من أمثال محمد الصالح باوية وأبولعيد دودو وعمر البرناوي وعبد الله ركيبي ومحمد فارح، وهم ممن أتذكرهم الآن؛ وآخرهم هو الصديق أبو القاسم سعد الله، الذي أتاه اليقين صبيحة يوم السبت 14 نوفمبر 2013؛ رحمهم الله جميعا برحمته الواسعة وأسكنهم فسيح الجنان.

كنت على موعد مع أحمد، نجل المرحوم، لزيارة والده صبيحة ذلك اليوم، بعد أن نقل من مصلحة العناية المركزة (التي تمنع فيها الزيارات) بمستشفى عين النعجة، إلى قسم الأمراض الداخلية بنفس المستشفى. ولكن أحمد عاجلني باكرًا وقبل أن أترك المنزل، بمكالمة هاتفية ليخبرني أن والده قد توفي. أحسست بنوع من الشلل في حواسي وكاد تفكيري أن يتوقف، لكني تماسكت وواصلت استعدادي للالتحاق بالمستشفى. توجهت مباشرة إلى المصلحة المذكورة، فعلمت أنه نقل إلى المصلحة المكلفة بالتغسيل والتكفين؛ وهي المصلحة التي تكفلت بعد ذلك، ببقية الإجراءات بما في ذلك نقل النعش إلى المنزل. وهناك كان جمع كبير من طلبة المرحوم وزملائه في الجامعة، ورؤساء جامعات بالجزائر، وغيرهم كثير ممن بلغهم خبر الوفاة. وفي نفس الأمسية قررت العائلة نقل جثمان

المرحوم إلى مسقط رأسه، قمار، لدفنه ـ وفق وصيته ـ في نفس المقبرة التي يوجد بها قبر والده ووالدته.

وهكذا قرر بعض الأصدقاء ممن تيسر لهم الأمر، أن ينتقلوا هم أيضا إلى قمار لحضور جنازة هذا الرجل الذي ملأ دنيا الثقافة والتعليم والأدب بحضوره الدائم، طوال ما يقرب من خمسين سنة.

ولضيق الوقت وسرعة القرار، فقد تكفل كل شخص، أو مجموعة من الأشخاص الذين قرروا حضور الجنازة، بتنظيم تنقلهم وتهيئة وسائلهم شخصيا، وتوقيتها،، إلخ. أما أنا فقد كان من حسن حظي أن يتهيأ لي السفر برا، بصحبة الصديق [محمد]الهادي الحسني.

في الطريق إلى قمار.

انطلقنا من أمام منزل الأستاذ[محمد]الهادي الحسني بحي أولاد يعيش بالبليدة، على الساعة الثالثة والنصف فجرا، مؤملين أن نصل إلى قمار في ظرف تسع أو عشر ساعات، كما قال لنا بعض مرتادي هذا الطريق. وبعد ثلاث ساعات من السير، انتبهنا أننا نقترب من مدينة الجلفة متوجهين إلى الجنوب الغربي؛ وكان ذلك نتيجة لخطإ السائق. فحوّلنا اتجاهنا إلى الشرق ومررنا بالقرب من عين الإبل وعين الريش ومررنا بمدينة الهامل، وأخيرًا وصلنا بوسعادة المدينة التي كانت بوصلة الطريق بالنسبة لنا. ومن هذه المدينة رجعنا إلى الاتجاه الصحيح وبدأت السيارة تنهب الأرض نهبا، وكأن بها مثلنا، شوقا إلى مدينة قمار، التي وصلناها حوالي الساعة الثانية والنصف زوالا.

استقبلنا إخوة المرحوم: الدكاترة الأربعة (علي وإبراهيم وعمر إسماعيل

وخالد بوبكر) وفسحوا لنا في المجلس، الذي كان غاصا بالمعزين القادمين من أنحاء وادي سوف وبعض جهات الوطن الأخرى، ممن بلغهم خبر نقل المرحوم إلى قمار. وأخبرني الإخوة أن البرنامج المسطر لم يتغير، وأن الدفن سيكون بعد صلاة العصر، من ذلك نفسه.

جنازة تذكر بجنازة ابن باديس.

انطلقت الجنازة من منزل المرحوم، محمولة على الأعناق، ومتوجهة إلى المقبرة التي تضم أضرحة آل سعد الله بمن فيهم والده ووالدته؛ رحمهم الله جميعا. وكنت أرى المواطنين ينضمون شيئا فشيئا إلى الجنازة حتى امتلأت بهم الطرقات وغصت الشوارع. ويبدو أن تعليمات أعطيت لرجال الأمن الذي استعدوا للحدث، فأوقفوا السير في ذلك الشارع والشوارع المحيطة به؛ الأمر الذي سهل سير المشيعين بكل راحة.

توقفت المسيرة في ساحة واسعة بجانب المقبرة يسمونها "ساحة السوق"، حيث أقيمت صلاة الجنازة على المرحوم؛ ثم توجهت إلى المقبرة وتوقفت عند القبر الذي كان قد هيئ من قبل، بجانب قبر والده وغير بعيد عن قبر والدته أيضا.

وفي هذه اللحظة انطلقت حناجر المشيعين بالتكبير والتهليل، كنوع من الوداع لهذا الابن الكريم، الذي نشأ بينهم بسيطًا متواضعًا، ويرحل اليوم عظيمًا لكنه أيضا متواضع. ولم أتمالك نفسي، عند هذا الموقف المهيب، من تمثل جنازة المرحوم العلامة عبد الحميد بن باديس، التي لم أحضرها شخصيا لكني كنت قد شاهدت بعض الصور الشمسية التي تبيّن نوعية المودّعين وضخامة عددهم، وهو ما دل على أن كل رجال قسنطينة وضواحيها قد شيعوا ابنهم البار بهذا

الجلال والإكبار بعد مسيرة طويلة من العطاء والبذل العلمي.

وقد عرفت فيما بعد من إخوة المرحوم أنه دفن بجانب قبر والده وغير بعيد عن قبر والدته. وهذه واحدة من المكرمات التي من الله بها على المرحوم.

وقد ألقى الأستاذ عبد الرزاق قسوم كلمة تأبينية طيبة، أحسب أن المرحوم كان راضيا عنها؛ ثم تلاه مدير الشؤون الدينية بالوادي فألقى هو أيضا كلمة التأبين التي أرسل بها الدكتور بوعبد الله غلام الله، وزير الشؤون الدينية. بعد ذلك تحولت الجموع، بمن فيهم المسؤولون المحليون وعلى رأسهم السيد والي الولاية، إلى تقديم التعازي لأقرباء المرحوم الذين كانوا حاضرين.

وفي صبيحة اليوم الموالي رافقنا الدكتور إسماعيل سعد الله في زيارة إلى بعض المعالم في قمار: مدرسة جمعية العلماء (تحولت الآن إلى مدرسة لتعليم القرآن الكريم)، بإشراف سيدة كريمة من أقارب عائلة سعد الله ـ حسب ما ذكرت لنا هي نفسها. كما زرنا منزل المرحوم، الذي وردت الإشارة إليه في مذكراته (مسار قلم)، ورأيت رأي العين النخلتين اللتين كان يحدثني عنهما، بل وكان ـ في إحدى السنوات الماضية ـ أهداني كمية من (دقلة نور، الرائعة) مفتخرا أنها أول إنتاج للنخلتين. فلما دخلنا المنزل توجهت مباشرة إلى (الحوش) للتعرف على النخلتين ففوجئت بوجود أربع نخلات متوسطة العمر، مغروسة وسط الحوش، وبأبعاد متساوية؛ فوددت في سري، أن لو عرفت النخلتين الأوليين اللتين حدثني عنهما، ودار في خلدي أن لو كان مالكهما حيا لعرّفني بالنخلتين المعنيتين. خنقتني العَبرة فأخفيتها وتنحيت جانبا حتى لا يراني أصحابي.

قضينا الليلة صحبة الأساتذة عبد الرزاق قسوم وأحمد شوتري وعبد

الحفيظ أمقران، في منزل أحد أقرباء عائلة سعد الله، الذي رحب بنا أحسن ترحيب وأكرم مثوانا، كما هي عادة أبناء الصحراء الكرام.

فشكرًا لجميع من وقفوا مع المرحوم أثناء مرضه، وشكرا للذين سهلوا وساهموا في نقل الجثمان إلى مسقط رأسه، وأرجو من الله تعالى أن يوفق ابنه أحمد سعد الله، وأن ينعم بالصحة والعافية على أهل سعد الله جميعا.

رغبة تحققت ووصية أنجزت:

كان المرحوم يردد على مسامعنا، أيام مرضه الأخير، أنه يرغب في أن يموت في داره (وهو التعبير المنتشر لدى الجزائريين في مثل هذا المقام)، وأن يدفن في قمار. وما كنت أعلم أن وراء هذه الرغبة المعلنة رغبة أخرى غير معلنة، هي أن يدفن بجانب والده ووالدته. وقد تحققت هذه الرغبة والحمد لله.

وكانت وصية المرحوم أن تكون جنازته بسيطة ومتواضعة؛ وقد تحققت هي أيضا، ولله الحمد والمنة.

36
رحيل الرجل الذي تطيب بعد الموت أخباره

عبد الحميد عبدوس
البصائر/جريدة الخبر

لا شك أنّ موت العلماء رزية كبرى، وخطب جلل، وفجيعة لا تُنسى، لأنّ حاجة الناس إلى العلم والعلماء لا تزول ولا تحول بتغيّر الأزمان، وتعاقب الأجيال في شتّى الأوطان، لقد قال النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في الحديث المتفق عليه: "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالمًا اتّخذ الناس رؤوسًا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضّلوا". والعلماء ورثة الأنبياء ولذلك قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: "موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسّدها شيء ما اختلف الليل والنهار". حقًا لقد استشعرت فداحة المصيبة عندما تلقيت نعي العلامة شيخ المؤرخين الجزائريين المعاصرين، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي التحق بالرفيق الأعلى يوم السبت الماضي عن عمر ناهز 83 سنة، قضى معظمها في الدراسة، والتدريس، والبحث، والتنقيب، والتأليف، والتحقيق، والكتابة في الصحف والمجلات الوطنية، والعربية، والمشاركة في الملتقيات والندوات الفكرية والعلمية والأدبية في الجزائر ومختلف قارات العالم. لقد كان صاحب موسوعة "تاريخ الجزائر الثقافي" قدوة في علمه وسلوكه، أعطى لوطنه ولشعبه ولأمته وللغة العربية، ولدينه الإسلامي، تراثًا ثقافيًا تعجز عن تقدير

قيمته الكلمات، وتثمين رصيده أبلغ العبارات. ذلك ما شعرت به حقًا خلال مشاركتي في ندوة الإذاعة الدولية التي جمعتني بالمجاهد الدبلوماسي المثقف السيد صالح بن قبي، والصديق المؤرخ الباحث الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث، والتي أذيعت يوم الاثنين 16 ديسمبر، ولم تكن تلك الساعة من الزمن المخصصة للندوة كافية لأن تجعل كلّ واحد منا يدلي بما يحتفظ به من امتنان وتقدير وعرفان لنجم المدرسة التاريخية الجزائرية المعاصرة، وقطبها ومحرّك الهمم لإقامة صرحها على قواعد البحث الموضوعي، والأصالة الحضارية. كنت أعرف الدكتور أبا القاسم سعد الله من أواسط السبعينيات مؤرخًا وشاعرًا وناقدًا من خلال القراءة والإطلاع والسماع، ثم توثقت صلتي به في أواسط الثمانينيات عندما كان يشرّفني دائمًا بحضوره كلّما دعوته للمشاركة في الحصة الإذاعية التي كنت أعدّها وأقدّمها تحت عنوان: "من قضايا الثقافة" والتي كانت تحظى بمتابعة واسعة من جمهور المثقفين في الجزائر وحتى في فرنسا، وكان الدكتور سعد الله يتميّز دائمًا بثقافته الراقية، والمتنوّعة، وعلمه الواسع، وخلقه الرفيع، ولم يحدث أن تخلّف قط عن موعده بعد أن يعطي موافقته على الحضور. ولا أعتقد أنني أفشي سرًا إذا قلت أنّ أخلاق النميمة والاغتياب والحسد والتنافس بشكل أو بآخر تنتشر في أوساط المثقفين، وتكاد تكون حاضرة في جل اللقاءات ومختلف الجلسات، ولكنّني أشهد بأنّ الآراء كانت شبه متفقة على الثناء على سمعة الدكتور سعد الله، وتقدير مكانته العلمية واستقامته الأخلاقية، وهذا ليس بالشيء الهيّن في وسط يموج بالصراعات وصناعة الشائعات. وعندما ينظر المرء إلى آلاف الطلبة والطالبات الذين تخرّجوا على يد الدكتور سعد الله وأصبحوا مراجع في البحث والتأليف في التاريخ والتدريس والتأطير والتسيير

الأكاديمي، وإلى عشرات الكتب التي أصدرها، ونفائس المخطوطات التي حققها، وجواهر المؤلفات التي ترجمها، يتأكد بأنّ هذا العالم الأصيل الذي لم يبخل بعلمه ولم يدخر جهده لنشر العلم والمعرفة بين طلبته وعند قرائه مازال حيًّا، وسيبقى معلمًا من معالم الثقافة الجزائرية والعربية، شامخًا في موكب عظماء التاريخ الذين تبقى معانيهم الحيّة، كما قال العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ في ذكرى وفاة رفيق دربه إمام النهضة الجزائرية ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ عبد الحميد بن باديس ـ عليه الرحمة والرضوان ـ: "**يموت العظماء فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحيّة في الأرض، قوّة تحرّك، ورابطة تجمع، ونورًا يهدي، وعطرًا يُنعِش، وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو معنى كون العظمة خلودًا، فإنّ كلّ ما يخلف العظماء من ميراث، هو أعمال يحتذي بها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها فى الحياة، وآثارًا مشهودة ينتفعون بها، وأمجادًا يعتزون بها ويفتخرون**". رحم الله العلامة أبا القاسم سعد الله الذي طابت في الدنيا عشرته وسمعته وتطيب بعد الموت أخباره.

37
هكذا يكون المجد حقا..
كلمة وداع للدكتور أبي القاسم سعد الله
بقلم الدكتور الطيب برغوث

تلقت " مؤسسة السننية للدراسات الحضارية "، كما تلقى الجزائريون عامة والنخبة المثقفة منهم خاصة، نبأ وفاة شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور **أبي القاسم سعد الله** رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فحزن أعضاؤها كثيرا على ما انقطع بوفاته من علم ومعرفة وقدوة وجهاد رسالي نموذجي، نحن في أمس الحاجة إليه، في مرحلة تتعرض فيها هويتنا الثقافية وأمننا الاجتماعي والحضاري لتحديات كبيرة وخطيرة، ظل رحمه الله يواجهها طيلة حياته، من خلال مرابطته النموذجية في **ثغر بناء الوعي التاريخي** لأجيال المجتمع، باعتباره الشرط القاعدي الأساس لاستكمال استقلالنا الوطني وحمايته من ناحية، والتخلص من مركبات وعقد الدونية والاستلابية الثقافية والحضارية من ناحية أخرى، والانفتاح الواعي على الثقافات والخبرات العالمية بروح المساهمة والمنافسة من ناحية ثالثة، واستثمار ذلك كله في بناء نهضتنا الحضارية الوطنية من ناحية رابعة.

أهمية الوعي التاريخي في حياة الأفراد والمجتمعات:

إن اختيار الدكتور أبي القاسم سعد الله للمرابطة في هذا العمق الحيوي من الساحة الثقافية، من توفيق الله تعالى له، فقد أحسن رحمه الله تحديد مضغة وأولوية الاهتمام لديه منذ وقت مبكر، عندما ركز جهده على المساهمة في بناء الوعي التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري، من خلال العناية بكتابة تاريخ المجتمع الجزائري، وأبدع في ذلك أيما إبداع، وترك لنا ثروة عظيمة لا تقدر بثمن، فهي تقع ضمن دائرة أم الثروات الاستراتيجية، لأنها الثروة التي تساعدنا على معرفة من نحن ؟ وما وزننا في التاريخ ؟ وما دورنا فيه وواجبنا تجاهه ؟ وماذا نملك من مقومات وشروط لأداء هذا الدور ؟ وأين أخطأنا وأين أصبنا ؟ ولماذا أخطأنا أو أصبنا ؟ وكيف تشكل حاضرنا بالصورة التي هو عليها ؟

إن الساحة التاريخية بمحتواها الفكري والثقافي والحضاري، كانت ولا زالت وستضل، الميدان الذي دارت وتدور وستدور فيه أقوى معارك المواجهة الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية بين المشروع الاستعماري الاستئصالي الاستكباري البغيض، أو أي مشروع استضعافي هيمني آخر، وبين المجتمع الجزائري بل ومنطقة الشمالي الإفريقي، أو أي مجتمع آخر ينشد الحرية والعدالة واستقلالية الإرادة الوطنية. ولولا بقايا الوعي التاريخي الذي صمد في وجه المشروع الاستعماري زمنا طويلا (قرنا وأزيد من ثلث قرن)، لتغير وجه التاريخ في هذا الشمال الإفريقي وفي أجزاء واسعة من القارة الإفريقية، كما تغير قبل ذلك في الضفة الجنوبية الغربية للبحر الأبيض المتوسط، في حركة التطهير العرقي والديني التي تعرض لها الوجود الإسلامي فيما كان يعرف بالأندلس.

فالوعي التاريخي السنني الأصيل، محرك أساسا من محركات التاريخ، من أمتلكه من أفراد أو مجتمعات، نمت قواه الذاتية وطموحاته الاجتماعية، واستعصى على الاستلاب والتبعية، وتحررت إرادته الحضارية، وامتلك زمام إمكانه الحضاري، واستقلالية وفعالية فعله الثقافي والاجتماعي والحضاري. ومن افتقده كان عرضة لشتى صنوف الاستلاب والتبعية، ووهنت إرادته الحضارية، وفقد استقلاليته، وعرَّض وجوده للخطر.

نموذج تطبيقي عن أهمية الوعي التاريخي وخطورة غيابه أو قصوره:

فقصور الوعي التاريخي الأصيل، هو الذي جعل، على سبيل المثال، أحد أقطاب النخبة الوطنية في ثلاثينيات القرن الماضي، وهو فرحات عباس رحمه الله يقول: " **فرنسا هي أنا**.. ولو أني اكتشفت وجود الأمة الجزائرية لكنت وطنيا. فالرجال الذين ماتوا من أجل طموحهم الوطني يكرمون يوميا ويحترمون، ولا قيمة لحياتي أكثر من حياتهم، على أني غير مستعد لهذه التضحية، **فالجزائر كوطن ليست سوى أسطورة، أنا لم أكتشفه.** سألت عنه التاريخ، سألت عنه الأموات والأحياء، زرت المقابر: لم يحدثني عنه أحد. "[1].

والوعي التاريخي السنني المتكامل، هو الذي جعل قطبا آخر من أقطاب النخبة الوطنية في نفس الفترة، وهو الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، يقول مناقشا لفرحات عباس ومسائلا لفئات من النخبة الوطنية التي بدأ وعيها التاريخي يعاني من آثار الاستلاب الثقافي: " لا يا سادتي... إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة

(1) http: //assala . dz. net/ar/?p=3872

متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا.

ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة، والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية "[1].

وقد كان لهذا الوعي التاريخي الأصيل، الذي كانت تستند إليه مواقف ومبادرات وحركة الأمام عبد الحميد بن باديس وحركة الإصلاح خاصة، وجمهرة الحركة الوطنية عامة، تأثيره المباشر لدى الزعيم الوطني الكبير فرحات عباس، فتجاوز هذا الارتباك في وعيه التاريخي، ليقف وجها لوجه أمام ليل الاستعمار البهيم، ويساهم في فضح بشاعته، وكشف زيف أطروحات الرسالة التحضيرية لفرنسا فيما وراء البحار !

لهذا تمنح الأمم الحية مكانة خاصة للوعي التاريخي، وتجند له أعزَّ ما لديها من العبقريات الفكرية، ومن الإمكانات البشرية والمادية والوسائل الفنية، والشروط القانونية، حتى تنمي هذا الوعي التاريخي في الأجيال، وتحررها من الشعور بالدونية، وتغذي فيها الثقة بالنفس، والاعتزاز بالانتماء، والإحساس

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس 3/ 308.

بالمسئولية، وروح المبادرة والمنافسة والمكابدة، من أجل إثبات الوجود وتفعيله ثقافيا واجتماعيا وحضاريا. بل إن بعض المجتمعات الفقيرة في الوعي التاريخي، تلجأ إلى الأساطير والخيال الفني، لتستدرك بعض النقص الذي تعانيه في مجال الوعي التاريخي ! لشعورها بما للوعي التاريخي من ثقل تربوي وثقافي واجتماعي وسياسي غير عادي في مجال صناعة النهضة الحضارية والمحافظة على استمراريتها في الوقت نفسه.

الدكتور سعد الله ودوره المحوري في تأسيس الوعي التاريخي للمجتمع الجزائري:

من أجل هذا قلت في مطلع هذه الخاطرة، بأن اختيار الدكتور أبي القاسم سعد الله للمرابطة في هذا العمق الحيوي من الساحة الثقافية، هو من توفيق الله تعالى وتكريمه له، ليكون في عداد خالدي الذكر، بما يقدمه من خدمة فكرية وثقافية وتربوية جادة، في إحدى أهم بؤر ومضغ إعادة بناء وتجديد الوعي التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري، وتحريرها من نفوذ وسطوة وزيف المدرسة التاريخية الاستعمارية، التي عملت وما تزال تعمل بكل قوة، على إقناع أجيال المجتمع والأمة والعالم، بأن الاستعمار كان يحمل رسالة تحضيرية إنسانية للمجتمع الجزائري ! وأن وجوده قد أنهى فترة الغزو العربي والتسلط التركي ! كما تدل على ذلك محاور مقرر دراسة التاريخ في العهد الاستعماري، التي كانت مصاغة بعناية وحنكة بيداغوجية وسيكولوجية، كما يلي: " **الوجود الروماني، الغزو العربي، التسلط التركي، مجيء الفرنسيين** " [1] ! ناهيك عما كان يدور على

(1) أورده مولود قاسم إما في كتاب: أصالية أم انفصالية أو في كتاب: إنية وأصالة. المرجعان ليسا بحوزتي.

الساحات المعرفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الأخرى، من معارك شرسة، تتمحور كلها حول ضرب مقومات الوعي التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري، وتجريدها من الشعور بذاتيتها الثقافية والحضارية، وتحويلها إلى كتلة غثائية هامشية مسخرة للأعمال والمهام القذرة !

وبمناسبة الإشارة إلى الرسالة التحضيرية التي رفع الاستعمار شعارها، واستباح بها مجتمعات وهتك بها أعراضها، وعبث بمقدراتها، وقصم ظهورها، أثبت هنا مقولة ذات دلالات عميقة على النزعة الاستكبارية المركزية التي كانت تقف وراء " **مشروع البتر والإلحاق** " الذي واجهه المجتمع الجزائري طيلة الوجود الاستعماري الفرنسي. هذه المقولة المؤسسة والمغذية للمركزية الاستعلائية الاستكبارية، جاءت في خطاب الكاتب والسياسي الفرنسي العنصري جول فيري في 28 جوان 1885، قال فيه: " أيها السادة، ينبغي أن نتكلم بصوت أعلى وأقوى ! ينبغي أن نقول بكل صراحة أن للأعراق العليا حقا على الأعراق الدنيا، قلت إن لها حقا بمعنى أن لها واجبا. أن عليها واجب إدخال الأعراق الدنيا في الحضارة " [1].

هكذا كان العلم يُسخَّر لخدمة الأغراض الاستعمارية، وهكذا كان العلماء يوظفون عبقرياتهم العلمية، وأوزانهم العلمية والاجتماعية لتغذية روح القهر والتدمير لمجتمعات أخرى، ونهب مقدراتها، باسم واجب إدخال الأعراق الدنيا في الحضارة !

إن ما أنجزه الدكتور سعد الله رحمه الله في مجال إعادة بناء وتجديد **الوعي**

(1) غوستاف لبون، سيكولوجية الجماهير / 26.

التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري، ومواجهة هذه الروح الاستعمارية الاستكبارية، يقع ضمن الثروات الإستراتيجية الحقيقية الخالدة، بل يعد أمًّا لهذه الثروات الإستراتيجية البشرية منها والطبيعة أو الفكرية.. لأن الوعي التاريخي بأبعاده العقدية والفكرية والثقافية والحضارية، هو الذي يمنح أجيال المجتمع عامة، والنخب الفكرية والسياسية والاجتماعية فيه خاصة، البصيرةَ الفكرية والروحية الرسالية الهادية، ويشحذ غيرتها الوطنية، ويرفع مستوى إخلاصها وتفانيها في خدمة الوطن ورعاية مصالحه العليا بكل أمانة.

نهضتنا المجهضة ومسؤولية اضطراب الوعي التاريخي:

وإني أستطيع أن أقول بأن المجتمع الجزائري عانى من قصور الوعي التاريخي حتى بعد مرحلة الاستقلال، فهرعت بعض نخبه مبكرا ذات اليسار نحو الاشتراكية بل والشيوعية، وذات اليمين نحو الرأسمالية، وباتجاه التلفيقية التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، إلا رائحة المصالح الفردية أو الفئوية أو الجهوية.. وقد كان لذلك كله الأثر السيئ على مسيرة ومصير النهضة الحضارية الوطنية، التي توفرت الكثير من شروطها المعنوية والنفسية والاجتماعية والسياسية، عبر الإنجاز التاريخي الضخم للثورة الجزائرية الكبرى، والكثير من شروطها المادية، وعبر الثروات الضخمة التي يتوفر عليها المجتمع الجزائري، وعبر الشروط البشرية ممثلة في الاستعداد غير العادي لأجيال المجتمع الجزائري للتضحية من أجل تحقيق النهضة.

إن كل هذه الشروط الاستثنائية للنهضة الحضارية، تبخرت بين أيدينا، بسبب اضطراب وضمور الوعي التاريخي، حتى وصلنا إلى مرحلة نادى فيها

بعض طلبتنا: " التاريخ في المزبلة " !؟ وصار الحديث باللغة الوطنية أو ارتداء الأزياء الوطنية منقصة لدى كثير من النخب ! والحديث بلغة المستعمر وتقليده في عاداته وتقاليده وأوضاعه، دون حاجة إلى ذلك، حاجة نفسية واجتماعية لدى هؤلاء ! وتحول الإسلام ذاته إلى عامل صراع واهتلاك اجتماعي بعد أن كان عامل لحم وتأليف وشحذ للطاقات، ولو دُرست وقُيِّمت مسيرة المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، ومصير نهضته الحضارية، من **منظور الوعي التاريخي**، لتأكد لدينا فعلا مدى مسئولية قصور أو اضطراب الوعي التاريخي عن ذلك كله.

دور الوعي التاريخي في التوازن الفكري لدى الدكتور أبي القاسم سعد الله:

وبمناسبة الحديث عن مركب الدونية والغثائية والإمعية، الذي حرص المشروع الاستعماري على زرعه في أعماق الإنسان والمجتمع الجزائريين، من خلال ضرب وعيهما التاريخي وحرمانهما منه، نذكر بأن الدكتور أبي القاسم سعد، يعطينا نموذجا حيا في هذا المجال عن الأهمية الكبيرة للوعي التاريخي في تحصين الأفراد والمجتمع، وتحقيق توافقهما النفسي، وانسجامهما الاجتماعي.

فهو رحمه الله كان يتقن الإنجليزية، ويعرف الفرنسية والألمانية.. ودرس في الولايات المتحدة حتى نال شهادة الدكتوراه، وانفتح على الثقافة العالمية المعاصرة وآدابها وتياراتها ومناهجها، في سن عمْرية حساسة، وفي مرحلة تاريخية كان العالم فيها يغلي بالأفكار اليسارية واليمينية والتلفيقية، التي جرفت واستوعبت جل النخب الوطنية والعربية والإسلامية.. وحولتها إلى دعاة

ومبشرين بها ومجسدين لها في حياتهم الخاصة، وفيما يتاح لهم من مسئوليات ثقافية أو اجتماعية أو سياسية عامة في المجتمع، ومع ذلك لم تستوعبه أي من هذه الثقافات، أو يجرفه أي تيار من هذه التيارات العالمية، شرقية كانت أم غربية، بل ظل جزائريا مسلما خالصا معتقا، أخذ كل ما في هذه الثقافات العالمية من خيرية وبركة، وهضمها واستوعبها جيدا، وأعاد صياغتها على ضوء معطيات المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية لمجتمعه وأمته، فكان ما قدمه لنفسه ولمجتمعه ولأمته خيرا خالصا بإذن الله.

وإني أرى بأن ما ذكره شاعر الإسلام الكبير محمد إقبال، عن تمكنه من الإفلات من سحر وأسر واستلاب الثقافة الغربية المعاصرة، حينما قال: " لقد كسرت طلسم العصر الحاضر، وأبطلت فكره، التقطت الحبة، وأفلت من شبكة الصياد، يشهد الله أني كنت في ذلك مُقلِّدًا لإبراهيم، فقد خضتُ في هذه النار واثقًا بنفسي، وخرجت منها سليمًا محتفظًا بشخصيتي "[1] ينطبق على الدكتور سعد الله إلى حد بعيد.

واستكمالا للصورة في عمقها، أرى أنه من المفيد تربويا أن نذكر هنا كذلك، بأن الدكتور سعد الله وهو يقضي جزءا كبيرا من حياته مطلعا على التراث الثقافي الإسلامي، وعلى تياراته الفكرية والسياسية والدعوية.. لم يستوعبه أي تيار من هذه التيارات في المشرق أو في المغرب، ولم ينحاز إلا لما هو أصيل ونافع وداعم لبناء وتجديد الوعي التاريخي للفرد والمجتمع والأمة. لقد كان متوازنا على الصعيد الذاتي، وكان منصفا وموضوعيا إلى حد بعيد على المستوى العلمي

(1) أبو الحسن الندوي، روائع إقبال / 77.

والمنهجي، ولذلك فهو يصنف ضمن المدرسة الفكرية الحضارية الجامعة، التي تقوم على الاعتزاز النفسي والفعلي بثوابت الهوية الذاتية للمجتمع والأمة من ناحية، وعلى الانفتاح الفعلي على رشد الخبرة السننية البشرية أينما كانت من ناحية أخرى، وعلى احترام المعادلة الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري ومراعاة مصالحها الحيوية من ناحية ثالثة، وعلى روح المنافسة التكاملية بين مكونات المجتمع والأمة على خدمة النهضة الحضارية المنشودة من ناحية ثالثة، وعلى التكاملية الحضارية الإنسانية من ناحية رابعة.

من هنا تتجلى الأهمية الكبيرة للجهد المعرفي التربوي الذي قام به الدكتور أبو القاسم سعد الله في مجال إعادة بناء وتجديد الوعي التاريخي لأجيال المجتمع الجزائري، كما تتجلى كذلك المكانة الكبيرة التي يحتلها هذا الرجل في تاريخ المجتمع الجزائري المعاصر، حتى وإن لم تتح لجهوده الضخمة فرص الانتشار والتعميم المطلوب مرحليا، وحوصر هو نفسه وضيّق عليه، حتى اضطر إلى الهجرة حفاظا على حياته وكرامته، وحرصا على إتمام مشروعه الثقافي الكبير، الذي كان يعي بعمق مدى أهميته الحيوية البالغة بالنسبة لحاضر المجتمع الجزائري ومستقبله.

سعد الله في موكب الخالدين:

وكعادة الله سبحانه وتعالى في مباركة الجهود المخلصة والتمكين لها، وتخليد ذكرها، فإن ما قدمه الدكتور سعد الله يلقى قبولا لدى عموم فئات المجتمع، وسيزداد الاهتمام به اتساعا وعمقا مع مرور الزمن.

النموذج التطبيقي الأول: وإنني عندما أرى نماذج من تعليقات أجيال

مختلفة في مواقع التواصل الاجتماعي، على وفاته رحمه الله، وكيف غمره من يعرفه ومن لا يعرفه بالدعاء الخالص له بالمغفرة وجزيل الثواب.

النموذج التطبيقي الثاني: وعندما أرى واحدا من هذه الأجيال يكتب في تعليقه مخاطبا له: "لأول مرة في حياتي تفيض عيناي دموعاً على إنسان لم أعرفه ولم أسمع عنه حتى هذا اليوم، نعم الرجال أنت يا أبا القاسم. وقبل أن أترحم عليك، نرجو منك أن تسامحنا على تقصيرنا وتجاهلنا لشخصية عظيمة مثلك وعدم الاستفادة من كنوزك " [1].

النموذج التطبيقي الثالث: وعندما أرى نوعية وعدد من حضروا جنازته، من العلماء والمفكرين والباحثين والأدباء والفنانين وجموع المواطنين الطيبين، رغم بعد المسافة، أو من تقاطروا علي **(بيت الأردن)** في حي دالي ابراهيم فور سماع وفاته رحمه الله.

عندما يرى الإنسان كل هذا، ويستحضر ما قيل فيه من شهادات من زملائه وتلامذته وقرائه، والسيل الغامر من الأدعية الصادقة التي ليس وراءها مطامع أو مخاوف، يتأكد فعلا بأن الله تعالى يبارك جهود المخلصين من عباده، ويكتب لها القبول، ويضمن لها الذيوع والانتشار والخلود، وهو كل ما يتوق إليه كل ذي بصيرة في هذه الدنيا، بأن يجعل الله له لسان صدق في الآخرين، كما قال أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام: **(وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)** (الشعراء: 84).

وفي التاريخ وعت سيدة مقام أهل العلم عند الله وعند الناس، وأدركت

---

(1) oussama، تقرت، الشروق اليومي: 14. 12. 2013.

دورهم المحوري في تاريخ المجتمعات الإنسانية، وكانت لها كلمة عظيمة تكتب بحروف من نور في ذاكرة كل إنسان بصفة عامة، وأمام صاحب كل مسئولية وولاية على الناس خاصة، رأيت أن أسوقها بمناسبة وفاة شيخ المؤرخين وأستاذ الأجيال الدكتور أبي القاسم سعد الله رحمه الله، لتعتبر بها الأجيال، وتضع نفسها حيث ينبغي لها أن تكون. فقد كان رحمه الله ممن تنطبق عليهم هذه الكلمة بحق.

روي أن الخليفة هارون الرشيد وعبد الله بن المبارك، قدما من غير اتفاق سابق بينهما، إلى الرقّة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطّعت النعال، وارتفعت الغَبَرة، من شدة الزحام، والرغبة في طلب العلم، والتبرك بأمير المؤمنين في الحديث: " فأشرفت أمّ ولد أمير المؤمنين من برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا ؟! قالوا: عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك. فقالت: **هذا والله الملك، لا ملك هارون**، الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَطٍ وأعوان"[1]!.

وأنا أقول في ختام خاطرتي هاته: هذا والله هو المجد حقا، وليس الملك فحسب، فالمجد سلطان ممتد لا ينقطع، لأنه يرتكز على العلم النافع للأجيال، والمحصِّن لها من التيه والدونية والعدمية التاريخية، وفي السنة النبوية: (مَن سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فعمِلَ بِها، كانَ لَهُ أجرُها وَمِثْلُ أجرِ مَن عملَ بِها، لا يَنقُصُ مِن أجورِهِم شيئًا ومن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعملَ بِها، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا)[2].

العبرة المركزية الباقية من تجربة شيخ المؤرخين الجزائريين:

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان 3/ 33

(2) صحيح ابن ماجة برقم/ 169

هذا هو الدرس البليغ الذي تستفيده الأجيال من حياة الدكتور أبي القاسم سعد الله، وأن تقتدي به فيه، إن أرادت فعلا أن يكون لها نصيب من المجد الخالد. إن على كل فرد في المجتمع أن يختار المجال الحيوي المناسب له، ويركز جهده عليه، ويذهب بعيدا في الإبداع فيه، وخدمة القضايا والمصالح الحيوية لمجتمعه وأمته من خلاله، بكل إخلاص وصبر ودأب وفعالية واحتسابية. فمقام الإنسان عند الله وفي المجتمع والتاريخ، يكون بقدر ما قدم لمجتمعه وأمته والإنسانية من خدمات ذات بعد أو أفق استراتيجي بعيد المدى. والدكتور سعد الله أخلص لله في عمله، ووُفِّقَ في اختيار مضغة ومركز اهتمامه ومساهمته، ومنحها كل جهده وحياته، فبارك الله في جهده، ورفع مردوديته إلى مستويات غير متوقعة، وأكرمه بمقام كريم في تاريخ المجتمع الجزائري وتاريخ الأمة بل والإنسانية. ويا سعادة من بارك الله في جهده، وكتب له القبول في أهل الأرض والسموات حيا وميتا، كما جاء في الحديث: (إنَّ اللهَ، إذا أحبَّ عبدًا، دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه. قال فيُحبُّه جبريلُ. ثمَّ يُنادي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يُحبُّ فلانًا فأحِبُّوه. فيُحبُّه أهلُ السَّماءِ. قال ثمَّ يُوضعُ له القَبولُ في الأرضِ. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فلانًا فأبغِضْه. قال فيُبغِضُه جبريلُ. ثمَّ يُنادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فلانًا فأبغِضوه. قال فيُبغِضونه. ثمَّ تُوضعُ له البغضاءُ في الأرضِ)[1]، ونحن ندعو الله تعالى أن يجعل شيخ مؤرخينا ممن أحبهم الله وكتب لهم حب الأجيال في الأرض والسموات. كما ندعوه تعالى أن لا يحرمنا أجره وبركته، وأن لا يفتننا بعده، وأن يوفقنا للمضي على طريق الرسالية المستنيرة، الذي رسمه بجده وكده وإخلاصه وصبره.

(1) صحيح مسلم برقم/ 2637

رسالة سعد الله إلى أجيال المجتمع والأمة:

والأسئلة التربوية الهامة التي أود إنهاء هذه الخاطرة بها، وأرجو من أصدقاء وتلامذة ومحبي الدكتور سعد الله رحمه الله الإجابة عنها هي: كيف اهتدى إلى الاهتمام بهذه المضغة المحورية في الوعي الثقافي: **أي الوعي التاريخي** ؟ خاصة وأنه بدأ أديبا صاحب ملكات وقدرات كبيرة، فكيف فلت من سحر الأدب وسلطانه، وتماهى مع الفن التاريخي ومتاعبه ؟ وكيف لم تؤثر فيه الثقافات التي أمتلك زمام أوعيتها اللغوية كالانجليز والفرنسية والألمانية.. ؟ وكيف حافظ على توازنه الفكري والسلوكي أمام عواصف التيارات اليسارية والليبرالية والتلفيقية ؟ من أين جاءته قوة التوازن الفكري والنفسي والسلوكي ؟ هل هذه الأمور خاصة به لا يمكن تكررها ؟ أم أنها تتكرر بمعرفة أسبابها وشروطها والأخذ بها ؟ كيف نصنع نماذج علمائية وفكرية من هذا الطراز العالي ؟ من المسئول عن ذلك ؟ ما دور السلطة في ذلك ؟ وما دور المجتمع في ذلك ؟ وما دور الأسرة في ذلك ؟ وما دور الإعلام ورجال المال وغيرهم في ذلك ؟ كيف تستمر جهود هذه المدرسة التاريخية الجزائرية على نفس الروح الرسالية العالية، وعلى نفس المنهج العلمي الموضوعي المتوازن ؟

د. الطيب برغوث

تروندهايم في: 21. 12. 2013

38
ثقافة التأبين هل هي اتِّجارٌ في الموتى ؟!؟

بقلم: الأستاذ خليفة بن قارة

استوقفتني هذا الأسبوع، آثار الحدث المؤلِم الذي مسّ الجزائر، في وفاة شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله، قبل ما يزيد عن الأربعين يومًا، وقد وجدتني ـ أمام كمٍّ التأبينات الهائل، الذي أقيم للرجل ـ موزَّعًا بين إحساسيْن أساسييْن متناقضيْن: إحساسٍ بالألم الشديد، في تغييب الموت لواحدٍ من أشرس المدافعين عن الذاكرة الجزائرية التاريخية، وأحد أكبر حرّاس الهوية الوطنية بكل ملامحها الحقيقية، وإحساسٍ بأن هناك وَعْيًا بدأ يتشكل لدى النُّخَب، في تبنِّي فكر مفكِّريها الذي أهملته السلطة عمْدًا أو غباءً، لا بل وجعْله منهاج عمل للبحث الأكاديمي الواعي، الذي يتجاوز انحباس السياسيين، ومَن والاهم من الانتهازيين والنفعيين، غير أن إحساسًا ثالثًا انتابني بين الإثنيْن، وأنا انظر إلى قافلة الذين رحلوا دون استئذان، وأُعدِّد القائمة الطويلة من الرجال الذين خرجنا لتوديعهم إلى مثاويهم الأخيرة، ونحن نُقسِم لهم بأغلظ الأيمان، أننا سنظل على طريقهم سائرين، ولكننا بمجرد أن أوصلناهم إلى دارهم الأخيرة، وواريناهم التراب، حتى عدنا إلى حالة النسيان الدائمة التي جُبِلنا عليها، وربما التنكر لهم، وهذه اللوحة هي التي تكاد ألوانها الداكنة، تغطي على كل الألوان الفاتحة في كل الأوقات. ليست ثقافة التأبين حِكْرًا على الجزائريين وحدهم، إنما هي "ظاهرة" عربية بامتياز، وإن كانت سلوكًا إنسانيًّا عامًّا، ولكنها بِدعة

جزائرية، من حيث كونها تنشأ أولا بإهمال المفكِّر والمبدع أثناء حياته ـ طالت أم قصُرت ـ فإذا ما رحل التف حول نعْشه الكثيرون، وتحسر الجميع على حالة اللامبالاة التي لاقوْا بها عطاءه، وعلى التقصير الكبير في حقه، وكأن الموت وحده هو مَن يُعيد للجزائري رشده، ورجاحة عقله وصِدْق قوله، حتى يبدو للناظر كأن ابتهاجًا يُقيمه الأحياء، لترحيل جارٍ غير مرغوب في جيرته، ولولا أنني أخشى أن يصفني أحدٌ بالغُلوّ لقلت: إننا نمارس على أنفسنا الثقافة الكولونيالية، ألم يقل أحد غلاة الاحتلال: "**إن أحسن جزائري هو ذلك الذي يقيم تحت الثرى**"، ففي الغرب يُحتفَل بالعالِم طول حياته كي يكثر إنتاجه ويزداد إشعاع أمته به على الإنسانية، فإذا ما رحل، خلفه مَن يعبِّد لأفكاره الطريق بعده فلا تضيع ولا تُنسى، أما عندنا فإن العبقريّ فينا، مُهمَل أو مُطارَد في أفكاره، أو مُغرَق في مشاكله الاجتماعية، وحينما يأخذه الموت في رحلته الأخيرة، يقام له العزاء في كل مكان، بشكلٍ يُوحي أن القوم فرحون بذهابه الأخير. يعيش المبدع بيننا غريبًا لا يكاد يراه أحد أو يسمع به، إن لم يُحارَب بتهمة "الخروج عن إجماع الأمة"، حتى إذا ما سلمه ملك الموت تأشيرة سفره الأخير، هرول الجميع إلى بيته، في صخب كبير كأنه وُلِد لتوِّه فيهم، ولا يهنأ لهم بال إلا بعد أن يضعوه في قبره، ويلتقي في هذه "الخصلة" المثقفون والسياسيون على حدٍّ سواء، وقد يكون المثقفون لهم ما يُبرِّر لهم ارتفاع أصواتهم، فهم ربما يحاولون جعْل المناسبة، منبرًا لقوْل ما لم يكونوا يستطيعون قوله، أو موقِعًا يُطلقون منه النار، على مَن بِيدهم أمر الاستهتار بالعلم والعلماء، أما السياسيون المستثمرون في كل شيء، فإنهم يريدون الاستثمار في الموتى، من خلال محاولتهم البرهنة، على تبنِّيهم الدائم لأهل المعرفة، وهم الذين لم تكن في برامجهم ـ إن كانت لهم برامج ـ

خانة تُذكَر، للثقافة والإبداع والبحث العلمي، التي كان يمكن أن يجد فيها المؤبَّن نفسه، فكم من قامة هوَت قبل الأوان، بفعل "منهجية" السياسيين القائمة على القاعدة الشاذة: "مَن لم يكن معنا فهو بالضرورة ضدنا"، غير أنه أمام قبره تجد الطائفتيْن تنافقان وتذرفان معًا دموع التماسيح، على رجل تعلمان أنه لن يعود أبدًا، كي يأخذ مكانه الذي وضعته فيه خطبُهم العصماء. أذكر أن الذين أبّنوا الراحل عمر البرناوي رحمه الله، هم مَن تسببوا في متاعبه السياسية التي أدت إلى اعتلاله الصحي، ولم تشفع له شاعريته المرهفة لديهم، كي يرأفوا بحاله حتى وهو على فراش المرض، كما لم يحمِه حبّه الجارف لوطنه وتطرّفه في جزائريته، من التجريف الذي تعرّض له ذو القلب الرقيق، من قِبَل هؤلاء الذين لا هُوية ثقافية أو علمية لهم حتى سقط شهيد موقفه، بفعل التحرّش السياسي الذي مارسه عليه أناس لم يستحوا في موته وقد وقفوا على قبره، يكذبون على الأحياء والأموات، ويُكذِّبون أنفسهم فيما قالوه عنه، في أكثر من منبر ولأكثر من جهة، وكدت يومها أصرخ في وجوههم لولا جلال اللحظة، وحرمة وداع الرفيق، وبرغم ذلك فإنني أقول إن ثقافة التأبين ـ في شكلها ـ شيء جميل، يحمل قيّم الوفاء الذي يُكنّه الأحياء لمن رحل عنهم، ولكن شريطة أن يتجاوز المؤبِّنون طقوس تعداد مناقب "الميِّت" التي يشترك في ذكرها الصادق والكاذب المؤمن والمنافق، إلى إعداد ورقة طريق لإعادة نشر أفكاره، وتفعيلها وتحويلها إلى برامج تتجاوز حواجز الرداءة، التي وسمت بها القوى السياسية واقعَ المجتمع، بمباركة مُشينة من طرف النخب الثقافية التي ربطت وجودها عضويًّا، بلوبيات المصالح المادية المجرّدة، ويمكن أن تكون ثقافة التأبين حالة صحية، حينما يعمل أولئك الباكون أمام قبور أحباءهم على الترويج ـ بقوة ـ لكل ما تركه الراحلون،

وأن يقدِّموه بطريقة تعيد تثمين أخلاق الاختلاق حول وسائل تحقيق هدف الأمة الثابت، وما عدا ذلك، ليس إلا اتِّجارًا في الموتى، أو رِبْحًا غيرَ مشروع، يكسبه المبتاعون من غير بضاعة في سوق النخاسة...

نشر في الموقع بتاريخ: الأربعاء 28 ربيع الأول 1435هـ الموافق لـ: 2014ـ 01ـ 29

39

السلام عليكم ورحمة الله[1]

سادتي الكرام

في يوم السبت 14 ديسمبر الفارط رحل الوالد إلى جوار ربه، بعد مرض ألمّ به واشتد في الفترة الأخيرة فألزمه الفراش عدة شهور.

ومنذ ذلك التاريخ أقامت له عدة هيئات وجمعيات وطنية تأبينيات في مختلف ربوع الوطن.

وعندما مرّ على رحيله أربعون يوما بادرت إلى إحياء الذكرى أيضا العديد من الجهات المختلفة المشارب هنا في العاصمة وغير العاصمة.

ونحن اليوم في المتحف الوطني للمجاهد، وعلى مقربة منا قبة الترحم، نترحم على روح المجاهد والدي الذي قضى جلّ حياته يسعى بقلمه في مختلف قنوات النشر، وبلسانه في شتى البقاع داخل الوطن وخارجه... أقول قضى جلّ حياته داعيا إلى لمّ الشمل، ووحدة الصف، والذود عن الوطن.

همّه وهاجسه كان دائما وأبدا رفعة البلاد في كل المجالات وسؤددها بين الدول.

ولا أعتقد أني أفشي سرا بهذا القول فذاك يبرز للعيان في كل ما جاد به قلمه سواء كان في كتبه المطبوعة أو في مقالاته المختلفة. ومما لا شك فيه أن طلبته

(1) الكلمة التي ألقاها الدكتور أحمد سعد الله بمتحف المجاهد نيابة عن آل سعد الله في يوم تأبينية والده العزيز شيخ المؤرخين الجزائريين من طرف المجلس الأعلى للغة العربية يوم 28 يناير 2014م

وزملائه يدركون أكثر من غيرهم ما كان يدعو إليه الوالد على الدوام في محاضراته وخطاباته وإسهاماته الفكرية.

لكل ذلك أنا فخور بأن تقام هذه الأربعينية في هذا المكان بالذات، المتحف الوطني للمجاهد، وأن يحضر التظاهرة هذا الجمع الغفير.

لا يفوتني أن أشكر المبادر إلى هذه الوقفة. ومن واجبي أن أجزي الشكر لمنظمها وراعيها.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جنانه.

شكرا لكم جميعا والسلام عليكم.

الدكتور أحمد سعد الله نجل شيخ المؤرخين الجزائريين

40

كلمة الأستاذ عزالدين ميهوبي رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة في تأبين الدكتور أبو القاسم سعدالله

متحف المجاهد، المجلس الأعلى للغة العربية يوم 28 يناير 2014م

وداعًا يا أسعد النّاس عند الله..

عرفنا فيه التواضع مع الانضباط، والفطنة مع الطيبة، والجرأة مع الحكمة، والعلم مع الأخلاق..

بمناسبة مرور أربعين يومًا على رحيل الكاتب المؤرّخ الأستاذ أبو القاسم سعدالله نظم المجلس الأعلى للغة العربيّة بالمتحف الوطني للمجاهد يوم 28 يناير 2014 "احتفائيّة الوفاء والعرفان" بحضور نخبة من الأدباء والكتاب والشخصيات السياسيّة برعاية ساميّة من السيّد عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهوريّة. وألقى رئيس المجلس الأستاذ عزالدين ميهوبي، جاء فيها ما يأتي:

اسمحوا لي في البداية أن أخصّ عائلة الفقيد الكبير الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعدالله بالتحيّة والتقدير لتلبيتها دعوة المجلس الأعلى للغة العربيّة في احتفائية الوفاء والعرفان كما أطلقنا على هذه التأبينيّة.. مثلما أخص عائلة الراحل العظيم من أصدقائه وزملائه وتلامذته بأخلص عبارات الامتنان لمقاسمتهم لنا هذه الوقفة الرمزية التي تتمّ تحت رعاية فخامة رئيس الجمهوريّة السيّد عبد

العزيز بوتفليقة الذي يعرف قيمة الأستاذ سعد الله وقامته ومكانته.

كما أشكر للدكتور محمد الحسن زغيدي حرصه على أن يكون سندًا للمجلس في الإعداد والتنشيط، ولإدارة المتحف الوطني للمجاهد التي لا تدخر جهدا في دعم نشاطات هيئتنا، بتأمين كلّ شروط النجاح.

أيّها الحضور الكرام

لقد اخترنا المتحف الوطني للمجاهد لرمزيّته، فالمحتفى به يحمل بعضًا من دلالاته في خدمة التّاريخ وصون الذاكرة، وتزامن هذا اليوم 28 يناير مع ذكرى إضراب الثمانية أيّام الشهير في العام 1957، وكلّها مواعيد ممجّدة لمسيرة هذا الشعب.

إنّ سعد الله، هو بالتأكيد سعيدٌ في بيت الخلود، وهو يرى أحباءه وتلامذته، يقيمون اللقاءات والندوات، ويستعيدون في شهاداتهم بعضًا من سيرته العطرة، ويُخلصون له الدّعاء.

يبدو أنّكم لم تعرفوا سببَ دوراني على نفسي داخل الكلمات، ذاك لأنّني لم أجد بوابة لدخول عالم أبو القاسم سعدالله، فالأبواب كثيرة، لكنّ مفاتيحها ليست بحوزتي، ولا أعرف من أين أجيئه بقصد قول كلمة تليق به وبتاريخه. وليس أمامي سوى كلمات دوّنتها عن الرجل في حياته قبل أعوام.. وأنا الذي زرته في خلوته بالمركز الوطني للدراسات التاريخية بالأبيار لتحيّته بعد أن بلغني أنّه معتكف على استكمال ما فاته من تأليف تاريخي.. وطلبت منه أن يمدّني بمعلومات تاريخيّة غير متداولة بين المؤرخين عن احتلال الجزائر، ولم يقل لي لا.. بل اتصل بي بعد يومين وسلمني بعض الكتابات التي نصحني بأن أقرأها أكثر من مرّة فربّما كانت ملغّمة لأنّ أصحابها ليسوا من جلدتنا..

وزرته مرّة أخرىٰ، في أعقاب أزمة اتحاد الكتاب الجزائريين، وأذكر قابلني في مدخل مكتبه بالمركز، وبقي واقفًا، ولم يجلس، وأكثر من ذلك لم يدعني إلى الجلوس، فانتبهتُ إلاّ أنني قطعتُ عليه خلوة تفكير وبحث.. وفهمتُ الأمر، ولأدبه وأخلاقه، اتصل بي مساء ذلك اليوم، وقال لي "لم أكن مهيّأ هذا الصباح للحديث في شؤون اتحاد الكتاب الجزائريين، لأنّني أعرفُ متاعبه.. وكنتُ مأخوذا بمسألة استكمال بحث في التاريخ".

أقول هذا، لأنّ الرجل هو من ترأس مؤتمر اتحاد الكتاب الجزائريين في أعقاب الانفجار الذي شهده بعد أحداث أكتوبر 1988، وكان حينها حريصًا على جمع شمل الكتاب والأدباء، لكنّ التشظي حدث، ووقع شرخ كبير بين جيل من الشباب، وكنتُ بينهم، وقدامى الكتاب الذين لم يستوعب بعضهم غضب الشباب من أبوّة يفرضها السنّ لا الأدب.. وانتهى مؤتمر زرالدة بأن عاد كلّ واحد إلى بيته، بعد أن تصدّعت جدران الاتحاد..

قلتُ إنّني كتبتُ كلمة في حياة الدكتور أبو القاسم سعد الله، جاء فيها:

هذا الرجل العالم والمثقف والمفكر والشاعر والمؤرخ والمترجم والمحقق والناقد والباحث والدارس والمربي والموسوعي والمقاوم والانسان من طينة أجزم أنها انقرضت في زماننا، وصار وجودها بيننا لا يختلف عن وجود الماء على سطح المريخ أو أيّ كوكب مجهول.. فمن عثر منكم على بقية من هؤلاء الرجال فليبلغ، لأنّ الأمة أحوج ما تكون لهم ولعلمهم ومعرفتهم.. فهو من أوائل الجزائريين الذين شقوا طريق البحث في الذاكرة وتدوينها، إدراكا منه أن هذه الأمة لا يمكنها أن تعيش خارج التاريخ موصولة بحبل النسيان والموت في الحضارة..

هذا الرجل الذي وهب حياته للعلم والبحث والكتابة، فما كانت لتنال منه الإغواءات التي كثيرا ما قتلت كتابا وعلماء، وظل ذلك الرجل الذي عرف فيه الناس التواضع مع الانضباط، والفطنة مع الطيبة، والجرأة مع الحكمة، والعلم مع كثير من الأخلاق التي يتصف بها صفوة العلماء الثقاة.. فكان رجل موقع وموقف. لم يتبدل أبدا، ثابت على رأي يراه صوابا، ومنافح عن قيم يستشعر فيها ما يليق بالأمة..

إنّ حبه لشعبه وبلده وتاريخه شيءٌ لا يوصف، فقد اختار في حياته المهنة الأصعب وهي التنقيب في ذاكرة مخرومة بفعل الاستعمار، ومسحوقة بفعل الإهمال، ومنسية بفعل الشعور بالخوف من الماضي..

لقد كانت كلمته "نحن شعب يصنع التاريخ ولا يحسن كتابة التاريخ" إشعارا بأن الذاكرة في خطر، وأن تدوينها يقتضي من الجزائريين شعبا ودولة أن يستعيدوا ذلك بوعي كبير لا أن يتركوا الأمر للأغراب فيشوهون التاريخ ويدمرون الذاكرة..

إن هذا الرجل يرهق من يسعى إلى اختزال سيرة حياته..

قال مرّة "**اكتبوا حتّى بأهدابكم وأظافركم إن لم تُطعكم أقلامكم**"، وهو يُدرك أن هناك من لم تطعهم أقلامهم، وهناك من لم تطاوعهم أقدامهم في الذهاب إلى أقصى الأرض لينبشوا عن تاريخ مُهمل أو منسيّ.. وهو يُدرك أيضًا أن هناك من ليست لهم أهدابٌ أو أظافر، فيديرون ظهورهم للتاريخ خوفًا منه، لا خوفًا عليه، ولا حتّى تواضعًا أمامه..

استحضر ذكراه اليوم، معكم أنتم الذين جئتم لأجله، لأجل شيخ

المؤرخين، مثلما أستحضر ذكرى رفاق القلم الكبار الذين غادروا إلى دار الخلود بعد عمر من العطاء، الجنيدي خليفة، عبد الله الركيبي، الطاهر وطّار، محمد قنانش، محفوظ قداش، مولاي بلحميسي، أبو العيد دودو، محمد بن عبد الكريم، عبد الله شريّط، رابح بلعيد وآخرون..

وأستحضر مقتطفًا من تعزيّة السيّد رئيس الجمهوريّة لعائلة الفقيد، إذ يقول "إنه كلما ذكر مؤرخ في المغرب العربي، ارتسمت في الذهن صورة أبو القاسم سعد الله الذي أفنى جل وقته بين المؤلفات والمخطوطات مؤلفا وباحثا ومنقبا، ولعل الغرّة الناصعة في الإرث المعرفي الكبير الذي تركه المرحوم للأجيال هي موسوعته في التاريخ الثقافي للجزائر التي أهلته ليكون شيخ المؤرخين، وأن يغدوَ مرجعا في كل ربوع العالم العربي".

هي شهادة لمكانة الرّجل الذي زهد في المناصب، وانتصر للعلم والمعرفة، وترك ما خقّ له ولعائلته ولنا جميعًا وللجزائر، أن تفتخر بها، هذا الرصيد من المؤلفات التي لو طاولت قامته، لجاوزتها.

في ختام هذه الكلمة، لا يسعني إلاّ أن أدعو المولى عزّ وجل أن يُسبغ على الراحل الكبير عظيم رحماته، وأن يدخله جنته مع الأبرار والصادقين.. وأشكر لمن لبّى دعوتنا، وحضر معنا هذه الاحتفائية المتواضعة، لرجل خدم العربيّة بأهدابه، ودافع عن هويّته بأظافره، وكان ممن أطاعته أقلامه، فطوّع أفكاره لما يؤمن به..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

41
الدكتور أبو القاسم سعد الله في شريط الذكريات
صُنّاع الحياة لا يموتون

بقلم الأستاذ/ محمد الصالح الصديق

يفد الإنسان إلى هذه الأرض غير مختار، ويقضي فيها أجلا محدودا لا يعرف نهايته، ثم يموت غير مختار.

وبين ولادته وموته يعيش في صراع دائم مع الحياة ينتصر وينهزم، يقوم ويسقط، يسعد ويشقى، يفرح ويحزن، يربح ويخسر، يصح ويمرَض، فإذا انتهت ضيافته في هذه الأرض احتضنه التراب والتحق بآبائه وأجداده، ونسيه الأقارب والأباعد، ولا يعودون يذكرونه إلا في المناسبات أو عندما يدعو إلى ذكره سياق الحديث!

ولكن هناك صنفا من الناس يفرضون دوام وجودهم فوق هذه الأرض وإن غيّب الموت أجسامهم عن الأعين وتواروا في قبورهم إلى الأبد، بل قد تكون حياتهم بعد موتهم أرفع ذكرا، وأكثر إشراقة، وأقوى أثرًا.

وكلُّ الناس يوَدُّون لو يكونون هذا الصنف، يظلّون بعد موتهم أحياء يفرضون وجودَهم على الأحياء وهم في قبورهم، ولكن هيهات هيهات، فالغاية صعبة المنال، دونها جهاد متنوع مستميت، وتنكُّر للنفس، وإعراض عن ملذات

ومشتهيات، وتغرُّب عن الوطن، وابتعاد عن الأهل والأقارب.

ثم إلى كل ذلك لابد من عزيمة قوية وإرادة ماضية، وهمّة عالية، تفرض على العقل المجاهدة، وعلى الجسم المصابرة والمثابرة، وعلى العاطفة الرياضة على التعفف والمصابرة والسيطرة على النفس الأمّارة.

فما لم يكن لهوى الإنسان عقل، ولشهوته كابح، ولتحركه وتصرفه ضمير، ولأمله سائق ودافع، فلا سبيل له إلى الحلم بهذه الحياة بعد موته.

سعد الله واحد منهم

والدكتور أبو القاسم سعد الله قد تم أجله المحدود، وانتهت ضيافته المقررة في هذه الحياة، كما هو الشأن بالنسبة إلى كل إنسان، ولكن ما يهنّأ عليه، ويَقَرّ به عينا في قبره، أنه كان من هذا الصنف الذي يموت ليحيا، ويختفي ليظهر، وينتهي ليبتدئ، ويتوقف لينطلق!

أما كيف أمكن له أن ينتظم في سِمْط الخالدين، الذين كان موتهم بدايةَ حياة خالدة مشرقة، فأقلُّ ما يقال عن ذلك أنه قرّر ـ رغم الفقر والحرمان، ورغم العوائق والعقبات ـ أن يبني لنفسه حياة خاصة متميزة قوامها العلم والمعرفة، وثمارها صناعة الرجال، وإثراء المكتبات، وتنوير المؤتمرات.

قرر ذلك في غرة شبابه، فكان ما قرّره بصدق عزيمته، وصحة توكله، وتوافر جهاده، وقوة سيطرته على النفس والهوى.

فظل أبو القاسم سعد الله يتحدى ويجاهد، ويصابر ويواصل، دون أن تثنيه الحواجز والعقبات.

وطبيعي أن يحزن لموت سعد الله كل العارفين لفضله، المدركين لمكانته، ففقدُ عظيم في العلم والأدب، أو الجهاد والتضحية، أو في السياسة والإصلاح، يحدث في الأمة من الخسران ما عبّر عنه عبدة بن الطيب بقوله في قيس بن عاصم:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيـان قوم تهدما ويبقى العزاء من فقده متمثلا في هذين الأمرين:

أولهما: أن ما قدّمه من عمل في مجال العلم والمعرفة يبوئه مكانة مرموقة عند الله، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وثانيهما: أنه باق في كل عمل صاغه فكره، ودبّجه قلمه، ونشرته صحيفة، أو ضمّه كتاب!

وكل هذا وذاك مما اكتنفه من ظروف، وما أبدعه من أعمال، وما صاحبَه من أقوال، هو ما يدفعنا اليوم إلى تحرير هذه الكلمة، تحيةَ وفاء له في قبره، ودمعة حزن على فراقه.

وهذا في الواقع دليل آخر على أهمية الرجل ومكانته، وأهليته للتنويه والإشادة.

فالاهتمام بحيّ من الأحياء، والاستجابة لأمره وطلبه، لدواع واعتبارات، كمكانته، أو قرابته، أو كبره، أو غير ذلك من الدواعي والاعتبارات أمر طبيعي، قد لا يثير اهتماما ولا يطرح سؤالا.

أما أن يجبرك الميت الذي غيّبه القبر على أن تترك اهتماماتك جانبا، وتهتم به هو، وتشغل فكرك وقلمك بتعداد مآثره ومناقبه، فذلك هو الدليل الصادق

العميق على نوعية هذا الإنسان ومعدنه الذهبي، وأنه لم يعش لنفسه وأهله، وإنما عاش للناس جميعا!!

وخالد الذكر أبو القاسم سعد الله نائم في قبره، وأنا مشغول به الآن، تاركًا كلَّ أعمالي جانبا، منكبا على الورق، أصوغ وأدبّج، دون أن يكون لي في هذا آمرٌ أو دافع، سوى ما ترك وراءَه من أعمال فكرية، وما حباه الله به من حياة لم يكدر صفوَها حقد على أحد، ولا طمع في شيء، فكانت حياته الوادعة الناصعة، كما قال الزيات في أحد أُلَّافه «أشبه بحياة الجدول السَّلسل الرقراق، تفيض على جوانبه الري والخصب من غير هدير ولا ضغيان ولا كدر».

كيف عرفته؟

كان لقاؤنا الأول بجامع الزيتونة بتونس سنة 1948، ولا أذكر شيئا عنه في هذه الفترة إلا ما كنت أتوسمه فيه من ذكاء وفطنة ونجابة، وجدّية في الدراسة، ولما تخرجت سنة 1951 وعدت إلى الوطن خرج من الذاكرة ولم أعد أتذكره إلا في بعض الفترات حينما أعود إلى أيام الزيتونة فيمر شريط الذكريات بالذاكرة، فأقف عند الذين كنت أجتمع بهم باستمرار كالإخوة مولود قاسم وعبد الحميد مهري وبشير القاضي، أو من حين لآخر كسعد الله رحمهم الله جميعا، ومحمد الطاهر الأطرش، وسليمان بشنون أطال الله في عمرهما.

ثم عاد إلى الذاكرة بكثير من الاهتمام به، حينما قرأت له في صحيفة (البصائر) ع561 بتاريخ 62 شوال عام 1370 هـ، 03 جويلية سنة 1954م مقالا بعنوان (أمة المجد في الميزان).

قرأت الموضوع في شيء من التلهف، وصورة الكاتب عالقة بالذاكرة،

فكأنه الذي يقرأه وأنا أستمع إليه، وكأن كل كلمة يقرأها تذكرني بها كنت أتوسمه فيه من ذكاء وفطنة وغد وضيء مشرق.

ثم تتابعت مقالاته وقصائده الشعرية على صفحات البصائر، فقرأت له في النثر (فلسفة الغرور)، (على هامش البعثة)، (من فتوة ابن الرومي)، (مع حمار الحكيم)، (أرض الملاحم)، وغير ذلك كثير.

كما قرأت له ما جادت به شاعريته، ودلّني دلالة عميقة على أنه لم يكن كاتبا فقط كما كنت أظن بل هو شاعر أيضا:

أسلوب جذاب، ووجدان فياض، وخيال واسع، وصورة معبرة، وجمال يسرق ويأسر إلى موسيقى تنسكب في الأذن نقية صافية كرنين الفضة، وندية كترصيع البلبل، كهذه القصائد:

(هزاز الشعر)، (قيتار الأنغام)، (نجوى العبقرية)، (غيوم)، (أطياف).

ومن خلال هذه المقروءات النثرية والشعرية عبر أعداد من البصائر، وعبر شهور أو سنوات من الزمان، تكونت في ذاكرتي شخصية سعد الله الأدبية، فكنت أضعه في مكانة مرموقة تقوم على الوطنية الصادقة، والفطرة السليمة، والهمة العالية، والمدارك الفكرية الواسعة، والطموح الذي يصحبه العمل الدائب، والمحصول العلمي الذي تجمَّع له في الزيتونة بالحفظ والدرس، والتحصيل والمصابرة.

لقاؤنا في طرابلس

وحينما كنت بطرابلس الغرب مسؤولاً عن الإعلام للثورة التحريرية جاء

من تونس إلى القاهرة في شهر أوت سنة 1960 وقضى قرابة أسبوع بطرابلس، وكان كل يوم يزور إدارة البعثة الجزائرية ويقضي فيها معظم وقته.

وكان رحمه الله لا يحلو له جلوس إلا في مكتبي، وكان خلال كل يوم من هذه الأيام، يأتي في حدود الثامنة والنصف أو التاسعة، فيجدني منكبا على عملي، فينقطع هو إلى الصحف، وعندما ينتهي منها يأخذ كتابا من الكتب التي أحرص على اقتنائها لأهميتها العلمية والأدبية، أو لعلاقتها بثورتنا التحريرية، فيتفرغ لها كلية، حتى أنني أحيانا أنسى وجودَه معي لحرصه على الهدوء من جهة، ولانقطاعه إلى الكتاب من جهة ثانية بقراءة عميقة.

كتابي (صور من البطولة في الجزائر)

وما أثاره من غبار

وأذكر أنه قرأ كتابي (صور من البطولة في الجزائر) في صبيحة واحدة فتأثر عميق التأثر ورأيت ـ وهو يحدثني عن بعض صوره ـ قطرات دموع تسيل من عينيه فأكاد أبكي لبكائه.

وساقني الحديث عن هذا الكتاب إلى ذكر سحابة دكناء أثارها هذا الكتاب عند صدوره وذكرتها له، وخلاصتها:

أن الكتاب صدر بطرابلس سنة 1958، وعندما انعقد مؤتمر المجلس الوطني للثورة في هذا البلد اشتراه كثير من رجال الثورة، فمنهم من قرأه، ومنهم من تصفحه، ومنهم من اقتناه فقط، لأنه لا يقرأ العربية، وكان هذا الإقبال عليه لأنه كُتِب عن الثورة، ولأن الكتب عن الثورة في ذلك العهد قليلة، ولأن هؤلاء الثوار يحرصون جدَّ الحرص على أن يعرفوا عن هذه الثورة كل ما يقال عنها أو يكتب أو يذاع.

وقبل بداية المؤتمر بيوم زارني في مكتبي بعض هؤلاء، فبعضهم يهنئني ويشكرني، وبعضهم يسأل عن الظروف التي تم فيها إعداده وطبعه، وبعضهم يسأل عن البطولات التي احتواها الكتاب كيف حصلتُ عليها في ظروف الثورة الشائكة، وكان الجميع يبدون إعجابهم وتقديرهم، ويشكرون ويريدون المزيد.

وفي مساء اليوم الثاني للمؤتمر جاءني اثنان من رجال الثورة، وهما العقيد محمدي السعيد، والعقيد محمد إعزورن، وبعد التحية، قال العقيد محمدي: جئناك في موضوع سرّي لا ينبغي أن يطَّلع عليه أحد.

وقبل أن ينطلق في الحديث عن الموضوع، قام إلى الباب وأغلقه، وأنا في حيرة من هذا الأمر الذي جاءني من أجله العقيدان، وبلغ بهما الحرص على كتمانه إلى إغلاق الباب!

انطلق العقيد في الحديث وقال ما مؤداه:

تصفح اثنان من القادة كتابك فوجداه مقصورًا على منطقة القبائل، فكل ما عرضتَه من بطولات أو مواقف أو تضحيات هي من هذه المنطقة، فكأن الثورة إنما هي قبائلية، وهذا يناقض الواقع من جهة، ولا يخدم الثورة من جهة أخرى بل يضرها، إذ يخدم فرنسا.

فصعقت مما سمعت، وهالني أن ما استهدفته بتأليف الكتاب من خدمة الثورة قد انقلب ضررًا وخطرا.

فقال العقيد محمدي:

ما رأيك في هذا الموضوع، وكيف ترد على هذين الرجلين؟

فقلت له: رأيي وردي لا أقوى منهما لأنها الحقيقة التي لا يكتنفها شك أو ريب.

إنني عشت في هذه المنطقة مجاهدا من يوم اندلاع الثورة إلى يوم خروجي من هذه المنطقة، وكنت أعيش هذه الصور بنفسي أو أعيش مع صنّاعها، وتأثرت بها وأودعتها هذا الكتاب، وأنا وطنيّ صادق أشد ما أمقت العنصرية والعنصريين، فلعنة الله عليها وعليهم.

فقال العقيد محمد إعزورن: هذا ما أعتقده وهذا ما ذكرته للأخ محمدي السعيد!!

خرج الرجلان، وبقيت أفكّر في هذا المصير الذي صرت فيه بقصد شريف، ونية حسنة، وكنت من توزّع الفكر، واضطراب النفس، لا أقدر على الكتابة، فأناملي لم تستطع أن تحمل القلم، وفكري قد جف، فلم يعد ينضح أو يرشح.

ولكني بعد قليل عدت إلى نفسي وحاسبتها، فخرجت من المحاسبة قويا واضح الرؤية، مطمئن البال:

ألست قد كتبت الكتاب بدافع الرغبة في خدمة الثورة؟

أليس ما في الكتاب مجردًا من كل عنصرية أو جهوية أو تحزّب؟

إذن فَلِمَ القلق والحيرة؟ ولِمَ التفكير والتهويل؟

رميت القضية جانبا، وانطلقت في عملي أعِد مادة «صوت الجزائر» الذي حان موعده.

وفي صبيحة الغد قبل انطلاق جلسات المؤتمر جاءني إلى المكتب العقيد الحاج الأخضر رحمه الله، ومناضلان آخران، فقال لي رحمه الله (ما مؤداه):

الحقيقة أن كل الإخوة الذين اقتنوا كتابك قد فرحوا به، وأثنوا عليك الثناء الجمّ، ولكنهم بعد قراءته أو تصفحه، تأثروا وخاب أملهم لما يوحي به من عنصرية وجهوية، وأنت تعلم أن الجهوية قبيحة مرفوضة لا سيما في وضعها الثوري (وأنت سيد العارفين).

ولكن الأخ العقيد محمدي السعيد قد ناب عنك في توضيح الموقف، ورفع الستار عن حقيقته، فلم يبق لهم في ذلك شك، فلتطمئن.

ثم ظلّ كثير من المناضلين الثوريين يترددون إلى مكتبي طوال أيام المؤتمر يحدثونني عن هذه السحابة التي أثارها الكتاب.

ولما انتهيت من رواية هذه القصة للدكتور أبي القاسم، علّق عليها بما معناه:

إن من لا يعرف وطنيتك، ويقرأ الكتاب يتصور هذا التصور، لأن كل ما فيه يصوّر بطولة القبائل ويسكت عن بطولات الأبطال في غير هذه المنطقة.

والذي لا مجال للشك فيه ـ يقول سعد الله ـ هو أن التحيز أو التعصب لمنطقة دون أخرى إنما يخدم فرنسا، ويضر الجزائر، ونحن في وقت أشد ما نكون حاجة إليه فيه هو الوحدة والتلاحم، وأنا أفهم وطنيتك كما يفهم الكثير من إخواننا، ولكن قد يكون هناك من يجهلها أو يصطاد في الماء العكر.

والذي استرعى انتباهي من سعد الله خلال الأيام التي كان يتردد فيها إلى الإدارة هو احترامه للوقت، وحرصه الشديد على استغلاله، خلافا لكثير من

الطلبة وأهل العلم الذين ينزلون بهذه المدينة، ويزوروننا في الإدارة، فهمّهم في جل أوقاتهم التفسح، والتجوال، والتعرف على المدينة ليس إلا.

ومما علق بذاكرتي أنه كان يقرأ في صحيفة يومية في مكتبي ثم طبقها ودخلنا في حوار لا أذكر ـ لطول العهد ـ بدايته ولا سبب انطلاقه، وإنما أذكر فقط أن الحوار كان في الأمم التي تصلح للبقاء والتي لا تقوى على البقاء.

وبعد انتهاء الثورة كنت ألتقيه من حين لآخر في المناسبات، وإذا أتيحت لنا الفرصة تحدثنا عن الماضي في بعض ما يطرح من الذكريات أو عن الحال بما يثير من الاهتمامات.

لقاؤنا في سيرتا وكتابي (العصفور الأزرق)

وأذكر أنني كنت ذات يوم من أيام سنة 1990 في بهو فندق سيرتا بقسنطينة، في إطار طبع آثار الإمام ابن باديس، فإذا بالدكتور أبي القاسم سعد الله، والدكتور يحيى بوعزيز، والأستاذ محمد الطيب العلوي رحمهم الله جميعا والدكتور ناصر الدين سعيدوني أطال الله عمره يقبلون، وإذا بصوت يحيى يرن في الأذن، وحينما التفتُّ رأيت الأربعة، وكان اللقاء الذي أطلق الألسن بشكر الله على هذا اللقاء المفاجئ، وكان الوقت رغم قصره خصبا ثريا.

وقد ظهر لي بعد حين أنهم نزلوا في هذا الفندق منذ يومين في إطار أيام دراسية نظمت بقسنطينة.

وكان كتابي (العصفور الأزرق) قد صدر في تلك الأيام، فسألني الدكتور أبو القاسم سعد الله عن بعض مضامينه، وأبدى إعجابا من هذه القضية، التي دلّت بعمق على دهاء قادة الثورة التحريرية.

وسألني عن مدبر هذه العملية العقيد (محمد إعزورن): عن مستوى ثقافته، ومتى التحق بحزب الشعب.

كما سألني يحيى بوعزيز عن بطل هذه العملية (محمد أوزايد) هل مات شهيدا؟ وعن الخائن (ط) كيف كان مصيره بعد انتهاء العملية؟

ومما يطرح نفسه في هذا المضمار أننا كنا ـ سعد الله وهذا الكاتب ـ في أوائل التسعينيات في مؤتمر بالعاصمة ننتظر انطلاقه، فتحدثنا عن عملية (العصفور الأزرق) من جديد، هذه العملية التي اهتم بها كثيرا وأراد أن يعرف الكثير عنها،

وكان مما ذكرته له ونحن نتحدث عن كتابي عن هذه العملية، أنه حينما صدر سنة 1990 كتب عنه في الصحافة شخص صعُب عليه أن يهضم ضحِكَ قادة الثورة على أذقان قادة فرنسا، فأنكر وقوع هذه العملية.

ولما وقف الراحل مولود قاسم على المقال زلزله الغضب، وهتف إليّ يسألني إذا كنت قرأت المقال؟

ولما التقيته بعد ساعات قال لي في حالة من التوتر العصبي: يجب أن ترد على هذا الخبيث الذي أنكر عملية من كبرى الدلائل على عظمة هذه الثورة، وعظمة مسيريها، فالذي ينكرها قد ينكر يوما كلّ هذه الثورة.

فقلت له: أعتذر لأخوتكم ـ أخو مولود ـ، فأنا لن ألوّث قلمي بالكتابة عنه، وإنما أقول فيه ما قاله الشاعر:

إذا لم تصن عِرضا، ولم تخشَ خالقا

وتستحِ مخلوقا فما شئت فاصنع

فقال مولود رحمه الله:

ذاك منك عنه، أما أنا فأقول:

كأنه التيس قد أودى به هرَمفلا لحم ولا صوف ولا ثمر

وفي الغد دخل عليّ في مكتبي بوزارة الشؤون الدينية الشيخ أحمد حماني فسألني عن المقال، فذكرت له ما جرى بيني وبين الأخ مولود، فقال:

أنا أقوم بمهمة الرد عليه.

وبعد يومين طالعتنا صحيفة الشعب بالرد المفحم.

ذكرت كل هذا للأخ سعد الله رحمه الله فقال:

ما أحوج الجزائر إلى أمثال حماني ومولود في وطنيتهما وغيرتهما وعلمهما، وما أشد حاجة الجزائر إلى أن تتطهر من هؤلاء الأوغاد المحرومين من الوطنية! رحم الله الجميع.

ثم افترقنا، كل في اتجاهه.

وقد دلتني هذه الجلسة مع قصرها على أن هذه العملية (العصفور الأزرق) غير واضحة تمام الوضوح حتى عند المؤرخين لقلة المراجع عنها.

وألاحظ أنني عندما اعتزمت الكتابة عنها لم أكتف بمراجعة شخص واحد عنها، بل راجعت كلا من كريم بلقاسم ومحمدي إعزورن، ومحمد السعيد، وطائفة من المناضلين الذين شاركوا فيها، فما نسيه هذا ذكره ذلك، وما شكّ فيه ذاك أكّده هذا!

موقف لا يُنسى لسعد

ومما رسخ في الذاكرة وظلَّ يُذكّرني بالمرحوم سعد الله وأقف معه في تأمل باطني عميق كلما تذكرته، لما له من أبعاد في مجال الوفاء والحرص على أداء الواجب الأدبي الذي لا مقابل له إلا رضى النفس وراحة الضمير، والرغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، هذا الموقف:

في صبيحة يوم من أيام شهر ماي سنة 2005 هتف إليّ، وبعد التحية والسؤال عن العمل الفكري والقلمي، قال في لهجة تفيض رغبةً وأملًا، أن لي مشكلًا عويصا شغل فكري بقوة هذا الصباح وأرى أنه لا حلَّ له إلا على يديك.

فقلت له: ما يمنع من حله إذا كان مفتاحه في يدي؟

فانطلق يقول:

هناك طالب ليبي يدعى (بشير سعيد الفاخري) كان يدرس بجامعة (قاربوس) ببنغازي ـ ليبيا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، أحرز على شهادة الدكتوراه حول كتاب نادر جدا لا توجد له إلا نسختان، إحداهما بليبيا والأخرى بالجزائر عند عائلة الشيخ بن سحنون بمنطقة القبائل، وأوقفت الجامعة الليبية (ببن غازي) منح الطالب شهادته إلا إذا أحضر صورة للكتاب من الجزائر.

وجاء الجزائر واتجه إليّ رأسا أملًا منه أنني أقضي له حاجته لاشتغالي بالتاريخ، مع الملاحظة بأن الطالب لابد أن يعود إلى ليبيا بعد غد، فليس له من وقت يقضيه في الجزائر سوى يومين.

وقال سعد الله في مكالمته أن مستقبل الطالب في أيدينا، فالرجاء الاتصال فورا بالعائلة.

فقلت له سأبذل قصارئ جهدي، ولكن الذي يغلب على ظني، وأكاد أعتقده أن القضية محكوم عليها بالفشل والخيبة مسبقا، لسبب واحد هو أن الكتب عند العائلة في بني يراثن أو في بني وغليس، والوقت القصير الذي حدد للطالب لا يسمح بالاتصال بالعائلة.

فقال سعد الله في لهجة متهالكة:

أرجوك وأدعوك أن تتصور ليبيا بكل مواقفها مع الثورة الجزائرية في هذا الطالب!

فقلت له: ثق بأني سأبذل كل ما في وسعي وأعتقد أن الله تعالى سيكون معنا.

وضعت السماعة، وأخذت أفكّر في الموضوع، فإذا بطارق يطرق الباب، وما كاد أحد أحفادي يعلمني به، حتى شعرت بشيء من الفرح يغمرني من الأعماق.

إن الزائر هو المفتش في التعليم، الأستاذ بوداود الذي له صلة القرابة بالعائلة، وبعد حديث قصير يتعلق بزيارته، حدثته عن الموضوع، وقلت له: إن مستقبل الطالب مرهون بهذا الكتاب.

فذكر أن الخطوة الأولى التي يجب أن يخطوها هي زيارة ابن الشيخ السحنوني الأستاذ حفناوي في المستشفى، ورغم شدة مرضه فإنه قد يفيدنا لأنه يحترمك كثيرا، ويحب أن يخدمك.

وذهب الأستاذ المفتش ـ حفظه الله وأمدّ في عمره ـ وما هي إلا ثلاث ساعات تقريبا حتى جاء بالكتاب، ولم أصدق عيني وأنا أراه بين يديه، ثم لم أصدق أن الكتاب في يدي وأنا أتسلمه.

ولما أخبرت سعد الله بأن الكتاب عندي، وأن عليه أن يوجّه الطالب الليبي إليّ ليصوّره، اهتزّ طربا، وأوسعني شكرا وقال:

هنيئا لك، فكأن فيك قيل هذا البيت:

فكم فرحة أدّى، وكم كَربة جلَّى وكم بهجة أولى، وكم غمة سلَّا

جاء الطالب وصاحبته إلى حيث صور الكتاب على أحسن وجه، ثم عدنا إلى البيت وقمت نحوه بواجب الضيافة، وتناولنا بالحديث على المائدة شوؤنا مختلفة في مجال العلم والمعرفة، وأثار الحديث ذكريات عن بنغا زي تعود إلى السنوات التي قضيتها في ليبيا.

وبعد أن عاد الطالب إلى سعد الله ليودعه كلمني هاتفيا يعبّر عن ابتهاجه بقضاء المهمة على أكمل وجه، وفي أقصر وقت!

وذكرني بكلمة قالها عني وعن المناضل المرحوم أحمد بن بلا في جريدة الشعب عن مكانة ليبيا في قلب كل واحد منا!!

وقد نوّه الدكتور سعد الله ببعض كتبي، كأدباء التحصيل، ومقاصد القرآن، وصور من البطولة في الجزائر، في كتابه القيم عن الثقافة، واستعرض آراء بعض الكتّاب الذين كتبوا عنه في الصحافة أو تحدثوا عنه عبر الأثير.

عاش من عرف قدره

وقبل أيام من مرضه الذي توفي فيه، زارني أستاذ جامعي يعد كتابا عن الحركة الوطنية بالجزائر، وأثناء الحديث عن الإعلام في الثورة التحريرية، سألني عن صوت الجزائر في طرابلس: متى انطلق، ومن الذي بدأه ودشّنه، وكم مرة يقدَّم في الأسبوع؟

ولما أجبته عن كل ذلك، قال مُستغربا: ولكن الدكتور أبا القاسم سعد الله ذكر غير هذا عن تدشين صوت الجزائر في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي)، فقد ذكر أن الذي دشنه هو الدكتور الأمين دباغين، أي خلافا لما ذكرته له من أن الذي دشنه هو أنا، فقمت إلى أحد الرفوف في المكتبة، وأخذت كتاب سعد الله فوجدته يقول في صفحة (222):

«أما انطلاقة سنة 1958 فقد عمّ صوت الجزائر خلالها العواصم العربية، فكان يغطي أيضا طرابلس، حيث افتتحه فيها الدكتور الأمين دباغين، وعمل فيه رابح مجحود ومحمد الصالح الصديق وحسن يامي وبشير القاضي وأحمد بودا وعبد الحفيظ أمقران».

فأخذني العجب من هذا القول الذي سجله سعد الله وهو المعروف بالدقة في كل ما يصوغه فكرُه، ويسجّله قلمه، ولكن سرعان ما خفّ عجبي عندما تذكرت أن هذا الخطأ قد وقع فيه أيضا الأستاذ نور عبد القادر في مقال كتبه في مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى اللغة العربية.

والذي أوقع هاذين الكاتبين في هذا الخطإ شخص فُتِنَ بحب الظهور،

والرغبة في الصدارة، كان خلال تلك الفترة يدرس بالشرق العربي، وفي عطلة الصيف سنة 60 أو 61 فيما أذكر زار طرابلس وقضى فيها أياما، فرأيت أن يقوم فيها بإذاعة الأنباء الحربية، وهذا الشخص زعم للأستاذ نور عبد القادر أن الدكتور الأمين دباغين دشن صوت الجزائر، أما هو فقد قدّم خطابا. وهذا محض افتراء ودعوى باطلة، ونزعة سافلة، دعا إليها حب الظهور ليس إلا!

ولكن هيهات أن يتألف من الأخطاء الصواب، أو أن تنشأ من الآثام البراءة، أو ينتج من الأباطيل الحق.

إن الحقيقة التي يعلم بها الله ويشهد بها التاريخ، ويؤيدها شهود ما زالوا على قيد الحياة هي أن صوت الجزائر مسؤول عنه محمد الصالح الصديق الذي دشنه وظلّ يقوم به حتى انتهت الثورة، وإنما استضاف فيه لتقديم الأنباء الحربية فقط حسن يامي، ومحمد عباس، وعبد الحفيظ أمقران، ورابح مجحود، أما أحمد بودا وبشير القاضي فلم يشاركا فيه وإنما كانا رئيسيّ البعثة على التوالي.

وبعد أن خرج الأستاذ الزائر هتفت إلى الدكتور سعد الله لأنبهه عن الخطأ الذي وقع فيه، فعلمت أنه قد مرض وأنه يعالج في عين النعجة.

وأقول مكررا أن سعد الله معروف بالدقة والتمحيص فيما يكتب، لإيمانه بأن الكلمة التي يسجلها القلم شاهدة له أو عليه، ولكن الذي لا يخاف الله، ولا يقيم الوزن للكلمة أوقعه في هذا الخطأ.

وإذا كان هذا الدعيّ الذي لا يخجل، قد ادّعى أنني - وأنا حيّ - واحد من المشاركين في صوت الجزائر بطرابلس فقط، لا أنني القائم به من بدايته إلى نهايته، فإنه لا محالة لو متُّ لادّعى بلا خجل أنه القائم بصوت الجزائر، من يوم انطلاقه

إلى يوم انتهاء الثورة، ولم يكن لي أنا وجود في هذا العمل بتاتا.

والتحق سعد الله بجوار ربه، وتأثر لفراقه كل من عرفه وعرف مكانته العلمية، وجهاده الفكري والقلمي، وسالت في التنويه بمآثره ومناقبه أودية الحبر، وارتفعت أصوات هنا وهناك بمواهبه وأخلاقه.

وإذا كانت الحياة جميلة، فإن الكثير من بني آدم الذين يعيشون فيها يشوّهون جمالها ويكدّرون صفوها، ويطمسون لمعانها، ويطفئون إشراقتها، ومن هنا فإن واحدًا من أولائك الذين يدركون جمالَ الحياة ويتذوقونه، ويسعون في الكشف عنه وعرضه والدلالة عليه، إذا غاب عظمت المصيبة، وهال الخطب، كما هو الشأن بالنسبة إلى هذا الرجل، أبي القاسم سعد الله. فتحية من الأعماق أقدّمها لروحه، وباقة من الذكر العبق أنثرها على قبره.

42
جهود المؤرخ سعد الله في التعريف بعلماء الجزائر

أ. د مسعود فلوسي*

تعددت مناحي البحث والتأليف عند عميد المؤرخين الجزائريين الدكتور أبي القاسم سعد الله رحمه الله بتعدد المجالات الفكرية والعلمية التي وجد نفسه مشاركا فيها، إما بحكم التخصص الأكاديمي أو بحكم الميول الأدبية والفكرية أو لضرورة الدفاع عن قضية معينة أو الكشف عن حقيقة مجهولة، فمن الشعر والأدب إلى تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إلى تاريخ الجزائر الثقافي، إلى تراجم أعلام الجزائر، إلى إبداء الرأي في بعض القضايا العامة مما يتعلق بالوطن أو الأمة. ويهمنا في هذا المقال أن نركز على جانب واحد من الجوانب التي تبوأ فيها سعد الله مكانة الريادة والسبق، ألا وهو الترجمة لعلماء الجزائر قديما وحديثا وإبراز جهودهم والتعريف بآثارهم.

كتب مفردة لبعض علماء الجزائر

خص المؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله عددا من علماء الجزائر بمؤلفات مستقلة، أحاط في كل كتاب منها بالجوانب المختلفة لحياة المترجَم له، وعرف بتراثه الفكري وأبرز كل ما يتعلق به من قريب أو بعيد، وهذه الكتب هي:

1 ـ شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة [312ص]: هو أول كتاب ألفه، حيث خصه لدراسة حياة وشعر محمد العيد آل خليفة [1904 ـ 1979م]، وتولى تقديمه الإمام العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وكان الشاعر محمد العيد حيا حين نشر هذا الكتاب. وقد فصل سعد الله القول في حياة محمد العيد وأبرز العوامل التي كونت شخصيته وأورد آراءه وتجاربه، كما تحدث بالتفصيل عن شعره من حيث تطوره وأغراضه ومنزلته.

2 ـ القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني [144ص]: يدرس هذا الكتاب سيرة الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني [1807 ـ 1877م]، من خلال رسائله وشعره، وقد عالج فيه المؤلف عصر الرجل وحياته، ورحلاته إلى أوروبا، ومراسلاته وبعض مواقفه، وعلاقته بالأمير عبد القادر، وشعره وشاعريته.

3 ـ رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي [146ص]: تناول المؤلف فيه بالدراسة التحليلية المستقصية عصر وحياة وآثار الشيخ محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري الشهير بابن العنابي [ت: 1189هـ/ 1267م]، صاحب كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" وغيره من المؤلفات القيمة.

4 ـ شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية [256ص]: درس

المؤلف في هذا الكتاب عصر وحياة الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم الفكون [1580 ـ 1663م]، وتأثيره المتمثل في تلاميذه ومراسلاته ومذهبه الصوفي وموقفه من البدع ومن قضايا عصره، كما عرف باستفاضة بتآليفه، وأورد نصوصا نثرية وشعرية كنماذج من آثاره. وقد تحدث المؤلف عن الفكون في مواضع عديدة من تاريخ الجزائر الثقافي. كما قام بتحقيق ونشر كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية".

5 ـ كتاب عن الطبيب الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش. كما كتب عنه بحثا آخر بعنوان "عبد الرزاق بن حمادوش ورحلته لسان المقال" [أبحاث وآراء 1/ 221 ـ 241]، وأيضا قام بتحقيق ونشر رحلته "لسان المقال"، وله بحث آخر عنه بعنوان "رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش" [أبحاث وآراء 4/ 170 ـ 179].

6 ـ باحث مغمور نور الدين عبدالقادر [100ص]؛ أفرد سعدالله هذا الكتاب لترجمة عالم ومثقف معاصر خدم العربية والتراث الإسلامي في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي، وقضى حياته مدرسا ومترجما وكاتبا، إنه الأستاذ عبد القادر الحميدي أو نور الدين عبد القادر كما عرف بين المعاصرين، والذي عاش في الجزائر ما بين 1890 و1981م بعيدا عن الأضواء غير مشارك في الحياة العامة، حتى أنه لا يعرفه من الجزائريين إلا القليل. ولولا أن قيض الله الدكتور سعد الله للتعريف به لما ذكره أحد. وقد تناول المؤلف في هذا الكتاب بالدراسة المفصلة كل ما يتعلق بشخصية نور الدين: حياته وعائلته، دراسته وتدريسه، مؤلفاته، مساهمته في الإعلام.

بحوث ومقالات

إلى جانب هذه المؤلفات المفردة للتعريف ببعض علماء الجزائر، كتب الدكتور سعد الله بعض البحوث الموسعة التي شارك بها في بعض المؤتمرات أو نشرها في بعض المجلات، عن علماء جزائريين آخرين، ومن هؤلاء:

1 ـ أبو راس الناصري: وهو محمد بن أحمد بن عبد القادر الجليلي المعسكري، وقد عرف به سعد الله في أكثر من موضع، حيث كتب عنه بحثا بعنوان "مؤرخ معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري" [أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر 1/ 83 ـ 103]، وكتب عنه بحثا بعنوان "الحملة الفرنسية على مصر والشام في رأي المؤرخ أبي راس الناصري الجزائري" [أبحاث وآراء 2/ 299 ـ 308]، ومقالة أخرى بعنوان "كتاب فتح الإله لأبي راس الناصري" [أبحاث وآراء 2/ 337 ـ 340]، كما تحدث عنه باستفاضة في [تاريخ الجزائر الثقافي: 2/ 176 ـ 180، 376 ـ 381].

2 ـ الأمير عبد القادر: كتب عنه كثيرا، حيث ترجم كتاب تشرشل عنه، ثم كتب عنه مقالة بعنوان "ميزات بارزة من حياة الأمير عبد القادر" [أبحاث وآراء 1/ 128 ـ 133]، ومقالة أخرى بعنوان "السيرة الذاتية للأمير عبد القادر" [أبحاث وآراء 4/ 180 ـ 185].

3 ـ مصطفى بن الكبابطي: له بحث عنه بعنوان "موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة"، حيث عرف به أولا، ثم أبرز موقفه وآثار هذا الموقف على العلاقة الثقافية بين الجزائر وفرنسا [أبحاث وآراء 2/ 11 ـ 48].

4 ـ المفتي أحمد بن عمار: عرف به في بحث بعنوان "تقريظ للمفتي أحمد ابن عمار ظروفه ونصه" [أبحاث وآراء 5/ 201 ـ 216]، وفي بحث آخر "إجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي" [تجارب في الأدب والرحلة: 35 ـ 70]، كما درس جوانب من حياته وآثاره في تاريخ الجزائر الثقافي [ج2]، وفي كتاب [مختارات مجهولة من الشعر العربي].

5 ـ أبو حامد العربي المشرفي: وقد تحدث عنه في بحث بعنوان "مؤلفات المشرفي المعسكري" [أبحاث وآراء 2/ 175 ـ 191].

6 ـ أبو يعلى الزواوي: وقد عرف به في مرات عديدة، منها بحث بعنوان "مشروع كتاب تاريخ زواوة لأبي يعلى الزواوي" [أبحاث وآراء 2/ 145 ـ 167].

7 ـ محمد بن أبي شنب: كتب عنه مقالتين الأولى بعنوان "حياة وتراث محمد بن أبي شنب" والثانية بعنوان "حول ابن شنب" [أبحاث وآراء 4/ 156 ـ 162]. وهناك مقالة ثالثة بعنوان "من رسائل محمد بن أبي شنب إلى محمد كرد علي" [تجارب في الأدب والرحلة: 75 ـ 88].

8 ـ محمد البشير الإبراهيمي: خصه بأكثر من دراسة وبحث، وفي أكثر من مناسبة، ومما كتبه عنه: الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية [أبحاث وآراء 3/ 49 ـ 85]، الشيخ البشير الإبراهيمي والثورة [أبحاث وآراء 5/ 274 ـ 288]، الثقافة التاريخية عند البشير الإبراهيمي [مجادلة الآخر: 115 ـ 127]، ذكريات أدبية عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [حاطب أوراق: 83 ـ 90]، عالمان مغاربيان في شبه القارة الهندية الثعالبي والإبراهيمي [بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: 171 ـ 199].

9 ـ محمد الطاهر التليلي: تحدث عنه هو الآخر في مناسبات متعددة، وكتب عنه أكثر من بحث ومقالة، ومنها: شيخ علم ودين [أفكار جامحة: 199 ـ 207]، فقيد العلم الشيخ التليلي [خارج السرب: 155 ـ 163]، ندوة الشيخ التليلي [مجادلة الآخر: 204 ـ 209]، حياة الشيخ التليلي [مجادلة: 296 ـ 299]، الجهود اللغوية للشيخ التليلي [خارج السرب: 258 ـ 271]. كما حقق كتابه "إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري".

إضافة إلى بحوث أخرى عن عدد من علماء الجزائر، ومن عناوينها: الأديب المصلح محمد المولود الزريبي [خارج السرب: 170 ـ 186]. أبو القاسم بن سديرة حياته ومؤلفاته [خارج السرب: 195 ـ 207]. عمر راسم ونخبة عصره [حصاد الخريف: 233 ـ 239]. مجاهد من نوع آخر: الشيخ الياجوري [خارج السرب: 113 ـ 136]. أحمد رضا حوحو في الحجاز [مجادلة الآخر: 151 ـ 165]. مفدي زكريا والتيارات الوطنية [مجادلة الآخر: 166 ـ 186]. أحمد معاش حياته وآثاره [حصاد الخريف: 240 ـ 252]. الشيخ محمد بن يوسف أطفيش: عرف به في بحث بعنوان: بين القطبين أطفيش والسالمي [بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: 387 ـ 397]. أبو إسحاق إبراهيم أطفيش: عرف به ضمن بحث بعنوان: قراءة في كتاب "الدعاية إلى سبيل المؤمنين" لإبراهيم أطفيش [بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: 159 ـ 170].

شهادات

كما نشر الدكتور سعد الله مقالات صحفية ضمنها تراجم وشهادات في حق بعض العلماء والباحثين، ممن عرفهم عن قرب وكتب عنهم في مناسبات تكريمهم أو إثر وفاتهم، أو في إطار التقديم لمؤلفات كتبت عنهم، ثم أدرج هذه المقالات في بعض كتبه، ومن عناوين هذه المقالات: الشيخ العربي التبسي [حاطب أوراق: 11 ـ 15]. الشيخ أحمد توفيق المدني [حاطب: 26 ـ 34]. الشيخ الطيب العقبي والحركة الوطنية [حاطب: 127 ـ 131]، فيلسوف الحضارة مالك بن نبي [حاطب: 155 ـ 157]، أبو العيد دودو آخر العهد [مجادلة الآخر: 134 ـ 150]. سي مولود (قاسم) ظاهرة فذة [خارج السرب: 137 ـ 154]. ذكريات عن الشاعر صالح الخرفي [خارج السرب: 187 ـ 194]. شهادة عن بوزيان التلمساني [حصاد الخريف: 253 ـ 255]. تكريم الباحث محمد ناصر [حصاد الخريف: 256 ـ 258]. تكريم الشيخ إبراهيم مزهودي [حصاد الخريف: 259 ـ 262]. من أخبار الشيخ عمر دردور [حصاد الخريف: 263 ـ 266]. غياب الشاذلي زوكار [حصاد الخريف: 267 ـ 272]. تكريم الأستاذ شريط [خارج السرب: 106 ـ 107]، شهادة في الدكتور عبد الله شريط [حبر على ورق: 65 ـ 70]. يحيى بوعزيز [حاطب أوراق: 231 ـ 234]. من الكرام علي السحنوني [خارج السرب: 164 ـ 169]. إسهام الحكيم بلعربي في الطب والسياسة [حبر على ورق: 107 ـ 109]. عائشة غطاس فقيدة البحث العلمي [الخبر: 19 ـ 5 ـ 2011].

الصديق الدكتور عبد الله ركيبي [الشروق اليومي: 6 ـ 6 ـ 2011].

تراجم "تاريخ الجزائر الثقافي"

وفي إطار تتبع التاريخ الثقافي للجزائر في مرحلتي العهد العثماني والاحتلال الفرنسي؛ ضمن الدكتور سعد الله موسوعته المتميزة "تاريخ الجزائر الثقافي" تراجم، بعضها موجز وبعضها مفصل، وبعضها مجرد إشارات، لعدد من علماء الجزائر الذين كانت لهم إسهامات في مختلف العلوم.

منهجه في الترجمة:

للمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله منهجه الخاص في الترجمة للعلم الذي يكتب عنه، فهو يهتم باستقصاء كل ما يمكنه الوصول إليه من معلومات متعلقة بالحياة الشخصية للمترجَم له، لكنه لا يتوقف عند ذلك، بل يتناول بالعرض والتحليل جوانب شخصيته وعوامل تكوينها وما كان له من مواقف وكيف تفاعل مع ظروف عصره وما تركه من أثر.

وإذا كان المترجَم له ممن عرفه شخصيا، فإنه يركز على هذا الجانب؛ حيث يذكر متى تعرف عليه ومواقفه التي شهدها والعلاقة التي ربطته به وما تميز به من خصال ومناقب.

وهو في كل ذلك لا يمدح إلا من يستحق المدح، كما أنه لا يتردد في الكشف عن الجوانب السلبية في الشخصية التي يتناولها بالترجمة والتعريف، منطلقا في كل ذلك من قناعاته الفكرية.

وقد استطاع سعد الله أن يزيح غبار الطمس والنسيان عن كثير من العلماء

الجزائريين المجهولين حتى عند أبناء الجزائر أنفسهم، وأن يظهر إسهاماتهم في العلوم المختلفة الدينية والدنيوية، وأن يبرز تأثيرهم في بلادهم والبلدان التي هاجروا إليها أو انتقلت إليها مؤلفاتهم.

إن هذا الجانب المهم في السيرة العلمية للمؤرخ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ألا وهو التعريف بعلماء الجزائر، لجدير بالدراسة والإبراز، ولا يمكننا أن نحيط به في مجال محدود كهذا، ولذلك نرجو أن يتولى بعض باحثينا دراسته في رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه، على أن يتولى باحثون آخرون إبراز الجوانب الأخرى من الشخصية العلمية لفقيد الجزائر الراحل رحمه الله.

[*]أستاذ العلوم الإسلامية جامعة باتنة

43

شيخ المؤرّخين أبو القاسم سعد الله وزيارتُه لزاوية سيدي علي أويحيى . أنشط الزّوايا بمنطقة القبائل .

د. خليل قاضي
31 . 12 . 2013م
جامعة الجزائر 1

حُمَّ قضاءُ الله وأفضى ذلك الرّجل العظيم إلى ربِّه، مخلِّفا وراءَه تراثا ضخما تنوءُ بتأليفِه العُصبةُ أولو القوّة، وفُجعت الأُمّة بهذا المُصاب الجلَل والخطْب المدلهِم، وفقدت الجزائر مُدبِّجَ تاريخها الثقافي، بل فقدت الأمّة العربيّة والإسلاميّة باحثا فذّا من الطّراز الأوّل طالما أغْنى مكتباتِها بالأعْلاق والنّفائس، وَوَشّى منصّاتِ قاعاتِ الدّراسة والمؤتمرات بمحاضراتِه وبحوثِه القيّمةِ التي تشرئبُّ لها الأعناقُ وتَجحَظُ لها العيونُ.

أفَلَ ذلك النّجمُ وهوَى ذلك الصّرْحُ الذي وَقَفَ عُمرَهُ على الجمع والبحث والتّنقيب عن تاريخ الجزائر، يذْرَعُ الأرضَ جِيئَة وذُهُوبًا، من مكتبات الجزائر التي فَلاهَا فَلْيًا إلى فرنسا فأمريكا فالأردن وبلاد كثيرة أخرى يجمعُ الرّحيقَ ويُفرِغُه شَهْدا زكيّا في كُتبِه التي قاربَتْ المائة، أرَانَا فيها ما لمْ نَرَ وَوَقّفَنَا على ما لم نعلَمْ وصوَّرَ لنا بقلمِهِ البليغ وأسلوبِه الجزْلِ وبحثِه الدّقيقِ ونَفَسه الطّويل آياتٍ من أمجادِ الجزائِر وكفاحِها وذَوْدها عن حِماها، ولمْ يَقصِر كتابتَه على بلدِه فحسب،

بل وسِعَت دائرةُ تراثِه الأقطارَ العربيّةَ والإسلاميّةَ جميعًا، فكان بحقٍّ شيخَ المؤرِّخين الجزائريّين، فما من كاتب في التّاريخ اليومَ إلّا وحَوَاشِي مَتْنِه غاصّةٌ بالإحالاتِ على كُتُبِ أبي القاسم.

أمَّا علاقتُهُ بالزّوايا فمتينةٌ متانةَ هذه الصُّروح العلميّةِ والجِهاديّةِ التي حفِظتْ للجزائرِ هُويّتَها وأصالَتها وتاريخَها، فكان ـ رحمه الله ـ يستفيدُ من كتُبِها ومخطوطاتِها ويتّصلُ برجالِها وأئمّتِها ويثبتُ ذلك كلَّه بالتّواريخ الدّقيقةِ في كتبِه وتآليفِه.

ومن هذه الزّوايا التي شرُفَت بزيارة أبي القاسم زاويةُ سيدي علي أويحيى بـ بني كوفي، بلديّة بوغني، ولاية تيزي وزّو، التي تُعدُّ أنشط زوايا القبائل من حيثُ المعمارُ والعَمَارُ، فالبناءُ فيها ضخمٌ حديثٌ رُوعِيَ فيه إنشاءُ كلِّ المرافِق الأساسيّة للطّلبةِ والشّيوخ، مع مسحة جَماليّة تخلب الألبابَ وموقع يُبهج النّفوسَ، أمّا إنتاجُها ـ وهو الأهمّ ـ فهي مَثابةٌ للدّارسين والطّلبة الجامعيّين ـ ذكورا وإناثا ـ والأساتذة في مختلف الأطوار ـ حتّى الجامعيّين منهم ـ يقصدونها ليأخذوا علم القراءات القرآنيّة ـ القراءات السّبع من طريق الشّاطبيّة ـ ويتخرّج منها كلّ عام عشرات الطّلبة بإجازات فيها بالسّند المتّصل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

ولأنّ الزّوايا بشيوخِها فقد حبا اللهُ تعالى هذه الزّاوية بشيخ نَذَرَ نفسَه ووقتَه وجهدَه لخدمة كتاب الله فيها وإقْراء هذا الجمّ الغفير الذي يقصدها من الولايات الثّمانية والأربعين من وطننا الحبيب، وهو الشّيخ سعيد أبو خليل قاضي الزّواوي القائم على هذه الزّاوية تربيةً وتعليمًا وإقراءً، والذي تخرّج على الأزهريّين فكان ضليعًا في النّحو واللّغة والقراءات ـ وله فيها جميعًا مؤلّفاتٌ مطبوعةٌ ـ وآخِذا بأطراف العلوم الإسلاميّة على تنوُّعِها، وبفضل هذا الشّيخ

عادَتْ للزّاوية مكانتُها في الإقراء بعد أن ذَوَت بفضل الاستعمار، وأضحَت حاملةً مِشعل القراءات القرآنيّة في منطقة القبائل بل في الجزائر كلّها.

هذا، وفي نهاية كلّ موسم دراسي تحتفي الزّاوية بطلبتِها وتقيم حفلا بهيجا توزّع فيه الإجازات القرآنيّة والجوائز التّقديريّة على الطّلبة المجتهدين، ويحضر هذا الحفل شخصيّات مرموقة لها وزنُها في السّاحة العِلميّة والدّعويّة أمثال الشّيخ الطاهر آيت علجت والشّيخ سعيد شيبان والدّكتور عبد الرّزّاق قسّوم والأستاذ هادي الحسني والشّاعر الكبير محمّد مصطفى الغماري وغيرهم، وحَزَّ في نفوسِنا أن يغيب مؤرّخٌ عملاق كأبي القاسم سعد الله عن هذه الفعاليّات.

كلفتني ـ (الدّكتور خليل قاضي (أستاذ محاضر بكلّية العلوم الإسلاميّة، جامعة الجزائر1) ونجل شيخ الزّاوية الشّيخ سعيد أبو خليل قاضي) ـ الزّاوية بالاتّصال به صيف 2010 فقصدت كلّية التّاريخ ببوزرّيعة ولم أجد الشّيخ أبا القاسم حاضرا فتركتُ له رسالة مفصّلة عن عمل الزّاوية ونشاطها وإنتاجها الذي لا يضاهيه إنتاجُ مؤسّسة أخرى في ميدانها وسردتُ له أسماءَ بعض الشّخصيّات العلميّة التي تحضر دوريّا كلّ حفل من أحفالها، وختمتُ الرّسالة بدعوته باسم العلم والتّاريخ الذي نَذَرَ نفسَه لهما، وتساءلتُ كيف يغيبُ كاتِب تاريخ الجزائر الثّقافي عن هذا الصّرح الثّقافي؟

فلمّا قرأ الرّسالة تأثّر بها، وكان قد تلكّأ في الحضور من قبلُ قياسا على معظم الزّوايا الآن التي أصبحت خاوية على عروشها مقفرة في إنتاجِها ـ إلّا من رحم ربّك ـ وحضر الحفل صيف سنة 2010م، وأُعجب كثيرا بموقع الزّاوية ونشاطها وكثرة طلبتها وجِدّيّة شيوخها، وألقى كلمة أثنى فيها على كاتب الرّسالة التي

حوّلت وِجهتَه وشوّقته للحضور ووعد بكتابة شيء عن الزّاوية بعدما رأى وسمع، وعند انتهاء الحفل احتفّ به الحضور مبتهجين سائلين مستفسرين عن قضايا تاريخيّة وعلميّة.

وقدّم فيما بعدُ تقديما رائعا وَشَّى به كتاب " الجرجريّة في فن التّرتيل" لشيخ الزّاوية ـ الشّيخ سعيد أبو خليل قاضي ـ وهو كتاب ضخم حوى مسائل التّجويد النّظريّة والتّطبيقيّة، درَّس الشّيخ محتواه قبل أن يؤلِّفَه، وممّا قاله شيخ المؤرّخين في ديباجتِه: (الأستاذ الفاضل والشّيخ المبجَّل سعيد أبو خليل قاضي الزّواوي، عالِم القراءات ومُكوِّن القرّاء بالجزائر السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أوّلا: يسعدني أن أشكركم على إطلاعي على أعمالكم في خدمة زاوية سيدي علي أويحيى التي جعلتم لها سمعةً رائدةً في العلوم القرآنيّة، ولاسيما علم القراءات الذي اشتهرت به منطقة ازواوة منذ قرون، ثانيا: أشكركم على ثقتكم في علمي المتواضع ومعرفتي بتاريخ القراءات بالمنطقة، وهي معرفة لا تعدو جمع الشّتات وإحياء الموات من التّراث الذي تميّزت به المنطقة وعلماؤُها...)

وأبو القاسم سعد الله لا يحكم إلّا بعد عيان ولا يقول إلّا بعد تثبّت، فكم من دكاترة وأصحاب شأن رفض التّقديم لكتبهم لهزال أعمالهم أو لفساد طوياتهم بعد أن عَرَكَهم وخَبَرَهم. وكان تقديمه لكتاب الشّيخ وحضوره لهذا الحفل ـ وهو الأوّل والأخير له رحمه الله ـ وِساما يتّشح به صدر الزّاوية وشيخُها.

فرحمة الله على الشّيخ أبي القاسم في الخالدين، رحمة اللهُ على الكاتب البليغ والشّاعر المُجيد والمؤرّخ النّزيه والبحّاثة الحصيف والعلّامة الجِهبذ.

وجمعنا به على أحسن حال مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصّحْب والآله.

44

هموم ومساهمات ثقافية في مسار الدكتور أبو القاسم سعد الله

أ. بشير بلاح*

المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله من كبار المثقفين الجزائريين الذين حملوا هموم أمتهم ومجتمعهم، متسلّحين بالأصالة التي استمدّوها من الثقافة العربية الإسلامية؛ والفعالية التي اقتبسوها من المناهج الغربية الحديثة المُحْكمة، في ظل ظروف مثبّطة ومعاكسة، لم تمنعهم من الإبداع، والمساهمة في تنوير المجتمع والأمة وحل مشكلاتها، وخدمة العلم والثقافة، وترقية الإنسانية.

طموح علمي ونحت في الصخر:

يعتبر ارتفاع صرحِ المرحوم الدكتور سعد الله (المولود بقمار عام 1927) الثقافي المهيب في صلب البيئة الجزائرية تصديقًا لآراء التيار الفردي من علم النفس الثقافي، الذي يذهب إلى أنَّ الكائن البشري نظامٌ متوازن تعمل آليات التوازن الداخلي لديه على تفتيت الثقافة واستيعابها وصناعتها، وأن الضغوط الاجتماعية السلبية لا تؤثر إلا على الأفراد الذين يمكّنونها من ذلك بضعفهم أو لا مبالاتهم، بخلاف الأقوياء الذين يغالبونها ويصمدون لها، ويبدعون داخل مجتمعات يسودها الاغتراب والجهل، ضاربين على ذلك مثَل أن المواقف الاجتماعية تقدّم الحبوب إلى مطحنة الفرد، لا أنها المطحنة التي تنتج عمله؛ وأن الفرد مبدعٌ ثقافيٌّ يضيف تجربته الفريدة إلى مجموع الأنماط والتوقعات الثقافية

الجماعية، فتتغير الثقافة باستمرار من خلال هذا التفاعل بين الأفراد، وبينهم وبين الثقافة.

من أبلغ أمثلة الطموح العلمي التي عزّ نظيرها لدى المرحوم: تجاوزه لما سمّاه "النكبة الثقافية" (مقال منشور في جريدة الشعب، عدد 15 سبتمبر 1988) التي ألمّت به عام 1988، ممثّلة في ضياع محفظته (في مطار هيثرو ـ لندن) المشتملة على الفصول الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول من الحركة الوطنية (1830 ـ 1900)، أي قسمَه الثاني (مرحلة 1860 ـ 1900)، وبطاقات ذلك الجزء جميعا، وقسم هام من الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي، وجميع بطاقات جزأيه 3 و4. فرغم أنها زعزعته، إلا أنها لم تحبط مشروعه العلمي الذي اطّردَ بإخراج الجزء العاشر من التاريخ الثقافي سنة 2007، ثم جزأين آخرين من ذات التاريخ يؤرخان لما قبل 1500 سيصدران قريبا مع أعمال أخرى على الراجح.

إحياء التراث وإرساء قواعد مدرسة تاريخية:

لطالما تألم الراحل لواقع الثقافة العربية الإسلامية المأساوي في الجزائر (والعالم الإسلامي عامة) الذي تواطأ عليه عاملان: تفريط المجتمع، وخذلان النخب العصرية الحاكمة.

لذلك دعا الراحل إلى إنزال الثقافة العربية الإسلامية المنزلة التي تستحقُّها؛ وعضَدها بجهوده الملموسة الواعية، باستفراغ الجهد في إحياء تراثها الثقافي الإيجابي؛ وتنشيط الساحة الثقافية؛ وصيانة الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري (والأمة بشكل عام) بملء الفراغ في مجال التاريخ الذي كان حكرًا على إنتاج المدرسة الاستعمارية.

1. إحياء التراث:

من أبرز الأمثلة على مساهمة الراحل في بعث رموز وذخائر التراث الجزائري: معلَمة "تاريخ الجزائر الثقافي" (1981 ـ 1998) بأجزائها التسعة، ثم جزئها العاشر (2007)، التي تعكس ملكةً أدبية راسخة وقدرة على الاستقصاء والتقميش فائقة ومصابرة على البحث نادرة، وسدّت ثغرة كبيرة في هذا المجال. ولا غرو؛ فقد كتب عنه الشيخ البشير الإبراهيمي عام 1960 بأنه "مشغوف إلى حدّ الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور" (أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة (دار المعارف بمصر، 1961)، ص 3).

إلى جانب أعماله عن أمثال "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث" (1961)، و"القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني" (1974)، و"رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي" (1977)، و"الطبيب الرحالة: ابن حمادوش الجزائري" (1982)، و"شيخ الإسلام عبد الكريم الفكّون" (1986)، وتحقيقاته لكتابات أعلام الجزائر كـ"رحلة ابن حمادوش" (1983)، و"حكاية العشاق" (1983)، و"منشور الهداية" للفكون (1987)، و"رسالة الغريب إلى الحبيب"، للبجائي (1992)، و"تاريخ العدواني"، وغيرها. وفي هذا السياق أيضا تأكيدٌ على الوحدة الثقافية للشعب الجزائري، ككتابته عن كتاب "الحوض" لمحمد بن علي بن إبراهيم السوسي في الفقه المكتوب بالأمازيغية بحروف عربية، وعن "الأُفعول" في الحميرية والبربرية (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990)، ج 4)، وغير ذلك.

2. إرساء قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية:

ساهم الراحل في بناء صرح التاريخ الوطني، بتأسيس قاعدتين:

ـ قاعدة تاريخ الجزائر السياسي والعسكري المعاصر: حيث يرى أن العهد الاستعماري وتتبع مسيرة الصراع بين الجزائريين والفرنسيين خلاله لم يدرس بعدُ باستيعاب، ومن هنا طموحه إلى تقديم أرضية يمكن للباحثين اللاّحقين الاستفادة منها والانطلاق من حيث توقف هو ـ كما قال عام 1989 ـ رغم اعترافه مرارا بأنه لم يحقق كل ما عزم على إنجازه في ذلك المشروع.

ـ قاعدة أوسع لتاريخ الجزائر الثقافي، قرُبت أن تكون قصة حضارتها الحديثة والمعاصرة، خاصة أنه صرّح في الجزء الأول من "تاريخ الجزائر الثقافي" ـ وهو بيت القصيد ـ بالقول عام 1979: "كان هدفي من البحث إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور"، لولا أنه تجنّب تتويجها بحوصلة فلسفية تفسّر طابع الثقافة الجزائرية البياني ـ الوصفي ـ الإستِعادي، وتحدّد التيارات العميقة التي صاغت أفكارنا وحكمت أعمالنا وصنعت مصائرنا، لنقدها وتقويمها واستثمارها في معتركات التدافع والتداول والتجديد، ربما لأنه تحاشى ـ كما لاحظ الدكتور ناصر الدين سعيدوني ـ الوقوع في محاذير إخضاع الأحداث لنظرة خاصة قد تقلل من قيمة عمله وتثير حفيظة المخالفين، أو لأنه من المؤرخين الذين يعتقدون ـ على غرار المؤرخين البريطانيين ـ بأن معنى التاريخ ظاهر وواضح بذاته، فلا يكون موضوعًا استنتاجيّا؟ تلك "الاستنتاجية" التي يعتبرها بعض أعلام المؤرخين إكسير الحياة بالنسبة إلى التاريخ.

ـ فضلا عن الطموح إلى المساهمة في تصحيح أخطاء التاريخ، كما في قوله "هناك مواقف وتفاسير كثيرة في تاريخ المغرب العربي تحتاج إلى تصحيح وإعادة

نظر"، يذكر منها مقاومة البربر "المزعومة" للعرب، وطبيعة وأعمال وتأثيرات بني هلال وبني سُليم، والفتح العثماني مما يُعرف بذهابه فيها عكس مذاهب المؤرخين الفرنسيين ومن سايرهم.

ـ ناهيك عن التطلّع إلى تقويم وإثراء الحياة الثقافية، حيث صرّح في كافة أعماله بغيرته على اللغة العربية وحرصه على خدمتها وإثرائها، ولا غرو، فتكوينه الأدبي والعلمي ـ التاريخي وفّر له كافة المبررات والإمكانات.

كان الراحل سعد الله مثقفا أصيلا، أدّى دورًا ظاهرا في بلورة وإنعاش ورسم توجّهات الثقافة الجزائرية المعاصرة، خاصة في قضايا تأصيل التاريخ والتعريب والتربية، وقيم المجتمع المدني أيضا. كما كان عالِما نذر نفسه للحقيقة كما بلّغه تخصّصه واجتهاده، رغم أعاصير ومناورات أرباب المصالح الضيقة. مع حرصٍ على صرامة المنهج، واعتدالٍ وحذرٍ في المواقف العامة، وميلٍ إلى التآلف والتوافق. وهو أيضا ذاكرة جيل حلُمَ بالنهضة، لكنّ الذي تراءى له كذلك كان حركةَ وعيٍ وتعبئةٍ ودفاع عن الذات أمام تحديات الانحلال الداخلي والهيمنة الخارجية، أكثر منه نهضةً متكاملة تدرك الحاجات، وتتوفر لها الخبرات والقدرات. ويبدو أنّ النهضة المنشودة مَنوطة ابتداءً باستكمال الوعي التاريخي (المحقِّق لإدراك مقوّمات الوجود التاريخي والتمسّك بها) لدى نخبة المجتمع والأمة وجماهيرها على حدّ سواء، لتفعيل طاقاتها وحفزها إلى البناء والتجديد كما أسلفنا، ولطالما نبّه إلى ذلك الدكتور سعد الله وكافح من أجله، وإن لم ينظّر له بشكل مستقل. فهل تتضافر الجهود في هذه السبيل؟.

*** باحث جامعي**

45

القضايا الأدبية في كتابات أبي القاسم سعد الله

د. وليد بوعديلة*

يقترب كتابه الهام "تجارب في الأدب والرحلة " من بعض القضايا الأدبية والتاريخية ويقدم رحلاته لبعض الأماكن الجزائرية والعربية (المغرب والجزيرة العربية وخنقة سيدي ناجي) وكذلك رحلات غيره من الشخصيات، كما يتضمن الكتاب بعض الحوارات التي أنجزت مع أبي القاسم سعد الله. وقد نشرته المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1983.

أغلب مقالات الكتاب تعود إلى سنوات الخمسينات والستينات، وفيها الكثير من ملامح التفكير النقدي الأدبي المتميز، حيث يمكن أن نتتبع عبرها تاريخ الممارسة النقدية الجزائرية. وستحاول هذه السطور الاقتراب من بعض القضايا النقدية وكشف مواقف المرحوم منها.

الأدب الجزائري وأسئلته:

نجده يحرص على تفاعل النص الأدبي مع السياق السياسي الاجتماعي الذي يتحرك فيه، يقول: "إن الحاجة واضحة وملحة إلى تحديد وتقييم مفاهيمنا الأدبية على ضوء تطورنا السياسي والاقتصادي بعد الاستقلال، لكي نعرف الفرق بين ماضينا وحاضرنا الأدبي ومدى استجابة إنتاجنا الشعري والنثري إلى

التزامات العصر" (ص31).

فهي رؤية تحيل على مقاربة سويولوجية تحتفي بتفاعل النص مع البعد الاجتماعي السياسي، كما تبين أهمية النقد الأدبي في تطوير النصوص وتقييمها وربطها بقضايا الإنسان، كما أن انجاز عملية التحليل والتأويل للنصوص يضعها في سياقها التاريخي الأدبي، ويكشف اختلافها أو اتفاقها مع النصوص السابقة عنها.

وينجز الأستاذ أبو القاسم وقفة متميزة عند هوية الأدب الجزائري وإشكالية الثنائية اللغوية في التعبير الأدبي الجزائري، يقول معرفا الأدب الجزائري": إنه الإنتاج النثري والشعري الفني الذي كتبه الجزائريون بلغتهم القومية، وعلى هذا الأساس فإن كل أدب انتسب إلى الجزائر دون أن يتوفر له هذا الشرط، يعتبر أدبا شاذا غريبا أو مولودا غير طبيعي، يمثل مأساة صاحبه وليس حضارة أمته" (ص32)، هي فكرة قدمها سعد الله في سنة 1968، ولسنا ندري هل تراجع عنها فيما بعد، وقد يسانده فيها البعض ويخالفه فيها البعض الآخر، بخاصة لصراحتها وجرأتها في تناول إشكالية مهمة جدا وما تزال مطروحة إلى يومنا هذا.

ونحن نختلف معه هنا، فماذا نعتبر روايات محمد ديب ومولود فرعون ؟ وماذا عن كاتب ياسين ومالك حداد وغيرهما من الذين كتبوا باللسان الفرنسي؟ وماذا لو قرأنا أدباً جزائرياً بلسان عربي وقيمه أوروبية أو يقترح هوية جزائرية منسلخة عن القيم الإسلامية ؟ بل ومتمردة على التاريخ الجزائري ورافضة للقيم الاجتماعية التقليدية؟ ثم لماذا ننجز رؤية دينية عن الأدب ؟وماذا عن

الأدب باللغة الأمازيغية؟....

الأكيد أنها إشكالية كبيرة ومتعددة الجوانب، ولأبي القاسم شرف التعبير عن رأيه بصراحة معرفية، ونرجو لمن لديه فكرة عن مواقف لاحقة لأبي القاسم في هذه المسألة ـ في كتبه أو حواراته ـ أن يقدمها للاستفادة منها.

أما بالنسبة لتيارات الأدب الجزائري إلى غاية نهاية الستينات فهي ـ حسبه ـ محصورة في التيار التقليدي والتيار المتطور، وموضوعاته" سياسية اجتماعية مرتبطة بالتطور البنائي للبلاد، وقلما كانت عاطفية ذاتية تعبر عن إحساس داخلي للأديب" (ص32). وهو في عمومه لم يعرف أصوات الخروج عن التراث أو التمرد الجمالي والفكري عليه، وقد أشار سعد الله إلى ما أسماه "غياب تمردات أو انتفاضات خلاقة كما يحدث في الآداب العالمية"، كما لا يمتلك الأديب الجزائري ـ في تلك الفترة وما سبقها ـ مواقف "مستقلة هجومية خارجة عن القانون"، وهي تعبيرات فكرية تعبر عن تصور نقدي تجديدي ومغامر، أو لنقل عن فكر لا يتوقف عند القواعد الجاهزة والسائدة، ولو استمر سعد الله بشخصيته النقدية لكان ذا شان نقدي كبير في التعبير عن قضايا خرق المتداول والمألوف والثابت بكل تجلياته الأدبية أو الفكرية أو السياسية، وقد عرف عنه عدم التملق وعدم النفاق في الحياة الشخصية أو الكتابة التاريخية.

وقد أكد هذه الرؤية المغامرة: "أن التمرد ضرورة للخلق الفني، ونعتقد أنه لكي يكون الأدب العربي أدباً خلاقاً، يجب أن يكون أصحابه مستقلين في مواقفهم وأحكامهم، إن أسوأ ما يتعرض له الأديب هو التوجيه من الأعلى واحتكار أفكاره من السلطة، أيا كان نوعها، كيف نخلق في الفكر إذا لم

نتمرد؟... " (ص33)، من يقرأ هذه الأفكار في زمن التعددية والديمقراطية الآن يراها تقدمية في زمنها، وهي أفكار ارتفعت في زمن الأحادية والقبضة الأيديولوجية الاشتراكية وما صنعته من أدب اشتراكي واقعي ومشهد ثقافي أحادي الرؤية الفكرية.

ويدرس أبو القاسم حياة وشعر محمد العيد آل خليفة، ويعتبره كبير شعراء الجزائر وأميرهم، ويرجع أسباب تفوقه على غيره إلى أسباب هي:

1 ـ إنه جاء بعد أن نضج الشعر العربي في المشرق وكثرت مدارسه ومذاهبه وأصابه التجديد على يد شعراء المهجر والمتأثرين بالغرب.

2 ـ التجارب الشعرية لمحمد العيد مستوحاة من صميم الحياة الشعبية وما فيها من صراع وهدوء وشقاء وأمل.

3 ـ جاء بعد ركود في الحياة الفكرية والأدبية بسبب الاستعمار

مواقف من نصوص بعض الأدباء

ويتوقف الكاتب عند كتاب "مع حمار الحكيم" لرضا حوحو، باحثاً في بعض خصائصه اللغوية والموضوعاتية، وكاشفاً تفاعل رضا حوحو في بعض أفكاره مع صادق الرافعي والمازني والعقاد، مما يدل على التنوع الثقافي الذي يميز الناقد (سعد الله) مما أهله لمعرفة التناصات والحوارات الفكرية في نص المبدع (حوحو).

كما درس نصوصا أدبية أخرى كثيرة، ومنها مسرحية مصرع الطغاة لعبد الله الركيبي التي نشرها بتونس سنة 1959، وقد نشر كاتبنا عنها مقالاً في سنة1967 في مجلة المجاهد الثقافي، ولخص أفكارها الثورية ومسألة التضحية الوطنية والموقف الاستعماري من الثورة، كما حلل رمزيات الشخصيات والمواقف.

واعتبر المسرحية متضمنة لظواهر نفسية وفكرية تفيد كل مهتم بدراسة الجزائرية عشية الثورة وخصوصيات المجتمع وملامحه في ذلك الزمن، ومن ثمة فهو يعتبر النص الأدبي وثيقة تاريخية عن المرحلة التي ولد فيها، وهو شأن الباحث المؤرخ، فيلتفت سعد الله الأديب والناقد إلى بعد آخر في شخصه هو سعد الله المؤرخ، وهو ما سيفيده كثيرا (ويفيد الجزائر كذلك) لتأليف موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، حيث يلتقي التاريخي بالثقافي، ويصبح كل أستاذ مدرس لمادة تاريخ الجزائر الثقافي ملزما باعتماد كتاب سعد الله.

ونحن في زمن تخصص التخصص في الجامعة الجزائرية نجد صعوبة كبيرة في إيجاد أستاذ يجمع التكوين الأدبي والتاريخي والفكري في شخصه، وهو ما صادفته شخصيا أثناء البحث عن أستاذ لهذه المادة في الماستر الذي أنجزته

(ماستر الأدب الجزائري) إلى أن أنقذ الباحث والمفكر المحترم حميد لعدايسية الموقف ودرس تاريخ الجزائر الثقافي لطلبتي في الجامعة.

ونقرأ في كتاب "تجارب في الأدب والرحلة" لأبي القاسم مقالا عن مسرحية التراب لأبي العيد دودو (1966)، وهو عبار ة عن رسالة إلى دودو يعبر فيها عن رأيه الذاتي في المسرحية، معلنا إنه قد انصرف عن الأدب إلى التاريخ، وبأن الأحكام النقدية الجيدة تحتاج إلى تتبع قضايا النقد ومذاهبه للوصول إلى الموضوعية، ومع هذا نقرأ تحليلاً محترماً للحوار والشخصيات والمشاهد.

وفي سياق آخر يبحث في قصص" بحيرة الزيتون" لدودو في مقال نشره بجريدة الشعب سنة 1968، وهنا يذكر لنا مسألة هامة، يقول" طالما قلت لدودو أنني قد انسحبت من نادي الأدب ودخلت أسرة التاريخ ولكنه كان يرفض ذلك أو لا يصدقه، إنني متأكد أن القصة من أخص فنون الأدب وأصعبها على التقييم والنقد الموضوعي، وهي تحتاج إلى ناقد متخصص ومتجرد" (ص136)،

وهنا نلتفت إلى قضية هامة في تاريخنا الأدبي، فبالتأكيد أن دودو كان عارفا بقيمة سعد الله النقدية والذوقية، كما أنه عارف بأن سعد الله لا يجامل في أحكامه وينطلق من رؤية حكيمة مؤسسة على معرفة أدبية وجمالية، لذلك قد يكون طلب مرارا منه عدم الانصراف عن النقد الأدبي وقد تكون هناك مراسلات بينهما في هذا الشأن.

والملاحظ أن سعد الله يقف كثيرا عند الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للقصص، واستطاع كشف المرجعيات الفنية والثقافية لدودو وتنوع أدواته التعبيرية وميولاته الفكرية تحت تأثير القراءات الثقافية المتعددة.

وقد تضمنت الحوارات التي أجريت مع سعد الله الكثير من أفكاره الأدبية

والنقدية، ففي حوار في مجلة القبس) مارس1969) تحدث عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسة وهو عنده أدب يخضع لتأثيرات ثقافية فرنسية والتفكير الفرنسي غالب عليه، كما يتحدث عن مفهوم الالتزام في الأدب ويعرفه قائلا" إنه طريقة أداء أخلاقية يلزم بها الكاتب نفسه اقتناعا بها دون تأثير خارجي... ويمكن لكاتب ما إن يلتزم بموقف معين في ظرف معين ثم يلتزم بموقف آخر في ظرف آخر... أما الالتزام المقيد بحزب ما أو الولاء لشخص ما أو بخدمة مذهب ما دون حرية اقتناع شخصي، فهذا في نظري إلزام وليس التزاما، والإلزام اضطهاد وكبت لطاقة الإنسان الخيرة المنتجة" (ص177).

وبالنسبة لقصية موقف الأديب من التراث والحداثة فقد قدم موقفه في حوار مع أبي القاسم بن عبد الله ونشر في مجلة الجيش (فيفري1972)، حيث يقول: " الأديب العربي المعاصر لا يستطيع ان يتخلى عن مقوماته الروحية والفكرية، وهو في نفس الوقت لا يستطيع أن يبقى بمعزل عن التطورات العالمية المعاصرة" (ص198).

الخاتمة:

هي بعض القضايا التي تناولها الدكتور الرحل أبو القاسم سعد الله في كتابه، وهي تنقل أفكاره القيمة حول الأدب الجزائري والعربي، وتجسد نظرته السوسيولوجية والثقافية للنص الأدبي، برؤية فيها الموضوعية والجرأة في تقديم التحليل النقدي، ومقالاته وحواراته الواردة في الكتاب تعبر عن مرحلة ما بعد الاستقلال ومميزاتها الأدبية والفكرية، هو كتاب مهم نتمنى إعادة طبعه لما فيه من مقالات نقدية أدبية هامة وكذلك رسائل ورحلات ومقاربات تاريخية.

***أستاذ الأدب العربي. جامعة سكيكدة**

46
من سرق حقيبة هذا الرجل؟

عبد الوهاب مغوشي

لا يساجل إذ هو يؤرخ أو يستصدر معلوماته ومداركه من نبع عقائدي فيزيد على التاريخ التوابل والحرقات، بل إن نية أبو القاسم سعد الله في التاريخ نية خالصة تامة، لا مِنة ولا جزاء شكورًا ولا إحاطة بالتكريمات والاحتفالات…

هي ما يلزم المؤرخ، العالم، العارف، علامة الجزائر وحارس تاريخها الثقافي، حيث الواحات وسعف النخيل ولد، حيث السوف وشجرات الدخان، حيث الهواء الصحراوي والهوى الصحراوي، شظف العيش والمكابدة القاهرة، البؤس مع المكابرة، أكل القديد وانتعال الصوف والمشي حافيا في أماسي الصيف، كل شيء بمقدار كان، كل شيء يؤقت لموعده فالدنيا حرب والحرب هي المخلفات المتروكة في ثلاثينية منذرة بالويل والثبور، على هذي الأجواء تمدد الجسم الصغير والعقل الصغير لطفل اسمه ولقبه "أبو القاسم سعد الله".

لم يقض الفتى الوجيز من الزمن حتى صار زيتونيا يحفظ المتون ويتعلّم أبجد هوز العربية وفصيح الكلم، أتم تعليمه الزيتوني وسط النبأ الثوري العظيم ـ ثورة نوفمبر ـ ووسط الإستقطابات السياسية الحافلة، الجدل والمناظرة حول ميقات الثورة، النزعة المصالية وحزب الشعب، العلماء ونشاطهم الإصلاحي بتوجهيه الراديكالي والمعدل الذي سرعان ما تواصل أداء بكثافة وحضورا يسرق

انتباه الدوائر القومية الجزائرية ومثلها فرنسا الإستعمارية، الإبن الزيتوني، الممثل للبيت الجزائري الطلابي في تونس، ثم البعثة الزيتونية برمتها بتكليف من الشيخ العربي التبسي متعاصرا مع علمين بارزين هما مولود قاسم نايت بلقاسم والجنيدي خليفة...

يروي أبو القاسم سعد الله حياته، نشأته، أحلامه وانكساراته للصحفي الجزائري مراد وزناجي على شكل محاورة مكتوبة تشكل الوثيقة والتذكار والاحتفاء بالسيرة السعدية ذات المعارف والمواهب والروافد الخصبة الولود، الشيء الكثير من علوم الفطاحل، الكتابة الصحفية الإبتدائية في جريدة البصائر، أبو القاسم الشاعر الرهيف الذي يستقرئ غيوم الثورة وانبعاثات الفعل التاريخي القريب، السيرة الشبابية في تيار العلماء.

من بعد تعب ومن بعد نكد في التوجس والمخافة من ركوب الهول التحق الكاتب، الشاعر، الطالب سعد الله بكلية دار العلوم بتمكين وإسهام العلماء، فعبد اللطيف سلطاني هو من يسّر عليه ورقة السفر المرخصة، والبشير الإبراهيمي هو من استقبله وتكرّم عليه وأنزله حسن المقام في مدينة صعبة وعرة كالقاهرة رغم أنها حاضنة راعية للفكر الوطني الثوري الجبهوي، بل إن فرعها الطلابي ـ كما يقول سعد الله ـ كان من أنشط الفروع وأبرزها، إذ تواجدت هناك الجامعات التي شهدت التوافد الجزائري الشباني الغزير، تواجدت الصحف والإذاعات، كما تواجدت الملتقيات والنوادي، فلم يكن فقط طلبة الجزائر إذ كان هناك آخرون من فلسطين والأردن والعراق، وبالمعنى الأسلم كانت القاهرة موئلا ومأوى وموطنا لذوي الرأي والإجتهاد السياسي والفكر التحرري، فهناك التقاهم سعد الله،

جاذبهم المشورة وتبادل معهم الرؤية والنظر من فرحات عباس إلى يوسف بن خدة إلى كريم بلقاسم إلى بلعيد عبد السلام إلى مالك بن نبي إلى ابراهيم مزهودي، ليضاف إليهم كذلك أوعمران وبوصوف ومهري.

بعد 1959 نشط المؤرخ، الكاتب الشاعر، أبو القاسم في الصحافة المشرقية، وقد كتب في "الرسالة" وفي مجلة "آداب"، فتلك مرحلة كانت هي المفرق ما بين عهدة طلابية ضاجة بالأحداث والواقعات والنوازل وأخرى سيتم الترحل نحوها بخيار المائل، الطموح، الجانح إلى شعرية ثورية محافظة تقليدية عمودية نظما وبحرا ومسلكا ومدخلا، كتابة شعرية بسيطة ومتعجلة هي لازمة التكوين والتأهيل في الثقافة العربية ببعدها الأصالي، الكلاسيكي، الأرثودوكسي.

عندما يفرش أبو القاسم ذاكرته ولمحات مركزة من أقاصي ما مضى في حياته للصحفي مراد وزناجي تلحظ الحسرة والدمع المنكفئ، الوجع القومي مخلوطا بالشخصي، إرادة الجهر بالحقيقة والصدع بالبواطن مع الخوف من ملامسة الجراح، فأي جرح وأي وجع وجيع كيما يتم التفرقة بين طلبة المشرق وطلبة أوربا.. ظلم ساد ومظلمة فاح عطرها تلقى شكواها المشرف العام على جهاز المالغ ـ جهاز مخابرات الثورة ـ في شخص عبد الحفيظ بوصوف لينادي الجميع ويستجمع الشتات للإنصات والتبادل والتفقه في علوم الثورة والوحدة وقياس الكتلة، كتلة وطنية متجانسة الروح، مختلفة المشارب، والعالم من قبل ومن بعد يمور ويصطرع، يسار طلابي عالمي غارق في الأدلوجة، وأيادٍ غربية على الزناد تتأهب وعيون ترمق صوب أفق بدأ يجلو، حضر المؤتمر واحد من المهمين، الجيدين وكان اسمه عبد الحميد مهري، ولقد ظلت التطلعات المعرفية

هي السمة في حياة رجل "مترحل" من أجل التفوق والبروز الأكاديمي واجتيازات المسابقات، تجدد طلبه على المنحة فقبلت فكانت المحطة، حاز هذا الإفريقي الوسيم على كارت أبيض ومذكرة سماح وتأشيرة جدارة لدخول نيويورك ثم مينسوتا، سبق مشهد الرحيل إلى أمريكا لطيفة من اللطيفات التي يذكرها سعد الله في سرد خواطره.. "محسن جزائري من ذوي المال والمصالح التجارية ومن المغدقين على الثورة بخيره، كان معروفا عند الإستعلامات الفرنسية وقطاع الضرائب، عباس تركي، عباس تركي يتقدم نحوي كي يهبني معطفا يقيني برد وعراء أمريكا، المعطف أحتفظ به إلى اليوم"،

في ذكر أحوال الذين مضوا نهتم برصانتهم، سلامة طويتهم، أريحية وجدانهم، وننساهم، ننسى عنهم نفوسهم التي تحب أن تلهو، أن تعبث، أن تصبو، وأن تستريح..

إن أبي القاسم سعد الله هاوٍ رقيق للسينما، للأعمال الغنائية والإستعراضية، وقد هام هياما بأسمهان في رخيمها العذب، وبأم كلثوم، وبنور الهدى..

في شبه مذكرات غير مكتملة يرويها الصحفي ينزع أبو القاسم إلى بيان وجه نهضوي فيه وقد تحرف فيه وامتلأ خبرات وسمات غير الخبرة والسمة الأصالية التراثية ولعلها كانت هي أيضا ملامح بارزة عند شبان الجمعية وطلبة الزيتونة، فلطالما جمعوا الإسلام والعروبة وأحبوا التسلية والشعر وغنوا الإباحي ومزجوه بالعذري، كذلك سعد الله مضى في قراءاته اللامحدودة ينهل من روايات علي الجارم وجورجي زيدان ومن جبران وأبي ماضي وما توانى عن قديم وحديث الأدب في طرافة النقائض، أدب المشرق، أدب المهجر، جماعة الديوان، جماعة أبو للو..

اعترافية وروح سجالية تتبدئ في السيرة السعدية، في حياة أبو القاسم المأهولة، الطافحة بالعادات الحسنة والعاديات المشؤومة "لمدة قصيرة سكنت مع رابح بلعيد، كان ينقم على فرحات عباس، يدعو إلى المصالية، يعادي بورقيبة ومحمد الخامس، لكن بلعيد كان يشوقني بحديثه عن كاليفورنيا التي زارها صغيرا مع الجنود الأمريكيين".

بدأ بالزيتونة ودار العلوم القاهرية، ثم مينسوتا، ثم الأستاذية في جامعة أوكلير إلى المنحة الأخيرة وهي منحة فولبرايت، إذ مكث في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاث سنوات من التسعينيات يحضر ويحرر في "تاريخ الجزائر الثقافي".

هذا المصنف المثير البالغ الأهمية والذي يستحق أن يلازم بيوت الجزائريين كما يفعلون مع قاموسي لاروس وروبير، الكتاب ذاكرة ثقافية تأثيثية للمكان الجزائري، للمؤسسة الجزائرية، الذي يستحقه هذا العمل ليس الأنصاب والأزلام ورجس شياطين السياسة بل الشمعدان، الروحية، الفرح والزهو باقتنائه، بقراءاته، أفنى فيه المداد والدم والغياب أبو القاسم حتى يعقلن لحظة جزائرية، يمدها بجسرها، يصنع لها هوية انبثاق ومعرفة لاهوية عقائد وأنفة وبطولية وفلكلور.

يحتاج العمل من أجل سعد الله فترات طوال من المدارسة والقراءة والسؤال والمساجلة، يومياته "مسار قلم" في مجلداتها الخمس غير الكاملة تغطي حياة تفصيلية زاهرة، زاخرة فيها المعاني الحسان، الأمكنة المثيرة، المدن المألوفة والغريبة، الناس الذين يمرون والذين ينسون والذي لا يمرون ولا ينسون، التواريخ، كتابته في اليوميات تسرق الشوق واللهفة لمعرفة رجل ثقافة كامل

الصفات ومكتمل الدسم ومكتمل المواهب، يقرأ الحواديث، يقرأ خبث التاريخ ويقرأ خبث الساسة، من سرق حقيبة هذا الرجل، من سرق عباءة الحاج ديكارت الجزائري

عبد الوهاب معوشي

الاثنين 27 فبراير 2012 17: 10

47
الدكتور سعد الله: علّامة الجزائر وعلامتها

عندما لجأ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى القاهرة في بداية الخمسينيات، قدمه الناس إلى المصريين بلقب "الشيخ الإبراهيمي علَّامة الجزائر"، فعقب رحمه الله على هذا اللقب بقوله أنا لست علَّامة الجزائر، وإنما علامتها وعلامة رفع لا علامة خفض. وأرى بهذه المناسبة أن هذا الوصف ينطبق على الأستاذ سعد الله تماما؛ بل هو علَّامة الجزائر وعلامتها.

التهامي مجوري

لم اعرف الدكتور سعد الله في الجامعة لأنني عصامي، ولم أعرفه زميلا؛ لأنني لم أشركه عملا أكاديميا أو غيره من أنشطته العلمية المشهودة في العالم وليس في الج زائر فحسب، ولم أعرفه قرينا لأنه في سن والدي، وإنما عرفته في معترك الحياة، كقارئ جاد متعلق بهويته الإسلامية العربية الجزائرية، وجد ضالته في كاتب جاد مرتبط بهويته الإسلامية العربية الجزائرية، يريد إيصالها للأجيال قبل أن يطلبوها.

تعرفت عن الدكتور سعد الله في ثمانينيات القرن الماضي، بمناسبة موضوعه الثوري الرائع "الحاج ديكارت"، المنشور في جريدة الشعب، وقبل هذا التاريخ لم أكن أعرف من هو سعد الله؟ فهذا المقال قد هزني كما هز الكثير من أبناء الجزائر من الشاعرين "بالاستقلال المنقوص"، ومنذ عرفته لم تنقطع صلتي به، مهاتفة ومعايدة واطمئنان على صحته، وقبل ذلك وبعده قراءة كل ما يصدر من

مؤلفاته بداخل الوطن وخارجه.

ثم كان مقال "الحاج ديكارت" متبوعا بمقاله الأليم "أزمة ثقافة" وهو المقال المنشور أيضا في جريدة الشعب، الذي اشتكى فيه إلى الله سرقة حقيبته التي كانت تحتوي على فصلين من جزء من أجزاء كتابه الحركة الوطنية، وبطاقات مادة تاريخ الجزائر الثقافي، في مطار من مطارات بريطانيا، حيث كان الرجل طوال السنة في الجزائر يبحث ويقرأ ويدوّن، وعندما تحين فرصة الخروج إلى الخارج وإلى حيث الجو المناسب للكتابة؛ "لأن الكتابة في الجزائر معجزة" على حد قوله، يغتنمها في إنجاز ما اكتملت مادته مما جمع.. فسرقت منه الحقيبة بما فيها، ولم يتهم أحدا بعينه يومها، ولكن من قرأ ذلك المقال يحس أنه يتهم جهة ما معادية للجزائر وللثقافة الجزائرية سواء من داخل البلاد او من خارجها؛ لأن هذه السرقة وقعت في مرحلة كانت الجزائر تمر بموجة من التحولات السياسية والثقافية والاجتماعية، فكان يومها مشروع مراجعة الميثاق الوطني، وموجة التفتح الفني، والانفتاح الإعلامي عبر تنشيط الصوت المعارض من خلال وسائل الإعلام الرسمي، الجرائد والإذاعة والتلفزيون، والتي توجت بعد ذلك بأحداث أكتوبر 1988 المعروفة.

فمقال الحاج ديكارت إلى جانب نكبة ثقافة، لم يكونا معزولين عن معارك أخرى للأستاذ في الظل كانت بين سعد الله وخصومه الطبيعيين، ويظهر ذلك في قصته مع المركز الثقافي الجزائري في فرنسا الذي يمثل "دولة" مستقلة عن الجزائر في توجهه، وإلى مشكلته مع جريدة الجزائر الأحداث الأسبوعية الناطقة بالفرنسية **Algérie Actualité**، التي أرسل إليها بمقال يرد فيه على قضية لا أتذكرها الآن، ولم تنشره، مما اضطره إلى نشره في جريدة الشعب.

سعد الله رجل مسالم وهادئ وأليف الطبع، ولكن توجهه الفكري والتزامه الأخلاقي جلبا عليه متاعب كثيرة، ابتداء من التماطل في تعديل شهادته "الدكتوراه" التي حصل عليها من أمريكا وانتهاء بمتاعب إتمام مشروع كتابه تاريخ الجزائر الثقافي الذي أكمل بدايته قبيل وفاته؛ لأنه عصي عن دخول الصف بسهولة.

صحيح أن الرجل عرضت عليه مناصب في الدولة ورفضها لشعوره بخطورتها على مشروعه الوطني الكبير وهو الحفاظ على هوية الجزائر بجميع أبعادها المحلية والإقليمية والدولية، بلا تهوين ولا تهويل، ولكن في نفس الوقت طبع له جزء من أجزاء كتابه "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر"، وأظنه الجزء الثالث او الرابع، حيث كان الكتاب يطبع تباعا الأول فالثاني فالثالث.. وهكذا، ولما طبع لوحظ ان فيه معلومة ذكرها موجودة في كتاب لرحالة وصف فيها منطقة ما.. بأن أصل أهلها يهود.. فطلب من الأستاذ حذف هذه المعلومة، إذ ان القوم فهموا من نشر هذه المعلومة أنها تصفية حسابات سياسية في جو صراعات عصب الحزب الواحد، فرفض الأستاذ؛ لأن الكلام الوارد في كتابه ليس كلامه، وإنما هو لصاحب الرحلة التي يتكلم عنها، فصودر الكتاب المطبوع في الشركة الوطنية، وبعد سنوات بيع الكتاب بالدينار الرمزي أيام تصفية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (SNED) او تقسيمها.

إن الدكتور سعد الله من هذه الناحية يتميز بصرامة علمية لا مثيل لها لا يعلمها القوم الذين أرادوا منه ما أرادوا، ولم يعلموا أنه قاس قسوة الجراح عندما يتعلق الأمر بالمعلومة التاريخية، ولم يستثن من ذلك نفسه حيث كان يذكر الأمر السلبي ولو كان متعلقا به.. فقد أورد كلاما في يومياته "مسار قلم"، لا يليق ذكره عادة وعرفا، منها

مثلا أنه جلس مع فلان في مقهى مثلا فطلب هو شايا اما صاحبه فقد طلب زجاجة "ويسكي"، أو أنه استقبل امرأة في فندق وصعد معها إلى الغرفة؛ بل واحتج عمن عاب عليه ذلك، أو أن فلانا غضب منه لأنه يخالفه في أمر ما.. ولما قيل له إن هذه اليوميات لا يليق أن تنشر هكذا وهي من أسرار المجالس وخفايا أحاديث النفس، فقال هذا هو التاريخ وهذا هو الواقع الذي وقع بحلوه ومره؛ بل إنه حريص على إعادة نشر النصوص كما دونت في يومها ولو بأخطاء نحوية كتبت بها.

اتصلت بسعد الله هاتفيا لأواسيه عندما سرقت منه محفظته، ومؤازرة له في محنته، ولأعرض عليه المساعدة إن كان في حاجة إليها، من أجل إعادة مشروع تاريخ الجزائر الثقافي، فقال لي "يا ريت... أين نحن من جهد عشرين سنة يا فلان؟"، ومع ذلك سألني ألا أجد عندك نسخة من "تاريخ العدواني" مطبوعة او مخطوطة؟ فذهلت للطلب ولجلد الرجل ورباطة جأشه.. الرجل ضرب ضربة تسقط لهولها الكوكبة من الرجال، ومع ذلك بقي صامدا، تألم لوجع الضربة ـ نعم ـ ولكنه لم تنثن، واستمر في طريقه لإتمام مشاريعه العظمى التي كان يرى دائما أنها أطول من عمره المحدود.

إن مشروع تاريخ الجزائر الثقافي كان منذ بداية السبعينيات، وقد صدر له منه الجزآن الأول والثاني عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وفي سنة 1988 كان يأمل في أن يكمل جزئين آخرين ولكن المحنة المشار إليها أخرته إلى ما يقارب نهاية التسعينيات.. ولكن هذه المرة صدر الكتاب في تسعة أجزاء أي أكبر مما كان يتصور، فقد زرته في سنة 1997 أو 1998 لا أتذكر في الأردن، يوم كان في جامعة آل البيت بالمفرق، وحاولت أن أعرف منه موضوع تاريخ الجزائر الثقافي، ولم يقل لي شيئا ولم أدر أنه كان يومها في مرحلته الذهبية في استدراك ما ضاع منه وما تعطل في حياته

كلها، حيث كان على مقربة من الأستاذ حبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي المقيم ببيروت الذي أشرف على نشر كل إنتاجه.. فكان من بين ما أكمل الأستاذ تاريخ الجزائر الثقافي بأجزائه التسع، وأكمله بالجزء العاشر عندما عاد إلى الجزائر، باحتضان مركز دراسات الحركة الوطنية وأول نوفمبر، الذي تناول مرحلة تاريخ الجزائر الثقافي أثناء الثورة، ولم يبق لاكتمال المشروع إلا الفترة من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني، وهذه الفترة من تاريخ الجزائر الثقافي كان موزعا بين المغرب وتونس حسب رأي الأستاذ، التي كان الأستاذ يتألم لعدم إتمامها..، وقد علمت من الناشر الذي يتعامل معه أنه أتمها قبيل وفاته وربما كانت من آخر ما أنتج رحمه الله، وحسب الناشر سوف تكون هذه المرحلة في أربعة أجزاء.

ودّع علامة الجزائر وعلامتها الدنيا ولم يأسف على شيء أسفه على الجزائر التي خصها الله كل شيء ومع ذلك هي محرومة من كل شيء، وأهم ما حرمت منه بكل أسف استقلاليتها الثقافية وتميزها الذي هي مطالبة به سياسة وثقافة واجتماعا وحضارة، وليس مزية "تتمزى" أو يتمزى بها مسؤولوها بها على أحد. طلبت من الأستاذ في نهاية الثمانينيات إفادتي بمراجع حول التغريب في الجزائر إذ كنت مكلفا بمحاضرة في مناسبة معينة، فقال لي وماذا تفعل بالمراجع؟ ها هي شوارع العاصمة تعج بكل ما تريد عن التغريب وأشكاله ومضامينه.. قال لي هذا الكلام بألم شديد وحسرة على اندثار قيم ثقافية وسياسية كانت تتمتع بها الحركة الوطنية قبل الاستقلال، وليس كما قد يتوهم المرء تهكما واستعلاء.

فرحم الله الفقيد وعوض الجزائر فريقا من أمثاله أو خيرا منه، وما ذلك على الله بعزيز.

48
ملخص لما سمعته من الدكتور أبو القاسم سعد الله عن معاناته من أجل طلب العلم

عبد الرحيم سعد الله

قد يعتقد البعض أن الدكتور أب القاسم سعد الله عاش حياته في أسرة ميسورة تمتلك نصيبا وافرا من الرزق يمكنها من تعليم أبنائها ويوفر لهم الراحة الجسدية والنفسية كما يحيا أصحاب المال. كلا، كلا.

لقد ولد ونشأ في أسرة فقيرة جدا كثيرة العدد، دخلها محدود جدا يأتيها من العمل الدؤوب والجهد المضني والصبر والأذى، فكانت تعيش على فلاحة النخيل في سوف وأقول في سوف وما يتطلبه غرس النخيل من جهد ومشقة مقابل مردود ضئيل، وعلى القليل من فلاحة الدخان الذي كان يسقى بطريقة تقليدية خطيرة جدا ومتعبة للغاية.

عاش ظلم الاستعمار الفرنسي المسلط على المجتمع الجزائري بالقوة، وعاش مراحل الحرب العالمية الثانية وشاهد ما كانت تفعله السلطة باقتصاد مستعمراتها، حيث كانت تحوله إلى أوربا أين تدور.......

وتترك المجتمع يعيش الفقر والخصاصة، ورأى حرقة والده أو أي رب عائلة غيره عندما يرجع من السوق ولا يحمل شيئا لعياله لأنه لا يجد ما يشتريه

من مؤونة حتى ولو توفر عنده الثمن.

سأله صحافي سعودي مرة:

من هو أب القاسم سعد الله ؟ فأجابه: "أنا نتاج بيئتي الصغيرة ونتاج عصر شامل، فقد رأيت النور في واحة بالصحراء الجزائرية، وبينما كنت أحفظ القرآن الكريم في الجامع كنت أمارس أيضا الفلاحة مع أهلي في الواحة (قمار) وكانت الشركات الفرنسية تمتص عرق جبين والدي وإخواني، لأنها كانت تحتكر مردود دخلنا الوحيد وهو القليل من التمر والدخان، وكانت تأخذهما بأبخس الأثمان وتبيعهما في أوروبا بأغلى الأثمان، وقد شاهدت في صغري ما يصنع الجهل والفقر والمرض بالإنسان، ولم أعرف متع الحياة ولذة العيش أثناء دراستي لا في تونس في جامع الزيتونة، ولا في مصر بدار العلوم، فقد كانت دراستي في هذين البلدين مغامرة يخفف مكن وطأتها الإيمان بالعلم والهروب م جحيم البيئة وطموح الشباب، أما الجمع بين لذة العلم ولذة العيش (ماديا) فلم أعرفه إلا أثناء دراستي في الولايات المتحدة الأمريكية عندما حصلت على منحة لتحضير الماجستير والدكتوراه.

في هذه البيئة وهذا الجو المشحون نشأ أبو القاسم سعد الله وفي الخامسة من عمره أدخل كتاب القرية ليحفظ شيئا من القرآن الكريم قبل أن يحتاجه أهله للمشاركة في الحياة العملية، وحتى يستقيم لسانه ويشرب حب القرآن في قلبه.

وكانت والدته ـ كما يذكر كبار العائلة ـ حريصة على تحفيظه وتعليمه القرآن والعلم الشريف اقتداء بأخيها الشيخ محمد الحفناوي هالي الذي حفظ القرآن من قبل وتخرج من جامع الزيتونة، فاكتسب حظا كبيرا من الاحترام والتقدير.

تولى تحفيظه القرآن الكريم في منطقة البدوع الشيوخ: (1) عمر مني (الأشلح) أحمد بن........ تلحيق (3) وأخيرا الشيخ بلقاسم بن البرية (زبيري)، الذي رأى فيه استعدادا خاصا إلى جانب أطفال آخرين، فتولاهم برعايته واجتهد في تحفيظهم القرآن الكريم، وكان والداه يوجهانه كل ليلة إلى عمه محمد (وهو والدي) ليكرر عليه ما حفظه في يومه.

لما بلغ الخامسة عشر من العمر تم حفظ القرآن الكريم وكرره ثلاث مرات وصلى به التراويح في المسجد وعندئذ تقرر إرساله إلى جامع الزيتونة بعد جدال وصراع بين الأم والأب، فالأم مصرة على إرساله لطلب العلم والأب يرى وجوب معاملته مثل إخوته الأكبر منه، فكلهم يريد أن يتعلم والظروف المعيشية لا تتحمل غيابهم، لكن بتشجيع من الشيخ محمد الطاهر التليلي عدل عمي عن رأيه، وقبل فكرة اختياره من بين إخوته للعلم، لكنه أرجأ موعد سفره إلى تونس إلى حين توفر مصاريف السفر وللإشارة فإن الشيخ التليلي كان صديقا لوالد الدكتور وصهرا له، وكلاهما ينتمي للحركة الإصلاحية.

انتظر أبو القاسم جمع أبيع لمصاريف السفر عامين كاملين من سنة 1945 إلى سنة 1947، وأثناء فترة الانتظار نصحه بعض من سبقه إلى الزيتونة بحفظ بعض المتون الأساسية لمواجهة الاختبار المنتظر إجراءه عليه عند الدخول.

وفي خريف 1947 توفرت المادة للوالد وأرسل إلى تونس رفقة شباب من قمار سبقوه في الدراسة بالزيتونة، ويذكر أنه بمناسبة سفره الأول جيء له بحذاء من مخلفات إخوانه، فلما لبسه أحدث له جراحا في رجليه مما أعاقه على المشي تماما، فاشترى له رفاقه (صندال) على نفقتهم من قسنطينة تعويضا للحذاء

المؤذي ليواصل به الطريق. وللإشارة فإن هؤلاء الزملاء منهم متن توفي رحمه الله، ومنهم من هو على قفيد الحياة كعبد الرزاق بوجلخة، ومحمد علي بني، أما المتوفي فهو البشير محمودي.

مكث في تونس سبع سنوات ـ سكن في السنة الأولى منها في مدرسة تابعة لجامع صاحب الطابع في حي الحلفوين مع مجموعة من الطلبة القادمين من بعيد. وفي السنوات الست الباقية سكن في جامع القصر الذي يقع في باب منارة مع قيم الجامع، وهو شيخ يشرف على الأذان وفتح الأبواب وإقامة الصلاة، أصله من قمار من عائلة الشيخ عبد القادر الياجوري، المعروف بنضاله وصلابته في الحركة الإصلاحية، كان هذا القيم قد هاجر من قمار في الثلاثينات مجاهدا في فلسطين، ثم أدى فريضة الحج وعاد فاستقر في تونس ولازم المسجد المذكور فأسكن في البيت المخصص للقيم، وأسكن معه أبا القاسم سعد الله الذي يصف حياته معه بقوله:

"في العادة كان عشاء وغذاء الحاج مامه ـ واسمه الحقيقي محمد الياجوري ـ فهو يذهب إلى إحدى دور المحسنين فيعطيهم قفة بها أواني فارغة، فيعطونه أكلا في أواني أخرى، وهكذا في أوقات معينة ودقيقة كل يوم وكل ليلة، وطبعا كان يشاركني في هذا الأكل.

هكذا كانت حياتي في تلك الفترة التي دامت ست سنوات، وبذلك أعفيت الوالد من المصاريف علي إلا أجرة السفر... ".

وعلى المتتبع لهذا الموضوع أن يستشف أو يستخلص ما بدا له ويفهم ما يريد لكنه هكذا عاش ودرس بتونس.

تخرج من الزيتونة سنة 1954 وكان يطمح لمواصلة الدراسة الاستمرار في طلب العلم، وكان يأمل في الحصول على منحة إلى المشرق العربي، لكنه صدم بالرفض لأن هذه مخصوص بها الطلبة المنتسبون إلى معاهد جمعية العلماء والمتخرجون من الزيتونة، لكنه لم ييأس، وقرر العودة إلى الجزائر ليتدبر أمره، وحل بالعاصمة في شهر نوفمبر 1954 وعين من طرف جمعية العلماء بمدرسة الثبات بالحراش التي كان يديرها الشهيد الربيع بوشامة، فقضى بها بضعة أشهر ثم انتقل إلى مدرسة التهذيب بأعالي العاصمة والتي كان يديرها الشيخ محمد الحسن فضلاء.

فأتم بها السنة الدراسية إلى غاية جوان 1955، ويذكر أنه كان يتقاضى 17 ألف فرنك شهريا مدة تدريسه بالعاصمة ولم يكن يصرف منها إلا القليل مما جعله يجمع 100 ألف فرنك، وحينها بدأ يبحث عن جواز سفر لكي يذهب إلى المشرق بإمكانياته الخاصة بعد أن حرم من منحة جمعية العلماء، وكان الدافع لذلك الإرادة والعزيمة والتصميم على طلب العلم، ولما تقدم بطلب للحصول على جواز السفر طلبوا منه شهادة إقامة لمدة ستة أشهر، فلم يحصل عليها لعدم استقراره في مكان واحد كل هذه المدة، فقصد قسنطينة باعتبار أن منطقة وادي سوف تابعة لها إداريا فقوبل بنفس الطلب (شهادة إقامة)، ونفس الطلب واجهه في الوادي أيضا، ترك دراهمه عند والده رحمه الله بعد أن نصحه البعض بالذهاب إلى تونس لعله يجد من يساعده في هذا الأمر.

سافر إلى تونس، واتصل بأحد أصدقائه المقيمين هناك وهو الشيخ علي خلف الذي كان صهرا للشيخ الطاهر جميل شيخ الجالية القمارية القاطنة بتونس،

وبتدخل من هذا الأخير حصل على شهادة الإقامة بسهولة باعتباره أقام ودرس بتونس، وبهذه الإقامة استخرج جواز سفر فرنسي مقابل دفع عشرة آلاف فرنك، ثم اقتطع تذكرة بالطائرة إلى القاهرة على شركة طيران فرنسية، فوجد نفسه قد صرف المبلغ الذي جمعه من قبل فيها، وكان يأمل أن يعيش به مدة في القاهرة.

سافر إلى مصر عن طريق مطار ليبيا وتعرض لإجراءات إدارية مشددة كالمساءلات والحصول على التأشيرة مما اضطره لإطالة مدة السفر.

يقول الدكتور أبو القاسم رحمه الله:

نزلت بنا الطائرة في مطار الماظة ليلا، وبعد استكمال إجراءات التحقيق المطولة (...) خرجت من المطار، وكنت لا أدري أين أذهب لأني لم أكن أعرف أحدا هناك وكان معي عنوان مكتب جمعية العلماء بالقاهرة الذي أخذته من الشيخ العربي التبسي في الجزائر، فغامرت وتوجهت إلى حيث المكتب، وطرقت الباب بعد منتصف الليل، ففتح لي الشيخ البشير الإبراهيمي بنفسه، واستقبلني فيه، وبعد معرفته لسبب قدومي، أبدى بعض الغضب من هذه الزيارة المفاجئة وقال لي: "لماذا لم تعلمونا من قبل حتى نقوم بإجراءات التسجيل في الجامعة، والتي في الأصل قد تمت في شهر جويلية هنا، والآن قد أصبحنا في بدايات شهر أكتوبر".

يقول الشيخ أبو القاسم:

"وفي الحين بدأت المساعي للتسجيل في الدراسة الجامعية، ولكنها باءت الفشل في البداية، وأصبح الشيخ الإبراهيمي محرجا من حضوري، ففرص التسجيل في جامعات القاهرة ضئيلة والمشكلة عويصة، فأخذ يفكر، هل يبقيني معه ؟ أو يرسلني إلى العراق التي جامعاتها ما تزال تقبل تسجيل الطلبة في تلك

الأيام، وإمكانية الدراسة بها أسهل من مصر ؟

يقول: "وبقيت من أواخر شهر سبتمبر إلى غاية أوائل ديسمبر وأنا في هذه المعاناة من الترقب والانتظار، ومن دون دراسة ولا دخل أو عمل، وأما مصاريف الإقامة والأكل فلم أكن أملك منها سوى ما تبرع به لي الشيوخ: العربي التبسي ـ الربيع بوشامة ـ خالي الحفناوي هالي، والمقدر بـ: 25000 ألف فرنك، والذي قدموه لي عند سفري إلى مصر، وقالوا: "إنه في سبيل العلم"، أو ما كنت أتقاضاه مما كنت أكتبه في جريدة البصائر مما كانوا يطلقون عليه "رسالة القاهرة" آنذاك.

أما الإقامة، فبعد انقضاء مدة الضيافة بمكتب جمعية العلماء بالقاهرة مع الشيخ البشير الإبراهيمي والتي دامت خمسة عشر يوما، وقبل أن تتضح معالم مستقبله الدراسي، أخذه طالبان جزائريان معهما وهما أبو القاسم الجبالي من بلدة سيدي عمران بوادي سوف، والتارزي شرفي من خنشلة، وأسكناه معهما في ضاحية المعادي، حيث قضى معظم سنين الدراسة في بيتهما.

وكان ينام على حصير مفروش على الأرض مع بعض الغطاء والوضاء البسيطين، أما الطبخ فقد كان كل واحد يعتمد على نفسه في تحضير وجبات غذائه، ونظرا للظروف المادية القاسية التي أطاحت به فإنه كان أحيانا يطبخ مرة في كل ثلاثة أيام، وذكر أنه إذا دعاه أحد لاحتساء قهوة معه فإنه يشبعها بالسكر حتى يولد عنها الطاقة.

كل هذه المعاناة وكل هذا الحرمان والصبر على المكروه فعله من أجل العلم وللعلم فقط وكان أمله ـ كما يذكر ـ أن يكون إنسانا مثقفا، لذلك تراه في كلتا

المرحلتين ـ مرحلة تونس ومرحلة القاهرة ـ كان ينظم الشعر ويكتب القصة وينشر المقالات الأدبية وينشرها في الصحافة على امتداد الوطن العربي.

وبعد القاهرة حصل على منحة دراسية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي جامعة منيسوتا حصل على الماجستير والدكتوراه في التاريخ سنة 1965 وهو أول جزائري يحصل على الدكتوراه في التاريخ، وبين سنتي 1965 ـ 1967 اشتغل أستاذا في جامعة أكلير، وبعدها التحق بجامعة الجزائر، وهنا تبدأ رحلة البحث والتأليف والتنقل والسفر عبر العالم من أجل ذلك.

قمار في: 30/ 12/ 2013

عبد الرحيم سعد الله

ابن عم شيخ المؤرخين الجزائريين

49
قراءة لغوية في كتاب العدواني
بقلم الأستاذ محمد الصالح بكوش

. قسم الترجمة . جامعة الجزائر

مقدمــة:

لا شكّ أنّ كثيراً من الناس تساءلوا عن أهمية كتاب العدواني وعن المجال الذي يدرج فيه، فمنهم من اعتبره يصنف ضمن الكتابات التاريخية، ومنهم من عدَّه تراثاً شعبياً لما تضمنه من حكايات وقصص ومغامرات، ومنهم من اصطلح على تسميته بالأدب الشعبي نظراً للغة المستعمَلة فيه وللنوادر والملح والحكايات الطريفة التي يزخر بها الكتاب، ومنهم من لم يعره اهتماماً على أساس أنه لا يقدم أية معلومات جادّة ودقيقة قد يستفيد منها الباحث خاصة والقارئ العادي عموماً.

وإن ما أثار انتباهي إلى هذا الكتاب هو خصوصيته وتميزه عن الكتب الأخرى التي قد تكون مملة، فسرعان ما يتوقف القارئ عن تصفح بعض الوريقات، أما كتاب العدواني ففيه نكهة خاصة تجعل القارئ لا يتوقف عند حدّ معين، بل يسعى إلى إتمامه في قراءة بنفس واحد. ومن جهة أخرى، قبل اطلاعي على الكتاب لاحظت أن بعض الباحثين ينقلون بعض الشواهد منه فاكتشفت لغةً متميزة فيها كثير من الاعوجاج الذي كان يجب أن يقوّم. وبما أنّه لم يتجرأ أحد على دراسة لغة الكتاب (باستثناء الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي درسه

بصفة عامة)، قررت أن أدرسها بطريقة منهجية وأن أرصد الأخطاء وأحاول تصحيحها ربما يستفيد منها القارئ غير العالم بكثير من التعابير العامية، وربما يجد الكتاب من يعيد صياغته بلغة فصيحة لأنه يبدو أنّ العدواني قد ظلم إلى حدّ كبير بسبب أخطاء النساخ ولأنني أعتقد أنّ العدواني لا يمكن أن يقع في ذلك الكمّ الهائل من الأخطاء على الرغم مما قدمه من معلومات تندرج ضمن أطر مختلفة تاريخية واجتماعية وتراثية وثقافية وغيرها.

1. عصـر العـدواني:

يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله في تحقيقه لكتاب " تاريخ العدواني" أن محمد العدواني عاصر محمد بن سليمان صاحب كتاب "كعبة الطائفين" وعبد الكريم الفكون صاحب كتاب "منشور الهداية" في القرن الحادي عشر الهجري، فيقول كأنّ هؤلاء المؤلفين الثلاثة كانوا يكتبون بروح واحدة رغم انهم قد لا يكونون التقوا أبداً، ورغم بعد المسافات بينهم عندئذ. ولعلّ الفرق أن ابن سليمان كان يستوحي مجتمع تلمسان وأنّ الفكون كان يستوحي مجتمع قسنطينة، أما العدواني فقد كان يستوحي مجتمعاً بدوياً حكمت عليه الأقدار والطبيعة أن يتصارع حول بعض الواحات وآبار المياه والمراعي أو حول مدن ثانوية مثل القيروان وقفصة وتوزر وبسكرة[1].

2. أفكـار عن الكتـاب:

تظهر كتابات العدواني ثقافةً واسعةً بالنسبة لعصره، فكان يحفظ القرآن ويستدل بآياته في عدّة مناسبات. وهو يحفظ الأخبار ويروي الطرائف، وله رصيد لغوي قويّ وأمثال شعبية كثيرة، أما ثقافته الصوفية فتظهر في حديثه عن

الشابية وشيوخ القادرية ورحلاته الخيالية، وفي المخطوط ما يدلّ على أنّ الشيخ العدواني كان قادريّ الطريقة، وفي كتاباته ما يفيد الزهد في الدنيا ومتاعها (2).

ويرجح الأستاذ أبو القاسم سعد الله نسخة الشيخ أحمد حراز على أنها أفضل النسخ التي اطلع عليها ويقول فيها إنّ خطها على العموم جيّد، وهي في الغالب من نسخ الشيخ محمد بن محمد الشريف المصعبي، من أهل وادي سوف،.. وليس هناك ما يدلّ على وقت نسخها (3).

3. أفكار حول لغة الكتاب:

يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله وهو يتكلم عن لغة الكتاب إنه حاول أن يجد جواباً على عدم نشر تاريخ العدواني حتى ذلك الوقت. فقال لعلّ ذلك يرجع إلى لغته الشعبية، فهو تاريخ مكتوب بلغة هي أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، والناس يميلون إلى تحقيق الأعمال الجادّة ذات اللغة الفصيحة والأساليب المهذّبة... فهو كتاب يدخل فيما يُسمّى بالأدب الشعبي، فلغته وعادات الناس الذين يتحدث عنهم، والمرأة والأساطير التي يرويها، والحكايات والمغامرات والكرامات الخ.. كلّ ذلك يجعل منه قطعة من الأدب الشعبي الذي حين تقرأه، فكأنما أنت تقرأ قطعة من تغريبة بني هلال أو ألف ليلة وليلة، أو كما لاحظ بعضهم يصبح كتاباً صالحاً للقراءة في الأسمار والمجالس للتسلية والعبرة والتفكه وتوسيع مجال الخيال. إنه من هذه الناحية أشبه ما يكون بكتب الملاحم، فيها الواقع والخيال والأسطورة (4).

ويجب الإشارة إلى أنّ الأستاذ أبو القاسم سعد الله أدخل بعض التعديل على الناحية الشكلية للكتاب، إذ يقول إنه حين عزم على تحقيقه قام بعمل أوليّ

يتمثل في تقسيم النصّ إلى فقرات، ففي كلّ فقرة فكرة أو خبر أو حادثة...وقام أيضاً بوضع النقط والفواصل، وبتقسيم آخر للمخطوط وهو اختيار عناوين مناسبة لكلّ فقرة يعالجها المخطوط. وقد كان قبل ذلك نصّاً واحداً متصّلاً بدون فواصل ولا عناوين ولا فقرات (5).

وإنّ ما يلاحظه القارئ هو أنّ المخطوط مكتوب بأسلوب يكاد يكون عاميّاً أوهو أقرب إلى العامية منه إلى الفصيح. ولذلك يُنصح أن يقرأ القارئ أغلبه كما يقرأ نصّاً دارجاً، فالإعراب واتباع القواعد النحوية يكاد يختفي من لغة النصّ والرسم الإملائي لا قاعدة له. فلغة أكلوني البراغيث هي القاعدة السائدة، وحرف الجرّ لا يكاد يجرّ، فهو تارة يرفع وتارة ينصب، وسم كان وخبرها واسم إنّ وخبرها لا تخضع لقواعد الإعراب هنا. وأحياناً تنوب الضمّة عن الواو والنون، وكذلك أدوات الجزم والنصب لا تعمل هنا عملها بإتقان.

وبناء على النطق المحلي فإنّ القاف يقلب غيناً والغين قافا أحيانا، والسين والصاد، والضمائر لا قاعدة لها هنا، فنون النسوة للغائبات تختفي ليحلّ محلها ضمير الجمع المذكّر الغائب [6].

وحيال لغة النصّ هذه، احتار الأستاذ أبو القاسم سعد الله كيف يتعامل معه، فيقول قد كان عليه أن يقرر أن يترك النصّ على ما هو عليه حفظاً للأمانة والتنبيه العام على ما فيه والطريقة التي يجب أن يقرأ بها، وإما أن يلجأ إلى إعرابه كله فيعيد صياغته بطريقة كلية أو جزئية. وفي هذه الحالة سيمس نصّاً لا حقّ له أن يتدخل فيه من الوجهة التاريخية والعلمية. وحفظاً للأمانة ترك النصّ على ما هو عليه وقام بالتنبيه العام في أول العمل ليعرف القارئ أيّ نصّ يقرأ [7].

ويبدو أن العدواني كتب أو أملى كتابه بالأسلوب العامي أو القريب منه، ولكنه عامي متفصح إذا صحّ التعبير. ثمّ أخذ النساخ ينسخون من النسخة الأصلية، وكلما كثرت النسخ كثرت الأخطاء لجهل النساخ بالقواعد الإملائية والنحوية. والظاهر أنّ نسخة الشيخ خراز كانت تكتب بطريق السماع لا العين، لأنّ بعض الأخطاء هي أخطاء سماعية، وهي ليست مطّردة، بل نفس الكلمة أو التعبير يوجد تارة على شكل وتارة على شكل آخر، رغم أنّ الناسخ في أغلب الظنّ واحد والخطّ واحد[8].

ويمكن أن نستخرج ما يُسَّمى بلغة العدواني، لغة القرن العاشر والحادي عشر الهجريين في الواحات البعيدة عن التأثر الخارجي سواء كان التأثير عثمانياً أو إفرنجياً، بل إنّ تأثير اللهجات البربرية لا يكاد يظهر في بعض الأعلام. ولذلك فإنّ لغة العدواني هي لغة بني هلال وبني سليم الباقية على صفاتها و"بداوتها" رغم البعد عن منابتها وتقادم العهد بها. ويتبين في ذلك أنها لغة حُبلى بالمعاني والدلالات والرموز[9].

ويذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله أنه وجد بعض الكلمات ترسم على الشكل المتداول الآن وأحياناً بشكل آخر، فكتبها موحدة برسم اليوم. وقدّم بعض النماذج من الرسم الذي كان شائعاً في المخطوطات بأسرها ولاحظ أن كثيراً من الكلمات تتبع في رسمها السماع[10]، ويعترف أنه صحّح الكثير من الأخطاء فيقول إنّ ما كان من هذه يرجع إلى الرسم والإملاء، وحّده مع رسم وإملاء الاستعمال الحاضر، أما ما كان منه يرجع إلى اللغة أو النحو أوالصرف، فقد تركه على حاله مع التنبيه أحياناً في التعليق على ما لا يستقيم المعنى إلا

بالتنبيه عليه، كالتقديم والتأخير وبعض التراكيب النحوية أو الصرفية المضطربة ...كما أنه رأى بعض العبارات أو الألفاظ غير مناسبة للذوق العام، ففضّل الاستغناء عنها وتعويضها بنقاط بين قوسين، هكذا (...) وقد استعمل هذه الطريقة في مناسبتين فقط الأولى عند ذكر كلمة (الكلاب) والثانية عند وصف الرافضة، فحذف كلمة (الكلاب). أما العبارة التي حذفها بخصوص الرافضة (الخوارج) فقد كانت نشازاً، فالراوي عبّر بعبارة خارجة عن الموضوع عندما سُئل عن الرافضة (11).

ويقوّم الأستاذ أبو القاسم سعد الله كتاب العدواني قائلاً إنه وجد عبارات تدل على أنّ العدواني كان يؤلف "كتاباً" له بداية وله نهاية، على الرغم من أنه لم يقسمه إلى فصول وأبواب كما نفعل نحن اليوم. ففي عدد من المرات كان يذكر أمراً ويقول إنه سيتحدث عنه في آخر الكتاب (مثلا في الصفحات: 107، 109، 132) أو يقول عندما وصل إلى مرحلة متقدمة من عمله أنه سبق أن ذكر كذا في الكتاب (مثلا في صفحة 150). وفي تاريخ العدواني قصص ومغامرات وحروب ومعارك وفروسية، وفي هذه القصص والمغامرات بعض السذاجة والاحتكام إلى الغرائز، ولكنها تأتي في شكل مسرحيات فيها الحبكة الجيدة والتآمر والقتل والهروب والحيل والغدر. إنّ تاريخ العدواني يمكن أن يقرأ من هذه الزاوية على انه قطعة طريفة من الأدب الشعبي الذي يحتوي على الخيال والتنوع والمفاجأة والألفاظ المنغومة ذات الوقع السحري على النفس (12).

وينقل الأستاذ أبو القاسم سعد الله آراء مختلفة عن كتاب العدواني فقال هذا فيرو (مترجم كتاب العدواني) يقول إنّ العدواني كان يقصّ بأسلوب متنوع

ولكنه أسلوب بسيط جدّاً لدرجة يمكن معها تسميته بالشعبي...أما الشيخ محمد الطاهر التليلي فقال إنّ هذا التاريخ أشبه بقصة عامية، من قاصّ بين جماعة أميين، بلغة دارجة محلية سوقية أو جريدية، لا تتعدىٰ سرد الغرائب والنوادر، وحكايات أصحاب البوادي ومجالسهم العامة. فلا يعول علىٰ أكثر مافيه لا من حيث التاريخ ولا من حيث اللغة ولا من حيث الأسلوب إلا مع عاضد من غيره وسند من سواه[13].

4 . خصوصية لغة العدواني:

لقد أحصيت أربعة أنواع للغة العدواني، ففي النوع الأول لاحظت اختلافاً في رسم الكلمات الحالية، وقد أشار الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلىٰ ذلك[14]، وعلّق علىٰ بعضها قائلاً إنه بناء علىٰ النطق المحلي، فإنّ القاف يقلب غينا والغين قافا أحيانا، مثل زغلوم وزقلوم. والسين والصاد، مثل فرس وفرص[15]، وقد أحصاها في جدول[16]، ولم يبق إلا القليل منها الذي رصدته ووضحته في جدول فيما يلي.

أما النوع الثاني من لغة العدواني فهو استعماله لبعض الكلمات والعبارات بمعنىٰ خاص يخالف معناها الأصلي، فاستخرجتها ووضعت معناها في النص الأصلي مستعينا بشروح الأستاذ أبو القاسم سعد الله أحيانا ومستخدما درايتي في أحيان أخرىٰ. ويعدّ النوع الثالث وقد أخذ حصة الأسد هو استعمال القواعد النحوية والصرفية بطرق تفتقد إلىٰ الدقة والتمحيص، وقد قسمت هذا النوع إلىٰ عشرة أصناف ووضعتها في جدول يتضمن العبارة الخاطئة وتصحيحها وصفحة النص التي وردت فيها. وتجدر الإشارة أنه في بعض الأحيان يرد خطأ في الأول

ثم يكتب صحيحا بعد ذلك، أو يكون صحيحا ثم يقع الخطأ، وفي أغلب الأحيان يقع هذا الأمر في نفس الصفحة، بل في نفس الفقرة، كما ورد في الصفحة 92 مثال أقام وقام، أربعون وأربعين، وأعتقد أنّ الخطأ في هذه الحالة يعود إلى النساخ وليس إلى المؤلف.

أما النوع الرابع، فيحوي أمثالا وحكما بلغة عربية فصيحة [17]. وفيما يلي أمثلة عن كلّ نوع:

أولاً: اختلاف الرسم

على الرغم من أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله قد صحح الأخطاء في رسم الكلمات، إلا أنه لا تزال توجد كثير من الكلمات يختلف رسمها عما هو موجود الآن.

الأمثلة:

ـ أسماء العلم: *أحمد بن أبو العزيز (137)[18]، أحمد بن عبد العزيز (146)، أحمد بن عزيز، أحمد بو عزيز.

* قصر طينة (138)، إقسنطينة (80)، اقسمطينة (82)، اقسمطين (83).

* زلغوم (184)، زغلوم، (زلقوم).

* دوفان (184)، دوبان، (دبان).

ـ هاه = ها هو (156، 158، 209، 220)

ـ نش عليهم الغارة = شنّ عليهم الغارة (184، 186)

ـ يقرئ = يقرأ (189)، قراية = قراءة (141).

ـ دهمت القبائل = داهمت القبائل (179).

ـ قاموا عنده = أقاموا عنده (176).

ـ أفشى غليله = شفى غليله (175).

ـ منه الوالي؟ = من هو الوالي؟ (161).

ـ طلق عنانه = أطلق عنانه (153، 174، 200).

ـ لا يصفح عن الكلام = لا يفصح عن الكلام (136).

ـ معنا = معنى (127).

ـ هل = أهل (128).

ثانياً: اختلاف المعنى

تستعمل بعض الكلمات والعبارات بمعان تختلف عما اعتاد عليه المتكلم للغة العربية الفصحى، ففي بعض الأحيان تستعمل الكلمات بمعان مخالفة للمعنى الأصلي، وفي أحيان أخرى تستعمل استعمالا مجازيا.

الأمثلة:

ـ يا شيخ البركة = أيها الشيخ الصالح (153)، يا شيخ الصواب = يا حكيم (147).

ـ بَالْحَقّ = حقيقة، فعلا (208، 211، 217، 221).

ـ بَالْحَقّ؟ = أحقاً؟ (سؤال) (144).

ـ يفصح = يفحص، يبحث (150، 151، 154).

ـ آكلين الهندي = أكلو التين الشوكي (171).

ـ قاربصهم = سروجهم (170).

ـ يتريض = يتنزه (168).

ـ أثنى عليه = انثنى عليه (171).

ـ يريد زواجها = يريد تزويجها (160).

ـ أهل غرض = أهل فوضى ومنازعات (95، 182).

ـ أرض الغرض = أرض المنازعات (94).

ـ نرجو = ننتظر (199، 206).

ـ يلوِّج = يفتش (85، 89، 90).

ـ قلة الصواب = سوء التدبير (96).

ـ لووا الأدبار = ولوا الأدبار (101).

ـ على رأسك = انتظر، مهلا (117، 128).

ثالثاً: استعمال القواعد النحوية والصرفية

لم يلتزم العدواني بالقواعد النحوية والصرفية في اللغة العربية، فقد قسمت هذه الحالات الشاذة إلى عشرة أنواع. يتمثل النوع الأول في تصريف الفعل في الجمع لأن فاعله في صيغة الجمع، والحالة الثانية هي استعمال الجمع عوضا من

المثنى، بينما يوجد في الحالة الثالثة خلط في استعمال الضمائر، وتميزت الحالة الرابعة بعدم استعمال التمييز العددي بطريقة سليمة، كما هناك خلط في استعمال اسم الموصول واسم الإشارة في الحالة الخامسة، وأذكر في الحالة السادسة شذوذ استعمال الجوازم والنواصب، أما الحالة السابعة فاستعمل العدواني الضمة عوضا من الواو، والكسرة عوضا من الياء، أو العكس، وفي الحالة الثامنة هناك خلط بين عمل الأفعال اللازمة والأفعال المتعدية، وفي الحالة التاسعة ذكرت بعض التعابير التي لم يتضح فيها المعنى بسبب التقديم والتأخير، وفي الأخير رصدت بعض الأمثلة المتنوعة التي كانت فيها استعمالات لحالات أخرى صرفية ونحوية.

1 . **تصريف الفعل في الجمع لأنّ الفاعل في صيغة الجمع:**

اعتقد العدواني أنه يجب أن يتفق الفعل مع فاعله في صيغة الجمع في الجملة الفعلية، فأتت جمل عديدة تستعمل الفعل في الجمع لأنه متبوع بفاعل في صيغة الجمع.

الأمثلة:

ـ أتوا إليهم بني مرين = أتى إليهم بنو مرين (134).

ـ حتى أتوه أهل الواد (وادي ريغ) = حتى أتاه أهل الوادي (139).

ـ امرأة قد خطبوها بني عمها = امرأة خطبها بنو عمها (153).

ـ ركبوا بني هلال = ركب بنو هلال (156).

ـ كثروا أولاده = كثر أولاده (170).

ـ بعثوا أهل قفصة = بعث أهل قفصة (170).

ـ فلما رأوا بني مزروع صاحبهم = فلما رأى بنو مزروع صاحبهم (172). ـ حدثوه أكابر قومه = حدثه كبار قومه (186).

ـ لما رأوهم النساء = لما رأتهم النساء (187).

ـ هكذا حدثونا الشيوخ = هكذا حدثنا الشيوخ (188).

ـ ويقتلوه أهل دولته؟ = لماذا لم يقتله أهل دولته (مادام يتعامل مع النصارى) (195).

ـ خرجوا أهلها ودخلوا الترك = خرج أهلها ودخلها الأتراك (200).

ـ فأتوا إليه الناس = فأتى إليه الناس (218).

ـ فسكتوا كلّ الأمراء = فسكت كلّ الأمراء (220).

2 . **استعمال الجمع عوض المثنى:**

يبدو أن العدواني ألغى المثنى من اللغة العربية وهي صيغة تتميز بها اللغة العربية عن اللغات الأخرى التي لا يوجد بها إلا المفرد والجمع.

الأمثلة:

ـ لقوا (أبو زيد وعليّ) إلى زماننا وأعجتهم وقاموا فيها ورجعوا إلى قومهما وسألوهما = لقيا إلى زماننا... وأعجتها وقاما فيها ورجعا إلى قومهما (94).

. لازال القتال بينهما = لازال القتال بينهم (85).

ـ فصاروا حليف قريش = فصارا حليفي قريش (80).

ـ أنتما... خروجكم بظهوركم = أنتما... خروجكما بظهوركما (92).

ـ أكل هو وعبده حتى شبعوا = أكل هو وعبده حتى شبعا (124).

ـ أتيا شيخنا... يلتمس من علمه... (يسكنان فيه) وهم يقرأون = أتيا شيخنا... يلتمسان من علمه.... (يسكنان فيه).. وهما يقرآن (125).

ـ هو وأبيه يأكلون الصنعة = هو وأبوه يأكلان الصنعة (132).

ـ يعجن الخبز برجليه ورأيت عليهم = يعجن الخبز برجليه ورأيت عليهما (190).

ـ حتى وصلوا إلى تونس (الهادف ورجل آخر)، فدخلوا، وسلموا، وهنوه، وجلسوا = حتى وصلا تونس فدخلا، وسلما، وهنآ، وجلسا (219).

3 . **استعمال الضمائر:**

لقد وقع خلط كبير في استعمال الضمائر، بحيث لا يوجد فرق بين المذكر والمؤنث، والجمع والمفرد والمثنى، والمتكلم والمخاطب والغائب.

الأمثلة:

ـ القصور يتعبدون فيهم = القصور يتعبدون فيها (90).

ـ فأخذ ظهور خيولهم...فأطلقوا أعنة خيولهم إلى أن أدركوا قومهما = فامتطيا ظهور خيولهما فأطلقا أعنة خيولهما إلى أن أدركا قومهما.. (93).

ـ فشكت أهل إفريقية للأمير = فشكى أهل إفريقية إلى الأمير (95).

ـ إن كانت عندكم جنودا أتى بها = إن كان لديكم جنود أتى بهم (94).

ـ يأخذ ابنه أو ابنته ويبيعاه له = يأخذ ابنه أو ابنته ويبيعهما إليه (140).

ـ نحن نولوك على رقابنا = نحن نوليك على رقابنا (141).

ـ اشترى الملك (ابراهيم واسماعيل) = اشتريا الأملاك (151).

ـ صار الشرفاء يخرج = صار الشرفاء يخرجون (152).

ـ فتقدمت إليهم فنظروا إلي وقالوا = فتقدمت إليهن فنظرن إلي وقلن (154).

ـ أتبعني نمضيا... وندخلا = اتبعني نمضي ...وندخل (157).

ـ صارت الناس تأوي إليه = صار الناس يأتون إليه (163).

ـ ينبغي لنا أن نعطوك = ينبغي أن نعطيك (166).

ـ وكذلك الرجال كلها = وكذلك الرجال كلهم (177).

ـ ما هن؟ (ثلاثة قرى) = ما هي؟ (194).

ـ وما هي؟ (الشرط) = وما هو؟ (217).

4 . **استعمال التمييز العددي:**

لا تنطبق في بعض الأحيان قاعدة التمييز العددي بالخلط بين استعمال المذكر والمؤنث في الأعداد المفردة، وبين استعمال الأعداد الثنائية.

الأمثلة:

ـ ستة سنين = ست سنين (84).

ـ ثلاثة ليالي = ثلاث ليال (87).

ـ خمسة عشرة سنة = خمس عشرة سنة (88).

ـ اثني عشرة امرأة = اثنتي عشرة امرأة (119).

ـ إحدى عشر رجلا = أحد عشر رجلا (127).

ـ أربعة وعشرون قبيلة = أربع وعشرون قبيلة (143).

ـ مدة اثني عشر سنة = مدة اثنتي عشرة سنة (151).

ـ عليك بثلاثة مسائل = عليك بثلاث مسائل (158).

ـ قيمته خمسة مائة دينارا = قيمته خمسمائة دينار (170).

ـ قتل مائة وخمسون فارسا = قتل مائة وخمسين فارسا (174).

ـ اشترى أربعون عبدا = اشترى أربعين عبدا (198).

5 . **استعمال اسم الموصول واسم الإشارة:**

لم يحترم استعمالهما في التذكير والتأنيث والمفرد والجمع.

الأمثلة:

ـ البوادي الذين = البوادي التي (80).

ـ بقية طرود الذي = بقية طرود الذين (103).

ـ على ذلك الهيئة = على تلك الهيئة (88).

ـ هذه البيت = هذا البيت (131).

ـ إن الذي أتوا إليك = إن الذين أتوا إليك (155).

ـ ما هذه الرجال الذي معكم؟ = من هؤلاء الرجال الذين معكم؟ (188).

ـ ينفذ تلك الماء = ينفذ ذلك الماء (192).

6 . **استعمال الجوازم والنواصب:**

لا يوجد فرق في بعض الأحيان في استعمال الجوازم أو النواصب، كما انه عند الجزم لا يحذف حرف العلة في الأفعال المعتلة الآخر.

الأمثلة:

ـ لا تخلف أحد منهم = لم يتخلف أحد منهم (91).

ـ لا نجا إلا من طال عمره = لم ينج إلا من طال عمره (98).

ـ إذا كبروا لم يعرفوا أحدا غيركم = إذا كبروا لن يعرفوا أحدا غيركم (102).

ـ لا أعطيتك شيئا = لا أعطيك شيئا (115).

ـ لم نرا = لم نر (126).

ـ لم ننسوا = لم ننس (143).

ـ وهم يقاتلوا = وهم يقاتلون (143).

ـ ألم يقرأ ولم يصلي؟ = ألم يقرأ ولم يصل؟ (146).

ـ والله ما ننزل = والله لا أنزل (155).

ـ فلما استتم كلامها حتى أتت إلينا = فلم تمم كلامها حتى أتت إلينا (155).

ـ لم نأب عليهم دونك = لا آبى عليهم دونك (155).

ـ لا بقي في قلبي شيء = لم يبق في قلبي شيء (157).

ـ وحق الشيخ إلا ما قلت لك إلا الصواب = بحرمة الشيخ ما قلت لك إلا الصواب (158).

ـ نحن لم نأخذوا تعب خيلنا = نحن لم نأخذ تعب خيلنا (185).

ـ والله لا خفنا منك ولا منه = والله لا نخافك ولا نخافه (185).

ـ لا متكلم اليوم منهم أحد = لم يتكلم منهم أحد اليوم (199).

ـ أنا لم نرى ما قلت = أنا لم أر ما قلت (217).

ـ من لم يأتيني = من لم يأتني (219).

7 ـ استعمال الضمة عوضا من الواو، والكسرة عوضا من الياء، أو العكس:

يلحق الفعل بضمة عوضا من الواو مع ضمير الجمع المذكر المخاطب في حالة الرفع، ويلحق بكسرة عوضا من الياء مع ضمير الجمع المذكر المخاطب في حالة النصب أو الجرّ، وتستعمل الواو في حالة المتكلم الجمع.

الأمثلة:

ـ أتركونا نتزوجوا العبيد = أتركونا نتزج العبيد (99).

ـ نحملوا موتانا ونستريحوا = نحمل موتانا ونستريح (100).

ـ لا يولى عليكم ظالما تخاف منه = لا يولى عليكم ظالم تخافونه (102).

ـ ننكروا الولاية = ننكر الولاية (102).

ـ ونأتوا للأمير = ونأتي إلى الأمير (118).

ـ نريد منكم أن تدع الله = نريد منكم أن تدعوا الله (126).

ـ إن أولاد يعقوب يأتوا إلينا ويأخذ سعينا ويقتل إرجالنا = إن أولاد يعقوب يأتون إلينا ويأخذون سعينا ويقتلون رجالنا (128).

ـ نجتمعوا مع بعضنا البعض = نجتمع معا (96).

ـ قتلو لي، ولم ننسوا = قتلوا لي ولم ننس (143).

ـ حتى نصلوا مصر = حتى نصل مصر (158).

ـ فصارت كلابهم يشربون منها = فصارت كلابهم تشرب منها (164).

ـ تناموا على الحلفاء = تنام على الحلفاء (179).

ـ يعمل هذا وأكثر = يعملون هذا وأكثر (186).

. يأخذ عليكم الجزية = يأخذون منكم الجزية (204).

ـ يقولوا هؤلاء يحبوني = يقول هؤلاء يحبونني (209).

8 . **استعمال الأفعال اللازمة والأفعال المتعدية:**

استعمل العدواني بعض الأفعال المتعدية كأنها لازمة تتعدى بحرف

جر، أما الأفعال اللازمة فإنه يستعمل معها عادة حرف الجر غير المناسب.

الأمثلة:

ـ تزوجوا بنساء = تزوجوا نساء (80).

ـ ركبوا على خيولهم = ركبوا خيولهم (117).

ـ انتقل قاصدا إلى واد ريغ = انتقل قاصدا وادي ريغ (132).

ـ وهو يرعى بغنمه = وهو يرعى غنمه (164).

ـ يترقب فينا = يترقبنا (210).

ـ يسمع فيهم = يسمع كلامهم (213).

ـ والله أعلم على تأويل رؤياك، فجزاه الله بخير = والله أعلم بتأويل رؤياك، فجزاه الله خيرا (131).

ـ ترعى إبلهم على موضع = ترعى إبلهم بموضع (في موضع) (88).

ـ واجتمعنا عليه = واجتمعنا معه (108).

ـ يزودنا شيء من الأكل = يزودنا بشيء من الأكل (158).

ـ تستهزئ علي = تستهزئ بي (158).

ـ فقبضوه وأتوه على المتولي = فقبضوا عليه وأتوا به إلى المتولي (217).

ـ أرسلها الله علينا = أرسلها الله إلينا (220).

ـ نهر عليه = نهروه (85، 96، 98).

ـ ندلهم للطريق الرباني = ندلهم على الطريق الرباني (126، 127، 132).

ـ نزلوا على قرية = نزلوا قرية (84، 97). استعمل نزل على، نزل بـ، نزل في..

9 . **استعمال التقديم والتأخير:**

إن الكلام في اللغة العربية يتطلب ترتيبا معينا قارا في بعض الأحيان وهو ما لم يراعيه العدواني مما أدخل الغموض على الأفكار.

الأمثلة:

ـ من أين أنتما من القبائل؟ = من أي القبائل أنتما (90).

ـ كلما وجدناه فيها من الطعام والتمر أكلناه = أكلنا كل ما وجدناه فيها من طعام وتمر (101).

ـ وأي حاجة يصنعونها؟ = وماذا يصنعون؟ (140).

ـ لو وجدتم قوة تقتلونهم أو معونة تهلكونهم؟ = لو كانت لكم قوة أتقتلونهم؟أو تلقيتم معونة، أتهلكونهم؟ (145).

ـ أخبرني عن عدوان كم هي قبيلة = أخبرني عن عدد قبائل عدوان (146).

ـ في أي يوم ترجع إلى وطنك؟ = ما هو اليوم الذي ترجع فيه إلى وطنك؟ (147).

ـ وكل واحد أعطاه ما يليق به = وأعطى كل واحد ما يليق به (150).

ـ التارق الذي جماعته مع غيرها تقاتلوا = التارق الذي تقاتلت جماعته مع غيرها (157).

ـ فمنهم من؟ = فمن منهم؟ (165).

ـ كان مزروع والده صاحب رياسة = كان والد مزروع صاحب رياسة (168).

ـ الذين يشربون لبان البقر يغلبوكم؟ = كيف يغلبكم الذين يشربون لبن البقر (174).

10 . **استعمال حالات أخرى:**

بالإضافة إلى ما تقدم من حالات، توجد حالات أخرى مختلفة رصدتها فيما يلي:

الأمثلة:

ـ نحو أربعون سنة = نحو أربعين سنة (92).

ـ دخلها رجلين يسأل عن = دخلها رجلان يسألان عن (94).

ـ الأولاد المذكورة = الأولاد المذكورين (103).

ـ حملنا ما مات منا وما إنجرح = حملنا من مات منا ومن جرح (105).

ـ إلى صباح غدا = إلى صباح الغد (105).

ـ إعطي نصف مالي = إعط نصف مالي (أمر) (107).

ـ فنزل بها بني قايد = فنزل بها بنو قايد (114).

ـ إعطيه الحظ الأوفر = أعطه الحظ الأوفر (124).

ـ كان فيها رجلين = كان فيها رجلان (125).

- قال سيدي المسعود للرجلان = قال سيدي المسعود للرجلين (126).

- لا نجدوا من يقاتل علينا = لا نجد من يقاتل من أجلنا (128).

- أنا خائفا مرعوبا = أنا خائف مرعوب (130).

- إنما هو وأبيه كالأرضة = إنما هو وأبوه كالأرضة (132).

- افهم إن كنت عاقل = افهم إن كنت عاقلا (135).

- والنساء لاحقين أثرهم = والنساء لاحقين على أثرهم (152).

- ما هذا الذي معك؟ = من هذا الذي معك؟ (157).

- نحن في رأي الخميري = نحن نتبع رأي الخميري (مع رأي) (181).

رابعا . لغة فصيحة:

وعلى الرغم مما تقدم من حالات لا تراعى فيها الصيغ اللغوية السليمة، فإن العدواني استعمل لغة فصيحة في الأمثال والحكم، وهذه بعضها:

- الزاب للطعام، والجليد للتمر، ووادي ريغ للصوف

- خارج الوطن (الغريب) ملهوف.

- العاقل من أدرك خبر غيره.

- لا تجتمع الحرمة وتمام النعمة.

- سوف مانعة الهارب.

- الفقر بهلول العقلاء.

ـ كل بقعة لنا فيها نصيب وفيصل.

ـ النخيل والبنيان معدن الذل.

ـ إن الذل هوان.

ـ المال قاطع الرقاب ويقرب الأبعاد. (209).

ـ الزيادة والنقصان في الخبر نقص من حظ العاقل (141).

ـ الزيادة في الخبر نقص (142).

ـ العداوة في حليب الضروع.

ـ هو باز على قفاز (183).

الخاتمة:

يتضح من هذه الدراسة أن كتاب العدواني يتميز بلغة خاصة تنتمي إلى عصر معين وإلى محيط جغرافي محدد بالرغم من أنها استمدت أصولها من اللغة العربية الفصحى. وإن هذه اللغة أعطت لكتاب العدواني نكهة خاصة عبرت تعبيرا صادقا عن لغة سوف والمناطق القريبة منها، بحيث كان ذلك التنوع اللغوي للغة العربية يفهم ولايزال في مناطق شاسعة من شرق الجزائر وغرب وجنوب تونس. والحكم الأولي على لغة العدواني هو أنها قريبة جدا من اللغة الفصحى وإن أدخلت عليها بعض التحويرات في النطق والرسم، خاصة وكأنها لغة شفهية أكثر منها لغة مكتوبة.

الهـواش:

1) ص ص: 13 ـ 14.

2) ص: 21.

3) ص: 35.

4) ص ص: 11 ـ 13

5) ص: 26.

6) ص: 27.

7) ص: 27.

8) ص: 27.

9) ص ص: 27 ـ 28.

10) ص: 30.

11) ص ص: 32 ـ 33.

12) ص ص: 44 ـ 45.

13) ص ص: 49 ـ 50.

14) ص: 30.

15) ص: 27.

16) ص ص: 30 ـ 32.

17) للمزيد من المعلومات حول لغة العدواني وسوف، انظر: ثريا التجاني، دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري: وادي سوف نموذجا، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998، ص ص: 174 ـ 196.

18) الأرقام بين قوسين تشير إلى الصفحات في كتاب تاريخ العدواني.

الصفحة	الكلمة أو العبارة	معناها
85، 89، 90	يلوّج	يفتّش
101	يفصحوا عنهم (وكتبت صحيحة في صفحة 116)	يبحثوا عنهم
99	ـ غلبوا	أنهكهم التعب
101	مغضبة	غاضبة
101	خديما	خادمة
103	الوقعة	الواقعة
91	إلى هلم جرا	إلى آخره
94	أرض الغرض	أرض المنازعات
95	أهل غرض	أهل فوضى
96	قلة الصواب	سوء التدبير
101	لوّوا الأدبار (كتبت صحيحة في صفحة 105)	ولّوا الأدبار

88	كيف تصبّ النّوّ	عندما ينزل المطر
117، 128	على رأسك	انتظر، مهلاً
121	فتم أمره على ذلك	وافق
103	بالحقّ؟ (للاستفهام)	هل هذا صحيح؟
113	بالحقّ	معك الحقّ، حقيقة
111، 126	يا شيخ البركة	أيها الرجل الصالح
107	بوفيّة الغرض	المقصود بالذات
115	بحرام جواد وقطع ذراعي	أقسم بحرمة الجواد وقطع الذراع
131	عرضه له	لقيه
131	عرضوه	تلقوه، استقبلوه
129	عرضنا (سيدنا)	لقينا
104	اشُغُلنا	عَمَلَنا
104	أحدروا	انحدروا
110	قبض	تملّك
114	ما أشُوَم	ما أشأم

117	ياخذوا بخاطر (أميرهم)	يسايرون
123	كي نعثر في دمك	كي لا نتورط في قتلك
124	أوئ النزول	همّ بالنزول والاستقرار
126	سيمة	علامة الطاعة والتدين
127	قِم (عندنا)	أقِم
127	أقِم (معه)	أقام
129	يأكلون رمضان	لا يصومون
131	كلّ رزقكم	كلّ ما عندي لكم

الصفحة	الخطأ	الصواب
117، 120	هـــاهُ	ها هو
104	اسبيطل	سبيطلة
107	واقعة (منازعة)	واقعت
116	أقصُصُ	أقصّ
80، 82، 83	اقسنطينة، اقسمطينة اقسمطين	قسنطينة

127، 127، 111	أحمد بن عبد العزيز، احمد بن عزيز، أحمد بوعزيز	أحمد بن عبد العزيز
116	قضي (حوائجه)	قضاء
116	رضوبي	رضوا بي
118	بُطا (الخبر)	أبطأ
118	فخرّجوه	فأخرجوه
123	يتوضّى	يتوضأ
125	نصرىٰ	نصرانية
125	-لم نجاوبهم	لم نجبهم
125	يُقرهما	يُقرئهما
127	بقت عمارة	بقيت عامرة
127	معنا	معنىً
128	هَلْ	أهل

1 ـ تصريف الفعل في الجمع لأنّ الفاعل في صيغة الجمع:

الصفحة	الخطـأ	الصـواب
87	ذكروا الناس	ذكر الناس
87	خربوها أصحاب عثمان بن عفان	خربها أصحاب
89	كانوا طرود من إفريقية	كان طرود
90	يأتوا إليهم العرب	يأتي العرب إليهم
103	وبقوا بقية عدوان	وبقي بقية عدوان
98	يقتلوا ذرية العبيد زوجتي	يقتل أبناء العبيد زوجتي
83	أتوا أربعمائة رجل	أتى أربعمائة رجل
92	خرجوهم منها ابن مرين	أخرجهم منها ابن مرين
93	فاجتمعوا قومهما	فاجتمع قوماهما
91	قالا له الرجلان	قال الرجلان له
91	أتوا إليه الناس	أتى الناس إليه
81	أتوا معه ثمانون نجعا	أتى معه ثمانون نجعا

113	أسلموا على يديه ثلاثة وعشرون رجلا	أسلم على يده ثلاثة وعشرون رجلا
114	فقالوا لها أهلها	فقال لها أهلها
117	فحملوا أولاده ما عنده	فحمل أولاده ما يوجد عنده
119	فركبوا أربعة مائة فارس	فركب أربعة مائة فارس
119	فخرجوا أهلها في الربيع	فخرج أهلها في الربيع
127	فقبضوه أهل اللجة	فقبض عليه أهل اللجة
127	أتوه الناس	أتاه الناس
127	لحقوا بنا أهل اللجة	لحق بنا أهل اللجة
128	أتوا أربعون نفرا ومائة	أتى أربعون نفرا ومائة

2ـ استعمال الجمع عوض المثنى أو العكس:

الصفحة	الخطـأ	الصـواب
94	لقوا (أبو زيد وعليّ) إلى زمانا وأعجتهم وقاموا فيها ورجعوا إلى قومها وسألوهما	لقيا إلى زمانا... وأعجتها وقاما فيها ورجعا إلى قومها
85	لازال القتال بينهما	لازال القتال بينهم

80	فصاروا حليف قريش	فصارا حليفي قريش
92	أنتما... خروجكم بظهوركم	أنتما... خروجكما بظهوركما
124	أكل هو وعبده حتى شبعوا	أكل هو وعبده حتى شبعا
125	أتيا شيخنا... يلتمس من علمه... (يسكنان فيه) وهم يقرأون	أتيا شيخنا...يلتمسان من علمه... (يسكنان فيه) وهما يقرآن.

3 ـ الخلط في استعمال الضمائر:

الصفحة	الخطـأ	الصـواب
90	القصور يتعبدون فيهم	القصور يتعبدون فيها
93	فأخذ ظهور خيولهم...فأطلقوا أعنة خيولهم إلى أن أدركوا قومهما	فامتطيا ظهور خيولهما فأطلقا أعنة خيولهما إلى أن أدركا قومهما..
95	فشكت أهل إفريقية للأمير	فشكى أهل إفريقية إلى الأمير
84	إن كانت عندكم جنودا آتي بها	إن كان لديكم جنود أتي بهم

50
الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله مترجما
بقلم الدكتور محمد الصالح بكوش

معهد الترجمة ـ جامعة الجزائر

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله مترجما، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان

الباحثين الجامعيين، إعداد وتقديم وتصنيف عبد الكريم بوصفصاف، ط1، قسنطينة، رجب 1429 هـ ـ جويلية 2008،

صص. 192 ـ 208.

مقدمة

لقد ترددت في تناول هذا الموضوع بالدراسة، ليس بسبب صعوبة الخوض فيه، ولكن بسبب المكانة التي يحتلها الاستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله على الصعيد الوطني والعربي والإسلامي، بل حتى العالمي. ولا شك أن كل مثقف جزائري نزيه أو مواطن عادي يرغب في سماع هذا العلم من أعلامنا الأفذاذ وهو يوجه كلمة، أو يجيب في حوار، أو يلقي محاضرة، ويرغب أكثر في رؤيته والتحدث والاستماع إليه ليتمتع بأسلوبه الشيق ومنطقه السليم وتواضعه

المتناهي. لكن ماذا لو اقترن اسم ذاك المثقف باسم هذا العالم المعلّم، الباحث المدقّق، الرائد القدوة ؟

وإنه لا يخفى على أحد أن الأ ستاذ الدكتور أبا القاسم سعد الله موسوعي في بحثه يسير على نهج العلماء العرب المسلمين الأولين الذين يخوضون في كل علم ويسهبون فيه. فهذا العالم لا يقنع بجزء واحد من كتاب حول موضوع معين، بل يتوسع في الموضوع، دون إطناب، فالفكرة تتولد عنها أفكار، والكتاب يصبح كتبا. وربما يصدق هذا القول أكثر على الدراسات التاريخية الي اختص فيها منذ حوالي أربعين سنة، لكن الأغرب من هذا اقتحامه لميادين أخرى وإبداعه فيها، فكتب في الأدب والرحلة، ونظم القصائد الشعرية، وحقق المخطوطات، ومارس الترجمة، خاصة نقلا عن اللغة الإنكليزية.

ونتناول بالبحث في هذه الكلمة مساهمته في النقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وسنكتشف عبقرية أخرى بالإضافة إلى عبقريته في كتابة الدراسات التاريخية المتميزة. وسنحاول دراسة نص الترجمة بعيون المترجم، أي سنستعين بآرائه في كيفية التعامل مع مختلف النصوص وفي كيفية التخلص من الصعوبات. وسنبدأ بعرض ترجمة الكتب والمقالات، وذكر ملاحظات وتعليقات المترجم على المصطلحات والاساليب المستعملة في النصوص الأصلية، كما نشير إلى اللغة التي نقل عنها المترجم، ثم نورد بعض كلامه عن الترجمة والمترجمين، ونقدم بعد الملاحظات حول تعامل المترجم مع اللغة الأولى (اللغة الأصل) ونركز خاصة على اختياره المصطلحات، وننهي الدراسة باستنتاجات تتعلق بمهارة الترجمة عند الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله.

أولا: الكتب والمقالات المترجمة

يغلب على الكتب والمقالات المترجمة طابع التخصص، فهي نصوص تاريخية تدخل في صميم تخصص المترجم، وكما أشرنا آنفا فسنترك المترجم يقدم لنا هذه الكتب والمقالات. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أننا سنتناول عرضا للكتب، فالمقالات، ثم تلخيص الكتب.

I. ترجمة الكتب

ترجم الأستاذ أبو القاسم سعد الله خمسة كتب هي:

حياة الامير عبد القادر، الحركة الوطنية 1900 ـ 1930، شعوب وقوميات، الجزائر وأوروبا: 1500 ـ 1830، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي.

حياة الأمير عبد القادر (1)

مقدمة المترجم مطولة (24 صفحة): تحدث فيها عن:

1 ـ زيارته للأماكن التي جرت فيها أحداث الكتاب واستفاد من الحديث إلى بعض علماء المنطقة في موضوع الكتاب. وبرر ذلك بأن نقل الكتاب من لغة أجنبية إلى العربية يستلزم إعادة كثير من الألفاظ والمصطلحات إلى أصلها العربي نطقا وكتابة. وإن نقل النص من لغة ذات حروف لاتينية إلى أخرى مماثلة ليس فيه مشقة البحث عن أصول الكلمات العربية كالتـــي يواجهها من ينقل من لغة ذات حروف لاتينية إلى العربية. ومن أجل ذلك وجد صعوبة شاقة في إعادة كثير من أسماء الأعلام والقبائل والأماكن الواردة في الكتاب إلى أصلها العربي، لآن معظمها لم يعد مستعملا في حين ترجمة الكتاب. فاتصل بأهل البلاد لمعرفة

أصول تلك الاشياء.

2 ـ نتقد الخرائط وقوائم القبائل التي وضعها بعض ضباط المكاتب العربية من الفرنسيين فيقول إنها لم تحل المشكلة لأنها محرفة ومكتوبة بالحروف اللاتينية وخاضعة لمقاييس نطق اللغة الفرنسية. ويضع أمثلة: ارسيبيا (Ersibia) عوض خصيبية، جبل نوسموت (Nusmut) عوض مسمط.

3 ـ استشهد المؤلف بعدد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي أعادها المترجم إلى أصولها العربية.

4 ـ ذكر كيف غدا اهتمامه بالكتاب فعزم منذ إعداده لرسالة الدكتوراه على نقله إلى العربية لاقتناعه بأهميته. فبدأ في ترجمته منذ سنة 1969، ونشرت منه عدة فصول في مجلة (المجاهد الثقافي). ويذكر أنه بعد الانتهاء من الترجمة العربية ظهرت في السوق الترجمة الفرنسية التي قام بها السيد ميشيل هابار.

5 ـ أشار إلى أن هذه الترجمة أول عمل مطول قام به على الرغم من أنه سبق له أن ترجم بعض الأعمال الأخرى. وفي هذا لإطار يلاحظ أن اللغة الانكليزية في تطور مستمر وان تعابير وأسلوب القرن التاسع عشر قد أصبحت صعبة أو غير مستصاغة اليوم. ولذلك فإن نقل عمل كهذا مطبوع سنة 1867 لا يخلو من صعوبة ومن مشقة. بالاضافة الى أن المؤلف كان يكتب أحيانا بأسلوب اختصاصي دقيق حين يصف المعارك والمناورات الحربية. أو بأسلوب أدبي رومانتيكي حين يتعرض لوصف آمال الأمير ومهارته وشخصيته وكلا الاسلوبين صعب على المؤرخ الذي له هو أيضا أسلوبه في الكتابة والنقل والاستيعاب.

ويقول المترجم انه على الرغم من انه لا يملك النص العربي الاصلي لمعاهدة

ديميشيل فقد استطاع ان يعثر على النص الفرنسي الذي قيل انه ترجمة امينة للنص العربي الاصيل، ويعلق المترجم قائلا: من الالفاظ التي اختلف فيها النص العربي والنص الفرنسي في هذه المعاهدة استخدام عبارة 'قناصل' في النص العربي وعبارة 'ممثلون' في النص الفرنسي،كما ان كلمة 'السوق عند الامير تعني حرية العرب في الذهاب الى اسواق الموانئ الثلاثة المذكورة في المعاهدة للبيع والشراء، وحرية 'السوق' عند ديميشال تعني التعامل التجاري على النطاق الدولي.

ب) الحركة الوطنية الجزائرية: 1900 . 1930 (2)

هذا الكتاب هو عبارة عن رسالة دكتوراه تقدم بها الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ونال بها الدكتوراه في خريف سنة 1965. وصدر أولا سنة 1969، وورد في مقدمة الطبعة الثانية أنه "قام بترجمته وتقديمه للقراء لأنه كان يرى أن ذلك يسد فراغا هائلا في المكتبة التاريخية العربية، ولم يشأ أن يغير من أصله شيئا عندئذ..... فقد عاد بالنقد إلى نص الترجمة فشذب وهذب ما وسعته المعرفة والذوق لآن العمل المترجم (في رأيه) ليس كالعمل الموضوع. وكانت الأمانة العلمية قد فرضت عليه أن يحافظ ما أمكن على الأصل. ويمكن للقارئ أن يقارن بين أسلوبه كمترجم في الجزء الثاني وأسلوبه كمنشئ في الجزء الثالث " في نفس سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية التي تضم أربعة أجزاء.

أما في الطبعة الثالثة فإنه "نقح بعض العبارات وأضاف بعض المعلومات التي يفترضها تطور البحث في التاريخ الوطني".

ويرى في مقدمة الترجمة أنه "منذ حصل على الدكتوراه قرر تعريب أطروحته لان تعريب هذا العمل سيصله بالقارئ العربي، بعد أن وصله بالقارئ

الأجنبي. ويعترف بأنه قد واجه بعض الصعوبات في تحقيق الترجمة. وبعد تمعنه انتهى إلى تعريب جميع المراجع في الهوامش، مع ملاحظة أنه غالبا ما استعمل النطق الانكليزي في تهجئة الأسماء الأجنبية. كما أنه أعاد المراجع العربية، التي ظهرت في الاطروحة بالانكليزية، إلى لغتها الأصلية. ومن جهة أخرى، استعمل طريقة الاختصار التي طبقها في الأصل، مثل اختصار أهم أسماء الدوريات الطويلة. ويقول إنه على الرغم من اطلاعه على معلومات هامة عن الموضوع لم تكن لديه عند كتابة الأطروحة، فإنه لم يستخدمها في الترجمة.

وقد ترجم مقدمة الأصل الانكليزي، وفصول الأطروحة السبعة، والهوامش الواردة في البحث، والملاحق: فكان الملحق الأول (نص البيان الموجه للجزائريين عشية الاحتلال سنة 1830)، نقله عن النص الانكليزي كما ظهر في الأطروحة. وأورد في الملحق الثاني نصين باللغتين العربية والفرنسية (ترجم النص الفرنسي) نقلا عن ميشال هاربار. أما الملحق الثالث فهو رسالة حمدان خوجة إلى " اللجنة الإفريقية " سنة 1833. والملحق الخامس رسالة الأمير خالد إلى هيريو سنة 1924. والملحق السابع: برنامج نجم إفريقية الشمالية سنة 1933. ولم يذكر المترجم هل هذه النصوص مترجمة عن النصوص الانكليزية (نص الاطروحة) أم عن نص فرنسي أم من أصل عربي.

ويعد الملحق الرابع (مطالب الجزائريين من فرنسا سنة 1912)، ترجمة عن النص الانكليزي كما ظهر في الاطروحة، وقد أضاف في نص الترجمة بعض الكلمات بين قوسين للشرح. ويعد الملحق السادس (القانون الاساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، مأخوذا من النص العربي.

ج) **شعوب وقوميات** (3)

يتضمن الكتاب أبحاثا شخصية للأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله ومراجعات لمؤلفات كتبت في الأصل باللغة الانكليزية، قدمها لأساتذته عندما كان طالبا بجامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية،. وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية بعد مضي نحو عشرين سنة وقد ترجمها في ثلاثة بلدان، وهي الولايات المتحدة الأمريكية وتونس والجزائر في المدة الممتدة من سنة 1966 إلى سنة 1983.

تتميز هذه الترجمة بأن المترجم وضع أسماء العلم الأجنبية بالحروف اللاتينية بعد كتابتها بالحروف العربية. كما أنه أدرج في الترجمة بعض المصطلحات باللغة الإنكليزية، مثل (irredentism)، (chauvinist)، (Postal Orders)، (exigenous) Mountainguns (Balkanization). وترجم عبارتين وكلمة باللغة الإيطالية (Eco di Tripoli)، (Banco di Roma)، (Reconsertrato)، وعبارة باللغة الفرنسية (L'Alliance Française) وكلمات باللغة الانكليزية (appeasement)، (deal)، (urbanization)، والاختصار (N. A. T. O).

وأدرج في آخر هذا البحث المراجع التي أشار إليها في الهوامش.

كما ترجم تعاليق أساتذته وتصرف في عنوان كتاب، أصل عنوان الكتاب: القياصرة: قوة وجنون. ترجمه: فيليب العربي ـ قيصر الروم. وأشار إلى أنه لم ير داعيا لترجمة خطة لمادة درس، كانت مرفقة بالمراجعة التي قدمها لأستاذه مكتوبة باللغة الأنكليزية.

د . **الجزائر وأوروبا: 1500 . 1830** (4)

العنوان الأصلي هو: الساحل الأفريقي: الجزائر في عهد الأتراك.

(The Barbary Coast: Algiers under The Turks)

صدر الكتاب سنة 1979 وقام المترجم بترجمة مقدمة المؤلف، والفصول الستة عشرة، والمختصرات، وكلمة حول المصادر، ومقدمات عن كثير من المصادر والمراجع، وترجم الهوامش أيضا. كما وضع فهارس للكتاب شملت 28 صفحة، ومقدمة المترجم في سبع صفحات. ووضع تعاليق رمز لها بنجمة متبوعة بكلمة (مترجم) بين قوسين، خاصة حول الأسماء العربية التي أعادها إلى أصولها، ونبه إلى أخطاء كتابتها، وحول الأخطاء التاريخية. وو ضع في بداية الكتاب ترخيص المؤلف له بترجمة الكتاب محررا باللغة الانكليزية.

وعلق المترجم على اختياره هذا الكتاب للترجمة بقوله إنه جذبه العنوان الأصلي لأنه يتناول بلاده، كما جذبه اسم المؤلف الذي سبق أن عرفه من المؤرخين البارزين في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد عزم على ترجمته إلى العربية لينفع به القراء الراغبين في معرفة دور الجزائر في التاريخ. وقد غير المترجم العنوان الأصلي لأنه رأى تعسفا في الحكم على الجزائر العثمانية من منظور التجربة الأوروبية.

وقد انتهى المترجم من ترجمة الفصلين الأول والثاني سنة 1982، ثم توقف عن الترجمة حوالي سنة ونصف. وعاد إليها في ربيع سنة 1984، وانتهى منها في خريف نفس السنة. ولم يبق إلا مراجعة الترجمة والتعليق عليها، وترجمة المصادر والمراجع ومقدمة المؤلف.

ويذكر المترجم عدة صعوبات واجهته، تتمثل في مصطلحات معروفة

استعملها المؤلف بمعان مختلفة، منها المصطلحات (Algiers)، (The Maghrib)، (Barbary)، وفي ترجمة تدخلات المؤلف وهو يقدم المصادر والمراجع ويعلق عليها، وفي ترجمة المصطلحات البحرية التي ترجم بعضها وترك البعض الآخر بنطقه الأصلي فكتبه بحروف عربية.

II . ترجمة المقالات:

لم تقتصر الترجمة عند الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله على ترجمة الكتب، بل ترجم المقالات أيضا، منها مقالات من تأليفه وأخرى من تأليف غيره وسنذكر هذه المقالات حسب ظهورها في كل كتاب. ونبدأ بوضع عنوان الكتاب.

أ) منطلقات فكرية:

يحتوي هذا الكتاب على أعمال مترجمة وقد أضاف إليها المترجم بحثا عن (الثورة الثقافية في الصين) كان قد ترجمه سنة 1967.

1- ألبير كامو والثورة الجزائرية

كتب هذا البحث بالانكليزية الأستاذ جورج ج جوايو، ونشره في مجلة "يال للدراسات الفرنسية" (عدد ربيع 1960) صص. 10 ـ 19. ونشر المترجم هذه الترجمة في مجلة الثقافة، نوفمبر 1971، صص. 45 ـ 58. (5)

2- ثورة العالم الثالث

هذا بحث نشر في مجلة الآداب اللبنانية، عدد مارس 1967 (في شهر ديسمبر 1966 نظمت جامعة ويسكنس بمدينة أوكلير (أمريكا) ندوة عن ديناميكية الثورة اشترك فيها عدد من الأساتذة الجامعيين، وتحدث كل منهم عن

ثورة من الثورات المعروفة كالثورة الأمريكية والفرنسية والروسية. وقد شارك الكاتب بهذه الكلمة عن " ثورة العالم الثالث ثم ترجمها بنفسه إلى العربية. (6)

3- الثورة الثقافية في الصين

إن مؤلف هذا المقال هو الأستاذ أ. ل ويلرايت، أستاذ الاقتصاد في جامعة سيدني (أستراليا). كان قد زار الصين عام 1966 بدعوة من الأكاديمية الصينية للعلوم، لكي يدرس الاقتصاد الصيني. وقد ظهر هذا المقال أولا في مجلة "آوت لوك" الاسترالية (عدد فيفري 1966)، ثم بعث به المؤلف نفسه إلى مجلة "مانثلي ريفيو" الأمريكية الاشتراكية المستقلة التي نشرته في عدد مايو 1967. وترجم المترجم هذا المقال عن المجلة الأخيرة عندما كان في باريس، يوليو سنة 1967. وقد نشرت الترجمة في مجلة (المجاهد الثقافي)، السنة الأولى، العدد الثالث، سنة 1967، صص. 55 ـ 65. (7)

ب) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر:

الجزء الأول:

يلاحظ المترجم في مقدمة الطبعة الأولى أن الكتاب يضم آراء مترجمة. وهي المقالات التالية: الحركة الوطنية الجزائرية: 1900 ـ 1930، انغيلز واحتلال الجزائر، أول اتصال للأمير عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين، الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830، العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي، فرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر: 1830 ـ 1848، الدولة والمجتمع في إفريقية الشمالية، العلاقات الجزائرية ـ الأمريكية.

1 . الحركة الوطنية الجزائرية: 1900 . 1930

إن المقالة عبارة عن خلاصة أطروحة دكتوراه المترجم نشرت في "ديسيرتيشن أستراكتز"، م27، عدد 3، 1966، ولقد أوردنا عرضا له في ترجمة الكتب.

2- انغيلز واحتلال الجزائر

هي مقالة فريد ريك أنغليز أرسلها في 22 يناير سنة 1848 لصحيفة "ذي نورثرن ستار" (Northern Star The) عندما كان مراسلا من باريس، وعلق فيه على استسلام الأمير عبد القادر واحدة في الأوساط الفرنسية، ثم عبر عن رأيه في الاحتلال الفرنسي للجزائر وعواقبه ويقول المترجم أنه رأى ترجمة ذلك الرأي إلى العربية نقلا عن المصدر المذكـــــور. وذلك لأهميته التاريخية والإيديولوجيه.

وأشار المترجم في الهامش إلى أنه أرسل المقالة من الولايات المتحدة الأمريكية إلى جريدة الشعب لنشرها، ولكنه لا يدري آنذاك (سنة 1976) هل نشرتها أم لا. (8)

3- أول اتصال للأمير عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين

هو عبارة عن مقال لرافائيل دانزيقر (Raphael Danziger) نشر في مجلة: الغرب الإسلامي (Revue de l'Occident Musulman) العدد 18، 1974، صص. 45 ـ 63.

وضع المترجم مقدمة في ثلاث صفحات (صص. 135 ـ 138). ويذكر المترجم فيها أنه نظرا لأهمية الوثائق التي استعملها المؤلف في هذا البحث ليتابع القارئ العربي تطورات الكتابة عن الأمير عبد القادر، ولاسيما لدى غير الفرنسيين، وليطلع على دبلوماسية الأمير رأى ترجمة البحث في مراحلها الأولى.

ويُقرّ المترجم أنه لم تترجم الخلاصة العامة عن تاريخ العلاقة بين الأمير والفرنسيين التي مهد بها الكاتب لبحثه. لأنه لاحظ أنها عامة تذكر حقائق تكاد تكون معروفة للجميع، كما أن الكاتب قد فصل القول في الأحداث المذكورة في الخلاصة في رسالته للدكتوراه وقد أعلم الكاتب المترجم في 23 يوليو سنة 1975 أنها ستنشر منقحة قريبا في الولايات المتحدة لهذا اكتفى المترجم بترجمة المقال ابتداء من معالجة موضوع الاتصالات التي وقعت بين الأمير والإنكليز والأمريكان. ونبّه إلى أنه ترجم النص والتعاليق أيضا لأهمية المصادر التي يشير إليها المؤلف، كما صور من نفس البحث الوثائق العربية الثلاث التي اعتمدها الكاتب وترجمها إلى الإنكليزية مع التعليق عليها، ولم ير حاجة إلى نقل ترجمة المؤلف مادام النص الأصلي موجودا. ونبه إلى المختصرات التي استخدمها. (9)

4- الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830:

هو بحث قدمه المترجم كجزء من واجبات الحصول على الماجستير بجامعة منيسوتا بالولايات المتحدة في أبريل 1962، ثم ترجمة إلى العربية ونشرته مجلة "الجيش"، عدد أكتوبر ونوفمبر 1970. والترجمة في هذا الكتاب مرفقة بالمصادر التي عاد إليها، لكنها لم ترتب حسب الحروف الهجائية. (10)

5- العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي

هذه مراجعة لكتاب الدكتور ارفينغ (W. Irving) كتبها المترجم كجزء من برنامج أطروحة الدكتوراه في مادة العلوم السياسية أثناء خريف سنة 1963. وقد رأى ترجمة هذه المراجعة عن الأصل الإنكليزي اعتقادا منه بأن ذلك قد يؤدي إلى زيادة فهم التطورات التاريخية لهذه المنطقة.

ونشرت هذه المراجعة في "المجاهد الثقافي"، عدد 9، سنة 1969 (11).

6- **الدولة والمجتمع في إفريقية الشمالية:** تحرير الدكتور ليون س. براون.

نشر المترجم هذه الكلمة باللغة الأنكليزية في (مجلة الدراسات الإفريقية الحديثة) التي تصدر ببريطانيا، عدد 4، م 4، 1967. ثم ترجمها إلى اللغة العربية ونشرها في (المجاهد الثقافي)، عدد4 يناير 1968 (12).

7- **فرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر: 1830 . 1848**

هذه مراجعة لكتاب سوين (J. Swain) قدمها المترجم في شهر فبراير سنة 1963 كجزء من واجبات الإعداد للدكتوراه في مادة التاريخ الأوروبي. وقد رأى ترجمة النص من الانكليزية. (13)

8- **العلاقات الجزائرية الأمريكية: 1776 . 1830**

يعد المقال جمعا للمعلومات حول الموضوع، لكن المترجم أقحمه ضمن المقالات المترجمة لأن الأستاذ الدكتور أبا القاسم سعد الله قد ترجم المعلومات المأخوذة من المصادر، وخاصة عن شيلر في كتابه (مختصر تاريخ الجزائر) وتتمثل الترجمة في الفقرات خاصة الواردة في الصفحات 281، 297، 299، 301. (14)

الجزء الثاني:

1- **عريضة الأمير خالد إلى الرئيس الأمريكي ويلسون 1919**

وضع المترجم مقدمة للعريضة في حوالي خمس صفحات وترجم العريضة كاملة، وكذلك الوثائق الثلاثة التي تولدت عنها: وهي رسالة من نوبل (Noble)، الضابط الأمريكي الذي قدم إليه الأمير خالد العريضة ليقدمها بدوره

الى كلوز (Close)، كاتب سر الرئيس ويلسون، ورسالتان من كلوز: واحدة إلى نوبل وأخرى إلى الأمير خالد. وكتبت هذه الرسائل الثلاثة باللغة الإنكليزية. ونشر المترجم تلك الترجمة في "مجلة التاريخ" العدد النصف الثاني من سنة 1981. وقد أرفقها المترجم في آخر الكتاب بصفحتين من العريضة وصورتين لرسالتي كلوز إلى الضابط نوبل وإلى الأمير خالد. (15)

2- سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن 19 م

هو عبارة عن بحث قدمه المترجم إلى أحد أساتذتهم بالجامعة بالولايات المتحدة الأمريكية، وترجمه بجامعة ميشيقان بتاريخ 24 يوليو سنة 1984، وأرفق نص الترجمة بقائمة لمصادر ومراجع مختارة باللغتين الأنكليزية والفرنسية. وأشار إلى الترجمة في آخر المقال. (16)

3- موقف أمريكا والجامعة العربية من حوادث 8 ماي 1945

هي عبارة عن ترجمة لبرقيتين الأولى من الوزير الأمريكي المفوض بالقاهرة تاك (Tuck) إلى كاتب الدولة للخارجية بتاريخ 21 يونيو 1945، والثانية من كاتب الدولة للخارجية بالنيابة إلى الوزير تاك بتاريخ 5 أكتوبر 1945. وبرقيتين مقتضيتين الأولى رد سفير الولايات المتحدة بباريس كافري (Coffery) على برقية وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ يوليو 1945، والثانية رد الخارجية الأمريكية بتوقيع أتشيسون على برقية القائم بالأعمال الأمريكي في مصر بتاريخ 13 نوفمبر 1945. وقد وضح المترجم مقدمة للترجمة شرح فيها أهمية الوثائق التي قام بترجمتها. (17)

4- تاريخ الثورة الجزائرية أو كتاب (حرب وحشية للسلام الجزائري 1954 ـ 1962): نشرت المقالة في " مجلة التاريخ " عدد النصف الأول من سنة 1982.

عرّف المترجم بالكاتب ثم عرض محتوى الكتاب. وقام بترجمة مقدمة الكتاب في عشر صفحات تقريبا، وعلق في الأخير على الكتاب (18).

5 . رحلة الغواطي في شمال إفريقية والسودان والدرعية

ترجم الرحلة من العربية إلى الانكليزية ويليام ب. هودسون، قنصل أمريكا بالجزائر، سنة 1830. ونقلها المترجم (الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله) عن الانكليزية ونشرها في مجلة التاريخ بالجزائر عدد النصف الثاني من سنة 1982.

قدّم المترجم الرحلة والمؤلف والمترجم هودسون، وترجم المدخل الذي قدم به هودسون للرحلة، وملاحظة ناشر الرحلة الانكليزي، وترجم نص الرحلة ووضع كل الهوامش الموجودة في مقدمة وفي نص الترجمة، فعلق على محتوى الرحلة وعلى ترجمة هودسون. هناك إشارة إلى هذه الرحلة في أفكار جامحة، مؤلفات وليام هودسون، صص. 139 ـ 141. (19)

الجزء الثالث:

هناك أعمال مترجمة عن الفرنسية أو الانكليزية، مثل دراسة إيمانويل سيفــان (SIVAN) عن نجم شمال إفريقية، وكتاب (جال) عن رحلة الداي حسين إلى فرنسا بعد سقوط حكمه في الجزائر.

1 . **نجم الشمال الأفريقي وجذور الحركة الوطنية:** بقلم ايمانويل سيفان (E. SIVAN) ظهر البحث في (مجلة المغرب الانكليزية، العددان 5 و6. نقل المترجم مقدمة المترجم ثم قدم فكرة عن نجم الشمال الافريقي. ثم لاحظ أنه نوى ترجمة (البحث) وتقديمه لقراء العربية ويقول إنه من الأكيد أن البحث لا يجيب على

كل الأسئلة، ولا يرضى كل راغب في الاطلاع مع ذلك قدمه في ترجمة أمينة، مضيفا إليها تعاليق قليلة للتوضيح. كما أنه حافظ على الرموز والمصطلحات التي استعملها الباحث، وكذلك البيبلوغرافية التي اعتمدها.

ونشرت الترجمة في حلقات متوالية بجريدة (الشعب) ابتداء من 29 ديسمبر 1987. (21)

2 ـ نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري

أ) نشرت في جريدة (الشعب) 22، 23 مارس 1987 هو عبارة عن عرض قام به المترجم لكتاب **خلال العيون الأجنبية: وجهات النظر الغربية نحو إفريقية الشمالية.**

Western Attitudes Towads North ،Through Foreign Eyes) Africa،Washington DC،1982، p 196.)، في حلقتين تكلم المترجم عن محتواه وأهميته، ثم تطرق إلى تاريخ العلاقات الجزائرية الأمريكية في أربعة مراحل، وفصل في كل مرحلة وعلق على أحداثها. وفي الأخير قدّم خلاصة للأفكار الواردة حول تلك المراحل.

ب) عرض ترجمة كتاب **الجزائر تمرد وثورة لجون** غلسباي إلى العربية عن الانكليزية وقد نالت به صاحبته شهادة الدكتوراه في الدبلوماسية والقانون من كلية فلاتشر سنة 1959، وماتت قبل طباعة الكتاب. (22)

ج) **وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة منيسوتا** (الولايات المتحدة الأمريكية): قدّمت المقالة للنشر في مجلة (الدراسات التاريخية) التي يصدرها معهد التاريخ، جامعة الجزائر.

د) رحلة تاسكا الإيطالي سنة 1606: كتبت بالايطالية، ترجم المترجم المعلومات البطاقية المتعلقة بالرحلة (المخطوط) المكتوبة باللغة الانكليزية. (23)

هـ) معاهدة الجزائر ـ فرنسا سنة 1666

وضع المترجم عرضا لها وقال إنّه لم تذكر اللغة الأصلية التي كتبت بها. (24)

و) معاهدات الجزائر ـ هولندا، سنوات 1680، 1713، 1726، 1757

كتبت إحدى المعاهدات باللغة الفرنسية والثلاثة الباقية بالهولندية، وذكر المترجم المعلومات المرفقة بالمعاهدة الأولى بالتفصيل، وذكر معلومات مقتضية عن المعاهدة الثانية، وعرض المعلومات الخاصة بالمعاهدة الثالثة وقال إنها ألحقت بها رسالة موجهة من الداي عبدي باشا إلى البرلمان الهولندي، وذكر ما نصّت عليه المعاهدة بكلام الدكتور دودو. (25)

أمّا المعاهدة الرابعة **حلول السلام والتجارة بين الجزائر وهولندا** فيقول إنها مترجمة عن الأصل المكتوب باللغة العربية.

ز) معاهدات الجزائر ـ انلكلترا 1671، 1687

قدّم المترجم عرضا لهذه المعاهدات وعلّق على المعاهدة الأولى بأنّ عنوانها **بنود** (Articles) وليس معاهدة (Treaty). (26)

3 ـ زيارة الداي حسين باشا لباريس 1831

نشرت في مجلة (الشرطة) في ثلاث حلقات ابتداء من العدد 43، سنة1987. وعنوان المقالة (زيارة لداي الجزائر) في Revue de Paris، Tome 30، (4

(« 57. _ pp. 36،sep 1831)

وتتمثّل مقدمة المترجم في عرض عن حياة حسين باشا (آخر دايات الجزائر). وكتب المقالة المؤرخ الفرنسي أوغستين جال (A. JAL) في شكل حديث بمجلة باريس (ريفيو دي باري)، وهي تتمثّل في أسئلة عن طريق الترجمان الفرنسي المرافق للباشا للتحدث عن حياته السياسية والشخصية ومشاريعه وأصدقائه وخصومه. ولأهمية هذا الحديث قدّم المترجم ترجمة ملخصة عنه، ويقول ملخصه إنّه رأى أن الكاتب في نظره قد حشاه بأخبار أخرى تَهمّ القارئ الفرنسي وتَهمّ المعاصرين له، ولكنها لا تَهمّ القارئ العربي اليوم. وذكر أن المترجم المرافق للداي أسمه جوانين (JOUANNIN) وعلّق على المقالة في الهوامش.

ذكر المترجم في الهامش أن الكاتب شرح في الهامش معنى (الوقف) وخصوصا وقف مكة ثم تحدث عن أمور أخرى نقلها المترجم وعلّق على ذلك الكلام (ص. 259، هـ2). ولخّص حكاية سردها الداي ووضعها في المتحف بين قوسين، وأشار إلى ذلك في الهامش (260، هـ1). (27)

4 ـ رسالة من الشيخ العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو

نشرت الرسالة في مجلة (الدراسات التاريخية)، العدد الأول، 1986. ومحتوى الرسالة أن الشيخ العنتري يطلب إعانة شارل فيرو على مساعدته للحصول على منصب لابنه. ووضع المترجم تقديما عن أحمد العنتري وأسرته وعن مؤلفاته، ثم حلل محتوى الرسالة. ونشر في الأخير نص الرسالة ووضع هوامش للتوضيح. (28)

الجزء الرابع

أ) الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر

إنّ المقالة عبارة عن ترجمة لبحث كتبه إيماويل سيفان وصدر في "مجلة التاريخ الحديث والمعاصر"، المجلد 14، رقم 1، يناير سنة 1979، صص 21 ـ 53، وهي مجلة تظهر في لندن وبيفرلي هيلز. ونشرت الترجمة على حلقات في جريدة " السلام" ابتداء من 7 أبريل سنة 1991 ويعترف المترجم أن البحث قد اتعبه جدا في ترجمته نظرا للغة المؤلف العالية فيه، ولوَفْرة المصطلحات والتعابير المحلية والخاصة التي حفلت بها اللهجة المسماة بلهجة سابير (Sapir)، (لغة مزيج) والباتوا (Patois) (لهجة اقليمية، لغية) والبيدجين (Pidagin) (رطانة) (29).

ب) انتفاضة 8 مايو 1945

هي مقالة عبارة عن ترجمة لبحث نشرته مانفريد هالبيرن (Manfred Halpern) في مجلة الشرق الأوسط (The Middle East Jounal)، مجلد 1948، صص. 191 ـ 202.

ونشر المترجم الترجمة في جريد "المجاهد" الأسبوعية (دون تاريخ) ووضع المترجم هوامش توضيحية)، ولكن المترجم وقّع مقدمة المترجم بتاريخ 27 أبريل 1990، ووضع هوامش توضيحية (30).

III . تلخيص محتوى الكتب

إن تلخيص محتوى كتاب أجنبي لا يتم إلا بعد قراءته والتمعن في الأفكار الواردة فيه. لهذا إن ما قام به الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

يندرج في هذا المفهوم، بحيث كان دون ريب يفهم فهما دقيقا لمحتويات كل كتاب قبل أن يقدّم ملخصا لتلك الكتب.

وإن إدراج ملخصات الكتب في بحث يتطرق إلى الترجمة هو اختيار صائب لأن القائم بعملية التلخيص يفهم الأفكار في اللغة الأصلية، ثم يترجمها سواء في أعماقه أو على قصاصات ورق ثم يلخص تلك الأفكار في لغة ثانية، وما عملية الترجمة إلا فهم للأفكار في لغة ثم نقلها إلى لغة ثانية بأسلوب مخالف للأسلوب الأول. وسنعالج هذه الملخصات كما وردت في كل كتاب ونستقي تعبيراتنا وأفكارنا من كلام الكاتب (المترجم) نفسه.

أ) أفكار جامحة: أثر الجزائر في الأدب الأمريكي (ص 109 . 146)

1 . الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا: تأليف بتر ماركو (Peter Markoe) سنة 1783 ونشره سنة 1787 بفيلاديلفيا. ونشرت المقالة في مجلة "الثقافة" الجزائرية، عدد 86 مارس ـ أبريل 1985. وعنوان الكتاب الطويل هو الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا أو رسائل كتبها مواطن من الجزائر عن أحوال الولايات المتحدة الأمريكية من نهاية سنة 1783 إلى انعقاد الاتفـــاق. ويحتوي الكتاب على مقدمتين ومجموعة من 24 رسالة. ترجم المترجم جزءا من المقدمة الأولى، وقدم ملخصا لقصة الكتاب. وترجم قولا لبطل القصة ويعلق المترجم على محتوى الكتاب وما يستنتج منه من وجهة النظر الجزائرية. وتكلّم المترجم عن أهم الأفكار الواردة في الكتاب ويستدل بقول المؤلف مترجما فقرة تتكلم عن الاستبداد السياسي والديني واستبداد الموضة. ويترجم قول البطل في الرسالة السابعة عشرة والرسالة العاشرة.

2 . **أسير الجزائر:** تاليف ريال (Rayall Tuler). وهي عبارة عن رواية تترجم السيرة الذاتية صدرت سنة 1797. وتتألف الرواية من جزئين في مجلد واحد. وطبعت ثلاث طبعات (1797، 1802، 1816) في أمريكا وبريطانيا. وأعيدت طباعتها سنة 1967. وتتبع المترجم خطة سيرها معلقا على بعض الأفكار. وينهي تعليقه مبررا أنّ اهتمام الأدباء الأمريكيين بالجزائر كان يعود إلى السنوات الأولى من استقلال بلادهم. ولاحظ المترجم أن كتابات شيلر وهودسون كاتبان واقعيان عرفا الجزائر عن كتب واهتما بحياة أهلها في أعماقها وتأثرا بها عرفا فيها (36).

3 ـ مؤلفات وليام شيلر (Willam Shaler) عن الجزائر

صدر كتاب شيلر "موجز تاريخ الجزائر" (Sketches of Algiers) سنة 1826 في بوسطن. وعلّق المترجم على أهمية الكتاب بالنسبة لأوروبا في وقت صدوره، وأهميته الآن بالنسبة لتاريخ الجزائر. وقدّم نبذة عن حياة ووظائف الكاتب الدبلوماسية على الخصوص ثلاث منها عن سنة في الجزائر 1815 ـ 1828 وأبرز أهميتها. ولكن المترجم ركّز على الحياة الفكرية والأدبية التي أثّرت في التوجهات السياسية الأمريكية والفرنسية (فهو الذي حثّ على احتلال دولة أوروبية للجزائر، وقد استفاد الفرنسيون من أفكاره واتبعوا خطته لاحتلال الجزائر. ويذكر المترجم أن شيلر اهتم بفكرة العلاقة بين اللغة البربرية واللغتين اللاتينية والإغريقية، لذلك تعلّم هاتين اللغتين واستعان بوليام هدسون الذي كان مهتما بالبحث في لغة البربر القديمة. ويلاحظ المترجم أنّ اهتمامات شيلر بالجزائر بدأت منذ تعيينه قنصلا عاما بالجزائر سنة 1815، فبعث المراسلات وألّف الكتب حول جوانب عديدة عن الجزائر والجزائريين. وأشار المترجم إلى مراجع استعان بها

لبلورة أفكار عن مبادئ وفلسفة شيلر. وتجدر الإشارة إلى أن المترجم نقل قولا عن شيلر وهودسون ورد في كتاب "رواد المصير الأمريكي" Advance Agents of American Destiny » لصاحبه روي نيكولس (Roy. F. Nichols).

4 . مؤلفات وليام هودسون (William Hodgson) عن اللغة البربرية

يقدّم المترجم هودسون على أنه خليفة شيلر في القنصلية الأمريكية بالجزائر جاء إليها سنة 1826 حتى بداية 1830، وفي الاهتمام بلغة وحضارة الجزائريين القدامى لأنّه كان يعرف التركية والعربية. وقدّم المترجم السيرة الذاتية لهودسون، خاصة الدبلوماسية، وركّز على أبحاثه العلمية التي كان قد بدأها في الجزائر بالبحث عن أصل اللغة البربرية واستنتج أنها اللغة الليبية أو النوميدية القديمة وأنّ اللغة المصرية القديمة "فرع من البربرية". وأورد بعض الأسماء نسبها إلى أصل بربري. ويذكر المترجم أربعة أبحاث قام بها هودسون: منها بحثان مترجمان: ـ **خلاصة القواعد النحوية للغة البربرية**، فيلاديلفيا، 1831، وهو العمل الذي نشر مترجما إلى الفرنسية في "مجلة الجمعية الجغرافية" بباريس سنة 1836.

ـ **رحلة الأغواطي سنة** 1831: ترجمها إلى اللغة الأنكليزية تحت عنوان: ملاحظات على رحلة في دواخل شمال إفريقية (Notes of Journey into the interior of North Africa)

. **ملاحظات عن شمال إفريقية والصحراء والسودان**، نيويورك، 1844.

ـ **انطباعات عن تاريخ المغرب الأقصى والجزائر وأحوالها الحاضرة**، وقائع الجمعية التاريخية لنيويورك، سنة 1844، صص. 162 ـ 168.

5 ـ **مأساة بربروسة:** (A tragedy ،Barbarossa) تأليف جون براون (John Brown) وهي عبارة عن مسرحية سنة 1832. ويذكر المترجم أن الكاتب استحضر قصة وقعت في الجزائر في أوائل القرن السادس عشر. وعلى الرغم من أن المترجم لم يطلع عليها، فإنه قرأ كتابات عن هذه المسرحية باللغة الأنكليزية. وعرض المترجم محتوى المسرحية. (35)

ب) . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

الجزء الأول

1- الأستاذ جوليان والتاريخ الجزائري

هو بحث للمترجم حول كتاب شارل اندي جوليان (Charles André Julien) تحت عنوان "تاريخ الجزائر المعاصرة" نشر صحفة فرنسا الجامعية، باريس 1964، الجزء الأول ونشر البحث في مجلة " المعرفة الجزائرية"، عدد 19، ماي ـ جوان، 1965، صص. 10 ـ 23. ووضع المترجم عناوين جانبية لتلخيص أفكار جوليان، وهي تاريخ الجزائر والإسلام، والحلم الوطني أو التركي، وخصائص الدولة الجزائرية: 1516 ـ 1830، وظهور الوطنية الجزائرية، ومعنى الوطنية والقومية، وحمدان خوجة، والأمير عبد القادر، والثقافة ومشاريع نابوليون الثالث، وتعصب أو وطنية، وخاتمة.

ويستشهد بآراء المؤلف ويرد عليها في المتن. (36)

2- الجزائر في مؤلف أنكليزي قديم سنة 1731

عنوان الكتاب "الكامل في تاريخ الجزائر"، تأليف جوزيف مرقان، طبع

في لندن ويقع في أكثر سبعمائة صفحة من الحجم الكبير وهو في مجلدين. وعرّف المترجم بالكاتب وبمحتوى الكتاب وركّز خاصةعلى المعلومات حول مدينة الجزائر. ونشر هذا العرض في مجلة "الأصالة"، عدد 8، مايو - يونيو 1972، ثم نشره عبد الرحمن الجيلالي في المجموعة التي أصدرها بعنوان (تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، مليانة، المدية)، الجزائر، 1973. (37)

3 . **عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وإفريقية السوداء** تأليف أ. و. بوفيل طبع سنة 1958 وقد نشر هذا العرض للكتاب في (المجاهد الثقافي) عدد 8، يونيو، 1969. وذكر المترجم أصل المادة الموجودة في هذا الكتاب وقال إنها من كتاب آخر للمصنف المسمى "قوافل الصحراء القديمة" الذي ظهر سنة 1933. ويتطرق المترجم إلى محتوى الكتابين ويقارن بينهما. (38)

4 - حول مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة (عن اللغة الفرنسية)

يقول المترجم إنه كتب هذه الكلمة مقدمة لمذكرات أحمد باي، ولكنها لم تنشر معها. ويذكر أنه عثر على النسخة الفرنسية الخطية لهذه المذكرات ولكنه لم يجد النسخة العربية. ويقدم نبذة عن حياة الحاج أحمد وأفكاره وشخصيته، ثم يتكلم عن التراث المحرف أو الضائع. ويقدم نصيحة إلى الباحثين قائلا إنه يجب العناية بالآثار الوطنية بإحدى طريقتين: إما البحث عن أصول هذه الآثار في لغتها العربية الأصلية ونشرها، وإما، وهذا أضعف الإيمان بترجمتها من اللغة الأجنبية وإعادتها إلى لغتها الأصلية مع التعليق على ما فيها من تحريف وتشويه مقصودين أو غير مقصودين. ويردف قائلا: ومن حسن الحظ أن استجاب لهذه الدعوة المخلصة الأستاذ العربي الزبيري، وهو من التراجمة المجيدين الذين

يملكون ناحية العربية والفرنسية معا... ولم يكتف بترجمة مذكرات الحاج أحمد بل ترجم ذكرات حمدان و"المرآة" له أيضا، ومذكرة أحمد بوضربة إلى اللجنة الإفريقية (سنة 1833). وقد أضاف إليها بعض التآليف المفيدة التي تساعد القراء على فهم النص. ثم يقول: لكن إعادة الآثار الوطنية إلى لغتها الأصلية لا تكفي، بل لا بد من خطوة أخرى لا تقل فائدة وهي ترجمة الآثار الأجنبية العلمية إلى اللغة الوطنية أيضا. (39)

ثانيا: تعليق المترجم على استعمال المصطلحات

ساهم المترجم إلى حد كبير في إثراء الترجمة التي قام بها، إذ علّق على استعمال المصطلحات، فمرة يؤوّل المعنى الذي قصده الكاتب أو يفسّر مصطلحا وَرَد في النصّ، ومَرّة أخرى يقدّم مصطلحا بديلا للمصطلح الذي استعمله الكاتب أو يصحّح معنى مصطلح وَرَد في النصّ.

أ) تعليقات المترجم:

لقد وردت تعليقات عديدة وضّحت كثيرا من الغموض الذي كان يكتنف أفكار الكتّاب الذين نقل عنهم، أو المصطلحات التي استعملوها. وأغلب تلك التعليقات وَرَدت طبعا في الهوامش. وسنذكر بعضها في ما يلي.

يقول المترجم في كتاب **الحركة الوطنية الجزائرية** أن ديبارمي (DESPARMET) ترجم المنشور الذي وجّهه الألمان إلى الجنود الجزائريين والمغاربة على الجبهة الأوروبية سنة 1915، ولكن المؤلف لم يحدد اللغة التي ترجم منها. (40)

ويذكر المترجم في كتاب **الجزائر وأوروبا** أن أسلوب الكاتب يتميز

بالوضوح، وحرية الرأي، والتوازن في المعلومات، والجدية في البحث، والمنهجية العلمية. ووجده كتابا يختلف عن الكتب التي تعوّد قراءتها، مصادره ومشربه وتفسيره للأحداث. ويلاحظ أن المؤلف يستعمل كلمة (الأندلس) للجزء وليس للكل كما هو الشائع عندنا نحن العرب المسلمين. (41)

أما في كتاب **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، فقيول إنه يجب توضيح الفرق بين مفهوم مَعنييْن كثيرا ما يقع فيه الغلط والإشكال، ولاسيما في ترجمته من اللغات الأجنبية: الأول هو مفهوم الوطنية التي تعني حب الانسان لوطنه الذي ولد فيه وتربّى فيه، واستعداده للدفاع عنه والموت في سبيله. والثاني هو مفهوم القَوْمية التي تعني الشعور المشترك بين جماعة معينة تنتمي إلى حضارة واحدة، وإلى حدود جغرافية معينة، وتشترك في التاريخ والمصير. وأورد ادعاء لدي بوسي (R. de Bussy) أنه لا شيء يَدلّ على أن كتاب (المرآة) لحمدان خوجة قد ترجم من العربية إلى الفرنسية. ويذكر المترجم أن شارل أندري جوليان يعترف بأن (المرآة) كان قد ترجم إلى الفرنسية بعناية السيد دغيس الطرابلسي. (42)

ويشير المترجم إلى ترجمة عبارة عن شرب "الاقمي" حرفيا كما أوردها الأغواطي، لكنه يصحح كيفية استخراج ذلك الشراب. ويذكر أن عبارة مرسى السوق في (الشرق) تكررت في ترجمة هودسون، ولعلّ الصواب مرسى السوق في (الشمال) كما نَصَّ على ذلك السيد دافيزاك صاحب كتاب (دراسات في الجغرافيا النقدية). (34)

وعلّق في مقام آخر على لغة المترجم العربي الزبيري لترجمته مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة، وأثنى على فهمه لموضوعه والتعمق فيه (44). ويقول المترجم

إنه لم ير داعيا لترجمة كل التعليق حول العدالة في الجزائر خلال العهد العثماني لأنه طويل (45). وذكر أن رسائل المفتي مصطفى القديري، ورسائل المفتيان أحمد بن محمد ومحمد بن مصطفى، ورسائل المفتي العمالي، وإنذار والي الجزائر إلى المفتي الحنفي أثناء الاحتلال الفرنسي، كانت كلها مرفقة بترجمة إلى اللغة الفرنسية. (46)

وتطرق في كتاب **حياة الأمير عبد القادر** إلى تأويلات الكاتب أو إلى رح بعض المصطلحات. فيقول إنه يبدو أن المؤلف يقصد باستعمال كلمة (العرب) مصطلح (الأعراب)، لأنه يستعمل لفظة (العرب) في مناسبات أخرى في غير هذا المعنى، وهذا الاستعمال شائع في الكتاب. وإنه يبدو أن تشرشل كان يترجم المذكور في الصفحة 59 من الكتاب من نسخة عربية. وقد أوّل المترجم بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ترجمها تشرشل. وقال ما يلي: هذه ترجمة ما أورده تشرشل ونعتقد أن الأمير قد تمثل بقول ابن حمديس. وذكر المترجم لأربعة أبيات من الشعر له. ويقول إنّه لم يترجم الحديث الذي ذكره تشرشل، صفحة 289، ولكنه أخذ نصه من (تحفة الزائر)، كما أنه لم يترجم البيت الشعري وإنما أخذه من المصدر نفسه. (47)

وفسّر المترج كلمة (الإنكشارية) على أنها تعني الأتراك الذين كانوا بالجزائر عامة. وكلمة (مخزن) تعبير يعني به الكاتب القبائل التي تحالفت أو تعاملت مع السلطات العثمانية. وعبارة قناصي إفريقية (Tireurs d'Afrique) هم فرقة خاصة تمتاز بخفة الحركة والمهارة في الضرب. و (الكراغلة) جمع كرغلي وهو عادة شخص من أب تركي وأمّ جزائرية. و (القومية)، تنطق بالقاف المعقوفة، وتعني

الفرسان الاحتياطيين أو غير النظاميين، و (الزمالة) جمعها زمول، مجموعة من القبائل المتنقلة، و (الأغوات) جمع آغا، وهو مسؤول ناحية وتحته مجموعة القواد، وتحت هؤلاء مجموعة من شيوخ القبائل، و (قوات الزواف) فرقة من الأهالي والفرنسيين، وأصلها الزواويون نسبة إلى جبال زواوة (منطقة القبائل)، و (الدوائر) جمع دائرة، والمقصود بها مجموعة من البيوت ذات النَسَب المشترك ولو من بعيد، وعبارة (ماقنة كارته) (Magna Carta) تعني (الميثاق العظيم) الذي أعلنه الملك دجون الإنكليزي بتاريخ 15 يونيو سنة 1215، والذي اعترف فيه ببعض الحريات المدنية والسياسية للشعب. (48)

ب) اقتراح المصطلحات:

لا تخلو تقريبا أية ترجمة لكتاب من اقتراح مصطلحات كبديل للمصطلحات التي استعملها الكتّاب أو كتصحيح لخطأ استعمال تلك المصطلحات، فأورد في المتن تعاريف لكلمة سياسة في المقال بعنوان: جمعية العلماء السياسة (11). وتطرق في المتن إلى معنى مصطلح الشرق (ORIENT) عند المسلمين وعند المسيحين (12). ويشير المترجم إلى أنه خلال البحث كلّه ترجم كلمة (MAGHRIB) بالمغرب العربي، وكلمة (MAROUCEO) بمراكش، وعبارة (NORTH AFRICA) وكلمة (BARBARY) بشمال إفريقية (13).

وذكر المترجم أنه ترجم كلمة (CAID) بقايد (جمع قِيّاد)، أمّا مفرد قائد الذي يعني المسؤول على العموم فقد جمعه بقادة (14). ويلاحظ المترجم انه ترجم كلمة (ORIENT) بالشرق، وكلمة (LEVANT) بالمشرق، عبر كل الكتاب (15). ولاحظ المترجم في كتاب **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** أنّ السيد هودسون

ترجم كلمة الأمَة ب (MOTHER) بمعنى (الأمّ) ولا شك أن الأغواطي قصد بها (الأمَة أو الوصيفة). (16) ويقول في المتن المترجم إنّه فضّل ترجمة كلمة (UPRISING) بالانتفاضة، وكلمة (REVOLT) بالتمرد، والكلمتين (REBELLION ،INSURRECTION) بالثورة (17).

وعلق على كلمة (كولونيالي) قائلا إنّه فضل أن يترجم هذا العبارة (FRACTION COLIANIALE) (بالفرع الكولونيالي) حتى لا ينصرف إلى المعنى الشائع في الصحافة الاستعمارية، لأنّ الفرع المذكور كان يمثّل اهتمام الحزب الشيوعي بالمستعمرات (18).

وترجم المصطلح الاستعماري التاريخي (THE DUTCH EAST INDIES) بتعبير الجزر الهولندية الشرقية في أصل البحث، بينما فضّل استعمال مصطلح أندونيسيا في المدخل لخفته في العربية لأنه هو المصطلح المستعمل اليوم (19). أمّا كلمة (تركي) رأينا الكاتب يستعملها بمعنى (المسلم)، وقد يعني بها هنا الأصل والدين معا. والظاهر أنّ الإشارة إلى ممَثِله في ليفورينا تعني أثناء تولّيه السلطة في الجزائر وليس بعد ذلك (20). وكلمة (الراي) = (LE ROI) المقصود بها الملك أو السلطان، وحسب الترجمة الفرنسية المرفقة فالعبارة السليمة هي (LE PROCUREUR GENERALE) والتي ترجمها صاحبا الوثيقة توكيل الراي (أي المدعي العام)، ثم أضاف إليها بين السطور عبارة (الديركتور الجنرال)، وهي في الواقع (البروكيرور جنرال)، ربما هو خطأ مطبعي (21). وكلمة التثاقف (ACCULTURATION) (22). وإنّ المقصود بكلمة الاستعمار هنا (COLONISATION) تعمير الأرض وتمدين سكانها ونشر (التقدم) في نظر

الأوروبيين، وليس الاحتلال والعمليات العسكرية وإرهاب الأهالي ومصادرة أملاكهم، كما نستعملها الآن. وفي كتاب **حياة الامير عبد القادر** استعمل الكاتب تعبير يبدو للمترجم مجازيا وهو (أثناء غرقه) فآثر تعبير (أثناء تنحيته عن السلطة). (52)

ج) تصحيح المصطلحات:

أما بالنسبة لتصحيح بعض المصطلحات فيقول المترجم في كتاب **الجزائر وأوروبا** (23): ويبدو أنّ تشرشل يقصد بلفظة الرعية هنا رعايا السلطان من غير المسلمين (24). ويعلّق المترجم في الهامش على استعمال المؤلف مصطلحي (community، company) بمعنى جماعة عندما يتكلم الكاتب عن أتراك الجزائر (مع خطأ كتابة comunity بحرف M واحد) (25). ويذكر المترجم أنّ الإيالة ترجمة لكلمة (regency) وقد سبق للمؤلف أن استعمل أيضا كلمة سنجق وإقليم وغيرهما، وقد فضّل المترجم استعمال اللفظ الأول. ويلاحظ المترجم أنّ المؤلف استعمل مصطلح دسكرات (dosckarets) بمعنى دشرات (26). ويعلّق على عنوان الكتاب قائلا إنّه كان من الأفضل تسمية المؤلف كتابه تاريخ الجزائر الحديث بتاريخ فرنسا في الجزائر. ويعلّق في متن كتاب **أفكار جامحة** على كتابة (بجاية) عند هودسون هكذا (بوجيه) (54).

ويذكر في كتاب **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** أنّ كلمة ميشاش (عملة) كتبت بالحروف اللاتينية هكذا (meskchas) ولا يعرف نطقها بالعربية. ولا ندري ماذا يعني الكاتب بهذا التعبير (رمي المنديل)، وقد تكون علامة من علامات الغضب على القراصنة (55).

ولاحظ المترجم كلمة السكاكير هكذا في الوثيقة الأصلية، لكن الترجمة الفرنسية المرفقة اقتراح تعين من رجال الدين ذكره السكاكيري بالنسبة (زاوية القاضي) في الترجمة الفرنسية اطلق عليها اسم مجلس القضاء المالكي trubinal du kadi maleki.

أشار المترجم في المتن إلى أنّ الكاتب استعمل المصطلاحات: المسلمون والأهالي والعرب بنفس المعنى، كما لاحظ أنّ المؤلف استعمل عبارات: المسلمين والأهالي والعرب والبربر دون تمييز بينها. ويمتلئ بحثه بالمصطلحات التي تحتاج في الواقع الى معجم خاص.

ويذكر المترجم بعض المصطلحات كتبت بنطق أجنبي وحروف عربية منها (موسيو البريفي)، أي السيد الوالي (monsieur le prefect). وبين قوسين (موسيو دريكتور لنطريور) بالفرنسية (monsieur le directeur de l'interieur)، (موسيو دريكتور فناص) يقرأ هكذا بالفرنسية (monsieur le directeur des finances)، (روه برط نف، نومر) بالفرنسية هكذا (n° 196،rue porte neuf)، (دريكتور لنطريور) يقرأ بالفرنسية هكذا (directeur de l' interieur). (56)

ثالثا: كلام المترجم عن الترجمة والمترجمين

يتطرق المترجم إلى الترجمة والمترجمين، فيحدّد بعض المفاهيم، ويعلّق على بعض الأفكار وينتقد بعض عمليات الترجمة. كما يتطرق إلى ما قام به هو شخصيا من ترجمات وما قام به بعض المترجمين. وأشار مثلا إلى فقرة وردت في جريدة التايمس (The Times) الإنكليزية وقام بترجمتها إلى اللغة العربية. (57)

أ) الجزائر وأوروبا: 1500 . 1830

يقرّ المترجم أن هناك أمور كثيرة تستحق التعليق ولفت الانتباه في هذا الكتاب ولكنه يتساءل: هل مهمة المترجم القيام بشرح العمل الذي ترجمه، ووضع حواش له ونحو ذلك من وسائل الزيادة والايضاح ؟ فيجيب قائلا: لا نعتقد ذلك، ولو فعل لكان الأولى له أن يؤلف هو كتابا من عنده ويريح المؤلف الأصلي والقراء معا". ويردف قائلا: "إن مهمة المترجم هي نقل النص بأمانة ثم التنبيه على ما يجب التنبيه عليه". وعلى الرغم من أن المترجم التزم بعدم التدخل في أفكار الكاتب وأسلوبه في النص المترجم، لكنه أبدئ ملاحظات هامة وخطيرة في نفس الوقت في مقدمة المترجم حول محتوى الكتاب وانتقده انتقادا لاذعا (58).

ب) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

1 . الجزء الأول: أول اتصال للأمير عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين

لاحظ المترجم أن ترجمة هذا البحث تضاف إلى ترجمته لكتاب العقيد شارل هنري تشرشل عن حياة الأمير ونبه إلى وجود ترجمة لوصل قدمه القنصل البريطاني في طنجة دومان هاي إلى ابن قللة (مبعوث الأمير عبد القادر) بتاريخ 13 يناير 1836، وإلى ترجمة لرسالة الأمير عبد القادر (كَردّ) المؤرخة بطنجة في 14 مايو سنة 1836، وإلى ترجمة لرسالة هاي إلى الأمير عبد القادر بتاريخ 31 مارس سنة 1836. (59)

2 . أول بيان فرنسي إلى الجزائر بين: ظروفه ونصه، 1830

أورد تعليقا قائلا فيه: يبدو أن هناك بعض التضارب في نسخة البيان

بالفرنسية والانكليزية، فقد ترجمته من الفرنسية كل من "ذي ليفيربول ميركيوري" البريطانية (18 جوان 1830)، "وذي سكرايب" المصرية (ماي ـ جوان1961). ويبدو أن كلتيهما قد نقلتا عن جريدة "لومونيتور" الفرنسية (2 جوان1830)، ففي المصدرين الأولين توجد الفقرة التالية المفقودة في النص العربي، وهي "إن الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا اخوانكم المصريين الذين يفكرون فينا دائما ويأسفون على مغادرتنا لهم منذ ثلاثين عاما، ومازالوا يبعثون أبناءهم إلى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وغيرهما من المهن المفيدة ". ولم يعلم المترجم آنذاك سنة 1965 سبب هذا الحذف والزيادة.

وقد أضاف المترجم بعض العبارات بين قوسين لشرح ما قبلها. (60)

3 . ملاحظات أخرى

توجد إشارة إلى ترجمة المترجم جملتين من النص العربي في كتاب ديبارمي "أغنية العصر" إلى اللغة الانكليزية (4). وهناك إشارة إلى أنّه ترجم كتاب شارل هنري تشرشل تحت عنوان "حياة الأمير عبد القادر". (5)

يقول المترجم إنه ترجم بحثا لإيمانويل سيفان عن "نجم الشمال الإفريقي" و"الحزب الشيوعي" في الجزائر، ونشره في جريدة "الشعب" في حلقات، وهو الآن منشور في الجزء الثالث من كتاب: **أبحاث آراء في تاريخ الجزائر**، ودار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990، صص. 25 ـ 47 (6). وأشار إلى كتاب ترجمه قائلا: انظر كتابنا (الجزائر وأوروبا 1500 ـ 1830) الذي ألفه جون وولف وترجمناه إلى العربية، وهو حاليا تحت الطبع. وقال في صفحة أخرى: وفي كتاب (الجزائر وأوروبا) الذي ترجمناه وقدمناه للطبع أخبار هامة عن شعبان باشا.

أشار المترجم إلى نقله إلى العربية لكتاب جون وولف تحت عنوان "الساحل الإفريقي: الجزائر في عهد الأتراك: الذي صدر سنة 1978 وصدرت الترجمة بالجزائر سنة 1986. وأشار إلى اطلاعه على كتاب لبارنباي (H. G. Barnaby) تحت عنوان "مساجين الجزائر"، وقد صدر بنيويورك سنة 1966. (7) كما أشار إلى أنه ترجم رحلة الأغواطي إلى العربية (لأنه لم يعثر على نصها الأصلي) ونشرها في "مجلة التاريخ" الجزائرية، عدد النصف الثاني من سنة 1982 وقد كان ترجمها ونشرها السيد افيزاك (Avezac) في كتابه: دراسات في الجغرافية التطبيقية (Etudes de geographie critique)، باريس سنة 1836، كما نشرتها مجلة (Nouvelles Annales de Voyages) باريس، نوفمبر 1832. (8)

وأشار في مقال حول مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة، أنه قد وقف إلى ترجمة كتاب "حياة الأمير عبد القادر" لتشرشل الانكليزي، ونشره عن الدار التونسية للنشر، تونس، 1974. (9) وأشار إلى فقرة وردت في جريدة "الأخبار" الفرنسية، مارس 1913، وظّفها المترجم في مقال بعنوان: الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين. (10) وأشار إلى ترجمة أطروحته (التي تقع في519 صفحة) إلى العربية، في مقال"في الجهاد الثقافي" ونشر الترجمة سنة 1969 بعنوان (الحركة الوطنية الجزائرية)، دار الآداب، بيروت (لبنان)، وقال إنها تطبع طبعة ثانية في القاهرة. (11)

واستشهد برأي فريدريك جاكسون تيرنر (Turner) مؤرخ أمريكي توفي سنة 1932 في مقال: الخوف من التاريخ (12)، وقال في مقال "نماذج من التفكير التقدمي عند بعض الجزائريين" إن من أراد التوسع في حياة الأمير فليرجع إلى كتابه (حياة

الأمير عبد القادر) الذي هو ترجمة لكتاب شارل هنري تشرشل عنه، الدار التونسية للنشر، تونس 1974. (13) وفي مكان آخر قال: ينظر جون وولف (الجزائر وأوروبا) ترجمة سعد الله، الجزائر 1986، صص. 271 ـ 292، إشارة الى معاهدتين بين الجزائر وفرنسا (14). وأشار إلى ترجمة كتاب هوتنغر تحت عنوان "العرب" وكتاب كارل بروكلمان تحت عنوان " تاريخ الشعوب الإسلامية" من الألمانية إلى الإنكليزية. (15) وقال المترجم إنّ بيانشي (Bianchi) مترجم الملك الفرنسي شارل العاشر الذي احتلت الجزائر في عهده ترجم كتاب شيلر (موجز تاريخ الجزائر) إلى اللغة الفرنسية سنة 1830. ويقول المترجم إنه بدأ ترجمة الكتاب (بعد تصويره) من الانكليزية إلى العربية خلال الستينيات من القرن الماضي، ولكن الأستاذ العربي الزبيري أخبره بأنه بدأ بترجمته في الفرنسية، فتوقف هو عن ترجمته. ويردف قائلا: لكن ترجمة الزبيري لم تظهر، وإنما ظهرت ترجمة الأستاذ اسماعيل العربي من الأنكليزية سنة 1982، ويعلق المترجم في هذا العدد على ترجمة العنوان وعلى العمل برمته ويثني على المقدمة التي أضافها اسماعيل العربي للترجمة. (16)

ب) مؤلفات وليام هودسون:

ترجم المترجم تعليقا لهودسون على موقف شيلر من توظيف طالب بجائي للتعاون مع هودسون. ويذكر المترجم أن ذلك الطالب قدّم لهودسون مجموعة من الحكايات البربرية بواسطة العربية ترجمها هودسون إلى الإنكليزية، كما قدّم له بعض الأشعار البربرية فحوّلها أيضا إلى الإنكليزية. (17)

وأشار المترجم الى مؤسسة الترجمة الشرقية (The Oriental Translation Fund) بلندن، وكانت متخصصة لنشر الكتب المترجمة المتعلقة بأحوال العالم

الإسلامـــي والشرقي عموما. ومن بين ما نشرت هذه الجمعية ترجمة لتاريخ ابن خلدون حوالى سنة 1830 (18). وقال المترجم إن مراسلات شيلر وهودسون عن الحضارة البربرية كانت تترجم وتنشر في مناطق أخرى غير أمريكا، مثل لندن وباريس. وهكذا كان الشأن بالنسبة لرحلة الأغواطي التي نشرت في لندن وترجمت ونشرت في باريس. وكذلك مراسلات ومؤلفات شيلر التي ترجمت ونشرت في باريس سنة 1830. (19)

ج) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الاول:

أورد المترجم هذه المعلومة في المقال بعنوان "السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر"، تأليف ارجمنت كوران، منشورات كلية الآداب، جامعة اسطنبول، 1957، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970. وقال إن التعليقات التي أضافها المترجم إلى الترجمة تبرهن على تمكنه وسيطرته على مواد الكتاب، بل إن القارئ للترجمة يَشعر أن شخصية المترجم تكاد تطغى على شخصية المؤلف الأصلي (20). وأشار المترجم سنة 1981 إلى كتاب أ. و. بوفيل تحت عنوان "عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وإفريقية السوداء"، قد ترجم إلى اللغة العربية، بعد أن كان يقول سنة 1969 إنّ عملا من هذا النوع جدير بالترجمة إلى العربية (21). وأشار إلى ترجمة كتاب "حرب وحشية للسلام: الجزائر 1954 ـ 1962" إلى اللغة الفرنسية، وكان المترجم قد تمنى سنة 1979 أن يتمكن من ترجمته إلى العربية ذات يوم (22). وإشار إلى إن اسماعيل العربي ترجم كتاب شيلر إلى العربية بعنوان "مذكرات وليام شالر"، وترجم كتاب كاتكارت بعنوان "مذكرات أسير الداي"،

و"كاتكارت قنصل أمريكا بالمغرب"، الجزائر، دون تاريخ. (23).

أشار إلى دراسة حول حياة مصطفى خوجة بالفرنسية في المجلة الهولندية (فوليو أوريانتالة) سنة 1976 ـ 1977. (24) وهناك إشارة في المتن إلى أن حسونة دغيس الدبلوماسي الليبي ترجم كتاب (المرآة) من العربية إلى الفرنسية، ثم أشار إلى ذلك في الهامش. (25)

يقول المترجم يبدو أن فيرو قد حصل على نسخة من كتاب أحمد القشري "خلاصة عن حملة الأسبان على الجزائر بقيادة أوريلي سنة 1775" من ذلك العمل، وترجمه فيرو ونشره في مجلة (Recueil des Notes de Costantine) سنة 1866، صص. 1 ـ 16، وهي المجلة التي كانت تصدر بقسنطينة. (26) ويقول المترجم إنه يبدو أن فيرو يشير (بالداوي) إلى المترجم والصحفي أحمد البداوي (27). وإن وثيقة ترشيح بعض العلماء لمنصب الفتوى: كانت من إعداد فريق ترجمة فرنسية. (28)

وإن كتاب "الطب الغربي في عمالة الجزائر" تأليف الدكتور محمد بن العربي، ترجمه علي بوشوشة، تونس، 1891 (29). وأشار المترجم إلى أن "الوجه الآخر لمعاهدة التافنة" وهي رواية السويسري فون مورالت، وترجمة الدكتور أبي العيد دودو في "المجاهد الثقافي"، عدد، 8 سنة 1969، صص. 21 ـ 30.

وهناك إشارة إلى ترجمة كتاب الأمير عبد القادر "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، وقد ترجمه إلى الفرنسية السيد دوغا (G. Dugat)، ونشره في باريس سنة 1858. وقد نقل فيه الأمير أشياء كثيرة عن الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين". (30)

ملاحظات حول استعمال المصطلحات

كتاب الجزائر وأوروبا، تأليف جون وولف، ترجمة أبي القاسم سعد الله.

تعليق محمد الصالح بكوش، معهد الترجمة، جامعة الجزائر

أولا: غموض في المصطلح

1. ويقول عنوانه الفرعي بعد ترجمته إلى اللغة الأنكليزية (ثم العربية): "أنه نبذة حزينة... " (ص 58)

2. أوحى به معلم لشيخ (حاكم) شاب. (ص70)

3. Doublon دوبلات (دبلون بالأنكليزية وبالفرنسية (صص 213، 214). ليفر وليفرات (جنيه وجنيهات) (ص213 ـ 214). 22500 فرنك (ص431). إيكوس، إيكوا (إيكو) (صص 213،73). دوكا (ص303). 50000 طالرز (؟) (ص 431).

4. المسيحيين الداخلين في الإسلام (الأعلاج) (صص 154،101)، الأعلاج (المرتدين عن المسيحية) (صص 110، 123، 130، 151)، يصير علجا (مسلما) (169).

5. الحضر"ص1749، سكان الجزائر (ص 176)، المغاربة (ص 182)، الأهالي (المور) (ص 176)، ترجمتها بالمغربة وليس بالحضر، لأن المؤلف تحدث عن بعض أصل سكان الأندلس (ص 182 هامش)، أهالي شمال إفريقية (219)، الجزائرين (ص262 هامش).

a. The latter الأخيرين (في المتن)، الآخرين (في الهامش) (ص116).

i. Netherlands نيذرلاندا (الأراضي المنخفضة ـ هولاندا) (ص 242)، نيذرلاندا المتحدة (الأراضي المنخفضة) (ص 243)، الأقاليم المتحدة (هولاندا) (ص263) الأراضي المنخفضة (هولندا) (صص 83، 208).

6. West Indies الغرب الهندي (الجزر الغربية، وهي جزر واقعة قرب خليج المكسيك) (ص418).

ثانيا: إضافة المصطلح الأجنبي

المخيف (32)، الاسكوبيتوس (34)، القلعة (39)، المول الرصيف البحري (327، 363، 150، 195، 40، 149، 278، 322، 229)، بحارة (56)، "غزاة" أحرار (64)، تبارك (طبرقة) (65)، ملاحين (66)، قرصان (66)، الداخلين في الإسلام، شركتهم (100)، حرب الانتقال (142) حرب القسمة (330)، مدارس عليا (كوليج (154)، أحياء قذرة (167)، اللهجة (لانقافرانكا (172) خليطا لغويا (لانقا فرانكا) الزوارق (180)، المدجيسر (182)، البرونز (187)، المغرب العربي (198)، البانيو (السجن) (210)، الغزاة الأسبان (239)، شركة المشرق . الليفنت (241)، الفرنكات (249)، سلطته المطلقة (141)، كينان (كنعان؟) آغا، القذائف (القنابل (435).

ثالثا: مصطلحات بنطق أجنبي وحروف عربية

أديرة الرهبان (مونستري) (29)، بلديات (كومينوروس) (35)، الكورتيز (البرلمان »51)، الفرامانات (المراسيم) (64)، بولكباشي (الكبتان)، الأغا (الكوماندر) (103)، جماعات (كليك) (129 ـ 130)، الأب (بير) (153)، السجون (البانيوس) (155)، الأهالي (المور) (161)، يلعبون الورق (الكارطة)

(164)، السفن الشراعية الكبيرة (الكرافيل) (187،189)، الضابط (الكومودور) (205)، أسرة (أبناك) (235)، دائرة الداي (الدايليك) (391)، أعماله التجارية (بيزنيس) (393، 422)، السادة (اللوردات) (394)، حيل (تاكتيك) (397)، البحارة (المارينز) (417)، المراسيم (البروتوكول) (427) التحيات (المراسيم) (439) فرمانات (مراسيم) (451)، أوده باشي (السرجان) (103).

رابعا: استعمال المصطلح ومرادفه

الدولة (الأمبراطورية) (24، 97 ـ 98، 215، 244، 276، 317، 347)، السنجق (الأقليم) (32)، (الايالة) (71)، أدواق (حكام) (76)، سنجقا (لواء أو أقليما) (98)، هنغاريا (المجر) (43)، البنادقة (الفينيسيين) (44) (الفينيشيين) (190)، الأرمادة (الأسطول) (46، 52، 327)، الجهاد (الحرب المقدسة) (62)، البحارة (الرياس)، الرياس (البحارة) (64)، سقوللي (أوسكوللي) (82)، مصلحة الوثائق (الأرشيفات) (95)، المغرب (شمال إفريقية) (98)، الإقليم الغربي (البيلاربي) (99)، الميليشيا (الانكشارية) (107، 345)، الفرسان (أوالصبايحية)، أميرال (أميرالبحر) (110)، شهرين (قمرين)، البلاد (البلدية) (105)، درغوش (باشا) (110)، قبائلية (زواوية) الغاليات (سفن حربية) (112)، الأقاليم (البايليكات) (115، 126، 393، 397)، المدفوعات المالية (الضرائب) (115)، إقليم (بايليك) (117، 118، 177، 393)، مساعد (خليفة)، أمير مال (خزناجي) (118)، كوربورال (عريف) القباطنة (الكابيتانات) (125)، الخيام (المحلة، الأمحال)، سنة تفرغ (حرة)، السيف (اليقطان) (126)، الزمرات (الكليكلت) (143 ـ 144)، أمين الخزينة (الخزناجي) (144)، الثغريين (التغاريين) (151) ثغريين (أندلسيين)، أكثر

ليبرالية (تحررا)، السلفية (الأرثوذكسية)، حركات النجوم (الفلك) (154)، الحضر (السكان) (155)، بولكباشية (أو أكبر المليشيات الانكشارية) (161)، الأعيان (السادة) (163)، المغرب العربي (شمال إفريقية) (166، 170) (المغرب) (71)، النشاط البحري (القرصنة) (167)، الدشور (القرئ) (174)، القياد (الحكام) (175)، حاكم (بايلاربي) شمال إفريقية (184)، القائد الثاني (أو نائب الرايس) (196)، ملك جهنم (الشيطان) (198)، كان بندقيا (من البندقية) (202)، فيللا (حوشا) (202)، شاوشا (أي مبعوثا) (203)، المالكين (السادة) (229)، مركبا (مجمعا) (231)، حاكم (أو حارس) البانيو (231، 233)، الموسكيون (الروس) (232)، ممرض (مساعد) (235)، الجزائريين (الحضر) (235)، اللغة الخليط (لانغافرنكا) (233)، القرن الذهبي (اسطانبول) (240)، الهاربين (اللاجئين) (243)، الأمهات (السلطانات) (246)، البضائع (المعدات الحربية) (247)، من الأراضي المنخفضة (فليميني) (148)،ايالتها (وصايتها) (265)، عميل سري (جاسوس) (270)، المملكة الجزيرة (انكلترا) (309)، الحاكم (الامبراطور) (318)، البحارة (الرياس) (322)، أميرالبحر (أميرال) (414)، البلدية (الحضر) (332،345)، بناية (عمارة) (344)، الاغريق (اليونانيون) (379)، بحار (قرصان) (380، 391)، الضريبة (الاتاوة) (380)، أتاوتهم

(الدنوش) (383)، حكومة البايات (الأقاليم) (385)، خزناجيه (وزيره للمالية) (389)، قصبة (قلعة) المدينة (397)،الخوجات (الكتاب)، الكوادر (الإطارات)، أمير البحر (أميرال) (391)، الحروب البحرية (القرصنة) (402)، شمال إفريقية (الجزائر) (418)، مغاني (فيللات) (421)، قرارا خطيرا (مصيريا) (454)، البلدية (الحضر) (39، 57، 97، 102، 123، 151، 153، 163)، (أهل

الحضر) (227)، الدراهم المعدنية الصعبة (أو " بالعملة الأجنبية) (209)، القنال الأنكليزي (بحرالمانش) (220، 259)، قنبلة (قذيفة) (355)، مأساة (درامة) (373)، الخوارج (الهراطقة) (375).

خامسا: وضع مصطلحات بين هلالين مزدوجين

"قراصنة" المغيرين، "الاحتواء" بدل الاحتلال (26)، "غزوات" (الغارات) الجنود الأسبان (27)، "مرابطا" (57)، الانكشارية "اخترعوا" مرابطا (59)، "انتهكوا الهدنة" (66)، بشكل "قافلة"، "لغات" النظام (77)، "ضريبة الأولاد"، تجند "المشارقة" (99)، تحولوا "أتراكا"، "جيش احتلال" أجنبي (100)، "البحارة" القراصنة (101، 104، 278)، "الديمقراطية من خلال الأقدمية" (103)، "يتقاعد"، "صبائحيا"، "الديمقراطية" (104)، أثناء "غزواتهم" (109)، وكان "القانون" (118)، أمير أو سلطان أو "ملك" (119)، سادة "سامين وأقوياء" (122)، مسؤولين "شرقيين" (129)، "كلاب البحر" الأوروبيين، جماعة من "المشتركين" أو "حملة الأسهم"،"يؤجر" عبيدا (132)، "تدافع"، "الجمال الأبيض" (150)، "القصر" نفسه (155 ـ 156)، البربر "الأشداء" (156)، "للطابع اليهودي" (168)، النشاط "غير الشرعي" (169)، امرأة "سيئة"، "ملك" مدينة الجزائر (170)، "بغزوة" (177)، تراقب "القراصنة" (181)، "للقراصنة" و"البحارة" (188)،"وأنقذوا" أنفسهم، هذه "الحوادث" (189)، تقديم "هدايا" (193)، "المقياس" كسفينة (194)، "تفادي" معركة (195)، "أجورهم" للرحلة،"قداسة" الغزوات البحرية (195)، حال "بائس للغاية"، "وجدها" (202)،"القراصنة" (205، 312، 301)، يبقى على "سجن الرقيق" (214)، تسرقن النظر إلى "الأجنبي" (227)، عن "اتفاقية مضاربة" (230)، "هدايا" صغيرة (231، 299، 319)، بإعطاء "مساعديهم" (232)،

"ميناء" عالمي، يقدم "الكماليات"، لعبة "ثقة" (233)، "التابعة" لهم (239)، ضد "العدو" (240)، مع"العدو" (243)، بضائع "العدو" (247)، يتعامل مع "أولائك في الجزائر" (258، 270، 298)، "حلفاء" الجزائر (261)، أشخاص "أعداء"، "الاعتراف" بوجود، يعترفون "بالدولة" (263)، باستيراد "الواد الممنوعة"، "ممنوعة" على التصدير (264)، "يقسم" رعايا أمير، "أمام إلههم" (265)، هذه "السلطات" (266)، "حربا جيدة" (268)، "أعيد" مدفعا، يوجد "أتراك وجزائريون" (271)، هؤلاء "الأمراء الثوريين" (276)، الأسطول "الديني" (280)، التخلي عن "أتراكهم" (285)، "كبار النبلاء" (286)، "تعميات" عن خطة (287)، تحت ضغط "أتباعهم" (292)، يعبرعن "أسفه" (302)، عرشهم "الشرعي" (309)، "جزية" (إتاوة) (312)، "غير موجودين" (320)، "رشوتهم" (332)، "لرشوة" الجزائرين "بإتاوة"، "شراء" الحماية، دفع "الإتاوة" (337)، يسترقوا "الأجانب" (355)، شرعية "الاتحادات" (357)، "مخلوق" للمليشيا (366)، أي علاقة مع "الخوارج" (377)، "الهدايا" أصبحت "تقليدية" (380)، "المرابطون الدراويش"، من"ديمقراطية" الديوا، (386)، نساء "أهليات" (395)، "أصدقائهم" الأقوياء، الغلاقات "السليمة" (413)،"المزارع الأمريكية" (417)،أوروبا "المتحضرة" (435).

الهوامش:

(1)حياة الأمير عبد القادر، تأليف هنري تشرشل، ترجمة وتقديم وتعليق أبي القاسم سعد الله، تونس، الدار التونسية للنشر،1974.

(2)الحركة الوطنية الجزائرية: 1900 ـ 1930، تأليف وترجمة أبي القاسم سعد الله،

الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.

(3) شعوب وقوميات، تأليف وترجمة أبي القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

(4) الجزائر وأوروبا: 1500 ـ 1830، تأليف دجون ب. وولف، ترجمة وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

(5) منطلقات فكرية، صص 86 ـ 97.

(6) المرجع نفسه، صص 163 ـ 169.

(7) المرجع نفسه، صص 189 ـ 210.

(8) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، صص 55 ـ 58.

(9) المرجع نفسه، صص 79 ـ 82.

(10) المرجع نفسه، صص 135 ـ 158.

(11) المرجع نفسه، صص 243 ـ 269.

(12) المرجع نفسه، صص 305 ـ 311.

(13) المرجع نفسه، صص 363 ـ 365.

(14) المرجع نفسه، صص 367 ـ 373.

(15) المرجع نفسه، صص 281 ـ 304.

(16) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، صص 49 ـ 61.

(17) المرجع نفسه، صص 87 ـ 114.

(18) المرجع نفسه، صص 199 ـ 205.

(19) المرجع نفسه، صص 207 ـ 221.

(20) المرجع نفسه، صص 243 ـ 268.

(21) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثالث، صص. 25 ـ 47.

(22) المرجع نفسه، 161 ـ 172.

(23) (24) (25) (26) المرجع نفسه، صص 173 ـ 183.

(27) المرجع نفسه، صص. 231 ـ 260.

(28) المرجع نفسه، صص297 ـ 305.

(29) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الرابع، صص 47 ـ 96.

(30) المرجع نفسه، صص 97 ـ 113.

(31) بحوث في التاريخ العربي الاسلامي، تأليف وترجمة أبي القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2003.

(**32**) Modern Greek Studies yearbook ،ed. by Professor Theophani STAVROU ; University of Minnesota ; Vol. 10/ 11 ; 1994 - 1995; pp. 947 - 950.

(33) Revue du Monde Musulman (R. M. M.) ; T. 46 ; Aout 1921 ; T. 47 ; Octobre 1921, T. 50, Juin 1922.

(33) ينظر الصفحة 222.

(34) أفكار جامحة، صص 109 ـ 146.

(35) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، صص 59 ـ 77.

(36) المرجع نفسه، صص 313 ـ 327.

(37) المرجع نفسه، صص 343 ـ 345.

(38) المرجع نفسه، صص 351 ـ 355.

(39) الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، صص 256 (الهامش 12).

(40) الجزائر وأوروبا ،صص 8، 182.

(41) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، صص 68 ـ 70.

(42) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، صص 265 (الهامش 18)، 266

(43) (الهامش 21).

(44) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول ،ص 354.

(45) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثالث، ص 251.

(46) المرجع نفسه، صص 319 ـ 352.

(47) حياة الأمير عبد القادر، صص 52 (الهامش 7)، 59 (الهامش 8)،168 ـ 169 (الهامشين 5،6)، 272 (الهامش 8)، 289 ـ 290 (الهامشين 4،3).

(48) المرجع نفسه، صص61 (الهامش1)، 64 (الهامش 3)، 308، 310، 66 (الهامش 5)، 136 (الهامش 3)، 139 (الهامش 5)، 142 (الهامش 7)،188 (الهامش 4)،199 (الهامش 2)، 279 (الهامش 6).

(49) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني ،ص 262، الجزء الثالث: صص 30 (الهامش 1)،257،315 (الهامش 4)،334، 98.

(50) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،الجزء الرابع، صص 141، 187. الجزائر أوروبا: صص 17 (الهامش 2)،103 (الهامش)،242 (الهامش).

(51) شعوب وقوميات،صص 119 واهامش 1، 79 (الهامش).

(52) حياة الأمير عبد القادر، صص 258 (الهامش 3)، 264 (الهامش 2).

(53) الجزائر وأوروبا، صص 281 (الهامش 7)، 100 (الهامش)، 121، 174.

(54) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،الجزء الأول، ص 61، الجزء الثاني: ص 267 (الهامش 24)، الجزء الثالث: صص 245 (الهامش1)، 317 (الهامش 3)، 338 (الهامش 3). أفكار جامحة، ص 136.

(55) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع، صص 49، 98.

(56) المرجع نفسه، الجزء الثالث، صص 317 (الهامش 1)، 338 (الهامش 3)،

342 (الهامش 1)، 345 (الهامش 1).

(57) منطلقات فكرية، ص 119 والهامش 4.

(58) الجزائر وأوروبا، صص 8، 11 ـ 12.

(59) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، صص 137 ـ 139 (الهوامش 4، 11، 13، 15).

(60) المرجع نفسه، صص 275 و 277 (الهامشين 5، 8).

(61) الحركة الوطنية الجزائرية، ص 268 (الهامش 32).

(62) المرجع نفسه، 41 (الهامش 76)، 42، 52 (الهامش 111). أبحاث وآراء،الجزءالأول: ص137 (الهامش 4)، الجزء الثاني: صص 318 (الهامش 9)، 321 (الهامش 2)، الجزء الثالث: صص 170 (الهامش 1)، 13 (الهامش 1)،177 (الهامش 1)،الجزء الرابع: ص 48 (الهامش 1). أفكار جامحة،صص 112، 145،141 (الهامش22)،355 (الهامش 1)،125. منطلقات فكرية، صص 54 (الهامش 2)، 78 (الهامش 5

(63) أفكار جامحة، صص 125، 136، 140، 145.

(64) أبحاث وآراء، الجزء الأول، صص 338، 345، الجزء الثاني: صص 207، 221،الجزء الثالث: صص 164،198 (الهامش 1)،232،245 (الهامش 4)،302، (الهامش 4)،326، 333 (الهامش 1)،124 (الهامش 4)،265 (الهامش 3).

(65) وردت الحالات الخمسة في الكتب المترجمة التالية: شعوب وقوميات، الحركة الوطنية الجزائرية، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وعلى الخصوص في كتاب: الجزائر وأوروبا: 1500 ـ 1830.

(66) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،الجزء الأول،صص. 305 ـ 311.

51

"تجميع تاريخ الجزائر الثقافي" تأليف أبو القاسم سعد الله

بقلم ألان كرستيلو **(Allan CHRISTELOW)**

أستاذ بجامعة إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة محمد الصالح بكوش ـ معهد الترجمة، جامعة الجزائر.

صدرت هذه المقالة في جريدة أمريكية عنوانهISIM NEWSLETTER= لشهر ماي سنة 2000، تحت عنوان إصدارات، وعنوان جانبي: مراجعة كتاب، بقلم ألان كرستيلو (Allan CHRISTELOW) وهو أستاذ التاريخ بجامعة إداهو بمدينة بوكاتلو، ولاية إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية. وهو مؤلف كتاب: المحاكم الشرعية الإسلامية ودولة فرنسا الاستعمارية في الجزائر

(Muslim Laws and the French Colonial State in Algeria, Pinceton, 1985)

وكتاب: هكذا كان يحكم الأمير عباس: قضايا مختارة من المجلس القضائي لأمير كانو.

(Thus Ruled Emir Abbas: Selected Cases from the Emir of Kano's Judicial Council, Michigan State, 1994).

ونظراً لأهمية هذه المقالة نقوم بترجمتها من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية حتى يتسنى لقراء اللغة العربية الاطلاع عليها والاستفادة منها. وفي ما يلي الترجمة:

عانى الأستاذ أبو القاسم سعد الله المدرس بجامعة الجزائر، وهو يمرّ بأحد المطارات سنة 1988، أبشع كابوس يشهده عالِم، فقد فَقَدَ محفظة تحوي مخطوطاً يكاد يكون تاماً وتعاليق علمية ووثائق يصعب تعويضها، ويمكن أن تؤوَّل هذه الحادثة بصيغة مجازية ككارثة [1] بالنسبة لموضوع الدراسة، وهو تاريخ الجزائر الثقافي. وعلى نطاق أوسع بكثير تسبب الاستعمار الفرنسي في كارثة كانت تُعدُّ محتملة الرسوخ تعلقت بالتراث الثقافي العربي الإسلامي في الجزائر، ففي الهجمات الفرنسية الضارية الأولى على الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أُتلف العديد من الوثائق والمخطوطات، فبعضها لاقى هذا المصير دون مبرر إلا أنّ الجنود الفرنسيين وجدوها ملائمة لإشعال غلايينهم[2]. وإن مصادرة الفرنسيين لأملاك الوقف الإسلامية في المناطق الحضرية جعل المؤسسات التعليمية عالة على الاعتمادات المالية القليلة التي تمنحها السلطات الاستعمارية، وإنّ امتداد اشتعال الثورة من سنة 1954 إلى سنة 1962 قرع أيضاً ناقوس الخطر لأنّ المستوطنين المقاتلين في صفوف المنظمة العسكرية السرية[3] استعملوا مهاراتهم في إحراق المكتبة الوطنية ولأنه تمّ إتلاف أو تبديد مجموعات الكتب الخاصة والدوريات ونقل الأرشيف برمته إلى فرنسا.

لا تُعدُّ مهمة تجميع مواد التراث الثقافي الجزائري مهمةً مستحيلة على الإطلاق على الرغم من كل ما حدث، بينما تُعدُّ بالنسبة للأستاذ سعد الله مهمة مفروضة عليه، فهكذا استأنف الكتابة وبعد عشر سنوات تقريباً من كارثة المحفظة نشر مصنفاً يتكون من تسعة مجلدات يحمل عنوان "تاريخ الجزائر الثقافي" بدار الغرب الإسلامي، وهي دار نشر ببيروت متخصِّصة في نشر الكتب حول المغرب العربي.

هدف الكتاب

يُعدُّ هذا الكتاب موسوعياً يلم بمظاهر الثقافة الجزائرية من تفسير القرآن والشريعة إلى الفنون الجميلة والموسيقى، وتظهر أجزاء عديدة العادات الإسلامية المتعلقة بحياة العلماء. ويشمل المجلدان الأولان الفترة الممتدة من سنة 1500 إلى سنة 1830، أي من الفترة التي سبقت العهد العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، وتشمل المجلدات الستة الموالية عهد الاحتلال، ويتضمن المجلد الأخير فهرساً شاملاً.

يعالج كتاب "**تاريخ الجزائر الثقافي**" مجالاً واسعاً، فهو يُلِّم بأشهر العلماء المسلمين الجزائريين والزعماء الدينيين وبأصغرهم شأناً، وفي نفس الوقت يتطرق إلى المثقفين الفرنسيين والمترجمين والمستشرقين، كما يتناول المسلمين الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية ومزدوجي الثقافة. وإنّ أسلوبه الموسوعي ـ بشمولية مطلقة العنان وتجزئة دقيقة حسب المواضيع في وقت واحد ـ يقدم بديلاً من الدراسة الأحادية، وهي الطابع العلمي الغربي الذي طغى على كتابة تاريخ الجزائر في الفترة التي تلت الاحتلال[5]، فيدخل هذا الكتاب في الحسبان التحري عن شخصيات وأحداث وموضوعات لم يتفطن لها علماء تُوَجِّههم الاهتمامات النظرية الضيقة الأفق[6].

ويتمثل الهدف العاجل لكتاب "**تاريخ الجزائر الثقافي**" في استحداث مرجع علمي، ولكنه من العسير فصل هذه المهمة العلمية عن قضايا أوسع. ويصدر هذا الكتاب ـ الذي هو نتاج الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين ـ في الوقت الذي أصبح جليا أنّ الجزائريين لا يستطيعون الاكتفاء بالانغلاق ببساطة في تقاليدهم العربية الإسلامية، وأنه لا مناص للجزائر من الارتباط بمجتمع

عالمي أوسع. ففي هذين العقدين، وجد كثير من الجزائريين ـ ذوي التوجهين العلماني والإسلامي كليهما ـ أنه قُدِّر لهم أن يعيشوا وأهاليهم في أوروبا وأمريكا الشمالية لأنه طرأ أمر على هوية هذه المجتمعات وهو اقتناعها بإمكانية إجراء حوار بين الثقافتين الإسلامية والغربية وبأنّ الجزائريين يضطلعون بدور هام ريادي في هذا الحوار بفضل مواجهتهم للغرب الطويلة والعنيفة. وفي هذه البيئة الحالية يُعدُّ البحث في التفاعلات الثقافية في العهد الاستعماري أمراً مناسباً.

ثانياً، إنّ العلاقة بين الدين ـ وبمعنى أوسع الثقافة ـ والدولة ظهرت للعيان كمشكل رئيس بالنسبة للجزائر، وإنّ مناقشة متعقلة لهذا الموضوع تتطلب دراسة للعقود الثلاثة السابقة للحرب العالمية الأولى (التي تمّ الإلمام المستفيض بها في هذه المجلدات)، وهي الفترة التي كان الاهتمام بالمسلمين في صلب **السياسة الاستعمارية الفرنسية**، فرعت السلطات الاستعمارية الحاكمة آنذاك مؤسسة إسلامية تقليدية في الجزائر، لكنها كانت هشة لأن التحالفات بين النخب الدينية والحكومات عادة ما تكون كذلك.

وإنّ كتاب سعد الله لا يقترح أي فرضية بسيطة وواضحة المعالم حول العلاقة الناشئة بين الإسلام والدولة، بل بالأحرى يقدم أمثلة يمكن أن تُستخدَم مادة قيِّمة لمناقشة هذه القضية، فكثيراً ما يبدي حماسةً عندما يناقش الباحثين الذين يتحدون التصنيف البسيط، فهم يغرون المرء على التفكير في مدى تعقيد القوى الفاعلة المشكِّلة لماضي الجزائر.

انطلاق الصحافة العربية:

لنتطرق مثلاً إلى **جان ديرايو** (7) ابنة أستاذ في ثانوية بالجزائر العاصمة، وهي

نفسها متحصلة على شهادة في اللغة العربية، أرسلها الجنرال شارل جونار [8] الحاكم العام آنذاك صحبة أبيها في بعثة إلى تونس ومصر سنة 1905، فبحثت هناك في تعليم البنات وفي المنشورات العربية. وعادت إلى الجزائر وأصدرت **"الإحياء"** [9] متأثرةً بها عايته، وهي أول مجلة تصدر باللغة العربية في الجزائر. وقد ساهمت في صدورها شخصيات جزائرية قيادية تابعة لمؤسسة التعليم الإسلامية التي كانت ترعاها الدولة (الفرنسية). وقامت المجلة بنشر مقالات حول القلق الثقافي والسياسي الذي اكتسح العالم الإسلامي في تلك الفترة. وكان شعار **"الإحياء"** الأساسي هو أنّ سياسة الاندماج قد أخفقت وأنّ رفاهية الجزائر في المستقبل تتوقف على الانبعاث الأخلاقي والفكري المبني على أساس العادات العربية الإسلامية. وساعدت **"الإحياء"** على إنشاء مجموعة من صحف أخرى ناطقة باللغة العربية [10] قبل سنوات من الحرب العالمية الأولى برغم أن صدورها نصف شهري تواصل أقل من عامين ونشرت تقريباً أربعة وثلاثين عدداً.

وقابل سعد الله بين **ديرايو** ومعاصرتها **إيزابيل ابرهارت** [11]، وهي شخصية أولاها الأكاديميون الغربيون اهتماماً كبيراً بسبب الانطباع حولها كمغامرة جسورة ومجربة لأساليب الحياة. فنادراً ما تظفر ديرايو بسطر يكتب عنها في أبرز الدراسات باللغة الفرنسية حول الجزائر، فإذا عدت صورتها الخَلقية دلالة قاطعة فقد كانت أنيقة ووسيمة، كما يبدو أنها كانت تنتمي ـ على الأقل جزئياً ـ إلى أسلاف أفارقة، ربما من أصول عائلة منحدرة من إحدى جزر الأنتيل التي تحتلها فرنسا. ويبدو أنّ جزءاً من هدف جونار برعاية مشروعها هو وضع بديل محافظ اجتماعياً لجريدة **الأخبار** [12]، وهي صحيفة يديرها الفرنسي المتطرف فيكتور باروكان [13]، وهو المنشئ الأول للغز ابرهارت. وسرعان ما أخفقت

جهود جونار في إنشاء نوع من التركيبة الفرنسية الجزائرية في الجزائر أوائل القرن العشرين، ويعود ذلك لعدة أسباب منها أنها كانت تركيبة ثقافية استعمارية أُقيمت من القمة إلى القاعدة، عارضها منذ البداية رجال السياسة المستوطنون الفرنسيون، وأيدها مختلف الأشخاص الذين بسبب ثقافتهم أو مواقفهم بذلوا مجهودات من أجل إنشاء ما يمكن أن يُطلق عليه اليوم اسم المجتمع متعدد الثقافات، وتعطلت المجهودات أيضاً بسبب القانون الفرنسي الداعي إلى الفصل بين الدولة والدين والذي تمت المصادقة عليه سنة 1905.

ناشط مسلم بوسام استعماري:

بما أنّ التركيبة الاستعمارية (التي كوَّنها جونار) انهارت، فقد اتخذت وسائل تعبيرية إسلامية جديدة في الجزائر طابعاً أكثر شعبية وسياسية. وتمثل مؤشر هذا التحول في شخص عباس بن حمانة الذي كان ذا أثر في إقامة أول مدرسة إسلامية عصرية يؤيدها المجتمع الجزائري بتبسة، وهي مدينة تقع قرب الحدود التونسية على بعد حوالي مائتي كيلو متر جنوب البحر المتوسط. وكانت تبسة في موقع منعزل ولكن برغم ذلك كانت معرضة إلى تيارات جديدة تزحف من تونس وطرابلس.

ويُعدُّ ابن حمانة من عدة جوانب التابع النموذجي للاستعمار، فقد قلَّده الفرنسيون وساماً بسبب حماسته المفرطة كمقاول زراعي. ولكن عندما غزا الإيطاليون ليبيا سنة 1911 أصبح ابن حمانة ـ مثل كثير من الاندماجيين الجزائريين ـ النصير المتحمس للثوار، فراسل قائد الثوار الطرابلسيين سليمان الباروني.

ولم يلبث ابن حمانة بعد ذلك أن وقع في شرك نزاع حول السياسة المحلية

بتبسة، فتعرض لغضب رئيس البلدية الفرنسي الذي ألقى به في السجن، ولكنه بدأ تحالفاً جديداً مع شارل ميشال المهندس المعين بتبسة للعمل بمناجم الفسفاط القريبة من هناك، وكان عضواً في جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان. وبفضل تلك العلاقة، استطاعت قضية ابن حمانة الوصول إلى مجلس النواب بباريس حيث برأت ذمته سنة 1913، وما لبث أن قُتل في العام الموالي نتيجةً ـ حسب ما يبدو ـ لثأر متصل بالسياسة المحلية.

وبينما كانت سيرة ابن حمانة غامضة إلا أنها يمكن أن تُعدّ كنموذج صغير للموضوعات التي استمرت تثقل كاهل الحياة السياسية الجزائرية، مثل ارتباطها بالقضايا الإسلامية العالمية والقضايا المناهضة للإمبريالية، ونشاطات الدفاع عن حقوق الإنسان، والإسلام كعامل للتعبئة الشعبية، والعنف المتفشي بين الفصائل الذي ربما كان بتأثير من السلطات العاليا ولكن بحركيتها الذاتية وبجهود تسعى إلى تقويض الخطط الهادفة إلى إقامة هيئة سياسة دائمة.

مصلح في زاوية:

توجد شخصية أخرى معقدة شدَّت انتباه سعد الله تتمثل في عبد العزيز بن الهاشمي بن إبراهيم الذي كان يدير محفل القادرية الصوفية أو الزاوية في مجتمع الواحة بالوادي، فقد أرسله أبوه للدراسة بجامعة الزيتونة الإسلامية بتونس حيث استوعب الانتقادات السلفية للصوفية، ثم انضم سنة 1937 إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تتبنى التعليم الإسلامي العصري بتوجه سلفي متشدِّد. وبعد ذلك فتح مدرسة برعاية هذه الجمعية في مأوى العائلة بالوادي. ولم تمض إلا فترة قصيرة بعد ذلك حتى سقط ضحية لتلاعبات

الصراعات المحلية والتوترات العالمية، فاتُّهم بتأييد المؤامرة الألمانية الإيطالية وحُبس بسجن الكدية الذائع الصيت بمدينة قسنطينة [14].

من الوادي إلى مينيا بوليس:

إنّ القصة تتعلق بالأستاذ سعد الله شخصياً لأنه كان يترعرع في الوادي عندما وقعت الأحداث السالفة الذكر. ولقد واصل دراسته بمساعدة جمعية العلماء في أول الأمر بتونس، ثمّ بالقاهرة [15]. واتخذ مساره التعليمي منحىً جديداً سنة 1962 عندما التحق بجامعة منيسوتا بعد حصوله على منحة فولبرايت لتحضير شهادة الدكتوراه في التاريخ. وبعد ثلاثة عقود تقريباً راح ينجز معظم بحثه بالحجم الحالي في الأروقة الهادئة لمكتبة جامعة منيسوتا بمساهمة هيئة الإعارة المتبادلة بين المكتبات التي ساعدته على تجميع بعض أجزاء تاريخ الجزائر الثقافي المبعثرة التي ساقتها رياح اليُمن إلى أمريكا الشمالية.

الهوامش

(1) استعمل الأستاذ أبو القاسم سعد الله مصطلح "النكبة" عندما تطرق إلى هذه الحادثة في مقدمة الجزء الثالث من كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي.

(2) مفرد الكلمة: غليون.

(3)) OAS (Organisation Armée Secrète

(4) تمّ إحراق المكتبة الجامعية من طرف المنظمة العسكرية السرية نكاية في الجزائريين الأحرار. يوم

(5) وهي الطريقة المقتصرة على النظرة الاستعمارية لاحتلال الجزائر المتمثلة في كتابة تاريخ الجزائر بأقلام وأفكار فرنسية.

(6) هو ادِّعاء المؤرخين الفرنسيين انتهاج الطرائق الموضوعية والمنطقية في معالجة قضايا حساسة من تاريخ الجزائر، وخاصة الجانب الثقافي منه.

(7) Janne DESRAYAUX

(8) Charles JONNART

(9) جريدة **الاحياء** تصدر مرتين في الشهر في مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1907، ويسيرها المستشرق لويس بوداي (Louis BOUDET) وتطبع في المطبعة الشرقية لفونتانا.

(10) الصحف الناطقة بالعربية، مثل: كوكب إفريقيا، الجزائر، ذو الفقار، الفاروق، الساجي، البريد الجزائري، الفضيلة، الروح، وغيرها.

(11) Isabelle EBERHART.

(12) جريدة **الأخبار** هي أقدم الجرائد في الجزائر أسست في 12 جويلية سنة 1839، فكانت أسبوعية وصدرت مرتين في الأسبوع ثم ثلاث مرات في الأسبوع وأخيراً يومياً. وتوقفت عن الصدور سنة 1897 واندمجت في جريدة **التلغراف الجزائري** (TELEGRAMME ALGERIEN)، وكانت تمثل الحزب الجوهوري الراديكالي.

(13) Victor BARRUCAND

(14) سُجِن رفقة الشيخين المعلمين بالزاوية: علي بن سعد حيران وعبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل سنة 1938.

(15) حول السيرة الذاتية **للأستاذ أبي القاسم سعد الله**، ينظر: أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، صص. 177 ـ 179.

ـ دراسات وشهادات، مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، عمل على جمعها وإخراجها ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

تجميع تاريخ الجزائر الثقافي: تأليف أبو القاسم سعد الله، بقلم ألان كرستيلو (Allan CHRISTELOW)، ترجمة محمد الصالح بكوش، جريدة البصائر، العددان 78 ـ 79، الجزائر، 7 ـ 14 / 14 ـ 21 جانفي 2002.

52
شيوخ وحفَدة..
حكاية كتاب.. وتواصل أجيال

الأستاذ: لخضر بولطيف/جامعة المسيلة، الجزائر

تعود معرفتي بشيخ المؤرخين الجزائريين وقدوة الباحثين الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، إلى أواسط عقد الثمانينيات من القرن الماضي، وكنت يومها شابا حدثا مولعا بالمطالعة، حينما حظيت باقتناء بعض كتبه المنشورة آنذاك؛ من قبيل تاريخ الجزائر الثقافي في جزئيه الأول والثاني، وتجارب في الأدب والرحلة، والطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري. ولا يسعني الإنكار أنني وقتها لم أجدني متحمسا كثيرا لقراءة ما اشتملت عليه هذه الكتب، إذ لم أكن انخرطت بعد في الاهتمام بصنف الدراسات الأكاديمية.

ثم كان اتفق لي أن تابعت برنامجا تلفزيونيا في مطلع التسعينيات ـ على ما أذكر ـ استضيف فيه الفقيد، ولعلها أول مرة أراه فيها، وقد تشعّب النقاش فيه حول مسائل شتى، ولم يكن الشأن السياسي المحتدم ـ يومئذ ـ بمنأى عن ذلك. ولكأني به بدا منزعجا بعض الشيء من طبيعة الأسئلة المطروحة، والتي لم تكن تخلو ـ فيما يبدو ـ من الإيحاء والاستدراج، ولكن الأستاذ ظهر لي ـ إن لم يكن انطباعا مستجدا؛ إذ أنني عاودت مؤخرا مشاهدة الشريط المرفوع على موقعه[1]

(1) الموقع على الرابط: http: //www. aboulkacemsaadallah. com

ـ واثقا من تقديره، مصمما على موقفه، ذلك الموقف الذي لا نشك أنه كان من دون تبعات.

وتدور الأيام دورتها، وتمر السنون تباعا، لأتخرج من الجامعة باحثا شغوفا بالتاريخ، ثم لأنتسب إلى هيئة التدريس بها، وقد توثقت صلتي بمؤلفات عميد الدراسات التاريخية، ولم يحل تخصصي الدقيق في "التاريخ الإسلامي الوسيط"، دون الاعتناء بمتابعة جديد مؤلفات الرجل، التي ما فتئت تهل علينا بين الفينة والأخرى. وستظل ذكرى عزيزة على نفسي يوم أقبلت عليه أواخر سنة 2006، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري"، ببسكرة، فأهديته باكورة أعمالي؛ كتابي: الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي[1].

كما أتيحت لي فرصة ثانية للقائه، بعدها بنحو خمس سنوات، بمدينة تلمسان، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها"؛ في إطار احتفالية تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، وكان مما استمعنا إليه في محاضرته الافتتاحية، ما عبّر عنه في سياق الأسى أو العتب عن حواضر طاردة لعلمائها، وعلماء أشقياء بعلمهم، فيما لا يبعد عن إسقاط وقائع الماضي على أحداث الحاضر. ولم أشأ أن أفوّت هذه الفرصة ـ أيضا ـ دون إهدائه كتابي الثاني: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي"[2].

ويبدو أن لقاءنا هذا كان أعلق بذهنه من لقائنا الأول، ولعله ما يعكسه

(1) صدر سنة 2005، عن المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر؛ ضمن الأعمال الفائزة بجوائز المجلس، في مسابقته لأفضل البحوث في حقل الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

(2) صدر سنة 2009، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية؛ ضمن سلسلة الرسائل الجامعية.

قوله ـ لاحقا ـ في حق مُهديه: "حين أهداني كتابه: فقهاء المالكية، منذ عام ونصف، استلمته بيد الشكر دون أن أقرأ حيثياته، ولا عبارات الإهداء، لأننا كنا نحضُر مناسبة عامة فيها حركة وضجيج، فاكتفيت بقراءة العنوان ثم رفعت رأسي إلى صاحب الإهداء لأهنئه على صدور الكتاب؛ ظانّا أنه مثقف متقدم العمر، فإذا هو شاب لا يكاد يدخل حرم الكهولة... وقد أتيحت لي فرصة التأمل في الكتاب ومحتوياته، ومنهج صاحبه، ونوع تفكيره، فبدا لي كتابا يعبّر عن ذهنية صافية، وقدرة عالية على علاج موضوع شائك؛ مثل العلاقة بين سلطة الموحدين وسلطة فقهاء المالكية" [1].

وكنت بعد لقائنا الأخير بتلمسان أوائل سنة 2011، بدأت أَلملم شتات مقالاتي وأبحاثي التي تمثل حصاد مشاركات ومساهمات في ندوات ومؤتمرات علمية انعقدت خلال خمس سنوات مضت، بعدد من الأقطار العربية؛ مشرقا ومغربا، لمّا خطرت لي فكرة أن ألتمس منه أن يشرفني بوضع تصدير لمجموع هذه المقالات، والذي اخترت له عنوان: "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي: مقاربات في التاريخ والمنهج"؛ قبل أن أنزل ـ بعدئذ ـ على اقتراح الناشر، فيصدر بعنوان: "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي: مقاربات منهجية"[2].

ولقد وجدتني بين مقدم ومحجم، نظرا لما كان يبلغني من كثرة أشغاله

---

(1) من نص تصديره لكتابي: الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي، دار رؤية، القاهرة، 2013، ص8 ـ 9.

(2) صدرت طبعته الأولى عن دار رؤية، بالقاهرة، سنة 2013، وستصدر طبعته الثانية ـ وشيكا ـ بالجزائر ضمن سلسلة الكتب المحكمة في الدراسات التاريخية والحضارية، عن منشورات مخبر البحث التاريخي: "مصادر وتراجم"، بجامعة وهران.

والتزاماته، حتى أنه ربما اعتذر عن تلبية مثل مرادي لمن هم أعلى مني رتبة، وأطول باعا في الكتابة والنشر، ولكنني ـ مع ذلك ـ تغلبت على وَجَلي، وخاطبته بطلبي في رسالة بعثتها على بريده الإلكتروني، وما هي إلا أن جاءني ردّه بأسرع مما توقعت، وتبادلنا خلال الأشهر التالية عددا من الرسائل، لا أجد أنسب من إيراد نصوص عدد منها، لما تنطوي عليه من مؤشرات ذات مغزى ودلالة، في التواصل بين جيلين من الباحثين، فرّق بينهما الزمان والمكان، ووصل بينهما اتحاد الهدف، واشتراك الغاية.

* * * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بسكرة، يوم: 16/ 06/ 2012

فضيلة الباحث القدير الأستاذ الدكتور: أبو القاسم سعد الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنه لمن دواعي سروري وغبطتي أن أسعد بمخاطبتكم اليوم، بعد مرور ما ينيف عن سنة على لقائي بكم ضمن فعاليات احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، إذ سنحت لي حينها فرصة إهدائكم نسخة من كتابي: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي".

ولقد شجعني ثناؤكم على الكتاب وإطراؤكم لصاحبه، على أن أفاتحكم برغبتي في أن تتكرموا بمنحي شرف تصدير كتابي الجديد: "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، وهو سفر جامع لعدد من الأبحاث والدراسات

التي كنت شاركت بها في مواعيد علمية شتى؛ داخل الوطن وخارجه، وتراوحت بين مقاربات في التاريخ، ونظرات في المنهج.

وإذ ليس يعزب عني ما أنتم في خضمه من الاعتكاف على استكمال حلقة العصر الوسيط من مشروعكم الكبير "تاريخ الجزائر الثقافي"، فإنني أرجو ألا يحول ذلك دون إجالة النظر في أوراق الكتاب الذي أعتزم مطالعتكم به عن طريق بعض الزملاء ممن يحظون بإشرافكم، عسى أن تقرأوا بين ثنايا حروفه نبض وجدان يستهدي معالم سيرتكم العطرة، في متابعة مسيرة مؤرخ يستحفه الطموح، ويؤطره الالتزام.

وفي انتظار ردكم الكريم تفضلوا سيدي بقبول فائق آيات التقدير والاحترام.

محبكم؛ محل بعض تلامذتكم: الأستاذ لخضر بولطيف

قسم التاريخ، جامعة المسيلة

* * * * *

الاثنين: 2012/06/18

الأستاذ الفاضل بولطيف

لطف الله به، وشكرا على عباراتكم العطرة واللطيفة. يوم كتابة رسالتكم كنت في طريقي إلى غربة تدوم حوالي شهر من أجل الكتاب الذي ذكرتم. وسأعود إن شاء الله لقضاء رمضان في الوطن. عندئذ أرجو أن تتفضلوا بإرسال ما ذكرتم لعلني أستطيع أن أفعل ما طلبتم وأتمنى على الله القدرة على إنجازه

ومشاريعي الأخرى.

هذا وأهنئكم بالكتاب مقدما. وأتمنى لكم صيفا منعشا وصحة جيدة في [ربوع] الزيبان أو أحضان الحضنة، والسلام.

أبو القاسم سعد الله

* * * * *

الاثنين: 18/ 06/ 2012

أستاذي العزيز الباحث الألمعي الدكتور أبو القاسم سعد الله

تحية إكبار وتقدير، وبعد

فلكم أثلج صدري ردكم الكريم، وكنت على وَجَل من أن تحول شواغلكم الجسام دون الرد على رسالتي. أما وأنكم قد آثرتموني بحدبكم وعنايتكم، فإنني سأرقب عودتكم بفارغ الصبر، داعيا المولى عز وجل أن يمتعكم بالصحة والعافية، وأن يبارك أوقاتكم وجهودكم، عسى أن تعودوا إلينا كدأبكم دائما بثمرة جديدة من ثمرات فكركم النير، وأثر طيب من آثار قلمكم المعطاء.

وإلى أن أحظى بشرف لقائكم ـ مجددا ـ تقبلوا مني خالص المودة والتقدير.

المخلص لخضر بولطيف

من ما بين الحضنة والزيبان

* * * * *

ثم إني تمهلت في معاودة الاتصال بالأستاذ إلى ما بعد حلول شهر رمضان

بنحو أسبوعين، فخاطبته مهنئا ومذكرا، فأجابني سائلا ومستفسرا عن بعض مسائل استوقفته في الكتاب، ولم يكد يحلّ علينا عيد الفطر المبارك، حتى كان قد فرغ من تدبيج نص التصدير.

*****

الاثنين: 06/ 08/ 2012

الأستاذ العزيز الباحث القدير الدكتور أبو القاسم سعد الله

حفظه الله ورعاه، ونفع به في العالمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فلم أزل أترقب عودتكم إلى أرض الوطن، راجيا أن تكونوا قد أفدتم من جولتكم العلمية، مع ما يمكن أن يكون قد أتيح لكم من تغيير الأجواء، واستطلاع الجديد.

والواقع لم يكن ثمة ما يحدوني لأثقل عليكم بتجديد طلبي في هذا الشهر الفضيل، لما له من سمت وخصوصية، عدا إلحاح صاحب دار رؤية بالقاهرة على موافاته بتصديركم الكريم للكتاب، وهو يزمع المشاركة به ضمن منشورات الدار في معرض الجزائر الدولي للكتاب، المرتقب انعقاده شهر سبتمبر القادم.

وعلى ذلك وجدتني ملجأ لمفاتحتكم بهذا الشأن مجددا، وقد ارتأيت أن أرفق خطابي بنسخة إلكترونية من الكتاب، في انتظار أن تأذنوا لي بمطالعتكم بالنسخة الورقية منه.

وختاما، أدعو الله تعالى أن يجعل أيام رمضان ولياليه، مواسم خير وبركة، تنالكم فيها ألطاف السماء، ويزداد حظكم من الأجر والثناء.

محبكم: لخضر بولطيف

بسكرة

*****

السبت: 18/ 08/ 2012

سي بولطيف السلام عليكم وبعد

رغم رمضان وحرارة الجو غير العادية وطول النهار فقد وفق الله وصغت مسودة التصدير، ولكن قبل ذلك وددت أن أرجع إليك في نقطة أراها هامة وأخرى أراها في درجة ثانية.

الأولى هي أنك صوّرت الموحدين ـ كما فهمت ـ من دعاة الحرب على الرأي. وهذا ـ كما فهمت أيضا ـ مخالف لما هو مرويّ عنهم. فهم أهل الرأي وإعمال النظر في النصوص ودعاة التأمل والتأويل فيها والبعد عن التجسيم.. وهذا ما اتخذوه حجة ضد المرابطين أهل النقل والفروع وفهم النصوص على ظاهرها حسب مذهب الأمام مالك. وأنت العليم بأن أهل الرأي هم الحنفية والمعتزلة والموحدون ومن شاكلهم. فهل أنا على خطإ في فهم رسالتك.

النقطة الثانية هي أن بحثك عن الفاتح عقبة بن نافع تركته مفتوحا، ولم تكمل الحديث عن تركته الجهادية، هل قصدت إلى ذلك قصدا؟

نظرا إلى أن كاتبتي أخذت عطلة العيد فإن كتابة التصدير بنت أناملي، أي أن إخراجها غير فني. وسوف لن أبعث لك القرص معها، فإذا أراده الناشر فأعدّه أنت بمعرفتك وإلا فإن الكاتبة ستعود بعد نصف شهر أو عشرة أيام أخرى.

كل عام وأنتم بخير.

أبو القاسم سعد الله

*****

السبت: 18/ 08/ 2012

قدوتي وملهمي فضيلة الباحث القدير الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد

فلله دركم في تفانيكم ومثابرتكم، ولله دركم في أريحيتكم وتواضعكم. لئن حرمتني الأقدار من أن أجلس منكم مجلس الدرس والطلب، فإنها منّت علي بكتاباتكم الرائقة أنهل منها ما عسى أن يكون لي كالإجازة يعتزي بها من لم يظفر بشيخ أو يحظ برحلة.

أستاذي العزيز.. لقد أثرتم في تعليقكم على أبحاث الكتاب نقطتين:

فأما الأولى فتتعلق بموقف الموحدين من "الرأي". والواقع أن ثمة لبسا كبيرا يكتنف هذه الناحية من تاريخ الموحدين؛ فلطالما كيلت التهم لأسلافهم المرابطين تأثرا بما قررته الرواية الموحدية السائدة في غياب نظيرتها المرابطية، وإلا فإن عددا من الأبحاث المعاصرة التي أنجزها بعض زملائنا في تونس والمغرب،

قد فندت الصورة النمطية المتوارثة بشأن المرابطين وموقفهم من الرأي والتأصيل، والكلام والتأويل. وفي مقابل ذلك لم يعد خافيا أن ما أشهره ابن تومرت مهدي الموحدين في مبتدإ دعوته من اتهامات وصم بها المرابطين، إنما لا يحسن عزله عن مقتضيات الدعاية السياسية، ومصداق ذلك أن خلفاء ابن تومرت لم يجدوا حرجا، بعد المرور من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، في التعاطي مع من وصفهم إمامهم بـ "المجسّمين"، و"المكّارين".

عدا أن موقع "الرأي" في منظومة الفكر الموحدي، يمكن تجليته استنادا إلى الممايزة بين معطيين (الرأي العقدي/ الرأي الفقهي):

فمن ناحية فإن الموحدين يحبذون إفساح المجال لإعمال النظر في المسائل العقدية على غرار المعتزلة ومتكلمة الماتريدية والأشعرية، وهي الناحية التي وظفها ابن تومرت في الإنحاء باللائمة على فقهاء المرابطين ممن كانت لديهم بعض تحفظات في الانفتاح على المقررات الكلامية؛ وخاصة كلما كان ذلك بمحضر من العامة التي يخشى على فهومها من الكلام والتأويل.

ومن ناحية أخرى تشدد الموحدون في إقرار القياس الذي يمثل عمدة الرأي لدى فقهاء المالكية، معولين على جدوى استمداد النصوص، والتقيد بمنطوقها، وقد أقدموا في سبيل ذلك على إحراق مدونات فقهية مالكية شهيرة مثلت خلاصة الرأي الفقهي المالكي عبر قرون من الزمن، ما كان أحد البواعث التي حملت خصوم الموحدين على اتهامهم بانتحال الظاهرية.

أما النقطة الثانية التي أثرتموها في تعليقكم، فمدارها نهاية المقال الذي خصصته للفاتح عقبة بن نافع، وأنا أوافقكم الرأي تماما في كون النهاية المفتوحة

قد فوتت على الباحث الفرصة في تقويم التركة الجهادية للقائد الفاتح. وعلى الرغم من أنني قصدت حين أنجزت البحث تناول فترة محددة من حياة الفاتح، وهي المرحلة المغمورة من مسيرته الجهادية؛ مرحلة الرباط التي استغرقت نحو ربع قرن من حياته، إلا أنني اقتنعت فيما بعد، وهو ما تداركته في مداخلة لي في مناسبة مضت وشيكا، أن آثار مرحلة الرباط كانت لها امتدادات وانعكاسات على حركة الفتح، ليس من الحري إغفالها، عدا أن ما أخذت به نفسي من ترك أبحاث الكتاب على حالها يوم أنجزت، كأنما لتعكس بدورها مرحلة من حياة الباحث قابلة للتقويم والتجاوز، هو ما حدا بي إلى الإعراض عن إدراج عدد من التعديلات التي تراءت لي في هذا المقال وغيره، مما يشكل محاور الكتاب الجديد.

وخشية أن أكون أسرفت في تقديم التوضيحات المطلوبة، أقول عودا على بدء إنني أكبر فيكم أستاذي العزيز ما أبديتموه حيال طلبي من تحف وعناية، وإنني لأسعد الناس بتصديركم الذي شرفتم به مجموعة أبحاثي المتواضعة، وإنني لأرتقب توصلي به بلهفة وشغف، وليس يضير الجانب الفني، فإني سأتولاه بكل حرص واهتمام، وإني لأرجو أن أطالعكم بأولى نسخ الكتاب حال انعقاد معرض الجزائر الدولي للكتاب بعد نحو شهر من اليوم.

وفي انتظار توصلي بنص التصدير، تفضلوا أستاذي العزيز بقبول أرق تحياتي وأزكى سلامي، مع خالص تمنياتي لكم بقضاء أوقات طيبة هنيئة رفقة العائلة الكريمة بمناسبة عيد الفطر المبارك.

محبكم، الأستاذ لخضر بولطيف

بسكرة، آخر ساعة، من آخر أيام شهر رمضان 1433هـ

*****

ثم كان منه أن طالعني في اليوم الموالي بنص التصدير، مؤكدا على ضرورة الاجتهاد في إخراجه "بطريقة علمية سليمة". عدا أنني شغلت يومها بمرض الوالد، وملازمته في العيادة الطبية، فلم تتح لي فرصة الرد وإزجاء الشكر إلا بعد مرور بضعة أيام.

*****

الاثنين: 27 أوت 2012

أستاذي العزيز، فضيلة الباحث القدير، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله ورعاه، ونفع بعلمه في العالمين

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد سعدت، بل هو شعور فوق الانتشاء والحبور، يوم توصلت بتصديركم الكريم لكتابي المتواضع، ولو لا انخراطي منذ يومذاك في الانشغال بمرض الوالد ـ شفاه الله وعافاه ـ لكنت أحسنت التعبير عما تملكني من مشاعر غامرة دافقة حينها، على أنني أود في هذه العجالة أن أعرب لكم ـ زيادة عن واجب الشكر والامتنان ـ عن مدى حاجة جيلنا إلى من يأخذ بيده من الرواد الذين تتصدرون طليعتهم.

ما أشد حاجتنا إلى التقدير المخلص؛ قدر حاجتنا إلى النقد البناء. إنني أعتبر نفسي محظوظا إذ حظيت بالتقدير مشفوعا بالنقد، ممن أعتبره مثلي الأعلى، بل ممن لا يجازف بالقول، ولا يرسل الكلام على عواهنه، ولم تكن المجاملات ديدنه في

يوم من الأيام.

وأذكر وأنا أطالع بعض فصول كتابكم "أبحاث وآراء" تلك التصادير التي لم تجد طريقها إلى النشر في مستهل كتب أصحابها، لا لشيء سوى لأن مدبّجها نأى بها عن أن تكون مجرد تقريظ يجلي المحاسن، ويغضي عن النقائص.

بيد أنني لا أخفيكم ـ أستاذي العزيز ـ أنه بقدر ما غمرني من مشاعر الجذل والغبطة، بقدر ما انتابني شعور بعظم المسؤولية الملقاة على عاتق أصحاب الكلمة. وإذ أود أن أظل في مستوى ما استشرفتموه، وما أطريتموه، فإنني سأعمل جاهدا على احتذاء سبيلكم، ومقاربة نهجكم، عسى أن أكون جديرا بتقديركم، وحمل أمانة الكلمة الرشيدة.

ولكم مني خالص المودة والثناء والتقدير.

محبكم وابنكم لخضر بولطيف

بسكرة

*****

الاثنين: 27 أوت 2012

الأخ الأستاذ لخضر بولطيف تحية طيبة وبعد

لم أزد على أن عبّرت عن شعوري ومسؤوليتي فيما قرأت من كتابك الغني بالمعلومات واللغة الجميلة الراقية التي افتقدناها في مطبوعاتنا الضحلة، خصوصا كتب الترجمة والبحث.

كان الواجب أن أبدأ رسالتي بالسؤال عن أحوال والدكم الآن. أرجو أن تكون وعكة عابرة وأنه قد استعاد عافيته.

من كثرة ما قصدني الباحثون والكتاب طلبا لتصدير أو تقديم أعمالهم الأولى أصبحت أتهرب بل أرفض أن أستمر في هذه العملية، أولا لضيق وقتي (لأن كل تصدير يأخذ مني وقتا ثمينا للقراءة والتقييم قبل الكتابة)، وثانيا حتى لا أصبح كبعض أسلافنا الذين كانوا يتساهلون في كتابة الإجازة لمن طلبها منهم، حتى اشتهر بعضهم بأنهم يمنحون الإجازة بالسماع فقط..

وثق أن التصدير كتب للعلم لا للعالم. والسلام.

أبو القاسم سعد الله

*****

ثم إننا استأنفنا مراسلاتنا بعد نحو أربعة أشهر على خلفية اقتراح صاحب دار النشر تعديلا على عنوان الكتاب، من "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، إلى "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي"، لاعتبارات تتصل ـ غالبا ـ بمنطق الرواج التجاري. وقد استشرت الأستاذ في ذلك مقتنعا أن المصدِّر شريك للمؤلف، عدا أنه أبدى بعض تحفظ بشأن الصياغة المقترحة، وكان من رأيه أنه لو عدَلنا إلى عنوان: "دراسات في الفقه والتاريخ من الغرب الإسلامي"؛ كونه ـ بحسبه ـ "فيه تواضع وعلمية، وتعبير أكثر دقة".

وعلى أن الكتاب صدر مفتتح سنة 2013 بالعنوان الذي اقترحه الناشر، وقد جاب به عددا من معارض الكتاب في البلاد العربية، فلم أتوصل سوى بصورة

غلافه، وظللت أتطلع إلى موعد انعقاد معرض الجزائر الدولي للكتاب، مؤملا الظفر بنسخي المقررة منه. وحيث أنني أطلعت الأستاذ بآخر هذه المستجدات، فإنه لم يلبث أن خاطبني بآخر رسالة تلقيتها منه، وأجبته عنها، إبان مرضه الأخير الذي ألم به، والذي انتقل بإثره إلى الرفيق الأعلى.

* * * * *

الثلاثاء: 2013/10/09

الأستاذ المحترم بولطيف

شكرا على إخباري بصدور كتابكم الأخير. الناشرون دائما يفاجئون المؤلفين بأشياء لا يتوقعونها، وإذا أمكن أن تبعثوا إلي نسخة من الكتاب أو من التقديم التي كتبته له.

هذا ولعلك علمت أنني مريض مما أعجزني عن الكتابة، حتى هذه الرسالة كتبت بمساعدة أحد أفراد العائلة.

دمتم بخير، والسلام.

سعد الله

* * * * *

الأحد: 2013/10/13

أستاذي العزيز، فضيلة الباحث القدير، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فقد أهمّني خبر مرضكم الذي لم أعلمه من غيركم، ولم يكن لدي رقم هاتفكم لأطمئن عليكم بين الفينة والأخرى، وما تجرأت في يوم على طلبه منكم.

ولا أملك سوى أن أبتهل إلى الله عز وجل في هذه الأيام المباركات، أن يمن عليكم بالعافية والإبلال من مرضكم؛ فأنتم في قلوبنا في معزّة الوالد والولد.

أما بشأن الكتاب فلم أتوصل منه عدا بصورة غلافه، وإنني أترقب موعد المعرض الدولي للكتاب، حيث يسعني اقتناء حصتي من النسخ، ولن أتأخر حينها في مطالعتكم بنسختكم منه.

هذا، وتجدون نص التصدير الذي كرمتموني به مرفقا بخطابي إليكم.

مع خالص المودة والثناء والتقدير.

محبكم وابنكم لخضر بولطيف

بسكرة

*****

نص تقديم الكتاب

حين أهداني كتابه: "فقهاء المالكية"، منذ عام ونصف، استلمته بيد الشكر دون أن أقرأ حيثياته، ولا عبارات الإهداء، لأننا كنا نحضُر مناسبة عامة فيها حركة وضجيج، فاكتفيت بقراءة العنوان ثم رفعت رأسي إلى صاحب الإهداء لأهنئه على صدور الكتاب؛ ظانّا أنه مثقف متقدم العمر، فإذا هو شاب لا يكاد يدخل حرم الكهولة، فقلت لنفسي إنه ـ إذن ـ كبعض الآخرين أصحاب

الدعاوىٰ العريضة الطموحين إلىٰ طبع رسالة الماجستير في كتاب مهما تكن قيمته العلمية. ثم سلمت واحتملت الكتاب، وتوجهت وجهة أخرىٰ.

وقد أتيحت لي فرصة التأمل في الكتاب ومحتوياته، ومنهج صاحبه، ونوع تفكيره، فبدا لي كتابا يعبّر عن ذهنية صافية، وقدرة عالية علىٰ علاج موضوع شائك؛ مثل العلاقة بين سلطة الموحدين وسلطة فقهاء المالكية، فقلت في نفسي: كيف استطاع شاب كمؤلفه أن يصنع كتابا كالذي بين يدي، بينما أساتذة بلغوا شأوا عاليا في العلم والتدريس لم ينتجوا مثله في رحلتهم عبر تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس. واعترفت أن الموضوع ليس سهلا، وأنه عالج فيه مذاهب وأفكارا ومناهج سادت المنطقة خلال عدة دول ومحطات إيديولوجية، في زمن انتقلت فيه المنطقة من حالة الركود الحضاري إلىٰ حالة التخلف العقلي، والحالة الأخيرة هي التي ما زلنا نعيش في محنتها حسب بعض المنظرين (ابن نبي، مثلا).

لكن الإجابة لم تطل، فبعد عام ونصف وصلتني رسالة تطلب مني تصدير كتاب باسم "مسارات حضارية... "، وكنت قد نسيت الربط بين المكونات الثلاثة: كتاب فقهاء المالكية، وكتاب المسارات، والمؤلف. فقلت في نفسي لعل صاحب الطلب مؤلف من طينة الشباب الذين يتطلعون إلىٰ نشر إنتاجهم في مناسبة وطنية ـ وما أكثرها ـ لا تراعي العلم وإنما التشجيع، وأن بعض أصحاب هذه الأعمال عادة يطلبون مني تصدير باكورة أعمالهم. وهكذا وجدتني قد ربطت بين الأستاذ بولطيف وجيله أكثر من ربطي بين بولطيف وإنتاجه. وقد ترددت ـ كعادتي ـ سيما والطلب جاءني وأنا أستعد للقيام برحلة علمية خارج الوطن، فكتبت لصاحب الطلب أشرح له وضعي، وأطلب منه تأجيل إرسال

"المسارات" إلى ما بعد رجوعي.

وجاءني الكتاب في الوقت المتفق عليه تقريبا عن طريق الإيميل، فسحبت منه نسخة لقراءتها قبل الإقدام على التصدير، فوجدت فيه علما غزيرا، وطاقة في البحث غير معتادة مع الأسماء الجديدة. فقلت في نفسي: لا بد قبل أن أكتب التصدير، وأرمي بالقارئ في متاهة يحاسبني عليها، أن أطلب من الأستاذ بولطيف أن يبعث لي بسيرته الذاتية، متوهما أنها ستساعدني على الحكم الموضوعي على الكتاب وصاحبه، وتكشف لي عن جوانب لا أعلمها عن المؤلف، فأمدني بها.

وحين قرأت رصيده في السيرة؛ ومنه أبحاث "المسارات"، وجدت العلاقة واضحة جلية. فالأستاذ لخضر بولطيف من مواليد 1970، قضى معظم سنوات عمره في التحصيل من مناهل فكرية عديدة، وأنه باحث مستهلك للعلم والكتب، نشط في المشاركة بالمؤتمرات والرحلات، وأنه يمتلك قدرة كبيرة على التوثيق والتحليل والمنهجية، لا نجدها عند الكثيرين من جيله بالجامعات. ولكنه ليس من الجيل الذي يعمل كل ما في وسعه للحصول على شهادة، ولو كانت على حساب التضحية بالأمانة والمنهجية، جيل يجد مع ذلك مؤطرين لا يأخذونهم بالجد والصرامة ليخرجوا منهم باحثين مؤهلين.

أما القارئ لكتاب الأستاذ بولطيف الجديد (عشرة أبحاث أو عشر مقالات، كما سماها) فسيجد فيه مواضيع مختلفة؛ يجمع بينها الحراك الفكري، ومنهجية البحث، سواء تعلق الأمر بمسيرة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس أو العلاقة بين حضارة الشام والأندلس، وهي الحضارة التي أينعت وشعّت على

بلدان المغرب العربي أيضا. وليس هناك ضرورة لذكر عناوين المقالات العشر أو الأبحاث، فهي مذكورة في المقدمة كما هي مذكورة في الفهرس.

ليس لي ما تمنيته على صاحب "المسارات" إلا التخفيف من طول العنوان، وإعادة النظر كرتين في نسبة القول "بالرأي" لعلماء المرابطين، وفي إطلاق وصف "حضارية" للمسارات، لأنها قد تكون نشازا في المرحلة التي عالج فيها أكثر من بحث، وهي المرحلة التي توصف عادة بأنها مرحلة تخلّف. وإذا كان هناك ما يشير إلى حضارة أو تطوّر حضاري، ففي الإطار العام للحضارة الإسلامية التي كانت تعاني أيضا من التخلف.

إن الأبحاث التي ضمتها "مسارات حضارية"، تتميز بالتوثيق الغني، والأسلوب الجزل، والبيان الرفيع، واللغة الواضحة التي لم نعد نقرأها أو نكتب بها في رحاب الجامعات، حيث يكتفي الكاتب في الأدب والعلوم الإنسانية بتوصيل فكرته بلغة مدرسية ساذجة، فيها نقص التكون، والتأثر بالترجمات، ولغة الانترنت. "والشيء إذا جاء من معدنه لا يستغرب"؛ فالأستاذ بولطيف من بسكرة التي عرفت في الجزائر بأنها عرين الثقافة العربية، حافظة لأساليبها منذ استوطنها بنو هلال، كما أن المؤلف نتاج البيئة التي تضمخت بدماء الفاتح العظيم الشهيد عقبة بن نافع وبضع عشرات أو مئات من أصحابه.

لا أكتم القارئ حين أصرح له بأنني قلّما صدرت كتابا مثل كتاب "مسارات حضارية"؛ الذي جمع بين دقة المنهج، وعمق التحليل، وقوة اللغة، وجمال الأسلوب، والقدرة على التوثيق، وهل في ذلك مفاجأة إذا أضفنا أن بسكرة كانت أيضا موطنا لابن خلدون بعض الوقت؟

أ. د/ أبو القاسم سعد الله

دالي إبراهيم، 16 أغسطس، 2012

*****

هذه مجمل حكاية الكتاب التي صنعت فسحة من التواصل بين جيلين، ولَإِنْ كان فقيدنا العزيز لم يخف في بعض ما أدلى به من تصريحات أساه، حيال ما قوبل به من نكران وجحود، حتى من "أقرب الزملاء، وأخصّ الطلبة"[1]، فإن الله قد قيّض من غير هؤلاء من تتلمذ على كتبه القيّمة، وتأدب بسجاياه الفذّة، حاملا على عاتقه مهمة متابعة الرسالة التي كرّس لها المرحوم وقته وجهده، وظل مؤمنا بها إلى الرمق الأخير من حياته.

---

(1) مراد وزناجي: حديث صريح مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الخبر، الجزائر، 2008، ص194.

53
مواقف وأراء الدكتور بالقاسم سعد الله
من خلال مراسلاته ما بين 1985و2005
بمناسبة إحياء الذكرى الأربعين لوفاته

الأستاذ / سعد بن البشير العمامرة

1) زارني الدكتور بالقاسم سعد الله في شهر ماي 1985 بفندق ألبير الأول بالجزائر العاصمة ولما لم يجدني أرسل لي رسالة بتاريخ 6 ماي 1985جاء فيها /

أمل أنك تواصل جمعك لمادة التاريخ السياسي والعسكري للثورة وما قبلها في نواحي وادي سوف كلها، فإن عملك سيكون ثمرة كبيرة وخدمة جليلة لتاريخ الوطن على العموم، كما طلب مني تسليمه نسخة من العمل الذي قمت به والأخ علي عون بعنوان "النشاط العسكري والسياسي لمنطقة وادي سوف حول تاريخ الثورة" والذي أعددناه للملتقى الجهوي لتاريخ الثورة الذي انعقد ببسكرة يوم 27 افريل 1983.

وقد ذكر ذلك الدكتور بالقاسم في كتاب ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الثالث ص. 116بأنه استلم مني التقرير المذكور.

2) وفي مراسلة بتاريخ 30 أفريل 1995اقترح علينا العمل على إنشاء مركز للتوثيق بالولاية يكون مصدرا للباحثين في مختلف العصور حول وادي سوف وما جاورها.

3) وفي مراسلة من أمريكا بتاريخ 5 نوفمبر 1995وفاني بسيرته الذاتية في ستة صفحات كاملة، كما طلب منا قائلا: واني أكرر ما قلته في مناسبات أخرى وهو أن تخدموا الحياة الثقافية والنضالية والتاريخية للمنطقة، ولكن في إطارها الوطني والقومي وفي بعدها العربي الإسلامي.

4) وفي مراسلة بتاريخ 19 جانفي 1997بعد تنقله من أمريكا إلى الأردن يقول فيها: ها أنا أقضي أول رمضان في بلد إسلامي منذ ثلاث أو أربع سنوات، وكم هي غنية هذه الثقافة العربية الإسلامية رغم المصائب السياسية، إنني هنا لا أحس بغربة كتلك التي أحسست بها في أمريكا، فان الجو هنا والطبيعة والناس تشبه كلها طبيعة منطقتنا حتى في اللهجة، وكثير ما تذكرني لهجة الناس هنا طرود الوادي بنبرة صوتهم وتعابيرهم وهذا ما يؤكد أن التاريخ والثقافة والناس من أصل واحد. ثم يضيف عن الوضع في الجزائر قائلا: عفا الله عن الجزائريين الذين انحرفوا كل هذا الانحراف، ومشوا في ركاب فرنسا بعد أن كانوا أعداءها بالأمس، ومن الأكيد أن العدو يبقى عدوا مهما تغير الزمن ولكن المخربين لا يعقلون.

5) وفي مراسلة بتاريخ 11 جويلية 1998 أشعرني فيها بتغيبه عن الأردن حيث قال: فقد زرت مصر حيث جددت اتصالاتي بأعضاء مجمع اللغة العربية لأني لم أشترك في دورات المجمع منذ 1992. كما زرت دار الكتب القومية ومكتبتي كلية الآداب وجامعة الأزهر وغيرهما مواصلة لأبحاثي عن تاريخ الجزائر الثقافي، كما أنني زرت بيروت حيث شاهدت التصحيحات الأخيرة لتاريخ الجزائر الثقافي الذي سيصدر الشهر القادم.

6) وفي مراسلة بتاريخ 14 جوان 1999بعد أن قدم تحياته للأستاذ علي

بوصبيع يقول فيها: إنني بخير والحمد لله ولا يخصني سوى رحلة إلى الجزائر تمتد إلى رؤية أهل الوادي وترابه واستنشاق هوائه.

7) وفي مراسلة بتاريخ 29 أكتوبر 1999 بعد أن اتصل بمفكرة نهاية القرن حيث قال: بالنسبة لي شخصيا فإن المفكرة (مفكرة نهاية القرن) قد أعادتني إلى أيام الطفولة والصبا ففي كل صفحة تقريبا تذكرت بلدات سوف ورمالها الحريرية الصافية، ونخيلها الباسق الصاعد من قلب الأرض الحنون وأهلها الدائبين على العمل والإنتاج في الحقول الزراعية والأسواق التجارية حتى المسافات بين تلك البلدات التي أصبحت الآن مدنا كبيرة فيها مرافق الحياة، تذكرتها وأنا أقرء الخرائط وأتابع الحدود المجاورة وأتامل في الإحصاءات السكانية والزراعية ونحوها.

8) وفي مراسلة بتاريخ 27 فيفري 2005بعد أن أشعرته عن مشروع التحضير لكتاب حول أعلام سوف، حيث قدم مجموعة من الاقتراحات والتوجيهات عملنا بها حسب الإمكانيات وخاصة تسجيل العنوان الذي اقترحه ـ[وهو] "أعلام من سوف".

54
جهود أبي القاسم سعد الله في التعريف بتاريخ الصحراء الجزائرية

بقلم كل من/ أ. الشيخ لكحل/ أة. رحيمة بيشي
قسم العلوم الإنسانية، جامعة غرداية

ملخص البحث:

يقوم هذا البحث على جمع الأعمال التي قام بها أبو القاسم سعد الله للتعريف بتاريخ الصحراء الجزائرية، وذلك من خلال كتبه ومقالاته. وقد توصل الباحثان إلى أنّ أبا القاسم سعد الله وإن لم يفرد تاريخ الصحراء بتصانيف خاصة، إلا أنّها كانت ضمن مواضيع مقالاته وكتبه التي تناولت تاريخ الجزائر؛ فقد عرّف بالكثير من علماء الصحراء ومصنفاتهم، وتتبع المقاومات والثورات التي شهدتها المناطق الجنوبية الصحراوية ضد الاستعمار الفرنسي، كما أنه قام بعرض ودراسة الكثير من الكتب والدراسات التي اهتمت بتاريخ الصحراء الجزائرية.

الكلمات الدالة: سعد الله، الصحراء، تاريخ، كتب، رحلات.

:Résumé du recherche

Cette recherche est basée sur un ensemble de travaux menés par Abu al - Qasim Saadallah sur la présentation de l'histoire du Sahara algérien، à travers ses livres et ses articles. Les Deux chercheurs ont atteint d'être Abu al - Qasim Saadallah n'a pas distingué l'histoire du Sahara par des propres études، c'est seulement dans les filets de ses articles et de livres qui traitent de l'histoire de l'Algérie; découvrant beaucoup de savants du Sahara et de leurs œuvres، et gardant trace de résistances et de révolutions qui ont eu lieu dans les régions du sud saharien contre le colonialisme français، comme il a présenté beaucoup de livres et d'études axés sur le Sahara algérien.

جهود أبي القاسم سعد الله في التعريف بتاريخ الصحراء الجزائرية

المقدمة

يعتبر أبو القاسم سعد الله من أهم المؤرخين الجزائريين وأكثرهم كتابة عن تاريخ الجزائر، وإن لم نعثر في مؤلفاته على مؤلَّف خاص بتاريخ الصحراء الجزائرية إلا أنّ ذلك لا يعني عدم تعرضه لتاريخها في كتاباته. وبما أنّ الصحراء هي الجزء الأكبر من مساحة الدولة الجزائرية، فإنّ تاريخها هو جزء مهمّ من تاريخ الجزائر.

وتقديرا منّا لمجهودات شيخ المؤرخين في التعريف بالصحراء الجزائرية، فقد ارتأينا أن نفردَ ورقتنا البحثية هذه الموسومة بـ" جهود أبي القاسم سعد الله في التعريف بتاريخ الصحراء الجزائرية"، وذلك لإبراز دور المؤرخ أبي القاسم سعد الله في التعريف ببعض علماء الصحراء وبمؤلفاتهم، وتنويهه بجهودهم، وكذلك تعريفه لبعض مناطق الصحراء ودورها في التصدي للمستعمر الفرنسي، وأيضا ما قام من قراءة لبعض الكتب والمؤلفات التي تناولت تاريخ الصحراء في طياتها.

نبذة عن حياة أبي القاسم سعد الله

ولدشيخُ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله سنة 1930م [بالبدوع] بضواحي قمار من ولاية الوادي جنوب شرق الجزائر، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه للدين في بلده قمار. درس بجامع الزيتونة من سنة 1947م حتى 1954م وحاز المرتبة الثانية في دفعته. بدأ يكتب في صحيفة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1954م، وكان يطلق عليه الناقد الصغير. كما درس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقاهرة، وحاز على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة1962م، ثم انتقل إلى أمريكا في السنة ذاتها، حيث درس بجامعة منيسوتا Minnesota التي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الانجليزية سنة1965.

شغل منصب أستاذ للتاريخ بجامعة ويسكنسن Wisconsinبأمريكا (1960 ـ 1971م). كما شغل نفس المنصب، بجامعة آل البيت في الأردن (1996 ـ 2002م)، إضافة إلى أستاذيته الطويلة بجامعة الجزائر.

توفي العلامة أبو القاسم سعد الله يوم 14 ديسمبر 2013 تاركا وراءه العديد من المؤلفات في التاريخ والفكر والأدب، أثرى بها المكتبة الجزائرية والعربية خصوصا فيما يتعلق بتاريخ الجزائر، فكتاباته حول الثورة والحركة الوطنية تعتبر مرجعا لكل الباحثين والمؤرخين.

تحديد المناطق الجنوبية الصحراوية عند سعد الله:

قبل أن نلجَ إلى ما قام به أبو القاسم سعد الله من تعريفٍ بتاريخ الصحراء رأينا أن نبدأ بتحديد مفهوم مناطق الجنوب الصحراوي الجزائري؛ فيرى أبو القاسم سعد الله أنه ليس هناك حد فاصل ومصطلح متعارف عليه لمفهوم الجنوب الصحراوي في الجزائر؛ فقد يعني تارة الخط الذي يلي الأطلس الصحراوي وبذلك تكون بسكرة وبوسعادة والمسيلة والأغواط والبيض وعين ماضي كلها جنوبية. وقد يعني فقط أرض الرمال فتكون سوف وورقلة وشبكة ميزاب ومتليلي وتوات هي الخط الجنوبي. وتمتد هذه الحدود أيضا لتشمل بشار وتندوف ورقان وعين صالح وتمنغاست وجانت. ويقول أنه سيطلق كلمة الجنوب على كل المدن والقرى الواقعة وراء الأطلس الصحراوي إلى حدود مالي والنيجر[1].

أولاً: التعريف بعلماء الصحراء وجهودهم:

إنّ القيمة الروحية والمكانة الحضارية لأية منطقة تقاس بكمّ العلماء فيها، وقد أنتجت الصحراء الجزائرية، على مدى قرون، العديدَ من العلماء كان بعضهم موضعَ اهتمام من أبي القاسم سعدالله؛ فقد عرفنا بالبسكري والعدواني والتليلي والقماري واطفيش والعقبي وغيرهم.

1- عيسى بن سلامة البسكري (القرن 9هـ)

يعرفنا سعد الله بعالم من علماء بسكرة برع في الكلام والتصوف، وقد تتلمذ على الثعالبي وابن مرزوق الحفيد، ألّف سنة 860هـ كتاباً في فضائل القرآن من

---

(1) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 10مجلدات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج 3، ص ص 213 ـ 214.

الوجهة الصوفية سماه "اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار". [1]

2- الشيخ العدواني (عاش إلى حوالي منتصف القرن 11هـ/17م):

يعرفنا سعد الله بالعدواني؛ الذي أصله من وادي سوف، ويشيد بجهوده في خدمة التاريخ، فالفضل يعود إليه في تدوين أحداث هامة جرت بين القرون (9ـ10ـ 11هـ) (15 ـ 16 ـ 17م)، ولولاه لحرم التاريخ المحلي من حلقة هامة في سلسلته البشرية والاقتصادية والدينية، كما اقترح سعد الله فتح مكتبة باسمه ـ تقديرا لجهوده ـ تضم مختلف النسخ من كتابه، والوثائق والمؤلفات المعاصرة له ولأحداثه مثل مؤلفات ابن خلدون والزركشي وبن أبي دينار والحسن الوزان، إضافة إلى كتب ووثائق من الدولة العثمانية، والدول الأوروبية المجاورة كإسبانيا والبرتغال وايطاليا، والدول الإفريقية كدولة صنغاي ومالي وغانا.

كما أنّ النسخة الأصلية للعدواني ما تزال مفقودة، ولا توجد إلا نسخ حديثة ترجع إلى القرن 13هـ/ 19م، أي بعد قرنين من وفاته[2].

3- الشيخ محمد الطاهر التليلي (1328 . 1424هـ/1910 . 2003م):

أورد سعد الله ترجمة له، وقال فيه بأنه جمع الذكاء الخارق والذاكرة الحية والحافظة التي لا تعرف الكلل ولا النسيان إلى آخر لحظة من حياته، كما أنّ طموحه العلمي لا يعرف الحدود، وبيّن دوره في نشر التعليم ومبادئ الإصلاح[3].

---

(1) نفسه، ج 1، ص105.

(2) أبو القاسم سعد الله: خارج السرب، " ذكرى الشيخ العدواني"، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص111 ـ 112.

(3) سعد الله: مجادلة الآخر، "حياة الشيخ التليلي"، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2006، =

كما عدّد مؤلفاته التي بلغت خمسة عشر تأليفا[1]، خاصة الدفاتر التي تحتوي على سجل حافل بالكلمات والأمثال والألغاز العربية المشاعة الآن في الجنوب الجزائري وفي منطقة وادي سوف على وجه التحديد. [2] لذلك فإن مؤلفاته تنقسم إلى نوعين[3]:

ـ الخاص: يتناول أخبار منطقة وادي سوف بالأخص قمار.

ـ العام: يتناول الثقافة العربية الإسلامية ورجالها.

كذلك يشيد سعد الله بفضل الشيخ في الحفاظ على هذا الرصيد اللغوي العربي، لأن التدوين هو خير وسيلة لحفظ تراث الأمة[4]. وقدقام سعد الله بنشر بعض أعمال الشيخ طبقا لوصيته، خاصة ديوانه وكتابه الثابت والمحذوف في القرآن[5].

4- خليفة بن حسن القماري (1123 . 1207هـ/1711 . 1792م):

كتب سعدالله ترجمة له، وقدّم له كتابه المذكور في الفقه "جواهر الاكليل في مختصر الشيخ خليل"، الذي فرغ من نظمه سنة 1192ه/ 1778م، كما أورد له مؤلفات أخرى، لم تُجمع ولم تُطبع سوى النظم السابق الذكر[6].

=
ص296 ـ 298.

(1) سعد الله: خارج السرب، "فقيد العلم الشيخ محمد الطاهر التليلي"، ص63، وص155، وصص258 ـ 291.

(2) سعد الله: خارج السرب، "الجهود اللغوية للشيخ محمد الطاهر التليلي"، ص ص258 ـ 291.

(3) سعد الله: خارج السرب، "فقيد العلم الشيخ محمد الطاهر التليلي"، ص63وص155.

(4) سعد الله: خارج السرب، "الجهود اللغوية للشيخ محمد الطاهر التليلي"، ص ص258 ـ 291.

(5) سعد الله: مجادلة الآخر، "حياة الشيخ التليلي"، ص296.

(6) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص ص77 ـ 79.

5- الطيب العقبي (1307 . 1379هـ/1890 . 1960م):

تكلم سعد الله عن السيرة الذاتية للشيخ العقبي، وسفره إلى الحجاز قبل بلوغه الخامسة من عمره، ولما شبّ عهد إليه الشريف حسين بإدارة جريدة "القبلة" و"المطبعة الأميرية".

عاد إلى مسقط رأسه بسكرة سنة 1920 وأنشأ مع الأدباء والمصلحين جريدة" صدى الصحراء" سنة 1926، وأسس الشيخ العقبي جريدة "الإصلاح" عام 1927، كما كان ممثلا للعلماء في الجزائر العاصمة قبل تأسيس جمعيتهم[1].

6- عبد العزيز الثميني الإباضي (1130 . 1223هـ/1718 . 1808م):

قدّم سعد الله ترجمة له، ومن بين أعماله ترأّسه للمجلس الذي كان يعتبر السلطة العليا في ميزاب كلها. وضع سعد الله تعريفا لمؤلّفه "النيل وشفاء العليل" وهو كتاب في الفقه الإباضي. يقول عنه سعد الله بأنه ضاهى عمل أحمد الونشريسي في الفقه المالكي، كما عدّد مؤلفاته في الفقه والتوحيد والإجماع والحديث والمنطق ومجموعة من الفتاوى[2].

7- مفدي زكرياء (1330 . 1396هـ/1912 . 1976م):

وضع سعد الله ترجمة لشاعر الثورة مفدي زكرياء، كما أوضح وجهة نظر الشاعر في التيارات الوطنية التي عاصرها، كونه نشط في مرحلة حرجة مرّت بها منطقة المغرب العربي، وهي فترة الثلاثينات التي شهدت الاحتفايل بالذكرى

---

(1) سعد الله: الحركة الوطنية، 4 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج2، ص ص392 ـ 393.

(2) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص75.

المئوية لاحتلال الجزائر، وإعلان الظهير البربري في المغرب، وانعقاد المؤتمر الأفخارستي في تونس، وتداعيات إعدام عمر المختار في ليبيا، بالإضافة إلى حلّ حزب نجم شمال إفريقيا سنة1929 عقابا له على المناداة بالاستقلال[1].

8- الشيخ اطفيش (1235 ـ 1332هـ/1820 ـ 1914م):

هو محمد بن يوسف اطفيش المعروف بالقطب، قام سعد الله بإجراء مقارنة بين اطفيش الذي هو قطب من المغرب والشيخ عبد الله السالمي قطب المشرق الإباضيين. وألقى سعد الله الضوء على بعض أوجه التشابه والاختلاف بين حياة الشيخين، وقد عاش كل منهما فترة التحول التي مرت بها الأمة الإسلامية من الاستعمار إلى النزوع إلى الاستقلال والحرية، ورغم البعد المكاني بينهما وضعف أحوال المسلمين وسيطرة الأجانب عليهم، لم يمنعهما من التواصل والاهتمام المشترك بمصير الأمة الإسلامية، ومن أجل ذلك دعى كل منهما إلى الإصلاح والنهوض والتسامح المذهبي، والتغلب على الخلافات وأسباب الافتراق وتشجيع الحكام المسلمين على الحكم بالعدل والشورى والالتزام بتعاليم الإسلام[2].

ثانيا: مقتطفات من تاريخ الحركة الوطنية في الصحراء الجزائرية

بعد دخول القوات الفرنسية إلى مدينة الجزائر عملت على إخضاع المدن الساحلية وذلك بالقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر في الغرب، وأحمد باي في الشرق. ثم وجهت أنظارها بعد ذلك نحو الجنوب، إلا أنها اصطدمت بمقاومة

---

(1) سعدالله: مجادلة الآخر، "مفدي زكرياء والتيارات الوطنية"، ص ص166 ـ 186.

(2) سعدالله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص ص387 ـ 396.

أهل الصحراء الباسلة على أبواب الأغواط وفي مناطق بسكرة ووادي ريغ ومتليلي والبيض والهقار وغيرها. وقد أشار سعد الله في الجزء الأول من كتابه "الحركة الوطنية" إلى نماذجَ من هذه المقاومات.

1- جهود الأمير عبد القادر في بسط نفوذه على الصحراء:

تكلم سعد الله عن كيفية تنظيم الأمير لدولته، وكيفية إثبات نفوذ شرعيته على إقليم الأغواط وإقليم الزيبان (بسكرة). كان ذلك في فترة الهدنة مع فرنسا، على أنّ بداية الاتصال بزعماء الصحراء كانت مع نهاية 1836م، لكن هذين الإقليمين كانا يعانيان ضعف سلطة الأمير عليهما نظرا لكون بعض خلفائه لا يتمتعون بسلطة قوية مثل خلفائه على الأقاليم الشمالية، لأنّ الأمير كان يقدّم الأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم، فكان لتعيين الحاج العربي خليفة للأمير دور في جلب الكثير من قبائل الصحراء للجهاد تحت راية الأمير.

ويتكلم عن حصار الأمير عبد القادر لعين ماضي سنة 1838، بعد معاهدة التافنة، حين اتهم مقدم التجانية الشيخ محمد الصغير التجاني بالولاء للفرنسيين، وأنّ هذا الحصار قد فشل بسبب صعوبة الظروف المناخية؛ حرارة الصيف، وبسبب وجود الجاسوس ليون روش الذي كان يلعب دور المورّط بين الأمير وشيخ عين ماضي[1].

ولولا استئناف الحرب ضد الاحتلال الفرنسي سنة 1839 لاستطاع الأمير توطيد نفوذه في الصحراء الشرقية والغربية[2]. ثم يحدثنا كيف أنّ فرنسا دخلت

(1) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 201.

(2) سعد الله: الحركة الوطنية، ج1، ص ص197 ـ 205.

عين ماضي سنة 1844، وأنها لم تتلق مقاومة من شيخ الزاوية ولا من سكانها، رغم ذلك فقد فرض الفرنسيون عليه دفع ضريبة الطاعة وقدرها 2000بوجو، في حين أنّ الأمير عبد القادر لم يفرض عليه سوى دفع ثمن الحصار، وشتان بين المعاملتين، كما يقول سعد الله[1].

2- جبهة المقاومة في الزيبان (ثورة الزعاطشة):

أشاد سعد الله بالدور الذي لعبه الشيخ المرابط محمد بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة، والتضامن الذي حدث بين السكان في كل الناحية، ورضى سكان الزعاطشة بالاستشهاد جميعا تحت الأنقاض والسلاح في أيديهم. ويُوعز سعد الله ذلك إلى الإيمان بالقضية التي تنصّ على العيش في حرية وسلام بعيدا عن الدخيل الكافر. كما اعتبر سعد الله أن هذه الثورة هي في الحقيقة استمرار لثورة الأمير عبد القادر، ومقاومة قسنطينة الطويلة، وتصدّي المجاهدين للقوات المحتلة خلال الأربعينات في أطراف الصحراء: الأغواط، مسعد، بسكرة، أولاد جلال، بوسعادة... الخ. كما أورد أن سكان بسكرة لم يقبلوا الاحتلال، وظلّوا يتحيّنون الفرصة للانقضاض عليه.

ينوّه سعد الله أن ثورة الزعاطشة لم تأخذ حقّها في تاريخ الجزائر، وأنّ معظم الكُتّاب يمرون عليها مرور الكرام، لأنها لم تُكتب بحروف بارزة في سجلات العدوّ، كونه اعتاد ألّا يكتب إلا عن انتصاراته وبطولاته. وقد كان من نتائج الثورة إنشاء قيادة الصحاري في شمال بسكرة، وجعلوا عليها بولخراص بن قانة[2].

(1) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 206.

(2) سعد الله: الحركة الوطنية، ج1، ص331 ـ 338.

3- أسدا الصحراء"الشريف بن عبد الله" و"الناصر بن شهرة":

كتب سعد الله، أنه لم تكد تأتي سنة 1850 ـ 1851م حتى اندلعت الثورة في أجزاء عديدة من الصحراء من أولاد سيدي الشيخ غربا إلى وادي سوف شرقا، وقد ظهرت قيادات جديدة تمثلت في الشريف محمد بن عبد الله المدعوم من الحركة السنوسية في ليبيا. تناول سعد الله سيرة الشريف بن عبد الله، وكيفية وصوله إلى مقاليد الحكم في ورقلة، وانقسام بني جلاب على أنفسهم خاصة السلطان عبد الرحمن ومنافسه سليمان الذي تعاون مع الشريف، كما كان زعيم الأرباع الناصر بن شهرة ناقما على الخليفة أحمد بن سالم في الأغواط لتعاونه مع الفرنسيين، كما أنّ حمزة آغا أولاد سيدي الشيخ قد أيّد الثورة، وأما ميزاب فقد كانت تفضل الحياد كون السلطة فيها بيد العزابة.

وقد جاء في مراسلات الشريف محمد أنه لقي التأييد من الشعانبة والأرباع وطرود وأولاد نايل، وحمل على عاتقه مهاجمة الخونة المتعاونين مع فرنسا، وبسط نفوذه على تقّرت، وبمساعدة الناصر بن شهرة بسط نفوذه على الأغواط سنة 1852 بعدما كبّد العدو الفرنسي خسائر فادحة، ورغم تربّص العدو به، إلا أنه ظلّ يضايق فرنسا واستمرّ في إثارة سكان الصحراء الذين لم يتسلط عليهم العدو بعدُ، أمثال الشعانبة والمخادمة وسعيد عتبة والأرباع إلى غاية اعتقاله سنة 1861[1].

أورد سعد الله بأنّ السلطات الفرنسية أرادت أن تُحدث تنافسا داخل العائلة الواحدة (العائلات الجزائرية المشاركة في الوظائف العسكرية السياسية)، فقامت بتعيين المدعو علي باي (أحد أبناء فرحات بن سعيد) على منطقة وادي

(1) نفسه، ج1، ص357 ـ 362.

ريغ ووادي سوف سنة 1854م إثر دخول القوات الفرنسية إلى تلك النواحي، وكان مقرّه تقرت[1].

أما الناصر بن شهرة فقد تكوّن في المدرسة الحربية والوطنية للأمير عبد القادر، وكان من فرسانه الشجعان، وكان له تأثير كبير في جمع الكلمة والانضباط ونشر العاطفة الدينية والوطنية، فخلف الشريف محمد بن عبدالله حاملا لواء الجهاد. قال فيه سعد الله: "كان لا يترك فرصة ضعف للعدو إلا اغتنمها ضده، وكان ينتقل كالبرق من شرق الصحراء إلى غربها ووسطها"، وقد بدأ نضاله في صفوف جيش الأمير، وظلّ على مبدئه وثورته إلى الثمانينات حيث عاصر ثورة الشيخ بوعمامة، وناصره فيها.[2]

4- موقف أهالي ميزاب والطوارق من الاستعمار الفرنسي:

كتب سعد الله أنّ أهالي ميزاب وقّعوا اتفاقية مع فرنسا يوم 19أفريل1853 يتعهدون فيها بدفع ضريبة قدرها 45ألف فرنك فرنسي مقابل حمايتهم، وحماية تجارتهم وتجّارهم في القطر الجزائري، على ألا يفتحوا أبوابهم لأعداء فرنسا[3].

وفي سياق آخر أورد سعد الله أنّ أهالي ميزاب استقبلوا إعلان الجهاد من طرف مفتي اسطنبول ـ ضدّ العدو الفرنسي ـ بالترحيب، وعند انفجار ثورة الهقار سنة 1916م أيدوها.[4]

---

(1) نفسه، ج1، ص327 ـ 329.

(2) نفسه، ج1، ص362 ـ 363.

(3) نفسه، ج1، ص359 ـ 360.

(4) نفسه، ج2، ص205.

كما أنّ أهالي الهقار أعلنوا الجهاد ضد فرنسا سنة 1916م رسميا، كما قتل الثوار الراهب دوفوكو في تامنغاست. وقاموا بإرسال حملة إلى جانيت التي استطاعت محاصرتها، وأرغمت المعسكر الفرنسي على الاستسلام. لكن تهدئة فرنسا للصحراء (منطقة الهقار) استمرت أكثر من ثلاث سنوات. كما انفجرت ثورة الأوراس بدورها سنة 1916 وجاءها المتطوعون من ميزاب وخاصة غرداية وورقلة، وغيرها من مدن الواحات في وسط الصحراء للانضمام إلى الثورة. [1]

5- جهود الفرنسيين في التوسع جنوبا:

قام سعد الله بنشر وثيقة في مجلةأول نوفمبر، عدد50 سنة 1981م، وقد وجدها معروضة في أصلها العربي، ومعها ترجمة بالفرنسية في متحف واد سوف في 28يناير1970م. وهي عبارة عن رسالة موجهة من الضابط الفرنسي "فيرنان فورو"Fernand Ferro إلى محمد العروسي شيخ الطريقة التيجانية بقمار، يرجع تاريخها إلى 12 جوان1895م؛طالبا منه فيها بأن يبعث رسالته إلى طوارق آزجر بعد الهجوم الذي تعرضوا له من أتباع الشيخ بوعمامة والشعانبة. ويكشف لنا سعد الله من خلال هذه الوثيقة امتداد ثورة الشيخ بوعمامة إلى الهقار، وثورة سكان الصحراء عموما ضدّ الفرنسيين عندما حاولوا في نهاية القرن التاسع عشر مدّ احتلالهم إلى تلك الجهات، وأبرز أيضا العلاقة الوثيقة بين مناطق وادي سوف وغدامس والهقار في تلك الفترة، فقد كانت تقوم على التجارة ثم اتسعت فشملت السياسة والأفكار مثل انتشار الطريقة التيجانية فيها ـ وهي الطريقة التي انتشرت إلى (بر العبيد)، كما جاء في الرسالة إلى السودان القديم، بالإضافة

---

(1) نفسه، ج2، ص220.

إلى أنها كانت معروفة لدى الشعانبة.[1]

ثالثا: الرحلات الصحراوية:

تعتبر الرحلات من المصادر الهامة لكتابة التاريخ، خاصة فيما يخص الجانب الاجتماعي والثقافي وحتى الجغرافي. وقد عَبَر الصحراءَ الجزائرية كثيرٌ من الرحالة المسلمين والأجانب، وإن كانت الكثير من الرحلات الأجنبية موجودة ومطبوعة؛ نظرا لأن أغلبها كانت رحلات استكشافية وتجسسية لغرض احتلال الصحراء أو الاستفادة من خيراتها، إلا أنّ الرحلات العربية قليلة ونادرة، لذلك فقد قدّم لنا أبو القاسم سعد الله خدمةً جليلةً بنشره لعدد منها ساهمت إلى حد كبير في إماطة اللثام عن كثير من الحقائق التاريخية التي أغفلتها الرحلات الأجنبية.

1- رحلة الحاج بن الدين الأغواطي:

قام سعد الله بترجمة رحلة بن الدين الأغواطي في شمال إفريقية، والسودان والدرعية من الإنجليزية إلى العربية، فقد جمع بن الدين الأغواطي بين الأخبار عن الصحراء وقراها وواحاتها وعاداتها، وجزء من الجزيرة العربية، وجربة وقابس وشنقيط ونحوها. كتبها الأغواطي في كراسة تحتوي على أربع عشرة صفحة سنة 1242ه/ 1826م بطلب من قنصل أمريكا بالجزائر "ويليام هودسون[2] .WiliamHodson" قام هذا الأخير بترجمتها من العربية إلى الإنجليزية بمعية المراسل الأجنبي للجمعية الملكية الآسيوية (لندن)، وطبعت بمؤسسة

(1) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 5 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ج2، ص345 ـ 349.

(2) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص386 ـ 387.

الترجمة الشرقية بلندن سنة 1830. [1]

ومن أهم المناطق التي ذكرها في رحلته: الأغواط وتاقدامت وعين ماضي وجبل عمور ومتليلي ووادي ميزاب والقليعة (المنيعة) وورقلة وتوات وتيميمون وعين صالح وشنقيط وغدامس والدرعية وقابس وجزيرة جربة. وقداستفاد الأوربيون والأمريكيون أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافها من هذه المعلومات، لكن المعلومات الكاملة عن الرحلة غير موجودة. [2]

2- رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب:

قام سعد الله بتصدير كتاب محمد بن عبد الكريم الذي حقق المخطوطة التي ألفها أحمد بن هطال التلمساني بعنوان: "رحلة الباي محمد الكبير" دامت الرحلة من يوم الخروج، الخميس 09 ربيع الأول1119هـ/ 19 يناير 1785م، إلى يوم الرجوع إلى معسكر يوم الأربعاء 28 ربيع الثاني 1119 هـ/ 10 مارس 1785م. وشملت الرحلة الرسمية قرى هضابية معينة، وأماكن استقرار قبائل مستقلة، محصورة بين مدينتي معسكر في شمال البايليك الغربي، والأغواط في جنوبه[3].

رابعا: التعريف بالمدارس والزوايا في الجنوب

لاريب أنّ المدارس والزوايا كان لها دور بارز في تاريخ الصحراء الجزائرية؛ فقد تخرج منها العلماء والزعماء، وقد كانت في معظم الأحيان منطلقا لأغلب الثورات التي عرفتها المناطق الصحراوية، كما أنّ أغلب الزوايا الصوفية قاومت

(1) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص243 ـ 268.

(2) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص386 ـ 387.

(3) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص357 ـ 358.

التوسع الاستعماري، وإن كان بعضها قد فضل المهادنة نظرا للمنافسة على النفوذ من جهة، أو لظروف خاصة أحاطت بهذه الزاوية أو تلك من جهة أخرى.

وقد عرّفنا أبو القاسم سعد الله بأغلب الزوايا التعليمية المنتشرة في الجنوب؛ بشيوخها ومناهج التدريس فيها مثل زاوية طولقة للشيخ علي بن عمر، والزاوية الناصرية بخنقة سيدي ناجي، وزاوية الشيخ المختار بن خليفة بأولاد جلال، وزاوية محمد بن بلقاسم بالهامل، والزاوية التجانية بفرعيها عين ماضي وتماسين، وزاوية قمار[1].

كما تحدث عن نظم التدريس وأسماء بعض المدرسين في مساجد ومدارس بسكرة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ مثل الشيخ محمد بن بلقاسم خمّار، وكذلك مدى انتشار التعليم الفرنسي في هذه المنطقة وذلك من خلال تقريرَيْ المفتشيْن الفرنسييْن مونتيلانسكي، وسان كالبر.[2]

وقد أبرز سعد الله دور منطقتي توات والأزواد وما جاورهما في النشاط التجاري والصّوفي والعلمي طيلة قرون، من خلال استشهاده بكتاب محمد الصالح حوتية، الذي ألّفه حول "توات والأزواد" وأورد سعد الله بأنها ظلّت بعيدة عن أعين المستعمرين في العصر الحديث، رغم أنها كانت مَعْبَرا للقوافل التجارية، كما أنّ هذه المنطقة قد حافظت على التراث العربي الإسلامي، ونظامها الاجتماعي والثقافي رغم العزلة وتباعد المسافات بين القصور. وبيّن أهمية المنطقة سياسيا واقتصاديا وثقافيا، إضافة إلى الدور الريادي للطرق الصوفية والزوايا،

(1) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص ص215 ـ 226.

(2) نفسه، ج 3، ص ص 150 ـ 153.

فهي محطة للتواصل بين الجزائر وجيرانها غربا وجنوبا وكذلك صلة وصل بين شعوب قارة إفريقيا وشعب المغرب العربي. [1]

في معرض حديثه عن مدارس ميزاب؛ يعرفنا بمعهد بني يسجن الذي أسس سنة 1850، ويستطرد في ترجمة مؤسسه؛ الشيخ محمد بن يوسف اطفيش فيحدثنا عن حركته الاصلاحية وعن دوره في مطالبة السلطات الاستعمارية باحترام معاهدة الحماية لسنة 1853، وذلك بتخفيف الغرامة على أهل ميزاب وبترك إيجارات أملاك الأوقاف في يد مساجد الإباضيين، كما حدثنا عن تأليفه لرسالته "الشافية" عن تاريخ ميزاب[2]. وقدم لنا أيضا ترجمة كاملة ومفصلة لنشاط وأعمال الصحفي أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى القراري الاباضي (1888 ـ 1973) ودوره في المجال الصحفي وفي نشر الكتب من خلال تأسيسه للمطبعة العربية سنة 1931[3].

وكذلك يشير إلى الزوايا الصوفية المنتشرة في المنطقة؛ مثل زاوية مولاي سليمان وزاوية الحاج موسى بن أحمد وقبة الحاج بوحفص بن سيدي الشيخ وقباب الشيخ عبد القادر الجيلالي بمتليلي[4].

ويتحدث سعد الله عن نشاط جمعية العلماء في الصحراء؛ حيث يميط اللثام عن قضية محاصرة السلطات الاستعمارية لمدارس جمعية العلماء في الجنوب والتضييق عليها بعدم الترخيص لها بالنشاط مثل الشمال، ويشير إلى منشور

(1) سعد الله: مجادلة الآخر، ص285 ـ 289.

(2) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص ص264 ـ 275.

(3) نفسه، ج 5، ص ص 290 ـ 294.

(4) نفسه، ج 4، ص 283.

الحاكم العام إلى حكام الجنوب بقبض وسجن كل معلّم منسوبٍ إلى الجمعية حال جَوَلانه باسمها أو دعوته إليها[1].

خامسا: التعريف بالكتب والدراسات

إنّ التراث المكتوب الضخم الذي خلّفه أبو القاسم سعد الله ينمّ عن ثقافة واسعة واطلاع عميق على مختلف الكتب والدراسات التي تناولت تاريخ الجزائر؛ فقد عمل جاهدا على قراءة واقتناء كل المؤلّفات التي لها علاقة بتاريخ الجزائر، ولم يكن يكتفي بالتعريف بتلك الدراسات للباحثين والمؤرخين فحسب بل كان ينقدها مبرزا محاسنها وكاشفا عن سوءاتها. ولهذا فقد انتقينا جملةً من تلك المؤلّفات التي تناولت في مواضعها تاريخَ الصحراء الجزائرية.

1- تاريخ العدواني:

قام سعد الله بتقديم وتحقيق والتعليق عليه، هذا الكتاب يحتوي على ثلاثمائة وتسعة وستين صفحة، الذي كان في أصله مخطوطا، لكنه لم يكن مجهولا، حيث قال فيه سعد الله: "نحن لم نكتشفه، وقد استغربنا من كثرة نسخه المخطوطة في أيدي الناس."، لكن الوثائق الفرنسية تحدثت عنه منذ سنة 1850 م على أنه وثيقة هامة لتاريخ المغرب العربي (تونس والجزائر وطرابلس)، وحتى المشرق العربي.

ألّف العدواني كتابَه في القرن11هـ/ 17م، وهو كتاب يندرج ضمن التاريخ المحلي فهو يؤرخ للقبائل التي استوطنت الجنوب الشرقي من الجزائر والجنوب الغربي من تونس، وأصولها العربية ومسيرتها من المشرق إلى المغرب وصراعها ضدّ الحكام من حفصيين وعثمانيين، كما يؤرخ لحياة الناس تحت حكم المغامرين

(1) نفسه، ج 3، ص 257.

من مختلف المدن: طرابلس، قفصة، القيروان، توزر بسكرة قسنطينة... الخ، وفي أثناء ذلك يتحدث عن المرابطين، ودورهم مع العامة، وعن الحكام، وعلاقتهم بالأجانب كالإسبان.

وهو من جهة أخرى كتاب يدخل فيها يسمى بالأدب الشعبي، فلغته وعادات الناس الذين يتحدث عنهم، والمرأة والأساطير التي يرويها والحكايات والمغامرات والكرامات... الخ، كل ذلك يجعل منه قطعة من الأدب الشعبي الذي عندما تقرأه فكأنما تقرأ قطعة من تغريبة بني هلال أو ألف ليلة وليلة، كما أنه يصبح كتابا صالحا للقراءة في الأسمار والمجالس للتسلية والعبرة والتفكّه وتوسيع مجال الخيال، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بكتب الملاحم، فيها الواقع والخيال والأسطورة. لم يذكر العدواني عنوانا لكتابه ولم يذكر مصادره إلا عرضا، فمصدره الأساسي هو الذاكرة القوية، وقد استوحى مجتمعا بدويا، حكمت عليه الأقدار والطبيعة أن يتصارع حول بعض الواحات، وآبار المياه والمراعي، أو حول مدن ثانوية مثل القيروان وقفصة وتوزر وبسكرة[1].

2- ري الغليل:

هو مخطوط لرحالة ليبي في القرن التاسع عشر، عنوان هذا المخطوط بالكامل "ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل من سلاطين بلاد الفزان"، وهو يقع في مائة وثلاث ورقات، أما تاريخ تأليفه فكان سنة1268ه / 1852م. يحتوي هذا الكتاب على معلومات مهمة حول المغرب العربي والسودان ومصر في القرن

(1) محمد العدواني: تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

السالف الذكر، كما يتحدث عن الحروب التي دارت بين الجزائيين والفرنسيين في وقته، خاصة في منطقة الصحراء الشرقية، مثل وادي ريغ وتقرت، ويخص بالذكر ثورة الشريف بن عبد الله.

وقد قام سعد الله بتقديم دراسة لهذا الكتاب، تلبية لرغبة بعض الليبيين الذين ألحّوا عليه في تقديم ما عنده من معلومات حول هذا المخطوط [1].

3- انتشار الإسلام في إفريقيا:

قام سعد الله بتقديم هذا الكتاب الذي ألّفه كل من: نهيميا ليفربون N. Levtrpion، وراندال بويلز R. Pouwels، وعنوان الكتاب بالكامل:

N. Levtrpion and R. Pouwels: The History of Islam in Africa، Ohio state University، USA، 2000 .

وقد أشاد سعد الله بدور الباحثَيْن لأنّ الكتاب يدخل في العمل الجماعي نظرا لاتساع مادته جغرافيا وزمنيا وموضوعيا، فالكتاب يتناول تاريخ الإسلام والمسلمين في إفريقيا على مدى قرون متطاولة.

ويتأسف سعد الله على عدم قيام مسلمي المغرب الإسلامي بمشروع شبيه لهذا، كما أنه يتحسر على إلغاء الدراسات الإفريقية من البرامج الجامعية، وعدم وجود استراتيجية تخدم المصالح المشتركة مع إفريقيا[2] .

4- عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وإفريقيا السوداء:

(1) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص ص357 ـ 361.

(2) سعدالله: على خطى المسلمين ـ حراك في التناقض ـ ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص289 ـ 295.

تحدّث سعدالله عن هذا الكتاب الذي ألفه البريطاني أ. وبوفيل، وأورد بأن الطبعة الأولى منه ظهرت بعنوان "قوافل الصحراء القديمة" سنة1833م، بعد ذلك قرّر المؤلف طبعه سنة 1958 تحت عنوان"عصر التجارة الذهبي.. "وهو لحدّ الآن يُنقّح ويضاف إليه بفضل الباحثين. وكان هدف بوفيل أن يكشف كيف أنّ الصحراء لعبت دورا تاريخيا هاما؛ حيث أنها أغنت القرطاجيين، وحيرت الرومان، ثم أصبحت معبرا رئيسيا للقوافل.

في هذا الكتاب بيان على أنّ الطرق العابرة للصحراء قد نسجت ووطدت علاقة الدم والثقافة بين شعوب شمال وجنوب الصحراء، وكيف أنّ الصحراء أضحت معبرا رئيسيا للقوافل رابطة مدن الشمال المتمدنة بأسواق ومراكز الجنوب الكثيرة[1].

5- الدعاية إلى سبيل المؤمنين:

أعطى سعد الله ترجمة لمؤلف هذا الكتاب ابراهيم اطفيش ابن أخ محمد بن يوسف الشهير، وأشاد بدوره الإصلاحي، وبما أنّ الكتاب نشر سنة 1923 فقد كان المؤلف، حسب سعد الله، في طليعة الوطنيين والمصلحين. قام سعد الله بتقديم أبرز الأفكار الواردة في الكتاب واختار بعضا من تراجمه[2].

6- قديس وثائر:

طبع هذا الكتاب سنة 1994، وهو في الأصل رسالة دكتوراه للسيدة جوليا كلينسي ـ سميث Smith - Julia A. CLENCY، وهو من الدراسات غير الفرنسية

(1) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص343 ـ 345.

(2) سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص159.

التي اهتمت بالثورات الشعبية وتكمن أهمية هذا البحث أنه صادر من متخصصة أمريكية. وتتناول فيه الاحتجاجات الشعبية، أو الثورات، التي حدثت في منطقة واد ريغ والصحراء الشرقية وصولا إلى ميزاب ومتليلي، ودور الأعيان والقيادات الدينية فيها وكذا دور العمق التونسي؛ منطقة الجريد، في هذه الثورات التي حدثت بين 1830و 1900.

وقد أسهب سعد الله في عرض فصول هذا الكتاب السبعة، حيث وجد فيها الكثير من المعلومات الجديدة حول الثورات التي وقعت في المنطقة؛ كَوْنُ الباحثة استعانت بكثير من الوثائق الأرشيفية التي عثرت عليها في تونس وفرنسا وفي بعض الدول الأوربية[1].

7- كتب أخرى:

إضافة لكل ما تقدم، فقد أشار سعد الله لبعض الكتب التي أُلّفت في تاريخ الصحراء مثل:

ـ **الرسالة الشافية في تاريخ بني ميزاب** والتي ألفها الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، سنة 1880 بعد طلب المستشرق الفرنسي ايميل ماساكري. ويقول اطفيش أنه أجاب في رسالته بما لا يضر بالإسلام والمسلمين في إشارة إلى أنه ألّف هذا المختصر للفرنسيين[2].

ـ وبعد حوالي ثلاثين سنة، ألّف ابراهيم العوامر أحد قضاة سوف تاريخا للمنطقة بطلب من أحد الفرنسيين أيضا. وعنوان هذا الكتاب هو "**الصروف في**

(1) سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، ص ص353 ـ 373.

(2) سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، ص 388.

تاريخ واد سوف"، وقد ألفه سنة 1913م[1].

ـ كتاب **القول البسيط في أخبار تمنطيط** وهو عمل في التاريخ والأنساب[2].

ـ كتاب **منطقة توات** لعبد الرحمان سلكة نشره سنة 1922[3].

ـ كتاب **التبر المسبوك** للشيخ محمد السائح، وهو كتاب في تاريخ الزاوية التيجانية بتماسين.

ـ **تاريخ قبائل الأزجر** للشيخ ابراهيم ولد سيدي، أشار إليه دوفيرييه في كتاب **اكتشاف الصحراء** سنة 1860[4].

ـ **تاريخ الزعاطشة** للطاهر عامر. ويقول سعد الله أنه لم يقف على نسخة من هذا المخطوط[5].

ومن كل ما تقدم يمكننا القول:

ـ أنّ أبا القاسم سعد الله كان من المؤرخين الجزائريين؛ الذين حملوا على عاتقهم كتابة تاريخ الصحراء من وجهة نظر وطنية، وبالتالي كشف المؤامرة التي حاكها مؤرخو المدرسة الاستعمارية لتشويه تاريخنا.

ـ وأنّ سعد الله، وإن لم يفرد تاريخ الصحراء الجزائرية بمؤلّف خاص، إلا أنّ القارئ في كتاباته يجد مادة علمية غزيرة تتحدث عن علماء الصحراء

---

(1) نفسه، ج 7، ص 390.

(2) نفسه، ج 7، ص 393.

(3) نفسه، ج 7، ص 394.

(4) نفسه، ج 7، ص 395.

(5) نفسه، ج 7، ص 396.

ومؤلّفاتهم؛ مثل البسكري، والعدواني، واطفيش. وكذا جانبا من مقاومة مناطق الصحراء للاستعمار الفرنسي؛ مثل مقاومة الزعاطشة، والشريف بن عبد الله، ومقاومة الهقار، وغيرها.

ـ كما أنّ سعد الله عرّفنا على جانب من التاريخ الاجتماعي والثقافي للصحراء؛ من خلال التعرض للمدارس والزوايا المنتشرة عبر مدن الصحراء؛ مثل الزاوية التجانية في قمار وتماسين، وزاوية الهامل، ومدارس بسكرة ومدارس وادي ميزاب.

ـ ومن خلال اطلاعنا على تراثه المكتوب وجدنا لديه شُغوفا بالتعريف بالدراسات والكتب التي تناولت تاريخ الجزائر عموما، وقد وقفنا على عدد من تلك التي تناولت تاريخ الصحراء الجزائرية؛ مثل كتاب عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي وإفريقيا السوداء، قديس وثائر، وانتشار الإسلام في إفريقيا.

قائمة المصادر والمراجع:

1. سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 5أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
2. سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية، 4أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
3. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، 10مجلدات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

4. سعد الله أبو القاسم: خارج السرب، "الجهود اللغوية للشيخ محمد الطاهر التليلي".

5. سعد الله أبو القاسم: خارج السرب، " ذكرى الشيخ العدواني"، دار البصائر، الجزائر، 2009.

6. سعد الله أبو القاسم: خارج السرب، "فقيد العلم الشيخ محمد الطاهر التليلي".

7. سعد الله أبو القاسم: مجادلة الآخر، "حياة الشيخ التليلي"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

8. سعدالله أبو القاسم: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.

9. سعدالله أبو القاسم: على خطى المسلمين ـ حراك في التناقض ـ ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

10. سعدالله أبو القاسم: مجادلة الآخر، "مفدي زكرياء والتيارات الوطنية".

11. العدواني محمد: تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

رحل أبو القاسم سعد الله.. وفي نفسه شيىء عن تاريخ الجزائر الثقافي.

لم أتمكن من معرفة صاحب المقال/ فمعذرة والموضوع مهم رغم الأخطاء الكثيرة.

منسق الكتاب

إن المؤرخ الحقيقي هو ذلك الذي يسطر لنفسه مشروعا يعيش له ومن اجله يمضي جل وقته في العمل ومن اجل تحقيقه وتجسيده على ارض الواقع ،مشروعا يحوله إلى حلم عمر وأبو القاسم سعد الله يعد بحق احد هؤلاء ،إذ بدا دراسته لتاريخ الجزائر انطلاقا من تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ،التي قدم بشأنها دراسة رابعة تعد من الدراسات الاكادمية الأولى عن تاريخ هذه الحركة والمقصود هنا أطروحته لدكتوراه التي تقدم بها إلى جامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية والتي تناول فيها الفترة من 1900_1930. وهي حاليا الجزء الثالث من الكتابة الحركة الوطنية الجزائرية ولقد ناقشها بتاريخ 20سبتمبر 1965، وكان من المفروض أن يكون هذا هو المشروع الأساسي الذي يشتغل عليه الأستاذ سعد الله إلا انه سرعان ما انقلب عليه دون إهماله إذ حوله إلى مشروع ثان يعيش له حيث أدخل نفسه في موضوع أخر أوسع وأكبر وهو البحث في تاريخ الجزائر الثقافي بدءا من العهد العثماني أي من القرن الخامس عشر ميلادي وصولا إلى اندلاع الثورة التحريرية ويقول الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني بشأن هذا التغيير الذي حصل في مسار أبو القاسم سعد الله من الاهتمام بالجانب السياسي للتاريخ الجزائري والانتقال إلى الاهتمام بالجانب

الثقافي والفكري والعلمي للجزائر على الامتداد خمس قرون بأنه ـ أي الأستاذ سعد الله ـ قد رأى أن خلود الجزائر في ذاكرة التاريخ يرتبط أساسا.......... الثقافي، ومشاركتها في المعرفة الإنسانية في نطاق الأسرة العربية الإسلامية ولعله انتهى إلى هذه القناعة بعد أن كتب كثيرا عن الحركة الوطنية والمقاومة الجزائرية بمختلف أشكالها ومظاهرها فهاله تغلب الجانب السياسي وطغيان الطابع الحربي على الذاكرة التاريخية للجزائريين فحاول في موسوعته (تاريخ الجزائر الثقافي) ونجح بالفعل في أن يبرز الجانب الخفي من التاريخ الثقافي وأن يبعد عن الوجه الآخر المتمثل في الطابع الفكري لتاريخ الجزائر فعدل بذلك كفة الميزان وحقق توازنا في نظرة القارئ الجزائري لتاريخه بل فتح الطريق واسعا أمام مؤرخي المستقبل لكي يستقرأوا؟ التاريخ ويدرسوه ليس كأحداث تذكر ووقائع تسجل وإنما كأفكار تعرض وتيارات ترصد " (انظر ص 566_567من كتاب دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي ببيروت لبنان 2000)

وأسجل هنا أن الأستاذ سعد الله كان في الحقيقة يحمل بداخله،الثقافية عناصر حدوث هذا الانقلاب. إذ أنه منذ أن كان شابا يافعا وهو يقترب من نهايات عقده الثالث بالقاهرة كان شغوفا بالانفتاح الثقافي والعلمي والأدبي والفكري للجزائر عبر عصورها المختلفة، وهذا بشهادة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تصديره لكتاب الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن (شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة) حيث كتب عنه سنة 1960 "كاتب هذه الدراسة هو الأستاذ أبو القاسم سعد الله أحد أبناء الجزائر البررة الناشئين في ظلال نهضتها الحاضرة...... هو شغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية

لعلماء الجزائر في جميع العصور "

أما الأستاذ سعد الله فإنه يفسر هنا هذا الانقلاب في إحدى حواراته أن الثقافة تعد الركيزة الأساسية التي عززت هوية العديد من الشعوب سواء في أوروبا أو آسيا إذ توصل إلى نتيجة مهمة من خلال دراسته لتاريخ أوروبا وأمريكا وكذا بعض دول أسيا مفادها أن أول ما بدأ به رواد الحركات القومية "هو الاهتمام بتاريخ الأمة الثقافي: رجالها في الماضي وما قالوه عنها وماذا كتبوا وما هي اللغة التي كتبوا بها والأحداث التي تعرضوا إليها هل طالبوا في مسيرتهم النضالية بالاستقلال " ويواصل كلامه بالقول: "أنا أيضا كتبت تاريخنا الثقافي من هذه الزاوية وتأثرت في الحقيقة بالقوميات وعلاقتها بالثقافة والتراث. وقد وجدت مثالا عندنا في الحركة الوطنية ـ وهذا قد لا يرضي الكثير ـ الدعوة للاستقلال السياسي التي طالب بها ميصالي الحاج وحزب الشعب لكن حركة ابن باديس هي التي سارت على نهج الحركات القومية الأوروبية التي درستها طبعا كنت عرفت جمعية العلماء قبل دراسة تلك القوميات ولكن وجدت توافقا ولا أدري إن كانت الجمعية قد درست هذا الموضوع ـ أي أن حركة قامت على أساس البعث الثقافي في الجزائر، لأنها رأت أن الجزائر قد ظلمت في ثقافتها واضطهدت في شخصيتها......... لذلك اخترت أن أكتب عن القومية والحركة الوطنية وحتى في هذا الاتجاه كان تركيزي على الجانب الثقافي وليس السياسي لأنني أعتبر المجال الثقافي هو الركيزة أما الجانب السياسي فهو حقا ضرورة ولكن يجب أن نتكون قوميا وثقافيا لكي نطالب بالاستقلال والسيادة وهوية وكينونة سياسية من أجل كل ذلك وجهت كل جهودي لخدمة هذا الاتجاه. وهو خدمة الثقافة الوطنية، والثقافة العربية عموما.. " (انظر كتاب: حبر على ورق عالم المعرفة الجزائر 2011، ص 246 ـ 247).

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الأشياء سعد الله لم يسهل مشروعه الأخر المتمثل في (الحركة الوطنية الجزائرية) أن نجعله مشروعا مكملا لمشروع العمر "تاريخ الجزائر الثقافي" وأنجزه في أربعة أجزاء كاملة من 1830 إلى 1945 وكان حلمه توصيله إلى 1962 /

والأستاذ سعد الله عندما شرع في انجاز حلم عمره هذا مع بدايات سبعينات القرن العشرين يسطر له خطة وهي أن ينجزه في ثلاث أجزاء أو أربعة على الأكثر يتناول في الأول والثاني العهد العثماني بقرونه الثلاثة أما الجزء الثالث والرابع إن كانت المادة متوفرة ستسمح بجزء رابع فسيخصص للعهد الاستعماري 1830 ـ 1954 ولكن كما هو شائع فإن الرياح في الكثير من الأحيان تجري بما لا تشتهيه السفن ،إذ أنها هبت على السفن سعد الله ذات يوم من الأيام 1988 بكل قسوة بمطار هيثرو بلندن فطيرت مشاريعه الثقافية ورمت بها في المحصول عندما سرقت منه محفظته التي كانت تظم بداخلها جزءا هاما من التراث الوطني الذي استغرق في جمعه سنوات طويلة وهو في جزئه الأكبر خاص بالجزئين الثالث والرابع من تاريخ الجزائر الثقافي وغيرها من الأوراق الثمينة والغالية على قلب الأستاذ سعد الله ،ولقد سجل كل هذا في مقال جد مؤثر بعنوان "نكبة ثقافية" ونشرها في جريدة الشعب يوم 8 سبتمبر 1988 (انظر المقال في الجدول الثقافي ،دار الغرب الإسلامي 2005 ص29 ـ 33) وكان وقع الخبر كوقع السيف البتار على رؤوس طلبة أبو القاسم سعد الله ومحبيه ،وكذا أن يضيع (حلم العمر) مع ضياع تلك الحقيبة التي انتظر رجوعها طويلا ولكن بدون جدوى وهو الأمر الذي [أدى]بالأستاذ إلى الوقوف عند نقطة الصفر "و هي مشاريعي الآن مجمدة ولا أدري من أين أبدأ ولا ماذا أفعل فأنا أقف في نقطة

الصفر كنت عائدا إلى الوطن بفرحة كبيرة لأنني أنجزت شيئا طيبا في المشروع الثقافي على الخصوص ولكن الله شاء غير ذلك " (انظر مسار قدم ـ يوميات ج5، عالم المعرف الجزائر 2010 ص95)

و أنا أتذكر جيدا إلى اليوم شكل الحقيبة ولونها وهي فعلا كما وصفها "محفظة متآكلة الأطراف... وقديمة " وأصبح بعد ذلك يحمل محفظة أخرى تشبهها ولكن بلون أسود كأنه يعلن الحذر على الحقيبة 27 أوت 1988

وبعد أن فقد الأمل نهائيا رجوع الحقيبة المسروقة رفض الرضوخ للأمر الواقع وأن يقع تحت رحمة الاستسلام فقرر الشروع من جديد في عملية جمع المادة التي ضاعت منه وأخذ يسابق الزمن في ذلك ويتحدى كل الصعاب والمشاكل............. وكانت النتيجة غير متوقعة تماما فبعد كان أن يحلم بتخصيص جزئيين للعهد الاستعماري وجدناه يسجل تاريخ الجزائر الثقافي لهذه الفترة في............. إطراء كاملة بدءا من الجزء الثالث وصولا إلى الجزء الثامن وبذلك تحول المشروع من مجرد كتاب من ثلاث أجزاء أو أربعة إلى موسوعة حقيقية تتكون من ثمانية أجزاء إضافة إلى الجزء التاسع المخصص إلى الفهارس لمختلف الأعلام والأماكن والدول والأسر والقبائل والمصادر والمدارس والأحزاب والمؤسسات وغيرها مع ملحق زاخر بالصور واللوحات المعبرة عن واقع ما تناوله في موسوعته.

لقد استغرقت عملية تحقيق هذا الحلم قرابة ثلاث عقود من الزمن إذ بدأه مع بدايات سبعينيات القرن العشرين ولم يتم إنجازه إلا في السنوات الأخيرة من القرن نفسه حيث صدر في تسعة أجزاء كاملة عن دار الغرب الإسلامي في بيروت بلبنان سنة 1998 وتعد هذه المعلمة بحق كما عبر الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني بأنها كانت "تحديا لواقع التأليف المثبط ومهمة البحث الصعب في جزائر الإستقلال "وإن

[كان] الأستاذ سعد الله قد وصل بهذه الموسوعة "إلى أوج عطائه إن لم نقل قمة إسهامه " (ص 564 من دراسات وشهادات مهداة إلى أبو القاسم سعد الله)

وأبرز ما يمكن لنا قوله في رحلة سعد الله الطويلة لانجاز هذا الحلم أنه عانى الكثير من المصاعب والمشاكل إلا أن أصعبها وأقساها على الإطلاق ابتعاده المتكرر عن الجزائر والذي كان لمدة طويلة في بعض الأحيان هذا الوطن الذي أحبه بكل قوة ولكن كل ذلك يهون أمام سعيه لتحقيق الهدف الأسمى الذي سطره لنفسه من الوصول بهذا الحلم إلى محطته الأخيرة وهو أن يقدم للجزائر عملا يشرف أجيالها الماضية واللاحقة دون أن ينتظر من أي كان المقابل وهو ما قاله لي في إحدى الرسائل من [مهجره]بالأردن بتاريخ 4 أكتوبر 1999 عندما أرسلت إليه برسالة مهنئا إياه بصدور الموسوعة "..... أنني لم أكتب الكتاب ولا غيره مما ألفت لكي أمدح أو أجازى إن همي هو منح الجزائر تاريخ يشرف أجيالها الماضية والقادمة".

ولقد تغرب الأستاذ سعد الله في العديد من المرات من أجل هذا المشروع كانت الأولى لمدة عشرة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية من سبتمبر 1977 إلى غاية 25 جويلية 1978 حيث قام خلال هذه المدة [بإتمام] الجزائريين الأول والثاني قبل نهاية جوان 1978 ولقد دخل إلى الجزائر بتاريخ 25جويلة 1978 ،ويقول أن الكتاب كان بحاجة إلى لمراجعة طويلة وصيانة وإضافة وحذف ونحو ذلك وأن مثل هذا العمل لا يمكن القيام به أيضا إذ استأنف العمل في جامعة الجزائر لهذا وجدناه يطلب تمديد عملية التفرغ سنة أخرى للقيام بكل ما ذكر من قبل، وهو الأمر الذي جعله يعود مجددا إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع بدايات شهر أكتوبر 1978 إلى غاية 20 جويلية 1979. ويمكن القول أنه لم يعان خلال هاته السنين ما عاناه عندما قرر الذهاب مرة أخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1993 لاستكمال العمل في ما بقي من أجزاء في هذا المشروع، وكذا لتدارك ما ضاع منه من وثائق في "الحقيبة

الفقيدة" وكان من المقرر أن يمكث هناك ستة أشهر إلا أنها أصبحت سنة ثم سنتين ثم ثلاث، لتغير المكان والغربة متوجها إلى الأردن في سبتمبر 1996 إلى غاية 2002 وكانت هذه السنوات قاسية جدًّا عليه خاصة الثلاثة الأولى منها فإلى جانب نتيجة الأوضاع المتردية التي كانت تعيشها الجزائر في ظل [الخطر] الذي كان سائدا فيها والذي كانت الدماء تسيل فيه بغزارة. اقترن ذلك بقلة المال الذي منعه من زيارة والدته في آخر أيامها عندما اشتد المرض حيث يقول واصفا هذه الوضعية "وأثناء تحريري للكتاب توفيت والدتي هالي العبيدية رحمها الله ،وكان بيني وبينها المحيط والقارات وكانت تنتظر عودتي وانتظر رؤيتها، وكنت أمنّي نفسي بحمل الكتاب إليها لتقبله كما كانت تفعل مع كتبي الأخرى ،ولكن خطفها [الموت]فلم أستطع رؤيتها في لحظات الحياة الأخيرة " (ص14 من مقدمة الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 2005

ولقد سجل هذه اللحظات في جزءه السادس هي مسار قلم ،إنها لحظات جد مؤثرة ، ولن أكون بالمبالغ إن قلت إني بكيت عندما قرأت ما كتبه بشأن هذا الأمر فقد كتب تحت تاريخ 31 جويلية 1994 "... إن هذه البلاد بعيدة جدا والسفر منها وإليها مكلف للغاية، وأنا الآن أبحث عن طريقة أعيش بها الشهور القادمة، أما الوالدة فكل ما........ أن يدركها الموت دون أن أراها ـ لا قدر نفسي تحدثني بذلك ويا لها من عصبية أن يقع ذلك ولكن لابد من الصبر لقضاء الله ولقد أخبرني علي ـ وهو أحد إخوته ـ أنها تزداد ضعفا" (مسار قلم 62ص 83) وكتب أيضا تحت تاريخ الخميس 18غشت 1994" وصلتني رسالة... من أخي يصف فيها الوالدة وصفا ميؤسا منها وكأنها في حالة احتضار انزعجت كثيرا وقد اقترح علي أن أزورها قبل النهاية لمدة أسبوع ،أنني لا أعرف كيف أفعل ذلك وأنا على هذه المسافة من البعد والخصاصة المادية والحالة العائلية والحالة الأمنية في الجزائر فالسفر إلى قمار سيكلفني على الأقل

ألفين دولار ،و أين هي الآن ؟ (ص 88 مج 6 مسار قلم)

ولقد حدث ما كان الأستاذ سعد الله خائفا منه. إذ توفيت والدته دون أن يراها ولم يتمكن من الحضور إلى جنازتها "يوم 8 أفريل 1995 أخيرا وقع الذي كنت أخشاه وأتوقعه ووصلني خبر وفاة الوالدة العزيزة على نفسي ـ توفيت يوم 7 أفريل ـ........ بالله ،هكذا اختفى الرمز الذي كان يشدني إلى البلاد [والوحش]لعله الشوق] الذي كان يحملني إلى أن أهتف كل شهر لأسمع صوتها الملائكي....... كلما تذكرتها سالت دموعي وأحسست بشعلة تضطرم في صدري حزنا عليها إنني أحسست بأنني يتيم لأول مرة في حياتي......... " (ص 137 ـ 139 من مسار قلم الجزء السادس)

كانت بداية مشوار الأستاذ سعد الله لتحقيق هذا الحلم "تاريخ الجزائر الثقافي " مع بدايات سبعينيات القرن العشرين إذ بالرجوع إلى كتاب مسار قلم نجد أن أول إشارة إلى هذا الكتاب كانت في الجزء الثالث وتحديدا في الصفحة 240 حيث كتب يقول يوم 29سبتمبر 1970 " أعمل هذا الأيام على كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) وقد وجدت عددا من الوثائق والمخطوطات..... وعاد إلى الحديث عن هذا الكتاب في الصفحة 243 إذ كتب بتاريخ 3ديسمبر 1970 "بدأت في قراءة المراجع لكتاب تاريخ الجزائر الثقافي " وهذا معناه أن الجزء الأول والثاني استغرقا من وقته عشر سنوات كاملة إذ صدر سنة 1981 إذ كتب في الجزء الخامس من مسار قلم في الصفحة 19 في يوم 24 ماي 1981 " أخيرا صدر الجزء الأول من تاريخ الجزائر الثقافي وقريبا يظهر الجزء الثاني والحمد لله وقد استقبله الناس بحماس كبير وأظهر كم هو الجزائري متعطش إلى المعرفة خصوصا عن ماضيه وقد عانيت أنا البؤس والتعب قي تحضير هذا الكتاب ".

وبعد ذلك سخر جل وقته لانجاز ما تبقى من تاريخ الجزائر الثقافي والمخصص للفترة الاستعمارية ولقد استغرق منه ذلك حوالي عقدين من الزمن وعانى خلالها الكثير من المصائب والمتاعب وحتى يكتمل ما بقي من هذا الحلم ويسترجع ما ضاع

منه من مادة علمية مع ضياع حقيبته. ذهب إلى الولايات المتحدة في إطار منحة جزائرية أمريكية تدعى منحة فولبرايت. وبمجرد وصوله إلى مينيابلس وتحديدا إلى جامعة مينسوتا في 10 أوت 1993 شرع في عملية إعادة تجميع ما كان قد ضاع منه من معلومات، إذ أنه بعد مرور شهرين من وصوله إلى هناك تمكن من تجميع الكثير من البطاقات المعلوماتية "وأشعر أنني أتيت على معظم المراجع التي كنت جمعت منها المادة التي ضاعت "ويقول أنه وجد مراجع جديدة ورؤية أيضا جديدة للمسار الثقافي إلا أن المشكل الأكبر هو أن الكتابة ما تزال كلما حولتها أشعر بالفشل في الأعصاب والهبوط لماذا؟ لا أدري فالأطباء قالوا أن كل شيء عادي ومع ذلك هكذا أشعر عندما أكتب هذه السطور أو حتى الرسالة " (ص 24 من الجزء السادس من مسار قلم)

وكان الأستاذ سعيدوني قد حدثنا عن هذه المعاناة التي واجهها الأستاذ سعد الله في عدم قدرته على الكتابة لمدة ستة أشهر تقريبا حيث كتب يقول " ولعلي لا أنشر سرًّا أن رويت حادثة أطلعني عليها الأستاذ أبو القاسم سعد الله تبين للقارئ مدى الجهود والمعاناة التي واجهها في عمله والتي كانت بمثابة الثمن المتوجب دفعه لانجاز هذا الكتاب، وملخص هذه الحادثة أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله عندما غادر الجزائر صيف 1993 إلى أمريكا ،هو مثقل بالعمل ومنهك بالجهد ومحبط لتطورات الأوضاع في الجزائر احتبست نفسه عن الإنتاج وكلت ذاكرته عن العطاء ولم تطاوعه أفكاره حتى أن يده لم...... على مسك القلم، فما له الأمر هو الذي لا يجد نفسه إلا في الكتابة ولا يحقق ذاته إلا في الإنتاج ،فظن أنه قد أصيب بمرض يعجزه عن تحقيق ما يراه رسالة ملقاة على عاتقه ،فتردد على الطبيب ومارس الرياضة ،لكن أصابعه لم تطاوعه على الكتابة، وظل كذلك حوالي نصف سنة إلى أن تغلبت فيه النفس الآملة وانتصرت العزيمة الصامدة، فعاد إلى المنزل في أحد الأيام وهو فرح لا يكاد يصدق نفسه بعد أن خط بعض السطور (ص568ـ 569من كتاب دراسات وشهادات مهداة إلى أبو القاسم سعد الله).

ولقد كتب بتاريخ 4 ديسمبر 1993 يقول أنه تمكن بالأمس من البدء في تحرير الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي "حررت حوالي خمس صفحات " وبعد حوالي أسبوع من ذلك تمكن من كتابة حوالي 43 صفحة من فصل الطرف......... "و أنا أتقدم ببطء ولكني أتقدم والحمد لله "

و لقد قيل الكثير من الكلام عن الأستاذ سعد الله عندما كان ينجز هذا الحلم. ومما قيل في حقه ما يذكره شخصيا في الجزء السادس من مسار قلم من خلال رسالة وصلته من أخيه علي حيث جاء فيها "رسالة من أخي علي تقول أنهم هناك ـ أي في الجزائر ـ يشيعون عني أني أتسول في أمريكا. كلام غريب ولكنه صحيح إلى حد كبير لأن طلباتي للعمل والحصول على الحد الأدنى من العيش في الجامعة ودفع رسوم أحمد الخ كل ذلك نوع من التسول والله اعلم " (ص 112).

ويجب علينا أن نسجل هنا أن الأستاذ سعد الله عاش أوضاعا متزامنة بشكل خطير حيث ما انفك يسعى إلى البحث عن الوسيلة التي تمكنه من إطالة إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل مشروع حلم العمل لأنه كان يدرك تمام الإدراك أنه إذا دخل الجزائر قبل أن يكمل هذا المشروع فمعنى ذلك الحكم عليه بالنهاية والتوقف لذا وجدناه يطرق كل الأبواب والسبل فيحدث مثلا بعض معارفه وزملائه من الأمريكان، ويراسل مؤسسة فولبرايت ،وكذا معهد التاريخ بجامعة الجزائر كما اتصل بوزير الخارجية الجزائري محمد صالح دمبري للتوسط له من أجل التجديد والتمديد وأمام انسداد كل الأبواب أمامه أشار عليه البعض بطلب اللجوء السياسي وهو ما كان الأستاذ سعد الله يرفضه جملة وتفصيلا حيث كان يجيبهم بأن ذلك "غير داخل في الاعتبار أبدا إن حياتي التي كرستها للجزائر لا يمكن أن تتغير في آخرها بطلب اللجوء السياسي في أي بلد. إنني غير سياسي بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة فأنا غير حزبي وغير معارض أيضا... وفكرة اللجوء قالوها أيضا لأحمد ـ ابنه

الوحيد ـ فحذرته وأرجو أن يكون ذلك درسا له مدى الحياة إننا ضيوف وسنرجع إلى بلادنا متى انتهت الضيافة مع شكرنا لضيفنا " (ص 160)

وبعد أن تأكد الأستاذ سعد الله أن حلمه قد اكتمل تحقيقه بكتابة المقدمة لكتاب تاريخ الجزائر الثقافي وكان ذلك في أفريل1996 شرع في التفكير بالرجوع إلى الجزائر أو على الأقل التوجه إلى إحدى الجامعات العربية للتدريس فيها تمهيدا للرجوع إلى الجزائر، وقد ذهب إلى جامعة [المفرق] بالأردن ابتداء من سبتمبر 1996 ومكث فيها إلى غاية 2002 حيث عاد نهائيا إلى أرض الوطن ليواصل عملية البحث والتنقيب عن تاريخ الجزائر الثقافي.

ولقد كتب الأستاذ سعد الله في الجزء السادس من مسار قلم عندما جاءه الناشر الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي ببيروت لبنان بأول نسخة من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي "الحمد لله على صدوره رغم.......... من حاول عرقلتي فيه ،ويعلم الله ما........ من أجله، ولعل ما حل بأحمد من مشاكل وما تركني في أمريكا تلك الفترة العصيبة كان بسببه أيضا كما أن والدتي رحمها الله قد توفيت في غربتي من أجله " (ص 409).

والملاحظ على الأستاذ سعد الله أنه بعد أن أنجز حلم عمر بإصدار موسوعة تاريخ الجزائر لم يهدأ ولم يركن للراحة، بل وجدناه يعمل بكل نشاط وجد حتى أصدر لهذه جزءا عاشرا خصصه للفترة ما بين 1954 ـ 1962، كما أنه بدأ يوسع حلمه ليعرف بتاريخ الثقافة الجزائرية منذ الفتح الإسلامي، حيث يقول في إحدى حواراته.......... إلى سنة 2004 " ويشغل ذهني كتابة التاريخ الفكري للمغرب العربي منذ الفتح الإسلامي وقد جمعت له مادة طيبة حتى الآن " (حوارات ص 222)

و نجده يقول لمراد وزناجي سنة 2008 "و في خطتي أن أرجع بالتاريخ الثقافي

للجزائر إلى الفتوحات الإسلامية، وأكتب [عن]هذه الفترة التي تمتد من الفتوحات إلى حوالي 1500، وقد جمعت مادة غزيرة للمشروع ولكني لم أكملها وقد عرضت المشروع على بعض الجهات............ في تبنيه، وليس لي إمكانيات السفر للاطلاع على المخطوطات وغيرها دون دعم (ص 180 من كتاب حديث صريح مع أ. د سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ)

إذا فالأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله رحل عنا وفي نفسه الشيء الكثير من تاريخ الثقافة الجزائرية.

55

شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور سعد الله.. خالد بتراثه وفكره

الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي

جامعة قسنطينة

تعود معرفتي بالأستاذ الكبير شيخ المؤرخين الجزائريين، أبي القاسم سعد الله، إلى نهاية الستينيات عندما كنت طالبا في قسم التاريخ الذي أنشئ حديثا، بكلية الآداب جامعة قسنطينة في السنة الدراسية 1969 ـ 1970 م فتتلمذت عليه، وحضرت بعض دروسه وهو أستاذ زائر لجامعة قسنطينة، ثم عرفته وأنا مدرس ونائب لعميد كلية الآداب ورئيس لقسم التاريخ في بداية السبعينيات، فصار بيننا تعاون بيداغوجي، في وقت كان قسم التاريخ يفتقر الى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر 1.

فكنا نحضر دروسه مع طلابنا، ونستمتع بمشيخته وعلمه ومنهجيته، فعوضنا بما كنا نحتاج إلى معرفته من تاريخ الجزائر والحركة الوطنية.

فكان الأستاذ مفعما بالحيوية والنشاط، غزير العلم، واسع المعارف، يحرص على أن يفرغ ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه الى طلابه، بكل جدية وعمق، لأن الدراسة في الأقسام العربية آنذاك، كانت تشكو من الطرق التقليدية والحشو، لكونها يعزوها الإطار الكفء والكتاب المرجعي، وتنقصها المنهجية الصحيحة، والطرق الحديثة، لأن الكثير ممن كانوا يدرسون في الجامعة، في تلك الفترة، لا

يحملون شهادتي الماجيستير والدكتوراه، إلا القليل الناذر من الجزائريين، وكذا من بعض المتعاونين الأجانب الشرقيين منهم أو الغربيين (02).

فحاول الأستاذ الدكتور، نقل ما يمكن نقله، من أحدث ما توصلت إليه العلوم الإجتماعية من تطور وتقدم، من مضانها الأنجلو سكسونية، لأنه يدرك تمام الإدراك، بأن الغرض من التعليم الجامعي، هو تثقيف العقل، لا لإملاء الحافظة، وحشوها بالمعلومات بل غرضه تنمية ملكة البحث العلمي، ومعرفة منهجه، وتوسيع أفاق الإدراك به، وتعويد الطالب على حب العلم والقراءة، والتحكم في وسائل البحث واكتساب المعارف والتعمق في اللغة التي يدرس بها.

وكان الأستاذ صارما جدا، في دروسه وتوجيهاته، معروفا بتشدده العلمي والمعرفي، فكانت له مقاييس منهجية ولغوية، لا يتساهل فيها مع طلابه، وخاصة منهم طلاب الدراسات العليا، وأن صرامته هذه صرامة الصادقين الناصحين.

فكان يتقد حماسة في مجال التدريس، وامتهان العلم والبحث التاريخي، فبنى لنفسه مجدا بين طلابه، ومكانة مرموقة بين زملائه، ولكن مع الأسف نفقد كانت زيارته الى جامعة قسنطينة، محدودة بل نادرة، ولعل السبب في ذلك، يعود الى كثرة انشغالاته بالجامعة المركزية في الجزائر، أو ربما يعود لعدم توفير الشروط المريحة للأستاذ الزائر آنذاك، لأن ميزانية الجامعة في بداية السبعينيات، كانت تشكو من الضعف، فضلا عن تهاون المسيرين في الحقل الجامعي وقلة إدراكهم لمثل هذا التعاون العلمي، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنا نلتقي بالأستاذ في اللجان البيداغوجية، التي تدعو إليها الوزارة، وهي فرصة أيضا كانت تسمح لنا بالاستئناس، إلى حديثه وأرائه وأفكاره، ومقترحاته العلمية والتربوية المتعلقة

بالبرامج الدراسية ومقرراتها وآفاق الجامعة.

فقد عودنا الأستاذ على تشجيع الباحثين، ولاسيما منهم الناشئين ويأخذ بأيديهم ويقدم لهم العون والدعم، في مجال البحث والدراسة والتأليف والطبع، ولم يبخل عليهم بجهده ووقته وعلمه، أو يتأخر عنهم، فقد كان له الفضل في طبع كتابي الموسوم: "المظاهر الكبرى لعصر الولاة في بلاد المغرب والأندلس" بدار المعرف التونسية، في مدة زمنية قياسية لم تتعد الستة أشهر، بينما ظل ما يزيد عن سنتين في الجزائر ينتظر دوره في الطبع والنشر.

وعندما كنت رئيسا لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، شرفني برسالة تهنئة وتشجيع، تلقيتها عن طريق شقيقه "علي سعد الله" وهو في ديار الغربة، بالمملكة الأردنية الهاشمية، وهي لفتة كريمة منه، جعلتني لا أتردد في مفاتحة أخيه الذي كلفته بأن يقدم للأستاذ عرضا يتضمن عودته الى أرض الوطن، لأن جامعة الأمير عبد القادر في حاجة إليه وإلى علمه ومشيخته، وأن منصب رئيس المجلس العلمي للجامعة ينتظره، حتى نتمكن سويا من النهوض بهذه الجامعة الفتية، ذات الطابع الخصوصي المتميز، إلى المستوى والمهمة التي أسست من أجله، وهو بدون شك أهل لهذه المسؤولية لما يتميز به من قدرة علمية، ولما يتمتع به من سمعة بيداغوجية، عند الطلاب والدارسين، وكنت تواقا لرده.

لقد أتاحت لنا طليعة من زملائه وتلامذته، بأن نتشرف بالمساهمة في تأليف كتاب تذكاري، يضم أبحاثا وشهادات وانطباعات تعكس اهتمامات المشاركين المهنية، ومشاعرهم التقديرية نحو الأستاذ (03).

دخل الأستاذ الدكتور الحياة الثقافية كاتبا وصحفيا وأديبا وشاعرا وانتهى به الأمر الى محقق ومؤرخ ومترجم يغوص في أغوار التراث والتاريخ، إذ وجد نفسه بفعل الدراسة الجديدة بأمريكا، يتحول من معالجة الأدب والشعر، إلى البحث في القضايا التاريخية والتراث، وأصبح البعد الثقافي الوطني هاجسه، وشغله الشاغل، يتحكم في توجهه ويشغل باله، إذ انتقل من الثقافة التقليدية، كما صاغتها جمعية العلماء المسلمين، وشكلتها الزيتونة، وطبعتها دار العلوم بالقاهرة، وصقلتها الجامعة الأمريكية إلى آفاق التخصص الواسعة والمتجددة في العلوم الإنسانية والإجتماعية (04).

فقد ظل الأستاذ المثقف الذي يستمد مرجعيته وقيمه من الحضارة العربية الإسلامية، ويمتد أفقه خارج إطار الدعوة الفرنكفونية، حيث الأفاق العلمية الأنجلو سكسونية، فصارت له مواهب متعددة وآفاق واسعة، أفادت بعضها البعض، حتى صار من المثقفين الموسوعيين.

لازم الكتابة وقرض الشعر منذ نعومة أظفاره، وظل في ميدان الإنتاج الفكري أكثر من نصف قرن من العطاء المتواصل، أثرى المكتبة العربية بعشرات المؤلفات والمصنفات في مجالات معرفية شتى.

أما فيما يتعلق بمواقفه من قضايا التاريخ، فكان للأستاذ موقف حيادي من النضال السياسي في الجزائر في بداية الأمر، ثم أخذ يتغلغل وينفذ في الواقع الجزائري، ومعالجة القضايا الشائكة، الى أن أصبح يدلي بدلوه في اتخاذ المواقف الصريحة، في كبريات الأمور، وقضايا الساعة (05).

فكان يقول عن الكتابة التاريخية: "بأنها عملية متجددة، يمارسها كل جيل

بالقدرة والعقلية التي وصلها، والوثائق المتوفرة لديه، والمستجدات الحضارية التي تحيط به"، ويقول أيضا: "أن المؤرخ ابن بيئته وظروفه وأسير ثقافته ووثائقه، ومن ثمة فهو مرآة شعبه06) ").

فقد ظل الأستاذ يدافع عن التعريب والجزأرة في التعليم، والديمقراطية وحرية التعبير، منذ وجوده في الجامعة المركزية بالجزائر سنة 1967 مع ثلة من زملائه وأصدقائه، وقد تميز عنهم، بأنه كان مهموما محموما بالثقافة الوطنية، واللغة العربية، التي يكتب بها (07).

فقد كان مؤمنا بالوحدة الوطنية، ووحدة اللغة، والانتماء العربي الإسلامي، ولا يزال كذلك، يرفض التدجين والتغريب، فعن اللغة العربية المتيم بها، يعتبرها بمثابة روح الأمة، فقد ظلت ومازالت الحلم الذي يراوده، وجرحا غائرا يؤلمه، وألما شديدا يعانيه لواقع هذه اللغة، ولما أصبحت عليه اليوم في ديارها وبين أبناء أهلها في الجزائر، وأن ما آلت إليه اللغة في نظره يعود الى غياب استراتيجية ومفهوم المركزية الثقافية منذ الإستقلال، وما سماه بالتشرذم الثقافي، الذي انتاب الشعب الجزائري منذ العهد التركي مرورا بالعهد الفرنسي والى وقتنا هذا (08).

فتوحيد اللسان في نظره في الوطن الواحد، يعني توحيد الفكر والهوية والمصير والعقيدة، ويمكنه بعد ذلك، الانفتاح على تجارب الآخرين، بدون خوف على هويته وعقيدته، وأن يتعلم ما يشاء من اللغات والثقافات الأخرى، والتي تجعله بدون شك يطلع على المعارف وعالم المستجدات في ميدان العلم والفكر في البلدان المتقدمة الأخرى (09 (.

فبهذه الأفكار والمواقف، كان الأستاذ الدكتور، يقلق بعض الأوساط الرسمية والتغريبية واليسارية، وصار في نظرهم مثال غير مرغوب فيه، ونموذجا مزعجا للنمط الثقافي الذي خضعت له الجزائر بعد الإستقلال (10).

وقد عانى الأستاذ جراء ذلك الأمرين، بما ضرب حوله من حصار وتهميش واستفزازات داخل الحرم الجامعي وخارجه، لكن كعادته ظل صامدا مقاوما بهدوئه المعهودة ورزانته، واقفا متحديا شامخا شموخ الجزائر، لا يخاف لومة لائم في قضية الهوية والتراث، بل ظل يواجه المد المعاكس للثقافة الوطنية، ويتحدى أصحابه ودعاته في كثير من الأحيان، مع ثلة ممن يشاركونه في آرائه ومواقفه في الجامعة الجزائرية.

نهض الأستاذ الجليل، بمهام علمية ومسؤوليات تربوية في غاية الأهمية، منذ وجوده في الجامعة، تكوّن على يده جيل من الأساتذة والباحثين، حاملين مشعله وطموحاته، كما كان له تأثير ملحوظ على جمهور عريض من المثقفين في الجزائر، وتزينت المكتبات الوطنية والعربية بمؤلفاته ومصنفاته، ونتاج فكره، مما جعل سمعته وشهرته العلمية تتعدى حدود وطنه، وكانت الجامعات العربية والإسلامية والأنجلو سكسونية، تدعوه للتدريس بمدرجاتها وعلى طلابها، وقد زادت مؤلفاته العشرين، فاق بها أقرانه بما أضفى عليها من كم وكيف هائل، تضمنت: "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (خمسة أجزاء)، وأضواء تاريخية ودراسات نقد وتأملات وأفكار، وإبداعات ومترجمات، ومسار قلم، يوميات، وتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (ستة أجزاء)، وتحقيق التراث (ثلاثة أجزاء)، وموسوعة تاريخ الجزائر الثقافي (عشرة أجزاء) من القرن 15 إلى الاستقلال

واستعادة السيادة الوطنية.

فهذه الأعمال الموسوعية لا تقل عن (33 جزءا) نشرت في ثلاثة وعشرين مجلدا، نشرته وزارة المجاهدين في دار الغرب الإسلامي بيروت في طبعة أنيقة.

ونحن نعرف أن شيخنا ومؤرخنا كان يدوِّن في مفكرته التي لا تفارق جيبه، كل الزيارات التي كان يقوم بها داخل الوطن وخارجه، وما يدور على الساحة الوطنية من أحداث هامة، نتمنى أن تلقى من ينشرها.

فقد أفنى عمره وجهده في جمع تراث الأمة، من مختلف المكتبات العامة في الجزائر وفي العالم، ومن المكتبات الخاصة عبر التراب الجزائري، يعمل بهدوء ورزانة وبصمت، يكره الأضواء والنرجسية، بسيطا في حياته، متواضعا تواضع المفكرين، رفض المسؤوليات السامية، حتى يبقى مع التراث والتاريخ.

وقد شاءت الأقدار أن يروح عنا الى الدار الباقية، بجسده وروحه إلا أن تراثه وأفكاره ومصنفاته الموسوعية المختلفة وما دونته قريحته ووجدانه ستظل باقية وخالدة مفيدة للدارسين والباحثين، وأتمنى أن ينهض تلاميذه لاستكمال العطاء العلمي والفكري وتحقيق التراث الذي سطره شيخ المؤرخين الجزائريين، لأن الجزائر وتراثها وتاريخها لا يزال في أمس الحاجة الى أمثاله، طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه.

الهوامش:

(1) ـ حاضر في السنة الجامعية 1971 ـ 1972.

(2) ـ عندما بدأت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في تطبيق الإصلاح الجامعي في السنة الدراسية 1971 ـ 1972 بدأت معها سياسة جزأرة الإطار الجامعي على الجزائريين في التدريس وفي التسيير بالجامعة، وبالتالي بدأ العد التنازلي، في تقليص التعاون مع الأجانب وخاصة المشرق.

(3) ـ الكتاب التذكاري عنوانه: دراسات وشهادات مهداة الى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000.

(4) ـ عن دراسته وتكوينه الثقافي انظر: حسن فتح الباب: شاعر وثورة، دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس 1991، ص11 ـ 35.

(5) ـ ناصر الدين سعيدون: أبو القاسم سعد الله، كاتبا ومفكرا من كتاب دراسات وشهادات ص 499 ـ 515.

(6) ـ جريدة الشعب: كتابة التاريخ 14/ 05/ 1990 ص11.

(7) ـ في هذا المجال، أي في قضية اللغة والتاريخ والتشرذم الثقافي، انظر ما كتبه أبو القاسم سعد الله في العديد من المقالات وما ألقاه في الكثير من المحاضرات نعالج فيها وضع اللغة العربية والتاريخ، انظر ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق ص 499 ـ ص 515.

(8) ـ ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق ص 511.

(9) ـ أبو القاسم سعد الله جريدة الشعب 14/ 05/ 1989.

(10) ـ انظر في هذا بالشأن: ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق ص 514.

(*) جامعة قسنطينة2

56

سيد التاريخ

شعر: سليمان جوادي

إلى الراحل الكبير بلقاسم سعد الله

يـــا أبـــا القاســـم عـــذرا

إن أنـا أخفيـت دمعـا عـن محبيـك

و أبـــــديت الجلــــــد

أنـــت لم ترحـــل عـــن الـــدنيا

و إن غـــــاب الجســــــد

أنت في كـل الميـادين حضـور دائـم

يعليــــه فكـــــر متقـــــد

أيهـــا الغـــارق في حـــب البلـــد

ســـــوف تبقـــــى جـــــذوة

في أمـــــة حاصرهـــــا الجهـــــل

وأضـــــــنتها العقـــــــد

أنت يا من مدها مـن روحـه روحـا

ســـتبقيها إلى أقصـــى النهايـــات

إلى أقصـــــــــى أمــــــــد

يـــــا أبـــــا التـــــاريخ

يـــا مــــن روض الفكــــرة

يـــا مــــن أحضـــر المــــاضي

وأجـــلى عـــن معانيـــه الشـــوائب

يا عظيما حل في وجداننا أعلى المراتـب

لم تغــــيره السياســــات

ولم يســـع إلى ســـحر المناصـــب

يـــــا أبـــــا التـــــاريخ

يـا مـن جمعـت ذاتـه كـل المواهـب

أنـــت في الشـــعر إمـــام

أنـت النقــد صريــح لا يــوارب

أنــــت في الفكــــر سراج

صـــادق الكلمـــة ثاقـــب

يــــا أبــــا أحمــــد

إن النصــــر للحــــب

وللماضـــيين في حـــب الجزائـــر

أنــــت ثــــائر أنــــت شــــاعر

وحضـــور دائـــم يعلـــو المنـــابر

أنــت يــا مــن أيقظــت أشــعاره

بـــالأمس آلاف الضـــمائر

أنــت مــن لقنهــا حــب الجزائــر

يــــا أبــــا أحمــــد

لم ترحـل ولكـن سرت نحـو الخلـد

واخـــــترت البقــــاء

يـــا شـــبيه الأنبيـــاء

أنـــت صـــنو الرســـل

صـــبرا ومضـــاء ونقـــاء

يا أبانا سوف تبقى حاضرا مـا بيننـا

كالشـــمس موفـــور البهـــاء

57
رمز الأمجاد

الشاعرة: هاجر صحراوي

نَاضَـــــلَ لِرَفْعِـــــهِ الـــــبِلاَد

حِكمتـــــه كَانـــــت العَتَـــــاد

قَضَـــــىٰ حَيَاتَـــــهُ في جِهـــــاد

قِيـــــل عنـــه فقـــيرٌ ولَم يجِـــد الـــزَّاد

لَكِـــن بكـــدِّه والنِضـــال كـــان دَائِـــم العِنَـــاد

رَغـــمَ العَنَـــاءِ رَسَـــمَ المَمَـــرِّ

إنَّـــهُ جَزَائـــريّ وُلِـــدَ حُـــرّ

ســـعىٰ لتحقيـــقِ حُلْـــمِ العُمـــر

كَـــانَ زَادُه حَبَـــاتِ تمـــر

ونقـــودًا لا تكفـــي أيـــن المفـــرّ؟

نَاضَـــلَ وكَـــافَحَ حُبًـــا في الـــوطن

لَمْ يَـــرضَى بـــالظلم ولَمْ يَقْبَـــلْ الـــوَهَن

تَعلّـــم عِـــوَضَ الرّكُـــونِ للانتظـــار

وفـــكَّ سَلاَسِـــلَ الجهـــلِ وصَـــحَّحَ المَسَـــار

فِي بَلَـــدٍ أنهَكَـــهُ الاسْـــتِدْمَارْ

الـــــتعلّم كَـــــانَ الحَــــلّ الأمثـــــل
رَسَـــمَ بِـــه طَريـــقَ المســـتقبل
قلـــم يَفْقِـــد بَصِـــيصَ الأَمَــــلَ
بـــل ســـار عـــلى الـــدّرب حتـــى وَصَـــل
مِنْ رِجَال الجَزَائِر كَتَبَ اسْمُهُ بِحُرُوفِ من ذهب
من أبناء الجَزائِر قَاتَلَ الجهـلَ وعـاف النَّصَـب
بـــدَأَ كَاتِبًـــا وأَدِيبًـــا ذَا قَامَـــة
فصَـــارَ مُؤَرخـــا وعَالِمًـــا ذا هَامَـــة
رجُـــلٌ مِثَـــاليّ وبالمبَـــادئ مُقْتَنِـــعْ
وَعَـــنْ المطَـــامِعَ وَالمغْرَيَـــات مُمْتَنِـــعْ
ســـيظلّ اســـمُه محْفُـــورًا طـــول الزمـــان
وَنُصْـــحُهُ لَـــوْ اتَّبَعْنَـــاهُ نَكُـــونُ في أَمَـــان
كَنْـــزٌ أَغْـــلَى مـــن اللُؤْلُـــؤِ والمرْجَـــان
إِنّـــهُ نَفْسُـــهُ المـــدّرسُ الـــدّكتور
رحَـــل الجَسَـــدُ وَبَقِـــيَ فِكْـــرُهُ المنْظُـــور
رَحَـــلَ عَنَـــا شَـــيْخٌ المـــؤَرِخِينْ
جعَلَـــــــه الله في العِليـــــــيّنْ
نِـــدَاءٌ إلى طَلَبتِـــهِ: لاَ تَكُونُـــوا حَـــزنين
عَـــلَى خُطَـــاهُ سِـــيرُوا مُتَفَـــائِلينَ

وَاجْعَلُـــوا مِـــنْ تَوَاضُـــعِهِ خَـــيْرَ مَعِـــين
هَـــلْ عَرَفْتُمُـــوه؟ إِنَّـــهُ ابْـــنُ بِـــلاَدِي
أَبُـــو القَاسِـــم سَـــعْدَ الله رَمْـــزُ الأَمْجَـــادِ

الشاعرة المتألقة/ هاجر صحراوي/3م[1]

---

(1) التلميذة هاجر صحراوي من مواليد السابع سبتمبر سنة 2000 بسيدي امحمد في قلب العاصمة من أسرة محافظة تشجع العلم ومن أبوين مهندسين، تدرس في متوسطة **كوشي أحمد بأولاد فايت** بعدما رحلت إليها أسرتها من الرغاية. تهوىٰ المطالعة والرسم وممارسة كرة السلة، منذ التحاقها بالمتوسطة تفجرت قريحتها في نظم الشعر لها عدة محاولات شعرية.

التقيت هذه البرعمة المتألقة بصحبة أستاذتها **بلعروسي**، وكان قد كلمني عنها أحمد نجل المغفور له بإذن الله شيخ المؤرخين الجزائريين فطلبت من الأستاذة الفاضلة هذا التعريف البسيط بهذه البرعمة التي نالت إعجاب الحضور يوم 2 يناير 2014 بمتحف المجاهد وهذا في وقفة قام بها المشرفون علىٰ المجلس الأعلىٰ للغة العربية.

58
لقد عشت عزيزا في هذه الدنيا

أ.د محمد العيد تاورته

إلى روح علامة الجزائر في هذا الزمان (1930 ـ 2013.12.14) أبي القاسم سعد الله طيب الله مثواه وجعله ضيفا عزيزا ضمن الذين عملوا الصالحات في الدنيا فأكرمهم ربه بجنة الرضوان. أيها العبقري الوفي الجزائري العربي المسلم المثقف الأستاذ المربي الشاعر الناقد الثائر على الظلم والظالمين... أيها المنتصر لثورتك: ثورة الجزائر العظيمة ـ والعظمة لله الذي ألهمك ـ مثلما ألهم الشهداء والمجاهدين ـ للانضمام اليها، والتفاني في خدمتها، متطوعا في جيش التحرير الوطني وأنت في القاهرة الزاهرة آنذاك (سنة 1956) وألهم عبقريتك الشاعرة فرفعت بقصائدك الثورية اسم الجزائر عاليا في سماوات هذا العالم لقد انتشرت قصائد ديوان (النصر للجزائر) في العالم العربي وبخاصة في المشرق العربي، ووصلت قصائدك الثورة الى (الاتحاد السوفياتي) آنذاك (1957) فترجمت الى اللغة الروسية والى لغات تلك (الامبراطورية) العظمى آنذاك كما ترجمت قصائده الى اللغة الفرنسية لكي يسمح ويعي زبانية الاستعمار الفرنسي آنذاك .. ناضلت في صفوف جبهة التحرير الوطني في القاهرة آنذاك، شاركت مع زملائك من طلبة الجزائر في كل من تونس والقاهرة وفي الولايات المتحدة الامريكية من أجل اسماع صوت ثورة الشعب الجزائري (1954 ـ 1962) الى كل محبي الحرية والعدالة

في العالم، لقد قلت الشعر الثوري الذي عبر حلم الجزائريين طوال قرن وثلث قرن فكان أحسن تعبير:

كـــــان حلـــــما واخــــــتمارا
كــــــان لحنــــــا في الســــــنين
كــــــان شـــــوقا في الصـــــدور
أن تـــــــرى الأرض تثـــــــور
....
غـــــير أن الأرض ثـــــــارت
والهتافـــــــــات تعالـــــــــت
مــــــن رصــــــاص الثــــائرين
....
والنفايــــــــات تـــــــوارت
وبراكين بلادي هـزّت الـدنيا ومـارت

ذلك شيء من شعر الثوري في عز الثورة الخالدة ثورة الشهداء الذين وهبوا أرواحهم لتعود الى الجزائر عزتها، ولكي تعود لكل جزائري حقوقه المغتصبة. ويندحر الظالمون المستعمرون لقد خرجت نبتة طيبة، ومن أسرة طيبة في صحرائنا الواسعة الصافية . من (البدوع) القماري.. وحفظت القرآن الكريم على عادة أهل بلادك في الجزائر والشمال الإفريقي، ثم يممت نحو (تونس الخضراء) فتعلمت فيها الدين والأدب وتفتح عقلك على ثقافة تونس آنذاك

وتخرجت في جامع الزيتونه العامر بشهادتي (الأهلية) 1951، ثم شهادة "التحصيل) سنة 1954 لتعود الى عاصمة بلادك (الجزائر) العاصمة فبدأت تعلم ابناء وطنك في مدرسة (التهذيب) لكن الثورة ثارت، وحرب عساكر فرنسا على الشعب الجزائري وعلى المثقفين لم تسمح لك بمواصلة عطائك آنذاك، فخرجت إلى القاهرة حيث كان الكثير من قادة الثورة الجزائرية آنذاك وحيث كان الامام الشيخ محمد البشير الابراهيمي الذي احتضنك.. فدخلت إلى كلية (دار المعلمين) بجامعة القاهرة فكنت تكافح على جبهتين: جبهة العلم فنلت شهادة (اللسانس) سنة 1959 ثم انخرطت في دراسة (الماجستير)، وأما الجبهة الثانية فكانت النضال من أجل الثورة الجزائرية في الأوساط الإعلامية والثقافية والمنظمات الطلابية..كل ذلك تحت توجيهات الحكومة المؤقتة الجزائرية، وتحت نظام جبهة التحرير التاريخية... لقد رأى فيك المسؤولون في تلك الثورة أنك أهل لأن تخدم جزائر المستقبل فأرسلوك للدراسة في (أمريكا) فما خيبت ظنهم أبدا، وكنت الحارس الأمين والمدافع القوي على تاريخ الجزائر فكانت أطروحتك للدكتوراه (الحركة الوطنية الجزائرية 1900 ـ 1930 إلى سنة 1956 فأصبحت أول دكتور جزائري في هذا التخصص بعد الاستقلال، وهذه الأطروحة أصبحت (موسوعة) بفعل اجتهادك وحرصك على الأمانة، ثم دخلت إلى عوالم خدمة الجزائر المستقلة من أبوابها الواسعة، فها أنت أستاذ الجامعة الجزائرية الأول آنذاك وها أنت تصحح تاريخ الجزائر بقلمك الذي لا يهدأ له مسار، وها أنت تكتب موسوعة (مسار قلم في أجزائها الستة) وها أنت تكتب (اللؤلؤة الخالدة): موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي في عشرة مجلدات ضخمة، وها أنت تقول في مقدمتها إلى الأجيال الجديدة من أبناء الجزائر تقول :

"لقد كان المؤلفون في القديم يهدون كتبهم إلى الملوك والأمراء والأعيان والوزراء، أما أنا فإني أهدي هذا الكتاب إلى (جيل ما بعد الثورة، إلى أطفال الجزائر اليوم الذين سينشرون غدا كنوز الثقافة العربية الإسلامية لبلادهم ويثرونها بإنتاجهم" رحمك الله يا أبا القاسم سعد الله على هذه البصيرة النافذة، الله أكبر والبقاء لله والخلود للشهداء وللعاملين من أجل مستقبل الجزائر، وأنت في مقدمتهم لقد كان العمل بالنسبة لأبي القاسم سعد الله عنوان التقدم، وكان النظام والانضباط والحفاظ على الوقت نظام حياة.

لقد كانت دهشتي عجيبة حين كتبت إليه ذات يوم من سنة 1979 استفسره عن معلومة وأنا أعد لشهادة (الماجستير) أن أجابني في أسرع وقت على ما طلبت، ثم عرفت بعد ذلك أن ذلك كان منهجه في النظام والانضباط وبث العلم في أوساط أبناء بلاده مواصلة العلم.

رحمكم الله يا أبا القاسم سعد الله، لقد كتبت عن كل زاوية من زوايا الجزائر الواسعة، وكتبت عن أعلامها وعلمائها سواء من الذين غادرونا إلى عالم البقاء الأبدي أم من الذين مازالوا على قيد الحياة، كتبت عن (محمد الهادي الحسيني) وعن أبي القاسم بن عبد الله، وعن عبد الرزاق قسوم... من الأحياء، وكتبت وماأكثر ما كتب عن علماء الجزائر الذين غادرونا وسبقوك الى الدار الخالدة، لقد كتبت عن (ابن العنابي) وعن (عبد الكريم لفكون) وعن (محمد الشاذلي القسنطيني) وعن ابي عصيدة، وعن (ابن باديس) وعن الابراهيمي، وعن الشهيد العربي التبسي... وعن ابن حمادوش... وعن غيرهم... لقد كتبت عن مدن الجزائر، وكتبت عن قضاياها: كتبت بفكر حر،

وما أروع الحرية في فكرك، لقد جسدت الحرية التي آمنت بها، بعد إيمانك بالله، جسدتها في كتبك: (منطلقات فكرية) و(هموم حضارية) و(حوارات) و(قضايا شائكة) و(أفكار جامحة). (ولقد جسدت حبك للجزائر في كتابة تاريخها في موسوعتك الأخرى الخالدة أيضا: موسوعة (أبحاث وأوراق في تاريخ الجزائر)، خمسة مجلدات تحتوي على عوالم التاريخ الجزائري، فكنت تضيف إليه كل ما يعز عليه من تاريخ الجزائر، لقد كتبت عن (الرحلة والرحالين) وكتبت عن رحلاتك أنت، كنت تحب الرحلة مثلما تحب الجزائر، ومثلما تحب أهم الجزائر، فأحب من عرفك من أهل بلادك، ومن العرب، ومن غير العرب، كنت متفتح الذهن فتعلمت اللغات الاجنبية عن كبر، ولكنك تعلمتها بكل إصرار.. تعلمت اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية والفارسية، لقد ترجم ماله علاقة بالجزائر من بعض تلك اللغات، ترجمتك وما أكثر ما ترجمت، عن أدب الجزائر، وعن تاريخ الجزائر، كنت محققا فحققت الكثير عن الكتب في الأدب وفي الرحلة وفي التاريخ، كنت تصحح المعلومة، وكنت تعلق بعقل نير.

وما أروع ما قلت بشأن اللغات الأجنبية، قلت من تعلم لغة قوم أمن شرهم.. وأضفت، ومن هو الأهم (صنفت أن (من تعلم لغة قوم نال خيرهم أيضا. (رحمك الله أيها العامل المعلم، والأستاذ والمتواضع الثائر في الآن نفسه. والخلاصة أن منهجك في الحياة الفانية (العمل الصالح) من أجل الجزائر وأهلها وحضارتها.

لقد رسمت منهاجك في العمل والبحث والتدريس والتأليف.. حين

قلت في مقدمك (الجزء الرابع) من كتابك (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وقلت : إن من أهم أهدافك في الحياة: (خدمة الجزائر، والإسلام، والعربية، والمعرفة الانسانية في أوسع معانيها.

محمد العيد تاورته
جامعة قسنطينة 1
في 16/ 12/ 2013م

59
ألبوم الصور



منسق الكتاب بمعية علي بوصبيع، محمد الهادي الحسني، سليمان جوادي وعبد الرزاق جلولي أمام ضريح شيخ المؤرخين في الذكرى الأربعين



منسق الكتاب رفقة شيخ المؤرخين في بسكرة ديسمبر 2006



منسق الكتاب مع الدكتور بشير مديني وإلى جانبه سعد لعمامرة بن عمي بشير أمام المسجد الذي درس فيه الدكتور سعد الله



الفهرس العام

